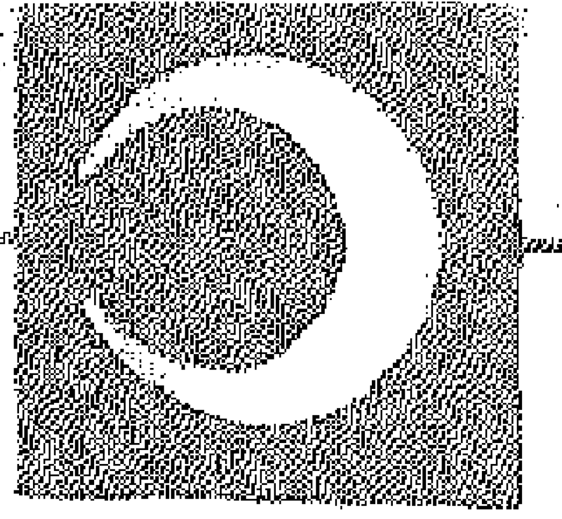


Bibliotheca Alexandrina
0136262

كتاب الهلال



سلسلة ثقافية شهرية

٤٥٦

أشعب أمير الطفيليين

توفيق الحكيم

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعى

رئيس التحرير : صالح جودت

سكرتير التحرير : عايد عباد

العدد ٢٥٦ ربيع الأول ١٣٩٢ مايو ١٩٧٢

No. 256 — Mai 1972

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ — فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية او ٢ جك — والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية — والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى — وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ••

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

توفيق الحكيم

أشعب

أمير الطفيليين

دار الهـــلال

مقدمة ..

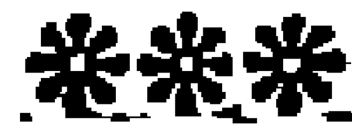
الادب العربى القديم من اعرق الآداب وابرعها فى رسم الاشخاص وتصوير الطبائع . وما من عجب فى ذلك ، فهذا الادب وليد حضارة ذكية خلاقة . انما العجب هو أن يبقى أكثر آثاره وكنوزه بعيدا عن متناول العالم الغربى الذى رشف من نبع الاغريق والرومان..

أغلب الظن ان علة ذلك ترجع الى اختلاف النظرة الى الجمال الفني عند العرب والغرب . فالعرب يرون الفن الاعلى فى الايجاز ، أى التركيز ، فى حين أن الغرب يرى الفن الاغنى فى الاطناب أى التحليل .. وكان من أثر الايجاز أن اكتفى العرب فى رسم شخصية أو تصوير طبع بنادرة تروى أو حادثة تذكر أو بيت من الشعر ينظم ، فيجدون فى ذلك متعتهم وبغيتهم .. بينما الغرب لا يكتفى باللمحة الخاطفة ولا تشبعه النادرة العابرة ، فهو يريد اللوحة الكاملة ذات الحوادث المتصلة ..

والنظرتان الى الفن صحيحتان. فللايجاز جماله وقوته .. وهو يفترض فى المتذوق له ذكاء وفطنة وتصورا وعلما ، فيبصر الكثير من خلال القليل ، ويلمح الصورة التامة من وراء الجزء المقتضب .. فن يبدعه

منشيء بارع لقارىء بارع .. يتباريان فى ميدانه ، منتضيين أسلحة متكافئة من الذوق والفهم ..

كما ان للتحليل ايضا مزاياه .. فهو يفترض فى المتذوق له خلو الذهن أو قصور الخيال .. فيرى من واجبه أن يعاونه ويكون فى خدمته ، وأن يحتال بالاسهاب والتفصيل ليعلم من لا يعلم .. فيجتذب من الناس عديدا ينشر فيهم دعوته ويبلغهم رسالته ..



لو استطعنا ان نوفق بين النظريتين ، ونجمع بين الفنين .. لكانت النتيجة أتم والفائدة أعم ..

وهذا ما اخذت به نفسى حين وضعت هذا الكتاب فى عام ١٩٣٨ فى ذلك الاطار الذى يظهرنا على صورة من المجتمع العربى فى ذلك العصر ، نكاد نلمس لها وشائج قربى بما نراه اليوم فى بعض أحياء مدننا وعادات مجتمعنا ..

فالمالك والمستأجر وما بينهما من علاقة .. والمنازل ومرافقها ، والسوق وحركتها ، والولائم ومراسمها ، والحمام وزبائنه ، والحلاق وطباعه .. كل تلك الصور عن الحياة الاجتماعية كما بدت من الادب العربى القديم ، قد راقتنى فيما راقنى من طبائع واشخاص رايت أن ابرزها الى جانب شخصية « اشعب » .. ذلك الراصد للموائد والطعوم كما يرصد الفلكى الكواكب والنجوم .. واشهد انى مارايت قط فى ادب من الآداب صورة لطفيلى ادق من صورته

.. فتتبعت آثاره وتنسمت أخبـاره ، وطفقت اجمـع نوادره من كتـب الاقـدمين .. وامزجهـا واخلطهـا وأطبخها .. على حد تعبيري فى بيان الطبعة الاولى .. اذ قلت يومئذ : « ما دمنا فى صدد المعـدة » ـ اعنى معدة أشعب ـ فلأبين للنـاس كيف طبخت لهم هـذا اللون من ألوان الادب . لقد استحضرت اللحم والبقل والتـوابل والابازير من حـوانيت أربعـة مشـاهير : « الجاحظ» و «ابن عبد ربه » و « الخطيب البغدادى » و « بديع الزمان » . فقد بهرني حقا وأسال لعابى ما وجدته لديهم من اللذائذ والطرائف . غير أني وجدت كل هذا مبعثرا ضمن بضاعتهم ، وملقى على غير نظام ، حتى وقع الملح على السكر . كما وجـدت أكثر هـذه الاشياء شائعة مكررة بنصها وتفصيلها عند الاربعة ، كل يضعها من حانوته نفس الوضع ، ويعرضـها عين العرض . فملأت يدى مما تخيرت من أطايبهـا وذهبت به الى « مطبخ » فنى ، حيث مزجته وخلطته وجعلت منه «عجينة» واحدة ، صنعت منها هذه القصة المتصلة الفصول . . .

توفيق الحكيم

أشعب وجاريته رشا ..

انتصف النهار ، وصاح مؤذن الظهر ، لا من مسجد ذلك الحى من أحياء « المدينة » ؛ لكن من بطن « اشعب » : أشهر الطفيليين فى عصره ، وأظرفهم حديثا ، واقبحهم وجها ، وأزراهم هيئة ، وأجملهم صوتا وأحذقهم فى فنون الغناء

وكان جالسا الى معشوقته « رشأ » من أول النهار، يحادثها ويضاحكها ويطارحها الغناء منشدا :

دموع عينى لها انبساط ونوم عينى به انقباض

وكانت الحسناء متكئة على فراش من ديباج أخضر ، فى دارها الصغيرة ، أمام بستان قد أزهر بنبت الربيع . فأجابته مترنمة ، والسحر والفتنة يكادان ينطقان فى عينيها :

هذا قليل لمن دهته بلحظها الاعين المراض

فتنهد العاشق ورفع عقيرته :

فهل لمولاتى عطف قلب أوللذى فىالحشا انقراض؟

فأجابته الجميلة فى ابتسامها الفاتن ، ولفظها العذب وصوتها الرخيم :

ان كنت تبغى الوداد منا فالود فى ديننا قراض

فتنهد اشعب هذه المرة تنهدا طويلا ، وأرسل بصره الى النـافذة ، ورای میل الشمس ، فتململ والتفت يمنة ويسرة ثم قال للحسناء صاحبة الدار :

ــ مالی لا أسمع للطعام ذكرا !؟

فتغير وجه الجميلة وقالت :

ــ سبحان الله ! اما تستحی یا شیخ ؟ اما فی وجهی من الحسن ما يشغلك عن هذا ؟ !

فسكت اشعب كالخجل . ثم جعل ينظر الى وجهها وعينيها متمسكا بأهداب الصبر والقناعة

فقالت له :

ــ امض فی غنائك ، فانك حسن الغنـاء . أسمعنی صوتا لم أسمعه من قبل . ما هو احسن الغناء عندك ؟

فأجاب أشعب بغير تردد :

ــ هو نشيش المقلى !

فقالت له فی شیء من الامتعاض والتأنيب :

ــ اهذا كلام يقال فی مثل هذا الموقف الذی نحن فيه ؟

ــ صدقت .. لقد كان يجمل بی ان اتحدث عن الحب الذی فی الحشا !

وأمسك بالعود مرة أخرى ..

فاسرعت الجارية تقول :

ــ نعم ، صف لی ما فی الحشا من الحب

فنظر اليها العاشق مليا وقال :

ــ وماذا كنت أصنع اذن منذ الصباح ؟

ــ زد فی الوصف

ــ وصف ماذا ؟ ..

ــ ما فى الحشا من الهوى

ــ من « الهوا » .. هــذا والله صحيح

ورفع العاشق عقيرته بالغناء :

اذا كان فى بطنى طعام ذكرتها
وان جعت يوما لم تكن لى على ذكر

ويزداد حبى ان شبعت تجددا
وان جعت غابت عن فؤادى وعن فكرى

***

ولم تر الجارية مع صاحبها هــذا حيلة ، فقامت تهيىء له الطعــام . ولم تمض ساعة حتى فاز أشعب بغيته الحقيقية ووضــع امامه الخوان . وكان هــذا العاشــق الولهان اذا اكل ذهب عقــله وجحظت عينه وسكر وسدر وانبهر ، وتربد وجهه ، ولم يسمع ولم يبصر . فتناول القصــعة وهى كجمجمة الثور فأخــذ بحضنها ، وما زال ينهشها طولا وعرضا ورفعا وخفضا ، لا يفصل تمرة قط عن تمرة ولا يرمى بنواة قط ولاينزع قمعا ولا ينفى عنه قشرا ولا يفتشــه مخافة السوس والدود . فلما رات صاحبته مايعتريه ومايعترى الطعام منه ، لم تزد على أن همست كالمخاطبة لنفسها :

ــ هــذا والله هو العشق !

ثم نظرت اليه ، وقد انتقــل الى الوان أخرى من الطعام جعل يخاطبها قبل أن يمد اليها يده :

ــ بارك الله فيك من « فالوذج » صــاف يقرأ نقش

الدرهم من تحتك ! بارك الله فيك من ثريدة ملساء كانها حد الحبيب ! بارك الله فيك من خبز رقاق كانها اذان الفيلة !

وهجم بيديه كانه طالب ثار، فابتدرته الجارية قائلة :

ـ أتحبنى ؟

فلم يجب ، ولم يلتفت اليها ، ولم يبد عليه أنه سمع منها شيئا . ومضى فى التهامه ومضغه . فتوسلت اليه أن يتكلم فصاح متبرما :

ـ أما سمعت قول من قال : « اذا كنت على مائدة فلا تتكلمن فى حال أكلك ، وان كلمك من لابد من جوابه فلا تجبه الا بقول نعم ، فان الكلام يشغل عن الاكل ، وقول « نعم » مضغة ..

فضحكت القينة ، ثم قالت :

ـ ولكنك لم تجبنى حتى بقول « نعم »

فنظر اليها وفمه ممتلىء نظرة من يسألها عما قالت ، فقد نسى ، فأجابت :

ـ سألتك « اتحبنى » ؟

فلم يلفظ حرفا ، وأين له الفم الذى يلفظ شيئا ؟

فسكتت الجارية لحظة ، ثم رات أن تحتال عليه وتحرجه فقالت :

ـ اتحب أبا بكر الصديق ؟

فبلع لقمة وشرب جرعة من ماء ، ونظر اليها نظرة المعتذر المشغول عن الجواب ، غير أنها مضت فى تضييق الخناق عليه :



ـ اتحب عمر بن الخطاب ؟

وصادفت العاشق فترة فراغ بين لقمة ولقمة ، فأجابها على عجل ويده مسرعة الى الخوان :

ـ ما ترك الطعام فى قلبى حبا لأحد !



قام أشعب عن الخوان الذى كان ، وهو يتجشأ ويقول لصاحبته :

ـ جعلت فداك ما اكرمك ؟! اذا كان غدا فاصنعى لى هريسة ، فأنت احذق بها

فقالت له باسمة :

ـ انك لشديد النسيان . أما تذكر أنك من إيام قد تشهيت على « هريسة » فبعثت بها اليك ؟

فصاح العاشق طربا :

ـ نعم .. فانى اتشهى عليك اذن « لوزينج » رق قشره واشتدت عذوبته ، غريقا فى سكر ودهن لوز .. يشد فؤاد الحزين ويرد نفس الشجين ، ابعثى لى به غدا أصلحك الله ، مع شيء من النبيذ وما يصلحه

فقالت :

ـ انسيت انى بعثت اليك منذ ليال هذا اللوزينج وهذا النبيذ !

فقال :

ـ اذن فانى أشتهى، حفظك الله وابقاك ، ثريدة دكناء من الفلفل ، رقطاء من الحمص ، ذات جناحين من اللحم فأضرب فيها كما يضرب الولى السوء فى مال اليتيم

فقالت كالمخاطبة لنفسها ، ساخرة :

ـ ابقاك الله وحفظك ، راينا الحب يكون فى القلب ، وحبك ليس يجاوز المعدة !

ـ لم اسمع منك ! ماذا قلت ؟

ـ لا شيء ! اخبرنى انت .. اين دارك ولماذا لم تدعنى يوما الى طعامك ؟

فنظر اليها أشعب نظرة الجزع والذعر :

ـ دارى ؟ أما علمت انى أسكن عند الكندى !

ـ ومن الكندى ؟

ـ هو أبخل أهل الارض طرا ، وهل يستطيع ساكن او جار أن يصنع طعاما دون أن يبعث الى صاحب الدار بطبق . انه لا يزال يقول للساكن وربما للجار : « ان فى الدار امراة حبلى ، وان الوحمى ربما اسقطت من ريح القدور الطيبة ، فاذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفة أو لعقة . فان لم تفعلوا ذلك بعد اعلامى اياكم فكفارتكم أن أسقطت غرة عبد او أمة » ، فكان بذلك ربما يوافى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الايام . فيأكل هو وعياله ويقول لهم : « أنتم أحسن حالا من أرباب هذه الضياع . فلكل بيت منهم لون واحد وعندكم ألوان » ، فهل تريدين أصلحك الله ، أن أدعوك الى دار مثل هذا الرجل ؟

فضحكت وقالت :

ـ أفقير هو ؟

ـ انه أغنى أهل المدينة !

فصمتت الجارية لحظة ، ثم نظرت الى أشعب مليا وقالت :

ـ ولكنى اريد ان اموت وآكل من طعامك !

فتفكر العاشق قليلا ثم أجاب :

ـ مهلا سيدتى .. سأدعوك ان شاء الله الى طعام وشراب وغناء ..

ـ متى ؟

ـ يوم يحين وقت ذلك

ثم أسرع فاستوى قائما ومد اليها يده مودعا ، فمدت اليه يدا صغيرة كأنها حلية من عاج ، فلمح فى اصبعها خاتما ، فاستبقى يدها فى يده وقال فى صوت يسيل رقة ولطفا :

ـ سيدتى جعلت فداك ! ناولينى هذا الخاتم الذى فى اصبعك لأذكرك به

فسحبت يدها فى رفق وتضاحكت فى خبث وقالت :

ـ انه ذهب واخاف ان تذهب

ثم اسرعت فالتقطت من الارض عودا يابسا سقط عن شجرة قرب النافذة واعطته اياه قائلة :

ـ ولكن خذ هذا العود لعلك تعود !

أشعب والكندي البخيل ..

جاء العصر واشعب يتسكع فى الاسواق الى أن انتهى به المطاف امام بستان من بساتين الـكندى . فوقفه وارسل بصره ، فوجد صاحبه جالسا تحت شجرة على ماء جار وسط خضرة ، وقد بسط بين يديه منديلا فيه لحم سكباج بارد وقطع جبن وزيتونات وصرة فيها ملح واخرى فيها أربع بيضات . فاقترب منه ومر به مسلما عليه . فرد الـكندى السلام قائلا :

ـ هلم عافاك الله

واذا أشعب أسرع من خطف البرق فى صحن السماء

قد انثنى راجعا يريد أن يعدى جدول الماء . فصاح به الـكندى وهو يأكل :

ـ مكانك . . فان العجلة من عمل الشيطان . .

فوقف اشعب مأخوذا . . . فسأله الـكندى :

ـ تريد ماذا ؟

فأجاب اشعب :

ـ أتريد أن اتغدى . .؟!

فحملق فيه الكندى قائلا :

ـ ولم ذلك ؟ وكيف طمعت فى هذا ؟ ومن أباح لك مالى ؟

فقال اشعب :

ـ أو لست قد دعوتنى ؟

فأجاب الكندى :

ـ ويلك ! لو ظننت انك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام . ماذا كان بيننا غير سلام ورد سلام ، أى كلام بكلام ، ولكنك تريد ان يكون كلام بفعال . وقول باكل ، فهذا ليس من الانصاف

وازدرد الرجل بيضة مما بين يديه . وجعل اشعب ينظر اليه لحظة ثم قال له :

ـ لقد رأيتك تأكل وحدك

فبلع الكندى ريقه ثم قال :

ـ ليس على فى هذا الموضع مسألة . انما المسألة على من أكل مع الجماعة ، لان ذلك هو التكلف . وأكلى وحدى هو الاصل . وأكلى مع غيرى زيادة فى الاصل . واذا كانت الوحدة خيراً من جليس السوء . فان جليس السوء خير من أكيل السوء . لان كل أكيل جليس . وليس كل جليس أكيلا !

فقال اشعب متخابثا :

ـ انما أردت أن اؤاكلك لاسخيك وأنفى عنك اسم البخل ..

فأجاب الكندى وهو يلقى فى حلقه زيتونة :

ـ لا أعدمنى الله هذا الاسم .. فانه لا يقال فلان بخيل الا وهو ذو مال ، فسلم الى المال وادعنى بأى اسم شئت .

فقال اشعب :

ــ ولا يقال ايضا فلان سخي الا وهو ذو مال . فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال ، اما اسم البخل فقد جمع المال والذم . فأنت قد اخترت اخسهما واوضعهما

فقال الكندى :

ــ بينهما فرق ..

فقال أشعب :

ــ ما هو ؟ ..

فأجاب الكندى :

ــ فى قولهم بخيل تثبيت لاقامة المال فى ملكه . وفى قولهم سخى اخبار عن خروج المال من ملكه . فالبخل اسم فيه ذم ولكن فيه حفظا ، والسخاء اسم فيه حمد ولكن فيه تضييعا . والمال حقيقة ومنفعة وحيازته قوة ، اما الحمد فهو ريح وسخرية والاستماع له ضعف ! وماذا ينفع الحمد اذا جاع البطن وعرى الجلد وضاع العيال وشمت الحساد ؟ !

وظل يأكل ، واشعب ينظر اليه ، حانقا فى دخيلة نفسه على هذا اللؤم ، الذى لا تنفع فيه حيلة . غير أنه تلطف له ودنا منه قائلا :

ــ وما عليك لو جلست اليك ساعة اغنيك حتى تطرب واضحكك حتى يزول عنك هذا القطوب

فصاح الكندى :

ــ لا اريد أن أطرب الساعة ولا أن اضحك

ــ وماذا يمنعك من ذلك ؟

يمنعني منه أن الانسان أقرب ما يكون من البذل والعطاء اذا طرب وضحك.

فأسقط في يد أشعب ولم يدر من أي مدخل يدخل الى هذا الرجل ، وهو كلما فتح له بابا أغلقه . ولم يقنط أشعب من ذلك . وخطر له خاطر أعجبه. فأسرع يقول لصاحبه :

ـ لقد ظفرت لك بساكن جديد ، رضي أن ينزل دارك الخالية وقبل دفع الاجر وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط . . .

فأبرقت أسرة الرجل ووضع اللقمة من يده وقال :

ـ وأين هو .. عافاك الله ؟

ـ اذا رأيت أن ادعوه . . .

ـ متى ؟

ـ الليلة الى عشائك

ـ عشائي !

وعاد الى قطوبه ، فأراد أشعب أن يهون عليه الخطب فقال له :

ـ لا تتكلف شيئا لهذا الضيف ؛ انه يرضى بما حضر

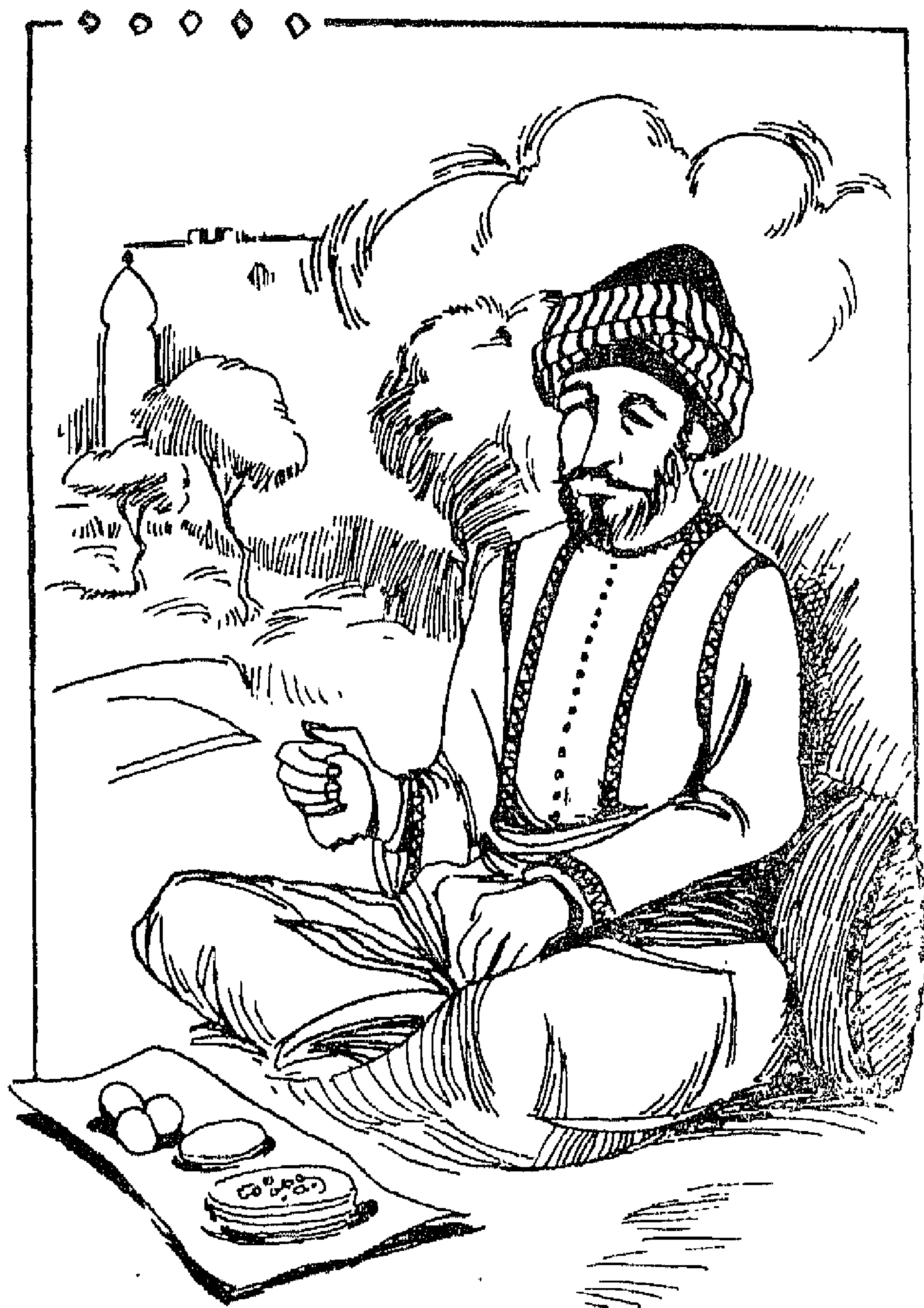
فأسرع الكندي يقول :

ـ ليس يحضر شيء ، وقولك « بما حضر » معناه انه لابد من أن يقع على شيء

فقال اشعب :

ـ قطعة مالح . . .

ـ وقطعة مالح أليست هي شيئا ؟



ـ نكتفي بالشرب اذن على الريق

ـ لو كان عندنا نبيذ كنا فى عرس

ـ انا احضر النبيذ

فقال الكندى على الفور :

ـ اذا صرت الى احضار النبيذ فاحضر ايضا ما يصلح للنبيذ ..

فقال اشعب :

ـ ليس يمنعنى والله من ذلك ومن احضار النقل والريحان الا ان احسب انا صاحب الدعوة وليس يجوز ذلك ، الا أن يكون لك فيها أثر

ففكر الكندى لحظة ، ثم صاح كمن وجد الفرج :

ـ لقد انفتح لى باب : لكم فيه صلاح وليس على فيه فساد

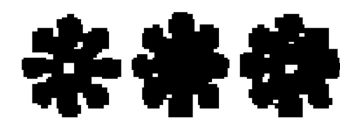
والتفت الى نخلة عالية ملساء كأنها ثعبان قائمة فى طرف من أطراف البستان وقال :

ـ فى هذه النخلة زوج يمام ولهما فرخان مدركان ، وان نحن وجدنا انسانا يصعدها . ولم يطيرا ، فهما قد صارا ناهضين ، جعلنا الواحد « طباهجة » والآخر « كردجا » فكان نعم العشاء ، فهل لك يا أشعب فى صعود هذه النخلة ؟

فنظر اشعب الى النخلة وقد كاد رأسها يمس السحاب ، وصاح :

ـ هذه لا تصعد ولا يرتقى عليها الا اذا كان اليوم آخر عمرى ، وأردت من ذلك دك عنقى ، اللهم اغننى

عنك وعن طعامك يا شيخ !



وأراد أن ينصرف يائسا ، ولكنه فكر فى أمر عشائه وليس فى المدينة الليلة وليمة ولا عرس ينسل اليه ، فعاد ينظر الى النخلة ، فرأى مرة أخرى أن علوها الشاهق يملأ النفس رعبا ، وأدرك أن صعودها لا يقدم عليه الا من طلب الموت ، فأخبر الكندى أن يعفيه وأن يطلب فى الجيران انسانا يصعدها ، فسألوا الجيران فلم يقبل أحد أن يفعل ذلك ، ودلهم بعض الناس آخر الامر على أكار تلك حرفته ، فما زال الرسول يطلبه حتى وقع عليه ، فلما جاء ونظر الى النخلة تردد هو أيضا ، فما زالوا به يشجعونه ويغرونه حتى استخار الله وارتقى النخلة ، فلما صار فى أعلاها طار أحد الفرخين ، فأنزل الآخر وسلمه الى الكندى ، ووقف يتصبب عرقا فى انتظار الاجر ، فأخرج الكندى « فلسا » وضعه فى يد الاكار فنظر فيه مليا ثم أراه للحاضرين من الجيران والمشاهدين ، فقالوا جميعا :

ـ فلسا بعد هذا الجهد كله ، وهو غنى ! .. لو كان أعطى درهما على الاقل ، انه ذو مال !

فالتفت اليهم الكندى صائحا :

ـ إننى لم اجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم !

واشاح بوجهه عنهم والتفت الى أشعب قائلا :

ـ الآن قد ظفرنا بالعشاء ، فابعث لنا فى طلب صاحبك الساكن الجديد

فنظر أشعب اليه شذرا :

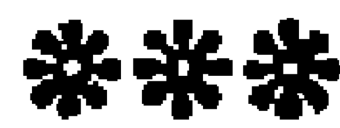
ـ فرخ يمام واحد ، هو «الطباهج» و «الكردناج» وهو كل العشاء ؟ !

ففكر الـكندى لحظة ثم قال :

ـ انتظر ، لا تبرح .

وأشــار الى الاكار الواقف يتميز غيظـا ، فترضاه واغراه وذهب به وغبرا مليـا ، ثم عادا يحملان أرزا بقشره ، وليس معهما شيء مما خلق الله الا ذلك الارز. فلما صار الكندى الى بستانه كلف الاكار أن يجشه فى مجشة له ، ثم ذراه ، ثم غربله ، ثم جش الواش منه . الى أن فرغ الاكار من ذلك كله فكلفه الكندى أن يطحنه على ثوره وفى رحاه . حتى فرغ من طحنه . فكلفه أن يغلى له الماء وأن يحتطب له وأن يعجنه بالماء الحار لانه به أكثر نزلا ، ثم كلف الاكار أن يخبزه . ثم طلب الى أشعب وبعض الحاضرين من صبية الجيران أن ينصبوا له فى الجدول الشصوص وأن يسـكروا الدرياجة على صـفار السـمك كى لا تدخـل فى السـواقى ، وأن يدخلوا أيديهم فى حجرة الشـلابى ، حتى يصيبوا من السمك شيئا يجعل كبابا على نار الخبز تحت الطابق فلا يحتاج من الحطب الى كثير . فما زال أشعب منذ ذلك العصر الى الليل فى كد وجوع وانتظار الى أن أذن الله بالفرج وفرغ من اداء نصيبه من العمل ، وجاء الخبر من بيت الكندى أن اليمامة التى كان قد بعث بها لتطبخ «طباهجا» قد نضجت ، فصاح الكندى صيحة الظافر:

ـ يا اشعب ! هلموا الى عشائى ، وهنيئا مريئا لكم طعامى . فاحضر صاحبك الى دارى تجدوا الخوان قد نصب كأنه ايوان كسرى وعرش هرقل !



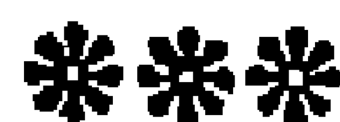
جرى اشعب الى صديق له من طرازه يدعى «بنان» فقص عليه الامر وتوسل اليه أن يأتى معه الى دار الكندى فيظهر له أنه الساكن المنتظر حتى يبرأ أشعب من وعده .. فاذا انتهى العشاء ، وعاين الصديق الدار كان له أن يتعلل ويتمنع ويبدى الرفض ويطلب الفسخ ، ولم يكن عند « بنان » فى تلك الليلة ما يتعشى به هو أيضا . فما علم أن العشاء مضمون حتى خرج من داره الخالية لوقته مع أشعب .. وسارا فى الطريق فأوصاه أشعب أن يفهم الكندى أول الامر انه قابل الكراء وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط

فالتفت « بنان » الى صاحبه قائلا :

ـ قد فهمت دفع الكراء وقضاء الحوائج فما معنى الوفاء بالشرط ؟

فأجاب أشعب :

ـ فى شرطه على السكان أن يكون له روث الدابة ، وبعر الشاة ، ونشوار العلوفة ، وأن لايخرجوا عظما ولا يخرجوا كساحة ، وأن يكون له نوى التمر وقشور الرمان ، وغرفة من كل طبخة لمن يزعم أنها حبلى فى بيته .



أقبل الضيفان على دار الكندى فالفياه قد أعد

الخوان وجلس فى انتظارهما يتلمظ ويقول :

ومن البلية فى الموائد ان يرى
قوم جيـاع فى انتظار القـادم

فقعـد أشعب من الفور أمام الطعام واجلس زميله جواره وهو يقول :

سواء علينا أقدموا أم تأخروا
نوافى مع الطباخ سـاعة يفرف

واشار الى صاحبه « بنان » بعد أن غمزه بكوعه :

ــ لقد انتظرت صاحبى هذا انتظار الآكل للشبع !

فقال الـكندى :

ــ انتظرته اذن قليلا ؟

فأجاب بنان على الفور :

ــ نعم ، لقد انتظرنى مقدار ما يأكل انسان رغيفا !

وتناول الخبز . فقال الـكندى : لقد انتظرك اذن طويلا

ولم يلتفت الضيفان الى صـاحب الدار ولم يجيباه بعد ذلك . واشعب وبنان اذا تقابلا على خوان لم يكن لأحد معهما حظ فى الطيبات ، فما جاءت القصعة فيها الثريدة كهيئة الصومعة مكللة بتلك اليمامة المعهودة ، حتى أخذ أشعب الذى يستقبله ثم أخذ ما عن يمينه واخذ ما بين يدى صاحب الدار ثم مال على جانبه الايسر نصنع مثل ذلك ، وعارضه زميله بنان وحاكاه ..

فلما أن نظر الكندى الى الثريدة مكشوفةالقناعمسلوبة عارية ، والفرخ كله بين يدى أشعب وزميله الا قطعة

جناح صفيرة بين يديه ، تناولها فوضعها أمام الضيف الجديد واحتسب بها فى سبيل الكرامة والبر والضيافة ، وهو يتميز ويقول ليخفى غيظه الكظيم :

ـ قالت الحكماء : « عليكم بشرب الماء على الفداء » فلو شرب الناس الماء على الطعام ما اتخموا . وذلك ان الرجل لا يعرف مقدار ما اكل حتى ينال من الماء ، وربما كان شبعان وهو لا يدرى ..

فقال بنان :

ـ شبعان ! والله نحن انما نسمع بالشبع سماعا من أفواه الناس ! ثم مد يده الى الخبز . ففمزه أشعب هامسا :

ـ تمهل وتحشم ، حتى لا يفطن الينا ويفر منا .. انت لا تعرفه ، لأن يطعن طاعن فى الاسلام أهون عليه من ان يطعن فى الرغيف الثانى !

فسحب بنان يده ، وهو يهمس فى اذن اشعب :

ـ أو يريد أن يكون بين الرغيف والرغيف فترة نبى؟

ولحظهما الكندى وظن انهما يتساران فى أمر الخبز ويستصغران حجمه .. فأمسك برغيف ورطله فى يده وقال :

ـ يقولون ان خبزى صفير ! فمن الزانى ابن الزانية الذى يستطيع أكل رغيفين منه !

فبهت بنان ، وأراد أن يفتح فاه ، واذا بالباب قد فتح عليهم ودخل جار للكندى ، قرأ الجميع السلام وهم يأكلون فردوا عليه ، ولم يعرض الكندى عليه

الطعام ، فاستحيا أشعب من الرجل وهو جاره فى السكن ، فما تمالك أن قال له :

ـ سبحان الله ! لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل

فتأدب الرجل وقال حياء :

ـ قد والله فعلت

فأسرع الكندى يقول :

ـ ما بعد القسم بالله شيء

فكتف الرجل بذلك كتفا لا يستطيع معه قبضا ولا بسطا ، وتركه فى مكانه لا يريم . ولو مد الرجل يده بعد ذلك وأكل لشهد عليه بالكفر . ورأى الرجل دقة موقفه فتحرك منصرفا خجلا. فرق له أشعب وقال له :

ـ أين تريد ؟

فقال الرجل :

ـ الى منزلى اتوضأ

فقال له اشعب :

ـ ولماذا لا تتوضأ ها هنا ؟ فان الكنيف خال نظيف ، والغلام فارغ نشيط ، وليس من الكندى حشمة ، ومنزله منزل اخوانه .

فدخل الرجل فتوضأ . والكندى ينفخ من الغيظ ،

ولحظه اشعب فقال له :

ـ هون عليك . انما كل بغيتى أن أسخيك وانفى عنك التبخيل وسوء الظن

فقال الكندى :

ـ فهمنا أن تدعو الناس الى غدائى لتسخينى ، ولكن

لا أفهم أن تدعوهم ليخرءوا عندى !

وعاذ الرجل فجلس عن كثب واخرج من جيبه رقعة قدمها الى الـكندى قائلا :

ـ جاءتنى رقعتك اليوم وفيهـا أنك تزيد على اجر الدار خمستين ، لأن ابن عمى ومعه ابن له قد نزلا على ضيفين !

فأجاب الـكندى على الفور :

ـ نعم ، اذا كان مقام هذين القادمين ليلة أو ليلتين احتملنا ذلك ، وان كان أطماع السكان فى الليلة الواحدة يجر علينا الطمع فى ليال كثيرة

فقال الرجل :

ـ ليس مقامهما عندنا الا شهرا او نحوه

فقال الـكندى :

ـ ان دارك بثلاثين درهما وانتم ستة ، اى لكل راس خمسـة ، فأما وقـد زدتم راسـين فلا بد من زيادة خمستين . فالدار عليك من يومك هذا بأربعين

فقال الساكن متعجبا :

ـ وما يضرك من مقامهما وثقل أبدانهما على الارض التى تحمل الجبال ؟ ان ثقل مؤنتهما على انا دونك . ما هو اذن عذرك لأعرفه ؟

فترك الـكندى الأكل واتجه الى ساكنه قائلا :

ـ عذرى واضح كالنهار . والخصال التى تدعو الى ذلك كثيرة . وهى قائمة معروفة : من ذلك سرعة امتلاء البالوعة وما فى تنقيتها من شدة المؤونة . ومن ذلك ان

الاقدام اذا كثرت ، كثر المشي على ظهور السطوح ، والصعود على الدرج ، فينقشر الجص وينكسر العتب ، واذا كثر الدخول والخروج والفتح والاغلاق وجذب الاقفال ، تهشمت الابواب وتقلعت الرزات . فساكن الدار هو المتمتع بها والمنتفع بمرافقها وهو الذى يبلى جدتها ويذهب عمرها بسوء تدبيره ، وانه ينسى أن المالك ما أسكن داره الا بعد أن كسحها ونظفها لتحسن فى عين المستأجر ، فاذا خرج هو ترك فيها مزبلة وخرابا لا تصلحه الا النفقة الموجعة ، ثم لا يدع بعد ذلك مترسا الا سرقه ، ولا سلما الا حمله ، واذا أراد الدق فى الهاون ترك الصخرة المجعولة لذلك ودق على الاجذاع حيث جلس تهاونا وقسوة وغشا . هذا فضلا عما يحدثه من الشغب مع الجيران والتعرض لهم واصطياد طيورهم وتعريضنا لشكايتهم . فاذا أردنا أن نجعل الغرم بالغنم، وان نطلب بضعة دراهم لاصلاح الفساد المنتظر سمعنا عبارات الاحتجاج وطولبنا بابداء الاعذار والاسباب !

وسكت الكندى فجأة ، فقد حانت منه التفاتة الى الضيفين ، فوجدهما قد انتهزا فرصة اشتغاله بالكلام وامعنا هما فى محو أثر الخبز والسمك ؛ الا «شبوطة» كان قد نجح فى وضعها بين يديه ، وكان قد أكبر أمرها لسمنها وكبزها ولشدة شهوته لها ، وكان قد ظن عند نفسه أنه قد خلا بها وتفرد بأطايبها ، فما كاد يحسر عن ذراعيه ويصمد لها حتى هجمت يد اشعب عليها ، فلما راى هذه اليد فى السمكة رأى الموت الاحمر والطاعون

الجارف وايقن بالشر وعلم انه قد ابتـلى ، ولم يلبث أشعب حتى قبض على قفا الشـبوطة فانتزع الجانبين جميعا واكتسح ما على الوجهين . فلما أكل أشعب جميع أطايبها وبقي الـكندى فى النظارة ، ولم يبق فى يده مما كان يأمله فى تلك السمكة الا الغيظ الشديد ، بينما هو يرى أشـعب يفرى الفرى ويلتهم التهاما صـاح به :
ـ حسبك حتى لا يقتلك الطعام !

فأجاب اشعب وفمه ممتلىء :

ـ اذا كان الاجل موقوتا ، فلأن أموت شـبعا أحب الى من ان أموت جوعا !

وقنـط الـكندى من الاكل مع هـذين الرجلين ، فانصرف الى الحديث مع جاره الساكن واتفق معه على الزيادة فى الـكراء كما طلب ، وشيعه الى الباب ثم عاد الى الضيفين فوجدهما قد قاما عن المائدة ولم يبق عليها شيء يؤكل . وبنان يتجشأ ويقول :

ـ لعن الله « القـدرية » .. من كان يستطيـع أن يصرفني عن أكل هذا الطعام ، وقد كان فى اللوح المحفوظ أني سآكله !

فكظم الـكندى غيظه وقال فى نفسه :

ـ تعال غدا فان وجدت شيئا فالعن « القـدرية » والعن آباءهم وأمهاتهم !

وجلس الضيفان بعد ان غسـلا ايديهما يتخللان من الطعام ، وهما على خير ما يكون الانسان راحة وهناء . وجعل الـكندى ينظر الى خوانه منتهك الحرمة ، عليه

بقايا العظام والاشواك كأنها جثث القتلى بعد المعركة ، فساورته الهموم وتحركت فيه غريزة البخل ، وشعر بالكرب والغم . فما تمالك نفسه ، وأقبل عليهما يقول فى نبرة المتوسل :

ــ أسألكما بالله الذى لا شىء أعظم منه ، أنا الساعة أيسر واغنى ، أو قبل أن تأكلوا طعامى ؟

فقالا معا :

ــ ما نشك انك حين كنت والطعام فى ملكك كنت اغنى وأيسر

قال :

ــ فأنا الساعة أقرب الى الفقر أم تلك الساعة ؟

قالا :

ــ بل انت الساعة اقرب الى الفقر

فلم يحتمل الكارثة ، وصاح فى نبرة ألم وندم وغضب :

ــ آه ! من ذا الذى يلومنى اذن على ترك دعوة قوم قربونى من الفقر وباعدونى من الغنى ، وكلما دعوتهم أكثر كنت من الفقر أقرب ؟ !

فرأى أشعب الخطر والضرر كله فى ترك هذا الرجل على هذه العقيدة فأسرع يقول له :

ــ ولكن قد فاتك أمر : انك الليلة انما تنفق اليسير لتجنى الكثير . ما هذا الطعام القليل النفقة الخفيف المؤونة الى جانب ما سوف تتقاضاه من هذا الساكن الجديد كراء لدارك الخالية ؟ أما كنت تقول الساعة ان

الغرم بالغنم ؟ ! .. فأنت والله فى آخر الامر الغانم الرابح !

فتفكر الكندى لحظة وبدا عليه الاقتناع ، فاطمأن فى الحال قلبه وانفرجت اساريره وضحك للمرة الاولى ضحكة الارتياح .. وقال :

ـ اذن فادع لى !

فرفع أشعب يديه الى السماء وقال :

ـ من الله عليك بصحة الجسم وبسطة اليد وسعة الصدر وكثرة الاكل ونقاء المعدة ، وامتعك بضرس طحون ومعدة هضوم ، مع السعة والدعة والامن والعافية ! .. هذه دعوة مغفول عنها !

جعل أشعب وبنان يدللان الكندى ويفكهانه ولم يشكا انه سيدعو اليهما تلك الليلة بنبيذ فيملآن بينه الى الفجر نزهة ونشوة ، ولكن الكندى جعل يتغافل ويتناوم . فلمح له أشعب بما يصبو اليه قائلا :

ـ ان المجلس والله .. ليس فيه غناء ولا نبيذ فهو كالبيت الخرب !

فلم يسمع لكلامه صدى . وطال تغافل الكندى فلم يجد أشعب بدا من التصريح . فاقبل عليه يقول :

ـ اجعلها مرة ليس لها أخت . ودعوة لن تعود الى مثلها ! . واضحك واطرب ليلة فى العمر بقليل من نبيذ !

ولما بلغ منه ومنهما المجهود ورأى الكندى انهما مقيمان مصران ، غير منصرفين قبل أن يظفرا منه بما طمعا فيه ، قام فأحضر لهما قربة نبيذ مع اكواب

ووضعها بين يدى أشعب وقال له :

ــ الآن غن واطربنى والامر الله !

فانقض أشعب وبنان على الكؤوس . وشرب بنان شرب العطشان الصادى . وأفرغ أشعب كأسه فى جوفه وهو يرفع عقيرته منشدا :

امدح الكأس ومن ابدعها
واهج قوما قتلونا بالعطش
انما الكأس ربيع باكر
فاذا ما لم نذقها لم نعش

فطرب الكندى للصوت ولكنه قال كالمخاطب نفسه :

ــ والله ما قتلوكم بالعطش . ولكنكم أنتم قتلتم انفسكم بالشره

ومَلأ كأسه وقال : غن أيها المغنى !

فملأ اشعب كأسه وصاح بصوته الجميل :

لا تحفلن بقول اللائم اللاحى
وأشرب على الورد من مشمولة الراح
كأسا اذا انحدرت فى حلق شاربها
أغناك لألاؤها عن كل مصباح

فصاح الكندى من الطرب صيحة مدوية دهت الضيفين . وافرغ فى حلقه كأسا أخرى وهو يقول :

اسقنى حتى ترانى مائلا
وترى عمران دينى قد خرب

وسكر الكندى . وامعن أشعب فى الغناء :

ما زلت آخذ روح الدن من لطف
واستبيح دما من غير مجروح
حتى انثنيت ولى روحان فى جسدى
والدن مطرح جسم بلا رُوح

فطرب الكندى ولم يدر مايصنع من شدة الطرب ، فشق قميصه وقال لأشعب :

ــ افعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسى ..

فنظر اليه اشعب دهشا .. فصاح الكندى :

ــ ويلك ، شق ايضا انت قميصك !

فقال اشعب جزعا :

ــ أصلحك الله ! اتريد أن اشقه وليس لى غيره !

فقال الكندى : « شقه وانا اكسوك غدا »

فأجاب أشعب : « فأنا اذن أشقه غدا »

فقال الكندى : « وانا ماذا اصنع بشقك غدا ؟ »

فقال أشعب : « وأنا ماذا ارجو من شقه الساعة ؟»

ولبثا فى ذلك وقتا يتساومان ، وبنان ينظر اليهما ويعجب وأخيرا صاح فى الكندى :

ــ ما كل هذا ؟ انى لم أسمع قط بانسان يحاور ويناظر فى الوقت الذى انما يشق فيه القميص من غلبة الطرب ! اذا كنت قد طربت الآن حقا ، فاكسه الآن القميص !

وهزت الكندى نشوة الخمر ونخوة الوهم ، فى غفلة من غريزته النائمة فقام يتعثر الى قميص جديد عنده فأتى به وكساه أشعب . فلما صار القميص على أشعب ،

خاف البـدوات ، وعلم أن ذلك من هفوات السكر ، فتحين الفرص ، وأوهم الكندى أنه ذاهب لقضاء حاجة ثم مضى توا الى منزله بالقميص فجعله « برشكانا » لامرأته . .

ومضى من الليل أكثره وركب النوم الكندى وبنان ، وهما ما برحا فى انتظار عودة المطرب . فانطرح بنان على الارض جاعلا فراشه البساط ومرفقته يده ، ولم يكن فى المكان غير مرفقة ومخدة . فأراد الكندى اكرام ضيفه فأخذ المخدة فرمى بها الى بنان فأباها وردها عليه .

وأبى الـكندى ، وأبى هو . ولبثـا هكذا يتطـارحان التأدب ويتقارضان المجاملة فى لســان متلعثم وجـذع متمايل . الى أن صاح صاحب البيت آخر الامر :

ـ سبحان‌الله ! كيف يكون ان تتوسدمرفقك وعندى فضل مخدة ؟ !

فأذعن بنان واخذها فوضعها تحت خده . ومر بعض الليل دون أن يغرق بنان فى النوم ليبس الفراش ورداءة الموضع . وظن الـكندى أن الضـيف قد نام . فجاء قليلا قليلا حتى سل المخدة من تحت رأسه . فلما رآه بنان قد مضى بها ضحك وقال : قد كنت عن هذا غنيا !

فارتبك الكندى وقال : « انما جئت لأسوي راسك»

فقال بنان : « انى لم اكلمك حتى ولیت بالمخدة »

فأجاب الـكندى : « كنت لهذا جئت ، فلما صارت المخدة فى يدى ، نسيت ماجئت له ، والنبيذ ما علمت والله يذهب بالحفظ اجمع ! »

وأراد الـكندى ان يرد عليه المخدة . فأبى بنان ، فألح وألح . وعادت المناظرة والمحاورة والمطارحة من جديد . فلم يخلصهما منها الا غلبة النوم الثقيـل فى الهزيع الاخير من الليل . فانطرحا كأنهما حجران والمخدة عن كثب منهما منطرحة منفردة وحيدة

وطلع النهار واحس بنان ضرب الشمس فى وجهـه فنهض ونظر حوله مذعورا ، فأدرك ما كان فيه . ورأى الـكندي ممددا يغط على مقربة منه فأسرع الى نعله فحمله فى يديه وانطلق الى الطريق قبل أن يستيقظ ..

وعلا النهار .. واقبل بعض أهل البيت ينقرون على باب الحجرة فصحا الـكندى، وفرك عينيه وألقى نظرة على المكان فهم منها كل شيء ، فبحث عن الضيفين فلم يجدهما ، فصاح صيحة منكرة ووضع نعله فى قدميه وانطلق الى مسكن اشعب فدق عليه الباب ، فخرج له فقال له :

ــ أين الساكن ؟

ــ لقد تركته بين يديك فانت الذى تسأل عنه

ــ وأين القميص ؟

ــ انك قد وهبتنى اياه ..

ففال الـكندى فى رفق مصطنع :

ــ أما علمت انهبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ؟ وبعد فانى أكره الا يكون لى حمد ولا شكر ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر فرد على القميص حتى أهبه لك صاحيا عن طيب نفس . فانى

لا أحب أن يذهب شيء من مالى باطلا

فلم يتحرك أشعب لهذا القول . وعلم الكندى ان مغنيه ونديمه ومستأجره لا تنطلى عليه هذه الحجج . فأقبل عليه يقول متلطفا :

ـ يا أشعب ، ان الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشيء فرد القميص عافاك الله !

فقال أشعب مبتسما : « انى والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبى الى الارض حتى جئت به لامرأتى ، وقد زدت فى الكمين وحذفت المقاديم ، فان أردت بعد هذا كله ان تأخذه فخذه »

فقال الكندى على الفور :

ـ نعم آخذه ، لانه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك

ومد ذراعه . فقال اشعب : « انه عند الصباغ » فقال الكندى : « هاته » .

ـ ليس انا اسلمته اليه

فعلم الكندى انه قد وقع ، والا حيلة له ولا منفذ ولا أمل ولارجاء ، فقال فى زفرة حارة من كبد محروقة :

ـ بأبى وأمى ، صدق رسول الله حيث يقول : « جمع الشر كله فى بيت وأغلق عليه ، فكان مفتاحه : السكر ! »

أشعب وبنان ..

ما وافى عصر ذلك اليوم حتى جاء أشعب رسـول يحمل رقعة من القينة الجميلة تستنجزه فيهاالوعد ، وتخبره أنها راحلة فى الغد الى شـأن من شئونها فى الكوفة ، وتعرض له فى ختامها بجفاء قلبه وزيف وده وتبدى له ريبتها فيما يظهره لها من الوجد . فلم يدر أشعب ما يفعل ولا كيف يجيب . فأمسك آخر الامر بالرقعة وكتب فى ذيلها :

انا والله أهواك ولكن ليس لى نفقه
فأما كنت تهوينى فقدحلت لى الصدقه

فذهب الرسـول بهـذا الرد الى الجارية ، وخرج أشـعب الى الطريق يسـتنشق الهواء ويفكر فى أمر العشاء ، واذا العشيقة قد أقبلت بعد قليل ، فما كاد يراها حتى وقف فى مكانه حائرا لا حراك به

فسلمت عليه وقالت :

ـ لا تخش شيئا . انما أتيت لأودعك قبـل رحيلى غدا . والله لولا اشتغالى اليوم باعداد حوائجى ومتاعى واخلاء دارى لوافيتك بما تشهيت على من تلك الاطعمة التى يحبها قلبك وتهيم بها معدتك !

فقال لها :

ــ وماذا انت صانعة فى الكوفة ؟ اذاهبة للغناء ؟

فقالت : « نعم ، انك فيما اظن قد رضيتنى حذاقة به ومعرفة »

فقال : « نعم ، ولكن اختلفى أيضا الى مجمع مولى الزبير فانه حسن الغناء ، فاعلقى من غنائه أصواتا عشرة . فانك والله لخليقة أن تفتنى الناسك وتخرجيه من صومعته ساجدا لك » . فقالت :

ــ كنت أود أن اتزود منك الليلة بصوت او صوتين

فسقط فى يد أشعب . وارتبك واشتدت حيرته فلم ير ما يصنع . وتفكر لحظة ، ثم قال فى نفسه : « ما لى الا منزل بنان ! » ، ونظر اليها ثم قال : « اتبعينى ! »

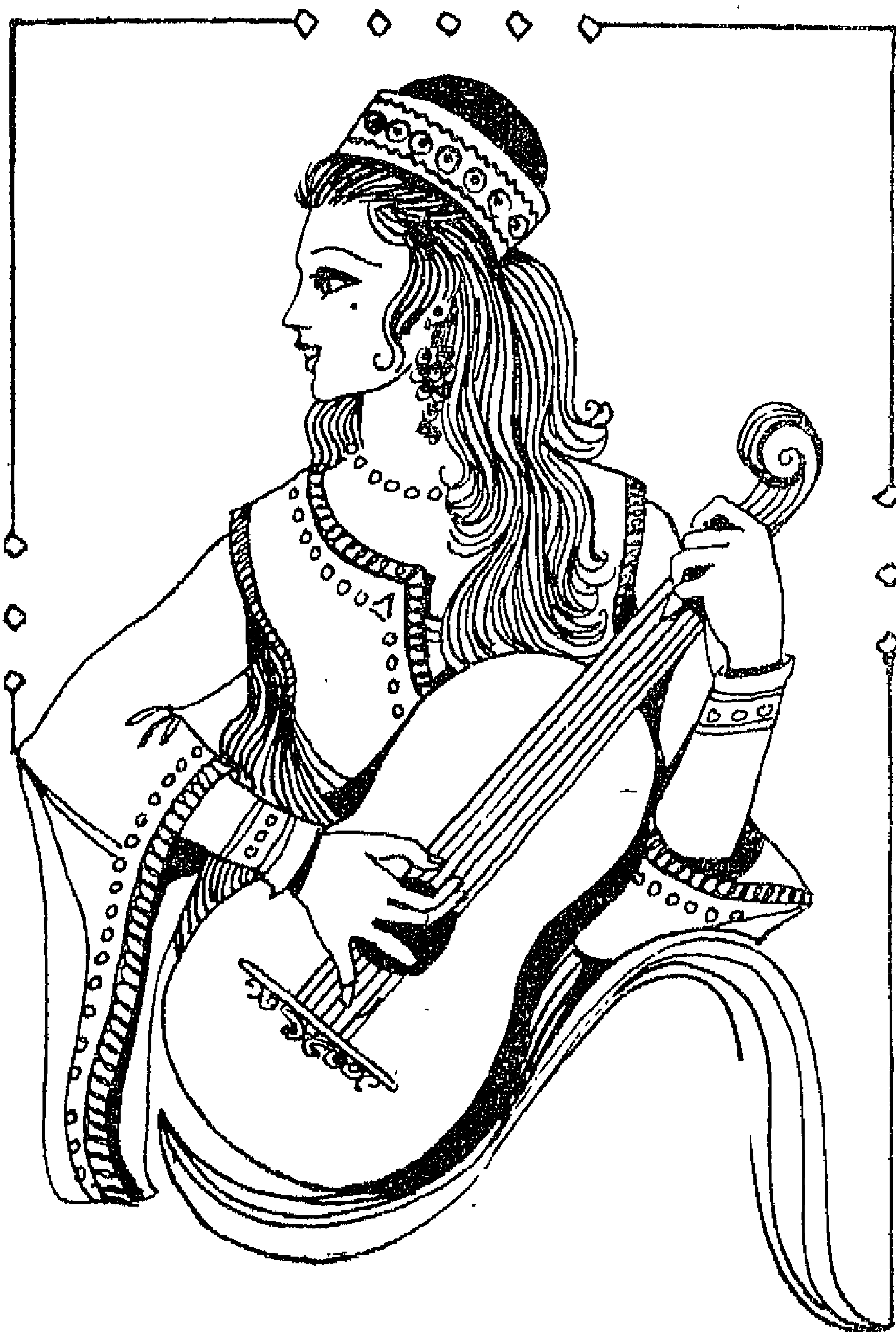
وسار وهو يقلب الامر على وجوهه ، انه لا يجهل ان وقوع طفيلى على طفيلى لا يجوز ، ولكن وجود الحسناء معه فيه العذر والحجة ، وقد يرق بنان لجمالها فيتسع صدره وتنبسط يده ويوفى الضيافة حقها . واقتربا من الباب . فاستوقفها ، ثم ذهب فنادى رفيقه فخرج أليه فقال همسا :

ــ أكمل الخير ! معى وجه صبيح ، يعدل الدنيا بما فيها ، وقد حصل على ضيقة وعسر واملاق

فقال بنان على الفور :

ــ قد شكوت انت والله مما كدت أباديك انا لشكواه!

غير انه نظر الى ناحية المراة وراى رشاقة قدها فقال :



ـ أنت بها والله المستعان !

فدخلت القينة خلف اشعب ، واستقبلها بنان بالتحية ، فسفرت فاذا هو يرى وجها رقيقا كأنه كوكب به عينان مملوءتان سحرا وانف كأنه قصبة در ، وفم كأنه جرح يقطر دما. وردت عليه التحية بلسان فصيح، فحار بصره وذهب لبه وجل خطبه وتلجلج لسانه وتفللت رجلاه ، ثم ثاب اليه عقله فدعاها للجلوس فى صدر المكان وسألها قائلا :

ـ أيتها الجارية ! انسية انت ام جنية ، سمائية ام أرضية ؟ !

فضحكت القينة وقالت : « بل انسية ارضية واسمى رشأ »

فسر اشعب واطمأن قلبه لما راى من افتتان بنان ، وانشد بصوته الرخيم وصناعته البارعة :

رشأ لولا ملاحته   خلت الدنيا من الفتن

كل يوم يسترق له   حسنه عبدا بلا ثمن

وأشار بأصبعه الى بنان ، فقال بنان :

ـ أى والله عبد بلا ثمن ، لو سمحت بذلك سيدتى !

فابتسمت له الجارية ابتسامة طار لها لبه فقال :

ـ انك والله لتختلسين الارواح بحلاوة ابتسامتك وتذهلين الألباب ببراعة منطقك ، فكيف لو كنت تجيدين الغناء ؟

فتبادلت القينة مع أشعب النظر ، ثم انطلقت تغنى

ولى كبد مقروحة ، من يبيعنى
بها كبدا ليست بذات قروح ؟

ابى الناس ، كل الناس ، لا يشترونها
ومن يشترى ذا علة بصحيح ؟

فطرب اشعب . وقام بنان من فوره فجلس بين يدى الجارية وقال :

ــ كل مملوك لى حر وكل امراة لى طالق ، لو كانت الدنيا لى كلها صررا فى كمى لقطعتها لك ، فأما اذا لم يكن لى من ذلك شىء ، فاللهم اجعل كل حسنة لى لك ، وكل سيئة عليك على .. !

فابتسمت رشا وقالت :

ــ جزاك الله خيرا . فوالله ما يقوم الوالد لولده بما قمت به لنا

فقام أشعب من فوره وقعد بين يديها وقال :

ــ كل مملوك لى حر وكل امراة لى طالق ان كان وهب لك شيئا أو حمل عنك وزرا .. فهو ما له حسنة يهبها لك ، ولا عليك سيئة يحملها عنك . فلأى شىء تحمدينه وتشكرينه ؟

فضحكت وضحك بنان.. وأمسك بنان بيدها فلثمها وقال :

ــ بحقى عندك

ــ ماذا ؟

ــ تزيدين فى السماع

فنظرت اليه وقالت :

ــ وانت ، كيف علمك بالغناء ؟

فقال مرتبكا :

ـ علم لا احمده
فقالت :

ـ فعلى م اذن انفخ بغير نار ! ما منعك من معرفته ؟

فتدخل أشعب قائلا : « منعه من معرفته ان له صوتا اقبح من وجهى ! »

فنظرت القينة الى بنان وقالت باسمة :

ـ لن اردك مع ذلك خائبا .. ازيدك فى السماع !
وانطلقت تغنى :

أنا التى لم ير مثلى بشر
كلامى اللؤلؤ حين ينتشر

اسحر من شئت ولست اسحر
ان سمع الناس كلامى كفروا

فاستخف أشعب الطرب ، ولم يدر ما يصنع . فنهض فى الحال ونزع عمامته عن راسه والقى بها من النافذة . فصاح به بنان :

ـ ويلك ، ما فعلت بعمامتك ؟

فقال اشعب :

ـ تصدقت بها على الشيطان الذى أجرى هذا الكلام وهذا الغناء على لسانها !

فأخذ بنان للفور عمامته هو أيضا ورمى بها من النافذة قائلا :

ـ اتسبقنى انت الى بر الشيطان ؟ !

وضحكت الجارية . وضحك الجميع . وخرج أشعب الى الطريق يأتى بعمامته. وخرج بنان خلفه يفعل مثله ،

فما كادا ينفردان حتى همس اشعب فى أذن صاحبه :

ــ ويحك ! متى الطعام والشراب ؟ هذا والله لايليق

فأخرج بنان من ثيابه منديلا نفيسا يضن به ويحرص عليه ، وقال :

ــ لا أملك والله غير هذا المنديل

فاختطفه أشعب من يده قائلا :

ــ هو البغية

فقال بنان : « خذه .. لابارك الله لك فيه ! »
وجرى أشعب به توا الى السوق

عاد أشعب مع المساء ، وقد باع المنديل بدينار ، واشترى لحما وخبزا ونبيذا ، ودخل على صاحبيه بنان والجارية ، فاذا هما يتساقطان حديثا كأنه قطع الروض الممطور ، واذا بنان يقول لها فى شبه همس :
اترى الزمان يسرنا بتلاق ويضم مشتاقا الى مشتاق ؟

فتجيبه هى بصوت خفى وترجيع شجى :

ما للزمان يقال فيه ؟ وانما
أنت الزمان ، فسرنا بتلاق

فوقف أشعب على رأسيهما قائلا : « ما شاء الله ! ما شاء الله ! »

فانتبها مذعورين ، والتفت بنان الى رفيقه قائلا : « ما صنعت ؟ »

فوضع أشعب بينهما الطعام والشراب ، واخبره بما فعل ، فقال له بنان :

ــ كيف يصلح طعام وشراب وجلوس مع وجه نظيف

بلا نقل ولا ريحان ولا طيب ؟ اذهب فاكمل الخير !

فخرج اشعب يكمل الخير وهو يعدو عدوا حتى لا تطول له غيبة ..

***

واقبل اشعب بالنقل والريحان والطيب وهو يلهث . وكان ظلام الليل قد هبط . فألفى باب الدار مفتوحا كعهده به عند خروجه ، فدخل . واذا هو لا يرى لصاحبيه ولا لشيء مما كان قد اتى به أثرا . فسقط في يده . وبقى متلهفا حائرا يرجم الظنون ويجيل الفكر سائر وقته ، حتى مضى من الليل جزء ، ونفد صبره ، فقال في نفسه :

ـ أفلا أدور في البيت لعلّ البحث يوقفني على أثر ؟

ونهض يجوس خلال الدار ، واذا هو يقف على باب سرداب ، واذا صاحباه قد هبطا فيه وانزلا معهما جميع ما يحتاجان اليه ، فأكلا وشربا وتنعما . فلما أيقن اشعب ذلك دلى رأسه ثم نادى زميله :

ـ ويلك يا بنان !

فلم يجبه أحد . فرفع صوته ونادى ثلاثا . فأجابه آخر الامر صوت بنان من أعماق السرداب :

وامسيت في ليلين : للشعر ، والدجا
وشمسين من : كأس ، ووجه حبيب

ثم سكت الصوت . وأراد اشعب أن يستجلب كلام صاحبيه ، فلم يجيباه .

فبات وحده ليلة يقصر عمر الدهر عن ساعة منها طولا

وغما . وطلع النهار ، فخرج اليه بنان ، فما كاد يراه حتى وثب اليه صائحا :

ــ اهذا يصح يا بنان ؟

وجعل يؤنبه ، فقال له بنان :

ــ ياصفيق الوجه ! منزلى ومنديلى وطعامى وشرابى، فما شأنك فى الوسط ؟ !

فبهت أشعب لحظة ، ورأى الجواب مفحما فقال « متمحكا » :

ــ حق القيادة والفضول ، والله لا غير !
وظهرت الجارية فى تلك اللحظة ، فولى بنان وجهه اليها وقال لها :

ــ بحياتى الا أعطيته حق قيادته وفضوله !

فقالت باسمة : « أما حق قيادته فعرك اذنه . واما حق فضوله فصفع قفاه »

فنظر اشعب اليها فاغرا فاه . واستقبله بنان على الفور فعرك أذنه وصفعه ، فالتفت اشعب قائلا : « ما هذا ؟ »

فأجاب بنان : « الحكم »

فوضع أشعب يده على مكان الصفعة ونظر الى بنان شذرا :

ــ الحكم ؟ !

فقال بنان باسما :

ــ نعم ، جرى الحكم عليك بما جرى لك من العدل والاستحقاق

مرت ايام ضاقت فيها الدنيا باشعب حتى نسى شكل الخبز وطعم اللحم . فخرج من الجوع يهيم فى الاسواق. فلم يظفر بشىء . ولم يفتح الله عليه بمنظر أكل ولا آكلين . ولم يبلغ اذنيه حتى مجرد ذكر الطعام ، سوى قول جماعة مروا به فى الطريق يتحدثون فى أمر المسيح الدجال . فقال أحدهم :

ـ ان الدجال رجل يخرج فى سنة قحط معه « جرادق » أصبهانى ، وملح « درانى » و « انجذان » سرخسى !

فتلمظ اشعب وصاح فيهم :

ـ هذا ، عافاكم الله ، رجل يستحق أن يستمع له ويطاع !

ثم سار فى طريقه على غير هدى ، حتى قادته قدماه الى بيت صديقه بنان ، فوقف تحت نافذته وأنشد :

أنا فى حال تعالى الله ربى أى حال
ليس لى شىء اذا قيل : «لمن ذا ؟» قلت : «ذا لى»
ولقد أفلست حتى محت الشمس خيالى
ولقد أفلست حتى حل أكلى لعيالى

فاطل عليه بنان من النافذة وقال له : « ادخل ! »

فدخل اشعب مسرعا يقول : « حفظك الله وأبقاك ! »

وجعل يتنسم رائحة قتار أو طعام فى البيت فبادره بنان بقوله :

ـ انى لم ادعك من أجل ذلك ! فأنا حالى كحالك انما قد خطر لى خاطر لعل فيه النجاة لى ولك



ـ ما هو ، أصلحك الله ؟
ـ ما قولك لو رحلنا معا اليوم الى مكة فقد نجد فيها رزقا ؟ وقديما قالوا : فى السفر سبع فوائد . ونحن والله لا نبغى غير فائدة واحدة هى : الطعام ومعاشرة الكرام .
ـ وكيف لنا بالسفر ؟
ـ اليوم ترحل قافلة الى مكة ، لى فيها من يحملنى ويحملك بغير نفقة .. فهلم بنا !

***

مضى أشعب وبنان من ساعتهما الى القافلة . وكان اليوم يوم جمعة . فبينا هما فى الطريق مرا بمسجد قد ازدحمت فيه الناس تصلى الجمعة . فتمهل أشعب وحدثته نفسه بالصلاة . فأخبر زميله، فانتهره ، وثناه عن رغبته فأصرأشعب قائلا :
ـ أريد أن استعين ببركات الصلاة على وعثاء الفلاة
ـ اذهب أنت وحدك ، ولئن فاتتك القافلة فليس على لوم .
ـ انما هى ركعة أستودع بها المدينة .

***

ومشى بنان فى طريقه . وعرج أشعب على المسجد ودخل . وكانت الصلاة قد بدئت . ووجد الصف تاما . فلم يستطع أن يقوم وحده ، فجذب ثوب شيخ أمامه فى الصف ليتأخر فيقوم معه ، فلما تأخر الشيخ ورأى أشعب الفرج تقدم فقام فى موضع الشيخ وترك الشيخ

قائما خلفه ينظر فى قفاه ويدعو الله عليه . وكان الامام من سوء الطالع رجلا مبطـاء ثقيل الحركات ، فجعل يقرأ فاتحة الـكتاب بقراءة « حمزة » مدة وهمزة ، ثم انحنى للركوع بنوع من الخشوع لم يعهده أشعب من قبل ، ثم رفع رأسه ويده وقال : « سـمع الله لمن حمده » وقام حتى ما شك أشعب أنه قد نام .

وحل بأشعب الغم وأيقن بفوات القافلة وضرب الامام بيمناه وأكب لجبينه ثم انكب لوجهه ، وأشعب يتقلى على نار الصبر ، ويتقلب على جمر الغيـظ ، وليس له الا السكوت والاذعان ، أو الـكلام والقبـر ، لما يعلم من خشونة القوم فى ذلك المقام لو انه قطع الصلاة قبـل ختامها . فنزل على حكم الضرورة وقد قنط من الرحل والرحيل . ثم راجعه الامل فرفع رأسه ينتهز فرصـة فلم ير بين الصفوف فرجة . فعاد الى السجود يائسا ، حتى كبر الامام للقعود وقام الى الركعة الثـانية فقرأ الفاتحة وسورة القارعة قراءة استوفى بها عمر الساعة ، وكاد يسـتنزف أرواح القوم . فلمـا فرغ من ركعتيه واقبل على التشـهد ومال الى التحية ، وقال أشعب فى نفسـه : « لقد سهل الله المخرج وقرب الفرج » اذا رجل قد قام من بين الناس صائحا : « أيها الناس من كان منكم يحب النبى والصحابة فليعرنى سمعه ساعة»

فلم ير أشعب مناصا من أن يلزم مكانه كما فعل جميع الناس .

وصاح الرجل : « ايها الناس ! خليق بى أن لا اقول

غير الحق ولا أشهد الا بالصدق . قد جئتكم ببشارة من نبيكم ، ولكنى لا أؤديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوته

فربط هذا القول اشعب بالقيود وشده بالحبال ، فلو تحرك بعدئذ وقام من بين الناس لكان هو ذلك النذل الجاحد فى نظر الجميع ، ومضى الرجل يقول : « رأيته فى المنام صلى الله عليه وسلم كالشمس تحت الغمام والبدر ليل التمام ، يسير والنجوم تتبعه ، ويسحب الذيل والملائكة ترفعه ، ولقد علمنى دعاء أوصانى أن أعلمه أمته ، فكتبته على هذه الاوراق بمسك وزعفران ، فمن دفع لى ثمن القرطاس أعطيته»

فانهالت الدراهم على الرجل حتى حيرته ، ورأى اشعب ذلك فتعجب من حذق الرجل واحتياله لرزقه ، وجعل يتأمل فصاحته فى وقاحته ، وربطه الناس بهذه الحيلة البارعة ، وأخذه المال الوافر بهذه الوسيلة اليسيرة !

وخرج اشعب من المسجد وهو يفكر فى الامر ويقول فى نفسه : « ما كان أحرانا أن نحتال للعيش بمثل هذه الحيل ، بدلا من انتظار الولائم والاعراس ! » ، وسار فى طريقه حتى بلغ مكان القافلة فعلم أنها رحلت بصاحبه . فعاد خائبا فى غم وجوع لا يدرى أين يذهب ولا كيف يجد غداءه ، واذا هو برجل من ريف المدينة يسوق حماره وعلى وجهه امارات السذاجة ، فقال فى نفسه : « ظفرنا والله بصيد ثمين »

واقبل على الريفى صائحا : « حياك الله يا أبا زيد ! من أين أقبلت ؟ وأين نزلت ؟ ومتى وافيت ؟ هلم الى بيتى ! »

فوقف الرجل دهشا يقول : « لست بأبى زيد ، ولكنى أبو عبيد »

فقال أشعب فى صوت المستدرك : « نعم لعن الله الشيطان وأبعد النسيان ، انسانيك والله طول العهد ، كيف حال أبيك ؟ »

فقال الرجل : « لقد نبت الربيع على قبره »

فصاح أشعب : « انا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ! »

ومد يده الى صدره يريد أن يمزق قميصه من الجزع ، فقبض الريفى على يده قائلا : « نشدتك الله لا تمزقه ! »

فأظهر أشعب التجلد والطاعة ، وابقى على ثوبه ثم جذب يد الريفى قائلا :

ـ هلم الى بيتى كى نتغدى ، أو الى السوق لنشترى شواء ، نعم .. السوق أقرب وطعامها اشهى

ومشى به الى حانوت شواء تتصاعد رائحة دخانه شهية الى الانوف فتحرك أفواه البطون ، وقال أشعب لصاحب الحانوت : « أفرز لابى زيد من هذا الشواء !»

ونظر الى صوانى معروضة وقال : « ثم زن له من تلك الحلوى ، واختر له من تلك الاطباق . وانضد عليها أوراق الرقاق ورش عليها شيئا من السكر وماء

الورد ليأكله أبو زيد هنيئا ! »

فانحني الشواء بشاطوره على ذلك اللحم الطرى . وقطع وقدم الى اشعب والريفى . فجلسا واكلا حتى استوفيا . فقال اشعب لصاحب الحلوى :

ـ زن لابى زيد من اللوزينج رطلين ، فهو أجرى فى الحلوق ، وليكن رقيق القشر كثيف الحشو لؤلؤى الدهن يذوب كالصمغ قبل المضغ ، ليأكله أبوزيد هنيئا

فوزن صاحب الحلوى لهما . وقعد الرجلان وشمرا حتى استوفياه ، فقال أشعب للريفى : « يا أبا زيد ، ما احوجنا الى ماء مشمشع بالثلج يبرد جوفنا بعد هذه الاكلة النظيفة ! »

فقال الريفى : « صدقت » .

فقام اشعب وهو يقول له : « اجلس يا أبا زيد ولا تبرح حتى نأتيك بسقاء ! » . وخرج أشعب فائزا بالسلامة ومعدة مملوءة

ومضى النهار ، وعلم الريفى من ابطاء اشعب أنه لن يعود ونفد صبره من طول الانتظار ، فقام الى حماره ، فلمحه صاحب الحانوت فتعلق بثوبه وقال له : « أين ثمن ما أكلت ؟ »

فقال الريفى : « لقد أكلته ضيفا »

فلكمه صاحب الحانوت لكمة ، وثنى عليها بلطمة وقال له : ضيفا ؟ متى كنا دعوناك ؟ هاك فخذ ...

ونزل عليه الشواء لكما ولطما وهو يقول :

ـ زن يا أبا الوقاحة عشرين !

وجعل الريفى يصرخ ويلعن ويصيح : « لعن الله ذلك الشيخ المحتال ، لقد قلت له أنا ابو عبيد ، فيقول لى انت ابو زيد ! »

أشعب في مكة ..

مرت الايام وأشعب لا يسمع خبرا عن بنان . ولا يجد سبيلا الى لقمة ، فقد عرفه الناس فى المدينة فلم تعد تنفع الحيلة ولا الوسيلة . ولم تعد تقع عينه على خوان ولا على قوم أمام طعام . كأنما الناس من لؤمهم قد أصبحوا يأكلون فى بطون الارض او اجواز السماء .

ومشى أشعب غداة ذلك اليوم لا ينتظر شيئا ولا يفكر فى شيء ، فدهم فى جانب من جوانب الطريق جماعة يتغدون وهم غرباء لم يعرفوه . فقال لهم :

ـ سلام عليكم معشر اللئام !

فرفعوا أبصارهم اليه قائلين : « لا والله بل كرام ! »

فثنى رجله فى الحال وجلس بينهم وهو يقول :

ـ اللهم اجعلهم من الصادقين واجعلنى من الكاذبين!

ثم مد يده فى القصعة التى بين أيديهم وهو يقول : « ماذا تأكلون ؟ »

فأرادوا أن يقفوا تهجمه ، فقالوا فى فتور : « نأكل سما ! »

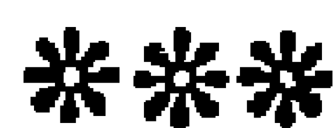
فحشا فمه وازدرد وهو يقول :

ـ الحياة بعدكم حرام !

وجعل يجول فى القصعة كما يجول الفارس فى الميدان . فلما رأوه قد أغار على أكلهم ، وكاد يحرمهم زادهم فى غير حشمة ولا حياء ، نظر بعضهم الى بعض ثم التفتوا اليه قائلين :

– أيها الرجل ! هل عرفت منا احدا ؟ فأشار أشعب بأصبعه الى الطعام وقال : « عرفت هذا »

فسكتوا عنه ، وقد استظرفوه ، وتبادلوا الحديث ، فعرف منهم أشعب ، انهم من اهل مكة ، وقد جاءوا فى القافلة الاخيرة ، وقال احدهم ان معه رقعة من رجل اسمه بنان فى مكة لرجل اسمه اشعب فى المدينة ، فاهتز أشعب سرورا وكشف لهم عن حقيقته ، وتسلم الرقعة ، وقراها فعلم منها أن صاحبه قد استقر فى احسن حال . وقد بارحته أيام العسر والضيق . وله حرفة شريفة يدر منها المال ، وهو يسأله أن يأتى اليه مع اول قافلة متهيئة للرحيل ، كى يعاونه فى ذلك العمل ويشاركه فى ذلك الكسب الحلال ..



قام أشعب من فوره فرحل مع قافلة ذاهبة الى مكة . ولم يكن معه مال ولا احمال ، ولم يدر كيف غاب عن فطنة بنان ، وقد أصبح حسن الحال كما قال : أن يرسل اليه مع الرقعة بما يقيم اوده حتى الوصول . لعله خشى أن يأخذ اشعب المال ويكسل عن تجشم الرحيل . ولم يعدم مثل أشعب الوسيلة ، فقد سار مع القافلة على قدميه يغنيهم ويضحكهم .

وقد كان سيره اول الامر الى جانب ناقة عليها شيخ وشاب ، فلحظ أن الشاب كثير البكاء ، فاستعلم فأخبروه انه عاشق لابنة عمه وقد فرقت بينهما الاحداث . وان الشاب اشترك مع ذلك الشيخ فى السفر والمؤونة وكانا على ضيقة وعسر . فجعلا لهما فى كل يوم قرصا من الخبز . وكان الشيخ متخلع الاضراس بطىء الاكل ، فكان الشاب يبطش بالقرص ثم يقعد يشتكي العشق ، ويتضور الشيخ جوعا ، وكان اسم ذلك الشاب جعفرا . فجعل اشعب يغنى فيهما قائلا :

لقد رابنى من جعفر أن جعفرا
يطيش بقرص الشيخ فى آخر الليل
فقلت له : لو مسك الحب لم تبت
سمينا وانساك الهوى شدة الاكل

فضحكت القافلة وانست الى أشعب . وحمله معه رجل من التجار يسافر وحده على جمل ، فلبث أشعب معه طول الطريق ينزلان ويقومان ، والرجل فى كل يوم يحضر الطعام ويجهزه واشعب لا يصنع شيئا . فقال له الرجل ذات يوم : « قم اليوم فاطبخ »

فقال أشعب : « لا أحسن ذلك »

فطبخ الرجل ، ثم قال لاشعب : « قم فأثرد »

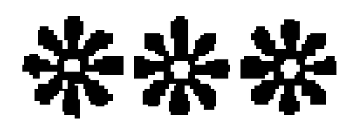
فقال أشعب : « والله كسلان »

فثرد الرجل ، ثم قال : « قم فاغرف »

فقال أشعب : « أخشى ان ينقلب على ثيابى »

ففرف الرجل ثم قال لاشعب : « قم الآن فكل »

فنهض اشـعب قائلا : « قد والله استحييت من كثرة خلافى عليك ! » ، وتقدم الى الاكل فقـام فيه مقام رجلين



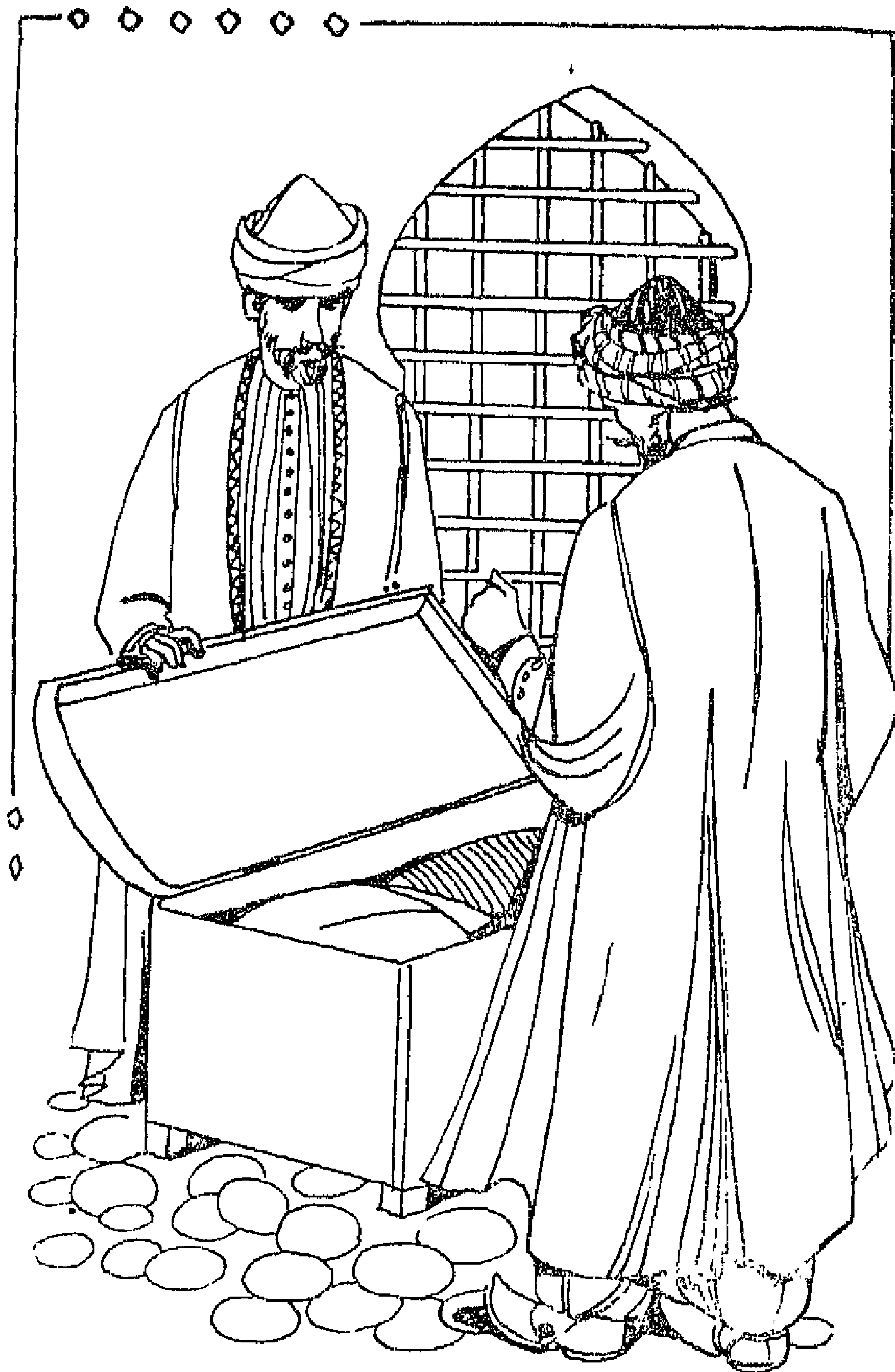
وصل اشعب الى مكة وسأل عن بنان ، فقيل له انه كان قد استأجر دارا فى مكة يجمع فيها بين الرجال والنساء ويحمل لهم الطعام والشراب . فشكاه الناس الى والى مكة فنفاه الى عرفات ، فمشى اشـعب من ساعته الى عرفات ، فوجد صاحبه قد أقام فيها منزلا ورأى امام المنزل قطيعا من الحمير مرتبطة ، فما رآه بنان داخلا عليه حتى فتح له ذراعيه وتعانقا ، واخبره بما هو فيه من الرخاء واستواء الحال وأنه لا ينقصه لتمام سرور من يجيئونه غير الغناء والطرب ، وهـذا لا يقوم به غير أشعب ، ولهذا أرسل اليه ، فتأمل اشعب المـكان وقال لصديقه : « أهـذا هو العمـل الشريف والـكسب الحلال ! » فانتهره بنان وقال له : « أليس هذا أشرف من أن ندعو أنفسنا الى موائد الغير وشرابهم؟ أنما ندعو الآن الناس الى شرابنا نحن وموائدنا وغنائنا ، فماذا فى ذلك ؟ »

فقال له اشعب :

ـ أما نفاك والى مكة ؟ فكيف يجيئك الناس ها هنا ؟

فأجاب اشعب :

ـ الامر هين . فقد أرسلت الى الناس اقول : « ما يمنعكم من أن تعاودوا ما كنتم فيه ؟ » فقالوا : « واين



بك وانت فى عرفات ؟ » فقلت لهم : « حمار بدرهم وقد صرتم على الاثر فضلا عن النزهة » . ففعلوا . وما زالوا يفعلون ، وتلك حميرهم بالباب !

استطاب اشعب تلك الحياة الجديدة . لقد عرفت يده ثقل الدراهم ، وبطنه الشبع ، وظهره الكساء ، واصبح الشراب من لزوم عمله . لا يفيق منه ألا اليه . وهو يعد شريك بنان فى كل ما ملك حتى فى ذلك الخادم الذى يقوم بخدمتهما

ولم يدر اشعب أين ينفق ماله ، ولم يشأ ان يركب حمارا بالكراء يحمله فى غدواته وروحاته من مكة الى عرفات ، ومن عرفات الى مكة . فذهب الى نخاس بسوق الدواب فقال له :

ــ أطلب ما شئت من الثمن ، واعطنى حمارا يليق بى وأليق به

فقال النخاس وهو ينظر الى بذخ أشعب :

ــ تبغى حمارا عظيم الهيئة سريع الخطوة ؟ .

فقال أشعب :

ــ ابغى حمارا ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر ، اذا خلا له الطريق تدفق ، واذا كثر الزحام ترفق ، ان اقللت علفه صبر ، وان أكثرته شكر ، واذا ركبته هام ، وان ركبه غيرى نام

فنظر اليه النخاس محملقا مشدوها ثم قال له :

ــ يا عبد الله ، اصبر ، فان مسخ الله قاضى مكة حمارا أصبت حاجتك ان شاء الله !

ثم اراه بعد ذلك حمارا حسن المنظر أنيق المظهر ليس به من الخصال ما طلب أشعب ، ولكن فيه من الامارات ما يغرى ، فركبه أشعب من ساعته ونقد الرجل الثمن . ومشى به يتبختر ، مشية لم يعرفها من قبل لا على قدميه ولا على ظهر دابة . وعاد به الى عرفات . فلم يخلطه مع الحمير الواقفة بالباب ازدراء لشأنها وتعظيما لشأنه . فربطه وحده تحت نافذة بنان.

ودخل فألفى مجلس الشراب قائما ، والرجال والنساء مختلطين . وبنان ليأسه من غيبة اشعب فى السوق ، ولما صور له السكر من الوهم والخيلاء قد حل محل اشعب فى الغناء . واذا القوم يضجون ، يريدون أن يسكتوه وهو لا يريد أن يسكت ، وما كادوا يرون أشعب داخلا حتى هللوا فرحين . واقبل عليه الرجال واقبلت النساء ، وارتفعت الاصوات تقول له :

ـ اسكت لنا صاحبك !

فأراد أن يسكته فلم يستطع ، واقبل الناس على بنان يقولون له :

ـ لقد حضر أشعب ، فمن أحسن غناء .. أنت او اشعب ؟

فقال بنان :

ـ انا شيء ، وأشعب شيء .. انا اغنى بدرهم ، وأسكت بدينار ، أما أشعب فيغنى بدينار ويسكت بدرهم ، فسكوتى اذن أغلى من سكوت أشعب ! فوالله ما أسكت حتى تدفعوا الثمن !

فصاح الناس :

ـ ندفع والله !

وصاحت النسـاء تطلب الى أشعب أن يغنى فقال لهن :

ـ بثمنه كما قضى زميلي

فقلن :

ـ ندفع والله ..

فسكت بنان . ونهق الحمار تحت النافذة . فقال اشعب :

ـ هذا والله هو وحده الذى طرب لغناء بنان !

ثم شرب رطلين ورفع عقيرته يغنى بصوته الحسن ويشير الى بنان :

ومغن ان تغـنى أورث الندمان هما
احسن الاقـوام حالا فيـه من كان أصما

فضـحك المجلس وطرب وانهالت على أشعب آيات الحمد والاعجاب ...

***

مرت الايام وشـاعت فى مكة أخبـار ذلك المنزل فى عرفات . وأعاد أهل مكة الشكاية الى الوالى أن هذين القوادين لا يفتران عن هذا الفعل ، حتى فسدت أحداث مكة . فأرسـل الوالى الشرطـة الى بنـان وأشعب ليحضروهما ، وكانا قد قاما عن العشاء وامتلأ بطناهما بألوان الطعام . وقد شرب ليلتئذ أشعب حتى جعل يقول لمن حضر :

أسقنى صرفا حميا تترك الشيخ صبيا
وتريه الفى رشدا وتريه الرشد غيا

ورأى خادمهما الشرطة مقبلين ، فأسرع يخبرهما وكانا قد أعدا سردابا يخفيان فيه الناس والحمير اذا وقع خطب من هذه الخطوب . فبادر الى محو آثار ما كانوا فيه . وكبس الدار رجال الوالى . فلم يجدوا غير أشعب وبنان . فقادوهما الى مكة . فذهبا وتركا خادمهما يطلق الناس اذا لاحت ساعة الامن والسلامة

ودخل الرجال بأشعب على الوالى . فلما رآه قال :

ــ ليس هذا ببنان . من أنت أيها الرجل ؟

فغمز أشعب بعينه وقال : « خادمك وعبدك ! »

ولحظ الوالى من حركاته ما جعله يقول لرجاله :

ــ هذا الرجل شارب

فقال أشعب : « لا .. أصلحك الله ! »

فقال الوالى : « استنكهوه ! »

فأقبل الرجال على أشعب فشموا رائحة فمه ، ثم قالوا :

ــ أن نكهته لا تبين عليه

فقال الوالى : « قيئوه ! »

فصاح أشعب : « وان لم أقىء شرابا فمن يضمن لى عشائى ؟ ! »

ولم يكد يتم عبارته ، حتى دخل بقية الرجال ببنان. فما أن رأى الوالى بنان حتى عرفه وصاح به :

ــ يا عدو الله ! طردتك من مكة فصرت تفسد فى المشعر الحرام !

فقال بنان : « يكذبون على . اصلح الله الامير »

فأمر الوالي بوضعهما فى الحبس حتى الصباح . وما ان طلع النهــار وجلس الوالى فى مجلســه حتى أمر بأصحاب الشكاية فأحضروا . فسألهم الدليل فقالوا :

« أصلحك الله ، الدليــل على صحة ما نقول أن تأمر بجميع حمير مكة فترسل بها أمناء الىعرفات ، فيطلقوها

فان وقفت كعادتها على منزله دون المنازل ، فنحن غير كاذبين ولا مبطلين »

فقال الوالى : « نعم ، ان فى هــذا لدليلا وشاهدا عدلا »

وأمر من ساعته بحمير من حمر مكة التى الكراء ، فأرسلت وأطلقت فاذا هى تصير الى منزل بنان لا تلوّى

على شىء ، كأنها به عليمة خبيرة . فلما علم الوالى بذلك قال : « ما بعد هذا شىء .. جردوه ! »

فأتى الرجال ببنان وجردوه من ثيابه . فلما نظر الى السياط ، التفت الى الامير قائلا : « لابد أصلحك الله من ضربى ؟ »

فقال : « نعم يا عدو الله ! »

فقال بنــان :

ــ والله ما فى ذلك شىء هو أشد على نفسى ، من أن

يشمت بنــا أهل العراق ويضحكوا منا ، ويقولوا اهل مكة يجيزون شهادة الحمير !

فضحك الوالى ، وفكر قليلا ، ثم قال :

ــ اتحب أن أخلى سبيلك ؟ على شرط ..

ـ وما هو حفظك الله وابقاك ؟

ـ أن تغادر من ساعتك أنت وصاحبك هذه البلاد

ذهب بنـــان وأشعب توا الى عرفات ليحملا متاعهما ويرحلا كما أمر الوالى . فوجدا خادمهما قد سبقهما الى النية . فوضع الدراهم والملابس وما خف وغلا فى صرر ، وتهيأ للهرب . فوثب عليه بنان فضربه ضربا مبرحا ، فقال أشعب :

ـ ماذا تصنع ؟ لا تضرب العبـد كل هـذا الضرب فقد دفعت فيه كما دفعت أنت ، وحقى فيه كحقك انت !

فقال بنـــان :

ـ انى أضرب نصيبى منه !

فأشار أشعب الى الصرر :

ـ وهـذه ؟

فقال بنـــان :

ـ كل شىء يقسم بيننا بالعدل ..

فقام أشعب الى الخادم فضربه هو ايضا قائلا :

ـ وأنا أضرب حصتى فيه ..

فانفلت منهما العبد وكان جلدا نشطا ذكيا ، ورفع ثيابه وسلح عليهما وقال : « اقسما هـذه على قـدر الحصص ! »

وولى الادبار . وبقيا هما مشغولين يومهما بجمع ما اســتطاعا جمعه وبيع ما قدرا على بيعه ، وخـرجا من ذلك النعيم آسفين ...

أشعب في الحمام ...

عاد أشعب وبنان الى المدينة ، فدخلاها دخول الظافرين ، خلفهما عبدهما الهارب ـ وقد راجعاه وارضياه ـ يحمل لهما الصرر والخيرات . وقد تعاهدا على أن يقيما معا فى منزل واحد لينفقا فيه هذا المال سويا . وذهب أشعب الى داره أول الامر، فرأى امراته وعياله وترك لهم بعض النفقة ، وعرج على الكندى يسأل عن خبره ويضحك من أطواره ، ويرى كيف وقع العودة عليه ، فسأل عنه فقيل له انه خرج ففبر من بكرة الصباح ليقتضى رجلا خمسة دراهم فضلت دينا عليه ، وأن هذا ما يشغله منذ أيام طويلة ، فهو يخرج من اجل هذا الدين من أول النهار فلا يرجع الا مع آخره لبعد الشقة وكثرة المماطلة ، فجلس اشعب ينتظره حتى رجع ، فما وقع نظر الكندى على اشعب ببابه حتى امتقع لونه ، فابتدره اشعب صائحا :

ـ لا تخش شيئا ، بأبى أنت وأمى !

وقص عليه أخبار الرحلة ، وأراه ما هو فيه من النعمة فأشرق وجه الكندى ، وجعل ينظر الى ثوب اشعب النظيف معجبا أول الامر ، غير انه عاد فهز رأسه وقال متفاخرا :

ـ لا والله .. أين هذا من ذلك القميص !

فلم يفطن اشعب وقال :

ـ أى قميص ؟ !

وفجاة تذكر الليلة التى سكر فيها الكندى ، فضحك حتى دمعت عيناه ، فأراد أن يسره ويهون عليه تلك المصيبة التى ما زال يذكرها ، فدعاه الى طعام وشراب فى ذلك المنزل الذى جعله هو وبنان لمنادمتهما وتنعمهما ومضى أشعب فأخبر صديقه وشريكه ليمد وليمة فى ذلك المساء ورأى أشعب أن شعره قد طال وبدنه قد اتسخ من طول السفر

فقال للخادم :

ـ اختر لنا حماما نظيف البقعة طيب الهواء معتدل الماء ، وحلاقا خفيف اليد حديد الموسى قليل الفضول

فقاده الغلام الى ما أراد ، ودخل أشعب الحمام ، فلم يرعه الا رجل قد دخل على أثره وعمد الى قطعة طين فلطخ بها جبينه ووضعها على رأسه ثم خرج ، ودخل آخر فجعل يدلكه دلكا يكد العظام ويغمزه غمزا يهد الاوصال ، ثم عمد الى رأسه يغسله ويرسل عليه الماء ، واذا الاول قد عاد فرأى الثانى منهمكا فى العمل فلكمه لكمة كادت تطير أسنانه وقال له :

ـ يا لكع ، مالك ولهذا الراس وهو لى ؟

فقام اليه المضروب وعطف عليه بلطمة كادت تضيع صوابه ، وقال له :

ـ بل هذا الراس حقى وملكى وفى يدى

وتلاكما حتى تعبا ، وتجاذبا الاثواب وسارا يتحاكمان الى صاحب الحمام . فقال له الاول :

ـ انا صاحب هذا الراس ، لانى لطخت جبينه ووضعت عليه الطين

وقال الثانى :

ـ بل انا مالكه ، لانى غسلته ودلكت صاحبه

فقال الحمامى :

ـ ائتونى بالزبون اسأله لأيكما هذا الرأس ؟

فذهب الرجلان الى اشعب وقالا له :

ـ لنا عندك شهادة ، فقم معنا !

وكان أشعب ما زال موضوعا فى مكانه وضعا لم يفهم مما حدث أمامه شيئا ولا أدرك لهذا الشجار معنى ، فنهض وسار معهما الى صاحب الحمام ، فابتدره الحمامى قائلا :

ـ يا رجل لا تقل غير الصدق ولا تشهد بغير الحق، قل لى : هذا الراس لأيهما ؟

فوقف اشعب دهشا مشدوها لحظة ، ثم قال :

ـ يا عافاك الله ، هذا راسى انا ، قد صحبنى طول الطريق من المدينة الى مكة ومن مكة الى عِرفات ، وما شككت أنه لى

فقال له الحمامى منتهرا :

ـ اسكت يا فضولى !

ثم مال الى أحد الخصمين وقال له :

ـ يا هذا .. الى متى هذه المنافسة بينكما على رأس

صغير الشأن قليل الخطر !»

ثم عرج على الخصم الآخر وقال مهونا عليه :

ــ وانت يا هذا ! هب انك لم تر راس هذا التيس !

فقام أشعب من ذلك المكان خجلا ، وارتدى ثيابه على عجل وانسل من الحمام ، فوجد خادمه المنتظر بالباب يقول له :

ــ نعيما ان شاء الله !

فهوى فى الحال بكفه على قفا الخادم :

ــ أنعم الله عليك بهذا !

اشعب والحلاق

أسرع أشعب فدخل المنزل وأوصى الغلام ان يأتيه بحلاق ، وأن يحذر هذه المرة ، فلا يحضره فضوليا ولا ثرثارا . فحسبه ما ذهب من الوقت فى غير شىء ، سوى ما رآه من شجار وما لحقه من سباب !

فانصرف وعاد برجل ، دخل فسلم وما هو الا ان دارت يده على وجه أشعب حتى قال له :

ــ جعلت فداك ، هذا وجه لا أعرفه ، فمن انت ؟

فقال اشعب :

ــ اسمى اشعب

فقال الحلاق :

ــ بأبى أنت وامى ، هذا الاسم لا يجهله احد فى المدينة ! ومن اين قدمت ؟ فانى ارى اثر السفر عليك

فقال اشعب :

ــ من مكة ..

فقال الحلاق :

ــ حياك الله ، من ارض النعمة والرفاهة ، وبلد رسول الله الكريم . لقد حضرت فى شهر رمضان جامعها وقد اشعلت فيه المصابيح واقيمت التراويح..

وجعل يقص قصة طويلة لا آخر لها ولا معنى واشعب يصبر نفسه . وفرغ الحلاق من القصة فعاد يسأل :

ــ واى شيء أقدمك ؟ اصلحك الله !

فأجاب اشعب :

ــ أقدمنى الزمن وتقلباته ، ولكن اذا فرغت سأخبرك بالامور على وجهها

فقال :

ــ وتعرفنى بالمنازل والسكك التى جئت عليها

فقال أشعب :

ــ نعم

وكان الخادم واقفا على مقربة منهما . فنظر اليه اشعب نظرة قاسية . فدنا منه الغلام وهمس فى اذنه معتذرا :

ــ لنّ اجد حلاقا يسكت حتى يفرغ !

ومالت الشمس الى الغروب . ولم يفرغ الحلاق من الكلام ، ولم يفرغ مما جاء له ، واخيرا قال :

ــ لو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكنت قد حلقت راسك . فهل ترى ان نبتدىء ؟

فاسرع اشعب قائلا :

— وماذا كنت تصنع فيما مضى من الوقت ؟

ونهض فوثب بعيدا . وما ان استوثق انه افلت من يد الحلاق ومواسيه ، حتى صاح فى الخادم :

— علق هذا الحلاق من العقبين

فهجم عليه الخادم بسواعده القوية وعلقه كما أمر . فقال له أشعب :

— جعلت فداك ، سألتنى عن المنازل والسكك التى قدمت عليها ، وأنا مشغول فى ذلك الوقت ، وظننت انك مشغول بعملك ، فأنا أقصها عليك الآن ، فاستمع : خرجنا من مكة فى المساء فنزلنا بئرا ذات نخيل فى ظهيرة الغد . يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة أسواط . فقال اشعب :

— وركبنا عند المساء فنزلنا عين ماء حولها عشب عند طلوع النهار . يا غلام ، أوجع !

فضربه الخادم عشرة أخرى . وقال اشعب :

— ثم ركبنا ضحى اليوم وسرنا الى نجع وقد اشرفنا على الاصيل . يا غلام ، أوجع !

فضربه العبد عشرة ثالثة . وقال اشعب :

— وبعدئذ ركبنا وسرنا حتى وجدنا . . .

فصاح الحلاق مقاطعا :

— يا سيدى ، سألتك بالله الى اين تريد ان تبلغ ؟

فقال اشعب :

— الى المدينة



ـ لست تبلغها حتى تقتلنى

فقال أشعب :

ـ أتركك على الا تعود ؟

فصاح الحلاق :

ـ والله لا أعود ابدا

فتركه . وكان المساء قد اقبل . وحضر بنان والكندى .. وأبصرا الخادم يحل وثاق الحلاق ، فسألا فاخبرهما أشعب الخبر . فقال الكندى :

ـ وددت انك بلغت به الى أن تأتى على نفسه !

على الخوان

جلس الجميع يتحادثون ساعة قبل ان يوضع بينهم الخوان ويقدم الشراب . وحلف أشعب على الحلاق أن لا يبرح حتى يحضر معهم العشاء . فقد كفاه من التأديب ما أكله من يد العبد . وأخذ الكندى يجول بنظره فى أنحاء المكان ويعجب بالرياش . ولمحه بنان فقال له باسما :

ـ اراك شديد العجب !

فقال الكندى :

ـ أى والله نعم

ثم اردف سائلا :

ـ ومتى كان الرحيل ؟ قبل ان اهدى أشعب القميص بكم يوم ؟

فلم يفطن بنان وقال :

ـ اي قميص ؟

فابتسم اشعب وتذكر عندئذ امرا كان يود ان يسأل الكندى فيه . فأقبل عليه يقول له :

ـ بالله الا أخبرتنا : انا نراك لاول مرة تصنع شيئا الفساد فيه ظاهر والفائدة لك فيه غير مرجوة . أخبرنا عن مضيك كل يوم الى رجل فى آخر السوق لتقتضى منه خمسة دراهم دينا عليه .. أهو حزم منك ؟ لا . انما الحزم ان يتشدد الانسان فى غير تضييع

فالتفت الكندى اليه قائلا :

ـ وما هو وجه التضييع ؟

فقال اشعب :

ـ وجوه التضييع كثيرة . فواحدة : انا لا نأمن عليك انتقاض بدنك وقد خلا ما خلا من سنك ، وان تعتل ، فتدع التقاضى الكثير بسبب هذا القليل أو تتشاغل بالبعيد عن القريب ، وثانية : انك أن تجهد هذا الجهد فلا بد لك من أن تزداد فى العشاء ان كنت ممن يتعشى او تتعشى ان كنت ممن لا يتعشى . وهذا اذا اجتمع كان اكثر من خمسة دراهم . وبعد فانك تحتاج أن تشق وسط السوق وعليك ثيابك ، والحمولة تستقبلك ، فمن ههنا نترة ومن ههنا جذبة ، فاذا الثوب قد أودى، ومن ذلك أن نعلك تنقب وترق ، وساق سراويلك تتسخ وتبلى ، ولعلك أن تعثر فى نعلك فتقدها قدا ، ولعلك تهرتها هرتا من كثرة الذهاب والاياب فى سبيل هذا الدين الزهيد . منذ متى وانت تذهب للمطالبة والاقتضاء ؟

فقال الـكندى :

ـ منذ يومين من تاريخ الليلة التى اهديت فيها لك القميص

فأخفى اشعب ابتسامة ومضى يقول :

ـ مضى اذن وقت طويل وانت على هذه المشقة تتكبد كل ما ذكرنا لك من الخسائر ، ولا تجنى اذا جنيت الا خمســـة دراهم . ولما كنا نثق دائما بحكمتك فى كل تصرفاتك . فقد أعيتنا والله هذه المشكلة . واحببنا أن نسألك فيها

فتنحنح الـكندى وقال :

ـ أما ما ذكرتم من انتقاض البدن ، فان الذى اخاف على بدنى منه هو الدعة وقلة الحركة ، وهل رأيتم اصح ابدانا من الحمالين والطوافين . ولربما اقمت فى المنزل بعض الامر فأكثر الصـعود والنزول خـوفا من قـلة الحركة . وأما التشاغل بالبعيد عن القريب فأنا لا أعرض للبعيد حتى أفرغ من القريب ، وأما ما ذكرتم من الزيادة فى الطعام فقد أيقنت نفسى واطمأن قلبى على انه ليس لنفسى عندى الا مالها ، وانها ان حاسبتنى أيام التعب حاسبتها أيام الراحة . وأما ما ذكرتم من تلقى الحمولة ومن مزاحمة أهل السوق ومن النتر والجذب فأنا أقطع عرض السوق من قبل أن يقوم أهل السوق لصلاتهم ، ثم يكون رجوعى على ظهر السوق ، وأما ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل فانى من لدن خروجى من منزلى الى أن أقترب من باب صـاحبى فانما نعلى فى يدى

وسراويلي في كمي .. فاذا صرت اليه لبستهما ، فاذا خرجت من عنده خلعتهما ، فهما فى ذلك اليوم اودع ابدانا واحسن حالا . بقى الآن لكم مما ذكرتم شيء ؟

فقالوا جميعا فى عجلة :

ـ لا . .

فأردف الكندي باسما :

ـ ههنا واحدة تفى بجميع ما ذكرتم

فقالوا جميعا فى لهفة :

ـ ما هى ؟

ـ اذا علم المدين القريب ومن لى عليه الوف الدنانير شدة مطالبتى للمدين البعيد ومن ليس لى عليه الا الدراهم ، اتى بحقى كاملا ولم يطمع نفسه فى مالى . فهذا تدبير يجمع لى الى رجوع مالى طول راحة بدنى وليس من الحكمة أن أدع شيئا من دين يطمع فى فضلة ما يبقى على الغرماء

وسكت . فقالوا بأجمعهم فى صيحة اعجاب :

ـ لا والله لا سألناك عن مشكلة ابدا!

وجاء وقت الطعام ، ووضع الغلام الخوان ، وقدم « مضيرة » من لحم الجدى واللبن الحامض والتوابل والابزار ، تثنى على كرم اشعب وبنان وتشهد لهما بالسعة والرخاء ، فى قصعة عظيمة يزل عنها الطرف بهاء ورواء ، فما اخذت من المائدة مكانها ، حتى قام الحلاق على قدميه ساخطا لاعنا ، يسب آكلها وطابخها ، فظنه الحاضرون يمزح ، فاذا هو جاد فى الكلام واذا

هو يتنحى بعيدا تنحى السليم عن الاجرب ، فرابهم امرها وخافوا أن يمدوا اليها يدا ، فرفعوها فارتفعت معها قلوبهم وسافرت خلفها عيونهم . وتحلب لها فم الكندى وتلمظت لها شفتاه ، ولكنه أذعن على مضض، واقبل كما أقبل الآخرون على الحلاق يسألونه عن أمرها فتنهد وقال :

ـ قصتى معها اطول من مصيبتى فيها !

وسكت ، فصاحوا به :

ـ تكلم !

فتردد ثم قال :

ـ اخاف لو حدثتكم بها الا آمن من غضبكم واضاعة وقتكم ..

فزاد بذلك رغبتهم فى الاستطلاع فقالوا له جميعا :

ـ تحدث

فجلس واطرق ساعة ثم رفع راسه وقال :

ـ منذ سنوات ثلاث دعانى حلاق من اخوانى الحلاقين ، ترك الحرفة بعد ان اثرى وجمع الاموال ، الى أكلة « مضيرة » . ولزمنى ملازمة الظل الى أن تركت حانوتى وزبائنى وأجبته اليها ، وقمنا . فجعل طول الطريق يثنى على زوجته ويفديها بمهجته ويصف حذقها فى صناعة المضيرة وتأنقها فى طبخها ، ويقول :

ـ يا صاحبى لو رايتها والخرقة فى وسطها وهى تدور فى المطبخ بين القدور تنفث بفمها النار وتدق بيديها الابزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبر فى ذلك

الوجه الجميل ، لرايت منظرا تحار فيه العيون . وانا اعشقها لانها تعشقني ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، ولاسيما اذا كانت من طينته ، وهي ابنة عمي لحا . مدينتها مدينتي وارومتها أرومتي . ولكنها أوسع مني صدرا ، واحسن خلقا

ومضى يحدثني بصفات زوجته حتى انتهينا الى الجهة التي يقيم فيها . فقال :

ـ يا صاحبي ترى هذه الجهة هي اشرف موقع بالمدينة ، يتنافس الاخيار في نزولها ولا يقطنها غير كل عظيم وانما المرء بالجار . وداري في وسطها كالنقطة في الدائرة انظر الى داري وقل لي كم تقدر ثمنها . قله تخمينا ..

قلت :

ـ الكثير ..

فقال :

ـ يا سبحان الله ! تقول الكثير فقط ؟

وتنهد ثم قال :

ـ سبحان من يعلم الاشياء !

وانتهينا الى باب داره فقال :

ـ كم تقدر يا صاحبي ما أنفقت على هذا الباب ؟ أنفقت والله عليه فوق الطاقة ، كيف ترى صنعه وشكله ؟ ارأيت بالله نظيره ؟ انظر الى دقائق الصنعة فيه ، وتأمل حسن تعريجه فكأنما خط بالبركار ، ثم هذه الحلقة فيه لقد اشتريتها في سوق الطرائف من

عمران الطرائفي بثلاثة دنانير . وكم فيها من النحـــاس يا صاحبي ! فيها ستة أرطال ! بالله دورها ثم أنقرها وأبصرها



وقرعنا الباب ودخلنا الدهليز . فقال :

ــ عمرك الله يا دار ولا خربك يا جدار . تأمل بالله المعــارج ، وتبين دواخلهــا وخوارجها ، وسلني كيف حصلت عليها ، وكم من حيلة احتلت لها . فلقد كان لي جار يكنى أبا سليمان ، يسكن هــذه الدار ، وله من المــال ما لايسعه الخزن . فمات رحمه الله وخلف خلفا أتلف المــال بين الخمر والزمر ، وخشيت أن تذهب الدار فيما ذهب . ويفـــوتني شراؤها فأتقطع عليهـــا حسرات الى يوم الممات ، فاحتلت حتى اقرضت صاحب الدار ما لا أحتاج اليه ، وتغافلت عن اقتضــائه حتى كادت حاشية حاله ترق فسألته أن يجعل داره رهينة لدى ، ففعل . ثم صبرت عليه الى أن أفلس وآلت الى الدار بثمن بخس . وانا بحمد الله محظوظ . وحسبك يا صاحبي أني كنت منذ ليال نائما في البيت مع من فيه اذ قرع علينا الباب . فقلت : من الطـــارق ؟ .. فاذا امراة معها عقد لؤلؤ تعرضه للبيع فأخذته منها أخذة خلس واشتريته بثمن زهيد وسيكون له ربح وافر بعون الله تعالى . وانما حدثتك بهذا الحديث لتعلم ســعادة حظي . والسعادة تنبط الماء من الحجارة . الله أكبر ، لا ينبئك أصدق من نفســـك . ثم اني اشتريت هـــذا

الحصير فى المناداة وقد اخرج من دور آل ثراء ، وكنت اطلب مثله منذ زمن طويل فلا أجد . تأمل بالله دقتــه ولينه وصنعته ولونه . وان كنت سمعت بأبى عمران الحصيرى ، فهو عمله وله ابن يخلفه الآن فى حانوته ، لايوجد أعلاق الحصر الا عنده ، فبحياتى لا اشتريت

الحصر الا من دكانه . فالمؤمن ناصح لاخوانه ونعود الى حديث المضيرة فقد حان وقت الظهر .. يا غلام الطست والمــاء ..

فقلت :

ــ الله اكبر ، ربما قرب الفرج

وتقدم خادمه . فقال :

ــ ترى هــذا الغلام ؟ انه رومى الاصــل ، عراقى النشء . تقدم يا غلام ، واحسر عن رأسك ، وانض عن ذراعك ، واقبل وادبر

ففعل الخادم ذلك . وقال صاحب الدار :

ــ بالله سلنى من اشتراه ؟ اشتراه والله أبو معن من النخاس . يا غلام ضع الطست وهات الابريق

فوضعه الغلام وأخذه المضيف وقلبه بين يديه وادار فيه النظر ثم نقره وقال :

ــ انظر الى هــذا النحاس الاصفر كانه قطعــة من الذهب ، نحاس الشام وصنعة العراق . تأمل حسنه

وسلنى متى اشتريته ؟ اشــتريته والله عام المجاعة يا غلام .. الابريق !

فقدمه . واخذه رب البيت فقلبه بين يديه وقال :

ـ انبوبة منه ، لا يصلح هذا الابريق الا لهذا الطست ، ياغلام ارسل الماء ، فقد حان وقت الطعام ! بالله ترى هذا الماء ما أصفاه ، أزرق كعين السنور . وكأنه لسان الشمعة فى صفاء الدمعة . وهذا المنديل سلنى عن قصته . فهو نسج جرجان ، وقع الى فاشتريته . فاتخذت امراتى بعضه سراويل واتخذت بعضه منديلا . دخل فى سراويلها عشرون ذراعا . وانتزعت انتزاعا من يدها هذا القدر واسلمته الى المطرز حتى صنعه كما تراه وطرزه . فادخرته للظراف من الاضياف أمثالك . يا غلام ، الخوان والقصاع والطعام ، فقد كثر الكلام

فأتى العبد بالخوان، وقلبه صاحب البيت ، ونقره ، وعجمه بأسنانه ، وقال :

ـ عمر الله بغداد فما أجود متاعها . تأمل بالله هذا الخوان وانظر الى خفة وزنه وصلابة عوده وحسن شكله

فقلت له :

ـ هذا الشكل ، فمتى الاكل ؟

فقال :

ـ الآن . عجل يا غلام بالاكل ، لكن الخوان قوائمه منه . . .

فقنطت وقلت فى نفسى :

ـ قد بقى الخبز وآلاته وصفاته والحنطة من أين اشتراها وكيف اكترى لها حمالا وفى اى رحى طحن وكيف عجن وخبز ، وبقى الحطب ومتى جلب وكيف

صفف وجفف . وبقي الخباز ووصفه والدقيق والخمير وشرحه ، بقي البقل وكيف قطف ونظف ، وبقيت المضيرة كيف اشترى لحمها ووفى شحمها .ونصب قدرها ودقت ابزارها حتى أجيد طبخها وعقد مرقها ، وهذا خطب يطم . فقمت

فقال : « أين تريد يا صاحبى ؟ »

فقلت : « حاجة أقضيها »

فقال :

ـ تريد كنيفا أحسن من مصيف الامير ويزرى بمقصورة الوزير ، قد سطح سقفه وفرشت أرضه بالمرمر ، يمشى على أرضه الذباب فيزلق ، وعليه باب من ساج وعاج ، مزدوجين أجمل ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه ؟

فقلت له : « كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف فى الحساب » . وخرجت من الدار وجعلت أعدو ، وهو يتبعنى ويصيح بى :

ـ يا أبا الفرج . . . المضيرة !

وظن الصبيان فى الطريق أن المضيرة لقب لى ، فصاحوا صياحه فضجرت ورميت أحدهم بحجر ، فأصاب الحجر عمامة رجل عابر وغاص فى هامته . فأخذت من صفع الناس بما طاب وخبث . وضربت والله حتى نسيت اسمى . ثم حشرت الى الحبس فأقمت عامين فى ذلك النحس . وخرجت فنذرت الا آكل مضيرة طول حياتى . فهل أنا فى ذا يا أسيادى واخوانى ظالم ؟ !.. »

وسكت الحلاق . ونظر الى الجالسين يمنة ويسرة فوجدهم ينفخون ويتلمظون لا من الجوع ، بل من الغيظ . ولم يجدوا كلاما يقولونه له

ولم ير أشعب جوابا يجيب به غير الاشارة الى العبد والصياح فيه قائلا : « علق هذا الحلاق من العقبين ، الى أن نفرغ من العشاء ! »

وأرجعوا « المضيرة » ، فعادت اليهم باردة منكمشة كالعجوز الحيزبون ، فأكلوها وقد ذهب رواؤها ومضت لذتها فجعل الكندى يمضغ ويقول لاشعب :

ــ الم أقل لك : وددت انك بلغت بهذا الحلاق الى ان تأتى على نفسه ؟

حيلة شيطانية ..

لبث أشعب وبنان على هذه الحال أياما ينفقان مما عندهما على طيب الطعام وجيد الشراب ، الى أن أوشك ما جمعاه أن ينضب ، ولمحا شبح الفاقة والجوع يقترب ، فحدثتهما النفس أن يصنعا ههنا ما صنعاه فى عرفات . ولكن على نسق آخر ، خوفا من سوء العاقبة . فبعث أشعب الى الجارية « رشأ » فحضرت واعد هو وبنان منزلا فى زقاق العطارين يشرف على السوق . وأوصيا الجارية أن تخطر بقدها المائس أمام المسجد اذا اجتمع الناس لصلاة العصر . فمضت وعلى وجهها خمار أسود تزهر من تحته عيناها كأنهما النجوم فما كادت تسير خطوات حتى سمعت خلفها من يهمس فى أذنها :

قال للمليحة فى الخمار الاسود :
ماذا فعلت بزاهد متعبد ؟

قد كان شمر للصلاة ثيابه
حتى خطرت له بباب المسجد

ردى عليه صلاته وصيامه
لا تقتليه ، بحق دين محمد !

فالتفتت ، فرات رجلا ليس من اهل البــلد نظيف الهيئة ، وقور الطلعة يحد اليها النظر . فقالت له :

ــ اتبعني ..

فقال لها : « ان شريطتى الحلال »

فقالت له :

ــ قبحك الله ، ومن يريدك على حرام ؟

فخجل الرجل . وغلبته نفسه على رأيه فتبعها . ومشيا حتى دخلا الزقاق وبلغا المنزل. وصعدت الجارية درجة وقالت للرجل :

ــ اصعــد ..

فصعد .. فقالت له :

ــ ان لي وجها أحسن من العافية ، مع صوت كصوت « ابن سريج » وترنم « معبد » وتيه « ابن عائشة » أجمع لك هذا كله فى بدن واحد بأشقر سليم

فقال لها :

ــ وما أشقر سليم ؟

فقالت :

ــ بدينار واحد ، يومك وليلتك . فاذا أقمت جعلت الدينار صداقا وتزويجا صحيحا

فقال الرجل :

ــ لك ذلك اذا جمع لى ما ذكرت

فأجلسته فى صــدر الدار وخلعت خمارها . ورأى الرجل جمالها . فذهب عقله . وقامت الجارية فقال لها :

ـ الى اين جعلت فداك ؟

ـ البس واتهيأ ..

فصاح الرجل :

ـ بالله لا تمسى غمرا ولا طيبـا ، فحسبك بدلالك وعطرك . . .

فابتسمت له ابتسامة اجهزت عليه ، وذهبت . وجاء الغلام ، فحيا الرجل أجمل تحية ، واسر له في اذنه :

ـ اأخبرتك شريطتها ؟

فقال الرجل :

ـ لا والله .. ما شريطتها ؟

فقال الخادم :

ـ لعلها نسيت تخبرك . هى والله أفتك من «عمرو ابن معديكرب» وأشجع من « ربيعة بن مكدم » ولست بواصل اليها حتى تسكر وتغلب على عقلها ، فاذا بلغت ذلك الحال ففيها مطمع

فقال الرجل :

ـ ما أهون ذلك وأسهله !

فأردف الخادم :

ـ ثم شيء آخر ..

ـ ما هو ؟ ..

ـ اعلم انك لن تصل اليها حتى تتجرد لها وتراك مجردا مقبلا مدبرا

فقال الرجل :

ـ وهذا أيضا أفعله

وتركه الغلام ومضى . واقبلت الجارية تموج ظرفا وتميس لطفا فقالت :

ــ هلم دينارك !

فاخرج الرجل دينارا نبذه اليها فصفقت فاجابها العبد . فقالت له :

ــ قلْ لابى الحسن وابى الحسين هلما الساعة !

ومضى قليلْ . فاذا شيخان خاضبان نبيلان ، هما أشعب وبنان ، قد أقبلا فصعدا . فقصت الجارية عليهما القصة . وغمزت لهما بعينها غمزة خفيفة لم يلحظها الرجلْ . فقام أحدهما فخطب وأجاب الآخر . ودعيا الرجلْ فاقر بالتزويج واقرت الجارية . ودعا الشاهدان بالبركة ، ثم نهضا وخرجا واستحيى الرجلْ أن يحمل المرأة شيئا من المؤونة فاخرج دينارا آخر دفعه اليها وقالْ :

ــ اجعلى هذا لطيبك ..

فقالت له :

ــ يا أخى ، لست ممن يمس طيبا لرجلْ ، انما اتطيب لنفسى اذا خلوت

فقال لها :

ــ فاجعليه اذن لعشائنا الليلة

قالت :

ــ أما هذا فنعم ..

ونهضت فأمرت بإصلاح ما يحتاج اليه . ثم عادت واقبل المساء ، فدعت بالخوان والنبيذ . فتعشيا

وشربا . وأمسكت بالعود واندفعت تغنى :

راحوا يصيدون الظباء وانني
لأرى تصيدها على حراما

أعزز على بأن أروع شبهها
أو أن تذوق على يدى حماما

فكاد الرجل يجن سرورا وطربا . وقال لها :

ــ جعلت فداك ، من يغنى هذا ؟

قالت :

ــ اشترك فيه جماعة ، هو لمعبد ، وتغنى به ابن سريج وابن عائشة

وجعل الرجل يحتال لتدنو منه فتأبى عليه ، ثم غنت بصوت لم يفهمه للشقاء الذى كتب عليه :

كأنى بالمجرد قد علته
نعال القوم أو خشب السوارى

فقال لها :

ــ جعلت فداك ، ما افهم هذا البيت ، ولا احسبه مما يتغنى به !

قالت :

ــ أنا أول من تغنى به

فقال :

ــ انما هو بيت عابر لا ثانى له ؟

قالت :

ــ معه آخر ليس هذا وقته . هو آخر ما أتغنى به

فسكت الرجل ، وجعل لا ينازعها فى شىء اجلالا

لها ، الى أن اذنت العشاء ، فوضعت عودها . فقام فصلى العشاء ، وما يدرى كم صلى عجلة وشوقا .

وفرغ من صلاته فأقبل عليها يقول :

ـ تأذنين جعلت فداك فى الدنو منك ؟

قالت :

ـ تجرد !

وأشارت الى ثيابها كأنها تريد أن تتجرد ، فكاد الرجل يشق ثيابه عجلة للخروج منها . فتجرد ، وقام بين يديها . فقالت له :

ـ امض الى زاوية البيت ، واقبل وادبر ، حتى اراك مقبلا ومدبرا !

واذا فى زاوية البيت حصير فى الغرفة على الطريق فخطر الرجل عليه . واذا تحته خرق الى السوق . واذا الرجل يجد نفسه فى السوق مجردا عاريا كما ولدته أمه واذا الشيخان الشاهدان « أشعب وبنان » قد أعدا نعالهما على قفاه ، واستعانا بأهل السوق . فما أبقوا فيه عظما صحيحا . وبينما الرجل يضرب بنعال مخصوفة وايد مشدودة ، اذا صوت تغنى به الجارية من فوق البيت :

ولو علم المجرد ما اردنا
لحاربنا المجرد بالصحارى

فقال الرجل فى نفسه :

ـ هذا والله وقت هذا البيت !



امعن أشعب وبنان فى هذا السبيل بمثل هذه الاساليب ، حتى ضجت الناس وعمت الشكوى . وبلغ الامر والى المدينة وكان شديد الورع ، صارم الخلق ، عبوس الوجه . فارسل فى طلب هذين المفسدين ، وامر بهما للفور فجردا من ثيابهما وضربا ثلاثين سوطا . وامر باموالهما الحرام فمضت الى بيت المال

وتحمل أشعب وبنان الضرب . ولكنهما لم يتحملا كارثة ذهاب المال . فصاح أشعب يستأذن على الوالى فأذن له . فبكى بين يديه وتباكى وقال :

ـ أصلحك الله ! انجرد من ثيابنا ومن مالنا فى يوم واحد ؟

فقال له الوالى :

ـ يا عدو الله ! لقد كنتما تجردان الناس من هذا وذاك فى ليلة واحدة

ورأى أشعب الا حيلة له مع هذا الوالى الا ان يضحكه ، فلعله ان ضحك عفا . فجعل يقص عليه طريف النوادر والوالى فى اطراقه وتقطيبه وعبوسه لا يعبر وجهه خيال ابتسامة . وسكت أشعب قانطا

فرفع الوالى راسه وقال له :

ـ لو انك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر لكان أولى بك

فقال أشعب : « قد فعلت »

فقال له الوالى : « أسمعنى ما حفظت من الحديث »

فتنحنح اشعب ثم قال :

ـ حدثنى نافع ، عن ابن عمر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

ـ من كان فيه خصلتان كتب عند الله خالصا مخلصا

فقال الوالى :

ـ هذا حديث حسن ، فما هاتان الخصلتان ؟

فحار اشعب وتفكر لحظة ثم قال :

ـ نسى نافع واحدة

فقال الوالى : « والاخرى ؟ »

فقال اشعب :

ـ والاخرى . . نسيتها أنا

فلم يجب الوالى . ولم يزد على أن امر باشعب فضرب ثلاثين أخرى . . .

في العرس ..

جعل أشعب وبنان يطوفان فى الاسواق متجردين من مالهما وقد أعياهما الجوع وضاقت بهما الحياة . ولم يبق لهما مما سلف ، غير ذكرى تعاود أشعب فى كل ليلة . فيرفع عقيرته صائحا :

شربنا كئوس السعد حتى كأننا
ملوك لهم فى كل ناحيــة وفر

فلما اعتلت شمس النهار رأيتنا
تخلى الغنى عنا وعاودنا الفقر

واتعبتهما كثرة المشى ، فقال بنان :

ـ مالنا نمشى فى غير حاجة ؟

فقال اشعب :

ـ صدقت . والله لقد انسانا العز وصايا اســاتذة التطفيــل رحمهم الله ، لقــد جاء فى بعض نصــائحهم الذهبية : « لا تمش الى موضع لا تمضغ فيه شيئا »

فقال بنان :

ـ لو عرفنا موضع المضغ . . .

فأجاب اشعب :

ـ لمشينا اليه دهرا

وتنهد الرجلان ، ومضيا فى السير . واذا الفرج يلوح لهما عن كثب فى هيئة عرس فى طرف المدينة ، قد نمت انواره عن عظم شأنه فصاحا معا صيحة واحدة .

وركضا اليه . ولكنهما وجدا دونهما بابا قد ارتج وبوابا وقاحا غليظ الطبع يسب من لايعرف من القادمين ويدفع بيده فى صدورهم فعلما ألا سبيل الى الدخول الا بالحيلة . فانصرف كل منهما يدبر لنفسه أمرا

وانطلق اشعب من ساعته يسأل عن صاحب العرس ان كان له ولد غائب أو شريك فى سفر ، فعلم أن له ولدا فى اليمن هو أخ للعروس فأخذ فى الحال ورقة بيضاء فطواها وختمها وليس فى بطنها شىء وجعل العنوان « من الاخ الى العروس » ثم أقبل متدللا . فقعقع الباب قعقعة شديدة ، فقال له البواب :

— من انت ؟

فقال اشعب :

— أنا رسول من عند اخى العروس

ففتح له الباب. وتلقاه صاحب البيت فرحا قائلا له :

— كيف فارقت ولدى ؟

فقال أشعب :

— بأحسن حال ، وما أقدر أن أكلمك من الجوع !

فأمر صاحب العرس بالطعام فقدم الى أشعب ، فجعل يأكل . ولم يطق صاحب الدار انتظارا فقال :

— أما معك رسالة ؟

فقال أشعب :

ـ نعم . . .

ودفع اليه بالورقة فأخذها الرجل فوجد خاتمها طريا ، فقال :

ـ ارى الطين طريا ؟

فأجاب اشعب وفمه منتفخ بالطعام :

ـ نعم ، واعجب من هذا انه ليس فى بطن الرسالة ولا حرف واحد لان ولذلك من العجلة لم يكتب فيه شيئا

فنظر اليه صاحب العرس شذرا ، وقال له :

ـ اطفيلى انت ؟

فأجاب اشعب وهو يمضغ :

ـ نعم ، اصلحك الله !

فقال الرجل :

ـ كل ، لا هناك الله !

***

اما بنان فقد حار ماذا يصنع للدخول . ثم تذكر أن فى يده خاتما بقى له من أيام العز . فذهب من فوره الى بقال فرهنه عنده على عشرة اقداح وجاء الى باب العرس يصيح :

ـ يا بواب افتح لى !

ـ من أنت ؟

ـ اراك لا تعرفنى .. انا الذى بعثونى اشترى لهم الاقداح ..

ففتح له البواب . فدخل بنان فأكل هو أيضا وشرب

مع القوم ، حتى فرغ فقام واخذ الاقداح وخرج فردها على البقال واسترد خاتمه

***

لم تكن الحيلة تنقص اشعب وبنان انما الذى كان ينقصهما هو العلم بموضع الولائم والاعراس فان دون ذلك البحث الطويل والجهد الكثير ولم يفتح الله عليهما بحل لهذه المضـلة . الى أن خطر على بال بنان يوما خاطر فقال لصاحبه :

ـ لايعرف مكان الولائم والاعراس غير غلمان الازقة والطرق . فانك لتراهم منتشرين فى كل مكان ، ولهم علم بكل شأن . ولعل من بين عيالك من تشرد مثلهم . فأوص الاشد من اولادك أن يأتينا بالإخبار

وكان الحق فيما قال ، اذ لم يمض يوم حتى جاء ابن اشعب يجرى ، فأخبرهما انه مر ببـاب قوم عندهم وليمة . فأسرعوا ثلاثتهم الى تلك الدار ودخلوا . واذا صاحب البيت قد وضع سـلما ، فكلما راى شخصـا لايعرفه قال له : « اصعد يا أبى » . فصـعد بنـان وأشعب وابنه ، فوجدوا أنفسهم فى غرفة مفروشة . وتوالى الصعود الى هذه الغرفة حتى وافى فيهـا ثلاثة عشر طفيليا . ثم رفع السلم ، ووضعت الموائد فى أسفل الدار . وبقى أشعب ومن معه فى العلو ينظرون متحيرين فقال بعضهم :

ـ ما مر بنا مثل هذا قط ..

فنظر أشعب الى الحاضرين مليا وقال :

ــ يا فتيان ما صـناعتكم ؟

فقالوا :

ــ الطفيليـة

فقال لهم :

ــ ما عندكم فى هذا الامر الذى وقعنا فيه ؟

فأجابوا :

ــ ما عندنا فيه حيلة !

فقال لهم :

ــ واذا احتلت لـكم حتى تأكلوا وتنزلوا ، تقرون لى انى اعلمكم بالتطفيل ؟

فنظروا اليه وقالوا :

ــ ومن تكون أنت بالله ؟

فقـال :

ــ انا أشعب !

فقالوا على الفور :

ــ قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا

فقام أشعب ، وأطل على صـاحب الدار وضـيوفه يأكلون ، فصاح به :

ــ يا صاحب البيت !

فرفع الرجل راسه قائلا :

ــ مالك ؟

فقال له أشعب :

ــ أيهما احب اليك ، تصعد الينا بخوان كبير فأكل وننزل ، أو ارمى بنفسى راسيا من هذا العلو فيخرج

من دارك قتيل ويصير عرسك مأتما ؟ !

ثم جعل أشعب يجر سراويله ، كأنه يريد أن يعدو ويرمى بنفسه .. فجعل صاحب الدار يقول :

ــ اصبر ، ويلك ، لا تفعل !

ثم أصعد اليهم خوانا ، انقضوا عليه انقضاض جوارح الطير . . .

وجعل ابن اشعب يأكل ، ثم يشرب ، ثم يأكل .. حتى لم يبق شيء يؤكل فقاموا ، وعند ذلك . . . انتحى أشعب بابنه ناحية ولطمه هامسا :

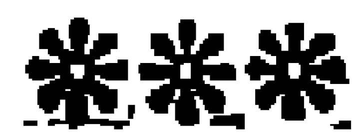
ــ لو جعلت مكان كأس الماء الذى شربته لقيمات. . .

فأجاب الابن على الفور :

ــ ان كأس المــاء يوسع محلا للقم

فتأمل إشعب كلام ابنه لحظة، ثم صفعه ثانية وقال :

ــ لم لم تنبهنى الى ذلك قبل جلوسنا الى الخوان؟



منذ ذلك اليوم جعل نفر من أولئك الطفيليين الثلاثة عشر يختلفون الى أشعب ، ويجلسون حوله فى طرف من أطراف السوق ، يستمعون الى حديثــه ويتلقون نصحه ، ولزمه واحد من هؤلاء ملازمة الظل ، وجعل احيــانا يحمل الى أشــعب بعض الطعــام ويتلطف له ويترضاه ليأخذ عنه بعض أساليب تلك الصناعة ، وكان يلح عليه الحاحا ينم عن شدة تعلقه بالتطفيل ، وجاء هذا التلميذ الى أستاذه ذلك المساء بطبق فيه تمر وقعد بين يديه كما يقعد كل يوم قائلا له :

ـ انصحنى !

فوضع أشعب الطبق فى حجره وطفق ياكل .. ثم تنحنح وقال :

ـ اذا دخلت عرسا ، فلا تتلفت تلفت المريب ، وتخير المجالس ، وان كان العرس كثير الزحام فلتمض ، ولا تنظر فى عيون الناس ، ليظن أهل المرأة ، أنك من أهل الرجل ، ويظن أهل الرجل أنك من أهل المرأة ، فان كان البواب غليظا وقاحا فتبدأ به وتأمره وتنهاه من غير أن تعنف عليه ولـكن بين النصيحة والادلال . . .

وسكت أشعب واشتغل بالتمر ، فقال التلميـذ : زدنى !

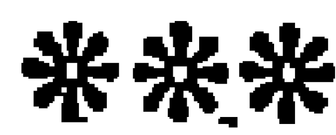
فقال :

ـ اذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره قط ، وتزود منه زاد من لايراه أبدا

ـ زدنى !

ـ واذا دعيت الى وليمة ان شاء الله ، فاياك ثم اياك ان تتأخر الى آخر الوقت ، بل استـخر الله وكن من السبق وأول من يوافى ، واعلم انه ليس يجىء فى أول الاوقات الا جلة الناس وسراتهم ، فقعودك مع مثل هؤلاء فائدة ، وأنت معهم آمن مطمئن مسرور ، تسمع كل حديث حسن وخبر ظريف ، وأنت ريح البدن واسـع الموضع طيب المكان ، فالزم هذه الطبقة لا يزايل سوادك بياضـهم فتهلك ، فهـؤلاء هم الذين يعرفون حقـك ويكرمونك ويجلونك ويحلفون بحيـاتك وتعرف السرور

فى وجوههم ، فصلوات الله على هؤلاء وعلى من ولدهن !



وقعودك على أول مائدة فيه خصال كثيرة محمودة ، اعلم يا مفقل انك أول من يغسل يده ، والخوان بين يديك ، واول القنينة أنت تشربه ، والبقل الجيد يوضع قدامك ، واول من يتبخر انت ، ثم انك تأكل رؤوس القدور ، وكل شيء كثير ، والقدور ملأى ، والماء بارد ، والخباز نشيط ورب المنزل فرح مسرور ، وكل شيء من أمرك مستور ، أما اذا تأخرت أو تكاسلت الى آخر الوقت فقد عطبت وهلكت ، فانك تصادف الطعام باردا وهو فضلات القدور

والرقاق بقايا عجين ، فقد استعملوا الجيد ، والماء سخنا ، وصاحب الوليمة ضجرا متبرما ، ذلك انه لا يقعد على آخر مائدة الا ضعفى الجيران ومساكين المكان والقوام ، فاذا قال لهم صاحب الدار : « قوموا ، سارعوا الى الخوان » نهضوا مزدحمين فانبسطوا فى ميدان المضغ ورفعوا قناع الحشمة والصقوا الاكتاف بالاكتاف كأنهم بنيان مرصوص ، يأكلون ميمنة وميسرة وتدور أيديهم على الخوان شرقيا وغربيا وتسمع للقم فى حلوقهم معمعة ، فان قدم لهم جداء وحملان فانما يقدم الجدى اضلاعا بلا لحم ، فوقه جلد وحوله «خس» و « هندبا » كأنه كوخ ناطور قد وقع خشبه وبقى القصب قائما . فماذا يكون حال من يأكل مع هؤلاء ؟ انه يخرج من العرس وما معه من العرس الا شم الطعام وتمشيش العظام . . .



وسكت أشعب . فقال صاحبه :

ـ زدنى ..

فقال أشعب :

ـ واذا قمت من المائدة وقد تغديت ، فاقعد فى وسط الدار يضربك الهواء ، وادع بالشراب ، فان أتوك بنبيذ فهو أحب الى ، رطلا أو رطلين ، ولا تصب فيه ماء ، وان حلفوا عليك فأدخلوك البيت فلا تتعد فى الصدر فان القعود فى الصدر قعود مغن أو مخرف ، وان كان فى البيت فاكهة كثيرة فاجذب منها اليك ، اذ اذ لا تأمن أن تذهب وتبقى أنت بلا شىء ، ولا تكن أنت الساقى ، وكن ذنبا ولا تكن رأسا ، وان كان فى المجلس مغنية أو جارية حسنة الوجه فاتق الله فى نفسك ولا تولع بواحدة منهما والزم العافية ، واذا دار النبيذ فى الاقداح فاياك أن تسكر وأن يرى القوم منك زلة أو كلمة غلط فتخرج وقد انهتك سترك عندهم ، فانك ان خلطت وولعت ومزحت فانما هو صفع كله وعداوة بين جيرانك . اشرب خمسة اقداح او ستة اقداح أو سبعة أقداح ولا تسكر ، فان خشيت على نفسك فقم وأنت صحيح وعقلك معك ، وانما شرحت لك كل هذا تفصيلا رغبة فى اسداء النصيحة ، فافهم تعلم ، وتعلم بأدب ، متعك الله بسعة الصدر وطيب الاكل والصبر على المضغ ، انها دعوة مغفول عنها



وسكت أشعب ، وسكت تلميذه ، واذا جماعة من

أصحابها الطفيليين قد أقبلوا يتصايحون مهللين فعلم أشعب أنها وليمة ، فوثب على قدميه وقام التلميذ لقيامه ، وصاح أشعب فى الجماعة :

ـ أين ؟

فقالوا :

ـ اتبعنا . . .

فشمر عن ساقيه وقال لهم :

ـ بل اتبعونى أنتم !

فساروا فى أثره ، ومشى هو على راسهم ، ينظر الى السماء ويدعو الله قائلا :

ـ اللهم لا تجعل البواب لكازا فى الصدور ، دفاعا فى الظهور ، طراحا للقلانس ، هب لنا رأفته وبشره وسهل لنا أذنه !

وبلغوا بابا كبيرا قد رش الطريق أمامه وكنس ، فاعتدل أشعب ، وانتفخ فى ثيابه ، وشمخ بأنفه وسار متهاديا متعاليا متباطئا ، ودخل غير ناظر الى البواب ، فأفسح له البواب غير مجترىء على اعتراضه ، وقد ظن أنه ذو مقام ، وتبعه صبيانه وهم يشيرون اليه ، وينظرون الى البواب كأنهم يقولون له :

ـ نحن أصحابه وخلانه

واستجاب الله دعاء أشعب ، فيسر له الدخول ، وما شعر أن قدميه فى الدار هو وأصحابه حتى أسرع فجلس وأجلسهم حوله . . . ودعى بالطعام ، وحضرت الموائد ، وكان كل جماعة على مائدة لكثرة

الناس ، ونظر اشعب الى مائدة شهية توضع امامهم ، فالتفت الى أصحابه وقال لهم :

ـ افتحوا افواهكم ، واقيموا أعناقكم ، واجيدوا اللف ، واشرعوا الاكف ، ولا تمضغوا مضغ المتعللين الشباع المتخمين ، واذكروا سوء المنقلب وخيبة المضطرب !

وشمر عن ساعده ، واذا تلميذه قد تعلق بكمه قائلا له :

ـ انصحنى !

فنظر اليه شذرا ، فليس هذا وقت النصائح ، والكلام الساعة يفوت عليه المنفعة ، وأية نصيحة يطلبها هذا أكثر من وجود الطعام ذاته بين يديه ؟ ولكنه عاد فتذكر هدايا صبيه واطباقه فى أوقات العسر والمحنة فتلطف له وقال :

ـ انظر الى ولا تخالفنى على كل ما اقول !

وجاءوهم بقصعة عليها « سمذان » ، فقال اشعب لتلميذه :

ـ كل من الاحمر ، فان فيه طعمين : طعم السكر ، وطعم الزعفران

ولم يدعه يأكل غيره ، ثم أتوهم « بالهريسة » فقال اشعب لصبيه :

ـ كل منها لقمة أو لقمتين أو ثلاثا

فأكل التلميذ القدر الذى أمر به ، ولم يرد ، وجاءوهم « بالزيرباج » الاحمر

فقال اشعب :

ــ كل لقمة أو لقمتين

ثم أتوهم بالقلايا اليابسة فقال :

ــ لا تأكل الا لقمة او لقمتين ولا تكثر ، وأولع بهذا الخبز اليابس الذى فى القلية !

ثم جاءوهم « بالبقلية » فقال له :

ــ كل لقمة او لقمتين

ثم أتوهم بالشواء ، فقال له :

ــ لا تأكل منه شيئا وابق نفسك ، فأنا فى كل يوم نصيب الشواء « بدانق » يقوم مقام هذا ويكفيك

ثم جاءوهم « بالفالوذج » وكان كثيرا شبيها بالصومعة ، فقال لتلميذه :

ــ ايت من تحت حتى ينهار ، وكل واكثر ، فانك لا ترى هذا فى كل يوم

ثم أحضروا لهم « اللوزينج » فقال له :

ــ أزوج وثلث ، فان مت فى هذا مت شهيدا !

ثم أتوهم بطبق عليه دجاج مسمن مشوى ، فهوى عليه واكل منه أثنتين أو ثلاثا وقال لصاحبه :

ــ كل ولا تقصر ، فان قيمة هذه ثلاثة دنانير ، فلا تأكل الا ما له قيمة !

ولبث أشعب وأصحابه على هذه الحال ، وقد شغلهم امر بطونهم عن مائدة عظيمة فى ناحية من المكان قد وضعت امام والى المدينة ، ولم يفطن أشعب الى وجود الوالى ، ولكن الوالى فطن اليه ، وعرفه ، ولكنه كتم

ذلك ، ومال الى صاحب البيت وقال له :

ـ من صاحب القلنسوة الطويلة والطيلسان الاخضر؟

فقال صاحب الدار :

ـ أصلح الله الامير ، هذا رجل يقال له أشعب ، يشهد هذه الولائم دعى أو لم يدع

فقال الوالى :

ـ اذا أكل جئنى به



وفرغ الناس من الطعام ، ورفعت الموائد ، فاسرع صاحب البيت الى أشعب واحضره الى الوالى ، فلما صار بين يديه ، قال له الوالى :

ـ هل دعاك أحد إلى هذه الوليمة ؟

فوقع أشعب فى الحيرة وقال :

ـ لا ، أصلحك الله !

فقال الوالى :

ـ ألا تعلم أن من جاء الى طعام لم يدع اليه دخل سارقا وأكل حراما ؟

فقال أشعب :

ـ لا والله ما أكلت إلا حلالا

فنظر اليه الوالى دهشا :

ـ كيف ذلك ؟

فأجاب أشعب :

ـ أليس يقول صاحب الوليمة للخباز : « زد فى كل شيء ؟ » واذا أراد أن يطعم مائة قدر لمائة وعشرين وهو

يقول : « قد يجيئنا من نريد ومن لا نريد ؟ ! » ، فأنا ممن لا يريد

فابتسم الوالى واعجبه الجواب وقال لاشعب :

ــ لقد اقتصصنا منك فيما مضى، ذاك حق المسلمين ولكن اليوم سلنى حاجتك ؟

فقال أشعب :

ــ أطال الله بقاء الامير ، حاجتى : تكتب لى منشورا لايدخل على أحد فى هذه الصناعة الا ويدى عليه مطلقة

فضحك الوالى وهمس فى أذن صاحب الوليمة ثم امر لاشعب بهدية ، وأمر صاحب الوليمة له أيضا بهدية ، فخرج أشعب بأطباق من كل لون . . .

ضيف ثقيل ..

لبث أشعب أياما يسير فى الأسواق فى غير شيء ، ينتظر ان يوافيه أحد بخبر عرس أو وليمة وهو ينشد ويغنى :

كل يوم أدور فى عرصـــة الدار
أشـــم القتـــار شـــم الذباب

فاذا ما رأيت آثار عـــــرس
أو دخان أو دعوة الاصحـــاب

لم اعرج دون التقحم لا أرهبْ
ســـــبا أو لـكزة البـــواب

وطال انتظاره ، ووقف على رجل يعمـل طبقا من الخيزران فقال له :

ـ اسألك بالله أن توسعه قليلا وأن تزيد فيه طوقا أو طوقين ..

فرفع الخيزرانى رأسه وقال له :

ـ وما غرضك من ذلك ؟ أتريد أن تشتريه ؟

فقال أشعب :

ـ لا ، ولكن ربما اشتراه شخص يهدى الى فيه شيئا ذات يوم ..

ثم تركه ومشى ، فرأى رجلين يتهامسان ويتساران

فى طرف السوق .. فوقف على مقربة منهما ينظر اليهما . واذا تلميذه قد أقبل يقول له :

ـ لقد بحثت عنك فى مجلسك من السوق

فقال له اشعب على عجل : « أوليمة ؟ »

ـ لا .. ولكنه الشوق الى حديثك ..

فأشاح اشعب بوجهه عنه . وعاد الى النظر فى وجه الرجلين المتهامسين ، حتى افترقا وذهبا . فقال له تلميذه :

ـ أتعرفهما ؟

فقال اشعب وهو ينصرف خائبا مع صاحبه :

ـ لا ، ولكنى مارأيت اثنين يتساران الا ظننتهما يأمران لى بشىء

واطرق اشعب لحظة ، ثم رفع راسه وقال لصاحبه :

ـ كأنى بك لا تريد ان ازيدك فى النصح ؟

فنظر اليه تلميذه :

ـ لماذا ؟

فقال اشعب متخابثا :

ـ ذلك أنى ارى أطباقك قد انقطعت

فقال الرجل :

ـ ليس عندى الآن مايهدى

فقال اشعب :

ـ أوليس عندك مايؤكل ؟

فأجاب الرجل :

ـ اذا شئت فان دارى دارك . فأنت ليس منك حشمة

وقاد الرجل اشعب الى بيته وانزله ضـيفا عليه .
ودخل على امرأته فأوصاها أن تعد لاشعب عشاء طيبا .

واكل أشعب ، ثم نظر فى الدار وقال :

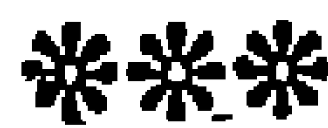
ـ عجبا ! أرى انك من استواء الحال على قدر تحمد الله عليه . فما شأنك وصناعة التطفيل ؟

فقال الرجل :

ـ لقد علقتها ولا طاقة لى بتركها

فقال أشعب :

ـ لو أضفتنى عندك اياما انصحك ، لما تركتك الا وقد حذقتها حذقا عظيما !



مكث اشعب فى دار الرجل اياما طويلة حتى ضجر وضجرت امرأته فقالت المرأة لزوجها ذات ليلة :

ـ يبقى الى متى ؟
ـ كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه ؟

فقالت المرأة بعد تفكر :

ـ انا أجيئك بالخبر

فقال زوجها :

ـ كيف تستطيعين ؟

فقالت :

ـ الق بينى وبينك شرا ونتحاكم اليه وأجاذبه الحديث

ونهضا من ساعتهما فتشـاجرا وتظاهرا بالغضب والخصومة ، وانطلقت المرأة الى أشعب تقول له :

ـ بالذى يبارك لك فى ذهابك غدا ، أينا اظلم ؟

فقال اشعب :

ـ والذى يبارك لى فى مقامى عندكم شهرا ، ما أعلم !

فأدركت المرأة وأدرك زوجها أن أشعب يطمع فى طول المقام . فسقط فى أيديهما . ولم يعلما مايصنعان .

واغتاظ الرجل وفكر حتى اهتدى الى حيلة ، فقال لامرأته :

ـ اذا كان غدا فانى أقول له : « كم ذراعا تقفز ؟ »

فأقفز أنا من العتبة الى باب الدار ، فاذا قفز هو فأغلقى خلفه . .

وكان الغد ، فأحكما التدبير . وجعل الرجل يحتال فى الحديث مع اشعب حتى قال له :

ـ كيف قفزك ؟

فقال أشعب :

ـ جيد

فقام الرجل لساعته فوثب من داخل منزله الى خارج الدار أذرعا وقال لاشعب :

ـ ثب !

فنهض أشعب ووثب لا الى الخارج ، بل الى داخل الدار ذراعين . فوجم الرجل ، وقال لأشعب :

ـ عجبا ! انا وثبت الى خارج الدار اذرعا ، وانت وثبت الى داخل الباب ذراعين ؟!

فقال أشعب من فوره :

ـ ذراعين الى داخل خير من أربعة الى « برا » !

انفض الناس عن أشـــعب اخر الامر . وهرب منه تلاميذه ومريدوه فقد ايقنوا انه قد انتهى الى الوقوع على منازلهم وتطبيق اصـــول التطفيل على موائدهم . قلبث اشعب اياما وحيدا حزينا لايجد انيسا ولا رفيقا ، ولا يظفر بغداء ولا بعشاء . وخطر على باله صديقه بنان . ولم يدر أين اختفى . فخرج يبحث عنه حتى قنط من الاهتداء اليه ، فقعد فى أول السوق يفكر فى أمر غده . واذا بنان قد أقبل يحمل قوسا ونشـــابا ويجر كلبا ، فما رآه أشعب حتى صاح به :

ـ أين كنت ؟ أخزاك الله !

فقال بنان :

ـ فى الصيد ، خيبك الله !

ـ الصيد !

ـ نعم ، صيد الطير والظباء . انه لعمل أجدى عليك من هذا القعود تنتظر ما لا يجىء ، قم معى الى الرزق الحلال ، تستمتع بالصيد الشهى واللحم الطرى والهواء النقى ...

فنظر اشعب الى ما فى يد صاحبه وقال :

ـ وأين لك بالقوس والنشاب ؟

ـ بعت خاتمى واشتريت كل ماترى

ـ وأنا ماذا أصنع ؟

ـ اصنع مثل ماصنعت أنا

ـ ليس عندى شىء يباع

ـ أوليس عند امرأتك أو عيالك شىء ؟

فنهض أشعب لوقته ، وقال لبنان :

ـ انتظر ها هنا حتى أعود

ومشى الى بيته . وأشعب لايذكر بيته الا يوم تضيق به الدنيا ، فصادف الكندى بالباب ...

فما رآه الكندى حتى خف اليه وعانقه عناق المشتاق وقال له فى صوت العتاب :

ـ ألا عدتنى وقد كنت مريضا ؟

فقال أشعب :

ـ جعلت فداك ، متى مرضت ؟

فقال الكندى :

ـ بعد أربعين يوما من تاريخ اليوم الذى أهديتك فيه القميص ..

فقال أشعب وهو يحسب عدد الأيام فى نفسه :

ـ بعد أربعين يوما من تاريخ البعثة بالقميص ! ى منذ متى على التحقيق ؟ ان هذا التاريخ والله ولا التاريخ القبطى !

ثم ترك الحساب والتفت الى الكندى قائلا :

ـ الحمد لله على كل حال .. اذ رأيتك وقـــد رد الله اليك العافية

ورأى أشعب أن ينتفع بهذا الشوق والود . وحدثته نفسه أن يفضى الى الكندى بما جاء له . فجلس الى جواره وتنحنح وقال :

ـ لى اليك حاجة

فقال الكندى على عجل :



ـ ولى اليك أنا ايضا حاجة

فقال اشعب واجما :

ـ وما حاجتك ؟

فقال الكندى :

ـ لست أذكرها لك حتى تضمن لى قضاءها

فقال أشعب :

ـ نعم

ـ حاجتى ان لا تسألنى هذه الحاجة

فقال أشعب :

ـ انك لاتدرى ما هى

ـ بلى . قد دريت

ـ فما هى ؟

فقال الكندى :

ـ هى حاجة ، وليس يكون الشىء حاجة الا وهى تخرج الى شىء من الكلفة

فقال أشعب متخابثا :

ـ هذا حق . ولكن ... أنت خير من يتكلف لى . وقد جئتك أسألك أن تسلفنى وتؤخرنى ...

فقال الكندى :

ـ هاتان حاجتان

فقال اشعب :

ـ نعم

فقال الكندى :

ـ وإذا قضيت لك احداهما ؟

فقال أشعب من فوره :

ـ رضيت

فقال الكندى :

ـ أنا اؤخرك ماشئت ولا أسلفك

فيئس أشعب منه . ولم ير فى الكلام معه غير انفاق الوقت فى غير طائل . فقام يريد الذهاب

فتفكر الكندى لحظة ثم صاح به :

ـ والله لاتنصرف خائبا

فوقف أشعب دهشا . ومضى الكندى يقول :

ـ اما الدرهم فانت تعلم أن ليس من عادتى اخراجه ، فهو متى القى فى الكيس سكن على اسم الله فلا يهان ولا يذل ولا يزعج ، أما اذا شئت فانى أهدى اليك قربة من عسل الرطب ، جاءتنى هدية من البصرة فبعها ان أردت وافض حاجتك !

فعجب أشعب ، ولم يصدق أذنه ، وأنكر ذلك من مذهب الكندى ، ولم يعرف جهة تدبيره . وهو يعلم انه انما يجزع من الاعطاء وهو عدوه . وأما الأخذ فهو ضالته وأمنيته ، وأنه لو أعطى أفاعى سجستان وثعابين مصر وحيات الأهواز لاخذها اذا كان اسم الاخذ واقعا عليها . فكيف يعطيه هذه الهدية التى جاءته ، بهـذا الكرم ؟ وجعل أشعب يحتال عليه ليعرف منه السبب . والكندى يتمنع ويتعسر . ثم باح بسره آخر الأمر قائلا :

ـ هذه الهدية التى جاءتنى ، خســـائرها اضعاف مكاسبها ، واخذها عندى من أسباب الادبار والدمار

فقال له اشعب :

ــ لعل أول خسارة احتمال الشكر عليها برد نظيرها !

فقال الكندى :

ــ هذا لم يخطر لى قط على بال

فقال اشعب :

ــ هات اذن ما عندك من الأسباب

فقال الكندى :

ــ اول ذلك كراء الحمال الذى ينقلها الى البيت . ثم هى على خطر حتى تصير الى منزلى ، فاذا صارت الى المنزل صارت سببا لطلب العصيدة والأرز . فان بعتها فرارا من هذا ، صيرتمونى شهرة وشـــنعة ، وان انا حبستها ذهبت فى العصائد واشباه العصائد ، وجذب ذلك شراء السمن ، ثم جـذب السمن غيره ، وان أنا جعلت هذا العسل نبيذا ، احتجت الى كراء القدور والى شراء الماء والى كراء من يوقد تحته والى التفرغ له . فان وليت ذلك الخادم إسود ثوبها وغرمنا ثمن الأشـــنان والصـــابون . وازدادت فى الطمع على قدر الزيادة فى العمل .. فان تفاضينا وصنعنا النبيذ على رغم ذلك ، وعلم الصديق أو النديم أن عندى نبيذا دق الباب دق المدل ، فان حجبناه فبلاء ، وان ادخلناه فشقاء ، اذ لابد له من دريهم لحم ومن طسوج نقل وقيراط ريحان ومن أبزار للقدر وحطب للوقود ، وهذا كله غرم ، ان رضيت به فقد شاركت المسرفين ، وفارقت اخوانى من المصلحين ، فاذا صرت كذلك فقد ذهب كسبى من مال

غيري وصار غيري يكتسب مني ، وانا لو ابتليت باحدهما لم اقم له ، فكيف اذا ابتليت بأن اعطي ولا آخذ ؟ اعوذ بالله من الخذلان بعد العصمة

***

أخذ أشعب القربة فأعطى نصفها لعياله وحمل النصف الآخر الى السوق فباعه بما بلغ . وذهب الى بنان فاخبره الخبر فضحك ، وضحكا . ثم نهضا . وقال بنان لصاحبه :

— هلم نشتري لك قوسا ، فما معك يكفي لشرائها

فنظر أشعب الى النقود في كفه وقال :

— انا الآن في أمان من الجوع ليلتين او ثلاثا او اربعا

فقال بنان :

— اتضيع راس المال في طعام ليلتين وتقعد بعد ذلك تتضور ؟

فقال اشعب :

— وهل تريد أن اضيع طعاما مضمونا في يدي بطعام مازال هائما في الخلاء والسماء قد يصاد وقد لايصاد ؟

واشتد الخلاف بينهما . واحتال بنان حتى اخذ النقود في يده ، فجذب صاحبه من كمه ومشى به قسرا الى البائع فاختار له قوسا وضعها في يده . فامسك بها اشعب ونظر فيها وهدأ لمنظرها وارتاحت نفسه لحملها . .

فقال للبائع : « كم ثمنها ؟ »

فقال الرجل : « اقل ثمنها دينار »

فصاح اشعب :

ـ دينار ! والله لو انى اذا رميت بها طائرا فى السماء وقع مشويا بين رغيفين ، مادفعت فيها دينارا أبدا !

فنظر البائع الى بنان نظرة المستجير . فتدخل بنان فى الامر وقال لصاحبه همسا :

ـ ليس فى الثمن غلو . فلقد اشتريت قوسى هذه بأكثر من دينار !

وذكر بنان أن المال معه ، فلم ينتظر راى صديقه واسرع فأعطى البائع الثمن . وجذب ذراع اشعب . وانصرف به ...

لم تمض ساعة حتى كان الصديقان قد خرجا من المدينة وضربا فى الفلوات ، وأوغلا فى الخلاء .. كل يحمل قوسه ونشابه وخلفهما الكلب . وعيونهما شائعة بين الأرض والسماء ، يبحثان عن الصيد . ومضى النهار وهما فى مشى وبحث وكد وانتظار ، واذا الكلب ينبح فجأة وينطلق فى أثر شيء من امامهما كالبرق . فنظرا فاذا ظبى قد عن لهما .. فوقفا ، ووقف قلباهما من الفرح والاضطراب . وأمسك كل بقوسه . ورمى بنان الظبى فأخطاه . ورماه أشعب فأخطاه واصاب الكلب . وهرب الصيد ، ومات الكلب . وجلس الصيادان ، وقد أضناهما التعب والجوع والفجيعة فى ثالثهما ...

محتال ظريف ..

طال جلوس الصديقين واطراقهما ، واشتد جوعهما ، فرفع اشعب راسه وقال لصاحبه :

ــ قد جربنا صيد الظباء فلنعد الى صيد الموائد

ثم نهض ونظر الى الافق فوجد نخلا كثيرا فقال :

ــ ارى قرية قريبة ، هلم اليها

وامسك بيد بنان ، وسارا حتى بلغا القرية ، فاذا هما أمام دار قد مات صاحبها ، ونساء القرية يلطمن خدودهن ، ويضربن صدورهن ، ورجالها قد كوى الجزع أفئدتهم ،. والميت فى صحن الدار قد سخن ماؤه ليغسل ، وخيطت أثوابه ليكفن ، فعلم اشعب وبنان الا اكل و لاطعام فى مثل هذه القرية الليلة ، وخطر على بال أشعب خاطر ودفعه الجوع الى الحيلة ، فغمز صاحبه ، ثم تركه وتقدم الى الميت فجس عرقه وصاح فى الناس :

ــ يا قوم اتقوا الله لا تدفنوه ، فهو حى ، وانما عرته بهتة ، وانا اسلمه اليكم مفتوح العينين بعد يومين !.

فقال النــاس :

ــ من أين لك علم ذلك يا هذا ؟

فقال أشعب :

ــ ان الرجل اذا مات ، برد استه ، وقد لمست هذا الرجل فعلمت أنه حى

فتقدم الناس الى الميت وجعلوا ايديهم فى استه ، ثم قال بعضهم لبعض :

ــ الامر على ما ذكر الرجل ، فافعلوا كما قال ..

وتركوا اشعب يصنع ما يريد ، فقام الى الميت فنزع ثيابه ثم ألبسه عمامة وعلق عليه نمائم ، وألعقه الزيت وأخلى له الدار ، وقال للنـــاس :

ــ دعوه ولا تروعوه ! وان سمعتم له انينا فلا تدخلوا عليه !

وخرج أشعب من دار الميت وقـد شـاع الخبر بأن الميت قد ردت اليه الحياة ، فانهالت الهدايا على أشعب وبنان من كل دار ، حتى ورم كيسهما فضة وذهبا ، وامتلأ رحلهما سمنا وجبنا وتمرا ، وجهدا فى أن ينتهزا فرصة للهرب فلم يجداها حتى حل الاجل المضروب ، وأقبـل النـاس على أشعب بعـد يومين يستنجزونه الوعد ، فقال لهم :

ــ هل سمعتم لهذا العليل أنينا ، أو رابتكم منــه حركة ؟

فقـالوا :

ــ لا ..

فقال لهم :

ــ ان لم يكن قد تحرك بعد أن فارقناه ، فلم يجىء

بعد وقته ، دعوه الى غد ، فاذا سمعتم صوته فعرفونى لاحتال فى علاجه ، واصلاح ما فسد من مزاجه

فقالوا : لا تؤخر ذلك عن غد !

فقال : « لا »

وجاء الصباح وانتشر الضوء ، فجاءه الرجال والنساء افواجا وصاحوا به :

ـ نحب أن تشفى المريض ، وتدع القال والقيل

فقال اشعب :

ـ قوموا بنا اليه !

وذهب معهم الى الميت ، فابعد عنه التمائم وقال لهم :

ـ أنيموه على وجهه !

فاناموه .. فقال لهم :

ـ أقيموه على رجليه !

فأقاموه .. فقال لهم :

ـ خلوا عن يديه !

ففعلوا ، فسقط الميت راسيا ، ولم يدر أشعب ما يفعل ولا ما يقول ، ولم يزد على ان همس :

ـ انه حقيقة ميت !

فسقطت على أشعب النعال ، ولطمته الاكف ، وتناوله القوم بالصفع والضرب ، وصار اذا رفعت عنه يد وقعت عليه أخرى ، ثم تشاغل الناس بتجهيز الميت ، فانسل اشعب وبنان هاربين حتى اتيا قرية أخرى على شفير واد ، قد جار عليها السيل ، وأهلها مغتمون محزونون

من خشية الفرق ، فتقدم بنان وقد حدثته نفسه ان يبز صديقه فى الاحتيال ، فنظر اليه وابتسم ، ثم صاح فى أهل هذه القرية :

ــ يا قوم ! انا اكفيكم شر هذا الماء ، وارد عن هذه القرية ضرره ، فأطيعونى !

فالتفت الناس الى بنان فى رجاء وقالوا له فى الحال :

ــ وما أمرك ؟

فقال بنان :

ــ اذبحوا فى مجرى هذا الماء بقرة صفراء ، واتونى بجارية جميلة عذراء ، وصلوا خلفى ركعتين لله ، فان فعلتم ذلك انثنى الماء عنكم الى هذه الصحراء ، فان لم ينثن فدمى عليكم حلال !

فقالوا جميعا :

ــ نفعل . . .

وقاموا من ساعتهم فذبحوا البقرة ، وزوجوه الجارية وقام بنان الى الركعتين يصليهما ، وهو يقول :

ــ يا قوم ! احفظوا أنفسكم لا يقع منكم سهو فى القيام أو فى الركوع ، فمتى سهونا أو هفونا ذهب عملنا باطلا ، واصبروا على الركعتين فمسافتهما طويلة ! . .

وقام بنان للركعة الاولى فأطال الوقوف حتى كادت تنخلع أضلاع الناس ، وسجد سجدة ظنوا معها أنه قد راح فى سبات ، ولم يجرءوا على رفع الرءوس خشية أن يذهب جهدهم فى غير طائل ، الى أن جاء وقت السجدة الثانية ، فأومأ بنان الى اشعب ، وانسلا ،



فاخذا طريق الوادى ، وتركا اهل القرية ساجدين ، لا يدرى أحد ما صنع الدهر بهم !

***

مشى أشعب يحمل الزاد والمال ، ومشى خلفه بنان مع الجارية الحسناء التى زوجوها منه وجعلوا يضربون فى الفلاة على غير هدى ، حتى أشرفوا على الهلاك ، واذا هم يسمعون صهيل خيل ، فالتفتوا فوجدوا جماعة مسافرين الى البصرة ، فركبوا معهم ، وقد اطمأنت قلوبهم وأمنوا على انفسهم وعلى الغنيمة ، وما كادوا يوغلون فى بطن الصحراء ، حتى عن لهم فارس ، جعل ينظر فى القوم ، الى أن وقع بصره على أشعب ، ورآه وحيدا منفردا بين الجماعة ، فنزل عن فرسه ، وتقدم اليه وقبل قدميه ، فنظر اليه أشعب ، فوجد وجها متهللا ، لفتى أخضر الشارب ، ملآن الساعد ، قوى العضل ، ظريف اللحظ ، لطيف الحديث

فقال له :

ـ مالك ؟ !

فقال الشاب :

ـ انا عبد بعض الملوك هم بقتلى ، فهمت على وجهى الى حيث ترانى وأنا اليوم عبدك ومالى مالك

فقال أشعب :

ـ بشرى لك وبك !

ورات الجماعة ذلك ، فغبطت اشعب على هذا العبد وهنأته ، وجعل العبد ينظر فتقتلهم الحاظه ، وينطق

فتفتنهم الفاظه ، ثم قال :

ـ يا سادة ! ان فى سفح هـذا الجبل عينا ، وقد ركبتم فلاة طويلة ، فخذوا من هنالك المـاء !

فلووا اعنة الجياد الى حيث اشار ، وبلغوا الجبل وقد صـهرت الهاجرة الابدان

فقال لهم :

ـ الا تقيلون فى هذا الظل الرحب ، على هذا المـاء الزلال ؟

فقالوا : انت وذاك

فنزل عن فرسه ، وحل منطقته ، فما استتر عنهم الا بغلالة تنم على بدنه ، فما شكوا انه خاصم الولدان ففارق الجنة وهرب من رضوان ، وعمـد الى السروج فحطها والى الخيل فحش لهـا العشب ، والى الامكنة فكنسها ورشها وقد حارت البصائر فيه ووقفت الابصار عليه ..

فقال له اشعب :

ـ يا فتى ! ما الطفـك فى الخدمة واحسـنك فى الجملة ! كيف اشكر الله على النعمة بك !

فقـال :

ـ ما سترونه منى اكثر ، اتعجبكم خفتى فى الخدمة وحسنى فى الجمـلة ؟ فكيف لو رايتمونى فى الجد والفروسية ، اريكم من حذقى طرفا لتزدادوا بى شغفا ؟

فقالوا جميعا :

ـ هات !

فعمد الى قوس اشعب فاخذها ورمى فى السماء سهما ، واتبعه بآخر شق أجواز الفضاء وقال :

ـ سأريكم نوعا آخر !

ثم عمد الى كنانة بنان فحملها والى أكرم جواد من جياد القوم فامتطاه ، ثم رمى احد الجماعة بسهم اثبته فى صدره ، وعاجل آخر بسهم طيره من ظهره

فصاح اشعب :

ـ ويحك ! ماتصنع ؟

فقال الفتى ، وقد تغير صوته :

ـ اسكت يا لكع ! فليشد كل منكم يد رفيقه والا اختطفت روحه !

فلم يدر القوم ما يصنعون ! .. فخيلهم مربوطة وسروجهم محطوطة وأسلحتهم بعيدة ، وهو راكب وهم على أقدامهم ، والقوس فى يده يرشق بها الظهور ، ورات الجماعة الجد والعزم فى عين الفتى ، فشد بعضهم بعضا من الخوف وبقى أشعب وحده لا يجد من يشد يده ، فقال له الفتى :

ـ اخرج بجلدك عن ثيابك ومالك ، لا أم لك !

ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منهم بعد الاخر ، وينزع ثيابه وكيس ماله وزاده ، حتى جردهم مما يملكون ، وعاد فاعتلى فرسه ولكزه لكزة انطلقت به انطلاق السهم فى كبد الفلاة

***

جزع القوم فقد فقدوا الزاد ، وهم الآن لا يملكون

الذهاب ولا الرجوع ، ووقفوا فى حيرة من امرهم ، فقال قائل ان خير السبل امتطـاء خيلهم والامعان فى السير الى البصرة وهى من موضعهم هذا اقرب البلاد اليهم ، فتزودوا من ماء الغين ووثبوا الى افراسهم ، وظلوا سائرين حتى لاحت لهم قرية فى طرف من أطراف البصرة ، وكان الجوع قد أوشك أن يقتلهم ، فما بلغوا اول دار من دور القرية حتى وثبوا من فوق افراسهم فوجدوا انفسهم أمام رجل شيخ قد جلس على باب داره ، فنظر اليهم وقال :

ــ من أنتم ؟

فقـالوا :

ــ أضياف لم يذوقوا شيئا يؤكل منذ ليال ثلاث

فابتسم الرجل وقال :

ــ اجلسوا !

وسكت طويلا ، ثم نظر فى وجوههم مليا ، ثم تنهد ، ثم ابتسم ، ثم تنحنح وقال لهم :

ــ ما رايكم يا فتيـان فى زبدة متوجة بعجوة خيبر الواحدة منها فمـلأ الفم ، ويوحل فيهـا الضرس .. عليها لبن قد حلب من نوق مسمنة ، أتشتهونها يافتيان؟

فقالوا جميعا :

ــ اى والله نشتهيها ! .. فقهقه الشيخ وقال :

ــ وعمكم ايضا يشتهيها

وصمت لحظة ، ثم قال :

ــ ما رايكم يا فتيان فى عصيدة من دقيق قد نخل حتى صار كأنه سحالة الذهب ، وسمن عربى بصرى انضج حتى قال « بق بق بق » ، على حواشيها رقاق ملفوف بلحم قد نعم قطعــه ، وفوه بالابازير ، ومزج بالبصل ، وقلى فى الدهن ، أفتشتهونها يا فتيان ؟

فاشرأب كل منهم الى وصفه ، وتحلب ريقهم وتلمظوا وتمطقوا ، وقالوا :

ــ أى والله نشتهيها ! فقهقه الشيخ وقال :

ــ وعمكم والله لايبغضها ، وسكت برهة ، ثم قال :

ــ ما رايكم يا فتيــان فى عنزة من نجد قــد أكلت الشيح والقيصوم والهشيم ، حتى ورى مخها ، وكثر شحمها وطاب لحمها ، تنضج لــكم من غير امتحاش ، او انهاء ، وتقدم اليكم على خوان منضد بالبقل والخبز ، فتوضــع بينــكم تتســاقط عرقا وتتســايل مرقا ، أفتشتهونها يا فتيان ؟

فقــالوا :

ــ أى والله نشتهيها !

فقال الرجل :

ــ وعمكم والله يرقص لها !

***

ولم تطق الجماعة اكثر من ذلك فوثب بعضهم الى الرجل بالسيف قائلين :

ــ ما يكفى ما بنا من عض الجوع ، حتى تسخر منا ؟

وقاموا وانفضوا عنه وهم يسبونه ويدعون عليه .. واسرعوا فى الدخول الى مدينة البصرة حيث تفرقوا ، وذهب كل لشأنه ، واخبرت الجارية زوجها « بنان » ان لها اهلا فى البصرة ، يضيفونهما فانطلق معها بنان الى اهلها ، وتركا اشعب وحده ..

مع الخليفة ..

جلس اشعب على راس الطريق وحيدا غريبا فى هذا البلد لا يعرف احدا فيه ، ولا مال معه ولا زاد ، وقد اضر به الجوع ، فجعل يتنهد ويقول لنفسه :

ـ لعن الله المال الحرام ! كلما جمعناه ، ذهب عنا سريعا ، وعدنا شرا مما كنا !

وسمع خلفه جلبة ، فالتفت ، فراى عشرة رجـال مجتمعين ، فصاح :

ـ انه الفرج

ونهض نشيطا ، وانسل فدخل وسطهم وهو يقول فى نفسـه :

ـ ما اجتمع هؤلاء الا لوليمة !

ولم يلبث ان جاء من يقود هؤلاء العشرة ويمضى بهم ، حتى انتهوا الى زورق قد أعد لهم ، فأدخلوا الزورق فقال اشعب لنفسـه :

ـ هى نزهة

ودخـل معهم ، واذا هو يرى الرجال العشرة قـد قيدوا بالحديد ، وقيد هو معهم ، واذا هو يعلم ان هؤلاء عشرة من الزنادقة ذكروا بالاسم لامير المؤمنين ،

فامر ان يحملوا اليه ، فجمعوا له ، ولم يلبث اشعب ان وجد الزورق قد وصل الى بغداد ، واذا هو يساق ضمن العشرة ، حتى ادخلوا على امير المؤمنين فجعل

يدعو بأسمائهم رجلا رجلا ، فيأمر بضرب رقابهم ، حتى استوفى العدد وبقى اشعب ، فدهش أمير المؤمنين وقال للموكلين :

— من هذا ؟

فقالوا :

— والله ما ندرى يا امير المؤمنين ، غير انا وجدناه مع القوم فجئنا به

فالتفت امير المؤمنين الى اشعب قائلا :

— ما قصتك ؟ .. ويلك !

فصاح اشعب :

— يا امير المؤمنين ! امراتى طالق ان كنت اعرف من احوال هؤلاء شيئا ولا مما يدينون الله به ، انما انا رجل طفيلى رايتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة

فقال أمير المؤمنين :

— ليس هذا مما ينجيك منى ، اضربوا عنقه !

فصاح اشعب :

— اصلحك الله ، ان كنت ولا بد فاعلا فأمر السياف ان يضرب بطنى بالسيف فانه هو الذى ورطنى هذه الورطة !

فالتفت أمير المؤمنين الى رجاله وقال :

— يؤدب

فخرجوا باشعب وهو ينتفض فى ثيابه رعبا ، وكان وزير الخليفة قائما على راسـه ، فلما راى ذلك لم يستطع كتمان ابتسامة ، وما تمالك ان قال :

ـ يا أمير المؤمنين هب لى ذنبه ، وأحدثك حديثا عجيبا عن نفسي. وقد عشت مثله حياة التطفيل ليلة !

فاشتاق أمير المؤمنين الى الحديث وقال :

ـ قل يا أيها الوزير ..

قال الوزير :

ـ خرجت يا أمير المؤمنين من عندك ليلة ، فطفت فى سكك بغداد ، فانتهيت الى موضع ، فشممت روائح ابازير قدور قد فاح طيبها ، فتاقت نفسى اليها ، فوقفت على خياط فقلت :

ـ لمن هـذه الدار ؟

قال :

ـ لرجل من التجار

قلت :

ـ ما اسمه ؟

قال :

ـ فلان بن فلان

فنظرت الى الدار فاذا بشباك فيها مطل ، فرايت كفا قد خرجت من الشباك قابضة على عضد ومعصم ، فشغلنى يا أمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور ، وبقيت باهتا ساعة ، ثم ادركنى ذهنى فقلت للخياط :

ـ أهو ممن يشرب ؟

قال :

ـ نعم وأحسب ان عنده الليلة دعوة ، وليس ينادمه الا تجار عملة مستورون

فبينما انا كذلك اذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من راس الدرب ، فقال الخياط :

ـ هؤلاء منادموه

فقلت :

ـ ما اسماهما ؟ .. وما كناهما ؟

قال :

ـ فلان وفلان

فحركت دابتي وداخلتهما ، وقلت لهما :

ـ جعلت فداكما ، قد استبطاكما ابو فلان أعزه الله

وسايرتهما حتى بلغا الباب ، فادخلاني وقدماني ، فدخلنا ، فلما رآني صاحب المنزل لم يشك اني منهما بسبيل ، أو قادم قدمت عليهما من موضع ، فرحب بي واجلسني في أفضل مكان ، وجيء بالمائدة وعليها خبز نظيف ، وأتينا بتلك الالوان ، فكان طعمها اطيب من ريحها ، فقلت في نفسي :

ـ هذه الالوان قد اكلتها ، وبقي الكف والمعصم كيف اصل الى صاحبتهما ؟

ثم رفع الطعام ، وجاءونا بوضوء فتوضأنا ، وصرنا الى بيت المنادمة فاذا أجمل بيت يا أمير المؤمنين ، وجعل صاحب المنزل يلطف بي ويميل علي بالحديث ،

والندماء لا يشكون ان ذلك منه على معرفة متقدمة ، حتى اذا شربنا أقداحا ، خرجت علينا جارية كأنها بان ، تتثنى كالخيزران ، فأقبلت فسلمت غير خجلة ، وثنيت لها وسادة فجلست ، وأتى بالعود فوضع فى حجزها ، فجسته فاستبنت فى جسها حذقها ، ثم اندفعت تغنى :

توهمها طرفى فأصبح خدها
وفيه مكان الوهم من نظرى اثر

وصافحها كفى فآلم كفها
فمن مس كفى فى أناملها عقر

فطربت يا أمير المؤمنين لحسن غنائها ، ثم اندفعت تغنى :

أشرت اليها : هل عرفت مودتى ؟
فردت بطرف العين : انى على العهد

فحدت عن الاظهار عمدا لسرها
وحادت عن الاظهار أيضا على عمد

فصحت : « يا سلام ! » .. وجاءنى من الطرب ما لا أملك نفسى معه ، ثم اندفعت فغنت الثالث :

أليس عجيبا أن بيتا يضمنى
وإياك لا نخلو ولا نتكلم !

سوى أعين تشكو الهوى بجفونها
وتقطيع انفاس على النار تضرم

اشارة أفواه وغمز حواجب
وتكسير اجفان وكف يسلم

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها

بالغناء ، واصابتها لمعنى الشعر ، وانها لم تخرج عن الفن الذى ابتدات به ، فقلت : « بقى عليك يا جارية.. »

فضربت بعودها الارض وقالت : « متى كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء ! » فندمت على ما كان منى ، ورأيت القوم كأنهم تغيروا لى ، فقلت : « اما عندكم عود غير هذا ؟ » ، قالوا : « بلى » ، فأحضروا لى عودا فأصلحت من شانه ، ثم غنيت :

ما للمنازل لا يجبن حزينا
أصممن ام قدم المدى فبلينا

راحوا العشية روحة منكورة
ان متن متنا أو حيين حيينا

فما أتممته حتى قامت الجارية فأكبت على رجلى تقبلها وقالت :

ـ معذرة اليك ، فوالله ما سمعت احدا يغنى هذا الصوت غناءك !

وقام مولاها وأهل المجلس ففعلوا فعلها ، وطرب القوم والله واستحثوا الشراب ، فشربوا بالكاسات والطاسات ..

ثم اندفعت أغنى :

أبى الله أن تمسى ولا تذكريننى
وقد سفحت عيناى من ذكرك الدما

فردى مصاب القلب انت قتلته
ولا تتركيه ذاهل العقل مغرما

الى الله اشكو بخلها وسماحتى
لها عسل منى وتبذل علقما



فطرب القوم حتى خرجوا من عقولهم ، فأمسكت عنهم ساعة حتى تراجعوا ، ثم اندفعت أغنى الثالث :

هذا محبك مطوى على كمده
حرى مدامعه تجرى على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته
مما جنى ويد أخرى على كبده

فجعلت الجارية تصيح :

ـ هذا هو الغناء والله يا سيدى ، لا ما كنا فيه !

وسكر القوم ، وكان صاحب المنزل حسن الشرب صحيح العقل ، فأمر غلمانه أن يخرجوهم ويحفظوهم الى منازلهم وخلوت معه

فلما شربنا أقداحا قال :

ـ يا هذا ، ذهب ما مضى من أيامى ضياعا اذ كنت لا اعرفك ، فمن انت يا مولاى ؟

ولم يزل يلح حتى أخبرته الخبر ، فقام وقبل راسى وقال :

ـ وانا اعجب يا سيدى أن يكون هذا الادب الا لمثلك وانى لى أن أجالس رجال الخلفاء ولا اشعر !

ثم سألنى عن قصتى فأخبرته ، حتى بلغت خبر الكف والمعصم ..

فقال للجارية :

ـ قومى فقولى لفلانة تنزل

ثم لم يزل ينزل لى جواريه واحدة بعد اخرى ، وانظر الى كفها ومعصمها واقول :

ـ ليست هي

حتى قال : والله ما بقى غير زوجتي واختي ، ووالله لانزلنهما اليك

فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت :

ـ جعلت فداك ، ابدأ بالاخت قبل الزوجة ، فعساها هي !

فبرزت ، فلما رأيت كفها ومعصمها

قلت : هي هذه !

فأمر غلمانه فمضوا الى عشرة مشايخ من جلة جيرانه ، فاقبلوا بهم ، وأمر ببدرتين فيهما عشرون الف درهم ، فقال للمشايخ :

ـ هذه أختى فلانة اشهدكم انى قد زوجتها من سيدى الوزير ، وامهرتها عنه عشرين الفا

ثم دفع اليها البدرة ، وفرق الاخرى على المشايخ وقال لهم : « انصرفوا »

ثم قال لي : « ياسيدى ، أمهد لك بعض البيوت فتنام مع أهلك ؟ »

فاحتشمني ما رأيت من كرمه ، فقلت :

ـ بل أحملها الى منزلى

قال : « ماشئت »

فحملتها الى منزلى ، فوالله يا أمير المؤمنين لقد اتبعها من الجهاز ما ضاق عنه بعض بيوتنا ! .. »



عجب أمير المؤمنين لحديث وزيره ، ولتطفيله الظريف

تلك الليلة ، فأمر باحضار أشعب الطفيلي ، فجاء أشعب يتعثر خوفا ، فابتدره الخليفة قائلا :

ــ هل لك في « ثريدة » مغمورة بالزبد ، مشققة باللحم ، تفوح بروائح الابازير ؟

فقال أشعب :

ــ واضرب كم ؟

فكتم امير المؤمنين ضحكة وقال :

ــ بل تأكلها من غير ضرب

فنظر أشعب الى الخليفة مليا ثم قال :

ــ هذا ما لا يكون ، ولكن كم الضرب فأتقدم على بصيرة ؟

فضحك الخليفة ، وضحك الوزير ، ثم التفت الخليفة الى اشعب قائلا :

ــ قد علمت انك ذو بصر بالطعام ، فما تقول في « اللوزينج » و « الفالوذج » . . . أيهما أطيب ؟

فأجاب اشعب :

ــ يا أمير المؤمنين ، لا أقضي على غائب

فأمر الخليفة ، فأحضرت مائدة عليها هذان اللونان ، وقال لاشعب :

ــ اقض بينهما الآن

فانقض أشعب من فرط جوعه على الخوان ، وجعل يأكل من « الفالوذج » ساعة ، ومن « اللوزينج » ساعة وهو ساكت لا ينبس بحرف ، وقد انتفخ فمه بالطعام وازدحم حلقه من الازدراد ، فقال الخليفة :

ـ قل . . . ايهما اطيب ؟

وقال الوزير :

ـ اقض لاحدهما

فتردد أشعب وحار بين اللونين ، ثم عاد فاخذ من هذا لقمة ومن ذاك لقمة ، وقال :

ـ يا أمير المؤمنين ! كلما أردت ان أقضى لاحـدهما ادلى الآخر بحجته

فضحك الخليفة واستظرفه ، وقال له :

ـ تشه على .. اى لون تريد ؟

فاطمأن اشعب وقال مترنما :

الا ليت خبـزا قد تسربل رائبـا
وخيـلا من البرنى فرسـانها الزبد

فأمر الخليفة أن يحضر له ما اشتهى ، وجعل ينظر اليه وهو يأكل حتى فرغ ، فقال له :

ـ شبعت ؟

فقال اشعب :

ـ نعم أطال الله بقاء أمير المؤمنين

وتامل الخليفة ثياب اشعب فلم ترقه ، وقال له :

ـ لست أرى عليك كسوة رائعة !

فلم يجد أشعب ما يقول ، ثم تفكر وقال :

ـ كانت على أصلحك الله ثياب نظيفة ، غير انى قبل ان يأتوا بى الى أمير المؤمنين كانت قد أخذتنى اغفاءة ، فرايت رؤيا نصفها حق ونصفها باطل

فقال الخليفة دهشا :

ـ وكيف ذلك ؟

فقال اشعب :

ـ رأيت انى احمل بدرة من ذهب ، فمن شدة ثقلها على كنت اسلح فى ثيابى ، ثم انتبهت ، فاذا انا بالسلح .. ولا بدرة

فضحك امير المؤمنين حتى استند الى الوسادة وقال :

ـ نحقق لك النصف الآخر ، ولكن أخبرنى قبل ذلك ، من انت ؟

فقال أشعب :

ـ من المدينة يا أمير المؤمنين

فقال الخليفة :

ـ وكيف وجدوك بالبصرة ؟

وتذكر اشعب كل ما وقع ، فرأى الخير فى أن يوجز فقال :

ـ خرجت من المدينة للصيد فضللت ، واذا انا فى البصرة ..

فنظر أمير المؤمنين اليه مليا وقال له :

ـ وهل صدت شيئا ؟

فتنحنح أشعب وقال كالمخاطب لنفسه :

ـ صدت الكلب

فضحك الخليفة ، واعجبه حديثه ، ولبث يصغى اليه والى نوادره ساعات طويلة ، ثم قال له آخر الامر :

ـ سل حاجتك !

فقال أشعب :

ـ كلب صيد أصطاد به

فقال الخليفة متعجبا ضاحكا :

ـ قد أمرنا لك بكلب تصطاد به

فقال أشعب :

ـ وغلام يقود الـكلب

فقال أمير المؤمنين :

ـ قد أمرنا لك بغلام

فقال اشعب :

ـ وخادم تطبخ لنا الصيد

فقال الخليفة :

ـ وامرنا لك بخادم

فقال أشعب :

ـ ودار نأوى اليها

فقال الخليفة :

ـ أمرنا لك بدار

فقال أشعب :

ـ بقى الآن المعاش

فقال أمير المؤمنين :

ـ قد أقطعناك الف « جريب » عامرة ، والف « جريب » غامرة

فقال أشعب :

ـ وما الغامرة ؟

فقال الخليفة :

ـ التى لا تعمر

فقال أشعب من فوره :

ـ فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسين الفا من صحارى نجد وفيافى بنى اسد !

فضحك أمير المؤمنين وقال :

ـ نجعلها لك اذن كلها عامرة

فقال أشعب :

ـ لم يبق الآن الا شيئان

فقال الخليفة :

ـ هات ..

فقال اشعب :

ـ ان تقيم معى فى هذه الضياع جارية حسنة الصوت كنت اعلمها الغناء بالمدينة ، يقال لها « رشأ » !

ـ وكيف هى ؟

فتنهد اشعب وقال مترنما :

كأنها افرغت فى قشر لؤلؤة
فى كل جارحة منها لها قمر

فقال الخليفة :

ـ قد زوجناك منها وامهرناها عنك عشرين الف درهم ! تلك واحدة ، فما الاخرى ؟

فقال اشعب :

ـ الاخرى ان تسمح لى يا أمير المؤمنين ان اعتزل صناعة التطفيل ، وان استخلف عليها خليفة من بعدى ، وأن اكتب بذلك عهدا الى صديق لى يدعى بنان ليكون هو منذ اليوم امام الطفيليين وعريفهم

فضحك الخليفة وقال :

ــ وذلك أيضا لك

ثم دعى بالكاتب والقرطاس ، وقال لاشعب يملى عهده ..

فقال اشعب للكاتب :

ــ اكتب :

« هذا ما عهد أشعب الى بنان حين استخلفه على احياء سنته واستنابه فى حفظ رسومه من التطفيل على أهل المدينة ، وما يتصل بها من أكنافها ، ويجرى معها من سوادها وأطرافها ، وذلك لما توسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ، ولما رآه أهلا له من شدة مكانه فى هذه الرفاهية المهملة التى فطن لها ، والرفاعية المطرحة التى اهتدى اليها ، والنعم العائدة على لابسيها بملاذ الطعوم ، ومناعم الجسوم ، متوردا على من اتسعت موارد ماله ، وتفرغت شعب حاله ، وأقدره الله على غرائب المأكولات ، واظفره ببدائع الطيبات ، آخذا من كل ذلك بنصيب الشريك المناصف وضاربا فيه بسهم الخليط المفاوض ، وهذا عهدى اليه ، وحجتى عليه ، فليكن بأوامره مؤتمرا ولرسومه متبعا ان شاء الله ، وبالله التوفيق وعليه التعويل ، وهو حسبنا جميعا ونعم الوكيل . . . »

وسكت اشعب ونظر فاذا الخليفة ووزيره يتقطعان ضحكا ، وهدأ الخليفة ، فقال لاشعب :

ــ هل بقيت لك حاجة لم تقض ؟

فقال أشعب :

ـ نعم ، حاجة أخيرة

فقال الخليفة :

ـ قل . . .

فقال اشعب :

ـ يأذن لى امير المؤمنين فى تقبيل يده

فقال الخليفة :

ـ أما هـذه فدعها

فقال أشعب :

ـ ما تمنعنى شيئا احب الى منها !

واسرع الى يد امير المؤمنين فاختطفها اختطاف الجائع للرغيف ، ورفعها الى فمه ، واشبعها لثما وتقبيلا . .

فهرس

روايات الهلال

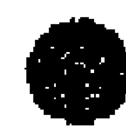
تقدم

الجزء الثانى من القصة الكبيرة

برديس

أروع ما كتب القصصى اللامع

إبراهيم الوردانى



الثمن ١٠ قروش

تصدر فى ١٥ مايو

كتاب الهلال
يقدم

أضواء على
الأدب الصهيونى
المعاصر

بقلم الباحث الجامعى
إبراهيم البحراوى

يصدر ٥ يونية ١٩٧٢

خير ما
يزين مكتبتك

كتاب
الهلال

الثمن ١٠ قروش

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sac Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

يضم هـــذا الكتاب مجموعة من طرائف « اشعب » ونوادره واقاصيصه ، جمع الكاتب الكبير توفيق الحكيم مادتها من «حوانيت» اربعة مشاهير :

الجاحظ ، وابن عبد ربه ، والخطيب البغدادى ، وبديع الزمان ٠٠

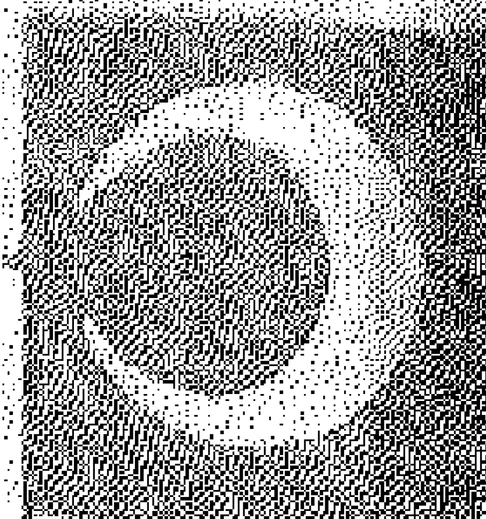
ثم مزجها وخلطها وجعل منها « عجينة » واحدة صنع منها قصة شائقة متصلة الفصول ٠٠ فيها من روعة الفن وجمـــال الرواية وسمو البلاغة ودقة التصوير ما يسحر ويمتع وياخذ بالنفوس ٠٠٠

والقصة ـ فضلا عن ذلك ـ تعطينا صورة ناطقة من صنور المجتمع العربى فى ذلك العصر يدهش القارىء لما فيها من اوجه الشبه بما نراه اليوم فى بعض احياء مدننا وعادات مجتمعنـــا ، فهى تسلط الأضواء على علاقة المالك بالمستاجر ، وتصور الولائم ومراسمها والمنازل ومرافقها والسوق وحركتها والحلاق وطباعه ، وما الى ذلك من جوانب الحياة الاجتماعية كما بدت فى الأدب العربى القديم ٠

وليس من شك فى أن « اشعب » صورة فريدة فى عالم الطفيليين لا تكاد تعدلها شخصية اخرى لا فى الادب العربى وحده بل فى مختلف الآداب العالمية ٠٠

١٠ قـــروش

كتاب الهلال



ـلسلة
ـقافية
ـهرية

أضواء على الأدب الصهيوني المعاصر

إبراهيم البحراوي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعى

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفنى : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٢٥٧ ـ ربيع الثاني ١٣٩٢ يونيه ١٩٧٢

No. 257 — Juin 1972

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر أنحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية او ٢ جنيه ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــــلاف بريشـــة
الفنـــان جمـــال قطب

إبراهيم البحراوى

أضواء على الأدب الصهيونى المعاصر

دار الهلال

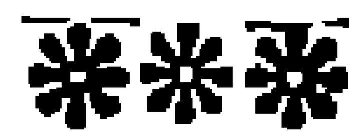
مقدمة

ليس من هو أشد منا حاجة الى دراسة الانسان الاسرائيلى ، والتعرف على مكوناته الشخصية وزوايا استثارته واستجابته .

ان هذه المهمة التى سبق اليها العدو الاسرائيلى عندما توفر باحثوه فى شتى ميادين الدراسات الانسانية على جمع وتحليل المعلومات والبيانات عن الشخصية العربية فى مختلف فئاتها وقطاعاتها عبر كل ما يمكن من مصادر فى مقدمتها المعايشة الحية للمجتمع العربى قبل قيام دولة اسرائيل ، والانصراف الى استقاء المعلومات النفسية والاجتماعية بعد قيام الدولة ، من الدراسات المختلفة ومن الانتاج الادبى العربى فى شتى فنونه وعلى اختلاف مستويات كتابه . . هذه المهمة آن لها أن تحظى على الجانب العربى باهتمام مماثل ، بل ومضاعف ، حيث أن ميزة المعايشة الدارسة الفاحصة للانسان الاسرائيلى فى مجتمعه مفقودة بالنسبة لنا على المستوى العام .

ان الاهتمام العربى بالدراسة الجادة لمناحى الحياة الاسرائيلية لم يبدأ الا من سنوات قليلة ، ولذا فان نظرة فاحصة على حصيلة الدراسات العربية التى تمت حتى الآن فى هذا الصدد ، تجعلنا نخرج بنتيجة

واضحة هى ان جهــد البــاحث العربى كله منصب على دراســة الظواهر الــكلية فى المجتمع الاسرائيلى ، فهناك دراســات حــول البنيــة السيــاسية العــامة لهــذا المجتمع واحــزابه ومؤسســاته السيــاسية ، وهنــاك دراســات تتنــاول البنيــة الاقتصــادية العــامة له .. تتفرع الى تنــاول مؤسســاته الاقتصــادية المختلفة كل على حــدة ، وهنــاك بحــوث فى ميــدان الدراســات السكانية ، نلتقى فيهــا بتنــاول للهيكل السكانى العام وحركة الهجرة والنــزوح ، وهنــاك دراســات تعرض للنــواحى التــاريخية فى منشــأ الــدولة الاسرائيليــة والاتجاهات المذهبية والفكرية التى تعتمل فى داخلها ، وهنــاك من الدراســات ما يمس جوهر الســيــاســة الخارجية فى اسرائيل وطرق صنعها ووســائل الاعلام عنهــا وما الى ذلك من النــواحى العــامة فى حيــاة المجتمع الاسرائيلى .



وهكذا نجد ان اهتمامنا ما زال محصورا فى دراسة الظواهر الــكلية فى هــذا المجتمع فى حين انه لم تجر حتى الآن محاولة واحدة من جانب متخصص عربى فى احد جوانب الشئون الاسرائيلية فى اتجاه الــكشف عن الظواهر الدفينة غير المرئيــة عبر الدراســات الــكلية التى تمت حتى الآن .

ان القصــد هنــا متجه الى الديناميكية الداخليــة لنفس الفرد الاسرائيلى فى درجاته الاجتمــاعية المختلفة اقبالا واعراضــا ، تحمسا وفتورا ، تراخيا وتشددا ، تجبرا وانكسارا ، عزلة وانفتاحا (١)

---

(١) بعد انتهاء الكاتب من تأليف هذا الكتاب .. صدرت دراسة قيمة عن الشخصية الاسرائيلية للاستاذ قدرى حفنى عن مركز الدراسات الفلسطينية بالاهرام ، ومع ذلك فهى لاتغنى عن دعوة الكاتب فى المقدمة .

هـذه الدينـاميكية التى هى فى حقيقتهـا حصـيلة للعـلاقة الجدليـة بين الظواهـر الـكلية فى المجتمـع الاسرائيلى وكل المجتمعات ، وبين ذاتية الفرد فى مختلف قطاعاته .



ان الاقتصـار على دراسـة الـكليات يقعـد بنـا عند حد فهم ما هو ظاهر من الحركة الـكلية فى مجتمع العـدو ، لانه لا يتيح لنا بحال معرفة أكيدة بتجاوبات الفرد الاسرائيلى فى فئاته الاجتماعية والجيلية المختلفة سـلبا وايجابا مع الحركة الـكلية ، وبالتالى يقعد بنا قصـور الفهم هـذا عن الوقوف على مداخل النفـاذ الى النفس الاسرائيلية التى لايمكن الوقوف عليهـا الا بمعـرفة تجاوباتها مع الحركات الـكلية فى مجتمعهـا بحيث يمكننـا من خـلال هـذه المعرفة تحديد زوايا الاستجابة والاستثارة سلبا وايجابا فى هـذه النفس على تدرج مستوياتها من خلال اجراء القياس على تجاوبها مع حركة مجتمعها .

وبعبـارة أوضح ان رغبتنـا فى تحقيق تاثير فعـال لدى الانسـان الاسرائيـلى فى ميـدان التنوير بعـدالة موقفنا والحرب النفسية من ناحية ، والتنبـؤ بحركته قبـل أن تصـدر الى حيز الفعـل من ناحية اخرى ، أمر يستحيل تحقيقه دون اخضاع هذا الانسان للفحص والتحليل النفسى الاجتماعى على أساس نوع استجابته لمـا يدور فى مجتمعه من حركة عامة ، وبالتالى يسهل علينا تحديد المنافذ التى يمكننا سلوكها للتاثير فيه .

ولست بهذه المقدمة ادعى القدرة على التصدى لهذه المهمة فهى واقعة فى اختصـاص البـاحثين النفسـيين والاجتمـاعيين وهى مهمة تقتضى سـنوات من البحث

والمتابعة ولكن ما أردت اثارته بهذه المقدمة انما هو لفت النظر الى اهمية هذا الجانب المغفل فى دراستنا للعدو ، بالاضافة الى شق مدخل الى طريق هذا النوع من الدراسة بالمعلومات التى أقدمها عن الانسان الاسرائيلى وتجاوباته مع حركة مجتمعه العامة منذ حرب ١٩٦٧ من خلال ما توفر لى من انتاج أدبى عبرى منشور فى اسرائيل بين سنوات ١٩٦٧/١٩٧٠

***

فى هذا الكتاب عمدت الى تقديم نماذج ممثلة بالفعل لكل مضامين الادب العبرى فى هذه السنوات تسليما منى وأدراكا بأن أحد الطرق الهامة المفتوحة أمامنا لاستقاء معلومات نفسية عن الانسان الاسرائيلى انما هو طريق الادب .. طريق الاديب الاسرائيلى الذى يوفر لنا امكانية ما لتحقيق المهمة المشار اليها بما يقدمه من تجاوبات ادبية سلبا وايجابا مع الواقع النفسى الدقيق الذى خلقته الحرب فى أسرائيل ، وهو الواقع الذى لا يقدر على رصده والاشارة القاطعة الى حقيقة ابعاده سوى الاديب الذى يعايش ذلك المجتمع كجزء منه ينفعل بقضايا واقعة ، ويتمثلها من خلال الرؤية الادبية التلقائية أو الموجهة والتى تتميز فى عمومها عن رؤية الانسان العادى بعمق النفاذ الى الاغوار ، واستبصار ادق الاعتلاجات التى قد تغيب عن المراقب العادى لمجريات الامور .

***

من اللازم أن نشير ابتداء الى حقيقة لا ينبغى ان تفوتنا وهى ان قطاعا كبيرا من الادب فى اسرائيل خاضع للتوجيه فالادب هناك يلعب دوره كأحد وسائل الاعلام الراقية الخفية من ناحية ، ويقوم بدور المعالج

للترديات النفسيـــة التى يلاحظهـــا الاديب الملتـــزم فى مجتمعه من ناحية أخرى .

وهـــذه الحقيقة تكفل لباحثينا ميزة كبيرة فى محاولة دراســـة الانسان الاسرائيلى من خلال الانتاج الادبى .

فطالمـــا ان الاديب الاسرائيلى يلجأ الى علاج الترديات السيكلوجيـــة التى يلحظها لدى جمـــاهيره او قطـــاعات معينـــة فيهـــا ، فانه يحرص على سلوك الطريق الذى يوفر له مدخلا صحيحا الى زاوية الاستجابة فى نفوس قرائه .. الامر الذى يدركه من خـــلال المعايشـــة .. وبالتالى فان اجراء القياسات النفسية من جانب باحثينا النفسيين على مضمون العلاج الذى يقدمه الاديب وعلى العلة ذاتها مع تحديد طريقة اقترابه من نفوس قرائه ، تيسر لنـــا مع تعدد هـــذه القيـــاســـات على أكبر عدد من الادباء الطريق الى الاحاطة العامة بالمداخل المختلفة لهذه النفس .



وبالطبع فان هـــذه الدعوة الى الانفتـــاح على دراسة الشخصيـــة الاسرائيليـــة لا تقصر نفسها على الانتـــاج الادبى كمصـــدر وحيـــد لاســـتقاء المعلومات فهناك من المصـــادر الاخرى الثقـــافية من تمثيليـــات اذاعيـــة ، وافلام سينمائيـــة وبرامج اذاعة وتليفزيون جمـــاهيرية حوارية ودراســـات اجتماعية ونفسية ومصادر التراث الشعبى من نكات وامثـــال وحكم مأثورة سائرة وشائعة ومصـــادر علميـــة تقـــدم الخلفيات التـــاريخية لتطور الشخصيـــة اليهودية فى المجتمعات المختلفة قبل نزوحها الى الدولة الاسرائيلية فى محاولة الذوبان فى شخصيـــة واحدة .. ما يمكن أن يوفر مادة صالحة ومتكاملة تؤدى

بنا فى النهاية الى الخروج بحقائق علمية ثابتة عن الشخصية الاسرائيلية الراهنة ومكوناتها فى قطاعاتها المختلفة .



والمهم فى هذا كله هو أن يتوافر عدد من الباحثين العرب فى ميادين السياسة والاقتصاد الاسرائيليين والادب العبرى وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ اليهودى الاسرائيلى فى شكل فريق عمل واحد ذى خطة واضحة ذات مراحل متكاملة تضع نصب عينيها جوانب محددة تحديدا علميا دقيقا بهدف استقصائها للكشف عنها واجراء عمليات الربط والقياس المطلوبة حتى يمكن الوصول مع تعدد مراحل الخطة الى النتائج النهائية الممكنة .

وهو أمر لا يمكن أن يتحقق الا بامكانيات تمويل وتوفير المصادر والمراجع الكافية يتيحها مركز علمى قادر على التمويل والتنسيق .

القاهرة ــ ابريل ١٩٧٢

ابراهيم البحراوى

نظـــرة متبـادلـــة

- نظرة اسرائيلية على الادب العربى
- نظرة عربية على الادب الاسرائيلى
- أســاليب التعبير الادبى الصهيونى

« من كان حظه أعظم ربحا من الناحية الادبية نتيجة للحرب .. العرب أم نحن من نجد صعوبة فى هضم انتصارنا والاتساق معه ؟ »

نظرة اسرائيلية على الأدب العربى

ان ما أوحى الى فى الواقع بكتابة هذا الفصل هو احساسى بأن المقارنات التى داب الانسان العربى على عقدها منذ هزيمة حزيران بين أوجه الحياة العربية والحياة الاسرائيلية بدافع الرغبة فى التعرف على طبيعة الثقل فى كفتى الصراع .. هذه المقارنات التى تنسحب لدى الانسان العربى على الميادين السياسية والاقتصادية والعسكرية ينبغى أن تمتد أيضا الى مضمار الانتاج الادبى فى كفتى الميزان حيث ان هذا الانتاج هو جماع الاوضاع العامة كلها ومرآتها العاكسة .

ولقد كان فى تخطيطى الاولى لهذا الفصل ميل نحو الحديث التحليلى من جانبى لظروف الانتاج الادبى العبرى فى اسرائيل وما تحمله من مقاربات ومفارقات عن ظروف الانتاج العربى عامة . ولكن الصدفة ساقت لى مقالا نقديا للناقد الاسرائيلى آهود بن عزر نشر فى الملحق الأدبى لصحيفة عل همشمار بتاريخ ١٩٧٠/٧/٣ يعلق فيه على عدد خاص أصدرته المجلة الادبية

الاسرائيلية ربع السنوية «قيشت ـ أو القوس بالعربية» عن ظروف الانتاج الادبى العربى بعد عام ١٩٦٧ .

ولما كانت تعليقات الناقد أو انطباعاته عن عدد المجلة الربيعى هذا لعام ١٩٧٠ والصادر فى ١٩٧ صفحة محررة على ايدى مجموعة من دارسى الادب العربى الاسرائيليين ومشتملة على دراسات نقدية الى جانب نصوص كاملة من الشعر والقصص القصيرة لكتاب عرب مختلفين مثل نجيب محفوظ وسليمان فياض ويوسف ادريس وأنسى الحاج وعبد الوهاب البيانى ومعين بسيسو ونزار القبانى وفدوى طوقان وغيرهم .. لما كانت تعليقات الناقد عليها تتضمن مقارنات بين الظواهر التى لمسها عن الادب العربى والحياة العربية بعد الحرب من خلال عدد المجلة ونفس الظواهر فى الادب الاسرائيلى والحياة الاسرائيلية بعد الحرب أيضا .. فقد وجدت ان هذا المقال النقدى يمثل وثيقة قادرة على الانباء بنفسها وعلى لسان كاتبها الاسرائيلى عن حقائق الحياة الاسرائيلية وانعكاساتها الادبية .

ولذا فانى أسوق مايورده هو من مقاربات ومفارقات كوثيقة تتصدر هذا الفصل وتقدم اهم السمات العامة المميزة للحياة الادبية والفكرية فى اسرائيل بالنسبة لما هو قائم فى العالم العربى . وبالطبع فان ما يسوقه الناقد عن سمات الادب الاسرائيلى يمكن قبوله على انه شهادة لهذا الادب أو عليه على اساس معايشة الناقد الكاملة له وانغماسه فيه بينما يمكن قبول ما يورده بشأن الادب العربى على انه وجهة نظر مبنية على قراءة مائة وسبع وتسعين صفحة عن الادب العربى

وللمثقفين العرب بالطبع كل الحرية فى تقييم وجهة النظر هذه وتصويبها ان شطت أو بالغت أو خالفت ما يعرفون عن حقائق واقعهم المعاش بالنسبة لهم .

يقسم الناقد مقاله الذى سنورد فيما يلى ترجمة كاملة له الى فقرات مرقمة تحمل كل منها موضوعا معينا وممهدا لها بالتمهيد التالى :

« من طبع القارىء الاسرائيلى انه يسعى وراء المقارنات فهناك رغبة كامنة فى التعرف على ما أحدثته الحرب لدى العرب تجاهنا .. بل الكشف عمن كان حظه أعظم ربحا من الناحية الادبية نتيجة للحرب . أهم المترديون فى نتائج هزيمتهم أم نحن من نجد صعوبة فى هضم انتصارنا والاتساق معه . ان عدد مجلة « قشت » يعطى بعض الاجابات ولكن على أن أؤكد ان هذه الاجابات تمثل انطباعات موضوعية تولدت لدى بعد قراءة العدد وليست تلخيصا لمواقف ورد التعبير عنها داخل العدد .

— ١ —

ان أزمة المثقفين وتعويق التفتح الادبى الحر الذى يوفر للأدب خاصة الاتصال بكل نواحى الحياة .. أزمة قائمة فى مصر مثلما هى قائمة عندنا تماما . ذلك اننا نلاحظ ظاهرة الهروب الى التعبير الرمزى « مثل قصص نجيب محفوظ الاخيرة » وهو هرب ناتج من العجز عن التعبير عن آراء ناقدة او الاطلال على وهدة الكابوس الكامن فى حالة الحرب دون المخاطرة بالانزلاق الى موقف يتعرض فيه الاديب للاتهام بانه من أعداء النظام او انه انهزامى .

ويمكننا أن نقدر أن مسرحيـــة كمسرحية « ملـكة الحمام » (١) يمكن أن تعامل فى مصر بنفس الطريقـة التى عوملت بها عند عرضها فى اسرائيـل . بل انه فى مصر قد سمح بعرض مسرحية نقدية سياسية ليوسف ادريس تحت اسم « المخططين »

- ب -

وكما هو الحال هنا فانه توجد هناك خصوبة فى أدب الحرب « المطابق للاوضاع » السائر فى أخدود يتعمق مثل قصة سليمان فياض المشـــحونة باحساس الثأر « أحزان يونيو » . وهى قصة تذكرنا بدرجة غير قليلة بالنغمة الانفعالية المسموعة فى صحافتنا المسائية . قصة «قومية» للغاية مطبوعة بطابع أحلام اليقظة للغاية ومزيفة للغاية . فهى لاتعدم عنصر حب الوطن وما الى ذلك (٢).

وفى مقابل هـذا فانه يوجد هناك كما هو هنا أيضـا تحفظات مفهومة من قبل بعض الادباء الجادين (٣) ضد

---

(١) مسرحية عبرية ظهرت بعد حرب ١٩٦٧ وهى تتعرض بالنقدالمرير لاتجاهات السلطة الاسرائيلية وتكشف عن مثالب الحكومة القائمة فى اسرائيل . وتحكى المسرحية قصة فتاة اسرائيلية كانت تعيش قصة حب سعيدة مع حبيبها حتى أثارت الحكومة الاسرائيلية حرب يونيو فالتحق الحبيب بالقتال ولم يعد اليها ثانية اذمات .

ومن هنا تبدا الفتاة فى لعن الحكومة الاسرائيلية وأطماعها وتطالبها بالتخلى عن هذه الاطماع وترك الناس يعيشون فى سلام فى اسرائيل . وقـــد تعرضت المسرحية للمطاردة والمصادرة والهجوم من جانب السلطات الاسرائيلية ووصفها موشى ديان بانها مسرحية قذرة وذلك لما تبثه فى الانسان الاسرائيلى من مشاعر مخالفة لما يعمد جهاز صناعة الانسان فى اسرائيل الى صياغة أفراد المجتمع عليـه من عدوانية وتحجر انسانى رافض لقيم السلام والتفاهم مع العرب .

(٢) و (٣) يلاحظ فى هاتين النقطتين ان الناقد الاسرائيـــلى يغفل فى مقارنته التى يعقدها هنا عن مفارقة اساسية تميز الاديب العربى عن

السير فى هــذا الاخدود والعمــل على خدمة أهــداف السلطة .

ويلعب هــذا التحفظ دوره فى تقييم « أدب الحرب» الذى يبدو أنه يهدد بغزو السوق تقييما نقديا متوازنا .

ويقتبس شمعون بلس فى نهاية مقاله حديث النــاقد المصرى حسن حنفى وقد نشر فى الآداب البيروتيــة فى نوفمبر سنة ١٩٦٩ وهو الحديث الذى يجدر أن نورده هنا كاملا كى يستفيــد القــارىء العبرى وكى يستفيد خاصــة بعض الصحفيين المعينين والادباء المجتهدين فى الانتاج أكثر مما ينبغى .

عدد كبير من الادباء فى اسرائيــل بالتعبير عن المشاعر القومية فى اطار فنى .

ذلك أن الناقد يصدر حكمه على الاديب العربى المعبر عن المشاعر القومية بالزيف وخدمة اهداف السلطة .. قياسا على مايعرفه هو وما اعرفه انا عن الادب الاسرائيلى المعبر عن القيم القومية من أنه يصدر اصطناعا من الكاتب باستلهام اهداف السلطة الاسرائيلية وتعبيرا مواكبا ومروجا لاطماعها فى الاراضى العربية لشحن الانسان الاسرائيلى بالحماس لهذه الاطماع فى قالب أدبى .وهو موقف يمثل امتدادا لاساليب الدعاية الصهيونية التى كانت حريصــة على اصطناع اطر قوميــة لمشروع الاستيطان فى فلسطين .

هذا بينما يختلف الموقف جذريا عند الاديب العربى . ولو تعمق الناقد الاسرائيلى تفكيرا فى اوضاع العالم العربى لاكتشف أن الموقف معكوس تماما . ذلك أن الايحاء القومى لا يأتى هنا من السلطة الى الادباء ثم الى الجماهير كما هو الحال فى اسرائيل .. بل ان السلطة الحريصة على بقائها فى العالم العربى هى التى تساير ما تفرضــه الجماهير عليها وعلى التعبير الادبى من تمسك بالقيم القومية والدفاع عنها ضد الغزو الصهيونى .

ولعل أبلغ دليل على هذا مايمكن أن يلاحظه هذا الناقد الاسرائيلى — لو اهتم بالملاحظة الموضوعية — من ان أى حكومة فى البلاد العربية من أقصى الشرق الى أقصى الغرب يبدو من جانبها اى تراخ فى موقفها تجاه هذا الغزو لا تلبث أن تتعرض للثورة والسخط الجماهيرى

وهذه فى الواقع أحدى المفارقات الجوهرية التى تفرق بين جوهــر الحقيقة وجوهر الزيف فى كفتى ميزان الصراع . ويوما ما سيظهر اثرها فى وضع حد جذرى له .

يقول حسن حنفى :

« تنقسم القصص التى ظهرت بعد الهزيمة الى نوعين :

نوع مكرس للتحميس وهو قريب فى اسلوبه من قصص الاطفال . ونوع يحاول أن يقدم حقائق فيما يشبه تقارير المراسل العسكرى . ويكتب الاديب عن كل الاحداث دون أن يجربها بنفسه أو يتصل بها عن قرب .

ويخطىء اولئك الذين يعتقدون أن تأثير الهزيمة علينا يمكن أن يتبدى فى تغيير موضوعات القصص من قصص حب ودموع الى قصص جنود ومعارك وفى تغيير الابطال من عاشق مخلص ، ومحب خائن الى فدائى محارب وعدو متوحش كما يحدث لمطربينا الذين يبدلون أغانيهم العاطفية الى أغان حماسية بمناسبة الاحداث الوطنية.

ان الكاتب الذى يكتب على هذا النحو هو كاتب للمناسبات فهو يكتب بما توحيه روح الساعة وتكون ردود أفعاله طبقا لمتطلبات الاحداث .. انه كاتب سطحى فى انفعالاته غير أصيل فى مشاعره يعرج على كل ما يجد فى طريقه مثله مثل خطيب المناسبات » .

ان هذه الكلمات فى الواقع كأنها أشواك واخزة تبدو فى وضوح كامل .

وما على القارىء الاسرائيلى الا أن يستبدل كلمة « الهزيمة » فيها بكلمة « النصر» لتنطبق على واقعه.

– ج –

وبين الفئة الجادة المثقفة يسود احساس باليأس والاحباط ، وذلك لان الحرب المستمرة تأتى على

حساب صراعات داخلية هامة تطرح جانبا . وعلى رأس هذه الصراعات مسألة التحرر من القيود الدينية . وحتى فى هذا الموضوع نجد التقابل مذهلا. ذلك ان نضال الديمقراطيه العربية الحميمى موجه ضد غيوم الاسلام . فى حين يطرح هذا النضال جانبا نتيجة لطنين الحرب ضد اسرائيل ، وهى الحرب المحمولة على امواج الوحدة العربيه القومية التى ليست سوى استمرار للتدين العربى المتعصب .

هذا بينما نجد عندنا انه ينبغى علينا التسليم مع سيطرة آخذة فى التزايد للاتجاهات القومية الدينيه والاكراه الدينى تحت شعار « الموقف » على عكس الرؤية الصهيونية الدنيوية فى دولة ديمقراطية على نمط أوروبى غربى (١) .

---

(١) يلاحظ فى هذه النقطة ان الناقد الاسرائيلى يقع فى خطأ اساسى اخر فيما يتعلق باستخلاص السمات الفكرية المميزة للعالم العربى ذات الاثر على الصراع العربى الاسرائيلى .

ويأتى هذا الخطأ كذلك نتيجة لعملية القياس الصورية التى يجريها الناقد بين الظواهر الثابتة فى المجتمع الاسرائيلى وبين ما يتصور أنه نظير له فى العالم العربى . ذلك أن مايذهب اليه من أن الحرب ضد اسرائيل محمولة على أمواج التدين الاسلامى المتعصب .. لا يمثل سوى قياس على ماهو معروف للعالم كله من أن احد العناصر الاساسية التى يحمل عليها جوهر الاحساس القومى الاسرائيلى هو عنصر العقيدة اليهودية وما تضمه من ذكريات دينية . وهذا مايحول فى الواقع بين اقطاب السلطان فى اسرائيل ـ ممن يدعون العلمانية والتجرد من النزعات الدينية المتخلفة وبين اتخاذ مواقف عملية حاسمة ضد سيطرة الافكار والمعتقدات الدينية حتى لايفقدوا أحد الركائز الاساسية التى تقوم عليها العقيدة الصهيونية والتى تلعب دورا فى جذب بعض جماهير اليهود المتدينة الى الدولة الاسرائيلية . هذا بينما يختلف الموقف الى حد كبير على الجانب العربى .. فاحساس العداء ضد الغزو الصهيونى لدى عامة الجماهير العربية لايحمل على عقائد دينية اسلامية كانت أم مسيحية بل هو محمل على احساس الجماهير

نستطيع أن نعلم من قراءتنا النماذج الادبية العربية الواردة فى عدد « فيشت » ان حب الوطن لدى الفلسطينيين لا يقل عن حبنا لارض اسرائيل . ان احاديثهم عن المنفي ورموزهم المستقاة من العهد القديم والاحساس بالغربة لديهم والحماس القومى والرغبة فى الخروج من موقف السلبية التاريخية الى موقف النشاط والفاعلية .. كل هذا يشبه بدرجة مثيرة للعجب العناصر المغذية للأدب والشعر الصهيونيين والارتباط التاريخى بفلسطين . ان نفس الاحساس بالنفى موجود عند الشعراء العرب الاسرائيليين وعند اخوانهم فى غزة او فى لبنان .. لكنه قد يمكن الزعم كما يفعل ساسون سوميخ فى مقاله عن فدوى طوقان بأن العنصر القومى يخرب الشعر الذاتى المتكامل وانه يبدو مفروضا على الشعراء العرب غير الاسرائيليين نتيجة لاحساس التنافس مع شعراء مثل محمود درويش وسميح القاسم

وحتى لو افترضنا ان الامر على هذا النحو .. فهل أدبنا وشعرنا الصهيونى والاسرائيلى برىء من هذا الخلل ؟ !

بالخطر تجاه غزو استعمارى يهدد باقتلاعها من اراضيها تدريجيا ليحيلها فى النهاية الى جماعات من اللاجئين ، وهذا هو صلب الحقيقة على جانبنا العربى .

« قصائد ابياتها من الدموع .. مسرحيات حوارها
تحبيم وموسيقاها الحان جنازات .. روايات
شخصياتها وأحداثها مكللة بالســواد .. »

نظرة عربية على الأدب الاسرائيلى

يمكننا من خلال الفقرات الاربــع الســابقة التى يسوقها النـاقد الاسرائيلى أن نخلص الى ابرز سمات الحياة الفكرية والادبية فى اسرائيل .. وبعدها نستطيع إلتقاط خيط الحديث لنقدم صــورة تحليلية عامة عن أوضاع الحياة الادبية الاسرائيلية .

يقرر النـاقد الاسرائيــلى فى فقرات مقــاله وجــود السمات التالية فى الحياة الاسرائيلية :

١ ــ هناك تدخل فى حرية التعبير الادبى الاسرائيلى اذا جنح الى مخالفة جوهر أهداف السلطة الاسرائيلية .. هــذا على عكس ما هو شــائع عن حرية التعبــير المطلقة فى اسرائيل · وهو أمر يمثل الجــانب العنيف من عملية شاملة تســتهدف تجنيد الادباء الاسرائيليين ــ بالاغراءات والضغوط ــ من أجل الدعــوة الى مفاهيم السياسة الاسرائيلية ومرتكزات الفكر الصهيونى العامة .. مما سيرد اثباته فيما بعد ·

٢ ــ هناك أدب فى اسرائيل يواكب اهداف السلطة

ويدق لها الطبول وهو أداة فى يدها لتحريك الجماهير اليهودية كما سنكتشف بعد ذلك • وهو أدب يحمل سمات (الصبغة والافتعال)

٣ ـ هناك صراع قائم فى اسرائيل بين تيارات الفكر العلمانى الصهيوني والفكر الدينى الصهيونى ايضا .. ولا فارق بالنسبة لنا فى غلبة أحدهما فكلاهما صهيوني مجند بوعى أو دون وعى لخدمة أهداف استعمارية على ارضنا .

٤ ـ هناك فى اسرائيل دعوة مفتعلة لما يسمى بالقومية اليهودية وارتباطها بالارض العربية المحتلة قبل ١٩٦٧ وبعدها وهى دعوة تنعكس فى الانتاج الادبى كذلك

بعد هذه السمات المرشدة لنا فى فهمنا لواقع الحياة الاسرائيلية نتجه الى بسط الحديث عن أبعاد هذه السمات والاثر الذى تخلفه فى الحياة الاجتماعية والادبية فى اسرائيل .

الادب فى اسرائيل بعد ١٩٦٧

ان قطاعا كبيرا من الانتاج الادبى فى اسرائيل بعد ١٩٦٧ .. تنطبق عليه صفة أدب الدعوة أو ما يسمى لدى النقاد الاسرائيليين الادب المجند والادب الوليد الفورى للحظة والحدث .

وعلى الرغم من ان هذه الصفة تميز الادب الصهيونى فى مجموعه .. عبريا كان أم غير عبرى منذ نشأته.. ممهدا للحركة الصهيونية السياسية ومصاحبا لها .. فان الادب الاسرائيلى قد اصبح اليوم اشد لصوقا بهذه الصفة بفعل الظروف والاحتياجات المادية والنفسية التى نجمت عن الحرب وما تلاها من استمرار

القتال .. حتى بدأ يعاني اسهالا كتابيا بكل ما تنطوي عليه الكلمة من فجاجة أدبية وضعف في اسلوب الكتاب .: وهي قضية تثور حولها مناقشات واسعة على اعمدة الملاحق الادبية بالصحف الاسرائيلية بين النقاد والادباء وأحيانا ما يشرك فيها القراء أيضا .

والادب الاسرائيلى بهذه الصفة الغالبة .. ادب ملتزم بدعوى معينة تمثل لب العقيدة الصهيونية .. وهى دعوى الشعب اليهودى الواحد المتميز الذى ينبغى له أن يتجمع فيما يسمى بأرضه التاريخية . وهذه هى القضية المحورية التى قام عليها أدب الاحياء القومى فى الفترة ما بين ١٨٨٠ ـ ١٩٤٨ والتى يقوم عليها اليوم الادب الاسرائيلى الملتزم فى حدود اتساعها وتشعبها التى تترتب على سير الاحداث وتطورها .

بعد عام ١٩٦٧ أصبح الحلم الازهى لكل القوى الملتزمة بالفكر الصهيونى فى اسرائيل هو جلب ما يسمى بيهود الشتات من مواطنهم فى أنحاء العالم من أجل تثبيت الانتصار الاسرائيلى وتوفير القوى البشرية اللازمة للاحتفاظ بالاراضى العربية التى تم الاستيلاء عليها والتى اعتبرت لدى القوى السياسية المجاهرة بالاهداف الصهيونية الحقيقية «أحزاب اليمين والمتدينين وحركة اسرائيل الكاملة » جزءا من أرض اسرائيل التاريخية « اسرائيل الفرات الى النيل » حتى أصبحت تسمى فى تعبيرهم الدارج « الاراضى المحررة » وحتى رفعوا شعارا دعائيا لهم فى انتخابات الكنيست الاخيرة جملة « حتى ولا شبر واحد » تدليلا على تمسكهم بهذه الارض وعدم استعدادهم للتخلى عنها ، ومن الواضح ان هذا الموقف المعلن لا يختلف فى شىء عن

الاهـداف الاساسيـة المعلنـة قديما من جانب الحركة الصهيونية فى اقامة وطـن قومى لليهـود الا من حيث اتجاهه الى ضم مزيد من الارض العربية الى رقعة هذا الوطن وبسط سيطرته عليها .

ومثلما واكب ادب الاحيـاء القومى هـدف تجميـع اليهود وانشاء وطن قومى فى فلسطين حتى عام ١٩٤٨ فان الادب الاسرائيلى يمارس اليوم دورا أسـاسيا ـ كمنصر من العناصر الراقية فى الاعلام والدعوة ـ فى مهمة قرع الطبـول لنداء تجميع يهود العـالم واسـتجلابهم ليعمروا الاراضى المحررة .

يقول حاييم هزاز احد أعلام الادب فى اسرائيل والذى منح اخيرا لقب مواطن شرف مدينـة القـدس تقـديرا لمكانته الادبيـة .. وانتخب فوق ذلك رئيسا لاتحاد الادباء العبريين : « ان عبقرية الشعب اليهودى تكمن فى ذاكرته التى ظلت تعى على امتـداد عشرين قرنا كونه وحدة غير قابلة للتفتت » . « فى حديث مع محررمعاريف ١٩٦٩/٨/٧ » .

وهزاز حينما يقول هذا انما يريد أن ينفذ منه الى دور الاديب الصـهيونى وتحديده .. ان هـذا الدور الذى يعيه جميع الادباء الصهـاينة دون أن ينص عليه هزاز .. يتحدد فى العمل على تغذية هذه الـــذاكرة الجماعية لدى الجماهير اليهودية .. الذاكرة التى تعى وحدتهم كشـعب وليس كجمـاعة عقيـدة .. بحيث لا تسنح لهم الفرصة فى لحظة للانفلات من أسوار العزلة والانصهار فى شعوب البلدان التى يعيشون فيها ، وهذا هو جوهر الرسالة فى الادب الصـهيونى مهما تغـايرت موضوعاته واشكاله .

اساليب التعبير الادبي الصهيوني

قبل قيام اسرائيل كان الاسلوب الاساسي الذي يتبعه ادباء الدعوى الصهيونية للوفاء بدورهم هذا .. هو أسلوب الاحياء القومي للوجدان اليهودي ويتمثل هذا الاسلوب في الكتابات الادبية التاريخية التي تستمد مادتها من التاريخ الاسرائيلي القديم وتنسج أساطير التمجيد والبطولة حول الشخصيات التاريخية القديمة في صور أدبية حديثة .. أو تصوغ احداث الحياة اليهودية الحديثة في اطار تاريخي قديم يرمز اليها وينتهي بها الى خاتمة التجمع والانتصار السعيدة .. وذلك لتحريك النوازع القومية واذكاء آمالها لدى اليهود في العالم ، هذا الى الكتابات الادبية الساعية الى تمجيد تراث الحياة اليهودية المنعزلة في الجيتو «الاحياء اليهودية الخاصة في أوربا خلال العصور الوسطى وتقابل حارة اليهود في الشرق » وتوقير نموذج خاص لحياة اليهودي الخالص باعتباره العنصر الاساسي الذي كفل للجماهير اليهودية امكانية عدم الذوبان في المجتمعات المختلفة .. هذا فضلا عن الكتابات العازفة على وتر الوشيجة التاريخية التي تربط بين الشعب اليهودي والارض الفلسطينية .. بالاضافة الى الكتابات القاصدة الى خلق البطل اليهودي المعصوم من الزلل ومن التعرض لنوازع الخوف والتردد وما الى ذلك مما يميز البشر في عمومهم .

واليوم وبعد قيام الدولة ببضع وعشرين سنة وبعد انتصار ١٩٦٧ نجد ان هذه الاساليب كلها ما زالت قائمة وان كان الاسلوب التاريخي قد تضاءل

حجمه ويبدو وكأن معينه قد نضب فى أذهان الادباء الاسرائيليين أو ان ظروف العصر قد تجاوزته فى نظرهم فلم يعد قادرا على الوفاء بالدور المطلوب ، ولذا يلاحظ ان الاقبال عليه كاد أن يتوقف بحيث لم يعد هناك سوى عدد قليل جدا من الادباء يمارسون الكتابة به ومعظمهم من المخضرمين .

وفى مقابل هذا نجد الغلبة اليوم لاسلوب آخر يقوم بالدور الاكبر فى مهمة اثارة مشاعر الانتماء القومى لدى الجماهير اليهودية فى العالم بما يحقق فى المرتبة الاولى العنصر الاول من عناصر العقيدة الصهيونية وهو عنصر الشعب اليهودى الواحد . اسلوب له ارهاصات قديمة غير ان التركيز عليه بدأ حديثا ، وهذا الاسلوب يتمثل فى ذرف الدموع واقامة المناحات على الضحايا اليهودية فى تجارب العذاب القديمة .. مناحات ودموع على كل لون وفى جميع الاشكال .

قصائد أبياتها من الدموع .. مسرحيات حوارها نحيب وموسيقاها ألحان جنازات .. روايات شخصياتها وأحداثها مكللة بالسواد .. أقاصيص كل ما فيها ينطق بمشاعر الاسى والحداد .. مقالات سطورها ولولة وعويل .

عالم كامل من السواد والصراخ والآهات .

كتلة أدبية ضخمة ما زالت فى اتساع يطلقون عليها هناك .. أدب النكبة .

ولكن ما المراد من كل هذا ؟

أهو انفعال جماعى مفاجىء بالعذاب القديم وتمثل أدبى للانفعال ؟

فى نهاية عام ١٩٦٦ قامت باحثة اجتماعية اسرائيلية

اسمها جئولة هكاهن باجراء مسح اجتماعى بين طلبة المدارس الثانوية فى تل ابيب حول المفاهيم القومية ، وجاءتها الشريحة الكبرى من الاجابات على أحد الاسئلة حول ما يعتقد الطالب الاسرائيلى انه يربطه بيهود العالم المعروفين فى التعبير العبرى الدارج بيهود المنفى . . جاءت الاجابات تقول : « يهودى المنفى أجنبى بالنسبة لي . . غير انه أخى فى المعاناة » .

وثارت قضية ومشكلة ، ودارت المناقشات — حتى فى الكنيست — وانتهت الى توصية تتحدد فى ضرورة الاقلال من التركيز فى المقررات علي عنصر العذاب والمعاناة باعتباره من عناصر الوحدة بين أبناء الشعب اليهودى مع الاتجاه الى التركيز على سائر الوشائج التاريخية والدينية والعرقية التى لا يعيها الجيل الجديد نتيجة الاهتمام بابراز دور العذاب فى تجميع اليهود .

مخطط هو اذن أسلوب الدموع .

مخطط يشمل جميع اوجه النشاط التعليمي والتربوى والفكرى والتثقيفى ويلعب فيه الادب دوره المرسوم .

من المحقق انه سترتفع فى اسرائيل اصوات بالاحتجاج ضد هذه النتيجة بحجة ان هذه ليست طبيعة الادب . وان الأدب لا يتأتى بالتخطيط الجماعى وانه أى الادب ظاهرة ذاتية يتحدد موضوعها وابعادها باحساس الكاتب وحده خاصة فى مجتمع يلبس ثوب الديمقراطية مثل اسرائيل . ولكن ما رأى أصحاب هذه الاصوات فى دلالة السؤال التالى :

« هل تعتقد ان أدبنا يخضع لضغوط صريحة او مستترة تؤثر على طريقة كتابة الأدباء ؟ »

ان هذا أحد الاسئلة التى وجهت الى مجموعة كبيرة

من الادباء الاسرائيليين ضمن استفتاء ادبى عام اجرته صحيفة « عل همشمار » فى نهاية عام ١٩٦٩ حول ظروف الادب فى اسرائيل تحت عنوان «الادب والعصر»

وما راى أصحاب أصوات الاحتجاج فى اجابة على هذا السؤال للأديب دافيد لازار بالملحق الادبى لصحيفة « علَ همشمار عدد ١٩٦٩/٩/١٢ » تقول :

« لم اسمع قط عن وجود ضغوط صريحة اوخفية. ولكن اذا تحدثنا عن كل أنواع « الاغراءات » هذا اذا استخدمنا لفظا محاذرا فانى أقول نعم انها موجودة « المنح والجوائز ، والرحلات الخارجية والاسكان وسائر « الصدقات » التى من هذا النوع » ولا يمكن فى رايى أن تتوفر ظروف من حرية الانتاج الادبى الا اذا استطاع الاديب أن يكون مستقلا من الناحية المادية غير محتاج لصدقات الكرماء من « المؤسسات والهيئات المختلفة وما الى ذلك » .

والهيئات المختلفة التى يشير اليها لازار فى اجابته قد تكون المؤسسات الحزبية التى تسعى الى تجنيد الادباء — والتجنيد يكون عادة بالاغراء وليس بالضغوط — من اجل الدعوة الى مبادئها وترويج أهدافها داخل اسرائيل وقد تكون المنظمة الصهيونية العالمية التى تقوم بالدور الاساسى فى دفع يهود العالم نحو الهجرة من الخارج وقد تكون وزارة الهجرة والاستيعاب التى تعمل على استبقاء المهاجرين والقضاء على ميولهم الى النزوح من جديد .

ومع ذلك فلو برأنا الادباء الاسرائيليين فى مجموعهم من تهمة الاستجابة للاغراءات .. فانه لايمكن لاحد أن يعترض على حكم نصدره بأن اديب المناخات الاسرائيلى

متأثر فيما يذرفه من دموع بحالة سيلان الدموع العامة التى يفرضها ضغط الرأى العام كوسيلة ناجحة لاجتذاب يهود العالم . وبعد اعتذار لهذا الاستطراد .. اطرح السؤال الذى كان واجبا من قبل وهو : كيف يلعب اسلوب الدموع الادبى هذا دوره بالنسبة ليهود العالم وتجاه هدف تجميع احاسيسهم حول الفكرة القومية ؟

والاجابة ميسورة لكل من يخوض فى دهاليز هذا التعبير الادبى .. ان هذا الاسلوب يخاطب اليهودى العالمى قائلا :

أيها اليهودى ! العذاب والنكال قدرك المحتوم . ان ما تنعم به اليوم من طمأنينة ليس سوى حدث عارض قد يختفى فى اى لحظة والدليل على ذلك كل تجارب العذاب القديمة واليك تفاصيلها .

هكذا يخاطب ادب المناحات الاسرائيلى الانسان اليهودى خارج اسرائيل وهو يقص عليه عادة بطريقة ميلودرامية فاقعة صورا من العذاب اليهودى القديم . يقول هذا الاسلوب لليهودى العالمى :

اذا أردت طمأنينة دائمة لك ولابنائك من بعدك فليس أمامك الا طريق واحد .. هو أن تلجأ الى أسوار القلعة الاسرائيلية فهى كفيلة بحمايتك وتوفير الامن الدائم لك أما ما يخاطب به هذا الاسلوب الادبى الانسان الاسرائيلى الذى يواجهنا اليوم .. فأبشع من أن يخطر على بال أحد ممن يتعاطفون مع هذا الادب فى العالم . ان هذا الاسلوب يخاطب اليهودى فى اسرائيل قائلا : اما ان تقتل العرب على هذه الارض اليوم واما انك ستقتل غداً فى كل بقاع الارض كما كان يحدث لاسلافك الذين تطالع قصصهم الآن .

هذا فيما يتعلق بالاسلوب الادبى الغالب اليوم

لتحقيق هدف استيلاد الانتماء القومى لدى يهود العالم عن طريق اذكاء احساسهم بالاضطهاد ، ومن اللازم ان نشير هنا الى أن أدب النكبة على نحو خاص يلقى رواجا كبيرا فى ميدان الترجمة عن العبرية الى اللغات الاوربية بالاضافة الى ما يكتب منه فى هذه اللغات مباشرة .

وبالاضافة الى هذا الاسلوب .. نجد أسلوبا آخر يسعى الى تحقيق عنصر الارتباط اليهودى بالارض العربية فى نفس الاسرائيلى المقيم والمهاجر الجديد المستجلب .

وهذا الاسلوب رغم قدمه فى التعبير الصهيونى الادبى .. ينتحى اليوم منحى جديدا فى طريقة تعبيره عن الرباط «المقدس» بين اليهودى والارض العربية .. منحى يخالف ما تعودناه من قبل فى الادب الصهيونى من اللجوء الى التراث الثقافى الدينى اليهودى من كتابات توراتية وتلمودية وكتابات للحكماء الدينيين فى العصور الوسطى لاستعارة مواقف وأحداث وأمثال وأماثيل تدرج فى سياق التعبير الادبى الحديث للتدليل على قيمة الارتباط بالارض المقدسة مع توجيه السياق الى ما يفيد تحويل مدلول تلك التراثيات المستعارة من الارتباط الدينى والروحى بالارض الفلسطينية الى ارتباط عضوى مادى . ذلك ان أسلوب التعبير الادبى الشائع بعد الحرب بدأ يقصر نفسه فى الدعوة الى التشبث بالارض على استقاء مدده وزاده العاطفى من الموقف الراهن وحده بما يحيط به من ملابسات دونما استنجاد بالتراثيات المؤيدة المؤازرة .

ولا شك عندى فى ان هذا المنحى الجديد فى مسلك

التعبير الادبى الصهيونى الداعى الى الارتباط بالارض فى اسرائيل .. انما يكشف من زاوية ما عن فداحة الازمة الحياتية التى يعيشها الانسان الاسرائيلي فى ظل ظروف الحرب المستمرة بما لا يتيح له فرصة التمعن فى تلك التراثيات واستلهام المدد النفسى منها فى ازمته الراهنة الامر الذى يدفع التعبير الادبى الموجه بالتالى الى اسعاف حمى هذه الازمة من خلال الموقف الراهن المباشر وملابساته موضع الاهتمام والذى لا يستطيع القارىء الاسرائيلى التحويم بعيدا عنه فى تاريخيات وتراثيات قديمة وعقيمة فى نظره بالنسبة لضغوط اللحظة الراهنة وآمالها .

ويؤكد ذلك عندى .. ما يتردد كثيرا فى حلقات الفكر التى تنشر على اعمدة الصحافة الاسرائيلية .. على السنة النقاد والمفكرين الاسرائيليين من انصراف الانسان الاسرائيلى عن متابعة الكتابات الادبية المتحذلقة فى محاولة الاستقصاء التاريخى والاحالة الى التراث وميله الى الكتابات الادبية المباشرة للواقع الراهن .. الوليدة الفورية للحدث والملبية لاحتياجات اللحظة ومقتضياتها النفسية .

ويحيلنا هذا الاستطراد الى ذلك الكم الهائل الفج فى نوعيته من الانتاج الادبى العبرى بعد الحرب والذى أشرنا اليه فى صدر حديثنا . ذلك ان هذا النوع من الانتاج يمثل قطاعا غالبا من الادب المنشور بعد الحرب .. رغم ما يبديه النقاد الجادون من تحفظات تجاهه ورغم ما يثيرونه ضده من أدلة الدحض ـ على المعايير الجمالية والانسانية العامة ـ فى حلقات النقاش وعلى صفحات الملاحق والمجلات الادبية . ويبدو أن

ما يضع هـذا النوع الرديء من الانتـاج الادبى موضع الغلبة والتسيد ـ بالاضـافة الى احسـاس الـكتاب برواجـه لدى قطـاع عريض من القراء ـ هو الدفع الرسمى له من قبـل الهيئـات والمؤسسـات الرسميه المسئولة عن التوجيه والاعلام .. كى يوفر لدى الانسان الاسرائيلى ـ بما يحمـله من نماذج البطولة الفـردية والجماعية العديدة فى حرب ١٩٦٧ وما يقدمه من تمجيد للروح العسكرية والحضارية الاسرائيلية وتسفيه للقوى العربية وحط من شأن الانسان العربى فى ميدان القتال ـ حالة من التعادل السـيكولوجى تجاه ضغوط الواقع اجتماعيا وحربيا وفى مواجهـة سـيل آخر من التعبير الادبى الواقعى الحر المعبر فى مرارة عن رفض طبيعـة الواقع الاجتماعى الاسرائيلى والسخط على ميول التوسع الصهيونية وسياسة الحرب التى تتمسك بها السلطة الاسرائيليـة تجاه العـالم العربى بما يجلب التعاسـة والشقاء على الفرد الاسرائيلى .

ومما يؤكد وجود الدفع الرسمى لـكتلة الادب الملبى لاحتياجات اللحظة ذلك الخطاب الذى تقدم به آيجـال آلون نائب رئيسـة وزراء اسرائيل باعتبـاره وزيرا للتربية والتعليم الى مؤتمر الادباء العبريين ينـاشدهم فيه التنادى بالعمل على تغيير هذه النغمة الادبية التى تلتقط الوان السواد فى الواقع الاسرائيـلى ـ فى الادب السـاخط ـ وتجاوبها بمثل لونها دون محاولة نحو تبديد هذه الالوان على ارض الواقع بجرس ادبى بهيج مستبشر يشيع الامل فى النفس الاسرائيلية . وكان من بين ما قاله آلون فى خطابه فى معرض استنكار موقف الادباء الساخطين اليوم فى اسرائيل والمقارنة بين جيلهم

وجيل آلون فى حرب ١٩٤٨ : فى الحرب القديمة كان من اصدقائنا من يسقطون صرعى ، وكانت وطأة الحرب مريرة وتكاليفها باهظـه ، ومع ذلك كانت تتردد على ألسنتنا أشعار الامل التى تخرج تلقائية من شعرائنا المحاربين . ويعلق آحد النقـاد الاسرائيليين بصحيفة معاريف على هـذا الخطاب مرددا دعوة آلون بقوله : « لماذا اصبحت الحروف المربعة « يقصد الحروف العبرية » اليوم قاصرة على أداء معانى اليأس والحزن»

ولا أظننى مبالغا ان قلت أن هـذا التحامل الظاهر ضد التعبير الادبى التلقائى فى اسرائيل من ناحية ودفع كتلة ادبية معادلة له في الاثر النفسى من ناحية اخرى ،، لا يعكس قلق السلطة الاسرائيلية ازاءه كمجرد تعبير أدبى فحسب .. بل انه يعكس بالدرجة الاولى مخاوف أصحاب السلطة فى اسرائيل من الاثار التى يتركها هذا التعبير الحر على نفوس الجماهير عندما يبصرها بدافع معاناتها ويطرح أمام عينيها تصويرا أدبيـا واضح المعالم لابعاد مشـكلاتها وبواطنها فيحيلهـا بذلك الى طـريق السخط المنظم والثورة .

ويمكننا أن ننتهى عبر هـذه الاطـلالة السريعة على أوضاع الانتاج الادبى العبرى فى اسرائيـل بعد الحرب الى تحديد ثلاث كتل من المضامين الادبية ترد فيه :

الـكتلة الاولى هى كتلة الادب الداعى الى الاهداف الصهيونية الاساسـية وعلى راسها هدف تمثيل اليهود فى العالم كله واقناعهم بكونهم شـعبا واحدا ذا انتماء قومى واحد .. وهـدف ربط هـذا الانتماء القومى المصطنع بالارض العربية التى تكشف الحركة الصهيونية تدريجيا عن اتساع رقعتها الداخلة فى حدود ما يسمى بالوطن التاريخى اليهودى ..

والكتلة الثانية هى كتلة الادب الملبى لاحتياجات اللحظة النفسية والمعالج للترديات السيكلوجية التى تعتمل فى باطن المجتمع الاسرآئيلى بفعل طبيعه البنية الاجتماعية الضاغطة فيه .. وهى كتلة منتمية الى اساليب الحركة الصهيونية فى التغرير بالجماهير الاسرائيلية واليهودية وسوقها الى ساحة الصراع مع العرب كأدوات بشرية فى يدها لتنفيذ مشروعها الاستثمارى على الارض العربية . والكتلة الثالثة هى كتلة الادب الساخط الناقم على طبيعة البنية الاجتماعية الاسرائيلية وعلى استخدام الانسان اليهودى المخدوع كوقود لماكينة العمل الصهيونية .

وبالطبع فلو شئنا أن نترجم هذه الكتل الادبية الى مفردات القوى السياسية والاجتماعية لوجدنا أن الكتلتين الاولبين تمثلان الحركة الصهيونية ومموليها ومستثمريها فى آن من كبار الراسماليين اليهود فى العالم والمتحالفين مع القوى الرأسمالية الكبرى فى العالم والسلطة الاسرائيلية اداة الادارة للمشروع الصهيونى وان تنوعت كتلها بين يمين ويسار وقطاعات الجماهير الاسرائيلية الساقط بعضها فى أحابيل هذه السلطة والذى ابتلع الشص المموه بزخارف العقيدة القومية الصهيونية والمؤمن بعضها بخرافة الوطن التاريخى القائمة على الخزعبلات الدينية .

هذا فى حين يشير الاتجاه الادبى الساخط الحزين على ارض الواقع الاجتماعى والسياسى فى اسرائيل الى جماعات التعطل والتسول والتشرد على نمط الهيبز والى جماعات التمرد والسخط المنيف على الواقع الاجتماعى مثل جماعة الفهود السوداء المنادية بحقوق

الطوائف اليهودية الشرقية اجتماعيا والى جماعات التمرد والسخط السياسى على الواقع الاجتماعى بل وعلى الصيغة الصهيونية لهذا الواقع وما يدعو اليه من شعب يهودى واحد مرتبط بالارض العربية .. وهى جماعات داعية الى التخلى عن هذه الافكار والانفتاح على العالم العربى بصورة أو بأخرى بما يفتح طريقا حقيقيا للثورة الاشتراكية فى هذه المنطقة وتمثل هذه الجماعات السياسية جماعات اليسار الجديد الاسرائيلى . ولقد كان ظهور هذه الجماعات الساخطة وتبلورها على شكل الظواهر الاجتماعية والسياسية بعد حرب ١٩٦٧ تماما مثل كتلة الادب الساخط المعبر عنها التى اخذت شكل الظاهرة الادبية الملموسة فى أعقاب الحرب الاخيرة .

الجزء الاول

شعر الحرب في إسرائيل

- نغمات الانكسار والحزن
- ثلاث أغان : حدفاه هركافن
- ضيق عابر : شوشانه بيلوس
- احساس : يصحق بولاف
- الى متى ؟ : يعقوف ريمون

« رغم قشرة الصلافة والغرور الظاهرية ، فان قاع المجتمع الاسرائيلى يضطرب بترديات وتخبطات سيكلوجية ، ويمور بتوترات عصبية يترنحون تحت وطأتها فى ذلك المجتمع .

نغمات الانكسار والحزن

يخطىء كل من يظن ان الاثر الوحيد الاعم الذى اشاعته الحرب الاخيرة بين جنبات المجتمع الاسرائيلى هو أثر النشوة بالانتصار العسكرى والاسترخاء النفسى على المستويين العام والفردى .. استنادا الى مكاسب هذا النصر وركونا الى اقتطاف ثماره . ذلك ان قاع المجتمع الاسرائيلى يضطرب فى الحقيقة بترديات وتخبطات سيكلوجية ويمور بتوترات عصبية يترنح تحت وطأتها الانسان فى ذلك المجتمع .. رغم قشرة الصلافة والغرور الظاهرية.. نتيجة الاحساس بتكاليف الحرب المستمرة ووطأتها التى تضاف الى وطأة القصور فى البنية الاجتماعية والاقتصادية مما يزيد من فداحة الازمة الحياتية العامة التى يعانى منها الفرد فى اسرائيل .

وان نظرة مستعرضة على الانتاج الادبى العبرى فيما بين يونيو ١٩٦٧ وحتى اليوم لتوفر لنا نافذة زجاجها أشد ما يكون شفافية وصفاء للاطلال على هذه الحقيقة .

ذلك ان من السمات العامة التى تسم الانتاج الادبى فى اسرائيل فى هـذه الفترة سمة اقرب ما تكون الى المزاج السوداوى المضطرب المشبع بنغمات الانكسـار والتأسى حينا ودقات استنهاض الهمم الخائرة واستنفار العزائم المتراخية حينا آخر .

وفى الصفحات المقبلة نعرض لثمانية نماذج من الانتاج الشعرى فى اسرائيل بعد عام ١٩٦٧ وهى نماذج تطرح رؤى شعرية متباينة فى النظر الى الواقع الاسرائيلى .

واذا كنا نعمـد الى تنـاول الواقع الاسرائيـلى فى البداية عبر الرؤى الشعرية فانما ذلك لان الشـعر بطبيعته وبنسيجه المحدود يكشف عن أعماق التجربة الادبية فى الواقع بصورة اسرع من التعبير النثرى ذى النسيج الممتد المترامى .

كذلك فان اتجاهنا الى تنـاول رؤى شـعرية لدى شعراء متعددين انما ينبع من حرصنا على عدم تجاوز معايير الامان فى استخلاص دلالات عامة من خلال رؤية شاعر واحـد للواقع وذلك تحسبا لاحتمـال أن تكون رؤية الشاعر الواحد للواقع العام رؤية خاصة نابعة من داخله ومحكومة بتجربته الذاتية المحدودة .. ولذا فان الاستناد الى رؤى شعرية متعددة للواقع الواحد يكفل حدا كافيا من الامان بالنسبة لاحتمال تعميم العنـاصر المشتركة فى هـذه الرؤى وامكانية ردها الى محيـط التجربة الواقعية والنفسية العامة فى المجتمع الاسرائيلى والتى تمثـل التربة العـامة التى تنبت فيها الرؤى الشعرية على تدرج قاماتها والوانها .

من بين الرؤى الشعرية الثمانى .. تتميز اثنتـان بخاصة الرؤية ذات البعـد التاريخى التى تقصـد الى

ربط الواقع الراهن بسياق تاريخى عام بحيث لا يبدو هـذا الواقع مساحة حدثية وزمنية قائمة بذاتها ، بل حلقـة فى سلسلة من التجارب التاريخية الممتدة .

ويقدم هاتين التجربتين الشعريتين الشاعران يعقوف ريمون ويصحق بولاق . هـذا بينما تتجه الرؤيتان الثالثة والرابعة لدى الشاعرتين حدفاه هركافى وشوشانه بيلوس أساسا الى تناول الواقع تناولا كليا بصورة شاملة بما يرسم لوحة عامة له .

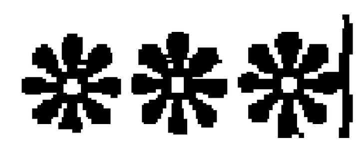
هـذا فى حين تنحو الرؤيتان الخامسة والسادسة لدى الشاعرين يصحق شاليف وبنحاس بلدمان الى تناول حالة موضـعية مترتبة على الحرب . ثم تتجه الرؤيتان الشعريتان السابعة والثامنة لدى الشاعرين يعقوف باسار ويهودا عميحاى الى تقـديم نمطـين من المواقف وردود الافعال النفسية ضد صناعة الحرب فى الجانب الاسرائيلى .

ولعله من الضرورى أن نشير فى مستهل هذا الفصل الى أن طريقة تناولنا لـكل قصيدة ـ وكل قصـة فى القسم النثرى ـ بتقطيعها أثنـاء العرض أو سـوقها متكاملة ثم التعليق عليها بعد ذلك .. انما تتوقف على طبيعة بنـاء كل منهـا وما اذا كان يسمح بتقطيعها الى فقرات ذات وحدة فى المعنى أم لا .

كذلك فانه من الجوهرى أن نثبت ابتـداء أن التفسـيرات الواردة للقصـائد هى حصـيلة التفـاعل التلقـائى بين النـاقد ـ صـاحب الدراسـة ـ وبين مضامين القصائد ـ والقصص بعد ذلك ـ وايحاءاتها . من خـلال موقف التشـبع بروح الـكتابة الادبيـة الاسرائيلية والاحاطة الشاملة بظروف الـكتابة الادبية

فى اسرائيل وروح التذوق الادبى لدى النقاد الاسرائيليين . ومع كل هذه الضمانات التى تكفل للناقد العربى سياجا قويا يحميه من الانزلاق الى وهاد « التفسير بالمرغوب » للأعمال الادبية الاسرائيلية .. الا ان منطق الامانة العلمية يستوجب الناقد أن يشير الى أن للقارىء العربى الحق كل الحق فى التفاعل الحر مع القطع الادبية الاسرائيلية الواردة بالكتاب مع الاحتفاظ بتفسير الناقد كمجرد ضوء هاد فى الفهم العقلى والتفاعل النفسى مع هذه الاعمال .

وختاما لهذه الملاحظات المستطردة فانه من الحيوى لفهم الواقع الاسرائيلى من خلال النماذج الادبية المطروقة .. أن نذكر أن هذه النماذج لم تقدم باعتبارها نماذج متفردة تعبر عن حالات خاصة من الانتاج الادبى الاسرائيلى بل انه قد روعى فى اختيارها وقبل أن تخضع للترجمة عن العبرية أن تكون نماذج ممثلة للتعبيرات الادبية النمطية السائدة فى الانتاج الادبى الشعرى عامة .



ولعله من المناسب أن نبدأ جولتنا بين الرؤى الشعرية بما رقمناه بالرؤيتين الثالثة والرابعة حيث انهما توفران لنا فى البداية كشفا واضحا عن أبعاد الواقع بصورة كلية مما يتيح لنا متابعته فى فهم واضح بعد ذلك مشدودا الى سياقه التاريخى فى الرؤيتين الشعريتين الاولى والثانية ثم نعرض فيما بعد لرؤية الخطوط التفصيلية الموضعية فردود الافعال حياله .

ثلاث أغان ..

حدفاه هركافى (١)

يصطدم القارىء فى قصيدة حدفاه هركابى « ثلاث أغان » بتعبير أدبى يمزج ما بين أحاسيس الفزع والعزلة والاغتراب والتردى فى متاهات الضياع.

واذا ما ربطنا بين هذا التعبير الشعرى المغرق فى السواد وبين تعبير القلق العام الذى كان مرئيا فى الصحافة الاسرائيلية خلال فترة المعارك بعد ١٩٦٧ وهو القلق الناتج عن تزايد اعداد الجنود القتلى على ضفة القناة وتشديد هجمات المقاومة الفلسطينية داخل المدن الاسرائيلية .. لامكننا أن نقع دون ما افتعال على محيط الدائرة الواقعية والنفسية التى يجاوبها هذا التعبير الشعرى . انها دائرة افتقاد الاحساس بالامان فى اللحظة الراهنة واليأس من توافره فى المستقبل وهى دائرة خط محيطها ورسم مدارها الرماد المتخلف عن انطفاء جذوة الامل التى توقدت فى الافق

(١) عل همشمار ١٩٦٨/١٢/١٣ . الملحق الادبى

الاسرائيلى ـ عقب الانتصار السريع ـ فى اخضاع ارادة المقاومة العربية العامة اخضاعا نهائيا .

فى بداية القصيدة تبدأ الشاعرة تصوير الواقع المحيط بها فى صورة رامزة بعيدة عن المباشرة .. تقول :

صمت ووجل
شـــارع متوهج .. قاس
كفريب .. عن الوعى
خرج ..
قمر صريع يلامس .. جسدى ..
فجاءة .. يتحول الى معول
معلق .. مشحوذ .. يبرق .

هكذا يبـدو فى وضـوح خلف الصـورة الشـعرية الضبابية واقع ملتهب متوهج بالقسوة بينما الامل الذى تلامسه الشاعرة ملامسة حسية يتجاوز حد الافول ـ عندما يتحول الى قمر صريع ـ كى يستحيل الى خطر داهم فى صـورة معول مشـحوذ يبرق بالخطر فوق رأسها .

الطفل فى حضنى .. مقرور
مبلل ..
« دعيه فى الزاوية » .. « غطيه بالرداء »
وصدى يبتلعه صدى .
« لـكن » .. « هيا » .. « انتظرى » .

ان الامل القريب الذى تحتويه الشاعرة فى حضنها وبين ذراعيها لا يبدو دافئا كما ينبغى للطفل فى حضن أمه فهو ينتفض مرتعشا غير مستقر . بينما هى واقعة فى ربكة تجاهه .. فهل تلقيه فى الزاوية ـ كما يراودها ايحاء ـ متخلية عنه .. أم تزداد تمسكا به فتحميه

بالرداء مدافعة عنه كما يراودها ايحاء آخر .. انها لا تدري ما الذي عليها أن تفعله فهي واقعة في الحيرة .

رباه ! رباه !
الظلمة الى هذا .. المدى
موحشة ..
افق أسود .. كلوحة على جبيني

كم على ان اسقط ؟
كم على ان اتراجع ؟
فما أكثر الكواكب ضدي .

وآنذاك .. يبدأ الانسان
خروجا .. عن وعيه .
الآخرون .. عنه يعلمون
غير أنهم .. في أي مرة
معه ..
لا يكونون ..

هكذا تستأنف الشاعرة تعبيرها بصورة اقرب الى المباشرة فهي تكشف في وضوح عن الظلمة التي تكتنف واقعها وتبدي نفاد صبرها تجاه ما يحيط به من اخطار وما يتهدده من سقوط لكثرة الخصوم حوله وحولها .. ثم تنتهي الى ان هذا الواقع الذي تفتقد فيه العون والسند من الآخرين يجبر الانسان على فقد وعيه والخروج عنه تحت وطأة تكاليفه وأعبائه .

وبعد ذلك .. من هنالك
طردوني ..
هكذا .. بأقصى حقدهم
ابعدوني ..
وانا .. لم يعد لي

ما أرجع اليه .
لا مدينـــة ..
أبعث فيهـا حيــاتى ..
ولا رقعة أرض ..
لدفنى فى مماتى ..

فى هـذه الفقرة الختامية تتباعد الشاعرة تماما عن التعبير الشعرى الرامز وتتجه بألفـاظ مباشرة صريحة الى التعبير عن محنتها أو ما تصور انه محنتها . فهى تقول ان النهـاية التى توشك أن تنزل بها هى نهـاية الضيـاع اللانهائى فى الحياة والموت .. فهى ان اكتملت رؤيتها للواقع وتبـدد الحلم والامل لن تجد ما ترجع اليه .. لا مدينـة تقيم فيهـا حيـاة جديدة ولا قطعة ارض توارى فيها عند مماتها .

بهذه اللمسة تنهى الشاعرة التعبير عن رؤيتها للواقع المحيط بها بما يدل دلالة قاطعة على ان تجربتها الشعرية ليست محصورة فى اطار ذاتى بل انهـا تعبير عن الانا العامة فى مجتمعها . وهنا تلزمنا وقفة .

ان الشاعرة تصور الامر وكأنه سينتهى بالانسان فى مجتمعها الى الضيـاع الشـامل . فهل يمكن أن يكون هـذا تعبيرا عن رؤية صـادقة نابعـة من احسـاس الشاعرة دون توجيه خارجى أو محاولة منها هى نفسها لتوجيه هذه الرؤية ؟

هـذا هو السؤال ..

ولست أظن شخصيا .. وان كان هـذا الظن يخالف آمالى الطبيعية .. ان حجم الضـغط العسكرى الذى مارسناه حتى تاريخ نشر هـذه القصـيدة عام ١٩٦٨ يمكن أن يؤدى الى هـذا الاحسـاس الشـامل بفقـد

الطريق نهائيا لدى الانســـان الاسرائيلى كما تحاول الشاعرة أن تصور الامر

اذن ومرة ثانيــة .. ما هو القصــد الذى تبتغيــه الشــاعرة من وراء هــذا التصــوير الذى حرصت فى ادائه على الابتعاد عن الصورة الرمزية الغامضــة التى استخدمتها فى بداية قصيدتها واتجهت الى اســتعمال اللفظ المباشر ؟

هل يمكن ان تكون الشاعرة ــ وسنرى بعد قليــــل ان هذا الاتجاه ليس وقفا عليهـــــا ــ صنيعة للعرب تهدف الى تدمير احســـاس قرائها الاسرائيليين بالامل فى مواجهــة العرب عن طريق هذه الرؤية المفزعة ؟

ان الامر فى حقيقته عكس ذلك بالطبــع . ذلك ان بث الحقد ضد العرب فى النفس الاسرائيلية واحدة من الوظائف التى يتبناها الادب المجند والادباء ذوو النزعة القومية المتطرفة فى اسرائيل (١) .

على هــذا النحو يكون الامر من جانب مثــل هــذا الاديب الخاضع لتوجيه الخط القومى الصهيونى .. استغلال ظواهر المقاومة العربيــة ضــد العـــــدوان الاسرائيلى لبث الهلع والرعب فى نفس الفرد الاسرائيلى حتى ليصور له الامر كما رأينا على انه يقف على عتبات الضــياع الشــامل فى حيــاته ومماته . وبالتالى يكون هــذا الفزع فى حــد ذاته مدعاة لاســتنفار مزيد من

(١) يتفق ذلك مع ما ذهب اليه قدرى حفنى بحثه النفسى تجسيد الوهم من أن ماتسعى اليه اسرائيل هو تضخيم الشــعور بالاضطهاد لدى الاسرائيليين بحيث يؤدى ذلك الى تضخيم عدوانيتهم . « راجع : قدرى حفنى ــ تجسيد الوهم ــ مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية ــ مؤسسة الاهرام ــ ١٩٧١ »

مشـــاعر الحقد في نفسه ضد العرب معتقدا أنه بسبقه الى الحقد انما يفل من حقد العرب وينقذ نفسه من هول الضياع المنتظر . من هـــــذه النقطة يمكننا ان نلتقــط بداية الخيط فيما أسميناــاه فى صــدر هــذا الفصـــل بالرؤية ذات البعد التاريخى . ولــكن لنبق الخيط معلقا حتى نستجلى بقية ابعاد الصورة الـكلية للواقع الاسرائيلى عند الشاعرة شوشانة بيلوس .

من وحى الظلمـــة المقيمـــة فى
اسرائيل والضوء العابر الذى خبا

ضيق عابر

شوشانه بيلوس (١)

تقدم الشــاعرة هنا صــورة كلية مشابهة لمـأساة الواقع الاسرائيلى ، ليس من خلال تقمص الانا العــامة كما فعلت حدفاه هركافى بل باختيار مدخل مخالف من خلال الحديث عن تجربة الطفــل الاسرائيــلى فى واقع الحرب ..

ويلاحظ انها تحافظ فى نسيجها الشعرى على نفس الهدف السابق .. هدف استنفار الحقد والقسوة لدى قارئها ضد العرب من خلال تضخيم مأساته وتكثيفها.

تبــدأ الشــاعرة قصيــدتها متباكية على حال طفل ينــدب موتاه ويصلى شــاكيا الظلم المحيق بالطفــولة الاسرائيلية نتيجة فقد ذويها بفعل الحرب . تقول :

صلاة طفل فى الحقل
تنادى على الميت
تحكى عن الظلم من تحت
شجرة قديمة ..

(١) معاريف ١٨/١٠/١٩٦٨ . الملحق الادبى

في مكان ليس من ينتبه فيه ..
لمرأى قدمين صغيرتين
تزلان منزلقتين في جنبة الحقل
بين ظلال متراكمة محتشدة
وأصـوات تبعث الخراب
في مدارك رقيقة .

بعد هـذه الصـورة المتأسيـة لطفل دفعته أحزانه الى الوحدة في مكان مهجور .. تتوجه الشاعرة بخطاب حان الى هـذا الطفـل تدعوه فيه الى التخلى عن أحزانه وانفراده الذى يمض النفس بالعذاب . تقول :

قوم في نفسك أصابع
تعلمت الان فقط أن تتعقد وتتشابك
مرتعدة في طقس فظيع
عدل في نفسك احساسا
يهاجم ساعة الانفراد بالذات
كالسنة من لهب يلفح اللحم
فبهذا يمنع الحزن ويزول الحداد

وبعـد ذلك تتجه الشاعرة الى التأسى على الطفـلة الحساسة التى ينشئها أبوها على رهافة الاحســـاس فيجلب لها العذاب في واقع الحرب.. مبدية استنكارها لهذا النوع من التنشئة وكأنها تقول لقرائها : كى ننقذ أولادنا من عذاب الاحزان فان علينـا أن نجردهم من الاحساس (١) ونبت فيهم الغلظة والقسوة والا لاقوا ما أقصه عليكم من أحزان الطفلة ذات الاحساس ومشاعرها

---

(١) يتفق ذلك مع ما تسعى اليه بالفعل أساليب التربية المتبعة في الكيبوتزات الاسرائيلية .. » راجع : تجسيد الوهم ، قدرى حفنى ، مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية ، مؤسسة الاهرام ، ١٩٧١ »

باليأس والحرمان من حقوقها فى الطفولة وآمالها فى الحياة .

تقول :

ان الاب الذى يورث ابنته الحساسية .
يعلم ان الوقت غير مناسب على الاطلاق .
للأحزان .. والكلمات المنكسرة المكسورة .
ان جنون اليأس وخيبة الامل .
يغرس فى نفسها أحلاما حول واقع ما ..
فى ان كانت لها غاية ومصير .
من العار أن يضيعا .
بينما الآن مشاهد الطبيعة ميتة .
ومرئيات سقيمة ذابلة .
تترى متلاحقة فى نفسها .

وفى الفقرة الختامية توحى الشاعرة لقرائها بنفس الايحاء عن السواد الحالك والمصير القائم والضوء القليل .. استنهاضا للهمم .. وان كان ايحاؤها هنا أقل صخبا من الايحاء فى القصيدة السابقة بما يعكس احساسا أكثر صدقا بأزمة الانسان المحوط بالحرب فى اسرائيل :

سلام أيها الفرح السليب ..
شمس تجاهد أن تضيء ..
عبر زجاج قاتم اللون ..
مترب ..
طفولة أمدها قصير ..
أيام عديدة ملأى ..
بانكسار القلب ..
بالمرارة ..

تحل بالاحزان ..
اما قليل الكمال .. قليل التمام ..
فمخالف لهذه الايام ..
فهو كالضياء الذى فجأة ..
فوق الربى ..
ينطوى ويتبدد ..
قبل حلول الظلام ..



على هذا النحو تنهى الشاعرة تعبيرها عن المأساة الناشئة بفعل استمرار الحرب بنفس الايحاء السابق فى القصيدة السابقة ..

ايحاء الظلمة المقيمة والضوء العابر الذى خبا

احساس

يصحق بولاق (١)

من نهاية الخيط الذى تركناه معلقا عند حدفاه هركافى فيما يتعلق باستخدام مؤثرات المقاومة العربية على الحياة الاسرائيلية فى استيلاد أحقاد جديدة لدى الانسان الاسرائيلى تحت ايهام الضياع النهائى.. يمكننا ان نلتقط بداية الخيط فيما أسميناه بالرؤية التاريخية لدى الشاعر يصحق بولاق .

فمن هـــذه الرؤية على نحو خاص تفوح رائحة التوجيه فى الادب . فهى تستند الى منطلق الرؤية الصهيونية للمشكلة اليهودية فى العالم .. وهى تقوم على تزييف واقع التاريخ فتصور أن اليهودى لم يعذب على مر الاجيال الا لمسالمته ووداعته ولذا فهو يستحق الخلاص بالتجمع فى دولة السلطان الصهيونى .

هـذه هى القاعدة الصهيونية لفهم مسيرة التاريخ اليهودى القديم والحديث حتى قيام اسرائيل . وبعد قيامها أضيفت الى هذه القاعدة ملحقات أخرى .

ذلك ان ردود الفعل العربية المقاومة للعدوان

---

(١) معاريف ١٠/١٠/١٩٦٩ .. الملحق الادبى

الاسرائيلى أصبحت تدرج هى الاخرى فى مجرى التاريخ اليهودى كحلمة جديده من حلمات العذاب اليهودى . منطق غريب يدرك صانعوه على الارجح - فى ظنى - مدى ما فيه من مجانبة للواقع وتجن على الحقيقة ولكنهم يصرون عليه ويستخدمونه فى تكثيف على كل مستويات التعبير والكتابة التاريخية والاجتماعية والادبية والتعليمية والتربوية لاحراز هدف سيكلوجى محدد فى نفس القارىء اليهودى خارج اسرائيل وداخلها .

ولكن فلنقطع هذا الاستطراد حتى يكون تبيننا للهدف من استخدام هذا المنطق من خلال التعبير الاسرائيلى ذاته .

يقول الشاعر يصحق بولاق فى قصيدته «احساس» :

أحس بروائح قوية .
روائح جثث .
روائح لحم .. فى ضرام عنيف
من الزيت .. يحترق .
يشوى على صدر مقلاة من
الرمال . . .
يزيد من رقعتها ومداها .
مصدر عال .

بهذا يفتتح الشاعر قصيدته تعبيرا عن واقع الخسارة البشرية التى تنزلها القوات العربية المدافعة بالغزاة الاسرائيليين وكما نرى فهو يسوق هذا التعبير فى صورة مؤثرة تدعو القارىء الاسرائيلى إلى انفعال الم عميق لمصير هذه الجثث البشرية التى تشوى وتقلى .. دون ما ذكر بالطبع لابشع أنواع القتل

والتعذيب التى يمارسها هؤلاء الغزاة المتجبرون ضد الانسان العربى قبل أن ترتد اليهم النيران فتصليهم وتشويهم على حد تعبير الشاعر .

فى ختام الفقرة يرسى الشاعر قاعدته التى سيشيد فوقها ـ فى بقية القصيدة ـ بناءه التاريخى للمأساة اليهودية . فهو ـ من خلال موقف لا دينى رافض لفكر الخلاص اليهودى السماوى ـ يقرر أن مقلاة العذاب اليهودى يزيد رقعتها ويوسع مداها مصدر عال اى مصدر سماوى .. وهى اشارة يريد بها الشاعر أن يحدد موقفه من منهج الخلاص اليهودى.. ليس بمجرد رفض فكرة الاعتماد على القوى السماوية فى أنهاء العذاب اليهودى .. بما فى ذلك طبعا موقف المقاومة العربية .. بل انه يتجاوز هذا الى ادانة القوى السماوية كذلك بالمشاركة فى هذا العذاب . والقصد من هذا فى النهاية هو ترسيب احساس فى وعى القارىء الاسرائيلى بأن مسئولية الخلاص مسئولية ملقاة عليه وحده حتى ضد القوى السماوية. وبذلك يتهيأ القارىء لتلقى محتوى المنهج الواجب اتباعه لتحقيق الخلاص حسب منطق التوجيه وهو أمر شائع فى الشعر والنثر سنعاود الالتقاء به فى القسم القصصى

بعد هذا ينطلق الشاعر فى تصوير هذا الواقع مشدودا الى سياق تاريخى .

جثث . . .

من أجل تكثيف المذاق .

المرير . . .

فى التاريخ الحى الملموس

هكذا يربط الشاعر ربطا تعسفيا بين ما يلقاه غزاته

المعتدون فى الحاســـة العربية وبين تاريخ العـــذاب اليهودى . فهو يرى أن الجثث التى تحدث عنهــا فى الفقرة الاولى انما هى اضافة جـديدة لتاريخ النـكال اليهودى .

هـكذا يزيف التـاريخ ـ الذى يحكم عـلى اليهود بالمشاركة فى صنع مشكلتهم مع العالم المسيحى الاوروبى الاقطاعى والرأسمالى ـ فى سياق رؤية أدبية مسـتنفرة لمشاعر العداء ضد العرب .

على هـــذا النحو تقلب صـورة الواقع فيوضع العرب موضع المعتدى الذى يمارس تعذيب اليهود .

كلا .. لست فى حاجة
لشرح أحداث بالتوتر
المـأسوى .. مشحونة
الحديث عن البـداية
افضـــل عنـدى من
بســط ماتم وما انقضى

بهذه الفقرة يقول الشاعر انه سيتجاوز الحديث عن سلسلة العذاب مفضـلا الارتداد الى بدايتها ليمسـك بخيط التاريخ من أوله .. وهو بهذا يوحى لقارئه بعقد مقـارنة بين علة نشوء سلسلة العذاب فى البـداية وبين الملابسات المشابهة فى الواقع الراهن

سـداد الحسابات فى ظنى
فيما بين النهرين .. بدأ
هناك .. ألقى رب ابراهيم
المهزوم ..
الى نيران الاتون ..

« ملاحظة شعرية : بالمناسبة استكمل الاتون وحفظ

على مر الاجيال منذ أيام ما بين النهرين وحتى معتقلات اوشقيص »

ومنذ دمرت أوثان
عاموره وسادوم
وأبناؤه باطراد
تحت شعار « لا تقتل »
يقتلون ..

بهذا الحديث الميلودرامى يقدم الشاعر لقارئه الاسرائيلى تصوره لمجرى العذاب اليهودى. فالسلسلة تبدأ عنده فيما بين النهرين اى عند ما سقطت دولة اسرائيل بقسميها الشمالى والجنوبى فى القرنين الثامن والسادس ق.م على أيدى الغزاة الاشوريين ومن بعدهم البابليين .. فهناك حيث سبى الاسرائيليون انتهكت حرمة رب ابراهيم أبى التاريخ الاسرائيلى . ومنذ ذلك الوقت .. يقول الشاعر .. وحتى معتقلات اوشقيص النازية فى الحرب العالمية الثانية ظل اليهودى يتعذب ويلحق به القتل لمجرد تمسكه بوصية عدم القتل . (١)

هكذا يصور الشاعر المأساة اليهودية لقارئه الاسرائيلى محددا علة واحدة لها هى وداعة اليهودى ومسالمته .. واحجامه عن القتل .

فما الذى يريده الشاعر من هذا ؟

ما هو الاثر السيكلوجى الذى يرمى الى احداثه فى نفس قارئه الذى يعيش فى اسرائيل اليوم بهذا التصوير المزيف لحقيقة المأساة اليهودية كما يسمونها ؟

---

(١) يتفق ذلك مع ماذهب اليه قدرى حفنى فى كتابه تجسيد الوهم من شعور الاسرائيليين المعاصرين بالتمرد على استسلام اسلافهم لما وقع عليهم من عدوان « راجع : تجسيد الوهم : مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية ـ مؤسسة الاهرام ـ ١٩٧١ »

ليحيا نبـذ السلبيـة .
كلمـاتى . . .
لتكن كلمـاتى .. فيـالق .
اشـواك ..
لتسـقط أركان عالم
منحط .. بزئير جبـار !

ها هى الاجابة يسارع بها الشارع . فما يريده بعد استثارة الخوف لدى قارئه بتذكيره بسلسلة العـذاب اليهودى .. هو ربط المـاضى بالحاضر .. انه يعود بقارئه بغتة الى أرض الواقع بعد أن حوم به فى أعماق التاريخ.. يعود الى أرض الواقع التى بدأ منها قصيدته حاملا الى قارئه الدرس المسـتفاد من تجربة المـاضى المعذب . هو يريد من قارئه أن ينبذ السلبية .. أى ان يتخلى عن السلبية فى ممارسة القتل والمسالمة علة مأساته المزعومة . وهو يريد أن تتحول كلمـاته الى فيالق غازية وأشواك واخزة تسقط أركان العالم المنحط بزئير جبار .

ومن ذا الذى يمثل العالم المنحط الذى ينبغى أن تدك أركانه سوى العرب الذين لا صـلة لهم ببـداية العذاب اليهودى فى آشور وبابل ولا بنهايته فى اوشفيص النازية .

هنا نضع أيدينا على وحدة الرؤية بين يصحق بولاق فى تعبيره التاريخى وبين حدفاه هركافى وشوشانه بيلوس فى تعبيرهما الـكلى .. فجميعهم قلق لمظاهر المقـاومة العربيـة ضـد عدوان مجتمعه .. وجميعهم يبث قلقه موجة هائلة من الذعر فى نفس قارئه استعداء واستنفارا

بعينى رأسى . . شـاهـدت .

فى يقظــة .. او فى منـام .
ما يشــبه تمثالا منتصـبا .
يداه الى أعلى ..
مرفوعتـــيـــان ..
انه دعاء الامهـــــــات :
« ملعون هو من يبعث ..
اولادنا الى مذابح الاوثان ..
القــاتمة .. الحمراء . »
اللهم ..
الابنـــــــاء فارحم ..
والآباء فارحم ..
وضـــع نهــاية لتقــديم .
اســــحق ..
ذبيحة وقربانا .
هكذا أيها الشاعر ! ! !

فبعد أن أوصــل يصحق بولاق رســالته كاملة الى قارئه فى الفقرة قبــل الختامية وحدد له فيهــا طريق الخلاص بطريقة عقلية على شكل معادلة تقول :

« كنت مسالمـــا بالامس فقتلوك .. فكن قاتلا اليوم تســلم » نراه يعود فى فقرته الختامية ليؤكد هــذا الاقناع العقلى بشحنة عاطفيــة يضـــع لها اطـــارا دعاء الامهات الاسرائيليات اللائى ثكلن أبناءهن فى الحرب : باستمطار اللعنة على من يبعث أولادهن صناديد العدوان الى مذابح الأوثان ويترجى وضع نهاية لسلســلة عذاب اسحق التى يمثل العرب حلقتها الجديدة !! وياللعجب ..

مع كل صـــــباح ... عبر القناة يتساقطون . .
يذوون كاعواد زرع اخضر .. من جذورهم .. يقلعون !

الى متى ؟ ..

يعقوف ريمون (١)

فى هــذه القصيدة نلتقى بنفس الرؤية القلقة للواقع الاسرائيلى مع نفس القصــد الى ربط الواقع الراهن بسياق تاريخى عام .

يفتتح الشاعر قصــيدته بمحاولة لاستشراف الامل ورسم صورة متفائلة لمستقبل مشرق يطل من بين ركام الواقع تحمله أنفاس السماء ونفحاتها الواعدة بالخلاص.

فجر الخلاص .. من عل
يتنـــــزل . . .
والفـــــــداء .. ملفوف
بالضيـــــــاء .
المعجـــــــزات ! !
مقبـــــلات .. بهيــــــات ..
فى جـــــلاء . . .
كألوان الطيـــــف

(١) هاتسوافيه ١٩٦٩/٧/٤ .. الملحق الادبى

على قوس قزح
محمـــــــــولة . . .
بين الســــــحاب .

في أعقاب هــذه الافتتــاحية المستبشرة التي تتحدث عن المعجـزات في الاغلب .. ليس على ســبيل المجاز الشعرى بل على سبيل الحقيقة المقررة .. من جانب شاعر متدين ينشر انتــاجه في صحيفة الحزب الدينى القومى يأتى التعبير عن القلق تجاه الواقع .

بين المعجزة .. وأختهــــــا
ظـــــلال .. تمر
ظـــــلال ..
بأنات الثكالى .. مشـــــبعة
تحمــــل في حنــــاياها
الجراح ..
أشبـــالنـــا .. زهرات جيلنـــا
مع كل صـــباح .. عبر القنـــاة
يتســـاقطون .. يذوون
كأعواد زرع أخضر
من جـــذورهم .. يقلعون .

هكذا في الفقرة الثــانية يأتينــا التعبير المبــاشر عن الباعث الدقيق على المعاناة انه تساقط الشبــاب على حافة القنــاة وهــذا ما يمثل في نظر الشــاعر موجة جديدة من الظلال التي طالمــا تخللت على مر التــاريخ دائرة المعجزات .

بعد هــذا يتجه الشــاعر بنوع من الشكاية الى ربه الذي يتوقع منه الخلاص .. مستصرخا اياه ان يضع نهاية لمجرى الدماء الســائلة على يوم الامل التــاريخي الطويل .

رباه !
من نوافذك .. تشــــــــهد
آلام الخلاص . . .
كثيفة .. مكثفـــــــــة
ونحن ..
بين مرور معجزة واختهــــــــا
نحصى موتانا .. وقلوبنـــــــا
تســــــال . . .
الى متى ؟ .. الى متى ؟
يظــل يومنــــــــا المــأمول
على دمانا
يســــــــــير ؟ ..

***

بهذه الشكاية مدعية الايمان .. مستلهمة الصــبر والسلوان لتساقط الضحايا المسالمة الوديعة على ضفة القناة ! ينهى الشاعر قصيدته مناجيــا ربه أن يضع حدا لمخاض الخلاص فيرسل معجزة طير أبابيل تشل المقاومة العربية بحجارة من سجيل حتى تكتمل معجزة الخلاص ويعيش الاسرائيليون المعذبون الابرياء فى اطار من المعجزات البهيات فى أرض تمتد من النيــل الى الفرات ! !

الفصل الثاني

نظرات.. ومواقف

- صلاة على جرحى الحرب :
  يصحق شاليف
- الضوء الذى فوق البحر :
  بنحاس بلدمان
- الحرب المقبلة :
  يعقوف باسار
- أشعار احتضار :
  يهودا عميحاى

صلاة على جرحى الحرب

يصحق شاليف (١)

فى هـذا النموذج الشعرى نلتقى بتصوير موضـعى لاحدى زوايا القلق والاسى التى يخلفها استمرار الحرب فى الواقع الاسرائيلى . من هذه القصيدة تطالعنا صورة تستثير حقـد الاسـوياء من النـاس على من يصنعون الحرب ويثيرون العـدوان . فهى تقـدم صـورا من عذاب الشبـاب الاسرائيلى العائد من الجيش مقعـدا او مشلولا أو مبتورا أو جثـة سـاكنة لا حراك فيها . واذا كانت القصيـدة تحمل شحنة أسى عميق ينفعل به الشاعر دون محاولة منه لاستكمال وتعميق رؤيتـه الشعرية برسم مخرج واقعى يجنب مجتمعـه هـذه الويلات ويشير بصـورة واضحة الى الطرف المسئول عنها .. فان غيره من الشعراء الذين سنلتقى ببعضهم يفعل هذا فى شجاعة تثير التأييد والاعجاب .

والى أن نلتقى ببعض هؤلاء الشـعراء الذين يطلقون

(١) من ديوانه .. شباب عائد من الجيش .. يوليو ١٩٧٠

صيحة الحقيقة بنبرات عالية .. فليس لشحنة الاسى التى تولدها قصيدة يصحق شاليف أن تثير لدينا اى نوع من التعاطف ـ فى غير حدود رد الفعل الانسانى الذى لا نملك حبسه فى نفوسنا ـ تجاه أدوات الحرب الاسرائيلية المعطبة .. ذلك انه اذا كان من طرف يجب أن يتعاطف مع أسي الانسان الاسرائيلى لتساقط ضحاياه فى الحرب فانما ينبغى أن يكون هذا الطرف ساسة اسرائيل وصناع الحرب فيها .. أولئك الذين يرفضون كل فرص السلام ويصرون على منطق العدوان.

واذا كان ساسة اسرائيل لا يتجاوبون بالتعاطف مع موجة الاسي العام التى تغمر مجتمعهم لخسائره البشرية فليس لنا نحن بالاولى أن نتجاوب مع هذا الاسى .

ان رد فعلنا على هذا الاسى لا بد وأن يتصاعد بمزيد من الطاقة العسكرية والضغط العسكرى حتى نجبر ساسة اسرائيل فى لحظة على الانصات المستجيب لأنات الجرحى من شبابهم الذين يسقطون على أرضنا من موقف العدوان .

فى مطلع القصيدة يستخدم الشاعر أسلوب الدعاء والمناجاة فى تصويره لاوضاع الاصابات المختلفة التى يعود بها الشباب الاسرائيلى من الحرب .

يقول :

رب المصابين الساكنين فى الجبس . . .
رب المصابين من يتنفسون الاوكسجين . .
رب النفوس التى تلفظ أنفاسها . .
كجمرة خابية . .
ساعية الى نهايتها . . .

فى الفقرة الثانية يضيف الشاعر الى هذا التصنيف

العام لاصابات الشبــاب الاسرائيلى العائد من الجيش لمسات أخرى مكملة ..

رب النفوس التي فوق اسرتهمـــا ..
أكيــاس الدم أرجوانيـــــة اللون ..
معلقـــــــــــة ..

والتي قطرت الدم الســـــــائلة فى الانابيب ..
بالنســـبة لهــا .. كســـــــاعة تضـــبط ..
حيــــــــــــاة الزمن ..

بعد ذلك التصوير لحالة الجنود الاسرائيليين ضحايا الحرب يتجه الشاعر الى الـكشف عن مضمون نجواه للرب :

جل يا رب النفوس التي تعيش
ما بين عقــاقير التهـدئة وعقـاقير التنويم
ما لا يقـــدر على تجليتــــه للأرواح
ســـــــــواك ..

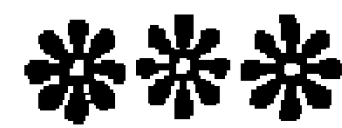
هكذا تتحدد الغاية من المنــاجاة لدى الشاعر فهو يدعو الرب لان يكشف عما يعتبره الشاعر غامضـا غير مفهوم لا يقدر على فهم مدلوله ومغزاه سوى الرب .. فما الذى يريد الشاعر من الرب أن يجلى غموضه ؟..

جل سر هــــذا العــذاب وهــــذه المعــاناة
جل الغــاية من أعمـــــــــالك :
الغـــــاية من المشــلول والمبتور
الغـــــاية من ســـاق معلقــــة بمسمار
فى عظمهـــــــــا .
جل يا رب .. جل .. افصــــــــح .

هكذا يكشف الشــاعر عن مكنون دعائه الذى يغمرنى شخصيــا باحســاس من الدهشـــة .. هو يريد من

الرب ان يكشف عن سر هـذا العذاب وهـذه الجراح التى يعانيها ابطال الحرب الاسرائيليين .

والحق ان احســـاس الدهشة لهذا الدعاء يكاد أن يوقف القلم بالتعليق عند هـذا الحد لانتقل الى الفقرة التالية . ولـكن للقـارىء على حق . من حقه أن يعرف مبعث هـذا الاحســـاس بالدهشة المزوجة بالسخرية تجاه دعاء يبدو مســتكينا متأسيـا يفترض أن يثير احساس الاشفاق الانسانى العام .



مبعث الدهشة عنـدى هو هـذه النظرة المفرقة فى الغيبية التى يطرحها الشاعر . انه يبدو ـ لو عاملناه بحسن الظن ـ غارقا فى تفكير غيبى يرد واقع المعـاناة الاسرائيلية الى قوى لا دخل لها بهذا الواقع . وفوق ذلك يبدو ترديا فى غيبوبة كاملة عن واقعه ومسبباته.
اما كان الاحـرى بالشـاعر ومن ينهجون نهجه فى التعبير وهو يعيش فى اسرائيل ويعلم ان ساســـته يرفضون فرص السلام الواحدة تلو الاخرى أن يوجه دعاءه ونجواه اليهم .

ان الشاعر ينسب معاناة جرحاه الى الرب ويطالب الرب بالـكشف عن الغاية من أعماله هـذه . فهل الرب

هو الذى يثير الحرب ؟.. وهل الرب هو الذى يصر على عدم التخلى عن الاراضى العربيـة .. وهل الرب هو الذى يتحالف مع القوى الاستعمارية لاخمـاد انفـاس العرب واخضاعهم للتشرد والعبودية .

ما دخل الرب فى هـذا ؟ !

وسؤالى موجه الى الشاعر نفسه ـ والى كل من يكتبون بطريقته فى اسرائيل ـ واعلم ان هـذا التعليق

سينقل اليه والى غيره فى اسرائيل .

أولى بك أيها الشاعر مرهف الاحساس أن تفهم الحقيقة التى يفهمها غيرك من مواطنيك ، شعراء وغير شعراء .. وأن تفيق من سباتك .. اعلم أيها الشاعر ان سر عذاب جرحاك كامن فى اطماع ساستك واصرارهم على العدوان الجشع فوجه اليهم دعاءك سخطا وثوره لانهم لن يستجيبوا بالمناجاة والدعاء .



والآن نعود الى القصيدة .. فى الفقرة التالية يواصل الشاعر وصف ضروب المعاناة .

عند ما يخلو جزء تحت الغطاء ..
وينقص شيء ما هناك
كأنه جذع قد اقتطع ..
ينخسف الغطاء فى ذلك المكان
لأن تحته لا يوجد سوى
الهواء .
رب الاجساد الساكنة
فى أسرتها
مجمدة دونما برد
مكبلة دونما قيود
رب الشباب الذى قضى عنيه
بالنضوج فوق الكراسى المتحركة .
رب الشبان الذين قضى عليهم
بالموت ..
فى قبر هو حشيتهم وتحت نصب
هو ملحفهم .
قل لهم يا رب على الاقل

كلمـــــــــــــة ..

اطلب لهم الغفـران .

هكذا يصل الشاعر الى ختام قصيدته مصـورا من لقوا حتفهم فتجمدوا على الأسرة بالموت .. ومن أقعدوا فى شرخ الشـباب فقضى عليهم ببلوغ سن النضج فوق مقـاعد متحركة. ومن ووريت أجسـادهم القبور تحت لوحات الشرف المنتصبة فوقهم .

الضوء الذى فوق البحر

ابنحاس بلدمان (١)

فى هـذه القصيـدة نلتقى بمرثية لضحايا السفينة الحربية ايلات التى أغرقتها زوارق الصواريخ المصرية عام ١٩٦٧ . والقصيدة تقدم نوعا من الرثاء المعتـاده وتؤكد ذكرى هؤلاء الضحايا لدى الشـاعر الذى يعبر عن ألمه ورعايته لذكرى ضحايا الحادث .

ولعله من الجدير بالذكر أن حادث اغراق المـدمرة ايلات قد حظى باهتمام أدبى خاص فلقى تسجيلا أدبيا فى عدد من الاعمال الادبيـة الشعرية والمنثورة يتراوح جرسها بين النواح والتباكى على مصير طاقم السفينة الذى غرق معها والوعيد بالانتقام والثأر لهم .

أما هـذه القصيدة فتعزف ألحان الحزن والحداد تجاوبا مع موجة الاسى التى أشاعها الحادث بعد شهر واحد أو أقل من وقوعه .

(١) فى ذكرى شهداء ايلات : معاريف ١٩٦٧/١١/١٠ .. الملحق الادبى .

خبـا الضـوء . . فوق البحر
حيـوات أبنـائى يا الهى .
فى الرمال القـديمة . .
حـــــديد بارد
وذكرى الدم السـائل
فوق البحـــــر .
وتســـأل فتـــاتى :
ربما كانت هـــــذه الظلمة
كسوف شمس وقد جاء فى غير موعده . .
كلا ! . .
كلا يا فتـــــاتى
لان أمام عينى
جثث أبنـائى كالصـوارى منتصـبة
لو توانت العين لحظة
عن رؤية ورود . .
ورود وغلالة على وجهـك
الطـاهر يا فتـــاتى . .
لاحمرت حتى دم الورد
حليـــــة موت أبنـــائى
يا الهى !

الحرب المقبلة

يعقوف باسار (١)

فى هـــــذه القصيـــدة والقصيـــدة التـــالية نلتقى بموقفين يمثلان زاويتين مختلفتين من التعبير عن رد الفعل الرافض لصنـــاعة الحرب وســـيطرة العسكريين والفكر العدوانى فى اسرائيل لدى بعض قطاعات المثقفين الاسرائيليين . هنا يقدم الشاعر يعقوف باســـار وثيقة ادانة صريحة للمجتمع الاسرائيلى كله على موقف صنع الحرب وشن العدوان . وهو فى سياق تعبيره الشعرى يطلق صيحات التحذير واضحة يشير بها الى السبيل الصحيح الذى ينبغى على أعضـــاء المجتمع الاسرائيلى المريض انتهاجه اذا شاءوا اعفاء أنفسهم من قوارص الحرب وآلامها وهولها . انه عند الشاعر سبيل التخلى عن بث روح العدوان فى الاجيـــال الجديدة وتنشئتهم على مسلك الحرب والاعتداء لتسوية المشاكل المعلقـــة مع العرب .

---

(١) معاريف ١٨/١٠/١٩٦٨ ـ الملحق الادبى

يفتتح الشاعر قصيدته مقررا المسئولية الاسرائيلية الجماعية عن تخليق الحرب وغرس بذورها يقول :

الحرب المقبـــــــلة ..
ننشئها .. نربيهـــــــا
ما بين حجـــــــرات النوم
وحجـــــــرات الاولاد . . .
النعـــــــاس ..
آخـذ فى الاصطبـــــــاغ بالســــــواد
ونحن من ملامســـــته فى فزع .

هكذا يحدد الشاعر مسئولية صنع الحرب فى الجانب الاسرائيلى ليس على مستوى حجرات السياسة والحرب فحسب .. بل على مســـتوى حجـرات الحيـــــاة الخاصة حيث ينبغى أن يهجع الانسان ويركن الى التفكير فى الامان والتنعم بالسكون والطمأنينة .. وعلى مستوى حجرات الاولاد حيث يربون وينشئون لا على غذاء الفطرة القويمة ومحبة الآخرين بل على خليب الحرب وعصارات الفلظة والتهجم . وفى نفس الفقرة يشير الشاعر الى ما يوقع فيه هـذا الموقف أصحابه وما يؤدى بهم اليه من مشاعر القلق والتوتر وتوجس الخطر فى الصحو وفى المنام فلا تعود بهم طاقة على مقاربة النوم تخوفا مما يلم بهم خلاله من هواجس ومخاوف .

ذراع الـكهرباء تتحـــــــرك
على محورها الملفوف بالصـــــــمت
تجاه الحرب التى تخطـــــــر
على أحاديث المطـــــــابخ .
فى عتمـــــــة الحجرات ..
نسمع وقع خطـــــــاها

ونحن مقيمون على اغفـــــــــــاءة
الظهـــــــــــيرة ..

فى هــذه الفقرة يوالى الشــاعر تقريره لمسئوليــة صنع الحرب على كل المستويات .. فذراع الـكهرباء التى يفترض أنها تتحرك على محورها لتوليــد الضياء وصنــاعة النهــار فى جوف الظلمات تحرك تجاه الحرب وفى سبيلها بينما الحرب المقبلة تنضج شيئا فشيئا على احاديث المطابخ مع الطعام ووقع خطاها لا يفارق أسماع وأذهان القوم وهم يأوون للراحة من ضنى العمــل فى قيظ الظهيرة .

وفى قاع العيـــــــون
جمــــــــلان فى لون الليــــــــل البهيم
يرشف كلاهمـــــــــــا من فم الآخر
ميــــــــــــاه الرعب الخضراء
ذلك لأننــــــــا نستنبت فى تأن وثقة ..
زهرات الحديــد للحرب المقبـــــــــــلة ..
ما بين حجـــــــــــرات النوم
وحجـــــــــــرات الاولاد ..

***

فى هــذه الفقرة الختامية من القصيدة يطلق الشاعر صيحة التحذير فالحصــاد من جنس الزرع . يقول الشــاعر : لأننــا نزرع الحرب ونســتنبت زهورهــا الحديدية بكل التأنى والثقة فليس أمامنا الا أن نجنى الفزع والخوف الدائمين وليس لعيوننــا أن تبصر فى اليقظة وفى المنام سوى مشاهد الروع والهول يستولد بعضها بعضا ويتساقى بعضها من أفواه بعض ويخصب بعضها بعضا . ان الثمار التى نحصدها من بذرنا ..

يقول الشاعر : هى ثمار كريهة تروى بمياه الرعب الخضراء الآسنة ولن نحصد سواها ما أقمنا على ما نحن عليه مقيمون .



على هذا النحو من البصيرة الشجاعة التى تمنح الانسان رؤية واضحة نفاذة توفر له امكانية الاحاطة بعناصر الموقف كاملة واستبطان أعماقه الفائرة .. يرد هذا التعبير الشعرى مزودا بمنسوب جمالى مرتفع ممثلا فى سلاسة العبارة وبراعة الصورة وبساطتها وعمق ايحائها واتساع دلالاته فى آن واحد مع الابتعاد عن الالوان الفاقعة فى تلوينها وتميز التعبير بخفوت النغمة الصاخبة الملاحظة فى كثير من أشعار مابعد الحرب فى اسرائيل .

ان الجماليات ليست كماليات تصطنع فى الادب ولكنها أوراق خضر يانعات على شجرة اسمها الرؤية الواقعية الشاملة كلما تأصلت واستمدت رواءها من أعماق الموقف اخضوضرت أوراقها وأينعت . وهذا ما توفر بعضه ليعقوف باسار فى هذه القصيدة على قصرها .

أشعار احتضار

يهودا عميحاى (١)

تقدم هذه القصيدة تمثيلا لموقف رفض جاد وعنيف لواقع الحرب فى الجانب الاسرائيلى يشق له فى التعبير رافدا رومانسيا فى عمقه السحيق رغم انه ينطوى فى ظاهره على امل عظيم يراود أحلام الكثير من البشر فى الشيوع العالمى والمواطنة العالمية . أما لماذا تبدو الرؤية لدى شاعرنا رومانسية ؟ فانما هذا لانها مستولدة بفعل واقع الحرب الموضعى وحده دون أن تبدو فيها آثار لنظرة فلسفية اجتماعية تكون منطلقا ثابتا وقاعدة راسخة للتفكير فى هذا الامل وتمثل شرطا لازما واساسيا لامكانية تحقيقه .

يستهل الشاعر قصيدته مطلقا صرخة احتجاج تتمثل فى أعلانه عجزه عن الاستمرار بين الاحياء فى ظل واقعه .. يقول :

(١) من ديوانه .. الان فى الزلزال : نقلا عن بديعوت احرونوت ١٩٦٨/١٢/٦ . . الملحق الادبى .

ـ أ ـ

انا احتــــــــــضر .
لولدى عينــــــــا ابى
ويـــــــدا أمى
وفـــــــمى .
لا ضرورة لى . . .
شـــــكرا جــــــزيلا .
بدات الثـــــــــلاجة تزوم تأهبا
لســـــــفرة طـــــــويلة .
كلب غريب يبــكى لفقــد شــخص آخر .
انا احتـــــــــضر .

يبــدأ الشــاعر تعبيره بصرخة يعلن فيهااحتضــاره وغيابه عن الواقع ثم يعود ليثبتهــا مرة ثانية فى نهاية الفقرة .. وبين الصرخة الاولى والثانيــة يوســد علة انفصاله وغيابه هــذا عن واقعه .. وهى ممثلة فى عجزه عن احداث مايتمناه فيه من تغيير . فكل شىء على حاله ، حتى ولده الذى كان يرجو له خصالا أخرى تميزه عن الواقع المرفوض يكتسب صــفات هــذا الواقع ويتحول الى نسخة جديدة من النسخ العديدة الموجودة فيه . فقد ورث الولد عينى جده ويدى جــدته وفم أبيه . اى ان هــذا النشء الجديد قد اصبح ينظر بمنظار الجيل القديم ويأتى أفعاله وينطق بأقواله .

وهو أمر كان الشاعر يتمنى عدم حدوثه . وبما انه قد أصبح واقعا فان الشاعر يحس بأن جــدواه قــد انعدمت فلم تعد لوجوده ضرورة وقد فشل فى تحقيق ما يتمناه .

ان ثلاجة الواقع البارد المقرور تزوم متأهبة لسفرة طويلة جديدة تحمل فيها ولده الى عالم الجمود والموات بعد أن اكتسب خصائص الواقع بينما كلب غريب يتولى واجب الحزن على هذه الضحية الجديدة للواقع بعد ما لم يعد من بين الناس من يهتم بذلك .

ولعلنا لو جاهدنا للتعرف على خصال هذا الواقع الذى يرفضه الشاعر بصورة عامة لوجدناها ـ اهتداء بمضمون الفقرات التالية من قصيدته ـ فيما تدعو اليه الشاعرة شوشانه بيلوس من تفريغ أطفال الجيل الجديد من رهافة الاحساس وما يستنكره الشاعر يعقوف باسار من واقع تنشئتهم على روح الحرب والعدوان .

ـ ب ـ

دفعت ضرائب لكذا وكذا من الخزائن .
أنا مؤمن على تماما .
لى ارتباطات تعامل مع كل الخزائن .
أى تغيير فى حياتى سيكلفهم مالا كثيرا
أى حركة من جانبى ستحل بهم الالم
موتى سينزل عليهم بالخراب .
وصوتى يمضى مع السحب .
يدى الممدودة تحولت الى ورقة : وثيقة تأمين اخرى .
أننى أرى العالم خلال زهرات سوسن مصفرة
لان شخصا نسيها .. على المنضدة
بجوار النـــــــافذة ..

فى هذه الفقرة يتحدث الشاعر عن موقفه السابق من مجتمعه .. فلقد كان يدفع ضريبة الانتماء لكل الخزائن .. كان يسهم فى كل المناحى ويقدم ما يستطيع

حتى اصبح لوفرة ما يعطيه وما يسهم به عزيزا غاليـا على هـذا الواقع .. وكأن كل اسهام يقدمه يمثل وثيقة تأمين جديدة له ترفع من قيمته وتضاعف من حاجة مجتمعه له .. لدرجة انه اذا تخلى أو تمنع أو مات نزلت بالواقع خسـارة كبيرة تتمثل فى فقد طاقاته وعطائه

والآن وبعـد أن أعطى الـكثير بأمل معين يرجوه من عطائه اذا به يثور بعد أن أصبح يرى العالم من خلال سوسنات فقدت نصاعتها وبياضها وطهرها وحال لونها الى صفرة الذبول والموت لان الواقع طرحهـا جانبـا واهملها . لهذا يثور الشاعر على الواقع لانه خيب أمله فى التمسك بنضرة السوسنات وبناعتها .

— ج —

افـلاس !
انى أشـهر العـالم كله
على انه رحم .
من هـذه اللحظة . . احل نفسى
وأودعهـا داخـله :
كيما يتبنانى .
انى أشـهر رئيس الولايات المتحدة
على انه أبى .
وأشـهر رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى
على انه حارس أملاكى وجامعهـا
وأشـهر الوزارة البريطانيـة
على أنها أسرتى .
واشهر ماوتسى تونج
على انه جـدى

كلهم ملزمون بمساعدتى
أنا أحتضر .
اننى أشهر السماء
على انها الاله
كى يعملوا لى جميعهم معا
ما لم أصدق انهم سيعملون .

تتويجا لموقف الثورة على الواقع الذى خان الامل الطاهر الناصع يعلن الشاعر افلاسه عن العطاء لهذا الواقع المشوب بالذبول والموات .

وفوق هذا يعلن عن انسلاخه عنه والتجرد عن الانتماء اليه بحثا عن انتماء جديد يحقق له أمله فى المحبة والطهارة . انه يتطلع بعد أن خلع جلد الانتماء الضيق الذى يستولد الحرب والدمار الى انتماء أوسع واشمل .. انتماء الى رحم يستوعب الانسانية كلها ويحتويها كالرحم حانيا .



وحتى هذه الفقرة كان يمكن أن تكتسب رؤية الشاعر صفة الواقعية .. لكنه بهذه الفقرة يجنح جنوحا جادا الى الرومانسية وخيالاتها المحلقة بعيدا بلا جدوى تحت وطأة حمى الرفض والانسلاخ عن واقعه فهو يجمع فى جوف الرحم العالمى الذى يتطلع اليه أطراف متناقضة تماما بعضها يمثل الخير وبعضها يمثل الشر وهو ذو مسئولية مباشرة وبينة عن ذبول سوسناته وخنقها فى واقعه وواقعنا تحالفا مع ساسته .

هنا يقع الشاعر فى خلط يبدد الايحاء الشفاف الذى كان يمكن استيحاؤه من سوسنات أمله . ولو كان الشاعر مسلحا بفكر اجتماعى واضح لاستطاع أن يقدم قصيدة رائعة تشير بصورة جلية الى الطريق الذى يوفر

له حلمـــه ويؤدى الى تحويل واقعه المحلى الذابل وكل المواضع الذابلة من العالم الى جنة متصلة من السوسنات الناصعات .



من خلال تناولنا للتجارب الشعرية الثمانى السابقة .. وهى كما ذكرنا قبلا .. تمثل فى تبـاينها نماذج للأنماط الشائعة من الانتاج الشعرى العبرى فى الفترة بين ١٩٦٧ و ١٩٧١ .. يمكننا ان ننتهى الى محصلة عامة فيما يتعلق بطبيعة الحركة النفسية العامة فى الواقـع الاسرائيلى بعد الحرب .. مفادها خضوع هذا المجتمع لنوبة بينة من القلق تطارد أحاسـيس الصلف والغرور بالنصر العسكرى .. وهى نوبة تطلـق مجراها الحرب المستمرة وما تقتضيه من تكاليف مرهقـة ومسـتمرة وتغذيه بلا شك روافد القلق العام الضارب فى المجتمع الاسرائيلى بفعل ظروفه الاجتماعية والاقتصــــادية المضطربة انعكاسا لبنيته الاجتماعية غير المتوازنة وهو أمر سيزداد وضوحا أثناء الحديث عن القصة الاسرائيلية

الجزء الثانى

قصص الحرب في إسرائيل

اذا كنا قد تلمسنا فى الفصل السابق من خلال رؤى شعرية مختلفة بواعث القلق الاساسيــــة فى المجتمع الاسرائيلى بعد الحرب .. فاننا فى هذا التناول للواقع الاسرائيلى من خلال النسيج القصصى العبرى .. وهو بطبيعته الرحبة الممتدة أكثر قدرة علىاستيعاب تفاصيل الحركة الواقعية والنفسية التى ينفعل بهـا الـكاتب ويتجه الى التعبير الادبي عنهـا .. انما نقصـد الى الوقوف على كنه الحركة الداخلية فى النفسالاسرائيلية الخاضعة للمخاوف المختلفة والى تحديد أبعـاد حركتها الخارجية فى اطار الجماعة فى ظل الحرب .. بما يعطى فى النهاية صورة أوضح عما يدور فى المجتمع الاسرائيلى من حركة واقعية ونفسية جماعية وما تلقاه من مجاوبات أدبية .

فىهذا القسم سنتعرض لبعض نماذج القصة القصيرة بما يمثل انماط الانتاج الرائجة فى هذا الفن تحت تأثير واقع الحرب .

واذا كنا نقتصر فى هـذه الدراســة على نماذج من القصة القصيرة على نحو خاص فانما ذلك لان القصــة القصيرة تقدم لنا اطارا من الامكانيات التعبيرية يتجاوز فى رحابته حدود التعبير الشعرى المحدود من ناحية ، وتوفر لنا مداخل عدة للواقع فى حيز الـكتاب عبر رؤية عدد كبير من الـكتاب من ناحية أخرى . وهو ما كان ليتعذر من خلال تقديم أعمال روائية أو مسرحية بما

نستلزمه من حيز كبير خاصة مع حرصنا على تقديم النصوص الكاملة للقارىء العربى .



ومما لا شك فيه ان هذا لا يغنينا عن الاطلال على هذا الواقع عبر المنافذ الادبية الاوسع ممثلة فى انتاج من المسرحيات والروايات وهو أمر نرجو أن نستطيع تقديمه للقارىء العربى فى القريب بمساعدة احد المراكز المختصة بالدراسات الاسرائيلية والتى قد تفتح شهيتها لدراسة أدب العدو هذه المحاولة .

فى دراستنا هذه سنحاول أن نوفر للقارىء العربى أكبر عدد من زوايا الرؤية للاطلال على قاع المجتمع الاسرائيلى عن طريق كتاب القصة القصيرة .

وعلى هذا سيشتمل هذا القسم على الفصول التالية :

١ ــ قصص العزلة واليأس .

٢ ــ بعد جديد فى ظاهرة العزلة واليأس .

٣ ــ القصص السياسى .

ونعتقد اننا بهذا التنويع نقدم شريحة عريضة من الانتاج الادبى فى فن القصة القصيرة على نحو كاف :

الفصل الأول

قصص العزلة واليأس

- كان يمكن شراء مدفع بهذا المال

للكاتبة روت الموجى

في هـذه الدراســة سنجاهد قدر وسعنا ان يكون التناول قائما على الوثائق ، بمعنى اننا سندع المصــادر الاسرائيلية ما بين أديب وناقد تتحدث وتنبىء عن نفسها بنفسها قبل أن نتدخل بالايضاح أو التعليق وذلك جريا على منهج حتمي تمليه ضوابط البحث الموضوعي على من يتصدى لتناول هذا الموضوع في الحياة الاسرائيلية كي لا يتجاوز مهمة تفسير ما يراه الى الحديث عما يتمناه .

في أواخر عام ١٩٦٨ نشر القصاص الاسرائيلي الشاب افراهام بن يهوشع وهو من أبرز كتاب القصة العبرية القصيرة في اسرائيل مجموعته القصصية الثانية تحت عنوان « في مواجهة الغابة » (١) وعنوان المجموعة هو عنوان القصة الاولى فيها . وهي قصــة رجل يفتقــد الجذور التي تشده الى بيئته ويفتقر الى الصلات التي تربطه بواقع جماعته وهو يبحث عن خلاصه في الغربة الــكاملة لــكنه لا يوفق حتى الى العزلة ، وهذا الانسان نموذج الطالب الدائم الذي يسعى دائما الى الثقــافة والمعرفة الفكرية ، وفي محاولته اعتزال الجماعة يقبل وظيفة مراقب في احدى الغــابات المملوكة للصنــدوق القومي اليهودي ، وهو بهذا يبحث لنفسه عن طريق ويأمل في ان يقدر على الــكشف عن ذاتيته عله يستطيع

(١) افراهام بن يهوشع .. في مواجهة الغابة .. قصص . دار نشرها هاكبوتس هاموحاد ١٩٦٨ .

تجديد الوشائج التى تقطعت بينه وبين واقعه ، ان الرجل يعانى كمعظم أبطال الادب ألاسرائيلى بعد الحرب على نحو خاص من الارهاق النفسى والاكتئاب والفزع والميل المستمر الى الهرب ، وهو عندما يلجأ الى الغابة فانما يحاول الارتداد الى أصول الحياة بحثا عن نقطة بداية جديدة ، ينتقل البطل من المدينة للعيش فى الغابة المهجورة حيث تصبح صلته الفعلية بالمستوطنات القريبة والبعيدة صلة واهية محصورة بالضرورات العملية .

فى تلك الحياة المنعزلة يمارس البطل تجريبه الداخلى مع نفسه .. انه لا يجد نفسه الا فى العدم والفراغ اللانهائى .

« تمر عليه أيام غريبة ، اذا قلنا ان الخريف قد أتى فنحن لم نقل شيئا بعد ، ان تساقط أوراق الشجر وكأنه يتزايد .. والشمس تضعف وسحابات أولى تدلف الى الصورة ، ريح ساكنة جديدة .. وادراكه آخذ فى التلاشى ، وبتأثير نوع من الخبال يبدأ فى التجوال دون هوادة فى الغابة ، غصن مكسور فى يده وهو يسير ليلا ونهارا يضرب الجذوع الفضة وكأنه يضع علامات على الاشجار .

فجأة يتهاوى ويضع راسه على احدى اللافتات المعدنية اللامعة .. يرفع نظارته ويتطلع بعينيه فى رؤية مشوشة عبر قمم الاشجار الى السماء غبراء اللون ، يبدو فجأة وكأنه يبكى ، الصور تبهت فى ناظريه ، ومرة ثانية يغرق فى التفكير ، ثم يقفز ويضل فى متاهات الغابة بين الاشواك والاشجار ، فى ضباب وعيه تنزرع فكرة بأنه مدعو فى التو وبلا تأخير الى مقابلة على حافة الغابة فى الناحية الاخرى منها ، ولكنه عندما يخرج من الغابة

ويصل الى نهايتها سواء فى احدى لحظات الليل او ضحى النهار أو لحظة من لحظات الفجر الاولى لايكتشف امامه سوى بلقع أصفر .. واد غريب أشبه بنوع من الحلم الطويل ، يقف هناك زمنا طويلا أمام الصمت الخالى .. صمت جدب من الاشجار فيحس بأن اللقاء يجرى بل ويجرى بنجاح وان كان لقاء بلا كلمات ، ظل غارقا ربعا كاملا وصفا طويلا دون ما اغفاءة حقيقية ، ما أعجب أن تصبح الايام القديمة وكأنها وهم أو خرافة»

على هذا النحو يجرى سياق القصة فى تصوير لحظات عزلة البطل واغراقه فى الاغتراب عن ماضيه وحاضره بكل ما يحمل من لمسات الحياة حتى المثلة فى الاشجار والنباتات ، غير ان البطل لا يهنأ بعزلته فالواقع يطارده .. ذلك ان شيخا عربيا بدمر الحشر الاسرائيلى قريته يحمل حفيدته الصغيرة لاجئا بها الى الغابة مهجع المعتزل .

ويقيم الشيخ فى الغابة فترة تتاجج خلالها نار الثار فى نفسه فينفث حقده باشعال النار فى أشجارها فى نهاية القصة ، وهنا لا يجد البطل « مفرا من العودة الى المدينة والى أمواتها » ان انفصاله عن الواقع يصبح كاملا ورغم انه عاد الى مدينته « فانه قد اصبح غريبا غريبا فى مدينته المألوفة له تماما » .

ويبدو أن مدينته قد نسيته هى الاخرى ذلك انه « يلتقى بجيل جديد فى الطرقات على حين يلتقى به معارفه الساخرون فيربتون على كتفه فى سخرية ووجوههم تنقبض فى ابتسامات قبيحة قائلين : «سمعنا ان غابتك قد احترقت .. وكما هو معروف ما زال البطل شابا ولكن أصدقاءه الحقيقيين قد يئسوا منه تماما » .

فى قصة اخرى بعنوان « صمت شاعر متزايد » تتزايد عزلة شاعر توقف عن الكتابة ساعيا الى الانفصال التام عن بيئته ، وهو يعانى الاختناق ونقص الهواء ، وتحت وطأة اليأس والعزلة يطلق اعترافات تكشف عن فقده الايمان بواقعه :

« الم أكن أريد أن أكتب ؟ ألم تكن بى أشواق للكتابة؟ ولكن عن أى شىء تمكن الكتابة الآن ؟ وهل يمكن ان يقال شىء بعد ؟

اننى أقول لكم : كل شىء خدعة ، حتى شجره صفصافنا تتفتت ، جذعها يتساقط قشورا قشورا ، الصخور تنبت العستر » .

والطبيعة المحيطة تشارك البطل محنته وركوده وعجزه عن الاستمرار .

« ان هذا الوادى يتحول بفعل الامطار الغزيرة الى بركة من الاسفلت والرمل والمياه ، تل أبيب فى فصل الامطار بلا صرف للمياه وبلا مخرج .. تزرع بها البحيرات والبحر من بعيد معتم » .

وفى سياق القصة تتأكد غربة الشاعر وتتزايد حتى يصل الى حافة النهاية فاذا بحبل النجاة يلقى اليه من مصدر لا يتوقعه .. مصدر يستحيل ان يأتى على يديه الخلاص ، ذلك ان ابن الشاعر المتخلف عقليا غير القادر على فهم أى شىء يتحول الى وسيلة تعيد وصل الشاعر بالكتابة وبالناس فى نهاية القصة عندما يكتب قصيدة وينشرها منسوبة الى أبيه .

ولعل الكاتب يقصد بهذا المخرج الوهمى الذى يهيئه لبطله الشاعر الى القول بأن الخلاص من العزلة واليأس شىء وهمى بنفس القدر الذى يتوقع به من

صبى متخلف العقل أن يكتب قصيدة وينسبها عامدا الى أبيه ليعيده الى الحياة المنتجة .

وفى سائر قصص المجموعة التى تكرس للتعبير عن ازمة العنصر المثقف ذى الحساسية فى الواقع الاسرائيلى .. نلتقى بأبطال من النوع نفسه ، أفراد ساقطين فى اليأس ينتهى مصيرهم كما التقينا بهم أو يكتب لهم الانتفاض من يأسهم بحركة حاقدة على المجتمع فيدمرون ما يحيط بهم .

ورغم ان قصص بن يهوشع لا تحتوى فى نسيجها على اشارات مباشرة الى معطيات الحرب وتأثيرها على تحركات أبطاله واقعيا ونفسيا فانه من العسير أن نتجاهل ـ كما فعل النقاد الاسرائيليون الذين تعرضوا بالنقد لقصص المجموعة بل والمؤلف نفسه فى أحاديثه مع النقاد حول المجموعة ـ انعكاس واقع الحرب المرئى فى غالبية الكتابات الادبية بعد ١٩٦٧ على الشخصيات الواقعية التى يستقى منها افراهام بن يهوشع معالم أبطاله فى العمل الادبى ، وفى السطور المقبلة نحاول أن نتعرف على جانب من النقد الذى لقيته المجموعة لنشرك الناقد الاسرائيلى مع الاديب فى تقديم صورة الظاهرة .

يقول الناقد الاسرائيلى ى • عاموس فى مقالته النقدية على مجموعة بن يهوشع بعدد جريدة هاتسوفيه الصادر فى ١٩٦٨/٧/١٢ « تستوحى قصص افراهام بن يهوشع من عالم العزلة والصمت الذى يطبق على أبطاله .. ان الهرب من الواقع من ناحية والغوص الى داخل النفس والتقوقع المستمر فيها من ناحية أخرى يمثلان القطبين اللذين تتحرك بينهما شخصيات الكاتب ، ان الانفصال عن الواقع يميز نشاط الشخصيات وهو الذى يحولها

الى ما يسمى بلغة عصرنا « أضداد الابطـــال » أولئك الذين يكتسبون خصائصهم قسرا ورغم ارادتهم فى البداية وطواعية وبالرضا فى النهاية ، انهم ضـــالون كالاجانب والغرباء فى طرق الحياة وهم مدفوعون للفشل والضياع نصيبهم ومصيرهم ، ان سقوطهم ليس بمثابة فعل يقع مرة واحدة بل هو مجرى مستمر ومتدفق وسـائر يضعهم موضع الغرق البطىء المستمر . ان ألوان هذا الغرق العديدة تكون مضمون القصص وهى التى تميـز كتابة افراهام بن يهوشع وتضـعه فى الموضـع المتميز الخاص من أدبنا الحديث » .

وما نلاحظه على هذا التحليل العام لابطال بن يهوشع هو وقوفه عند حدود التشخيص العام لواقع الابطال دون ما محاولة لبسط عوامل القهر والقسر الخارجية التى تفرض عليهم التقـوقع وتؤدى بشخصيـاتهم الى التوافق الخانع مع العزلة والفرار السلبى من الواقع .

ان جـدارة هذه العوامل بأن توضع موضع البحث والاستقصاء لتفوق عندنا أى اهتمام آخر .

واذا كان الناقد الاسرائيلى قد تغاضى عن هذه المهمة فلسنا نحن فى حل منها ما دامت غايتنا من مثل هـذا النوع من الدراسة الوقوف على العلل الاساسية التى تؤدى الى خلق مثل هـذه الظواهر والانماط البشرية السلبية فى المجتمع الاسرائيلى .

والحق ان ما يقدمه الاديب ذاته من تحليل لمسـيرة التجربة الانسانية لدى ابطاله فى سقوطهم فى وهـدة العزلة والصمت حيال الواقع لاينبغى أن يمثل عندنا كل الحقيقة فيما يتعلق بمكونات التجربة الذاتيـة والعامة لدى الابطال .. خاصة اذا كنا نقصد من تحليلنا للعمل

الادبي الى استخلاص النوازع الاجتماعية العامة لدى الشخصيات الادبية عامة بوصفها صورة مقاربة الى حد ما لشخصيات الواقع المتحرك .

ان الاديب لايستطيع على الاغلب الاحاطة بكل دوافع سلوك الشخصيات الحية التى يصوغ منها شخصيات عمله الادبى ، ولذا فهو يختار اهم هذه الدوافع حسب رؤيته الخاصة ثم يركز عليها ويعمل على تكثيفها حتى تتحول بين يديه وايدينا فى نهاية العمل الادبى الى الدوافع الغالبة المميزة لحركة الشخصيات . ولذا فان اعتمادنا تحليل الاديب الواحد لظاهرة اجتماعية معينة مثل ظاهرة العزلة والياس فى المجتمع الاسرائيلى لايمكن ان يؤدى بنا فى الواقع الى احاطة شاملة بكل العناصر الواقعية والنفسية المكونة للظاهرة وذلك لان الاديب كما قلنا يختار على الاغلب زاوية او بعض الزوايا التى تشد اهتمامه فيجعلها مدخلا رئيسيا للظاهرة .

من اجل ذلك لابد لنا فى بحث مثل هذه الظاهرة الاجتماعية فى اسرائيل من الوقوف على مداخل عدة لها عبر انتاج اكثر من اديب حتى تتوافر امامنا فى النهاية كل الدوافع المكونة للظاهرة . لهذا كان لابد ان نضيف الى رؤية بن يهوشع رؤى اخرى تساندها فى تقديم عناصر الظاهرة التى غفل عنها افراهام بن يهوشع ، وعلى اى حال فان علينا ان نفرغ منه اولا كى نتحول الى غيره .

يركز بن يهوشع فى قصصه على الحركة الداخلية لدى ابطاله .. ونحن نلتقى بهم ابتداء فى كل قصص المجموعة وقد وقعوا بالفعل فى دائرة العزلة والياس .. ولذا فان الحركة النفسية فى كل قصة تنحصر فى اطار تجربة العزلة انصياعا لها او تلمسا لحبل نجاة يلقى الى وهدتها

من الخارج أو انفجارا نفسيا وعصبيا مدمرا للواقع المباشر المحيط بالبطل ، لهذا لا تمنحنا هذه القصص فرصة لاستكشاف أبعاد الحركة الخارجية بين الابطال ومجتمعهم حتى نستطيع رصد مسيرة السقوط هذه ومتابعة نموها وتطورها .. وان كانت تكشف لنا عن وجود الظاهرة .

من هنا نجد الناقد الاسرائيلى يقف فى تناوله النقدى للشخصيات عند حد استخراج صفاتها من العمل الادبى وتجميعها بصورة تقريرية تعكس انطباعا بشيوع هذا النمط من الشخصيات وبديهية توافرها بحيث لا يلزم تحليل لعوامل سقوطها .

يقول الناقد ى . عاموس :

« ان مقدرة القصاص تتوافر لبن يهوشع من خلال المواءمة الكبيرة بين الشكل والضمون .. ذلك ان هناك انسجاما خاصا قائما فى كل قصة من القصص وهو انسجام يتغذى من الجو الاساسى الذى يحيط بالاشخاص وتجاربهم الداخلية ، وفى هذا الجو تتشارك عناصر عديدة : الاسلوب المكون من أبنية مختلفة واللغة الآتية من طبقات عديدة والاوصاف الخارجية التى تجيء أحيانا حادة وعنيفة وأحيانا ناعمة ورقيقة والعوالم الداخلية التى تتلامس حينا مع ما هو قائم خارج حدودها ولا تلامسه حينا آخر .

فى هذا الجو يقطع الابطال الصلات مع بيئتهم ويخلقون بدلا من ذلك صلات مع أنفسهم ، وهم بذلك يريدون حماية أنفسهم من البيئة والقيام بأعمال بطولة قدر ما يستطيعون غير انهم فى حقيقة الامر يغوصون اكثر واكثر داخل احساس من الجبن والذعر .. احساس

متزايد يبتلع كل طاقتهم وقدرتهم ، وهكذا يدمرون انفسهم بدرجة اكبر نتيجه للمحن والضوائق التى تعذب نفوسهم بلا مخرج وبلا ثقة فى انفسهم أو فى الآخرين .

ان الاختناق والعجز عن التنفس يميز معاداة الواقع لدى الشخصيات ، ذلك ان الانسان يمكنه ان يوجد فى غابة أو فى أنحاء افريقيا أو فى القدس أو فى تل ابيب وأن يعانى مع ذلك من نقص فى الهواء ، ان الانفصال عن الناس والتنكر للواقع المحسوس واعتزال الجماعة امور تؤدى فى نهايتها الى ميتة اختناق سريعة او بطيئة ، ان بن يهوشع يقدم الرجفات والارتعاشات وهو بذلك يحسب على الادباء المحدثين الخاضعين ليأس الانسان ومخاوفه فى هذا الجيل والذين يكرسون كل كتاباتهم الادبية لهذه الخاصة الموحدة لجيلنا » .

هكذا ينتهى الناقد الاسرائيلى ــ وقد تركنا له فسحة للادلاء بكل ما عنده ــ بعد استخلاص الصفات العامة لابطال افراهام بن يهوشع .. وهى صفات تتاخم دائرة العصاب « أو الداء النفسى » ان لم تقع داخلها .. الى التسليم بأن خاصة اليأس والخضوع للمخاوف والعزلة خاصة عامة توحد بين أبناء الجيل .

ومن المؤكد ان الناقد يعنى بكلمة « جيلنا » الجيل البشرى كله لا الجيل الاسرائيلى وحده ، وهنا قصدنا ، هنا لا بد من وقفة نتولى فيها المهمة التى أهملها الناقد الاسرائيلى .. مهمة البحث عن العوامل المكونة لهذه الخاصة الموحدة للجيل على حد قوله .

من المقرر ان فلسفات العدمية والعبثية والسخط والعزلة والعود الى الطبيعة والفرار من الواقع وما جاوبها من حركات أدبية .. ترتبط فى تطورها بتطور

المجتمع الرأسمالى وتسبقه فى نشأتها الى الارتباط بالمجتمع الاقطاعى ، ذلك ان أحاسيس الاغتراب وما يتلوها من ميل للعزلة ومعاداة الواقع ترتبط ارتباطا وثيقا بتفسخ العلاقات الاجتماعية وعدم توازنها بما يفرض اليأس على الطبقات الكادحة ومن يجاوبها بوعيه من المثقفين مجاوبة وجدانية سلبية ، وحتى اليوم ما زالت مصادر فكر العزلة والاغتراب والتحلل الشخصى[1] بما ينتهى اليه من تكوين حركات جماعية مثل الهيبز وغيرهم .. مركزة فى العالم الرأسمالى بما يضغط به على الطبقات الكادحة من أعباء الحياة المرهقة داخل المجتمع لحساب الطبقات المالكة الحاكمة وتكاليف الحروب الباهظة بشريا خارجه ، لصالح نفس الطبقات المالكة فيما تشنه من حروب استعمارية خارج أراضيها طلبا لمزيد من الاستغلال والثراء ، ولذا فان هذه الفلسفات لا تجد لها تجاوبا على شكل الظاهرة فى المجتمعات التى وصلت الى صيغة اجتماعية فى التطبيق تتيح للانسان سعيا متأنيا مطمئنا نحو البناء دون خلخلات نفسية واسعة .. فهى لا تضغط على الانسان فى حياته اليومية فى الداخل ولا تستخدمه أداة حرب رخيصة فى الخارج ، وحسبنا أن نعلم ان ظواهر الامراض النفسية والاجتماعية تكاد لا ترى فى دول العالم الاشتراكى بل وان ظاهرة مثل ظاهرة انحراف الاحداث قد اختفت بصورة مطلقة فى المجتمع السوفييتى بينما هى وسائر الظواهر الاجتماعية المرضية فى تفاقم وتضخم فى مجتمع كالمجتمع الامريكى رغم كل مظاهر ثرائه وقوته .. حسبنا أن نعلم هذا لندرك مالطبيعة العلاقات الاجتماعية فى مجتمع ما من أثر على خلق الظواهر

المرضية النفسية الاجتماعية ـ التى تبـــدأ بالاكتئاب والعزلة والياس وتنتهى بالخلل العصبى والجنون ـ أو على اندثارها وتلاشيها .

وهنا نخرج بالدلالة الاجتماعية الاساسية من تسليم الناقد الاسرائيلى بشيوع الشخصـية المعتزلة وتعبيرها عن انسان الجيل .. هنا يتجه المؤشر الى التوحيد بين دخيلة المجتمـــع الاسرائيلى ودخيلة المجتمعـات التى انبتت وطورت فلسفـات الفـردية والاغتراب والعزلة واليأس .

ان طبيعة البناء الاجتماعي ـ وهى الامر الذى تتوقف عليه بالدرجة الاولى درجـة الصـحة السيكلوجيـة الجماهيرية عامة ـ فى اسرائيل ليست فى حاجة الى اى نوع من الاسهاب للـكشف عن تفسخها وعدم توازنها .

فالمجتمع الاسرائيلى فى الاساس مجتمع طبـقى فيه غالبية كادحة تعيســة وأقلية مالــكة حاكمة من وراء الـكواليس تحرك كل شيء فى اسرائيـل اليوم بعد ان اقامتها من قبل بالتحالف مع الامبرياليـة العالميـة عن طريق استغلال النوازع القومية لدى الجماهير اليهودية التى أصبحت فى اتساعها الغالب اليوم فى اسرائيل مجرد اداة استثمارية فى أيدى الرأسمالية اليهودية العالميـة حليفة الامبريالية العـالمية . والمجتـمع الاسرائيلى فوق ذلك ـ ولا ندخل فيه هنا الاقلية العربية المسحوقة ـ مجتمع تمييز عنصرى طبقي بين اليهودى الاوربى أداة الاستثمار الواعية بدورها كأداة استثمار أمبريالى واسع على الارض العربية تحت شعار من القوميـة اليهودية ومن ثم تحصل على عائد أكبر من الغنـائم والاسـلاب العربية وبين اليهودى الشرقى اداة الاستثمار المضـللة

المخدوعة التى يبقون على تخلفها لتظل قانعة بما يلقى اليها من فئات الفنيمة (حتى عام ١٩٦٠ كانت نسبة اليهود الشرقيين ٦٥ ٪ من مجموع السكان البالغ ١٫٩١١٫٠٠٠) .

ان التطابق بين بنية المجتمع الاسرائيلى ودخيلته الاجتماعية وبين المجتمعات الرأسمالية الطاحنة للانسان والمستغلة اياه .. أمر تنفق أجهزة الاعلام الصهيونية اموالا طائلة سنويا لتغطيته واسدال الاقنعة عليه بالحديث المكثف عن صيفة الحياة الاشتراكية فى ذلك المجتمع وعن مؤسساته الاشتراكية كالكبوتس (١) وغيره مما يستخدم فى الحقيقة كأدوات ذات ثوب تقدمى لاحراز أهداف أبعد فى التغرير بالانسان وتسخيره لصالح الممولين الكبار .

ولكن ها هى الحقيقة تدعونا اليها من مدخل مختلف تماما عما يتوقعه أصحاب الدعاية الاسرائيلية .. مدخل الفرد الاسرائيلى المعتزل اليأس المتفسخ الدال بحاله على واقعه الاجتماعى .

ومن الطبيعى عندنا أن ترتفع أصوات النقد ضد هذه النتيجة من قبل أقطاب الدعاية فى اسرائيل .. فى نفس الوقت الذى ستسلم فيه العناصر الواعية المتطلعة للمصلحة الحقيقية للشعب اليهودى بها ، ومن الطبيعى أن يكون مدخل الدعاة فى نقض هذه النتيجة هو مهاجمة منهج الاستدلال عليها ، سيقولون ـ وهذا منطقى ـ كيف يمكن الخروج بتعميم اجتماعى لنمط ساقط من

---

(١) هناك رأسماليون فى اسرائيل .. بل وهناك مليونيرات حتى فى الكبوتسات . . وهناك من أعضاء الكيبوتس من يشكون من هذا الوضع » من حديث لاسحق بن أهرون سكرتير عام الهستدروت .. معاريف ١٩٧٢/٣/٧

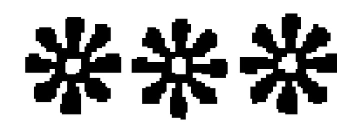
الشخصيات الادبية استنادا الى أديب واحد وتسليم ناقد بنتائجه ، واحترازا من هذا عمدنا فى البداية ــ رغم الاثر المؤيد الذى تمنحه لهذه النتيجة النصوص الشعرية السابقة لدى شعراء مختلفين ــ الى التأكيد على قصدنا الى تجميع عناصر الظاهرة من اكثر من مصدر ، وهو ما سيظهر فى هذه الدراسة والقصص التالية لها فى نفس الفصل . عند بن يهوشع وفى عام ١٩٦٨ النقينا بشخصيات معزولة فى رؤيته بفعل واقعها الخاص ، وعند الاديب الاسرائيلى هرتسل آرليخ وفى عام ١٩٦٩ نلتقى فى مجموعته «مراقبة عبر الشارع» (١) بشخصيات واقعة فى نفس حالة الركود والعزلة واليأس بما يوحد بينها وبين شخصيات بن يهوشع ولكن مع تحليل أكثر شمولا ، تحليل يرد ظاهرة اليأس والعزلة لدى الشخصيات الى عوامل فى الواقع ، فهل نخطىء اذا تصورنا ان مصدر الشخصيات الادبية لدى كل من الاديبين والادباء التاليين واحد فى الواقع الاجتماعى مع اختلاف النظرة التحليلية لدى كل منهما .

فى القصة الاولى من مجموعة هرتسل آرليخ يدور الحديث حول شيخ يحاول الاحتفاظ بزوجته الشابة ، ويروى الحدث على لسان « الانا القاص » الذى يتابع مجريات الاحداث ويرويها كجزء من تجربة يراقبها من شرفته عبر الشارع ، والحدث فى القصة لا يستخدم الا كاطار يفرغ فيه « الانا القاص » رؤيته للواقع الراكد المشحون بالسأم ، ففى سياق القصة نلتقى بالفقرة التالية ترد على لسان « الانا القاص » .

---

(١) هرتسل آرليخ .. مراقبة عبر الشارع .. قصص .. اصدار رابطة الادباء فى اسرائيل التابعة لدار نشر مساداه .

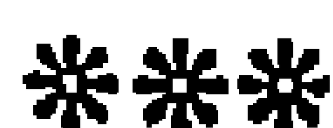
« تقول أمي انه لو أغلقت المقاهي ودور السينما فسينفصل بالطلاق نصف الازواج الشبان في المدينة لشدة الملالة والسأم ، أن الناس يسيرون في الشوارع كمن يعرف ان هناك ما ينتظره في المكان الذي هو متجه اليه ، وحقيقة الامر انهم يغذون السير لانه ليس هناك مايدعوهم الى التمهل .. ربما باستثناء بعض النساء اللائي تتصارع عيونهن الطافحة بالشهوة مع بطاقات الاسعار في واجهات المحال عندما تتغير فصول السنة أو موضة الملابس ، ويمكن الوقوف على مدى السآمة في مدينتنا عندما تحدث مشاجرة أو يشب حريق أو يقع حادث في الطريق أو عندما يركض مجنون في الشارع .. ذلك ان نصف سكان المدينة يتجمعون ، ويحتفل شهود الرؤية منهم بانتصارهم بأطباق شفاهم وابتسامة العارف ترتسم على وجوههم .. بينما يتجمع حولهم من فاتهم حضور المهرجان على أمل التقاط اشارة عما حدث كي يحملوا معهم الى البيت تجربة اليوم » .



بعد هذا الوصف الذي يقدم خلفية عامة لروح الحياة في المدينة الاسرائيلية يتجه « الانا القاص » الى تناول ظاهرة الشباب اليائس المعزول في هذه الارضية الطافحة بالسأم وهو ما يهمنا عنده .. ذلك ان مصير الشبان الذين سرحوا على التو من الجيش يبدو متهرئا متفسخا تماما كمصير أقرانهم الذين ينتظرون الالتحاق بالجيش .

« من العسير اليوم الاعتماد على الشبان .. انهم ممعنون في التهافت والتعطل ، والعلة كامنة في الموقف الدفاعي .. ذلك ان معظمهم اما موجود في أتون الحرب او انه قد عاد من الحرب أو انه ينتظر حربا ثانية ،

ولذا فهم يعشقون الاستدفاء تحت الشمس وكل منهم يتحسس أعضاء جسده مرددا فى نشوة : « ها أنا حى وموجود » ، منهم من يتغلب على هذه الحالة فى زمن وجيز ، ومنهم من يستغرق للوصول الى هـذا زمنا مديدا ومنهم من يحتفل بحقيقة بقائه بين الاحياء بعدم التغلب كلية على هذه الحالة . من السهل مشاهدتهم وهم يتجولون بلا غاية فى عديد من مناطق التجمع المشبوهة ، ان هذا أيضا هو عين السبب الذى يحمل كثيرا من الفتيات الصغيرات على الزواج من رجال مسنين ... انهن ينشدن الامان « ص ١٠ »



بهذا التحليل لظاهرة ركود الشخصيات الاسرائيلية لدى هرتسل آرليخ نضيف مدخلا جديدا لفهم نفس الظاهرة عند بن يهوشع وبالتقريب بين الشخصيات الادبية والشخصيات الاجتماعية يمكننا أن نضع أيدينا على طبيعة الحركة فى الواقع الاسرائيلى .

ان آرليخ يرد العلة الى الحرب التى لا تتوقف فلا تدع للشباب الاسرائيلى — ليس جميعه بالطبع — من طموح سوى البقاء سليما على قيد الحياة محتفلا بسلامته وذلك بالاسترخاء تحت الشمس ، وبعضهم يتغلب على هذه الحالة من الركود فى زمن قصير وبعضهم يستغرق زمنا مديدا وآخرون يستسلمون لها نهائيا ، وما غفل عنه هرتسل آرليخ هنا اهتم به وبابرازه بن يهوشع من قبل وهو ذلك النمط من الشباب المثقف الذى يستيقظ وعيه على سلبية واقعه فيأنف من الاتصال بالجماعة ويسقط فى وهدة العزلة واليأس .

أما ما غفل عنه الاثنان فنذكره نحن هنا .. وهو

ذلك العدد من الشباب الاسرائيلى الذى يستيقظ وعيه على قصور البنية الاجتماعية فى واقعه وتفسخها وارتباطها بفلسفات اجتماعية وسياسية ساقطة تنعكس على حياته المطحونة فى الداخل وعلى استخدامه وقودا لحرب استعمارية ضد العرب فى الخارج .. فيتجه الى طريق الاسوياء بالثورة على مظاهر السلب فى واقعه وتكوين الجماعات السياسية المنادية بالتغيير فى الداخل وتبديل النظرة الى العرب فى الخارج مثل جماعات اليسار الجديد، وجماعة الفهود السوداء المدافعة عن طبقة اليهود الشرقيين المسحوقة وجماعات السلام فى اسرائيل .. وان كانت جميعها ما تزال فى بداية الطريق نحو الوصول الى نظرية ثورية حقيقية تغير من وجه الحياة الاجتماعية والسياسية الاسرائيلية ، وفيما نعلم فان هذه الفئة من الشباب الاسرائيلى هى أقل الجماعات هناك واخفتها صوتا على الصعيد العام .

كان يمكن شراء مدفع بهذا المـال

روت الموجى (١)

روما مرتبطة بالمشقة ..

مرتبطة بملامسة سـطح منضـدة البلوط الخشبى المقشور القديم ، بنفض الغبار عن الحاجيات القديمة فى الحجرات ذات الدلف الخشبية المقفولة ، بحقول تكسوها صفرة كركمية ، بطنين النحل الثقبل المضنى .

روما مرتبطة بهـذه المشقة ، بانكسـار النفس ، بالحرارة لـكنه لا تنبغى الشكاية ، فهناك حيث يقيم صديقى ميخائيل الحرارة اشد واقسى .

روما مرتبطة بالاشواق ، وعندما أسافر الى روما اقابل فيلينى ، قابلته لآخر مرة منذ ثلاث سنوات ، كان ذلك فى شـهر ايلول وكان النحل يطن فى حقـول الصيف فتذكرت خلايا النحل التى يملـكها ابى ، عندما كنت أصرف الشيك فى البنك كان هناك رجل حسن المنظر يدخن البيبة وينظر الى فى ابتسامة رقيقة ، تعقبنى عند خروجى ، كان من المستحيل عليه أن يحدس اننى اقيم فى روما فى مقهى مع فيلينى مكدودة لدرجة الموت .

(١) ها آرتس ١٩٦٩/٦/٦ .. الملحق الادبى .

الطلب على أحلامى حاليا أقل مما كان عليه دائما ، ان المستهلكين القليلين يعملون هم أيضا فى انتاج نفس البضاعة .

روما مرتبطة بهذا .

كنت مرهقة فى ذلك الصيف ونفسى نهب لاحلام مفزعة تتأجج وتخبو دون انقطاع .. تخنقنى فى صمت بلا درامية كاللجة التى ترتفع بالبحر عندما تمسه يد ريح ضالة دوارة ، وهكذا سافرت الى روما وهناك فى مقهى اقترب منى الرجل القصير الاصلع ذو عينى الساحر وسألنى عما اذا كنت فى حاجة الى مساعدة . عرفت انه فيلينى الذى يسحر بالصور المتحركة ، نحن الآن فى شهر سيفان والصيف مقبل ، لكن نفسى ضائعة فى رؤى التيه والنوم مجافينى وأنا فى روما .

الحاجيات باردة خرساء وما لدى منها هرم فى معظمه . هى دائما مسترخية ونبيلة فى سكون انفاسها ، كنت أود أن أكون احدى الحاجيات ساكنة كالماء .

منذ حوالى ثلاث سنوات كتبت قصتى الاولى عن راحيل شطران .. عن لقائها الاول بفيلينى فى مقهى بروما وعن القصص التى تتخيلها لنفسها ..

أحلام لا تنتهى على الاطلاق ..

والآن وحيث انه لا طلب هنا على الاحلام التى أنتجها فأننى أحمل ميخائيل معى وأنا مسافرة الى روما ، اننى لا أحب هذه المدينة فهى غير جديرة بالحب .. لكن فزع الصيف المرهق يعيدنى الى الرخام الابيض الفخم الاصم .. الى الحدائق المصففة بدقة لا تدع فسحة للانطلاق .. الى مياه الفسقيات السحرية .

قد يفضل ميخائيل التنزه فى شارع فينيتو فى الطريق

المتوهج بالاضواء ، ستحبه النساء ، انهن ينجذبن دائما الى رجال الجيش ، ان ميخائيل ضابط برتبة رائد ، فى المكان الذى يتواجد فيه فان الاحلام تكون من نوع آخر ، لكننى أفضل أن أتجول معه فى شارع آفياه العتيق بين أشجار الصنوبر المثقلة بمئات السنين والتى لا يوجد الا القليل من مثلها فى اسرائيل . منذ ثلاث سنوات كنت أقرب الى نفسى وكتبت قصة عن راحيل شطران ، أما اليوم فأنا غاية فى البعد لدرجة انه يمكننى أن أتكلم فى ضمير المتكلم وأنا أحكي بلا خشية كل القصص التى لا نهاية لها على الاطلاق ، القصص التى لا تصل أبدا الى هدفها .

انى أريد أن آخذ ميخائيل الى روما لبضعة أيام فى سبيل الراحة .

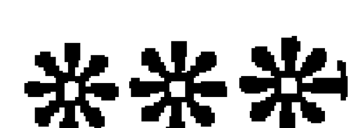
***

روما مرتبطة بالاشواق ، بالصياح .

لكننى لا أعتقد أن ميخائيل سيتوسلنى ، انه لايحتاجنى ، بينما أنا كالنبتة الطفيلية فى حاجة الى عصارة أشجار الصنوبر الندية فى الشتاء ، كى أصبح سما او حلوى نادرة الوجود ، اننى فى حاجة الى نباتات خضراء مثلى فى هذا مثل حشيشة الدينار التى تلف سيقانها على غيرها من النباتات لانها تفتقر الى الاوراق الخضراء والكلوروفيل .. انها تستمد غذاءها ممن يستضيفها ، انها تجرده من عصارته وتأتى على قوته ، اني احكى لنفسي انني سألتقى به الى جوار قبر ادريانوس واننا سنذهب فى الليل حيث نقضى سهرة ممتعة ونلتقى بفيليبى ذى عينى الساحر والنجوم العديدة ، اننى لست مطلوبة هنا ، او ليس الطلب على الاحلام التى

انتجها معدوما ، هناك سأستطيع التمثيل فى الافلام ، كذلك يستطيع ميخائيل أن يلعب دورا ، ان الجياد واحزمة المسدسات ستناسب ميخائيل .. الرائد .

انني وميخائيل لم نلتق قط ، اننا نتحدث أحيانا في التليفون عندما يلقيني الارهاق على أجهزة الاتصال في عصرنا ، في حديثنا الاخير قال لي : « تعالى الى » لكنني رفضت فسألني : لماذا اذن أصر على الحفاظ على صلتي به ؟ كان في مقدوري أن أجيبه غير ان صاحبة المقهى طلبت منى انهاء المكالمة ، كان في استطاعتي أن احكي له الى أي حد أشبه الرافلسياه الكبيرة التي تضرب جذورها في جسم غريب حتى يتفتح برعم زهرتها فيه ولا تنفلت خارجا الا في أوان أزهارها حيث تتفتح، ان قطر زهرتها يصل أحيانا الى متر ، لون تاجها أحمر مطعم ببقع صفراء تجذب الرائحة الاسنة المتصاعدة منها ذباب القاذورات فيحط دائما على جذعها .



كان في مقدوري أيضا أن أقول له ان الصلة الجسدية هي غالبا العدو رقم واحد لاى علاقة لانها تؤدى بنا في الواقع الى تحويل الحب ، كنت أود لو قلت له انني أعرض عليه صداقتي وان التعري ممكن أيضا عبر التليفون ، وانني بطريقة غير ملموسة تماما قريبة اليه لانني أعيش حياتي أنا أيضا على حدود الصراخ وانني قد عشت وقتا ما على اعتقاد انه لا يمكن الاتصال بالآخرين الا من خلال الجسد ، لكنني لا أعلم ما اذا كان سيفهم ، ربما كان مثل هذا الفهم خطيرا عليه .

ان الفزع يقودني الى روما ، كذلك الاشواق .

لقد زرت أماكن عديدة خلال السنوات الثلاث الماضية

كذلك زرت جبل فيلون باليونان ، انه يشبه شارع الاحباش فى القدس فى طبع جماله وفى الهدوء الوحشى الذى يخفى وحشيته ، قابلت اناسا كثيرين فى السنوات الثلاث الماضية ، لكننى لم أقابل فيلينى ولا ميخائيل، ولم احضر الى روما وذلك لاننى لا أحبها ، لكننى الآن مكدودة واستمع الى الموسيقى أكثر وفى كل مرة اعود الى روما .. الى فيلينى .. أحمل ميخائيل عند سفرى

فى احدى المرات كانت لدى حديقة الى جوار البيت، كنت أكثر من العناية بها لاننى أحب الزهور ، فى احد الايام رأيت زهرة الايزداريخت وهى تزهر واعتقدت انه لا مثيل لها فى جمالها ولمعانها وطيب رائحتها ، انها تزهر فى الربيع لفترة قصيرة ، وغرست فى حديقتى واحدة ورحت أنتظر ، عندما كبرت قليلا وبات هناك أمل فى أن تزهر فى الربيع التالى بدأ صاحب البيت يشكو ، كان يخشى أن تفسد جذورها أرضية البيت ، فى احدى الليالى تسلل الى حديقتى واقتلعها .

فى الحقيقة ينبغى فى مثل جونا حيث المياه قليلة ان يكون الانسان عمليا ، لا مهلة للانسان كى يفرغ لجمال البدر الذى يبزغ فى منتصف الشهر ، الن يهبط عليه قريبا رجال ويجرون دراسات مختلفة عن نوع البحوث التاريخية والاثرية التى يجرونها فى روما أيضا ، اننى أحلم بالبدر لكنه لم يعد هناك فى الحقيقة طلب على الاحلام ، فى الجو القاسى لا تتوافر مهلة للانسان ، ومع كل هذا فاننى احمل ميخائيل معى فى خروجى ننتقل احيانا من مقهى لآخر نشرب الدرامبوى وهو ويسكى مخلوط بالعسل .

ان مذاق العسل يعيدنى الى حقول الصيف فانسى

فيليني للحظة ، ان له نصيبا كبيرا فى أحلامى فى الفترة الاخيرة ، أقصد ميخائيل ، انني أشعر انه من غير المناسب ما أفعله عندما أتخيل نفسي رافلسياه كبيرة او عش الغراب ، انها أشياء مطلوبة فى البلاد الغنية ، فهناك مكان للكماليات أما هنا فقليلون من يعرفون مذاقها ، الانسان هنا لا يمهل ، لا بد من الاصفاء للأخبار ، ان ميخائيل يريد أن احضر اليه ، انه لا يقدر اننا نعيش فى روما معا ، انه يريدني ان احضر ، لكنه ممتنع عن الاتصال ، وعندما يكون راقدا فى الفراش مع امرأة فانه يحادث الاخرى فى التليفون وعندما ينهى المحادثة فانه يدير القرص على رقم آخر .

انني ما كنت أصمد فى تجربة كهذه ، علني كنت اموت ، ان الارهاق يدعوني للهرب ، لقد بدأت أظفاري تتشقق كأظفار جدتى ، لقد كنت اسأل نفسي دائما : لماذا تنزف أظفار جدتى ؟ لم أكن أعلم ان الاظافر كالشجر الذى يقاس عمره بما يضاف اليه من شروخ ، انني لن استطيع أن أمثل فى فيلم مع فيليني انني لست شابة بما فيه الكفاية ، ربما استطاع ميخائيل أن يحصل على دور فهو رجل بارد ، انني لا أعتقد انه يعرف التقبيل ، انه الآن وفى كل مرة يعود فيها يروح يبحث عن شيء آخر ، شيء مختلف لايرتبط به ، شيء يبدد الخطر فجأة مثلما فى لحظة التراخى التى تحل بالجسد بعد المزاوجة .

انني مضطرة لأخذه معى فى خروجى ، انه سيحب روما ، الا تتظاهر هى الاخرى بأنها باردة رخامية وشابة وكأنها قد نسيت فجورها القديم وفداحة ماجرته من نكبات وقسوتها الكريهة ، هناك فى فندق غريب

هرم متداع مسترخ وحر قـد يتعلم أن يدرك ما هو الحب .

***

روما مرتبطة بالارهاق ..
روما مرتبطة بالاشواق ..

اننا نتحدث فى التليفون وهو يقول لى ان احضرى ، وعندما أقول له اننى واثقة من اننى لن اصـــل فانه يتحداني فانه لا يقين الا من شيء واحد ، انه فى كل محادثاته تقريبا يذكرنى بأن أى شيء غير يقينى فيما عدا ذلك الموضوع المعين والمحدد الذى لايعقبه شيء .

واننى أسائل نفسى اية احلام يحلم ميخائيل ، لقد حكى لى صبى انه حلم كيف وضع سريره فى حقل على العشب وكيف كانت هناك شجرة واحدة فروعها خيوط واغصانها تشتعل .

قد احكى هذا لميخائيل يوما ما .

لست أثق فى انه سيصغى .

فى القصـــة الاخيرة التى قصصـــتها عن نفسى كنت انستسياه دون اى صلة بالاميرة الروسية ، كنت امراة تريد أن تخفى ذاتيتها وتأمل فى أن تبعث من جديد ، فى هذه القصة أيضا وصلت الى فيلينى وجردت عينـا الساحر عنده روحى من سترها ، لـكننى فى هذه المرة لم أصل وحدى ، لقد جئت فى صحبة رائد أجرى معه لقاءات تليفونية منذ بضع سنوات .

ان التخفى وراء أسماء مستعارة شيء مريح ، لـكنه من المستحيل تقريبا ان احكى عن آخرين ، حتى عن ميخائيل يصعب على ان احكى، اننى فقط أجرى تغييرات ومع كل هذا فان هناك دائما شريكا فى هـذه القصص

اخترعه لنفسى ، اى غريب لا أعرف عنه شيئا .. اى غريب كميخائيل يصعب الاتصال به .. يستحيل المجئ اليه .. يبقى نادرا فى البيت ، اننى أستمع الىمقطوعات موزار ، موسيقى مشحونة بالنكبات مثل حياتى ، موسيقى مرهقة .

من وقت قريب وزعوا عندنا منحا مالية على الادباء ، ألم يكن يمكن شراء مدفع بهذا المال ، يكفينا الخبز .. ان عش الغراب من الكماليات تماما مثل الحب .

لقد بدأت أفكر بطريقة ميخائيل ، بعد قليل سأحب روما ، بعد قليل سيصبح تسكعها البارد جزءا من نفسى ولحمى ، ان الرافلسياه الكبيرة تستطيع أن تعيش بلا حيرة فى غابتها الخضراء الندية على الدوام .

لقد بدأت أعتقد اننى ربما أجئ الى ميخائيل ، انه ربما لن أموت خرساء وغريبة عن نفسى فى فراشى .. انه قد لا يكون الجسد فى الحقيقة عدوا لاى ارتباط حقيقى .. انه لا مهلة لمسايرة الاحلام عن حب الارواح كما هو الحال بالنسبة لسائر الارواح .

روما مرتبطة بالارهاق
روما مرتبطة بالاشواق
روما مرتبطة باستصراخ النفس الى بعيد
روما مرتبطة بانكسار النفس

أو لست لا أحب الا جبل فيلون فى اليونان وشارع الاحباش فى القدس لكننى لا أصل الى هناك .

فى القصة المقبلة سأسمى نفسى انستسياه دون ما ارتباط بالاميرة الروسية سأحكى عن امل امرأة فى أن تبعث من جديد .. فى روما .. مع فيلينى وستكون القصة بلا نهاية كذلك ، مثل الحرب .. مثل محادثاتى التليفونية مع ميخائيل .

تعليق . .

تقدم قصة « كان يمكن شراء مدفع » شكلا جديدا من التعبير عن رفض الواقع الاسرائيلى الملغم بنوازع الحرب والمنغمس فى بوتقة صناعتها الكريهة .

والكاتبة تكشف فى قصتها عن نوع من التمزق حاد بين احساس الانتماء الى هذا الواقع والارتباط به وبين احساس الانكار لما يشوبه من غلظة وقسوة .

ان تجربة الكاتبة مركزة أساسا — فى اطار التعبير عن هذا التمزق — فى دائرة التعبير عن غربة الآدمي المشحون بالمحتوى الانساني والمزود بالقيم الانسانية المرهفة فى واقع منصرف آلى النزعات المادية العملية المطلقة التى تفرغ الانسان من محتواه الطبيعى التواق الى التسامي وتفرض عليه أحد اختيارين : أما التوافق مع واقع يخالف طبيعته بدافع الارهاق وفقدان القدرة على المقاومة ازاءه واما السقوط فى وهدة الاغتراب والعزلة الشخصية المدمرة .

والكاتبة تقصد فى تعبيرها الفنى هذا الى استخدام معادل موضوعى لواقعها .. معادل كان يحمل فى ماضيه خصائص وصفات واقعها الراهن ، هذا المعادل هو روما التى سيحبها ميخائيل الضابط رمز البرود الانسانى والشهوة المادية الطافحة والتجرد عن كل الحساسيات البشرية فى الواقع الراهن للتطابق القائم بين ماضيها « روما » وحاضره .. « الا تتظاهر هى

الاخرى « روما » بأنها باردة رخامية وشابة وكأنها قد نسيت فجورها القديم وفداحـة ما جرته من نكبـات وقسوتها الـكريهة » .

ان الـكاتبة فى استخدامها لهذا المعادل الذى تعلق عليه صفات واقعها الحاضر انما تقدم تعبيرا شاملا عن رفض منطق القسوة والعدوان فى حاضرها الاسرائيلى وفى ماضى روما الرومانيـة المتجبرة المتغطرسـة التى اصبحت تتظاهر بالبرود والشـباب بعد أن هجـرت ماضيها الـكريه ، أو بعد أن فقدت سطوتها . ومع ذلك فان روما التى توحى بالقسوة ولا تخلو مصاحبتها من الارهاق والقيظ والـكراهية المستوحاة من ماضيها .. تبـدو محتملة اليوم عن الواقع الذى يمثله ميخائيـل والذى ما زال طافحا بالقيظ والحرارة .

« روما مرتبطة بهذه المشقة .. بانكسار النفس .. بالحرارة لـكنه لا تنبغى الشكاية ، فهناك حيث يقيم صديقى ميخائيل الحرارة أشد وأقسى » .

وفى سياق التعبير العام فى القصـة تضمن الـكاتبة صفات الواقع المنبوذ من جانبها ، فهو واقع مجرد من الحساسية الانسانية.. الطلب فيه على الاحلام الوردية غاية فى الضآلة ومن ينتجون هـذه الاحلام فى الطمأنينة والسلام على قلتهم هم وحدهم من يستهلكونها فالواقع منصرف الى اشياء أخرى مخالفة .

« الطلب على أحلامى حاليا أقل مما كان عليه دائما.. ان المستهلـكين القليلين يعملون هم أيضا فى انتاج نفس البضاعة » .

وهو واقع لا مكان فيه ولا مهلة لاحسـاس بالجمال فهو يقتلع الورود لانها قد تفسد الارضيات.. انه واقع

متبلد الاحســـاس يكرس نفســـه خارجيـــا وجوانيـــا لضرورات الحرب فحسب .

« فى الحقيقة ينبغى فى مثل جونا حيث الميـــاه قليلة ان يكون الانســان عمليـــا ، لا مهلة للانســـان كى يفرغ لجمال البدر الذى يبزغ فى منتصف الشهر » .

والـكاتبة تطلق صيحة الانفصال والرفض لخصائص هـــذا الواقع .. انها تشعر بالاغتراب المتزايد عنه وبالطفيلية فيه لعدم تجاوبها معه ، ان غربتها عما حولها تمتد الى احساسها بنفسها التى كانت تمثـل جزءا متسقا من هـذا الواقع .. حتى انها قد باتت بفعل انفصالها عنه وعن موقفها القديم المتسق معه قادرة الآن على تعريته وكشف آفاته دون ما احســـاس بالخشية من المـكاشفة كما كان يحدث من قبل وهى على درجة من الاتساق مع حقائقه ومكوناته مما كان يملى عليهـا احساس الحرص عليه والتغطية على سوءاته .

« منذ ثلاث سنوات كنت أقرب الى نفسى ، وكتبت قصة عن راحيل شطران ، اما اليوم فأنا غاية فى البعد لدرجة انه يمكننى أن اتكلم فى ضمير المتكلم وانا أحكى بلا خشية كل القصص التى لا نهاية لها على الاطلاق ، القصص التى لا تصل أبدا الى نهايتها » .

ان الـكاتبة تطلق صرخة الرفض لتيار التجرد عن القيم الانسانية بحنجرة قوية ونبرة عالية « من وقت قريب وزعوا عندنا منحا مالية على الادباء ألم يكن يمكن شراء مدفع بهـذا المـال ؟ يكفينـا الخبز .. ان عش الغراب من الـكماليات تماما مثل الحب » .

هكذا تنطلق الصرخة هازئة بذلك الاهتمام الذى يبدو زائفا استثنائيا غريبا فى نظرها بقيمة انسانية كالادب ..

ومشيرة فى صيغة السؤال الانكارى الساخر « الم يكن شراء مدفع بهذا المـال » الى المنطق الكريه السائد فى مجتمعها .. منطق الاهتمـام بالمـدفع عنوان الـدمار وتقديمه على سائر الاحتياجات الانسانية ، تقول الكاتبة مستنكرة ومدينة واقعها .. ابقوا على اموالكم للمدافع فلا حاجة لنا بالقيم الانسانية لانها عندكم كمالية تماما مثل الحب المفقود الذى لا يجد له فسحة ولا مهلة فى نفوسكم وفى اطار واقعكم .

الصمت ...

شمعون بار [1]

لزم الصمت ثلاثة اشهر ، كان فى مقدوره أن يصمت اكثر .. غير ان البعض حكى له عن عمانوئيل وبذا فقد الصمت مدلوله الوحيد وهو الهرب .

بقدر ما اتسعت رقعة البلاد وتجاوزت حدود الخرائط بقدر ما قلت الاماكن التى كان يمكنه الهرب اليها ، ثلاثة أشهر ملأ فيها كل الآخرين كل الاوراق بكتابات مزدحمة محتشدة وأغرقوا فيها أنفسهم والآخرين ، لزم الصمت ، كان يجيب واحساس الخجل يغمره : « ليس لدى ما أقول » كان لدى وربما سيكون ولكن ليس لدى الآن ما أقول » .

بعد ذلك حكوا له أنهم قد وجدوا عمانوئيل .

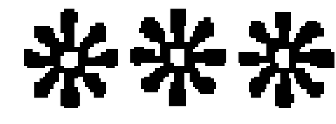
ما عاد يمكن أن يكون هناك شيء غريب أو غير عادي؛ أصبح الخيال واقعيا تماما لان البعض قد اهتم بالبحث عن عمانوئيل بعد ما لم تعد هناك كلمة تقال .

ولقد ظن انه لن يستطيع بعد أن يكتب شيئا .

والآن بينما فرش الرسم الخاصة بعمانوئيل .. هذه الفرش التى لم يرها قط .. مثلها فى ذلك مثل أشياء كثيرة يعلم عن وجودها دون أن تكون لديه براهين على

(١) معاريف ١٩٦٧/١١/١٠ .. الملحق الادبى .

ذلك، الآن أصبحت لوحات النسيج التى أقامها مبسوطة فى فراغ أبيض ، يقولون عنه انه كان يحب الحياة ولكن شخصا بأعلى « بعيدا تماما » قرر أن حب الحياة لا يكفى لترتيب حقوق فيها .



كان الصمت أسهل الطـــرق مثل الهرب مثل فرش الرسم الخاصة بعمانوئيل مثل أسئلة بلومه ..

وجدوه ممتزجا ومختلطا بجزئيات احدى الدبابات ، كان من المستحيل معرفة أين تبدأ جثته وأين تنتهى جثة الدبابة ، لم يبق على أصله الاول سوى الاشـــلاء وقطع الصلب المغطاة بالتراب ، أما سائر الاشياء فكانت منتمية الى المـــاضى كالدودة المتحجرة ، أما الحاضر فقد كان الذباب ، ذباب الجبل فى بداية الوجبة الفظيعة .

قالوا انه لم تكن له فتاة ومع ذلك فقد كان شابا لان الشباب بالنسبة له كان صلة تكاد تكون جنســية مع فرش الرسم والانسجة .. ولقد عرفت الالوان شبـــابه أكثر من كل الفتيات .. ربمـــا كانت هى الفتيـــات . بقى اربعة أيام فى الجنوب بعد أن صدر اليه أمر يقول « المدرعة .. تتحرك » غير أن دبابته لم تتحرك .

كان يبدو انه سيسجل لنفسه حربا أخرى يمكر فيها على من حدد العناوين على ظهور القذائف ، كانت ماتزال هناك بعض الاعشاب الزائدة على أطراف الخريطة فى حاجة الى الاقتلاع والتشذيب .. وبعد ان اتم الجميع تصفية المناطق التى حددت لهم بقيت له هو زاوية منعوه من العودة منها ، ولم تبق لبلومة سوى الاسئلة ، مثل صمت الآخرين .

جلس أمامها وراح يشرح لها فى حديث كأنه يجرى

بين بالغ وصبيــة انه لا صــدف فى العالم ، ان العلم لا يعتــرف بالاعاجيب وليس صــدفة ان الشــبان هم وحــدهم الذين لا يعودون من الحروب ، ان معــادله حســابيه بسيطة تقول ان من يذهبون هم فقط الذين لا يعودون .

***

وبعد ذلك عندما تتوقف الاسئلة وتصــبح الســاعة متأخرة « ويتواجب الاستيقاظ لممارســة حيــاة اليوم الجديد » يمكنه عندئذ أن يبقى داخل الصمت لان هذا الاحساس بالذنب يتمكن من قلبه ومن لوحات النسيج الخالية « انني لم أطلق النار عليه .. ولــكنني عدت » .. « كان ينبغى العثور على الطريق بينما كانت ســائر الدبابات تنتظر فى منعطف الطريق ، كان كل منعطف صخرة وكل طريق فخا ، كان المحرك يدور بأقصى طاقته والجنــازير تحفر الصخور .. وفى الوســط بينهما كان الغبار يغطى زجاج منظاريهما .

منعطف آخر ، وفى الناحية الاخرى من حقــل من الصخور ولدت امامهما فجأة ساق الموقع ، وبعد ذلك انتظرا حتى انضمت اليهما القافلة .. القافلة بأكملها ، من خلال المزاغل الضيقة لم يكن يبــدو أن هناك شيئا يضاف الى نوبة العمل .

رسميا انتهت الحرب ، قال واحد ساخرا فى الداخل كل من يسقط الآن يسقط بصورة غير رسمية .

ومرة ثانية انغرزت الجنازير ورفض الموقع ان يقترب كانت الجنازير وكأنها تدور حول نفسها جاهدة فى ابتلاع الاحجار وارتقاء الصخرة التى كانت تصب عليهم النيران على هذه الحال يبــدو الصلب عنــدما يتولاه الفزع ،

وعندئذ أصيب الجنزير وتمزق فتعرت العجلات وغرزت في الرمال ، واغلق الطريق ، وحاول البعض من الخلف أن يدفعهم الى جانب الطريق لاخلائه كي يمر الآخرون، لكي تصف اصابة قذيفة لنقطة التلاقى الواقعة بين جسد الدبابة والبرج فانه يلزمك كثير من الحبر وعديد من الاوراق وأكثر من هذا بكثير من دخان السجائر ، وحتى توضح وتبين هذه الاصابة التى تحيل الصلب الحى الذى يتنفس الى قطعة صماء من الحديد الخردة فانك ستحتاج الى الرسم ، ولقد كان الرسام بالداخل.

ربما كان هذا هو سبب صمته .

تعليق

تطرح هـذه القصـة بعـدا مكملا يسهم فى الكشف عن ابعاد ظاهرة العزلة واليأس لدى الانسان الاسرائيلى، فهى تتعرض لازمة المحارب الاسرائيلى الذى يعود سالما من الحرب منتصرا وقد أضاف الى الخريطة الاسرائيلية حـدودا جـديدة . فهـو يعود لا ليتهلـل ويحتفـل بانتصاره ، بل يعود ليلتزم الصمت ويقع فى احسـاس من العزلة والـكآبة ، يقع فى هذا الاحساس لان النصر العسكرى مهما بدا ممكنا ومطواعا للجانب الاسرائيلى فى ظروف معينة من غفلتنا وضعفنا الا انه يفرض ضريبة من انفس المحاربين الاسرائيليين ، ضريبة يمكن أن تكون أفدح لو استجمعنا أنفسنا .

ان تجربة الـكآبة والحزن العميـق التى يعايشـها المحارب الاسرائيلى المنتصر والتى ستزداد وضـوحا فى الفصول التالية.. هى نتيجة لشىء واحد اسمه صلابة المقاومة وفعاليتها فى فرض الضريبة المرتفعة على العدو حتى فى معارك انتصاره .

فهذا هو الطريق الاساسى الذى يمكننا به أن نحيل ظاهرة العزلة والـكآبة واليأس الجزئية اليوم فى اسرائيل الى ظاهرة شاملة ماحقة لنفس كل محارب فيها .

الفصل الثانى

بعد جديد في ظاهرة العزلة واليأس

● الحالمة :

بنيناه عامبت

● العلمين :

يعقوف شافيط

فى الفصل السابق خلصنا من بحثنا فيما قدمنا من نصوص أدبية الى دلالات يمكن أن تكون عامة تشير الى طبيعـة البنيـة الاجتماعية المتفسخة داخـل المجتمع الاسرائيلي والي الانعكاسات السلبية التى تلقيها سياسة السلطة الاسرائيلية البرجوازية فى حروبها ضـد العرب على قطاعات من الشبـاب الاسرائيلى الذى يشعر انه يساق الى ميـادين القتـال وقودا لهذه الحروب التى تحركها وتدفعها عجلة الاوهام العنصرية والاطمـاع الاستعمارية .. فيسقط فى دائرة العبثية والضياع .

وفى هـذا الفصـل نتجه الى إستكشاف جانب آخر من آثار الحرب التوسعية وما تلقاه من مقاومة عربيـة على نفسية الانسان الواعى داخل المجتمع الاسرائيلى ، وقبل أن نمضى فى المحاولة لا بد من التأكيد على العامل الحاسم فى خلق هذه الآثار والانعكاسات لدى الانسان الاسرائيلى .

ذلك ان رد الفعل العربى المقاوم على أرض السـاحة العسـكرية ـ وان كان محـدودا وفى أضيق الحـدود الواجبة ـ هو المرد الاساسى لهذه الانعكاسات وليس وعى الانسـان الاسرائيلى بعدوانية الحرب التى يشنها ساسته ، وذلك لانه لو لم تلق اطماع السلطة الاسرائيلية جوابا عنيفا قاسيا من جانب العرب .. لاسترخت كل الاعصاب فى اسرائيل ولانفثأ وعى الواعين بعدوانيـة السلطة الاسرائيلية ولتفتت الجماعات المنادية بالسـلام

مع العرب ولتحول الشباب الساقط فى وهاد اليأس والفزع من أهوال الحرب الى أدوات استثمار نشيطة آمنة على أرضنا وتحت سمائنا .. اى انه لو لم يكن للمقاومة وجود لركن الكل الى قطف ثمار العدوان .. ولاختفت كثير من الظواهر الاجتماعية السلبية فى اسرائيل بفعل المكاسب الاقتصادية الهائلة التى يمكن حصادها من أراضينا المحتلة اذا سادها الهدوء وخمدت انفاس النضال فيها ، وهذا فى الواقع هو أهم الدروس المستقاة من هذا النوع الذى نجريه من الدراسة .

فى هذا الفصل نعرض لنموذجين أدبيين من القصة القصيرة يتشاركان فى الكشف عن أبعاد ظاهرة اجتماعية واحدة مترتبة على استمرار المقاومة من مدخلين مختلفين .

عند الكاتبة بنيناه عاميت وفى قصتها المنشورة بالملحق الادبى لصحيفة معاريف الصادرة فى ١٩٦٩/٧/٤ تحت عنوان « الحالمة » نلتقى بكشف باطنى عن بعد جديد فى ظاهرة اليأس والعزلة فى المجتمع الاسرائيلى ، انه بعد الخوف الذى يضرب عميقا متأصلا فى باطن الانسان حتى ليصبح القاعدة الموجهة لحياته .

تفتتح الكاتبة قصتها على النحو التالى :

« أسكن فى بيتى ، زوجة لزوجى ، اذهب لعملى ، اعود ، أجد صعوبة فى ان أنام ، أحيانا ينتابنى كابوس وانا نائمة فيصعب على الخروج فى الصباح ، ومهما حاولت ان أعمل وان أرى وان افهم بقى مذاق الاحلام فى فمى .. فى عينى .. فى ملمس يدى .

حزن يخرج من احلامى وينسكب على كل أيامى .

انى معزولة وافكارى مع نفسى .. زوجى ينظر فى

ويعود الى أشغاله ، عله يخشى أن أقول انني غير بسعيدة بعد عامين من الزواج ، عندما يمسني حزنه أحيانا .. أطلعه على افكارى ، ماذا تفيد كلمات الطمأنة وقلبي مليء بالحرب والموتى .

عندما سألني .. عندما تجاسر وسألني : « هو من طبعه الجمود .. بطيء دائما .. بنظر الى فى دهشة» : لماذا لا اريد أطفالا ؟ « كذبت عليه فقلت لنعش عاما آخر لانفسنا » .

هكذا تكشف الكاتبة عن بعد الخوف فى حياة المجتمع الاسرائيلى .. خوف لا يقف عند حد عزل الانسان بذاته كوحدة حية كما لاحظنا فى الفصل السابق .. بل انه يتجاوز ذلك هنا الى ضرب حصار على لاوعية بما يرسخ فى وجدانه احساسا بعبثية اتجاهه الى توليد امتدادات بشرية له وبذا يحول بينه وبين تجديد الحياة فى ابسط صورها وهى الصورة البيولوجية .

ان الخوف الذى يسيطر على الانا القاصة فى قصة « بنيناه عاميت » يئد فى نفسها كل ميل طبيعى نحو الامومة ويشل طاقتها النفسية على الانجاب .

ولكن عن أى باعث يتولد هذا الخوف الرهيب ؟

« أقامت أمي وليمة لاخى عند ماعاد ، تزوجت امى ثانية ، وهذا ابنها أخى ، كان رفاقه يحكون عن بطولته لجيراننا ، تكس اخى عينيه ، ما الذى يفكر فيه حقا هذا الفتى .. بماذا يحس ؟ انني لا أعرفه مطلقا ، لماذا لا تقولين شيئا ؟ سألتني أمي : لماذا لا تشاركيننا ولو مرة فى أفراحنا ؟

انني تعبة يا أمي ، ولم لا تدركين ان قصص البطولة فى الحرب كريهة الى نفسى ؟ ما هذا الذى تتحدثين عنه

ما هذا الذى تمزجينه ؟ ما هذا الذى تضاهينه ؟ .. اليست هذه هى الحرب ، اننى لا أفهم الموت وان كان هو الشىء الوحيد فى الحياة الذى يتجاوز حدود الشك.

الموت وحده مفهوم عندى أقل من اى شىء .. أعجب عندى من كل شىء .. كريه لدى اكثر من أى شىء .. يخيفنى ، يهزنى ، كل يوم وكل ليـلة فى أحلامى التى لا تفارقنى ، منفصل عن كل شىء .. يقينى فوق كل شىء .. مرئى ومنظور ومسموع .. مستشعر ومحس ومدرك .

عينا أخى منكستان بينما رفاقه يغدقون الثناء عليه.

ربما استطعنـا أن نتحدث مرة عنـدما أدعوه الى السينما .

ولماذا لا يكون لى حفيد فى النهاية يا ابنتى ؟ قالت امى .. ولذت أنا بالصمت » .

هكذا تقدم الـكاتبة الجواب.. انها تكشف فى وضوح عن أبعاد هذا الخوف وبواعثه .. انه خوف ناشىء عن الواقع الراهن .. واقع الحرب ، ذلك ان الانا القاصة تشعر بالعزلة المطلقة تجاه أحاديث الاطراء والثناء عن أخيها في الحرب مما يجرى على ألسنة الجماعة المحتشدة للاحتفال بعودته ، وذلك لوعيها بالجوهر الحقيقى الذى ينطوى عليه واقع بطولة أخيها ، فهو عندها ليس جوهر المجد والفخار انما جوهر الفناء والموت ، وهى تخشى من الموت ، تخشى منه على نفسها وعلى أخيها ، وفوق ذلك يمتد هذا الخوف عندها الى وليـدها الذى لم يتخلق بعد فى أحشائها ، ولذا فهى تقاوم الضـغط الاجتماعى من زوجها وأمها اللذين يحفزانها الى الانجاب بعد أن ترسب الخوف فى أعماقهـا واسـتحوذ على باطنهـا ولاوعيها .

« فى احدى الليالى منذ سنوات عديدة .. كنا أنت يا أمى وأنا وأخى الصغير وأبى داخل حفرة .. فى صراخ ورائحة شياط ووجوه مذعورة وصوتى ضائع من الفزع بينكم جميعا وسط الدمار والريش المتطاير المرتعد والنار المحيطة بنا ، وهربت الى حقل بينما شعرى يحترق وساقاى مجروحتان .. لم أنجح فى طى ماضى داخلى .. وطفولتى تصرخ من لحمى الحى .. من عينى وهما تنظران حولى فلا تريان شيئا لان كل شىء ينهار، يداى لا تمسكان بأى شىء ، فكل شىء يحترق ، قلبى لا يتعلق بأحد ، انثى مليئة بالموتى ورائحة عفنهم تفوح من كل شىء ، ولكن الليلة حلمت ثانية بنفس الحريق والزلازل ورائحة شياط ووجوه شاحبة وهزة غابة فى القوة اطاحت بى وقذفتنى من على الرمال بعيدا الى داخل انقاض وحطام ليجثم فوقى شىء ثقيل ، كانت ساقاى مشققتين ويداى متقيحتين وعيناى ملتهبتين ورائحة كريهة تفوح من شعرى .

فجأة اقتربت منى أمى وبين يديها رضيع ، أخى الحى والى جانبها أبى .

واستيقظت من النوم لشدة الانفعال، ولم يعد زوجى لثلاث ليال ، شىء غريب ، لم يطرأ على ذهنى انه سيفعل بى هذا ، لقد اتيحت له فرصة ، كان فى مقدوره أن يسحق كل موتاى ، زوجى ، بيتى ، ولدى » .

بهذا تنهى الكاتبة قصتها وقد أوردناها كاملة بترتيب فقراتها .. أن الانا القاصة كما يتضح من الفقرة الاخيرة تستشرف مستقبل وليدها فى مصير اخيها البطل ، ان المصيرين عندها مصير واحد عنوانه الدمار والفناء ، وسر معاناتها كامن فى التوحيد الذى

يتم فى باطنها بين واقع أخيها ومستقبل وليدها ، هكذا تكشف الكاتبة عن الحالة ، فالانا الفاصة خاضعة لمخاوف الحرب بدرجة بالغة تترجم معها هذه المخاوف فى باطنها الى أحلام مفزعة تظلل عالمها كله بالخراب والفناء ، وفى بؤرة هذه الدائرة من المخاوف يقف خوفها على أخيها المحارب .. وطالما كان جزعها على أخيها المعرض للخطر يترجم فى لاوعيها بعملية توحيد بينه وبين وليدها الذى لم تتهيأ له أسباب الحياة بعد .. فقد ظلت محجمة عن الاخذ بأسباب الانجاب ، ولكنها عندما تستبصر فى أحد أحلامها كنه عملية التوحيد هذه بين الاخ وبين الوليد .. عندما ترى أمها فى حلم الحرب والدمار تحمل اليها وليدا تعرف فيه أخاها الحى .. تصحو على ادراك لطبيعة المانع النفسى الذى يحول بينها وبين الاقدام على الانجاب ، وفى لحظة الكشف النفسى هذه تصبح قادرة على استقبال زوجها ليسحق بقايا الخوف من نفسها باستيلادها الوليد ، غير أن الكاتبة تقطع فى نهاية القصة بأن الزوج لم يأت فى الوقت المناسب وان فرصة قد فاتته ليسحق مواتها وخوفها ، وفى هذا اشارة الى استمرار هذا الخوف وتمكنه .

ان الكاتبة تكشف فى قصتها عن بصيرة سيكلوجية قادرة على النفاذ الى أعماق الانسان الذى تستمد موضوعها من تجربته ، وهي فى قصتها التى تحتوى على شحنة انفعال بادية الصدق بالحالة التى تصورها .. تشير الى طريق الخلاص من حالة الخوف هذه ، وهو عندها طريق باطنى بين الانسان وذاته ، طريق الاستبصار الداخلى بمكونات خوفه وكوابت حركته وبالتالى تملك القدرة على كسر قيود الخوف وتجاوزه .

ان البعد الذى يكبح مبل الانسان الى استحضار امتدادات بشرية له لا يبدو بعدا ثانويا مقصورا على نفس الاديب الحساسة وما تصدر به من تعبير أدبى .. بل انه يبدو فاشيا بين قطاعات من الجماهير الاسرائيلية ، ومما يؤكد هذا عندنا تكرار التعبير عن نفس البعد لدى اكثر من اديب من ناحية والمحاولة العامدة الى علاج اثره بطرق الاعلام الاسرائيلية المختلفة بما فى ذلك الادب الموجه من ناحية أخرى .

وفيما يلى نقدم تناولا أدبيا مختلفا للظاهرة نفسها فى قصة يوحى بناؤها بالقصد العمدى نحو توجيه الجماهير الاسرائيلية فيما يتعلق بهذه الحالة النفسية التى تمثل فى انتشارها ظاهرة اجتماعية تدخل فى باب الامراض النفسية الاجتماعية ، وهى ظاهرة لها خطرها بالنسبة لمجتمع يسعى حثيثا الى زيادة طاقته البشرية كالمجتمع الاسرائيلى .

فى قصة بعنوان « العلمين » للقصاص يعقوف شافيط نشرت بالملحق الادبى لصحيفة ها آرتس ١٨/٩/١٩٧٠ : نلتقى بكشف عن ظاهرة العزوف عن الانجاب بفعل الخوف من الحرب فى المجتمع الاسرائيلى يختلف عن الكشف الباطنى الذى قدمته كاتبة قصة « الحالة » ، فهنا يورد الكاتب الظاهرة ليس من خلال موقف المنغمس بل من موقف المراقب من الخارج مع الاحتكام فى تقييمها الى معايير الاخلاق والضرورات الاجتماعية استهدافا الى اقناع الواقعين فى هذا النوع من الخوف الى التخلى عن مخاوفهم والاستجابة لاحتياجات الحياة الاجتماعية .

فى قصة العلمين لايصور الاديب الحالة فى اطار الواقع

الاسرائيلي الراهن بل يعمد الى تهيئة القارىء لتلقى التوجيه من مسرح زماني متقادم بعيد .. كي لايشعره بأنه أمام محاولة متعمدة لتوجيه سلوكه والتأثير فيه . والكاتب الى ذلك يلجأ فى صياغة المضمون الذى يريد أداءه الى حيلة على قدر كبير من البراعة ، فهو يسوق المضمون الاجتماعى فى سياق حدث يروى على لسان الانا القاص ويتعلق بشخصه كى يصل بالقارىء مع آخر جملة فى القصة الى حالة من الصحوة على سلبية الظاهره أشبه ما تكون بالانفجار العاطفي المؤيد للانجاب والاحتفاظ بالاجنة فى الارحام حتى تولد وتشب فتيانا مقتدرة تشارك فى الحياة .

يفتتح الكاتب قصته على لسان الانا القاص صارفا انتباه قارئه عن محاولة التوجيه على النحو التالى :

« فى أكتوبر ١٩٤٢ انقذت عمتى ايطه البشرية ، فى ذلك اليوم وبينما كانت امى تسير فى شارع هرزل لمحت فى وسط الشارع خلف المدرجات العمة ايطه ، كانت العمة ايطه تقف مع نحماه برومقين تحت المظلة الخضراء الممتدة فوق واجهة أحد محال الاقمشة ، ومن ظاهر وجهها كان يمكن أن يفهم المرء على الفور انها منهمكة فى القاء موعظة أخلاقية تربوية » .

هكذا ينشىء الكاتب لرسالته اطارا زمنيا بعيدا ويهيىء لها الرسول الموثوق به فى شخص العمة ايطه السيدة كريمة الخلق الداعية الى السلوك القويم .

وبعد بث الثقة فى أهلية الرسول لحمل الرسالة .. يتجه الكاتب الى الكشف عن جوهر الحدث الذى يصب فيه الرسالة مع التأكيد على مسرحه البعيد فيصل السرد على النحو التالى :

« تسمرت أمي فى مكانها للحظة وهى تبحث عن مخرج من الـكمين ، كانت شمس الظهيرة شديدة الوطأة فى ذلك النهار ، كان ذلك نهار يوم الثالث والعشرين من أكتوبر ، كان رومل يدفع بدباباته تجاه العلمـين وكان الجنرال مونتجمرى يضع هو الآخر قلنسوة سوداء على راسه وينظر فى خرائط الصحراء ، كانت الصحراء مظلله بسحابة من الغبار كبيرة تتحرك داخلها الدبابات الداكنة مثل الوف من النمل خرجت من أوكارها لتضل فى كل اتجاه ، ألقت أمي نظرة على الســاعة ، كانت عقاربها تتحرك فى الدائرة ، وانبعث الى مسامعها عويل الراديو من مكان ما ، كان من الواضح لها ان العمة ايطه ستتلكأ تحت المظلة لحظات طويلة .. فلم تكن حركة يديها قد وصلت بعد الى قمة الحماس ، كانت المشكلة كامنة فى ان العمة ايطه كانت تقف تماما أمام مدخل الممر المؤدى الى عيادة الدكتور هانس شميدت وما كان يمكن الانفلات الى الداخل دون ان تلحظ من يمر أمامها ، كان لابد أن يجذب أحد انتباهها كيما تعبر أمي الشــارع قادمة من الجانب الآخر وملتصقة بالحائط لتختفى فى ظـلال الممر ..

أرسـلت أمي عينيهـا فى يأس فيما حولهـا غير ان أحدا من الاقارب أو المعارف لم يمر لينقذها ، بحثت عن منديل كى تجفف العرق عن جبينها وسلمت فى وهن بمزيد من الزمن ليحل المشكلة ، شعرت بقرص شديد فى بطنها وانتابها احساس بالقرف والرغبة فى التقيؤ ، تجهم وجه السيدة برومقين على الناحية الاخرى وراحت تدبدب بقدميها ، استندت أمي الى عمود قريب وجعلت تطل على المرأتين وقـد ظهرتا امامها كظلى شـجرتين بعيدتين تحركهما ريح لافحة فى مكان ما على حافة صحراء

قائظة ، مرت بضع سحابات بأعلى .. كان سراب الظهيرة يحلق فوق المياه وهبت رياح باردة من البحر معتلية ظهر الجبل » .

بهذه الفقرة يحدد الكاتب موقف الام من القيم الخلقية .. ويهيىء القارىء لكى يدرك ان موقف الام فى تخوفها من العمة ايطه الرسول وتواريها منها انما ينطوى على مجافاة للأخلاق والقيم ولذا فهى تتحاشى لقاء العمة حتى لا تقف موقف السيدة برومقين التى تنال وابلا من التقريع لانحراف زوجها عن سبيل القيم.

« الآن مضت السيدة برومقين الى الامام وشعرت امى أنها تعتصر فى مكانها ، كانت تحس على شفتيها بطعم مالح وهى تحدث نفسها عما ينطوى عليه الامر من دواعى السخرية ، دارت العمة ايطه فى مكانها مترددة فيما يبدو الى أين تذهب ، جعلت تنظرها هنا وهناك وهى مادة عنقها ، فانكمشت أمى فى طيات الظل وألقت نظرة على الساعة ثانية وبطنها تتوجع من الطمنات ، قامت العمة ايطه ببضع حركات فى اتجاهات مختلفة ثم بدأت ترتقى الطريق سمينة وبطيئة ، ولم تتمهل أمى ولا لحظة واحدة .. فقد اتجهت فى عجلة ناحية الممر تريد أن تستغل ميزة المفاجأة ، وعندما أصبحت تحت المظلة ولم يعد أمامها سوى بضع خطوات حتى تصل الى الممر الذى تظهر فى مقدمته لوحة الدكتور شميدت البيضاء .. استدارت العمة ايطه على عقبيها فى حركة كبيرة فاصطدمت نظرتها المحلقة بصورة أمى الشاحبة ، فتنهدت واستجمعت قواها مسرعة اليها بذراعين مفتوحتين .. سارة ! الى أين تذهبين ؟

توقفت امى واحست وكان الهواء قد نفد من رئتيها

وانتصبت مستعدة للصدام ، ياله من حظ حتى أراك .
انك مختفية منذ شهور ، كيف حال اسرائيل ؟

بخير .. قالت أمى : شكرا انه يأتى احيانا لبضع ساعات ثم يرحل . مالت العمة ايطه بوجهها لتنظر الى السيدة برومقين وهى لا تزال فى أفق الشارع ، كنت منذ لحظة أتحدث مع نحماه برومقين ، هل تعرفينها ؟ لقد قلت لها ان زوجها « شرموط » (١) . هذا بالضبط ما قلته لها ؛ انه الآن يعمل فى السوق السوداء وسط الحرب الكبيرة فى الصحراء .

قالت أمى فى اعياء :

ـ نعم .

سالت العمة : الى أين أنت ذاهبة يا سارة ؟

ـ مررت من هنا مصادفة .

تفحصت العمة ايطه وجهها جيدا وكأنها كانت تفحص شريطا ممتلئا بالرسوم المتحركة .. ضاقت حدقتا عينيها وقالت فى دهشة : انك شاحبة للغاية .. هل أنت مريضة ؟ كلا .. قالت أمى وهى تدرك الآن انها لن تنجو من الكذب ، كل شىء على ما يرام تماما .

ما معنى على ما يرام تماما !! هل ترين كيف تبدين.. انك شاحبة كالطباشير ، تمتمت أمى.. هذا من الحرارة

ـ هراء .. أية حرارة ؟ اليوم حار ؟ اننا الآن فى الشتاء ، ماذا بك ؟

لا شىء .. كيف حال حاييم ؟ غير ان عملية صرف الانتباه لم تفر العمة ايطه .. صوبت رأسها تجاه الممر وانحبست أنفاس أمى ، وللحظة ساد صمت عميق .. صمت الانتظار ، وبعدها دوى صياح العمة ايطه .. هل أنت ذاهبة الى الدكتور شميدت ؟ وحركت امى

(١) هكذا وردت بالنص العبرى .

رأسها فى وهن علامة الايجاب .

ــ ماذا حدث ؟

ــ لا شيء .. لا شيء .

شعرت بمغص فى بطنها .. صافحت العمة .. ان دورى يحل بعد دقيقة .

ــ سأدخل معك .. قالت العمة ايطه فى حنان بالغ وهى تمسك بمرفقها :

ــ لا ضرورة لذلك فكل شيء على خير ما يرام ، سأصعد للطابق الاول .

ــ طالما اننى لن أذهب الى مكان خاص .. فلنتحدث بالداخل .

ــ كلا ! قالت امى فى عنف ، وكشفها وقع صوتها العنيف ..

غاصت فيها العمة ايطه بعينين مستريبتين .. ثم عادت فألقت نظرة أخرى على أمى التى كانت تمسك ببطنها ، ورفعت رأسها وقرأت حروف اللافتة .

وبحركة حادة قفزت من فوق الاسفلت ودارت حول أمى تسد مدخل الممر فى وجهها » .

هكذا يتكشف الحدث .. فالام حامل ذاهبة الى الطبيب لتجهض حملها ، ويبدأ الصراع بينها وبين العمة رسول الاخلاق بكل ما يثيره هذا ابتداء من احساس التأييد لدى القارىء لموقف العمة حفاظا على الجنين .. لتمضى عجلة السرد بعد ذلك فتفصح عن دوافع الام الى هذا العمل وتدحض هذه الدوافع لدى الام فى القصة وفى نفوس الحوامل الاسرائيليات اللائى يتجهن الى افراغ ارحامهن بفعل الخوف اليوم .

« لم يكن هـذا فى الحسبان .. قالت العمة ايطه

بصوت قاس : هل جننت ؟
ــ انني مضطرة .. قالت أمي :
ــ لم يكن هذا فى الحسبان .. قالت العمة ايطه ثانية : انني لن اسمح لك بذلك .
ثم صرخت فجأة : لن تمرى الا على جثتى ..
ــ انني أستسمحك .. قالت أمي في وهن

كان فى الشارع عدد قليل ما بين غاد ورائح .. بينما ظهرت فى أسفل الشارع بالبحر بعض السفن الحربية ، وفى مكان ما بالصحراء الكبيرة كانت الدبابات يصيب بعضها بعضا والارض تتزلزل ، كان الناس ينتظرون أخبار ال ب.ب.س. بفارغ صبر وكان الدخان الاسود يتصاعد من مصانع التكرير .

لم تتحرك العمة ايطه من مكانها وظلت ثابتة كالصخرة التى لايمكن زحزحتها .
ــ لا خيار لى .. قالت أمي
ــ بل لك الخيار .. قالت العمة ايطه فى صوت صارم .. عودى الى البيت .

ــ انني مضطرة اليوم لاخذ الحقنة الثالثة ، قالت أمي .. وبهذا تكون النهاية .
ــ هل اخذت حقنتين قبل ذلك ؟
اومأت أمي براسها .. هذه الحقنة الاخيرة .
ــ قاتلة ! هذه حقيقتك .. قاتلة ! قالت العمة فى غضب » .

هكذا يصدر الكاتب حكمه الاخلاقى على موقف مثل هذه الام على لسان العمة الرسول .. وبهذا تكون الادانة الخلقية لها كاملة أمام القارىء والقارئة فى المرتبة الاولى .. ليدلف بعد ذلك الى تحليل دوافعها ودحضها

بالمبررات الاجتماعية الداعيـة الى الانجاب فى المجتمع الاسرائيلى .. وعلى رأسـها مبرر تعويض الخسـارة البشرية فى الحرب بمواليد جدد .

ـ لا خيار لى ، قالت أمى فى اعياء .. كانت شفتاها مشبعتين بطعم مالح وكأن عليهما راسب من ملح حادق، لا ينبغى لى ، تمتمت أمى .

ـ ماذا تعنـين بأنه لا ينبغى لك .. لوحت العمـة ايطه بيديها فى بطء .. ما هذا الذى لا ينبغى لك ؟ ! ان ما لاينبغى لك هو دخولك الى هذا القاتل لتأخذى الحقنة ، هـذا هو ما لاينبغى لك ، انتظرى أنت فى الخارج وسأدخل انا اليه ، انتظرى ، أيعطى مثل هذه الحقن فى وقت الحـرب ؟ ! بينمـا الرجـال يموتون كالذباب ! !

ـ هذا هو لب الامر تماما ، قالت أمى : لا ينبغى الآن احضار أولاد الى العالم .

تنفست العمة ايطه ونفخت فى تثاقل ، مدت يديها فرتبت شـعرها المتهدل . كانت العمة تفيض بالعزم والتصميم ، غير ان أمى الاصغر منها كانت عازمة هى الاخرى.. فخطت خطوة تجاه مدخل الممر غير ان العمة أمسكت بها .

ـ ماذا تفعلين ؟

ـ ذاهبة الى الدكتور شميدت ، قالت أمى .

ـ انك لن تذهبى .. صححت لها العمة ايطه ماقالت كان صوتها جادا ومفعما بالثقة .

ـ أن لى دورا ، قالت أمى .. لا ينبغى ان اتأخـر .

ـ اسمعى ! قالت العمة ايطه فى عناد وهى تغلى . اذا دخلت اليه فاننى سأثير فضيحة فى كل المدينة ولن

تستطيعين أن تطـــــلى بوجهك خارجا بعد ذلك ، انك تعلمين اننى استطيع ذلك .

وتراجعت امي قليلا فى تصلبها .. وقالت :

ـ لا تكونى عنيدة يا ايطه .. انك تعلمين مثلى تماما انه لا ينبغى احضار أولاد للعالم فى مثل هذا الزمن .

ـ على العكس .. قالت العمة ايطه وهى تتحرك يمنة ويسرة .. اننا الآن مضطرون الى أحضار أولاد للعالم ، فهذا هو الزمن المناسب .

ـ بينما هناك حرب ؟ !

ـ بالذات عندما تكون هناك حرب ، الا تعتقدين ان مونتجمرى سينتصر ؟

ـ اننى لا أفهم فى هذا ، قالت أمى ، حتى آذا انتصر فان الحرب ستستمر وسيموت رجال كثيرون آخرون.

ـ لهذا ينبغى انجاب الاولاد .. كى يحلوا محل من ماتوا فى الحرب .

ـ لماذا ؟ صاحت أمى فى يأس ، لـكى يعيشوا هم الآخرون داخل الحرب دون طعام حتى يموتوا .

ـ كيف تتكلمين هكذا ؟ الا تخجلين ؟ ! بدأت العمة ايطه تهدد أمى بأنها ستسحقها بغضبها « كى تستمر البشرية فى البقاء .. يجب علينا انجاب الاولاد .

ـ فلتلدهم البشرية أذن قالت أمى :

والآن ما راى القراء فيما لو قمنا باعادة قراءة الفقرة السابقة من قصة الاديب الاسرائيلي مع حذف كلمـة « مونتجمرى » فى جملة « الا تعتقدين أن مونتجمرى سينتصر ؟ » ووضع كلمة « ديان » .. وحذف كلمة « البشرية » فى جملة « كى تستمر البشرية فى البقاء .. فانه يجب علينا انجاب الاولاد » ووضـــع كلمـة « اسرائيل » ؟

هل يمكن عندئذ أن تتكشف أبعاد الظاهرة ؟ وهل يمكن ان نعيــــد النظر فى تقييم النصر العسكرى الاسرائيلى ؟

ان ما نراه ها هنا من ظواهر دفينة على هــــذا القدر من الخطورة فى المجتمع الاسرائيلى لم يتولد نتيجة انتصـــار عسكرى ضخم احرزناه ولـكنه تمخض عن مجرد عمليات عسكرية محدودة ولـكنها دائمة .. ابقت على حالة الحرب ساخنة ومع ذلك فلنتابع التجربة الى نهايتها لنرى كيف يؤدى الادب الموجه فى مجتمع الغزاة دوره فى علاج العلل الاجتماعية .

« بلبلت الحرارة والالم احاسيس امى بعض الشىء ، احست برغبة فى كوب ماء ، انطمست حروف اللافتة المعلقة على عـادة الدكتور شمبدت امام عينيها ، خرج شخص من الممر مستحثا الخطى الى الشـــارع ، لم تنكس امى عينيها لتنظر فى الساعة .

ـ ان البشرية هى انت ، قالت العمة ايطه بصـوت صـــدر كانه امر ، لـكى تبقى البشرية .. اى لـكى تستمرى انت فى البقاء فانه لاينبغى لك ان تأخذى هذه الحقنة ، كيف داخلك الاقتناع بهذه الفكرة ، لم اكن اعتقد هذا فيك .. انت بالذات .

فى تلك اللحظة تماما فتح شخص بالطابق الاعلى جهاز الراديو فى صوت مرتفع .. كان المذيع يتحدث باللغــة الانجليزية فى انفعال مكبوت ، كانت بعض الصــفارات المتقطعة تعوق الاستماع غير ان العمة ايطه وامى لم يكونا يفهمان الانجليزية ، دفع الصوت المنفعل امى الى الامام ، أزاح مرفقها العمة ايطه بعض الشىء من على المدخل واندفعت الى الامام تريد أن ترتقى الســلالم

الضيقة بسرعة لتحتمي وراء باب العيادة المغلق .
ـ كلا ! صرخت العمة ايطه صرخة خاطفـة ومدت يدها فاصطادت أمي كما لو كانت دجاجة متملصة ، ووقفت كل منهما فى مواجهة الاخرى متحصنة فى موقعها
ـ لـكن .. افهمى .. قالت أمى ، كان صـوتها رفيعا منهكا وقد قل تماسكها ومالت مستندة بجسمها الى الحائط المطـــلى بالجبس وتمتمت : افهمى .. لا ضرورة ، مسموح ، ممنوع .

ـ انك تنطقين هراء.. قالت العمة ايطه وهى تلاحظ ان موقفها قد أصبح أكثر ثباتا ولذا أصبح صوتها أكثر اعتدالا من صوت أمى ، انك تنطقين هراء ، أتفكرين فيما سيحدث ؟ ! لا تفكرى فيما سـيحدث ، فكرى فقط فى انه لن يكون هناك أى شىء اذا لم يكن لنا أولاد.

نظرت أمى فى السـاعة . كان المـوعد قد انقضى . حملت الريح سحابة من الرمال من مكان ما .
ـ فكرى انت .. قالت أمى فى خنوع : اى ظلم يكمن فى احضار أولاد لمثل هـذا العالم ، ما الذى فيه ؟ ما الذى ينتظرهم ؟ ان شيئا لم يتغير .
ـ أن شيئا لن يتغير اذا لم يحضر النـاس اولادا للعالم .

قالت ايطه : ما معنى أن نعيش لشىء اذا لم يكن هذا الشىء هو احضار أولاد للعالم .. كى يستمر كل شىء على الرغم من الحرب .

ـ ولـكن شيئا لن يتغير ، قالت أمى وصعد مذاق كريه من بطنها الى فمها واحست ثانية بشوق الى كوب ماء ولم تلحظ العمة ايطه ذلك .

ـ من أين تعلمين ان اى شىء لن يتغير ! يا سارة ،

ان اسرائيل زوجك يعمل فى الصحراء كى يبنى حصونا بينما انت ذاهبة لتجرى عملية اجهاض ، ماذا سيقول اذا علم بهذا الامر ؟

ـ اناسرائيل زوجى يعمل فىالصحراء بينما برومقين يقوم بصفقات سوداء ويثرى ، قالت أمى فى مرارة ، وفجأة قالت فى ذعر : انه لن يعلم .

ـ سأخبره أنا ، قالت العمة أيطة مهددة .

بدا لها ان انتصارها أصـــبح مؤكدا وما عاد أمامها سوى انتؤمنه وان تدفع العدو الى الانسحاب للخلفحتى يبتعد عن الممر وحتى يتـأخر تماما عن الصـعود الى العيادة واخذ الحقنة .

قالت أمى انا فى حاجة الى كوب من المـاء .

اغتنمت العمة ايطه الفرصة وامسكت بمرفق أمى.. « هلمى الى فيسكو » وابتعـدت الاثنتـان ، ضعفت حركات يدى العمة ايطه .

كانت الشمس فى كبد السـماء ، وعلى قمة الجبل وفى مكان ما بالصحراء كان القتال حامي الوطيس وفى أوجه ، فى كل مكان كان يسير رجال بوجوه منكسرة وقلقة ، بينما كانت العمة ايطه وحـدها تسير سـيرا منتعشا واثقا ، ليفعل الجنرال مونتجمرى ما يفعـل فلقد انقذت هى البشرية

عندما يتصادف وجودى بالمدينة فانه لا مفر لى من الذهاب لزيارة العمة ايطه .

وفى يوم الاحتفال ببلوغى سن التكليف الدينى قصت على القصة للمرة الاولى وحفزتنى الى الزواج وانجاب الاولاد المتعاقبين .

اننى لا اعرف كيف شـــكرت البشرية الجنرال

مونتجمرى لانقاذه اياها ، من المؤكد ان هذا كان فى شكل المجاملات الاجتماعية العادية ، أما بالنسبة لى فاننى احمل على كاهلى العرفان للعمة ايطه مثل أطلس فى زمانه .. وانا أجلس تحت صورة العم حاييم المعلقة فى حجرة الضيوف لاستمع ثانية وثانية الى قصة كيف أنقذت العمة ايطه البشرية وكيف ولدت أنا » .

هكذا يتم الكاتب ايصال رسالته الى القارىء الاسرائيلى الواقع فى مخاوف الحرب ، ففى لحظة التنوير يكتشف القارىء بعد أن تهيأ فى سياق القصة لقبول منطق الاخلاق والضرورة الاجتماعية .. ان ذلك الجنين الذى كاد أن ينزل من رحم أمه سقطا فى بداية القصة ــ لو كانت أقدمت على أخذ الحقنة ــ قد أصبح فى النهاية الانا القاص الانسان المكتمل الذى يتحدث اليه فى القصة .

هنا يوفق الكاتب الى احداث حالة الانفجار العاطفى لدى قارئه الذى يفكر فى اسقاط جنينه ممثلة فى صحوة من الوعى تدعوه الى استشراف مستقبل حى فتى وناطق لجنينه الذى يفكر بفعل الخوف فى اسقاطه ميتا .

بهذا الحد من الحديث عن ظاهرة العزلة واليأس فى المجتمع الاسرائيلى المنتصر فى الساحة العسكرية .. لا أظنني فى حاجة الى مزيد من التعليق فالظاهرة واضحة ، ودوافعها واضحة .. والدرس المستفاد من كشفها اجلى وأوضح .

الفصل الثالث

القصص السياسى

● أغنية الاوز :
ران أدليسط

● الدب :
اورى بن ارياه

مضامين السياسة الصهيونية

لاحظنا فيما سبق من نصوص أدبية بعيدة فى تناولها للواقع عن طابع الادب السياسى المباشر .. وجود خطين اساسيين يستوعبان المضامين السياسية الصهيونية التى يرد التعبير عنها فى سياق التناول الادبى العام .

الخط الاول هو خط الادب الموجه أو الخاضع لالتزام حاد وقصوى بالقضية الصهيونية ومقولاتها ، ومن ثم فهو يتميز بالتباعد المتطرف عن الموضوعية فى النظر الى طبيعة الصراع العربى الاسرائيلى .. فيتجه الى طمس ملامح الموقف على طرفى الصراع بجنوحه الى تصوير الجانب الاسرائيلى على انه وريث مركز وموحد للمشكلة اليهودية التىكانت منتشرة موزعة على مساحة المجتمعات الاوربية فى الماضى .. وريث ما زال عليه ان يتحمل البقية الباقية من فيض العذاب اللاسامى فى مواجهة العرب الذين يورثهم هذا التصوير المزيف موقف اللاسامية القديمة .

ومما لا يفوتنا التنويه به فى شأن هذا الخط .. انه لا يمثل نبتا جديدا في تربة الادب الصهيونى بل هو فرع يحمل اوراق الظروف الجديدة على شجرة عتيقة فى هذه التربة وهى شجرة اليهودى المعذب دائما فى مواجهة العالم دون ما ذنب جناه .

وعلى نفس الشجرة القديمة هـــذه نجد تفريعات جديدة بعد الحرب الاخيرة نحو تأكيد المعاني التقليـدية التى ظل الادب الصـهيونى يسعى الى تأكيدها حول عصمة البطل الاسرائيلى وتنزهه عن كل المشاعرالطبيعية التى تميز البشر العاديين وتجعل منهم بشرا من خوف وقلق ,وتردد وغموض رؤية فى المواقف وما الى ذلك من نوازع الانسان العادى وهو ما كان يصعب رؤيته فى الابطال الاسطوريين أو بالاحرى الوهميين الذين حرص الادب الصهيونى على انشائهم دائما قبـل قيام الدولة وبعدها (١) .

أما الخط الثانى الذى نلاحظه فهو خـط الالتزام المتحلى بميل نحو الموضوعية فى تناول القضايا ورسم الشخصيات ، فيتجه دون ما خروج عن الالتزام العام الى الـكشف عن المواقف السلبيةعلىالجانب الاسرائيلى استهدافا الى تجاوزها والتخلص من آثارها ونتائجها .

ومن بين ركام الانتاج الادبى الذى يتخذ من المواقف السياسية موضوعا أساسيا له بعد حرب ١٩٦٧ والذى يندرج فى مجموعه فى هذين الخطين .. انتخبت للقارىء العربى نموذجين من القصة القصيرة فى هذا الفصل ، أولاهما بعنوان « أغنية الاوز » وهى تتعرض بالتناول المباشر لموقف المحارب الاسرائيلى العادى من الاوضاع السياسية التى تحوطه والتى تؤدى به فى نهاية الامر الى القبوع فى موقع عسكرى ضيق محدود فى انتظـار الموت بين لحظة وأخرى .. وتكشف عن مدى الحرية الذاتية المتاحة لهذا المحارب فى اختيار موقفه من قضية

---

(١) انظر غسان كنفانى .. فى الادب الصهيونى .. دراسات فلسطينية رقم «٢» ص ٩٦

الصراع العربي الاسرائيلي ، أما القصة الثانية فتقدم تناولا رمزيا ضبابيا لاحساس الخطر المحيق الذى يتوقعه الاسرائيليون نتيجة للوجود السوفييتي المؤيد للمقاومة العربية الشاملة داخل حلقة الصراع .

والقصة الاولى « أغنية الاوز » لكاتب مرموق فى عالم الادب الاسرائيلى هو « ران أدليسط » وهو يحتل مكانة هامة بين كتاب القصة السياسية ويتميز بعمق التناول والنفاذ الى أعماق الواقع لكن دون انفصال عن موقف الالتزام بالموقف الاسرائيلى فى الصراع ، وهذه القصة التي تمتلك قدرة على الكشف قد توازى طاقة عمل روائى كامل .. تقدم تشريحا أقرب الى الموضوعية من غيرها لشخصية البطل الاسرائيلى المحارب على الجبهة العربية .. رغم ما تحمله من بصمات الموقف الصهيونى التقليدى الذى يسعى الى انشاء البطل الاسرائيلى مرهف الاحساس الذى لا يريد الحرب ومع ذلك لا يتوانى عن البلاء فيها طالما انه رهن لها .. البطل المؤمن بانتمائه القومى وموقفه القوى المتفوق .

ذلك ان البطل فى هذه القصة .. وهذه لمسة موضوعية ـ يعانى نوعا من الفصام بين احساس الانتماء القومى وما يقتضيه من بذل وبين حرصه على سلامته الشخصية واصراره على البقاء سليما معافى من التشويه الجسدى حتى ولو كان هذا على حساب المصلحة القومية التي يؤمن بها . وهو بطل يعانى الى جانب هذا الفصام بين معنى التضحية فى سبيل الوطن ومعنى الاحتفاظ بالذات من حالة عجز عن تبين الحقيقة السياسية التى يجب أن يتبناها داخل نفسه نتيجة لحيرته فى اتخاذ

موقف واضح تجاه التيــارات الســياسية المختلفة فى مجتمعه والتى تتراوح فى حديها الاقصى والادنى بين تيار الالتزام بالمقولات الصهيـونية الإســاسية الداعية الى التمسك بالاراضى العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ واعتبار الاستيلاء عليها مجرد مرحلة نحو تحقيق هدف اسرائيل الكاملة .. وهو الامر الذى يستوجب مزيدا من القتال واســتمرار الصراع وبالتــالى تعرض البطـل المخطر الجسدى الذى يخشاه .. وبين تيــار التعقل العملى الداعى الى محــاولة تفهم بعض الحقــوق العربيـــة واسترضاء العرب برد بعض ما أخذ منهم وهو ما يمكن أن يؤدى ـ فى التصور الاسرائيلى المعتدل الى حالة أمان عامة وبالتالى الى كفالة الســلامة الشخصية للبطـل المحارب .. ولكن على حساب الآمال التــاريخية فى اسرائيل الـكاملة .

ونتيجة لهذا الموقف الفصامى الجديد تجاه التيارات السياسية الموجهة لمجرى الصراع على الجانب الاسرائيلى والذى يفرض على البطل حالة العجز عن اتخاذ موقف اختيــــار ذاتى .. فانه لا يجد مفرا من الســقوط الاضطرارى فى موقف من الجمود العقــلى والفكرى ، وموقف الجمود هــذا هو عين الاطار الذى يبتغيــه صناع الانسان فى اسرائيل ليبرزوا داخله مثال البطل المنشود ،انه مثال البطل غير الواعى.. « آن كل ماينبغى عليك عمله هو أن تصورنى وعندئذ سترى المثــال ، حقيقة انه مثال غير واع ، ولـكنه المثال .

ـ وهذا بالضبط ما نحن فى حاجة اليه الآن .. أمثلة غير واعية

ـ دعك من السخرية .

ـ أية سخرية ؟ .. اننى أتحدث فى موضوعية كاملة. ان الجندى الحسن هو الجندى الذى ينفذ الاوامر الى نهايتها . »

البطل الذى عليه أن يكون محاربا لأن العرف العام يقتضى أن يكون البطل محاربا .. وأن يطيع فيكون قاتلا اذا طلب منه ان يقتل وأن يذعن اذا قيل له استوطن الارض العربية .. فيصبح مستوطنا.. باختصار عليه أن يكون آلة بشرية تتحدد حركتها حسب الشحنة التى يبعثها فيها الزر المضغوط ، وهذا هو الامر الحيوى المطلوب من البطل الآلة دون أن يكون لايمانه بشعارات الوطن والارض التاريخية والاماكن المقدسة اى حساب من الاهمية فى الموقف طالما ان هـذا البطل ينصاع الى ما يصب فى أذنيه من أوامر وينفـذ ما يوجه اليه من تعليمات متوافقة مع التنشئة العدوانية التى يربى عليها من صغره (١) .

« ـ بالاضافة الى ذلك فان هناك جمـاهير من الرفاق متحمسين لهذه القضية .. قضية الوطن الكامل .. انك تعرف التاريخ والمشكلات .

ـ ليذهب هؤلاء الرفاق الى الجحيم .. يقال طيلة الوقت ان هناك جماهير منهم .. حتى اننى قرأت فى الصحف ان البـلاد مليئة بهم ، ولـكن أين هم بحق الشيطان ؟ من هم ؟ الا أعرف أنا عدداً كافيـا من

(١) يتفق ذلك مع ما تشير اليه الدراسة السيكلوجية التى قام بها قدرى حفنى لنمـوذج الكيبوتز باعتباره النموذج الذى تحـاول اسرائيل ان تركز عليه الضـوء باعتبار ان اساليب التربية المتبعة فى الكيبوتزات تخلق بالفعل إبطالا من هذا الطراز بالتحديد (راجع: قدرى حفنى ـ تجسيد الوهم ـ مركـز الدراسـات الفلسطينية والصهيونية ـ مؤسسة الاهرام ـ ١٩٧١) .

الرفاق ؟ اننى اعرف الملايين ومع ذلك فاننى مضطر لان أبحث بينهم على ضوء شمعة عن هؤلاءالمتحمسين. وعندما أعثر عليهم فاننى لا اجد رفاقا .. هيه . سأشرح لك .

انني أعرف جماهير من الرفاق يفعلون ما يقال لهم دون نقاش .. اذا قيل لهم حاربوا .. فسيحاربون ، واذا قيل لهم استوطنوا ، فسيستوطنون .. اذا قيل لهم اقتلوا ، فسيقتلون . ولكن أين هم من الحماس للأماكن المقدسة .

ومع ذلك فان مثال البطل الذى يصب فى هذا القالب الآلى الجامد لا ينجو من المعاناة .. فالبقية الباقية من بشريته تفرض عليه المعاناة نتيجة احساسه بالعجز الانسانى عن التفكير والحركة المؤمنة النابعة من داخله.

« اننى أعرف اننى أجلس الآن على القناة .. داخل موقع مسلح فى مرمى نيران العدو .. أعانى معاناة قاسية من المأساة القديمة .. مأساة الجندىالبسيط الذى لا يتخذ قرارا أو يعرف حتى تنتهى المهمة التى يؤديها ، أنه لايعرف ماأذا كان هناك مايبرر المهمة ام لا

هو لايمكنه ان يدرك ما اذا كانت المهمة ضرورية بوجه عام أم لا الا بعد بضع سنوات طيبة » .

ومع كل هـذا الاحساس لدى البطل المقولب بموقف الضآلة الانسانية الذى لا يتيح له قدرا من الايمان الذاتى الحر بالعمل الذى يقوم به ــ وهو ما ينفى لدى المناضلين المؤمنين بقضيتهم احساس العجز هذا حتى ولو غابت عنهم معرفة لحظة القرار بالفعل والحركة ــ فان عليه أن ينجى نفسه من الاحباط الانسانى المطلق تعللا بحصوله على الضرورات الميكانيكية الاساسية اللازمة لحياة الانسان .

« كلا ، ولماذا أشعر بالاحباط ؟ اننى ذكى جميل.. وانا اضاجع الحسناوات ، ان هذا السيجار لذيذ الطعم أليس كذلك ؟ » .

هكذا يكشف لنا ران أدليسط فى قصته القصيرة هذه عن نمط جديد من شخصية الشباب الاسرائيلى الذى اكتشفنا منه انماطا أخرى مختلفة عبر الاعمال السابقة وان كانت كلها تجتمع فى دائرة واحدة .. وهى دائرة الانسان المستخدم دون أن يدرى وتحت شعارات ديماجوجية مثيرة .. كأداة وآلة فى أيدى مستثمرين كبار ينتمون فى النهاية الى معسكر الامبريالية العالمية .

هذا عن القصة الاولى فى هذا الفصل .. اما القصة الثانية فعلى الرغم من التعبير الضبابى الغامض الذى يصوغ فيه كاتبها المحتوى الذى يريد أداءه .. فانها تكشف عن نوع آخر من القصص السياسى الاسرائيلى، وهو القصص التسجيلى لمواقف السياسة العامة خارجية وداخلية ، والتسجيل هنا منصب على اثبات مغزى التدخل السوفييتى الى جانب العرب وما يعنيه من تعريض الوجود الاسرائيلى للخطر ، ولعله مما قد يفيد القارىء العربى فى فهم القصة أن نشير الى انها قد نشرت فى نفس الوقت الذى كانت الصحف الاسرائيلية مكتظة فيه بمقالات التخوف والاستنكار لموقف السوفييت فى ادخال الصواريخ المتقدمة المضادة للطائرات الى ساحة القتال أثناء المحاولة العسكرية الاسرائيلية لتصفية جبهة القنال المصرية عام ١٩٧٠ .

أغنية الإوز

زان ادليسط (١)

لحظات الفسق ما بين غروب الشمس وبزوغ القمر وآخر الخيوط الشمسية تتكسر على ذرى التحصينات وزوايا المواقع على الجانب الغربى من القناة .

كان قرص القمر المنبلج من خلف سلسلة الربى الواطئة البعيدة يسكب نورا باهتا على فتحات الدشم وعلى عربة الطعام المشدودة الى عربة نصف جنزير فيكشف عن عدد هائل من الثقوب يرصع لوح العربة الجانبى
كان الموقع الليلى معدا على ما ينبغى ولم يكن هناك ما يجب عمله سوى ترتيب حائط الاكياس الرملية التى تبطن جدار الموقع على صورة ثابتة مستقرة .

يقال ان الاصابة المباشرة تمثل احتمال واحد فى المليون .. ومن المهم أن تكون القذائف نفسها على تسليم بهذا الاحتمال .

كان ايتسيك الجالس بالموقع مديد القامة مهندل الثياب والحركات .. ترتسم على وجهه تعبيرات الارهاق ، نظر فى ساعته ، بعد عشر دقائق ينضم اليه يوسى وهو الآخر مديد القامة وان كانت حركاته وملابسه تتسم بالدقة ، ومع أن وجهه كان يحمل نفس التعبيرات المرهقة الا انه كان يضم الى ذلك تعبيرا آخر .

اكتمل اليوم أسبوع على مكثهما معا كل ليلة فى هذا الموقع .

(١) على همشمار .. ١٩٧٠/٤/١٧

فى ليلتهما الاولى أصيبـا بصـدمة ، كانت كل قذيفة تسقط تفجر فى نفسيهما شعورا بأن نهايتهما قد حانت مع سقوطها ، الصفير والدوى وزلزلة جـدران الموقع وتراقص الخوذات .

بعد ذلك تعودا .. كانا يقذفان بنفسيهما على عجل من خلال الفتحة الضيقة .. ينكس كل منهما رأسه بقدر معين ويضغط بيديه على حافة الخوذة الحديدية. وخلال جزء الثانية الواقع ما بين الازيز الملهوف والسقطة المرعدة .. كان كل واحد يضغط جسده حتى اطراف أصابعه فى نقطة متناهية الضآلة حتى يبدو كراس دبوس لا جسم له ، وبعد ذلك كان كل شيء يسترخى من تلقاء نفسه فى بطء .

على هذا النحو من التصرف يتاح لهما أن يكونا رابطى الجأش أثناء القصفات ، جزء من الجسد يؤمل وينكمش وجزء يتطلع ويرسل التقارير .. بينما الصلة بين الجزئين معدومة تماما ونغمة الصوت الذى يحمل التقارير هادئة وأحيانا جزلة ، جزله حقا فى بعض الاحيان

وفى الصباح وعندما تتسع دائرة الضوء المغبش الى حد الرؤية الفعلية كانا ينزلان من الموقع وينشغلان باحصاء الحفر الصغيرة التى تخلفها القذائف من عيار ٨١ مم ويتفحصان فى خوف الفوهات الفائرة المتخلفة فى الارض عن القذائف من عيار ١٢١ مم ، ١٦٠ مم .

فى أحد الايام وجـدا فى قناة الاتصال المؤدية الى موقعهما انهيارا نتج عن قذيفة ، قالا : « ليست هذه قذيفة » .. « انها احتمال .. ومن سمع عن احتمال يقتل؟»

فى احدى المرات كان ايتسيك ينظر فى العتاد يتفحصه قطعة قطعة بيدين تتحركان فى تمرس ويقدر زاوية توجيه الرشاش .

واقبل عليه يوسي .
ــ أهناك جديد ؟
ــ ثلاثة أسابيع اخرى .
ــ حتى هذا يمثل خبرا جديدا .

ثم جلسا كل منهما يدخن سيجارا كبيرا فى صمت ، بين الفينة والاخرى كان أحدهما ينهض ليلقى نظرة فى المنطقة المحيطة .

ــ سمعت انكم قد هربتم اليوم من موقع المراقبة ، قال يوسى ..

ــ هربنا ؟ انه لتعبير مخفف .

ــ ماذا حدث ؟

ــ وجهوا المدافع المضادة للدبابات الى الموقع ، كنا نجلس محاولين تحديد الموقع الذى قصف الموقع ن. وفجأة سقطت قنبلة وامتلأ الموقع بدخان ملتهب ، جلسنا على الصندوق وكل منا ملتصق بالآخر محاولين أن نتمالك انفسنا وأن نفكر فيما يجرى ، انك تدرك بالطبع ماذا يكون الحال ، غريزة تستصرخ الانسان كى يهرب وأخرى تتساءل عما عسى أن يقوله الرفاق ، وعندما كدنا نصل الى قرار لحق بنا رفيق ثالث ، كان اطول قامة ، وأدركنا اننا على لوحة التوجيه فى مدافعهم اذن فقد اكتشفوا الموقع ، وتولانا الرعب فأطلقنا سيقاننا هاربين ، وكما سمعت فقد فررنا الى داخل الدشمة ، جلست هناك حوالى عشر دقائق حتى استطعت أن ألملم عظامى التى اختلفت مواضعها من الصدمة وبعد ذلك فقط ذهبنا لنبحث عن موقع بديل.

ــ لقد اطلت الحديث .. قال يوسى . والآن كيف سننظم أنفسنا الليلة ؟

ـ هل تعلم انني أتمنى احيانا أن يجيئوا ، ليس هذا عملا ان نستعد وننتظر كي نستعد وننتظر لنستعد ثم نعود فننتظر ، لقد سئمت ، أن يجيئوا ويهاجموا فهذا يعني اننا سنهاجم بالتالي ونضع لهذه العملية نهاية .

ـ أين انت من هذه النهاية ؟ ان النهاية بالنسبة لك ليست سوى ان تنفق هنا (١) واذا ما قتلت عشرة من العرب فان هذا سيكون النهاية بالنسبة لهم ، اما العملية نفسها فلن تكون لها نهاية ، انني أعتقد ان هذا لن يؤدي الا الى اطالة أمدها ، وانت تعلم على اى نحو سيكون الوضع حينذاك ، فأنت ستتباهى بالنجاح في ضربهم وستقول في فخر : هكذا ، انني مستعد طيلة الوقت

اما هم فسيعتريهم السخط على فشلهم وسيحاولون مرة أخرى .

ـ أو كي ليرسلوا آخرين وآخرين ، فسنضربهم جميعا .

ـ لم أكن أعلم انك سفاك دماء على هذا النحو .

ـ من سفاك الدماء ؟ انى أقول هذا لمجرد انهم يريدون قتلي .

ـ لكنك قلت انك تريدهم أن يجيئوا ، الم تقل ذلك ؟

ـ هيه ! ! اخذتني بكلمة ، دعنا اذن نجري مساجلة بالمنطق وعلم النفس لنرى أين نقف .. هيه ؟

ـ كي يتم هذا فلا بد أن نبدأ من المشكلة الصهيونية

ـ اي منطق هذا ؟ انني هنا المعرض للفناء وليست الصهيونية أو شعب اسرائيل .

ـ انك اذا لم (تمت) هنا .. فان شعب اسرائيل لن يعيش هناك .

---

(١) هكذا وردت بالنص العبري .

ـ هل تقول هذا لانك متأكد منه أم لانه حجة فى النقاش؟ « لهجة الصوت مكدودة وممطوطة .. تحمل نغمة عدم المبالاة بدرجة معينة » .

ـ « هيه » سترى انني لا أعرف بقدر كاف يمكننى من أن أتكلم بصورة يقينية .

ـ ومن الذى يعرف ؟

ـ ما هذا السؤال ؟ الجنرالات .. رؤساء الحكومات وزراء الدفاع والبقال الذى أتعامل معه يعرف هو أيضا .

ـ وما الذى يعرفونه أكثر منك ؟

ـ انهم يعرفون ماذا سيحدث اذا لم نقعد هنا ، هم يعرفون ماذا سيفعل الروس وما الذى سيفعله ناصر وماذا سيفعل الامريكيون ؟

ـ وهل يعرف كل منهم ماذا سيفعل صاحبه ؟

ـ دعك من السخرية والتهكم ؟

ـ ما شأن التهكم بما أقول ، قلنا ان هذه مساجلة وبناء على ذلك اسـألك .. من اين لك ان تعلم أنهم حقيقة يعرفون ؟

ـ قبل كل شيء أنا اقعد هنا .. ومن المؤكد انهم يعرفون ذلك .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .

ـ انني اقدر ان وجودى هنا يمثـل افضل خيـار ممكن ، أعنى أنهم يقدرون ذلك ، ذلك انك اذا أردت شيئا مثل السلام والامن فانه لابد لك من بذل كل انواع الاشياء : العمل ، المـال ، وكذلك الدماء .

ـ السلام قبـل كل شيء ، وكما يقولون جميعـا اليوم .. السلام والحدود الآمنة ، هل ستقول انك تريد أن تناقش ما المقصود بعبارة الحدود الآمنة ؟

ـ أنا كردى والسلام بالنسبة لى هو عدم اطلاق النار
ـ توقف عن اطلاق النار اذن .
ـ ومن اين لك انهم سيتوقفون بدورهم ؟
ـ ومن اين لك انهم لن يتوقفوا .. هل حاولت !

ـ كلا ، ولـكن فضـلا عن ذلك فان هناك الحدود الآمنة ، ولا تنسى ان الوقوف عنـد المطالبة بالحدود الآمنة يمثل ايضا انتقاصا من أرض اسرائيل .. اننى لست من المنادين بأرض اسرائيل الـكاملة ، لـكننى أعتقد ان الحصول على رقعة أرض تكفل الحدود الآمنة أمر لا يضر ، وبالاضافة الى ذلك فان هناك جماهير من الرفاق متحمسون لهذه القضية .. قضية الوطن الكامل .. انك تعرف التاريخ والمشكلات .

ـ ليذهب هؤلاء الرفاق الى الجحيم ، يقال طيلة الوقت ان هناك جماهير منهم .. حتى اننى قرأت فى الصحف ان البـلاد مليئة بهم ، ولـكن أين هم بحق الشيطان ؟ من هم ؟ الا أعرف أنا عددا كافيا من الرفاق؟ اننى أعرف الملايين ومع ذلك فاننى مضطر لان أبحث بينهم على ضوء شمعة عن هؤلاء المتحمسين ، وعنـدما أعثر عليهم فاننى لا أجد رفاقا ، هيـه .. هيـه .. سأشرح لك ، اننى أعرف جماهير من الرفاق يفعلون ما يقال لهم دون نقاش .. اذا قيـل لهم حاربوا .. فسيحاربون، واذا قيل لهم استوطنوا.. فسيستوطنون واذا قيل لهم اقتلوا ، فسيقتلون .. ولـكن أين هم من الحماس للأماكن المقدسة ؟ على اى حال فانه يبدو لى ان كل من يكتبون عن هذا لا يدركون انه يمكن يقينا القيام بكل هذه الاعمال دون ان تمس مدينة الخليل قلب أحد ، اننى أعرف بضعة أسباب أخرى للقيـام بالاعمال الوطنية .

ـ حسنا .. لنترك السياسة اذن ولنهتم بأنفسنا ، ما الذى تفعله هنا ؟

ـ أى سؤال هذا ؟ لقد استدعونى الى الاحتياط فجئت

ـ ولو لم يدعوك .. فهل كنت ستأتى ؟

ـ كلا ، ولكننى لم اشأ أن أتهرب ، لقد كان بمكننى قطعا أن اعفى نفسى بسهولة وكذلك أنت .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .

ـ اذن ما الذى تبغى الوصول اليه بهذا الاستقصاء ؟

ـ اننى لا أستقصى .. اننا نجرى مرانا فى المنطق وعلم النفس .. أليس كذلك ؟

ـ آهاه .. يهمنى لو انك اجريت هذا المران فجأة فى تل أبيب كذلك .. ألست متأكدا من أن الظروف هنا تؤثر بعض الشىء ؟ ..

ـ ربما ..

ـ ماذا تعنى ربما ؟ نعم أم لا ؟

ـ ربما .

ـ حسنا .. اذن فقد بات من الواضح لنا انه لايمكن استخلاص نتائج من مساجلة نجريها تحت ضغط ظروف معينة ، لنرجىء استخلاص النتائج الى نهاية المناقشة ولنجر النقاش فى تل أبيب بأحد المقاهى .. هيه ؟

ـ هيه ..

ـ لا تكن تهكميا على هذا النحو ، لقد اعترفت بنفسك انه كان يمكنك أن تعفى نفسك ، لقد جئت بسبب ما يسمى « بالوعى الداخلى » .

ـ اننى لا أعرف الكثير عن الوعى الداخلى ، ولكن هناك امرا واحدا أستطيع أن أتحدث عنه بثقة كاملة

على انه وعى داخلى كامل يقع فى دائرة الشعور ودائرة اللاشعور ، اننى لا اعرف كيف ستسميه .. وهو يتحدد فيما يلى :

أن انفق .. فهذا أمر لا اريده ، واذا حاولت ان اربط بينه وبين واجبى فى سبيل الوطن .. فان المحاولة تصبح بالنسبة لى أمرا فظيعا معقدا ، لو قلت لى الآن بكل الجدية : ان واجبك الوطنى يتطلب منك الصعود فوق سطح الموقع لتفعل كذا وكيت ثم تتلقى رصاصة

فى راسك فاننى لا اعرف ما اذا كنت ساصعد أم لا ، اننى أدرك ان هذه مسألة افتراضية وان هناك تاكيدا دائما على عدم التعرض لمثل هذه المخاطرة الفجة .

لكنك اذا قلت لى اننى سأصبح مشوها فاننى اعتقد اننى لن اكون مستعدا لذلك .

ــ انت تتحدث بهذه الصورة ؟ لقد كنت طيلة معرفتى بك تجرى الى اى مكان تفوح منه رائحة الخطر ، لقد ذهبت لتخدم فى اشد وحدات الجيش خطورة اليس هذا نصف تشوه ؟

ــ كلا .. ليس هناك نصف تشوه ، هناك تشوه وما يتبقى عند ذلك ليس سوى الروح .

ــ حسنا .. لقد شاركت منذ فترة قصيرة فى بضع عمليات هائلة الخطر ، وان مجرد تفكيرى فى انه كان ينبغى على أن أكون هناك معك يبعث القشعريرة فى جسدى ، فلماذا تقفز فجأة الى موضوع التضحية من أجل الوطن ؟

ــ مهلا .. فهذا ما أريد أن أشرحه لك .. اسمع :

ان مقعدتى كما تعلم مكونة من قسمين .. فى احدهما فلفل أحمر وفى الثانى فلفل اخضر ، وكلاهما

حريف ، وعلى هذا فان تحركي فى أى اتجاه انما يكون بسبب مقعدتي .. لانني أريد ان أثبت لنفسي — وهذا لانني نشأت فى الكبوتس حيث الكل هناك محاربون والعرف العام يقتضي هذا — ما اذا كنت انا الآخر مفيدا للوطن أم لا

ان هذا اعتبار له قيمته ولكنه ليس الاعتبار الوحيد وربما ليس الاعتبار الاول .

ان كل ما ينبغى عليك عمله الآن هو ان تصورني وعندئذ سترى المثال ، حقيقة انه مثال غير واع ، ولكنه المثال .

— وهذا بالضبط ما نحن فى حاجة اليه الآن .. امثلة غير واعية .

— دعك من السخرية .

— اية سخرية ؟ انني أتحدث فى موضوعية كاملة ، ان الجندي الحسن هو الجندي الذي ينفذ الاوامر الى نهايتها وكذلك هو الجندي الذى لا يكره العدو .. أم انك ترى غير ذلك ؟

— لا تكن جائرا ، انني لا اكرههم لانه لا صلة لى بهم .. انني أريد منهم أشياء واضحة ، ولقد حصلت على بعض من هذه الاشياء ، واذا واظبت على هذا الموقف فانني سأحصل على الباقى فلماذا اكره اذن ؟ فضلا عن ذلك فان الكراهية تعكر هدوء النفس فلماذا اشعر بالكراهية ؟ انني اريد ان اظل صحيحا .

— قل لى الآن من هو الجائر ؟ انك تريد ان تضرب وان تظل هادىء النفس فما الذى سيقوله من تلقى الضربة ؟ هل سيتلقى الضرب فى هدوء ؟

— سيتعلم درسا .

ـ اذن فما جئنـــا نفعله هنـــا هو أن نعلم العـــرب دروسا !! ما هذا .. هل انا رجل تربية وتعليم ؟

ـ وماذا عن اننا اذا لم نكن هنا فان شعب اسرائيل لن يكون هناك ؟

ـ اننى لا أعرف ، واما انني محق فى عدم معرفتى وأما ان هذا ليس فى منتهى الاهمية بالنسبة للاحساس العام

ـ اذن فهذا احساســك .. هيه ؟ .. لو شــنوا ضدك حرب استنزاف لبضع سنوات وفقدت ملابسك الداخلية بالفعل فهل ستكون رجلا ؟

ـ لا تطمس الاشياء .. الا تفكر فى أنه توجد خارج مسألة رجولتى بضع موضوعات أخرى للنقـــاش ؟ ان الذى يواجهنـــا ينبغى عليه أن يحارب لان كرامته قد انتهكت ، وعلى انا أن اصمد لاثبت اننى رجل ، ما هذا هل نحن فى حضانة اطفال هنا ؟

ـ تماما ولـكن بدون حاضنة .

ـ اننى موقن من ان القضية أعمق من كل الشطحات التى قمنا بها هنا . ان هنـــاك شـيئا ما .. منظورا تاريخيا أو شيئا آخر مشـــابها .. وببســـاطة فنحن لا نقدر على فهمه وادراكه ، من المحقق أن هناك جوهرا قوميا بينما نعجز نحن عن الاحساس به باعتبارنا أولادا صغارا ساذجين .. ان هذا ما يحدث عندما ..

ـ مهلا ، مهلا .. ان نقيقنا الساذج يتناسب تماما مع بعض الاعمال المعتوهة التى نراها حولنـــا ، اننى لا اعانى اى نقص فى الاحساس بمدركات الجوهر القومي او ليس جلدى جزءا من الجوهر القـــومي ؟.. واذا لم يكن ، فما الذى يعد جزءا من الجوهر القـــومى اذن ؟ هل هوالاحساس الدينى الخاص لدى الحاخام ملوففيص.

لماذا لا تعتقد ان ما نستشعره ونفكر فيه ونعمله هنا هو القمة .. هو المدى الصحيح بينما ما عداه مجرد سفسطات وتحسبات ؟

ـ قل لى .. هل أنت من متسبين ؟ (١)

ـ دعنا من هؤلاء المعتوهين .. انهم يثيرون سخطى ليس بما يقولون بل لانهم واثقون من أنهم على حق .

ـ وماذا يقول أخوك ؟

ـ دعنا منه فهو من الجيش العامل ، والجيش المنتصر لا يتخلى عن الارض.. فهذه مسألة استراتيجية فضلا عن ذلك فانه لابد وأن يكون عدوانيا بسبب وظيفته ولكننى أعرفه .. انه على ما يرام .. انه فى جانبنا .

ـ حسنا ، لقد شطحنا وشطحنا فالى أين وصلنا ؟

ـ لقد قلنا فى البداية اننا لا نريد نتائج .. أليس كذلك ؟

ـ حسنا لنعرف على الاقل أين نقف .

ـ الا تعرف ؟

ـ اننى أعرف اننى أجلس الآن على القناة .. داخل موقع مسلح فى مرمى نيران العدو.. أعانى معاناة قاسية من المأساة القديمة .. مأساة الجندى البسيط الذى لايتخذ قرارا أو يعرف حتى تنتهى المهمة التى يؤديها ، انه لا يعرف ما اذا كان هناك ما يبرر المهمة أم لا ، هو لايمكنه أن يدرك ما اذا كانت المهمة ضرورية بوجه عام أم لا الا بعد بضع سنوات طيبة .

---

(١) جماعة اليسار الجديد فى اسرائيل الداعية للتفاهم مع العرب ورفض الصيغة الصهيونية للدولة الاسرائيلية .

ـ حسنا ، الاساس الآن هو ان الهدف العام على ما يرام .

ـ هل تشعر بالاحباط الى هذه الدرجة ؟

ـ ستدهش لجوابى ولكننى لا أشعر بالاحباط بوجه عام .

ـ هل تشعر بالامان ؟

ـ كلا ، ولماذا أشعر بالاحباط ؟ اننى ذكى .. جميل .. وانا اضاجع الحسناوات ، ان هذا السيجار لذيذ الطعم ، اليس كذلك ؟

هل ستسقط قنبلة ؟ لقد سمعت ان الموقع البديل على طريق الامدادات يمثل انتحارا حقيقيا .

ـ ماذا اذن ؟ هل سنظل هكذا للأبد ؟

ـ هل جننت ؟

ـ هل ننسحب ؟

ـ هل جننت ؟

ـ حرب جديدة اذن ؟

ـ هل الموقف مجرد من الامل الى هذا الحد ؟

ـ هل تعرف ماذا تريد ؟

ـ كلا .. وانت ؟

ـ كلا ..

ـ وا حسرتاه على الاوز اذن .. هيا بنا نفتش على الموقع الثانوى ..

ـ بوم ! !

الدب . .

أورى بن أرياه (١)

صرخ رجل مستنجدا بأعلى الشارع ، كان صوته عاليا هستيريا يكاد يتسم بالوقاحة ، كانت ابنتى التى تبلغ من العمر خمس سنوات تلعب هناك الى جوار شجرة عالية مشروخة .

كنت أقف على مدخل مقهى متواضع بأسفل الشارع، وصل الى سمعى الآن صوت الرجل وهو يصرخ .. الدب ! الدب !

هرول بعض الاشخاص الى الشارع ، راحوا ينظرون هنا وهناك ثم رفعوا عيونهم الى السماء ، كانوا يبحثون عن طائرات ، لم تكن فى السماء اية جلبة غير عادية ، توقف أوتوبيس فى المحطة ، كان خاليا من الركاب وبداخله كمسارى يبدو عليه السأم .

لم ير الكمسارى شيئا .

كانت ابنتى تلعب هناك .. بأعلى .. مع صاحباتها ، بريئة فى الخامسة من عمرها ، فى مقدورها أن تجرى الى الدب وتداعب يديه ، هكذا تعلمت من قصص الاطفال ، لابد من انقاذها .

(١) ها آرتس .. ١٩٧٠/٦/٩

- هناك بأعلى تلهو جماعة من الطفلات البريئات ، صرخ الرجل : الدب .. الدب !

هل هو دب طيب ؟ كيف يمكن أن تصل الدببة الى هنا ؟ هل يسقطها العدو من الطائرات ؟ هل هو طابور خامس خرج من داخل المغارات المظلمة ؟

انظروا كم نحن أذكياء ، اننا نقف هناك على القنـاة وسلاحنا مجهز وآذاننا صاغية .. بينما هم يهاجموننا هنا من الخلف فى مكان لا نتوقع فيه الهجوم .
ان الحرب خدعة ، هذه هى القاعدة ، ابنتى بريئة ، فى الخامسة من عمرها ، تلهو فى سعادة مع صاحباتها بأعلى الشارع ، وهناك دب .
لابد من انقاذ ما يمكن انقاذه ، وبسرعة .
كيف يأتى دب الى أعلى الشارع ؟ من الذى ارسـله الى هناك ؟ ماذا يعمل ؟ ..

بدأت عملية هروب جماعية .. أغلقت الشبابيك وراح الناس يعبئون الحقائب ويحملونها على ظهور السيارات فلقد يأتى الدب فى اى لحظة ، لا بد من الاسراع .

خلا المقهى على عجل وتفرق الناس فى كل اتجاه ، أنزلت احدى الجارات تقطن فى الطابق الثالث زجاجة من اللبن وطبقا من العظام اليابسـة كيما يأكل الدب ويشبع فيعود من حيث أتى ، انه جائع ، والجوع يثير القلاقل ، يبعث الافكار السوداء ويؤجج الثورة فى الامعاء يلحق المرض والالم الابديين بالجائع ، لا بد من تقـديم اللبن للدب .

الآن شاهدت الدب بأعلى الشارع ، انه يبدو عصبيا .. متعبا واثقا بنفسـه ، أصيب الناس بالذعر ولم تظهر الشرطة بعد ، انقطعت خطوط التليفون ، هذا الوضع

هو ما يريده الدب ، هو دب رمادى بارد الطبع ، عصبى الى حد ما ، ولكن هل هذا كل شيء ؟ من اين ظهر ؟ من البلدان الباردة ، كيف يمكنه آن يتكيف مع طقسنا ؟ انه يرتعش ، متعب ، عصبى ، أهو رب أسرة ؟ جريت

بسرعة لانقذ ابنتى ، كان على أن أجرى مسافة غير قصيرة ، ينبغى أن أحاذر من فقد قواى ، يجب أن أخطط ، ان عدم التنظيم هو ما يضعفنا .

وضع صاحب المقهى على المنصة بضعة أنواع من الحلوى وبعض البسكويت الرقيق والطويل وكذا زجاجتين من الويسكى الفاخر كيما يشرب الدب ، كنت أقف هناك مغيظا ، لكن المقهى ليس ملكا لى ، ان الناس يعتقدون أنهم يهزمون أكبر الاعداء فى العالم .. الجوع .. ولكن للدب غرائز أخرى .

انه حساس تجاه بنى البشر .. يكرههم ، صحيح انه ظمآن ، لكنه يريد أن يشرب دما ، أن من لايفهم معنى هذا لا يفهم ما هو الدب ، وليس هذا فحسب ، بل انه لا يفهم معنى أن يحاول رجل انقاذ طفلته ابنة الخامسة بأعلى الشارع .

— لن يضطر الى كسر بابى وتحطيم المنصة ، قال لى صاحب المقهى . سيكون الامر بسيطا تماما ، سيأخذ زجاجة أو اثنتين وبعض البسكويت ، سيلتهمهما كالدب ثم يغرق فى النعاس سيعب الهواء ثم يهدأ ، المهم الا يكون عنيفا وفى اللحظة التى يصبح فيها عنيفا فانه يحطم

كل شيء ، ان المقهى يقدر بمائتى ألف دولار ، فما بالك اذا قيم بالروبل ؟ رفع الدب ذراعيه الى أعلى ليحطم سورا من المدرجات يعترض طريقه ، رأته ابنتى من على بعد فراحت تصفق ، هل هذا دب قرقاس ؟

كيف وصل الى هنا ؟ من اين ظهر ؟

نبحت تجاهه بعض الكلاب فنظر اليها فى هزء ، ان كلبا ينبح لايمكن أن يضايق دبا ، تقدم الدب على متحدر الشارع ، انه يبحث عن مقهى ، كان قلقا وعيناه معشيتين من الضوء المنعكس من على شيش البلاستيك ، الى جانب صناديق الزبالة كان أصحاب البيوت قد وضعوا أطعمة وأوان بها ماء من أجل الدب .

حطم الدب كل شيء ، دب شبع اخطر من الف عالم جائع ، هل احدا يذهب ليهدىء الدب ؟ هل احدا يذهب ليبحث له عن الدبة ؟ الا يوجد هنا حتى مروض وحوش أو ما يشبه هذا فيستطيع أن يلوح بسوط دون أن يكون مرتديا بنطلونا ؟ انه حتى لا يوجد أحد يرتدى بنطلونا ، كلهن فى فساتين خفيفة هفهافة ، جديرات بأن يرقن فى عينيه ، دب .. هو دب لكنه ذكر ذو عينين .

ما الذى يبحث عنه الدب ؟

اتجه الى المقهى وحمل زجاجة من الويسكى بين يديه ، كانت النساء تنظر اليه من أسفل الشارع فى رهبة واحترام ، أدار الرجال محركات السيارات وهربوا ، لم يبق أحد فى الشارع ، أين الشرطة ؟ دائما عندما تحتاج لاحد تجده هو الآخر محتاجا الى أحد ، لايمكنك ان تلتقى بأحد لا يحتاج شيئا ، انك دائما اما مساعد احدا أو مساعد من احد ، لا يمكن لكَ ان تنعزل .

والآن أيها الدب .. لابد من عملْ شيء قبل ان تقع كارثة فظيعة ومرعبة .

على حين فجأة توقفت سيارة صغيرة وخرج السيك

دافير من داخلها ، استعرض الدب فى لا مبالاة دون أن يبدو عليه أنه قد تأثر لمرآه .

والسيد دافير عالم ذائع الصيت ، انه يستعد لتقديم رسالته للدكتوراه بالجامعة ، هو فى حوالى الثامنة والعشرين وله زوجة وولدان .

خرجت زوجته من السيارة وجعلت تساعد طفليها على الخروج ، استعرض السيد دافير الدب وكما قلنا فانه لم ينفعل لا بالسخط ولا بالرضا .

ان انسانا يحصل على كل ما يريد فى سن الثامنة والعشرين لايمكن أن يتأثر بسهولة ، ساعد زوجته وهى تخرج من العربة وحمل عنها السلال ، لقد عاد هو والعائلة من نزهة مجنونة على شاطىء البحر ، نظروا جميعا الى الدب وكأن الامواج قد حملته وأتت به الى

هنا ، شيء عادى ، مسألة ذات وزن طبيعى ، خلع السيد دافير هوائى الراديو وألقاه داخل السيارة ، انه يفعل هذا دائما ، فالاولاد يخربون كل شيء ، يخلعون هوائيات السيارات وأغطية الكشافات ، انهم يفعلون هذا بدافع من الطيش وحده ، وهو أمر على نفس درجة السوء التى ينطوى عليها الدب .

اصعدوا الى أعلى ، سأتحدث معه ، قال السيد دافير لزوجته ، غير أن زوجته فضلت أن تراقب الدب امرأة لطيفة ، امرأة لطيفة تشعر بالخطر ، مدام دافير امرأة دقيقة الحجم .. معتدلة القامة .. شهية تنض

بالحنان ، راحت تنظر الى الدب بعينين واسعتين عسليتين ، ان الدب يحب العيون العسلية ، انه يحب النساء . ماذا ستقول له ؟ سألت مدام دافير زوجها ، أى انها تريد أن تعرف بماذا سيجيب الدب على زوجها .

سأحاول تهدئته ، ان هــذا شارع هادىء .. وهو يخل بحركة المرور ، انه يقف وسط الطريق مزمجرا ، يحك جسده .. انظرى كيف يحك جسده ، انه مصاب بالهوس .

أسرعوا الى البيت يا أولاد ! قالت مدام دافير دون أن تتحرك من مكانها ، نظر اليها الدب فى استطلاع ، خطا السيد دافير تجاه الدب وخطا الدب تجاهه ، بعد قليل ستقع الـكارثة المحققة .
ماذا سيقول للدب ؟

ـ اسمع ! عليك بالهدوء ، ان هــذا شارع هادىء متعقل ، عد من حيث جئت ، خــذ قطعــة من الخبز وزجاجة من اللبن اذا كنت جائعا . ليس لك ما تبحث عنه هنا .

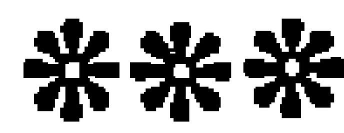
ـ حقا ؟ اجاب الدب مزمجرا .. حاحيه .. حيه ، ان لديك امرأة شهية ، اننى أتشهى اللهو بفخذ رجل ومداعبة ساقى صبية ، اننى واثق من أن لها ســاقين مديدتين ولطيفتين .

لم يتراجع السـيد دافير ، تراجعت زوجتــه وقد اكتسى وجهها بالزرقة وهى تتلفت حولها ، سمع بعض الاشخاص ما قاله الدب وسيشهدون فى صالحها عندما يحين الوقت لذلك ، ماذا سيفعل الدب بها ؟ انه غير انسانى .

لو احتضنها لحطم عظامها ، ولو قبلها لبعثر أسنانها ولو . . . ان دبا بهذه المقــاييس يمكنه أن يشرخها وكأنه رمح ، ان هذا غير انسانى ، أنه لشىء فظيع ، ستموت المرأة ، سيشرخ رحمها ، سيمزق أمعاءها .. رباه .. سيكون الامر غير انسانى لو فعل بها شيئا من

هذا النوع ، خاصة بهذه المرأة .. فهي مرأة محترمة طاهرة وطيبة ، امرأة رائعة هادئة وذكية ، أمرأة رقيقة ماذا سيفعل فيها .. وكيف ؟

جذب الدب ذراع السيد دافير وفصلها عن جسده ، القى اليد الى بعيد ثم هوى بلطمة على وجه السيد دافير انهار السيد دافير على الارض ولم يعد له وجود ، نظرت زوجته الى الدب وكأن السيد دافير لم يكن له وجود قط .



يارب السماوات ، ان هـذا غير انسانى ، ان لدى طفـلة فى الخامسة وسترى ماذا يفعل الدب فى امرأة طيبة ، ان هـذا غير انسانى ، انه دب متوحش ذو مقاييس هائلة ، لقد قرأت فى دائرة المعارف فى احدى المرات عن مقاييس الدب ، ان هذا موت محقق للمرأة فلينصرها الله .

فى خطوتين بسيطتين أمسك الدب بها وجذبها الى ما بين ذراعيه وبحركة من يده مزق ما على جسدها من ملابس ، بديع ! أعنى فظيع ، امرأة بيضاء عارية كما ولدت بين ذراعى دب شيطانى غير انسانى ، انه سيفعل فيها الآن فعلا فظيعا ، سيقتلها ، انظروا ، يارب الارباب

ترك الدب المرأة .. فسقطت على أسفلت الشارع مغشيا عليها وساقاها مفروجتان على اتساعهما ، هذا كل شىء ، هل هى ميتة ؟ بدأ أن الدب يشعر بالرضا ، لقد كانت هذه امرأة عالم طيبة ، غاية فى الطيبة ، عب الدب من زجاجـة الويسكى فى جوفه وبدأ يخطو على منحدر الشارع ، لقد أقسم شخص انه سمعه يقول :

الآن انزل الى السفينة وأعود الى سيبيريا ، ان بعض

البرد لن يضيرني بعد هذا الحمام ؛ من يستطيع العيش في مثل هذا الطقس الجنوني ؟ أنثى « مش بطالة » ، ميتة ، مثقوبة كالغربال ٠٠ عندما أوجه نظراتي الى امرأة يقضي عليها بالموت ، موت ناعم الى الشـيطان ، من لا يريد أن يموت هكذا ؟ الله يسـاعدني .. لا ضرورة للاستحمام ، ليست هناك قطرة دم ، ماذا ؟ هذه المرة لم أستحم في الدماء ؟ ولـكن كيف ؟

***

وهكذا لم تمت مدام دافير ، نهضت من مكانها ، كان وجهها مكتسيا بالزرقة وهي تعرج في مشيتها ، أخذت ولديها واتجهت الى مدخل البيت .

رباه .. ان هذا غير انساني .. هذا غير انساني ، كيف هذا ؟

كانت طفلتي ابنة الخامسة واقفة ورات كل شيء ، الآن تشوهت أفكارها عن الحياة ، لقد فقدت كل قدرة على تقدير معايير الاشياء ، ان هذا غير انساني .

فهرس

كتاب الهلال

العدد القادم - ٥ يوليه

ساعات مع الأحرار

الكواكبي - محمد عبده - عمر المختار - جان دارك
ديفاليرا - كنياتا - لنكولن - روسو

أروع ما كتب فقيد الصحافة **أحمد قاسم جودة**

كتاب الهلال خير ما يزين مكتبتك - الثمن ١٠ قروش

روايات الهلال

العدد القادم - ١٥ يونية

أطرف ما كتب القلم الرشيق

محمد التابعي

حكايات من الشرق والغرب

روايات الهلال : تحمل إليك الثقافة والمتعة - الثمن ١٠ قروش

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.





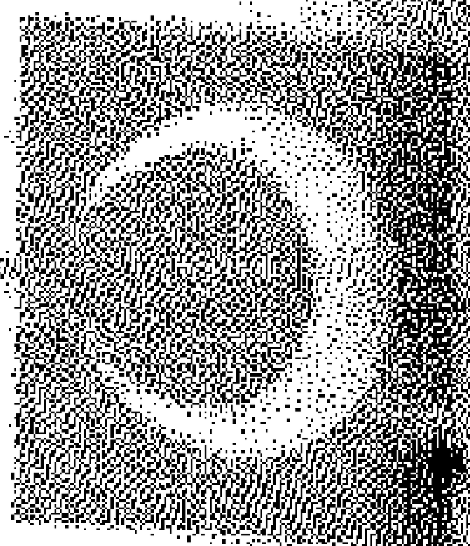
هذا الكتاب

اكتشفت الامة العربية بعد عدوان يونيو سنة ١٩٦٧ ان العدو الصهيوني يعرف عنها كل شيء في مختلف المجالات والميادين ، وانها من الجانب الآخر لا تعرف شيئا واضحا عن هذا العدو • لقد كان العرب يظنون لفترة طويلة انهم يستطيعون هزيمة عدوهم بالتجاهل والاهمال ، وفي نفس الوقت كان العدو يدرس كل شيء عنا ، لأنه يعرف ان هزيمة العرب لن تتم الا بدراستهم ومعرفتهم وكشف نقط الضعف فيهم ونقط القوة • وقد قامت الجامعة العبرية في اسرائيل بترجمة كثير من نماذج الادب العربي القديم والمعاصر ، كما نشرت - بالعبرية - ترجمة لتاريخ الجبرتي ، واهتمت هذه الجامعة نفسها بدراسة التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي للعرب •

وقد تنبهنا اخيرا لهذه القضية ، واصبح العقل العربي بعد ١٩٦٧ متلهفا لمعرفة عدوه • لأن هذه المعرفة هي الطريق الى هزيمته والانتصار عليه ، ولذلك صدرت كتب عديدة عن المجتمع والانسان في اسرائيل • ولكن المكتبة العربية ماتزال خالية من النماذج والدراسات الكافية عن الأدب الاسرائيلي • وهذا الكتاب الجديد الذي تقدمه سلسلة « كتاب الهلال » هو محاولة في هذا الميدان ، فهو يتضمن دراسة للادب الاسرائيلي المعاصر ، كما يتضمن نماذج من الشعر الاسرائيلي والقصة الاسرائيلية ومن خلال هذه النماذج نستطيع ان نفهم الكثير من الواقع الاسرائيلي والنفسية الاسرائيلية ، فالادب دائما هو مفتاح لمعرفة الشعوب وهو تسجيل لواقعها وكشف حقيقي لما فيها من جوانب القوة والضعف • اما مؤلف الكتاب فهو احد الأساتذة والباحثين الشبان المتخصصين في قسم اللغات الشرقية بجامعة عين شمس •

١٠ قروش

كتاب الهلال



ساعات مع الأحرار

أحمد قاسم جودة

٥٠٨

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : **يوسف السباعي**

رئيس التحرير : **صالح جودت**

المشرف الفني : **جمال قطب**

سكرتير التحرير : **عايدة عياد**

العدد ٢٥٨ - جمادى الاولى ١٣٩٢ يوليه ١٩٧٢

No. 258 — Juillet 1972

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادي البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ - فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية او ٢ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية - والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على [illegible]

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة
الفنان جمال قطب

أحمد قاسم جودة

ساعات مع الأحرار

دار الهلال

محمد عبده



أردت أن أقضى معه ساعات معدودة ، فاذا بصحبتي له تمتد أياما متعاقبة قرأت خلالهـا من آثار قلمه ، ومن آيات عظمته وصدق وطنيته ما كاد يعدل بى عن الـكتابة عنه فى هذه السلسلة من الاحاديث عن مشاهير الاحرار .. فان تاريخ حياته ليزخر بالاحداث الجسام ، ويحشد بألوان الجهاد الشاق ، ويفيض بمختلف نواحي النشاط ، الى الحد الذى خشيت معه أن أظلم هـذا البطل الحر المجاهد الخالد ، باقتضاب سيرته وأعماله فى نطاق الحيز المقدر لهذه الفصول .

ولـكنى خشيت أن أظلم الرجل مرتين اذا عدلت عن هذا الحديث : مرة باغفال اسمه من عداد الاحرار الذين تشملهم هذه الفصول ، ومرة اخرى بتعمد هذا الاغفال فى الظروف الحاضرة بوجه خاص ، وهى الظروف التى حققت لشعب مصر أكثر من امنية طالمـا طافت برأس المصلح العظيم محمـد عبده ، وفى مقـدمتها تصحيح تاريخ محمد على وأسرته ، وتخليص مصر من ويلات طغيانهم القديم والحديث . وسـيرى القراء هنا كيف بلغت شجاعة الشيخ محمد عبده حد التنديد بتـاريخ محمد على ، وانكار فضله المزعوم على هذه البلاد . ولم يكن ذلك سوى قطرة من خضم كتابات الاستاذ الامام أو اصلاحاته وأحاديثه وسائر أعماله ونواحى نشاطه .

ولد « محمد عبده » فى أواخر سنة ١٨٤٩ ، بقرية « محلة نصر » بمركز شبراخيت ، من اب متوسط الحال ، يدعى « عبده خير الله » ، كان يقرى الضيف ويؤوى الغريب ويفخر باكرام النزيل ، وأم كانت منزلتها بين نساء القرية لا تقل عن مكانة والده ، وكانت ترحم المساكين وتعطف على الضعفاء ...

وقد بدأ فتعلم القراءة والكتابة فى منزل والده ثم انتقل الى دار حافظ قرآن قرأ عليه وحده جميع القرآن أول مرة ، ثم أعاد القراءة حتى حفظه جميعه بعد سنتين ، وارسله أبوه بعد ذلك الى الجامع الاحمدى بطنطا فانتابته صدمة نفسية قاسية ، اذ فوجىء باصطلاحات نحوية أو فقهية لم يفهم منها شيئا ، ولم يلبث أن هرب من الدرس وعبثا حاول أخوه اعادته للجامع الاحمدى اذ قال له :

ــ لقد أيقنت أن لا نجاح لى فى طلب العلم ، ولم يبق على الا أن أعود الى بلدى واشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من اقاربى ..

وقد كتب الشيخ محمد عبده يقول عن هذا الحادث :

« فهذا أول أثر وجدته فى نفسى من طريقة التعليم »
« فى طنطا وهى بعينها طريقته فى الازهر ، وهو الاثر »
« الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لا يساعدهم »
« القدر بصحبة من لا يلتزمون هذا السبيل فى التعليم »
« سبيل القاء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أن »
« يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم .. غير أن »
« الاغلب من الطلبة الذين لا يفهمون ، تغشهم »
« انفسهم فيظنون انهم فهموا شيئا فيستمرون على »
« الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال وهم فى احلام »
« الاطفال ثم يبتلى بهم الناس ، وتصاب بهم العامة »

« فتعظم بهم الرزية لانهم يزيدون الجاهل جهالة ، »
« ويضللون من توجد عنـده داعية الاسترشـاد ، »
« ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ؛ »
« ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه .. »

وبعد أن أقام الشيخ محمـد عبده فى القرية بضعة اسابيع ارغمه ابوه على أن يعود الى الجامع الاحمدى ، وأرسله على فرس مع أحد اقاربه الاشداء ليرافقه الى محطة ايتاى البارود حيث يركب القطار الى طنطا ، ولـكن الحر كان لافحا فى ذلك اليوم فأصر الفتى على أن يعرج فى الطريق على قرية بها بعض أقارب والدته وهى قرية « كنيسة أورين » وهناك بقى خمسة عشر يوما « تحولت فيها حالتى وبدلت فيها رغبة غير رغبتى » على حد تعبيره .

ذلك انه التقى هناك بخال له يدعى الشيخ درويش خضر ، وهو رجل متصوف واسع الافق استطاع من اللحظة الاولى أن يمحو من ذهن الفتى النافر من العلم أثر الصدمة الاولى ، وأن يدخل فى روعه الفهم الصحيح للاسلام وأساليب التعليم الاسلامى المثمر ، ففى اليوم السابع سأل الشيخ :

ــ ما هى طريقتكم ؟

فأجابه :

ــ طريقتنا الاسلام ..

فقال :

ــ أو ليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟ ..

قال :

ــ لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الامر ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب ، وبغير سبب ..

ويصف الشيخ محمد عبده وقع هذه المناقشة البسيطة قائلا :

« هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندى من المتاع القديم ـ متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأنا مسلمون ناجحون وان كنا فى غمرة ساهين .. »

« ولم تمض على بضعة أيام الا وقد رايتنى اطير بنفسى فى عالم آخر غير الذى كنت أعهد .. ولم يبق لى الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة ، كامل ادب النفس ، ولم أجد اماما يرشدنى الى ما وجهت اليه نفسى الا ذلك الشيخ الذى آخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد الى اطلاق التوحيد .. »

وذهب الفتى الى طنطا بعد الايام الحاسمة فى توجيه حياته ، ولكنه لم يلبث أن أحس الهاما يسوقه الى طلب العلم فى مصر ، فالتحق بالجامع الازهر ، وكان اذا عاد فى آخر السنة الدراسية الى « محلة نصر » أقام بها شهرين ، وهناك يكون قد سبقه الشيخ درويش فما يزال يراجع الدروس ويستزيده من العلم حتى يغرى الفتى بدراسة المنطق والحساب والهندسة فى غير الازهر ..

ولم يكد محمد عبده يتم عامه العشرين حتى سمع بمقدم المصلح الثائر الداعية العظيم السيد جمال الدين الافغانى ، وكان ذلك سنة ١٨٦٩ فذهب لزيارته مع أستاذه فى المنطق الشيخ حسن الطويل ، واستمع الى أحاديثه الخلابة فى التصوف والتفسير ، وكانت هذه الزيارة بداية أخطر مرحلة فى تاريخ محمد عبده ، اذ أصبح يلازم السيد الافغانى ملازمة الظل ، ويقبل على

دروسه فى الفلسفة والاخلاق والسياسة والرياضيات فى شغف بالغ وقد انعكس هذا كله فى صورة مقالات راح محمد عبده يكتبها فى بعض الصحف داعيا الى الاصلاح وتحرير الافكار من التقاليد البالية التى كانت مسيطرة على العقلية الازهرية اذ ذاك . ولم يكن غريبا ازاء هذه النزعة المتحررة ، أن يجر محمد عبده على نفسه نقمة المتزمتين ، والا يظفر بشهادة العالمية سنة ١٨٧٧ ، الا بعد ارهاق شديد من غالبية الممتحنين ، والا تمنح له الا من « الدرجة الثانية » .. ولم يقدر لهذا الاجحاف العلمى أن يصحح الا فى سنة ١٩٠٤ ، اى قبل موت الامام بعام واحد، اذ أرسلت اليه مشيخة الازهر قرارا من مجلس ادارته يتضمن نقله الى الدرجة الاولى ..

واشتغل الشيخ محمد عبده عقب حصوله على العالمية بالتدريس فى الازهر ثم الحق بمدرسة دار العلوم سنة ١٨٧٨ مدرسا للتاريخ حيث شرع يلقى محاضرات على طلبته فى مقدمة « ابن خلدون » لاول مرة فى مصر ، ويسهب فى الحديث عن أسباب تقدم الامم وتدهورها ويحلل النظريات الاجتماعية والتاريخية التى ضمنها « ابن خلدون » مقدمته المشهورة ..

ولكن الاحداث السياسية لم تلبث أن نزعت الشيخ محمد عبده من مكانه فى التدريس ، كما طوحت بأستاذه وصديقه السيد جمال الدين الافغانى الى منفاه ، اذ غدر بهما الخديو توفيق بعد اتصالهما به للمطالبة بالاصلاحات الدستورية التى كان قد وعدهما بها قبل أن يرغم ابوه اسماعيل على التنازل عن العرش ، واقتنع توفيق بوشاية الذين أفهموه ان السيد وتلميذه ، انما يسعيان لتقييد سلطانه فأمر بنفى الأول وتحديد اقامة

الثانى بقرية « محلة نصر » ..

وعاد رياض باشا ، رئيس الوزارة المصرية اذ ذاك من رحلة فى الخارج فعلم بما حدث لصديقه جمال الدين الافغانى وتلميذه وسعى حتى حصل على عفو عن الشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٠ ، ولكنه لم يستطع أن يقنع الخديو بالغاء أمره بنفى السيد جمال الدين الافغانى من مصر ..

واصدر رياض باشا أمرا بالحاق الشيخ محمد عبده « محررا ثالثا » بجريدة الوقائع الرسمية ، وطلب منه أن يضع تقريرا بما يقترحه لاصلاح حالها ، وعلى أساس هذا التقرير وضعت لائحة المطبوعات وعين الشيخ محمد عبده « محررا أول » للوقائع ، فاختار لمعاونته فيها نفرا من تلاميذ السيد جمال الدين الافغانى ، كان من بينهم الشيخ سعد زغلول وكان يومئذ « مجاورا » بالازهر فى الحادية والعشرين من عمره ..

وليس أدل على ما كان يتمتع به الشيخ محمد عبده من شخصية قوية وما كان يمتلىء به صدره من رغبة حازمة فى الاصلاح ، من انه جعل من عمله فى تحرير « الوقائع المصرية » رقيبا وحسيبا على أعمال الوزارات وتصرفات الموظفين ، اذ ان اللائحة التى وضع قواعدها كانت تحتم على جميع مصالح الحكومة ان تخطر قلم المطبوعات بأعمالها وأحكامها ومشروعاتها ، وكان لرئيس تحرير « الوقائع » حق المراقبة على جميع الصحف المصرية ومعاقبتها حتى بالتعطيل الدائم ، بل ان الشيخ محمدعبده ذهب الى حد انذار احدى الصحف بالتعطيل اذا لم تعين فى فترة محدودة محررا بارعا يصحح عبارتها ، فسارعت الجريدة بتنفيذ أمره ، ومن هنا صار الشيخ محمد عبده كالمسيطر على أعمال الحكومة

والمربى للأمة كما وصفه المرحوم حسن باشا عاصم ، وكان من اثر انتقاده للحكومة انشاء مجلس أعلى للمعارف عين هو أحد أعضائه .

وليس ذلك فحسب ، بل ان الشيخ محمد عبده قد استطاع من مكتبه « بالوقائع المصرية » أن يسير على راس أول قافلة للاصلاح الاجتماعى الحديث ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « تنبهت الافكار ، وبدأت الحياة الاجتماعية تدب فى جسم امة فرقها الظلم وأماتها الجور ، وانبعثت النفوس تطلب ما شعرت به من حاجتها ، فتألفت بعض الجمعيات الخيرية اسلامية وقبطية ، لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية وأولادهم بالتربية ، ولم يكن يسمع بمثل ذلك فى مصر من قبل » .

واندلع لهيب الثورة العرابية ، ولم يكن الشيخ محمد عبده يقف فى أول الامر الى جانب عرابى وأصحابه فلما وقع الخلاف بين شريف باشا والعرابيين حول الميزانية والموقف الدستورى بشأنها ظل الامام ملتزما جانب التهدئة والنصح بالاعتدال ، حتى اذا بدت للعيان مناورات الانجليز للقضاء على ما كسبته الامة من حقوق دستورية تغير موقف محمد عبده وأصبح هو « الروح المدبرة للحركة » على حد تعبير اللورد كرومر ، وكان هو الذى وضع صيغة اليمين التى أقسمها الوزراء والضباط بثكنات عابدين بأنه « اذا حصلت حرب يكونون يدا واحدة فى الدفاع عن البلاد » وعندما ضرب الاسطول الانجليزى مدينة الاسكندرية بقنابله أخذ الامام يكتب المقالات الحماسية فى «الوقائع المصرية» ويدعو المصريين للتطوع فى صفوف الجيش وجمع التبرعات والامدادات له ..

وتطورت حوادث الثورة العرابية على النحو المعروف

وحوكم عرابى وزملاؤه فى أواخر سنة ١٨٨٢ فحكم عليهم بالنفى الى جزيرة سيلان ، بينما حكم على الشيخ محمد عبده بالنفى ثلاث سنوات فى البلاد السورية . وقد امضى العام الأول منها هناك ، ثم دعاه أستاذه السيد جمال الدين الافغانى فوافاه الى باريس حيث أصدرا مجلة « العروة الوثقى » وجعلا هدفها المدافعة عن حقوق الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ، وتنبيه بعض الغافلين منهم لما فيه خيرهم . ولكن سلطات الاستعمار البريطانية ضيقت عليها الخناق فلم تعش سوى بضعة أشهر وصدر آخر أعدادها فى ١٨ أكتوبر سنة ١٨٨٤ .

وفى خلال هذه الفترة سافر الشيخ محمد عبده الى لندن موفدا من قبل جمعية العروة الوثقى « ليستكشف مناصب الفخاخ السياسية ، ويسبر غور المطامع الانجليزية » . كما قال السيد جمال الدين الافغانى . وهناك اجتمع الشيخ محمد عبده بكثيرين من الصحفيين واعضاء البرلمان الانجليزى ، ونزل فى ضيافة صديق مصر وصديق العرابيين الكبير ولفردسكاون بلنت .

وفى هذه الزيارة أدلى الشيخ محمد عبده بحديث لجريدة « البول مول جازيت » هاجم فيه الاستعمار البريطانى ، وطالب بجلاء الانجليز عن مصر ، كما هاجم الخديو توفيق أعنف هجوم . وقال حين سئل عن السياسة التى يجب أن تسير عليها بريطانيا فى مصر :

« ان كل انجليزى لقيناه يؤكد لنا أنه يريد الخير لمصر ، ولكن أين هم رجال السياسة عندكم الذين حاولوا تأييد تصريحاتهم وتأكيداتهم ؟ اننا معشر المصريين من أرباب حزب الحرية ، كنا نظن ان الانجليز يناصرون قضية الحرية ولكننا لم نعد نعتقد بمثل هذه الظنون ، فان الحقائق أقوى وأبلغ من الكلام . اننا

نرى ان انتصاركم للحرية انما هو انتصار لما فيه مصلحتكم ، وان عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل لقد قضيتم على عناصر الخير فينا ، لكى يكون لكم من ذلك حجة للبقاء فى بلادنا .. »

فلما حاول الصحفى الانجليزى أن ينفى ذلك مدعيا ان غلادستون ووزراءه يريدون الجلاء فى أول فرصة صاح به :

« اذا كان الامر كذلك فلم لا تغادرون بلادنا فى الحال ، لقد علمنا الانجليز شيئا واحدا ، هو التضامن فى رغبتنا أن نراكم ترحلون عن بلادنا . لقد تطاحنا حقا واردنا ان نحطم استبداد حكامنا .. شكونا من الاتراك لانهم اجانب عن وطننا ورغبنا لبلادنا اصلاحا سياسيا وتقدما يشبه تقدم أوربا فى طريق الحرية ، لكننا الان نعلم ان هناك ما هو شر من استبداد الحكام ، وشر من ظلم الاتراك وليس فى مصر من بلغ به الظلم حدا يرجو معه مساعدتكم . ان لنا اليكم رجاء واحدا ـ هو أن تغادروا بلادنا حالا من غير رجعة » ..

وتحدث محمد عبده عن توفيق فقال (وانا أنقل هنا نص الترجمة التى جاءت فى كتاب الدكتور عثمان أمين) :

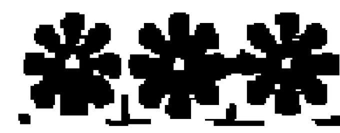
« توفيق باشا أساء الينا أبلغ السوء ، لانه مهد لدخولكم بلادنا . ورجل مثله انضم الى اعدائنا أيام الحرب لا يمكننا أن نشعر ازاءه بأدنى احترام ، لكنه اذا ندم على ما فرط منه واذا عمل على الخلاص منكم فربما غفرنا له سوءاته .

اننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية »

ولعل أخطر ما جاء فى هذا الحديث اقتراحه عزل الخديو وتعيين حاكم جديد فى مصر « ينبغى على كل حال أن يختار من الرجال المحبوبين من الشعب المصرى

وأن يكون تعيينه لمدة محدودة ، نحو سبع أو ثمانى سنين ، وفى نهاية تلك المدة يحق للشعب ان يختار بنفسه من يحكمه » ..

وواضح من هذا الحديث ان الامام المجاهد الحر كان يشير الى انهاء حكم أسرة محمد على ، واتخاذ نظام « جمهورى » يمكن الشعب من اختيار حاكمه بنفسه. وهو ما لم يتحقق الا بعد نحو نصف قرن من وفاة المصلح العظيم ، وعلى يد ثورة مصر الاخيرة ..



وقد عاد الشيخ محمد عبده بعد ذلك الى بيروت سنة ١٨٨٥ ، ودعى للتدريس فى المدرسة السلطانية ، ولكنه اشتغل فى الوقت نفسه بالتأليف ونشر المقالات فى الصحف ، وترجمة رسالة « الرد على الدهريين » للسيد جمال الدين الافغانى من الفارسية الى العربية.

ثم عاد الامام الى وطنه فعين قاضيا بالمحاكم الاهلية ثم أصبح مستشارا بمحكمة الاستئناف ، وفى هذه الفترة بدأ يتعلم الفرنسية فأتقنها واستكمل اتقانها نطقا وحديثا فى رحلاته الصيفية الى فرنسا وسويسرا.

وفى ٣ يونيو سنة ١٨٩٩ ، عين مفتيا للديار المصرية ، وعين فى الشهر نفسه عضوا بمجلس شورى القوانين. وفى سنة ١٨٩٢ أسس مع نفر من أصدقائه الجمعية الخيرية الاسلامية وانتخب لرئاستها سنة ١٩٠٠ ، وكان خلال ذلك أيضا من أكبر الدعاة لانشاء الجامعة المصرية .

وفى كل هذه المناصب والحركات استطاع الشيخ محمد عبده أن يحدث ثورة اصلاحية ما زال صداها يتردد حتى اليوم .

وقد توفى الاستاذ الامام بداء سرطان الكبد فى ١١

يوليو سنة ١٩٠٥ ، وهو بعد فى السادسة والخمسين من العمر . ولولا هــذا الداء الخبيث لاستطاع تاريخ مصر أن يسجل صــفحات أخرى حافلة بآيات التحرر والتقدم فى طريق الدنيا والدين .

ونود رغم ضيق المجال أن نختم هذا الحديث برأيه فى رأس الاسرة المالكة السابقة « محمد على » وهـــو راى لم يهمس به همسا ، وانما سجله فى مقال نشر فى مجلة « المنار » بعددها الصادر فى ٧ يونية سنة ١٩٠٢، بمناسبة الاحتفال بمرور مائة سنة على قيــام أسرة محمد علي .

وفى هذا المقال يتحدث الامام عن محمد علي وظروف دخوله مصر وما فعله بها وبأهلها فيقول : « انه اخــذ يرفع الاسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ، ورثه عن أصــله الــكريم .. حتى انحط الــكرام وساد اللئام ، ولم يبق فى البــلاد الا آلات له يستعملها فى جبــاية الاموال ، وجمع العســاكر بأية طريقة ، وعلى أى وجه ، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من راى وعزيمة واستقلال نفس ، لتصير البلاد المصرية جميعها اقطاعا واحدا له ولاولاده .. »

ويقول فى ختام مقاله :

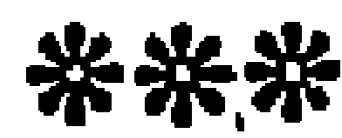
« ولا اظن ان أحدا يرتاب بعد عرض تاريخ محمد على على بصيرته ان هذا الرجل كان لمصر قاهرا ، ولحياتها الحقيقية معدما ، وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره » ..

ليت الامام المصلح الحر عاش حتى يرى كيف انتقمت مصر لــكرامتها وحريتها ، وطوحت بأسرة ذلك الطاغية الى الهاوية التى استحقتها منذ أمد بعيد ..

والى المهتمين نص هذا المقال النابض بالقوة والشجاعة

والبلاغة ودقة التحليل ، والاعتزاز بالوطن وكرامة المواطنين .

وأعود فأذكر القراء بأن هذا المقال الذى يشرف صناعة القلم ويعلى أقدار الاحرار ، قد كتب فى عهد حفيد محمد على ، الخديو توفيق وان الامام الحر العظيم الشيخ محمد عبده قد اختار لنشره ـ امعانا فى السخرية من رأس الاسرة العلوية ـ احدى المناسبات التاريخية ، وهى الاحتفال بالذكرى المئوية لولايته حكم مصر .. وقد وافقت هذه الذكرى يوم ٧ يونية سنة ١٩٠٢ .. أى قبل أن تمحوها ثورة مصر من الوجود بخمسين عاما من الزمان .



قال الاستاذ الامام :

« لغط الناس هذه الايام فى محمد على وما له من الآثار فى مصر وأهلها واكثرت الجرائد من الخوض فى ذلك ، والله أعلم ماذا بعث المادح على الاطراء ، وماذا حمل القادح على الهجاء ، غير انه لم يبحث باحث فى حالة مصر التى وجدها عليها محمد على وما كانت تصير بالبلاد اليه لو بقيت ، وما نشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد محمد على . أذكر الآن شيئا فى ذلك ينتفع به من عساه ينتفع ، ويندفع به من الوهم ما ربما يندفع .

« كانت حكومة البلاد المصرية قبل دخول الجيش الفرنسي فيها من أنواع الحكومات التى تسمى فى اصطلاح الغربيين حكومات الاشراف ، وتسمى فى عرف المصريين حكومات الالتزام ، وتعرف عند الخاصة بحكومات الاقطاع . وأساس هذا النوع من الحكومات تقسيم البلاد بين جماعة من الامراء ، يملك كل أمير

منهم قسما يتصرف فى أرضـه ، وقوى سـاكنيها ، وأبدانهم ، وأموالهم ، كما يريد، فهو حاكمهم السياسى والادارى والقضائى ، وسـيدهم المالك لرقابهم ، ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الاثرة وتغلظ فيه اصول الاستبداد وفروعه ، وتنزع نفس كل أمير الى توسيع دائرة ملـكه بالاستيلاء على ما فى يد جاره من الامراء . فكان من مقتضى الطبيعة ان كل أمير لاينفك عن التدبير والتفكر فيما تعظم فيه شوكته ، وما يدفع به عن حوزته ، وأن يكون الجميع دائما فى استعداد : اما للوثوب واما للدفاع . ولـكن الامراء فى مجموعهم كانوا يقاومون سلطة الملوك ، فيضطر الملك لاستمالتهم ومحاباة بعضهم ، للاسـتعانة به على البعض الآخر ، فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم .

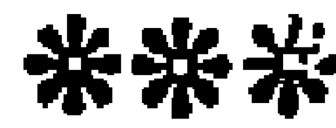


« حاجة الامراء الى المـال كانت تسوقهم الى ظلم رعاياهم ، وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم الى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم ، ظهر ذلك فى خصوماتهم المرة بعد المرة ، فاضطر الامراء أن يخففوا من ظلمهم ، وأن يتخذوا من الاهلين أنصارا يضبطونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم » .

« أحس الاهلون بحاجة الامراء اليهم فزادوا فى الدالة على الامراء ، واضطروهم الى قبول مطالبهم ، فعظمت قوة الارادة عنـد أولئك الذين كانوا عبيـدا بمقتضى الحكومة ، وانتهى بهم الامر أن قيـدوا الامراء والملوك معا ، ولم يكن ذلك فى يوم أو عام ، ولـكنه كان فى عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة .

«نعم كانت الحكومة فى مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات الشرقية ، وكانت البلاد متوزعة بين أمراء ،

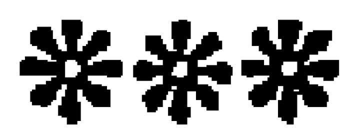
كل منهم يستغل قسما منها ويتصرف فيه كما يهوى . وكان كل يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده الى ما فى يد الآخر او يدفع به صولته ، فالخصام كان دأبهم والحرب كانت أهم عملهم . لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك ما استطاع ليعد منهم جنده ، ولكن كانت تعوزه مئونتهم اذا كثروا فاضطروا الى اتخاذ اعوان من أهالى البلاد ، فوجدوا من العرب أحزابا كما وجدوا منهم خصوما . ثم رجعوا الى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون اليه ، فاتخذوا بيوتا منها أنصارا لهم عند الحاجة ، وعرف هؤلاء حاجة الامراء اليهم فارتفعوا فى أعينهم وصار لهم من الامر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك . لهذا كنت ترى فى البلاد المصرية بيوتا كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم .



« لذلك كان يقضى على كل أمير من أولئك الامراء أن يصرف زمنه فى التدبير ، واستجلاب النصير ، واعداد ما يستطيع من قوة لحفظ ما فى يده ، والتمكن من اخضاع غيره . أنصاره من الاهالى كانوا يجارونه فى ذلك خوفا من تعدى أعوان خصمه عليهم ، فوقعت القسمة بين الاهالى .

« جاء الجيش الفرنسي والبلاد فى هذه الحالة ، دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها. احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها . لم تكن الا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق ، وعظمت حوله القلاقل . أخذت القوة الحيوية الكامنة فى البلاد تظهر ، فكثرت الفتن ولم تنقطع الحروب والمناقشات ، ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال. يدلك على ذلك شكوى نابليون نفسه فى تقاريره التى كان

يرسلها الى حكومة الجمهورية من اصطياد العربان لعساكره من كل طريق . وسلبهم أرواحهم بكل سبيل. واضطر نابليون أن يسير فى حكومة البلاد بمشورة أهلها، وانتخب من أعيانها من يشركه فى الرأى لتدبيرها ، طوعا لحكم الطبيعة التى وجدها .



« قتل بعض رؤساء الجيش واضطربت عليه البلاد وجاء الجيش العثمانى وعاونه الجيش الانجليزى ، وخرجت عساكر الفرنسيين من مصر ، ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد على بالوسائل التى هيأها له القدر . ما الذى كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها ؟ كانت تنتظر أن يشرق نور مدنية يضىء لرؤساء الاحزاب طريقهم فى سيرهم لبلوغ آمالهم ، وقد كان ذلك يكون لو امهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التى كان يقصدها فى بلاد غير بلاده . وما كان بينهم وبين ذلك الا أن يختلطوا بأهل البلاد الغربية ، ويرتفع الحجاب الذى أسدله الجهل دونهم . أو كانت تنتظر أن يأتى أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضها الى بعض ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها ، ويأخذ فى تقوية مصباح العلم بينها ، حتى ترتقى بحكم التدريج الطبيعى ، وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الاولى .

« ما الذى صنع محمد على ؟ لم يستطع أن يحيى ولكن استطاع أن يميت. كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الاحزاب على اعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه ،

وهكذا حتى اذا سحقت الاحزاب القوية ، وجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها راسا يستتر فيه ضمير « أنا » واتخذ من المحافظة على الامن سبيلا لجمع السلاح من الاهلين وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الاهالى، وزالت ملكة الشجاعة منهم وأجهز على مابقى فى البلاد من حياة فى أنفس بعض أفرادها ، فلم يبق فى البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه ، أو نفاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه .



« أخذ يرفع الاسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم ، حتى انحط الكرام ، وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد الا آلات له يستعملها فى جباية الاموال ، وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أى وجه ، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفس ، ليصير البلاد المصرية جميعها اقطاعا واحدا له ولاولاده ، على اثر اقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة

« ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشرأبت نفسه لان يكون ملكا غير تابع للسلطان العثمانى ، فجعل من العدة لذلك ان يستعين بالاجانب من الاوربيين ، فأوسع لهم فى المجاملة وزاد لهم فى الامتياز خارجا عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية ، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكا من الملوك فى بلادنا يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل . وصغرت نفوس الاهالى بين أيدى الاجانب بقوة الحاكم ، وتمتع الاجنبى بحقوق الوطنى التى حرم منها وانقلب الوطنى غريبا فى داره ، غير مطمئن فى قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة ، وذل

سامهم الاجنبى اياه ليصل الى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة .

« قالوا انه أطلع نجم العلم فى سماء البلاد . نعم عني بالطب لاجل الجيش والكشف على المجنى عليهم فى بعض الاحيان عندما يراد ايقاع الظلم بمتهم . وبالهندسة لاجل الرى حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ليستغل اقطاعه الكبير !

***

« هل تفكر يوما فى اصلاح اللغة : عربية ، أوتركية ، أو أرنؤوطية ؟ هل تفكر فى بناء التربية على قاعدة من الدين أو الادب ؟ هل خطر فى باله أن يجعل للأهالى رأيا فى الحكومة فى عاصمة البلاد أو أمهات الاقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقل العدل ؟ لم يكن شىء من ذلك بل كان رجال الحكومة اما من الارنؤوط ، أو الشراكسة ، أو الارمن المورليه ، وما أشبه هذه الاوشاب ، وهم الذين يسميهم بعض الاحداث من أنصار اليوم دخلاء . وكانوا يحكمون بما يهوون لايرجعون الى شريعة ولا قانون . وانما يبتغون مرضاة الامير ، صاحب الاقطاع الكبير .

« أين البيوت المصرية التى أقيمت فى عهده على قواعد التربية الحسنة ؟ أين البيوت المصرية التى كانت لها القدم السابقة فى ادارة حكومته أو سياسة جندها ، مع كثرة ما كان فى مصر من البيوت الرفيعة العماد الثابتة الاوتاد ؟

« أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوربا ليتعلموا فيها ، فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا فى البلاد ما استفادوه ؟ كلا ، ولكنه استعملهم آلات تصنع له ما يريد

وليس لها ارادة فيما تصنع . وجد بعض الاطباء المتازين وهم قليل ووجد بعض المهندسين الماهرين وهم ليسوا بكثير ، والسبب في ذلك ان محمد علي ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن احد من الاعوان مسلطا على المهندس عند رسم ما يلزم من الاعمال ، ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج ، فظهر أثر استقلال الارادة فى الصناعة عند أولئك النفر القليل من النابغين ، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين .



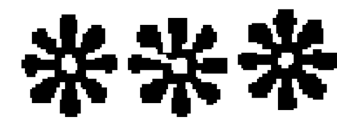
« هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية ؟ اين هي واين الذين نبغوا من طلابها ؟ فان وجد احد نابغ ، فهل هو من المصريين ؟ عدوا ان شئتم احياء او امواتا !

« أوجد كثيراً من الكتب المترجمة فى فنون شتى من التاريخ والفلسفة والآداب ، ولكن هذه الكتب أودعت فى المخازن من يوم طبعت واغلقت عليها الابواب الى أواخر عهد اسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها ، وتخفيف ثقلها عنها ، فنشرتها بين الناس فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على أنها ترجمة برغبة بعض الرؤساء من الاوروبيين الذين ارادوا نشر آدابهم فى البلاد ، لكنهم لم ينجحوا لان حكومة محمد على لم توجد فى البلاد قراء ، ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون .

« كانوا يختطفون تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرى ((الأفناء : الناس المجهولون)) كما يتخطفون عساكر الجيش ، فهل هذا مما يحبب القوم فى العلم ويرغبهم فى ارسال أولادهم الى المدارس ؟ لا ، بل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش .

« حمل الاهالى على الزراعة ولكن ليأخذ الفلات ولذلك كانوا يهربون من ملك الاطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الاصفر والموت الاحمر ، وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك .

« يقولون انه أنشأ المعامل والمصانع ، ولكن هل حبب الى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها فى البلاد ؟ أين هم ؟ ومن كانوا ؟ وأين آثارهم ؟ لا ، بل بغض الى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم فى العمل والاستبداد بثمرته . فكانوا يتربصون يوما لايعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعنين الساعة التى جاءت بهم اليه .



« يقولون انه أنشأ جيشا كبيرا فتح به الممالك ودوخ به الملوك وأنشأ أسطولا ضخما تثقل به ظهور البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الامصار ، فهل علم المصريين حب التجند ، وأنشأ فيهم الرغبة فى الفتح والغلب ، وحبب اليهم الخدمة فى الجندية وعلمهم الافتخار بها ، لا ، بل علمهم الهروب منها ، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون الى الموت ، بعد أن كانوا ينتظمون فى أحزاب الامراء ، ويحازبون ولايبالون بالموت أيام حكم المماليك ، وكان من ينتظم فى الجندية على عهد محرر مصر لايخرج منها الا بالموت ! هل شعر مصرى بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه ؟ وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك اليه بأن يقول هذا جيشى وأسطولى أو جيش بلدى أو أسطوله ؟ كلا لم يكن شىء من ذلك فقد كان المصرى يعد ذلك الجيش وتلك القوة

عونا لظالمه فهى قوة خصـــمه . كذلك كان يعدها كل عثمانى فى مصر أو غير مصر. ليقل لنا انصار الاستبداد كم كان فى الجيش من المصريين الذين بلغــوا فى رتب الجندية الى رتبة البكباشى على الاقل ؟ فما أثر ذلك فى حياة مصر والمصريين الا أسوأ الاثر ، أثر كله شر فى شر، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت .

« ظهر الاثر العظيم عندما جاء الانجليز لاخماد ثورة عرابى . دخل الانجليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر على قوم ثم استقروا ولم توجد فى البلاد نخوة فى رأس تثبت لهم ان فى البلاد من يحامى عن استقلالها ، وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنسيين الى مصر ، وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الاولى والموت الاخير ، وجهله الاحداث فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون اليه .

***

« لايستحى بعض الاحداث من ان يقولوا أن محمد على جعل من جدران سلطانه بنية من الدين . أى دين كان دعامة لسلطان محمد على ؟ دين التحصـــيل ؟ دين الكرباج ؟ دين من لا دين له الا ما يهواه ويريده ؟ والا فليقل لنا أحد الناس أى عمـل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الاسلامى الجليل ؟ لايذكرون له الا مسألة الوهابية . وأهل الدين يعلمون أن الاغارة فيها كانت على الدين لا للدين . نعم ان فى الوهابية غلوا فى بعض المسائل ، غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين ، وما كان محمد على يفهم هذا ولا ســفك دماءهم لارجاعهم الى الاعتدال ، وانما كانت مســألة سياسية محضة نبعها جراة محمد على على سلطانه العثمانى وكان معه ما كان مما هو معروف .

« نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشىء

من النقد يسمى « فائض رزمانة » لايساوى جزءا من الالف من ايرادها . وأخـذ من أوقاف الجامع الازهر ما لو بقى له اليوم لـكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه فى السنة وقرر له بدل ذلك ما يساوى نحو أربعة آلاف جنيه فى السنة .

« وقصـارى أمره فى الدين أنه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو اجلاسهم على الموائد .. لينفى من يريد منهم اذا اقتضت الحال ذلك ، وأفاضل العلماء كانوا عليه فى سخط ماتوا عليه .

***

ولا اظن أن أحدا يرتاب بعد عرض تاريخ محمد على على بصيرته ، ان هذا الرجل كان تاجرا زراعيا ، وجنديا باسلا ومستبدا ماهرا ، لكنه كان لمصر قاهرا ولحياتها الحقيقية معدما .. وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره ، متعنا الله بخيره وحمانا من شره ، والسلام .. !

ديفاليرا



إني أواجه
الأنواء بالاستقامة
على الدوام
لأنني رجل
مستقيم.
ديفاليرا

يا لها من سخرية ، ويا لها من عبرة . (١)

ان الرجل الذى قاد بلاده الى النصر فى معركة الكفاح ضد الاستعمار .. هو بعينه الرجل الذى خسر معركة الانتخاب ، من بضعة أعوام لانه لم يستطع الانتصار فى حرب الاسعار ..

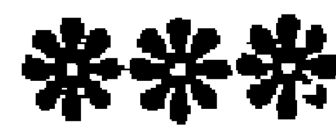
فقد سجلت النتائج التى أسفرت عنهـا الانتخابات الارلندية العامة لمجلس الدامايل ، أى مجلس النواب ، خذلان حزب الاحرار « الفيانافيل » الذى يراسه الزعيم العظيم ايمون ديفاليرا ، وعجزه عن استبقاء الاغلبية المطلقة على مجموع الاحزاب الاخرى ، وهى حزب « فين جايل » أى حزب المحافظين وحزب العمال ، وحزب الفلاحين مضافا اليهم النواب المستقلون .

وازاء هـذه النتيجة اضطر ديفاليرا الى التخلى عن رئاسة الوزارة ، ليحل محله فيها رجل آخر يؤلف وزارة ائتلافية ، تجمع شمل الاحزاب المعارضة ، وتنال تأييد المستقلين .

ولم تكن هذه أول مرة يخرج فيها ديفاليرا من الحكم ، منذ تولاه سنة ١٩٣٢ ، اذ ان الاحزاب المؤتلفة سبق ان فازت على حزبة سنة ١٩٤٨ ، وظلت تتولى شئون الحكم الى سنة ١٩٥١ .

(١) كتب هذا الفصل عام ١٩٥٤

ولكن ماذا يهم بقاء ديفاليرا فى الحكم أو خروجه منه ؟ ان التاريخ لن يتحدث عن ديفاليرا رئيس الوزارة الايرلندية ، ولكنه تحدث كثيرا وسيظل يتحدث طويلا عن ديفاليرا الثائر الجبار ، الاسبانى الاب ، الايرلندى الام ، الامريكى المولد ، الذى لم يدخر جهدا ، ولم يضن بتضحية ، ولم يترك سلاحا شريفا الا شهره واستخدمه فأحسن استخدامه ، حتى طهر جبين ايرلنده من وصمة الاستعمار البريطانى .



ولد « ايمون ديفاليرا » بمدينة نيويورك فى ١٤ أكتوبر سنة ١٨٨٢ — فهو يدلف الآن نحو ختام عامه الثانى والسبعين — أما والداه فهما أب مهاجر أسبانى ، وأم مهاجرة ايضا من ايرلندة ، ولم ينجبا ولدا سواه ، ثم توفى الاب بعد عامين من زواجه ، وتزوجت الام فيما بعد وأصبحت تحمل اسم « مسز هويلرايت » وأنجبت ولدين آخرين مات أحدهما وأصبح الثانى قسيسا .

أما ايمون فقد انقطعت صلته بأمه منذ عاد من أمريكا الى ايرلنده فى الثالثة من عمره ليعيش فى كفالة خاله باتريك كول . وقد عرف ديفاليرا منذ حداثة سنه كتلميذ بالجد والاجتهاد ، وقوة الذاكرة ، والمثابرة ، ولكنه لم يتخصص مع ذلك فى الادب أو التاريخ ، بل كان شديد الولع بالعلوم الطبيعية والرياضية ، وقد حصل على مجانية التفوق فى السادسة عشر من عمره ، والتحق بكلية بلاكروك فى العاصمة الارلندية سنة ١٨٩٨ ، واشتغل فى الوقت نفسه بالتدريس ، وحصل على الدبلوم فى الرياضة فى الثانية والعشرين منعمره ، وعين أستاذا للحساب فى كلية لتخريج المعلمات . ولكنه لم يقتصر على التدريس فى كلية واحدة بل اشتغل فى

وقت واحد بالتدريس فى عدة مدارس وكليات ، ولم يشتغل بتدريس الرياضة فقط ، بل كان مدرسا للرياضة هنا ، وللهندسة هناك ، وللغة الارلندية فى مدرسة ثالثة، وقد تزوج سنة ١٩١٠، باحدى تلميذاته فى اللغة الارلندية وهى جانيت فلاناجان ، ولم يكن فى هذه المراحل كلها ما يشير الى طريق المجد الذى كان مقدرا لديفاليرا أن يبدأ السير فيه سنة ١٩١٣ ، عندما بادر الى الانضمام لفرق المتطوعين التى استطاع « الاخوان الجمهوريون » أن يسيطروا عليها سرا لمكافحة الاستعمار البريطاني . وقد وصفه أحد مؤرخيه يومئذ بالعبارات التالية :

« كان ديفاليرا حتى اندلاع الحرب العظمى فى
« اغسطس سنة ١٩١٤ ، شخصا مجهولا تماما
« للرأى العام حتى فى دبلن ، فيما عدا طلبة الكلية
« التى يدرس فيها ، وكان مظهره يلفت النظر الى
« أقصى حد . فهو طويل مسرف فى الطول ، يتجاوز
« ستة أقدام ، وكان الجد الصارم يرتسم على وجهه
« رغم انه فى أوائل العقد الرابع من العمر ، وكان
« طويل الانف ، يضع نظارات على عينيه ، وتبدو
« على ملامحه مسحة أجنبية ظاهرة ، وكان يمتاز
« كذلك بملابسه الخشنة البسيطة » .

هكذا كان ديفاليرا يوم وضع قدمه لاول مرة فى ميدان السياسة ـ أستغفر الله ـ بل ميدان الكفاح الوطنى الصادق ، الذى أضاف به ديفاليرا الى تاريخ الاحرار صفحات نقية عاطرة ..

ولكن « عطر » هذه الصفحات ، لم يكن خاليا من رائحة الدماء التى طالما خضب الاحرار بها أبواب الحرية الحمراء ، دمائهم ودماء الطغاة على حد سواء .

لقد بدأ ديفاليرا يخوض غمار السياسة ، منذ التحق بفرق المتطوعين الارلندية ، وكانت خطة الوطنيين قد رسمت وبدأت تنفذ ببراعة نادرة المثال ، اذ أنهم حرصوا من بداية الامر على أن يدربوا أنفسهم تدريبا عسكريا ممتازا فى الخفاء ، حتى اذا تم لهم ذلك سعوا ونجحوا فى استصدار أمر من القيادة العامة الرسمية للمتطوعين — وهى بريطانيا — بأن يكون اختيار الضباط متوقفا على الكفاءة وحدها ، فكانت نتيجة ذلك أن تمت « للاخوان الجمهوريين » السيطرة على فرق المتطوعين بوصفهم ضباطا فى هذه الفرق .

ولم يكد يمضى عامان ونصف عام على تأليف كتائب المتطوعين حتى قرر الاحرار أن يضربوا ضربتهم التى صمموا على تسديدها للاستعمار البريطانى قبل أن تضع الحرب العالمية أوزارها ، وحددوا للثورة يوم عيد الفصح الذى يوافق ٢٣ أبريل سنة ١٩١٦ . وكانت الذخيرة قد بدأت تتسرب الى مخابئهم السرية من ألمانيا ومن أمريكا ويشاء القدر الساخر أن تكشف المخابرات البريطانية عمليات التهريب قبل الحركة بشهرين ، ولكنها لأمر ما لم تبلغ ذلك الى القاعدة العامة للقوات الايرلندية ، ولا للقيادة المدنية فى دبلن ، ولعلها كانت تشك فى جدية الحركة . ومع ذلك فان الحوادث لم تلبث أن تعاقبت فى سرعة خاطفة ، ففى يوم الجمعة الحزينة أى قبل تاريخ الثورة بيومين قبض على السير روجر كيزمنت عقب هبوطه على الساحل البريطانى من غواصة المانية ، « وقد حوكم واعدمه الانجليز بعد ذلك بتهمة الخيانة العظمى » ، واغرقت السفينة الالمانية «أودت» التى اعترضها الاسطول البريطانى وهى تحمل أسلحة الى أحرار أرلندة ، وقد نسفها بحارتها الالمان

بالديناميت بعد أن هبطوا الى زوارق النجاة ، ثم سلموا أنفسهم .

وكانت هذه الاحداث سببا فى تصميم القيادة العليا للثورة على تنفيذ حركة التمرد العسكرى فى دبلن دون سائر أنحاء البلاد ، وفى الموعد الذى سبق تحديده وهو ٢٣ أبريل سنة ١٩١٦ ، وهو يوم عيد الفصح . وكان بعض الثوار يرون غير ذلك ، ومن بينهم ديفاليرا ولكنه لم يكد يتلقى الامر بالثورة حتى بادر بالتنفيذ .

ولم يكن عدد الثوار يومئذ يتجاوز الفا وخمسمائة نفس . أى انهم كانوا حفنة صغيرة اذا قيست بالقوات الاستعمارية الضخمة التى قاموا لمحاربتها بحد السلاح. وهى اللغة الوحيدة التى ثبت أنها تصلح للتعامل مع أى استعمار ، ولا سيما الاستعمار البريطانى الخبيث .

وتفرق الثوار . كل جماعة فى المكان الذى حدد لها ، واستولوا بالفعل على هذه الاماكن بلا مقاومة. واتخذوا المقر العام لمصلحة البريد مركزا لقيادتهم . وسرعان ما الصقوا على الحائط منشورا مطبوعا بحروف ضخمة سوداء ، يحمل اعلانا بقيام «الحكومة المؤقتة للجمهورية الارلندية » وقرأ المارة الاعلان بين ضاحك ساخر ، ومشفق يائس ، ولكن الجو لم يلبث أن امتلأ بالكهرباء ، وطارت الاشاعات فى كل ركن من أركان العاصمة ، واخذ الجد يرتسم على الوجوه ، ولا سيما حين دوى على حين غرة دوى الرصاص وشاهد أهل دبلن كيف اقيمت المتاريس فى الشوارع ، ووضعت أكياس الرمل فى النوافذ ، وحفرت الخنادق ، وما زالت الطلقات تدوى وتئز فى جو المدينة الرهيب حتى جن الليل فانعدمت الحركة ، وساد الصمت ، ولم يكن يقطعه سوى طلقات القناصة بين الفينة والفينة .

وكان ديفاليرا يتولى فى هذه المعركة التاريخيةحراسة طريق السكك الحديدية الى دبلن ، ليمنع وصول المدد من انجلترا ، وسرعان ما أصبحت هـذه المنطقة مركز العاصفة ، ولم تكن قوة ديفاليرا كلها تزيد على مائة جندى فىالمنطقة ، ولكنه استعان بحيلة ماكرة «لتهويش» الجيش الانجليزى والتغرير به ، وذلك بأن أوعز الى كثيرين من أهل المنطقة بأن يتظاهروا بالرغبة فى مصادقة الجنـود الانجليز ، ويسروا اليهم بأنه ـ اى ديفاليرا ـ قد وضع خطة لجلب مدد كبير من الثوار تحت ستار الظلام ، وأنه قد أعد لهم أماكن فى معمل للتقطير ، كان ديفاليرا قد رفع فوقه علم الثورة المثلث الالوان عاليا فى وجه المستعمرين .. وراح الانجليز يصوبون طلقات مدافعهم صوب المعمل فدمروه ودمروا معه قدرا كبيرا من ذخيرتهم .. بينما كانت قوات ديفاليرا تتجمع فى مخبز مجاور لمعمل التقطير لم تتجه اليه أنظار الانجليز لانشغالهم بضرب هذا المعمل .

وفى هذه المعركة يروى الثوار الذين كانوا تحت قيادة ديفاليرا كيف كان يقف بين جنوده ، يتقدم صفوفهم ويتحرك تحت خط النار معهم ويصر على أن يتولىأخطر المهام فى القتال رغم اعتراض جنوده وخوفهم على حياته ، فلما قال له أحد الجنود ان حياته أهم من حياة الجندى العادى صاح به : « ان هناك آخرين خيرا منى يقتلون فى هذه المعركة » .

ودامت معركة الاحرار ضد الاستعمار فى هذه المرة نحو أسبوع كامل ، كافح طواله الثوار كفاح الجبابرة ضد قوات طاغية باغية تفوقهم عددا وعدة ، ثم صدر الامر اليهم من قائدهم « بيرس » بالتسليم وقد تلا ديفاليرا نص الامر فى أسى وألم بالغين ، وقد جاء فيه:

« لكى نضع حدا لذبح أهل دبلن ، وأملا فى انقاذ
« حياة اتباعنا الذين حوصروا وتحيط بهم الآن
« قوات تفوقهم عددا على نحو يدعو الى اليأس ،
« فقد قرر أعضاء الحكومة المؤقتة المجتمعون بمقر
« القيادة أن يقبلوا التسليم بلا قيد ولا شرط ، وعلى
« قومندانات المناطق المختلفة فى المدينة والبلاد أن
« يأمروا فرقهم بوضع السلاح » ..

وقد كان من العسير على ديفاليرا أن يقنع جنوده باطاعة هذا الامر ، ولكنه لم يكن يملك الا أن يطيعه وينزل على مقتضاه ، فوقف فى الشارع ينتظر ان تحضر قوات الاستعمار لتعتقله هو وجنوده وراح يردد والالم يمزق نفسه : « آه لو أن الشعب خرج ليقاتل معنا ولو بالسكاكين والاشواك » .

وقد انقضى على عيد الفصح التاريخى الذى نشبت فيه أول معركة ضد الاستعمار البريطانى أكثر من ثمانية وثلاثين عاما ، وما زال حتى اليوم خالدا فى التاريخ الارلندى ، بل فى تاريخ الكفاح العالمى ضد الاستعمار. وما زالت تصدق فيه كلمة « بيرس » المشهورة فى بيانه اذا هم لم يكسبوا هذه المعركة ، فانهم على الاقل قد كانوا جديرين بكسبها ، ولكنهم سيكسبونها على كل حال ، ولو بالممات .. وهم قد كسبوا فعلا شيئا عظيما ، اذ طهروا دبلن من عار كثير وجعلوا اسمها رائعا مجيدا بين عواصم العالم .

وقد حافظ الانجليز بعد تسليم الثوار على أشهر تقاليدهم .. اذ انقضوا على المجاهدين الاشراف المستسلمين يسومونهم القتل والانتقام . ففى ٣ مايو اعدموا ثلاثة من قواد الثورة بينهم « بيرس » رميا بالرصاص وفى اليوم التالى قتلوا بالرصاص ثلاثة آخرين

وفى اليوم الثالث قتلوا واحدا وبعد يومين قتلوا أربعة وفى اليوم التالى قتلوا شقيق أحد هؤلاء الاربعة .

ولم يكن بد من أن يتحرك ضمير العالم أمام هـذا التوحش الدنىء ، ضد أناس كل جريمتهم انهم ضاقوا باحتلال بلادهم فثاروا زغم قلتهم واستسلموا بعـد اعلان قضيتهم ..

وكان من أنبل الصرخات التى انطلقت يومئذ صرخة « برنارد شو » اذ كتب يقول فى قلب لندن ، وفى ابان الحرب العالمية سنة ١٩١٦ :

« اننى مازلت ارلنديا ، واننى لأرفض أى اشـارة
« يفهم منها اننى أرمى بالخيانة أى ارلندى اشتبك
« مع الحكومة البريطانية فى قتال من أجل استقلال
« ارلندة وقد كان قتالا شريفا فى كل شىء سوى
« الغلبة العددية الهائلة التى كان على أبناء وطنى
« أن يواجهوها .

ولـكن الوحشـية البريطانية بقيت على جنونها فى التنكيل بالاحرار الامجاد فلم يكد يحل يوم ١٠ مايو حتى كان قد أعدم أربعة عشر وحكم بالاشـغال الشاقة على ثلاثة وسبعين ، وحكم بالنفى على أكثر من ألف . وفى ١٢ مايو أخذوا الزعيم العالمى « كونولى » الذى كان برأس الجيش المدنى ، ووضعوه على نقالة وأعدموه مع أحد زملائه ، وفى أغسطس تمت محاكمة السير رويجز كيزمنت وأعدم فى لندن فبلغ بذلك عدد الشهداء الذين أعدموا ستة عشر ، كما أصبح عدد المنفيين أكثر من الفين وثلاثمائة .

أما ديفاليرا فقد ألقوا به فى حجرة صغيرة تتصـل نافذتها بمركز فرقة المطافىء ، وقد أتيحت فرصة الهرب

منها بناء على خطة عرضت عليه فرفض أن يترك زملاءه وقدم للمحكمة العسكرية فى ٨ مايو ، وكاد يلقى مصير زملائه الذين أعدموا لولا أمران :

أولهما : الضجة الشديدة التى أثارتها وحشية الانجليز على يد السفاح مكسويل .

والثانى : تدخل القنصلية الامريكية واحتجاجها باعتبار ديفاليرا أمريكيا بحكم مولده .

وكانت النتيجة صدور الحكم بالنص الآتى فى ١١ مايو سنة ١٩١٦ :

« الحكم بالاعدام ، وتخفيف الحكم الى الاشغال
« الشاقة بأمر القائد العام للقوات. . ادوار ديفاليرا ،
« الاشغال الشاقة مدى الحياة » .

وقد كان ديفاليرا أثناء محاكمته وبعد الحكم عليه مثالا يحتذى فى رباطة الجأش وهدوء النفس . وكان يتوقع حكم الاعدام بما يشبه اليقين . ولكنه لم يكتم عاطفته الانسانية اذ قال لاحد زملائه فى السجن قبل الحكم : « ما كنت لأهتم بمصيرى مثقال ذرة ، لولا الزوجة والاطفال » .

ومع ذلك فانه حين ابلغ بأمر تخفيف حكم الاعدام ؛ لم يفعل أكثر من أن رفع بصره الى محدثه وشكر الرسول الذى أبلغه به ، ثم عاد فاستأنف قراءة الكتاب الذى كان فى يده وهو « اعترافات القديس أوغسطين »

وبقى ديفاليرا فى السجن مع زملائه المحكوم عليهم ، حتى استقال اللورد اسكويت من رئاسة الوزارة البريطانية ، ونقل السفاح الجنرال مكسويل من أرلندة وتولى حكم بريطانيا لويد جورج بقفازه الحريرى، وراح يجرب استرضاء الارلنديين ، فانهالت العرائض بطلب

الافراج عن ديفاليرا وسائر المسجونين السياسيين .

وفى خلال ذلك ثار المسجونون فى سجنهم بقيادة ديفاليرا احتجاجا على سوء معاملتهم ، وطلبوا أن يعاملوا كأسرى الحرب ، وحطموا أثاث السجن ونوافذه ، فكانت النتيجة نقلهم الى سجون متعددة ، حتى أفرج عنهم فى ١٦ يونية سنة ١٩١٧ ، فعادوا من سجونهم فى بريطانيا — وكانوا يبلغون زهاء المائة — واذا بمدينة دبلن تستقبلهم استقبال الابطال الظافرين ، واذا بهم ينشدون مع الالوف الحاشدة « أغنية الجندى » الثورية التى أصبحت فيما بعد نشيد ارلندا القومى .

وهكذا أصبح ديفاليرا — ولا سيما بعد انتخابه نائبا لاحدى الدوائر البرلمانية وهو فى سجنه — زعيم ارلندا الذى تعلقت بزعامته الوطنية الامينة آمال مواطنيه فى تحقيق الاستقلال المنشود .

وقد عرف ديفاليرا مرة أخرى مرارة السجن ، حين انقضت قوات البوليس على اعضاء حزبه « السين فاين » ومعهم ديفاليرا نفسه فى ١٨ مايو سنة ١٩١٨ ، وكانت حجة الانجليز فى ذلك هى وجود «مؤامرة المانية» مزعومة ضد بريطانيا . وجاءت الانتخابات العامة فى ارلندة فى أواخر سنة ١٩١٨ ، فاذا حزب ديفاليرا يفوز بثلاثة وسبعين مقعدا من مائة وستة ، ومن بين هؤلاء الثلاثة والسبعين نائبا ، ثلاثون فى السجون — بينهم ديفاليرا .. وثلاثة منفيون ، وستة مختفون عن عيون البوليس .

وفى يناير سنة ١٩١٩ ، أعلن قيام البرلمان الارلندى المستقل ، وأصدر هذا البرلمان اعلانا باستقلال ارلندة ،

ورسالة الى شعوب العالم الحرة ، وبرنامجا ديمقراطيا للحكم .

وفى فبراير سنة ١٩١٩ ، نجحت محاولات الوطنيين فى تهريب ديفاليرا من سجنه ، ثم تهريبه الى الولايات المتحدة حيث قام بحملة دعاية واسعة لاستقلال ارلندة وجمع تبرعات ضخمة لمساعدة ارلندة فى كفاحها .

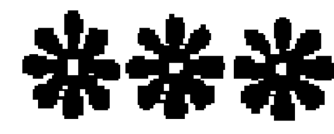
وكماغادر ديفاليرا ارلندة هاربا،عاد اليها خلسة فىعيد الميلاد سنة ١٩٢٠ ، ليستأنف جهاده مع زملائه داخل البلاد . ومازالت حركة الكفاح مستمرة على اشدها ، ضد قوات الاحتلال ، حتى أذعن لويد جورج للأمر الواقع فطلب ارسال وفد الى لندن للبحث عن حل للنزاع ، وتمهيدا لذلك تم الاتفاق فى ١١ يوليو سنة ١٩٢١ ، على اطلاق سراح المعتقلين واعادة الهدوء الى البلاد .

وسافر بالفعل وفد ارلندى الى لندن فى ٩ اكتوبر من العام نفسه ، وهناك راح الانجليز يجربون كل وسائلهم المألوفة فى كل مفاوضة فمن صيغ غامضة ، الى عروض ملتوية ، الى محاولات لشق صفوف الوفد المفاوض ، الى غير ذلك مما عرفناه وبلونا ويلاته نحن المصريين .

ورفض ديفاليرا ورفاقه أن يقبلوا المعاهدة التى استطاع لويد جورج – مع الاسف – أن يخدع بها رئيس وفد المفاوضة الارلندى وعادت الاضطرابات مرة أخرى الى دبلن، وتكررت مأساة التفوق العددى، ثم الاضطرار للتسليم فى أوائل يولية سنة ١٩٢٢ . ولكن حرب العصابات انتقلت الى أنحاء البلاد ، ومن سوء حظ ارلندة انها لم تكن فى هذه المرة موجهة ضد الاستعمار

وحده ، بل كانت حربا أهلية قتل فيها أرلنديون أبرياء من جراء الخلاف على المعاهدة البريطانية المشئومة .

والقى القبض على ديفاليرا مرة أخرى عقب انتخابه للمجلس النيابى فى الانتخابات العامة التى جرت فى شهر أغسطس سنة ١٩٢٢ واستمر اعتقاله مع ألوف آخرين من زملائه حتى قامت حركة ترمى الى الدعوة للاضراب حتى الموت أو الافراج عن المعتقلين ، ولكن ديفاليرا قاوم هذه الحركة حتى كان شهر يوليو سنة ١٩٢٤ ، حيث فتحت ابواب السجن وأفرجت الحكومة الارلندية التى قبلت المعاهدة عن زعيمها الذى آثر القتال والسجن على قبول المعاهدة .



وظل ديفاليرا ثمانية أعوام يكافح لاقناع الرأى العام ببطلان المعاهدة ، والبرلمان الذى قبل المعاهدة ، والحكومة التى قامت على أساس البرلمان حتى تم له النصر فى الانتخابات العامة سنة ١٩٣٢ .

ولم يلبث ديفاليرا أن تولى رئاسة الحكومة ، وأخطر الحكومة البريطانية بالغاء يمين الولاء للتاج البريطانى ، وبادر الى تعديل الدستور ليجعله جمهوريا لا ملكيا ، وحاولت بريطانيا أن تحارب ديفاليرا بسلاح الضغط الاقتصادى ، فلم يكن حظها من النجاح أكثر من حظها فى هذه المحاولة مع مصر فى السنوات الاخيرة ...

والنصر للحرية ...
والمجد للأحرار ..


جومو كينياتا

« ان الافريقي ليس اعمى • ان في استطاعته ان يهتك الأستار عن أولئك الذين يتظاهرون كذبا بالرحمة والانسانية • وهاهو ذا يستيقظ من سباته فيدرك ان احدا لا يستطيع ان يسد الى الأبد مجرى النهر الدافق دون ان يفيض الماء على جانبيه ويحطم شاطئيه ... لقد حيل بين الافريقي وبين التعبير عن ارادته ولكنه يشق طريقه رغم ذلك وسيجرف امامه شتى صنوف القهر والطغيان التي تحيط به • »

لم يكن الزعيم الافريقي « جومو كينياتا » حين كتب هذه الكلمات الرهيبة يعد منشورا ثوريا ، أو يلقى خطابا حماسيا فى عشرات الالوف من مواطنيه المجاهدين فى سبيل حريتهم •• وانما ساق هذه الكلمات فى مقدمة كتاب وضعه بالانجليزية ونشر لاول مرة فى لندن سنة ١٩٣٨ تحت عنوان « فى مواجهة جبل كينيا » .

ولو استطاع المستعمرون أن يسيروا مع الزمن ، وأن يتخلصوا من تعصبهم وعنادهم ، لما تعذر عليهم ان يدركوا الحقائق ، وأن يفهموا أن جومو كينياتا بكلمته الصريحة هذه انما كان يدق ناقوس الخطر ، وينذر الاستعمار بأن « يحمل عصاه ويرحل » •

ولكن الاستعمار هو الاستعمار ، لا يتغير ، ولا يتطور ولا يفهم ، ولا يسلم ، حتى تدهمه الاحداث وترغمه علىأن ينزل الى القبر الذى يحفره له المجاهدون الاحرار .

لقد اندلع لهيب الثورة فى كينيا ، بعد مضى خمسة عشر عاما على كلمات جومو كينياتا ، ثم استطاع جومو كينياتا أن يهز دعائم الاستعمار المتهاوية من وراء قضبان

السجن ، حيث شاءت « العدالة » البريطانية أن تزج به ، بعد « محاكمة » أشبه بالمسرحيات الهزلية منها بالمحاكمات القضائية. فلما انتهت مدة «الحكم» بالسجن وجاءت ساعة الافراج أبت «عدالة» الاستعمار مرة اخرى الا أن تبقيه معتقلا ، بلا حكم ولا محاكمة !

وأخيرا ، أرغم الاستعمار على اطلاق سراح كينياتا ، وازالة العوائق القانونية المصطنعة لابعاده عن المجلس النيابى ومناصب الحكم . فمن هو جومو كينياتا ؟ ..

وما هى جمعية « الماوماو » التى اتهم برئاستها وتحريضها على الثورة ؟ ..
وما هى قبيلة « الكيكويو » ـ أو على الاصح « الجيكويو » التى تخوض الكفاح الرهيب الحالى ضد وحوش الاستعمار ؟.. وكيف بدات مأساة الاستعمار الاوربى فى كينيا ؟ ..

أما جومو كينياتا فقد جاوز الستين من عمره ، وهو افريقى عريق يعتز بأفريقيته ويفخر بتقاليد قبيلة « الجيكويو » التى يسميها الاوربيون خطأ « كيكويو » والذين يقرأون كتابه الرائع « فى مواجهة جبل كينيا » يدهشون للدقة العجيبة التى يروى بها تفاصيل المعتقدات والتقاليد والعادات السائدة فى قبيلته ، وكثير من هذه التفاصيل يدخل فى دائرة التحقيق العلمى الذى يذهب فى الصراحة الى حد يجعل جانبا غير قليل من مواد الكتاب غير صالح للنشر فى الصحف والمجلات اذ يتناول تقاليد الزواج والخطبة والمشاكل الجنسية بين أفراد القبيلة ، دون أن يعلق عليها بما يشعر انه يعترض على شىء منها ، أو يحس بأى خجل ازاء تعارضها مع التقاليد والاعتبارات السائدة فى معظم دول الغرب والشرق .

وقد كتب كينياتا يصف تعليمه ونشأته فقال : انه تلقى فى صفره ذلك النصيب من التعليم الذى يتلقاه غيره من الاولاد فى قبيلة « جيكويو » ولقنه كبار العائلة جميع التقاليد والعادات الضرورية ، التى راح هو يلقنها بدوره فيما بعد للذين هم أصغر منه كوسيلة لتسليتهم ليلة بعد ليلة . ويستطرد كينياتا قائلا :

« ولما كان أبى وجدى قد تزوج كلاهما عدة زوجات، فقد كان من حظى أن ولدت فى أسرة وفيرة العدد ، ذات درجات متفاوتة من القرابة ، وقد كان حتما على بحكم التقاليد فى قبيلتنا أن أجتاز جميع مراسم الختان مع بقية رفاقى الذين يتفوقون أو يتقاربون معى فى السن ولهذا أستطيع أن أتحدث عن هذه المراحل بحكم الخبرة والتجربة . ومع ان الرجال لايشهدون ختان البنات ، فانهم لايجهلون تفصيلاته .. لان كلا من البنات والبنين فى مرحلة الانتقال الى المراهقة يتحدثون عن هذه المسائل فيما بعد بصراحة تامة ، ثم أن عمتى « واكو » كانت تزاول بنفسها عمليات الختان للبنات ، فكنت أثناء زيارة كوخها فى طفولتى التقط كثيرا من تفاصيل هذه العملية من أحاديثها مع غيرها من النساء ..

وقد شاركت رفقائى وأبناء طبقتى فى العمر جميع أنواع نشاطهم ، وانتخبت زعيما لهم ثم قدر لى بحكم المعرفة بأحوال العالم الخارجى أن أقوم بدور بارز فى الحركات التقدمية بين أفراد الجيكويو بوجه عام ، وما زلت أقوم بهذا الدور حتى الآن . وقد أنشأت وتوليت رئاسة تحرير أول جريدة للجيكويو ، وهى جريدة مويجوثيانيا بين سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٠ بوصفى سكرتيرا عاما لجمعية جيكويو المركزية ، وأتاح لى ذلك فرصة الطواف بجميع انحاء بلاد الجيكويو ، والاجتماع بأناس كثيرين

من الـكبار والصغار ، ومناقشتهم فى مختلف المشاكل الثقافية والسياسية والاجتماعية والدينيــة والتعليمية وغيرها . وقد اجتزت مع الزمن ثلاث درجات من مراحل الترقى فى القبيلة ، واستطعت بذلك أن أسهم فى المجالس القروية والمركزية ، وأن أعرف اجراءاتها ومراسمها فى شتى أنحاء البلاد كما اننى بوصفى عضوا فى طبقة المحاربين لم أستطع أن أتمرن عمليا على وســائل الحرب عنــد الجيكويو فحسب ، بل عشت زمنا فى بلادى «الماساى» حيث كنت على اتصال وثيق بوسائلهم الحربية وعرفت عنها الـكثير ، فضلا عن زياراتى لعدة قبائل أخرى . .

أما عن السحر فقد حضرت جلســات لممارسته فى دارى وفى غيرها وكان جدى نفسه عرافا وســاحرا ، وكنت أطوف معه فى بعض الرحلات حاملا حقيبة معداته مكتسبا نوعا من التمرس فى أصول هذا الفن على يديه»

على ان كينياتا لم يقض حيــاته كلها بين القبــائل المحاربة ، ولم يقتصر تعليمه على الاسـلوب البــدائى السائد فى بلاده ، بل سافر الى انجلترا طلبا للعلم . فاذا اقامته بها تمتد عشرين عاما ، حصل خلالها على شهادة من جامعة لندن ، واشتغل هناك حينا بالتدريس كما قام خلال الحرب العالمية الاولى بالقاء محاضرات على رجال الجيش فى أساليب المدفعية المضادة للطائرات .

وعاد عقب انتهاء الحرب الى بلاده حيث عين مترجما بالمحاكم ، ولم يلبث أن انضم فى سنة ١٩٢٢ الى اتحاد شرق أفريقيا ، ولـكن الحكومة البريطانية ألغت هـذا الاتحاد وشتتت أعضاءه ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح كينياتا سكرتيرا عاما للاتحاد المركزى للجيكويو ، وقد أوفده هذا الاتحاد الى انجلترا لتقديم مذكرة الى الحكومة البريطانية ، متضمنة مطالب أهل البلاد ، كما

انتخبه الجيكويو متحدثا باسمهم أمام عدة لجان رسمية ألفتها الحكومة البريطانية لبحث مشكلة الاراضى التى انتزعت من أهل البلاد وأعطيت للمستعمرين البيض ، ومنها لجنة « هيلتون يانج » التى ألفت سنة ١٩٢٨ ، واللجنة المشتركة لتوحيد افريقيا الشرقية سنة ١٩٣١، وقد عهد اليه بتقديم مذكرة الى هذه اللجنة باسم الاتحاد المركزى للجيكويو . وفى سنة ١٩٣٢ حمل لواء الدفاع عن حقوق بلاده فى لندن أمام لجنة « موريس كارتر » وهى التى أذاعت فيما بعد تقريرا عن أراضى كينيا أثار مناقشات عنيفة فى الصحف وفى مجلس العموم البريطانى ، وأسهم كينياتا فى الحملة على هذا التقرير وتفنيده بالحجج الدامغة والبراهين العلمية القاطعة .

ولم تكن انجلترا هى البلد الوحيد الذى تزود كينياتا من معين ثقافته ، بل كان يستكمل وعيه السياسى فى شتى بلاد أوربا ، وقد قال أثناء محاكمته الصورية انه زار بلجيكا وهولندا وسويسرا وفرنسا وبولندة واستونيا وبلغاريا والدانمارك والسويد والنرويج .. ثم قطب وجهه وصاح متهكما على النائب العام :

« اننى أعرف الام تهدف .. وماذا تريد منى أن أقول .. أجل وقد زرت روسيا أيضا .. ولست أجد فى ذلك جرما أو خطيئة .. ! »

وقد صدق كينياتا فيما قال ، فانه ذهب فعلا الى روسيا مرتين ، ودرس فى جامعة موسكو زهاء سنتين ، ولكن أحدا لايستطيع أن يرميه بالشيوعية ، وان كان الاستعمار قد استباح لنفسه كالعادة أن يخلط بين الوطنية والشيوعية ليبرر تصرفاته الوحشية فى محاربة الوطنيين .

وقد تزوج كينياتا فى بريطانيا سيدة بيضاء وأنجب

منها ولدا ، ثم عاد الى وطنه سنة ١٩٤٦ ، فاذا السلطة الغاشمة قد حلت اتحاد جيكويو واعتبرته جمعية ثورية خارجة على القانون ، ولكن ذلك لم يثبط من عزيمة المجاهد الحر كينياتا ، ولم يصرف عنه مئات الالوف من مواطنيه المجاهدين تحت لوائه ، بل زادهم وزاده تفانيا فى سبيل التحرر من نير الاستعمار .. وكان من حسن الحظ أن المستعمرين فقدوا أعصابهم حين اشتدت عليهم وطأة الحركة الوطنية فى كينيا فانتهزوا فرصة وقوع بعض حوادث العنف ، وألقوا القبض على كينياتا وقدموه الى محكمة بريطانية لم تجرؤ على ان تعقد جلساتها فى مدينة نيروبى نفسها خوفا من الوطنيين ، بل انتقلت الى مدرسة نائية تقع على ارتفاع سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر ، وتحيط بها المدافع البريطانية من كل جانب ، بينما كانت السيارات المصفحة تجوب الطرقات وتحرس المنافذ المؤدية الى مكان انعقاد المحكمة مخافة أن يهجم عليها أعوانه لاختطافه ..

ومن طريف ماجاء فى مرافعة ممثل السلطة المستعمرة ضد كينياتا انه يشجع أعمال الارهاب التى تقوم بها عصابة « ماو ماو » الارهابية ، وانه هو الذى أصدر تعليماته الى أعضاء العصابة بالالتجاء للعمل الارهابى فى الخفاء . وقد رد كينياتا بانكار هذه التهمة وقال : انه جمع ثلاثين ألفا من أنصاره ، وأعلن استنكاره لاعمال الارهاب ، وصب لعنته على الارهابيين بقوله : « فلتختف ماو ماو تحت جذور شجرة الميكونكو ، وليمح أثرها من هذا العالم » .

فرد المدعى العام قائلا :

« ان هذه العبارة التى قالها كينياتا ليست لعنة ، فانه لا توجد شجرة تسمى الميكونكو ، وانما هى شجرة

وهمية تتردد فى أساطير الجيكويو فلا معنى لعبارة كينياتا الا أن تكون دعوة الى عصابة ماو ماو للاختفاء والعمل السرى ؟ » وقال المدعى انه منذ أطلق كينياتا دعوته هذه لم تنقطع حوادث القتل والحريق والهجوم على مزارع البيض .

وبعد أن استمرت المحاكمة سبعة وخمسين يوما ، أعلن القاضى الاستعمارى انه قد تبين بعد الاطلاع على التحقيق وبعد الاستماع الى المرافعات ان جوموكينياتا قد اشترك فعلا فى طقوس القسم الدموى التى تقيمها جماعة ماو ماو ، ويتعاهد أفرادها خلالها على التضافر والتعاون لطرد البيض من كينياتا ، وانه نظم بنفسه بعض هذه الطقوس ، ولهذا حكمت عليه المحكمة بالسجن عشر سنوات مع الاشغال الشاقة ، ثلاث سنوات منها لعضويته في جماعة ماو ماو ، وسبع سنوات لاشرافه على هذه الجماعة .

وما كان للعدالة الاستعمارية البريطانية التى رأينا نماذج منها فى دنشواى وفى قلب القاهرة أثناء الثورات المصرية الماضية ، الا ان يكون هذا حكمها على زعيم وطنى حر مثل جومو كينياتا ، رغم علم القاضى الاستعمارى ، وعلم السلطات الحاكمة الغاشمة فى نيروبى وفى لندن ، أن الماو ماو خرافة لا أكثر ولا أقل ، وقد سئل حاكم كينيا نفسه ذات مرة عن ماو ماو ، فقال :

ــ ماو ماو .. اننى لا أعرف شيئا بهذا الاسم .

وعندما ذهب صحفى انجليزى يدعى رالف تشامبيون لمقابلة كينياتا فى احدى الغابات قبيل اعتقاله سأله :

ــ هل تعتقد ان جماعة ماو ماو قادرة على تحقيق أهدافك ؟ ..

فكان جواب كينياتا ضحكة من ضحكاته الرهيبة الساخرة ، ثم قال :

ـ ماو ماو .. هكذا أنتم دائما تخيفون أنفسكم بأنفسكم .. ان ماو ماو هذه خرافة ياسيدى .. فكينيا كلها جماعة واحدة ثائرة ، وستظل كذلك ..

وكأنما رآها كينياتا فرصة سانحة لالقاء القفاز مرة أخرى فى وجه المستعمرين ، فاستطرد يقول للصحفى الانجليزى نفسه :

« اننا لا نريد أن نطرد الرجل الابيض ، ولكننا نريده أن يبقى معنا كمواطن وزميل .. فنحن لا نقبل أن يعيش هو مترفها بينما نموت نحن من الجوع .. أو أن يرفل هو فى الثياب الفاخرة بينما نكتسى نحن بالخرق البالية وجلود الحيوانات .. هذه هى رسالتى ياسيدى وهدفها بصراحة ، وبالرغم من كل محاولاتكم ، هو أن تحكم كينيا نفسها بنفسها ، وأن نكون السيادة فى أرض السود للسود ، وللسود وحدهم » .

وبعد ، فلعل خير ختام لهذا الحديث عن الزعيم الحر العظيم جومو كينياتا ، هو أن ننقل عنه أسطورة رواها فى كتابه الممتع ، تصويرا لعلاقة الجيكويو بالمستعمرين الاوروبيين . وهذه هى الاسطورة كما يتناقلها أهل جيكويو :

« حدث فى قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان ، أن فيلا عقد أواصر الصداقة مع انسان . وهبت ذات يوم عاصفة عاتية قاصفة ، فذهب الفيل الى صديقه الانسان الذى كان يملك كوخا صغيرا على أطراف الغابة وقال له :

ـ أى صديقى الانسان العزيز ، هلا سمحت لى أن ادخل خرطومى فى كوخك ، وقاية له من المطر المنهمر؟

ورثى الرجل لحال صديقه ، فأجابه قائلا :

ـ يا عزيزى الفيل ، أن كوخى صغير ، ومع ذلك فانه لاشك يتسع لخرطومك ولى فتفضـــــل بادخال خرطومك فى كوخى برفق ..

فشكر الفيل صديقه الانسان قائلا :

ـ لقد قدمت لى يدا لا أنساها ، وأرجو أن اتمكن من مكافأتك على صنيعك يوما من الايام ..

فماذا حدث بعــد ذلك ؟ .. لم يكد الفيــل يدس خرطومه فى الــكوخ حتى راح يدفع بنفسه فى بطء داخل الــكوخ الى أن أخرج الرجــل تحت المطر المنهمر ، واستلقى هو لينعم بالراحة داخل كوخ صديقه ، ثم قال له :

ـ أى صديقى العزيز الغالى .. ان جلدك اســـمك من جلدى ، ولما كان الــكوخ لايتســـع لــكلينا ، فان فى استطاعتك أن تبقى تحت وابل المطر ، بينما أحمى أنا جلدى الرقيق من زمهرير العاصفة ..

ولــما رأى الرجل ما صنعه صديقه الفيل ، أخــذ يزمجر ويتضجر ، فسمعت حيوانات الغابة صوته ، وجاءت تتســـــاءل عن جلية الخبر ، وأحاط الجميــــع بالرجل وصديقه الفيل وراحوا يستمعون الى المناقشـــة الحامية الدائرة بينهما ..

وفى وسط الضجيج والعجيج أقبل الاسد مزمجرا ، وصاح صيحة هائلة وهو يقول :

ـ الا تعلمون جميعا أننى ملك الغاب ؟ .. فــكيف تجرؤون على تعكير صفو السلام فى مملــكتى ؟..

وعندما سمع الفيــل ذلك ، تكلم فى صــوت وادع حنون ، بوصفه أحد كبار الوزراء فى مملــكة الغاب ، فقال :

ـ ياسيدى ومليكى ، ليس هناك تفكير لصفو السلام فى مملكتك وكل ما فى الامر اننى أتناقش فى هدوء مع صديقى حول ملكية الكوخ الصغير الذى ترانى جلالتكم أشغله ! !

ولما كان الملك حريصا على استتباب الامن والسلام فى مملكته ، فقد أجاب بصوت رزين :

ـ اننى آمر وزرائى بتعيين لجنة تحقيق لفحص هذه المسألة وتقديم تقرير عنها ..

والتفت عندئذ الى الرجل قائلا :

ـ لقد أحسنت صنعا باقامة عرى الصداقة مع شعبى .. ولا سيما الفيل الذى هو من وزراء دولتى الاكرمين ، وعليك ألا تضجر أو تتذمر فان كوخك لم يضع منك ، وانما ينبغى أن تنتظر حتى تنعقد لجنتى الامبراطورية ، وستتاح لك الفرصة كاملة لشرح وجهه نظرك ، وأنا واثق أنك ستكون راضيا بنتيجة التحقيق.

وقد سر الرجل بهذه الكلمات الحلوة التى سمعها من ملك الغاب وانتظر الفرصة الموعودة فى براءة مطلقة ، معتقدا بالطبع أن يعاد الكوخ اليه ..

وصدع الفيل بأمر سيده ، وراح يتداول مع بقية زملائه الوزراء فى تشكيل لجنة التحقيق .. فاستقر الراى على أن تتألف اللجنة من :

١ ـ السيد قشطة ٢ ـ السيد جاموس
٣ ـ السيد تمساح ٤ ـ السيد المحترم ثعلب رئيسا
٥ ـ السيد فهد سكرتيرا عاما للجنة .

وعندما اطلع الرجل على أمر تشكيل اللجنة ، أبدى احتجاجه قائلا : ان الضرورة تقضى بأن تضم اللجنة عضوا يمثل وجهة نظره ، وكان الرد عليه انه يطلب المستحيل ، لانه لا يوجد فى محيطه أحد بلغ من التعليم

حدا يمكنه من ادراك قوانين الغـابة المعقدة ، ثم انه ليس هناك داع لتخوفه فان أعضـاء اللجنة جميعـا معروفون بالاستقامة والعدالة .. اذ أن الله قد اختار هؤلاء السادة للعناية بأمر الاجناس التى لم توهب كفايتها من المخالب والانياب .. فعليه اذن أن يطمئن الى أنهم سيبحثون الامر بعناية فائقة ويصدرون حكما لا مطعن عليه .

وجلست اللجنة تستمع الى شهادة الشهود ، ونادت الفيل أولا فحضر مزهوا بنفسه وراح يمسح نابيه بفرع شجرة أعطتـه اياه قرينته الفيـلة المحترمة ، ثم تكلم بصوت وقور فقال :

ــ يا سادة الغاب ، لا حاجة بى الى اضاعة وقتكم الثمين فى رواية قصة لا شك انكم تعرفونها ، وكل ما هنالك اننى كنت على الدوام حريصا على رعاية مصالح أصدقائى ، ويبدو أن هذا الحرص أثار شيئا من سوء التفاهم بينى وبين صديقى هذا ، لقد دعانى لانقاذ كوخه من أن تطيح به احدى العواصف ، ولما كانت العاصفة قد استمدت قوتها من وجود مساحة خالية فى كوخ ، فقد وجدت من الضرورى أن أبادر باستغلال المساحة الخالية بأن أجلس فيها بنفسى ، وهذا واجب لا أشك انكم كنتم تبادرون الى أدائه مثـلى فى ظروف كهـذه الظروف .

وبعد أن استمعت اللجنة الى هذه الشهادة الوافية التى ادلى بها الفيل المحترم، نادت اللجنة السيد الضبع وغيره من كبراء الغابة الذين أيدوا السيد الفيـل بالاجماع . ثم نادت الانسان الذى بدأ يدلى بروايته هو لما حدث ، ولـكن اللجنة قاطعته قائلة :

ــ أيها الانسان العزيز ، نرجو أن تحصر شهادتك فى

الوقائع المتعلقة بالموضوع ، فقد استمعنا بالفعل الى ما حدث من أفواه شهود محايدين ، وما عليك الا ان تجيبنا عما اذا كانت المساحة الخالية فى كوخك قد استغلها أحد قبل السيد الفيل أم لا ؟ ..

فبدأ الانسان يقول :

ـ كلا ، ولكن ..

وعند هذه الكلمة أعلنت اللجنة انها قد استمعت الى الشهادات اللازمة من كلا الطرفين ، ثم اختلت للمداولة ..

وبعد أن تناولت اللجنة طعاما شهيا على مائدة السيد الفيل ، أعلنت قرارها ، وهذا نصه :

« ان هذا النزاع فى نظرنا قد نشأ عن سوء تفاهم يرجع الى تأخر آرائك ، ونحن نرى ان السيد الفيل قد أدى واجبه المقدس بأن دافع عن مصلحتك . ولما كان من الواضح انه من مصلحتك أنت أن تستغل المساحة الخالية ، ولما كنت لم تصل بعد الى مرحلة التوسع التى تتيح لك ذلك ، فقد رأينا من الضرورى أن نقترح حلا وسطا يرضى كلا الطرفين، وهو أن يستمر السيد الفيل فى احتلال كوخك ، ولكنا نأذن لك أن تبحث عن مكان آخر تستطيع ان تقيم فيه كوخا يفى بحاجاتك ، ونحن نتعهد عندئذ بالمحافظة عليك .. »

ولما كان الانسان مغلوبا على أمره ، فضلا عن خوفه من التعرض لمخالب أعضاء اللجنة وانيابهم ، فقد نفذ ما طلب منه . ولكنه لم يكد يبنى كوخا آخر حتى هجم عليه السيد وحيد القرن وامره باخلائه ، فعينت لجنة ملكية أخرى لبحث الموضوع وانتهت الى نفس القرار .. وتكرر الامر مرة بعد أخرى حتى استقر كل

من السيد جاموس والسيد فهد والسيد الضبع فى كوخ جديد .

وهنا قرر الرجل أن عليه أن يسلك طريقا أجدى ما دام قد فقد الامل فى انجاح التحقيق فجلس وأخذ يتمتم قائلا :

« ما من دابة على الارض يستحيل صيدها » . وبعبارة أخرى ، انك تستطيع أن تخدع الناس بعض الوقت ، ولكنك لا تستطيع أن تخدعهم الى الابد !

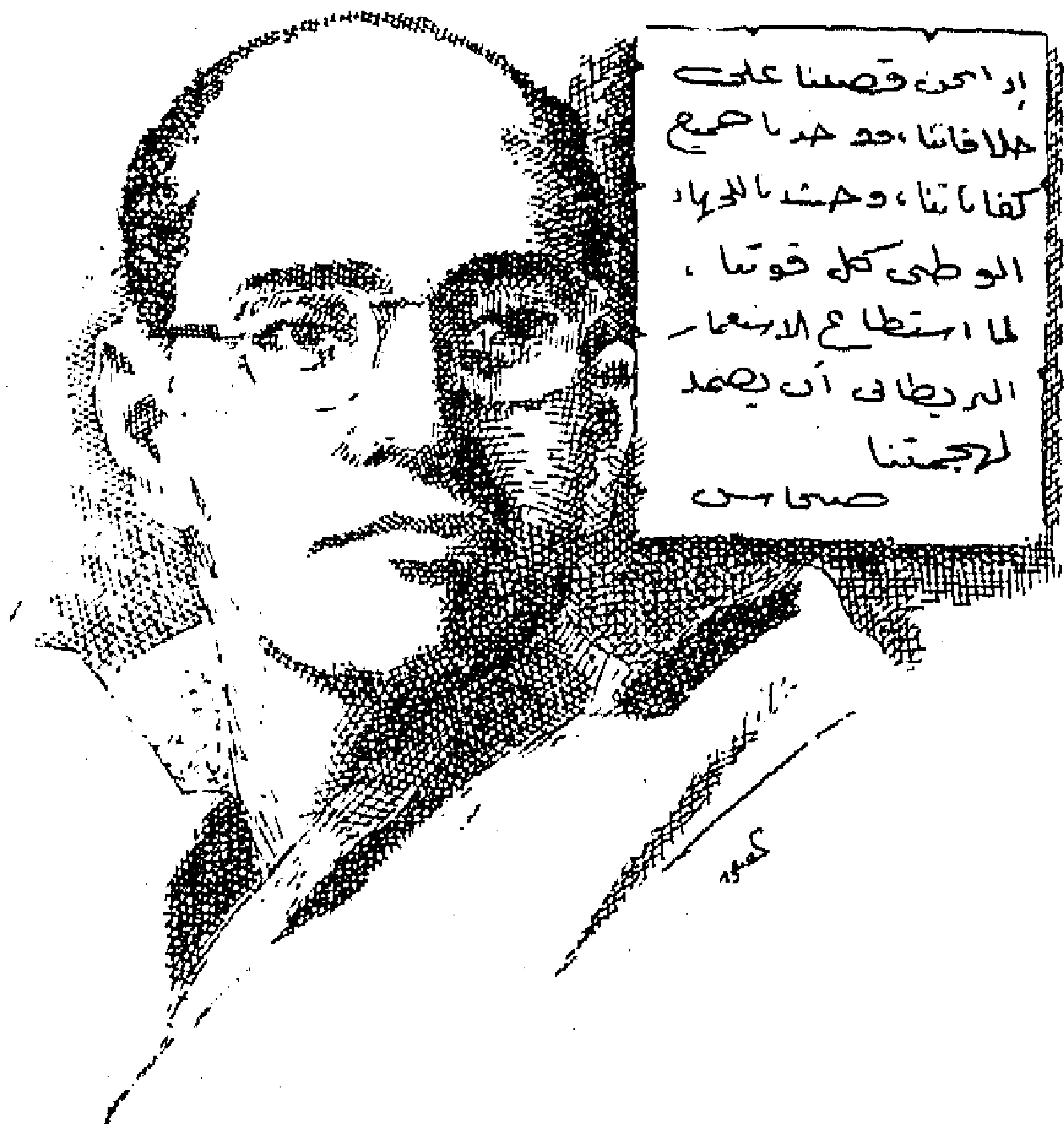
وطلع الصبح ذات يوم ، وكانت أكواخ سادة الغاب قد بدأت تتآكل وتتداعى ، فخرج الانسان وبنى كوخا أكبر وأفخم ، ولكنه يبعد قليلا عن بقية الاكواخ ، وما كاد السيد وحيد القرن يراه حتى سارع فاقتحمه ليجد السيد الفيل قد سبقه ، واستغرق فى نوم عميق ، وأقبل السيد الفهد فقفز من النافذة ، ثم جاء السيد الاسد والسيد الثعلب والسيد الجاموس فدخلوا من الباب ، بينما راح السيد الضبع يعوى طالبا مكانا فى الظل ، فى حين صعد السيد التمساح الى سطح الكوخ واستلقى عليه ، ولم يلبث الجميع أن اشتبكوا فى مناقشة حامية حول حق الفتح والغزو وتطور الكلام الى خصام فعراك ..

وبينما المعركة على أشدها ، أقبل الرجل فأشعل النار فى الكوخ وأحرقه على محتليه .. ثم عاد أدراجه قائلا :

ــ ما أغلى ما يتكلفه السلام ، ولكن ما أجدره بالثمن ..

وعاش الرجل بعد ذلك مرتاح البال ناعما بأحسن حال ..

صبحاس تشندرابوز



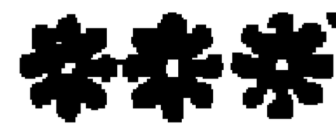
لا أظن بين القــــراء عددا كبيرا يعرف هذا الزعيم ، او يحفظ شيئا يذكر عن صفحات جهاده واستشهاده فى المعركة الشاقة الطويلة التى خاضتها الهند ضـد الاستعمار البريطانى ..

ولكن صــورة صبحاس تشـــاندرابوز تحتل مكانا بارزا فى ملايين البيوت الهندية الى جانب صورة غاندى وخليفته نهرو ، رغم المســافة الشاســعة التى كانت تفصل بينه وبينهما فى أساليب الجهاد ، اذ كانت دعوة غاندى قائمة على السلبية وعدم العنف ، بينما كانت دعوة بوز قائمة على مقاومة الاستعمار البريطانى بالمنطق الوحيد الذى يحسب حسابه وهو منطق القوة المسلحة ومواجهة العنف بالعنف .

والشر ان تلقه بالخير ضقت به
ذرعا ، وان تلقه بالشر .. ينحسم !

وقد رأيت صبحاس بوز فى « تريبورى » بالهند فى شهر مارس سنة ١٩٣٩ يغالب المرض الذى أوشك أن يفتك به ، ولكنه لم يستطع ان يقعـده عن الــذهاب محمولا على ناقلة الى مكان انعقـــاد المؤتمر الوطنى الهندى ، ليخوض معركة انتخابه مرة أخرى لرئاســة حزب المؤتمر ، وقد نجح بالفعل متحديا مرشح غاندى

نفسه .. فلما عدت الى الهند بعد عشر سنوات كانت قد انقضت أربع سنوات على مصرعه فى حادث طائرة يابانية ، فكانت قوة القــدر القاهرة وحدها هى القوة التى عجز عن تحديها بعد حيــاة حافلة بتحدى المرض وتحدى الاستعمار وتحدى زعيمه غاندى نفسه فى أوج سلطانه ! !



ولد صبحاس بوز فى ٢٣ يناير سنة ١٨٩٧ ، بمدينة صغيرة قرب كلكتا تدعى كاتاك Cattack «وقد أصبحت فى سنة ١٩٣٥ عاصمة ولاية أوريسا » وكان أبوه محاميا على جانب من سعة العيش ، وكانت أمه كذلك من اسرة متوسطة الحال . وكان صبحاس تاسع أطفالهما . ويروى صبحاس فى ترجمة حياته التى لم يمهله القدر حتى يتمها ، أن جو الرهبــة الذى كان يسيطر على العلاقة بينه وبين أبويه كان يبعث فى نفســه شــعورا بالحسد نحو الاطفال الذين تربطهم بآبائهم علاقات من الصداقة التى لاتداخلها رهبة . وهو شعور لايصدر الا عن نفس مرهفة الحس والعاطفة . والى جانب هذه الظاهرة فى طفولته كانت هناك ظاهرة أخرى لعبت دورا هاما فى تطور حياته . وهى ان كثرة اخوته وأخواته ، وكان هو أصغرهم ، جعلته يحس بانه ضئيل الشأن. وقد كان لهذا الاحســاس أثره الفعال ، اذ دفعه الى احســاس آخر بضرورة الجد والـكد ليجعل لنفسه قيمة تؤهله للحاق بالذين سبقوه فى السن والمكانة .

وتعد أسرة بوز من أعرق أسر البنغال وأعظمها شأنا ، وقد درس أبوه الحقوق ثم اشتغل بالمحاماة ، وعين فى سنة ١٩٠٥ نائبا عاما ، وانتخب عضوا بالمجلس التشريعى بالبنغال وانعمت عليه الحكومة بلقب « راى بهادور » ،

وفى سنة ١٩١٧ وقع خلاف بينه وبين قاضى القضـــاة فاستقال من منصب النائب العام ، وبعد ثلاث عشرة سنة ـ أى فى سنة ١٩٣٠ ـ تنازل عن لقبه احتجاجا على سياسة القمع التى اتبعتها الحكومة اذ ذاك. وكان والد بوز شـديد الحرص على حضور دورات المؤتمر الوطنى السنوى ، وان لم يكن له نشاط سياسى بارز، فلما بدأت حركة عدم التعاون سنة ١٩٢١ قصر والد بوز نشاطه على الجانب العلمى من برنامج حزب المؤتمر وهو الخاص بتشجيع غزل الملابس ونسجها يدويا ؛ ونشر التعليم الوطنى ، وكان الرجل فضـــلا عن ذلك شديد المحافظة على تعاليم دينه الهندوكى ، وشـــديد البر بالفقراء والمحتاجين ، وقد حرص قبل وفاته على ان يوصى بمعاش خاص لخدمه الذين تقدمت بهم السن

وكانت والدة صبحاس بوز أيضـــا من أسرة عريقة غنية فى شمال كلكتا . وكان جدها وأبوها على جانب كبير من الذكاء والثقافة . ويروى بوز أن جده لأمه ، لم يوافق على زواج ابنته من والد بوز الا بعد امتحان عسير لـكفايته الثقافية ومدى ذكائه !

فى كنف هذين الوالدين نشأ بوز نشأة فيها مزيج من التحفظ والرهبة ، وحب العلم ، واستقامة الخلق ، والحرص على أداء الواجب ، وقد تلقى دروسه الاولى فى مدرسة انجليزية من مدارس الخاصة فى ذلك العهد، وتربى تربيـــة أساســها العنـاية بتقوية الشخصية ، وتنمية الروح الرياضية قبل العناية بالحفظ والدرس وحشو الرءوس بالمعلومات المدرسية ، ولكنه لاحظ بعد ذلك ان هــذه المدارس الانجليزية ، كمثيلاتها فى مصر وغيرها ، وكما هو الشأن فى المدارس الاجنبيـــة التى على غرارها ، تلقن الاطفال فى هذه السن الباكرة معلومات

عن انجلترا وتاريخها وأحوالها أكثر بكثير مما تلقنهم عن أحوال بلادهم وتاريخها فضلا عن اهمال لغة البلاد اهمالا يكاد يكون عن قصد وعمد . وقد كتب صبحاس فى مذكراته يقول : انه على ضوء هذه التجربة لايوافق على الحاق أى طفل أو طفلة هندية بمدرسة انجليزية ، بل يرى من الخطأ فى التربية ارسال الاولاد الى بريطانيا للدرس منذ الصغر ، ويحبذ بدلا من ذلك أن يتلقى الاطفال تعليمهم أولا فى المدارس الوطنية ، ثم يرسلون الى الخارج بعد ذلك أى بعد أن يشبوا ويتلقوا قدرا كافيا من الدراسة عن بلادهم ولغتهم .

وفى كاتاك أيضا تلقى بوز دراسته الثانوية ، وفى هذه الفترة ساقته المصادفة عندما كان فى الخامسة عشر من عمره ، الى مطالعة مؤلفات الفيلسوف الهندى العظيم فيفيكانندا Vivekananda ، فاذا هو يقع على المثل الاعلى الذى عقد العزم على اعتناقه والعمل على تحقيقه فى مستقبل حياته ، وقد تجسم له هذا المثل فى قول ذلك الحكيم الهندى : « فليكن هدفك فى الحياة خلاص نفسك ، وخدمة الانسانية جمعاء» ! وقدكان فيفيكانندا يرى ان خدمة الوطن جزء لا يتجزأ من خدمة الانسانية ومن كلماته المأثورة : « صيحوا أيها الرفاق بأعلى اصواتكم ، ان الهندى العادى ، والهندى الامى . والهندى البراهمى ، والهندى المنبوذ ، كلهم أخى » !

وكانت فلسفة فيفيكانندا تصل الى مستوىعملى واقعى يبلغ حد السخرية اللاذعة ، ومن ذلك قوله لبعض تنابلة النساك : « ان الخلاص يأتى من كرة القدم .. لا من طريق كتبكم المقدسة » ! وكان هدفه من هذه السخرية تحريك الهمم ، والدعوة الى النشاط والعمل بدلا من قتل الوقت والقناعة بقراءة الكتب الهندوكية المقدسة !

وقد كانت حياة بوز من ذلك التاريخ صورة متجددة من صور الحركة والنشاط ، والكفاح الوطنى الحافل بالتضحيات الجسام .

ولعل أقسى تجاربه فى هذه السن الباكرة خروجه من بيت اهله وتخليه فى السادسة عشر من عمره عن حياة الترف واليسار والنعمة بين كنف والديه ، ليهيم على وجهه فى جبال الهمالايا عسى أن يجد فى سكونها الموحش وحيا روحانيا يهديه الى طريق الحق والرشاد . وقد أمضى فى هذه الخلوة الجبلية عاما راح بعده يطوف المدن المقدسة وبينها مدينة بنارس « مكة الهندوكيين » ، وهناك نزلت به الحمى التيفودية وكادت تفتك به ، لولا ان احد الاصدقاء عرف شخصيته ونقله الى عائلته التى كان القلق يستبد بها لغيابه وانقطاع أخباره .

وعاد بوز الى كليته فى كلكتا ، وهناك اشترك مع زملائه فى ضرب مدرس انجليزى ضاق الطلبة بصلفه وكثرة اهاناته . ففصل من الكلية ، ثم عاد فحصل على شهادة الليسانس فى الفلسفة بامتياز الشرف سنة ١٩١٨ ، وسافر بعد ذلك الى انجلترا حيث حصل على شهادة تؤهله لمهنة التدريس ، ونجح فى امتحان المسابقة الذى يعقد للالتحاق بخدمة الحكومة سنة ١٩٢٠ ، ولكنه لم يلبث أن أرسل استقالته بالبريد لانه أنف ان يخدم حكومة اجنبية ، هى الحكومة البريطانية الاستعمارية القابضة على زمام الامر فى الهند .

وواصل بوز دراسته فحصل على درجة أخرى من جامعة كمبردج سنة ١٩٢١ وعاد الى الهند فى سبتمبر من ذلك العام ليسهم فى حركة العصيان المدنى تحت زعامة غاندى ، وفى نوفمبر من العام نفسه تزعم حركة قامت بتنظيم مقاطعة الاحتفال بزيارة البرنس أوف

ويلز للهنــد فألقى القبض عليه وعلى الزعيم الهنــدى المسلم المعروف مولانا أبوالكلام أزاد ، وعلىالزعيم الهندوكى المشهور فى البنغال « داس » .

ولم يكد يفرج عنــه حتى خصص معظم نشــاطه لتنظيم حركات الشباب وأنشأ حزب الشباب البنغالى واصبح هو رئيسه ، ولما توفى «داس» أصبح بوز زعيم البنغال غير منازع . وقــد قبض عليه مرة أخرى فى أكتوبر سنة ١٩٢٤ لنشاطه الوطنى ، وزج به فى سجون اليبور ، وماندلاى واينين ، فى بورما « وكانت يومئــذ جزءا من الهند » .

وقد انتخب بوز عضوا بالمجلس التشريعى عن شمال كلكتا ، ثم عين فى سنة ١٩٢٩ هو والبانديت جواهر لال نهرو سكرتيرين للمؤتمر الهندى الوطنى . وفى ذلك العام قام بوز بتنظيم حركة أخرى لمقاطعة لجنة سيمون التى أوفدها الانجليز لتحطيم وحدة الشعب الهندى ، تماما كما فعلوا يوم أرسلوا لجنة ملنر الى مصر وكان نصيبها أيضا تلك المقاطعة الرائعة .

وفى سنة ١٩٣٠ انتخب بوز رئيسا لبلدية كلكتا وهو يمضى فترة أخرى فى أحد سجون بورما . وفى ســنة ١٩٣١ نظم مظاهرة وطنيــة كبرى ضــد الاستعمار ، وهاجم اشتراك المؤتمر الوطنى فىمؤتمر المائدة المستديرة ودعا الى محالفة الدول التى تناصب بريطانيا العداء ، لا حبــا فى أية دولة من تلك الدول ، بل كراهيــة فى الاستعمار البريطانى .

وفى سنة ١٩٣٢ القى القبض من جديد على بوز وظل فى الاعتقال حتى شهر مارس سنة ١٩٣٣ ، اذ اضطرت السلطات البريطانية للافراج عنه بسبب انهيار صحته ، ولم يجد بدا من الســماح بنقله الى أوربا لاســعافه

بالعلاج ، ولم تكد صحته تتحسن حتى استقل الباخرة عائدا الى وطنه فجأة من النمسا دون أن يحصل على اذن من الحكومة فألقى القبض عليه فى الباخرة بميناء بمباى وأودع غياهب السجن من جديد ، وما زال يعانى فى سجنه حتى تدهورت صحته مرة أخرى ، فاضطرت الحكومة الى اطلاق سراحه سنة ١٩٣٧ وصرحت بنقله الى فينا لمعاودة العلاج ، ولكنه لم يكد يتقدم خطوات فى طريق الشفاء حتى راح ينظم صفوف الشباب الهندى فى أوربا ، وينفخ من روحه الوطنية الجبارة .

وبينما هو فى أوربا الوسطى رأى حزب المؤتمر الوطنى أن يعبر عن تقديره لجهاد صبحاس بوز واخلاصه لوطنه ، فانتخبه رئيسا للمؤتمر فى دورة سنة ١٩٣٨ ، التى عقدت فى مدينة هاريبوا . ولكن عوامل الخلاف حول وسائل الجهاد بين بوز واللجنة العليا للمؤتمر ، وهى التى يسمونها « اللجنة العاملة » لم تهدأ بهذا التكريم الوطنى للزعيم الشاب ، الذى كان يعترض أشد الاعتراض على قبول الحكم المؤقت فى ظل الاحتلال البريطانى ، وكان يرى ألا يشترك المؤتمر الوطنى فى حمل اعباء الحكم قبل أن يجلو الاستعمار عن آخر شبر من أرض الوطن . وقد اتخذ الخلاف صورته الحادة فى الدورة التى عقدها حزب المؤتمر فى تريبورا سنة ١٩٣٩ وهى الدورة التى كان من حظى أن أشهدها ، وان اقابل الزعيم فى مخيمه يعانى أوصاب المرض قريبا من مكان المؤتمر . ومن هذا المخيم المتواضع أدار المناضل الجبار معركة انتخابه ، أو على الاصح تجديد انتخابه لرئاسة المؤتمر ، متحديا مرشح القيادة العليا للحزب ممثلة فى غاندى ونهرو وباتل .. وقد كتبت يومئذ اصف المعركة ، فقلت :

« انها معركة حامية الوطيس بين اليسار واليمين ، »
« بين الشدة واللين ، بين التهور والتبصر . بين »
« المضاء فى الجهاد ، والولاء لزعماء الجهاد »
« الاقدمين ... وكان أغرب مظاهر هذه المعركة »
« ان طرفيها الحقيقيين خاضا غمارها عن بعد : »
« غاندى زعيم الامة المقدس يديرها من صومعته »
« التى أبى أن يفارقها ليحضر دورة المؤتمر رغم »
« الحاح الجميع عليه وفى مقدمتهم بوز .. وبوز »
« يديرها من فراش المرض فى خيمته بارض »
« المؤتمر ، وقد أصر على ان ينقل الى جبلبور »
« رغم اشتداد وطأة المرض عليه قائلا : انه يؤثر »
« أن يموت بين عشرات الالوف الذين حضروا من »
« أطراف الهند للاجتماع فى هذه البقعة ، وانه »
« ليس من حقه كرئيس المؤتمر فى دورته الماضية »
« ومرشحه فى دورته القادمة أن يتخلف عن هذه »
« الجماهير ولو كان مصابا بذات الرئة وكان »
« موقف نهرو من هذه المعركة بين زعيمه الجليل »
« وزميله العليل آية من آيات النضال السياسى »
« فى انبل معانيه .. اذ كان يقسم وقته بين الاشراف »
« على المعركة والخطابة فى تأييد مرشح القيادة »
« العليا للرئاسة ، وبين السعى مهرولا الى خيمة »
« منافسه صبحاس بوز للاطمئنان على صحته ، »
« كصديق وزميل ومجاهد كريم .. »

« وكان الفوز حليف المرشح اليسارى الثائر »
« العليل صبحاس تشندرا بوز » .

وكانت خطبة الرئاسة التى أعدها بوز ، ولم يتمكن من القائها بنفسه لمرضه ، فألقيت باسمه ، من أروع الخطب السياسية ، بل الوطنية فى تاريخ الهند ، ولولا

ضيق المقام لنقلتها بأكملها ، ولكنى أجتزىء الآن بقوله :

« اذا نحن قضينا على خلافاتنا ، ووحدنا جميع كفاياتنا ، وحشدنا للجهاد الوطنى كل قوتنا ، لما استطاع الاستعمار البريطانى أن يصمد لهجمتنا . فهل يتوفر لدينا من بعد النظر السياسى ما يكفل لنا استغلال موقفنا الملائم الحالى الى أقصى حدود الاستغلال ، أم اننا سنضيع هذه الفرصة النادرة فى حياة أى شعب من الشعوب .

لقد أشرت فيما سبق الى ما ينبغى علينا من القيام بزحف نهائى نحو الاستقلال . وهذا يقتضى أن نعد للجهاد عدته .. وأول ما ينبغى فى هذا الصدد هو أن نتخذ الخطوات لكى نقضى فى غير رحمة على أى عنصر من عناصر الفساد أو الضعف تتسرب الى صفوفنا لاسباب مرجعها فى الغالب بريق الحكم الجذاب .. وعلينا بعد ذلك أن نعمل فى تعاون وثيق مع جميع الهيئات التى تحارب الاستعمار فى البلاد. فلا بد لجميع الهيئات الراديكالية من التعاون وتنسيق العمل فيما بينها ، ولا بد من توحيد جهود المنظمات المعادية للاستعمار حتى تتضافر كلها فى توجيه الهجوم الحاسم على الاستعمار البريطانى » .

وقد حاول بوز تأليف هيئة عليا مشتركة من طرفى اليمين واليسار فى المؤتمر الهندى فلم يوفق ، واضطر الى الاستقالة من رئاسة المؤتمر فى دورة كلكتا فى ابريل سنة ١٩٣٩ ، وفى شهر مايو ألف « الجبهة التقدمية » داخل المؤتمر وحاول أن يوحد تحت لوائها جميع العناصر اليسارية ، وفى دورة المؤتمر التى عقدت سنة ١٩٤٠ حمل على سياسة المهادنة وعارض فى وقوف

الهند الى جانب بريطانيا فى الحرب الاستعمارية الناشبة ، وفى ٦ ابريل سنة ١٩٤٠ راس دورة الجبهة التقدمية فى ناجبور ، وقاد المظاهرات الوطنية فى كلكتا فقبض عليه وعاد الى مكانه المعتاد فى السجن ، ولكنه أعلن اضرابه عن الطعام حتى الموت أثناء محاكمته ، فأفرج عنه لتدهور صحته فى ديسمبر سنة ١٩٤٠ ، وحددت اقامته فى منزله . واستطاع رغم الرقابة البوليسية الدقيقة أن يختفى من منزله فى ١٦ يناير ١٩٤١ ، وعرف بعد ذلك انه أطلق لحيته واتقن التخفى حتى استطاع الافلات من حصار الانجليز ، ورحل الى بورما والملايو وأعلن فى سنة ١٩٤٣ تشكيل حكومة « ازاد هند » أى الهند الحرة فى سنغافورة تحت رئاسته وعقد محالفة سياسية حربية مع دول المحور لمساعدته فى تحرير الهند ، وأصبح هو قائدا عاما للقوات التى حشدها بالفعل ، وحاول أن يحرر بها وطنه من المستعمر بحد السلاح .

ثم كان ما هو معروف من رجحان كفة الحلفاء فى الشرق الاقصى ضد اليابان ، فاضطر الى ركوب طائرة خصصها اليابانيون لنقله الى اليابان مع لفيف من جنوده الاوفياء ، بينهم صديقه وزميله الكولونيل حبيب الرحمن ، وقامت بهم الطائرة بعد ظهر يوم ١٨ اغسطس سنة ١٩٤٥ ، ولكنها لم تكد تحلق مسافة مائة وعشرين قدما حتى سقط أحد محركاتها ، فلما هبطت الى الارض اندلعت فيها النيران ، وخرج منها بوز وهو شعلة من اللهب ، فبادر صديقه الكولونيل حبيب الرحمن الى اطفاء النار غير عابىء باصابته هو ، غير أن النار لم تهدأ حتى تركت آثارها السيئة فى جسم المجاهد الجبار .. فما هى الا ساعات مضت على نقله الى

المستشفى حتى فاضت روحه الطاهرة فى الســاعة التاسعة مساء اليوم نفسه ، وقد ظـل محتفظا بوعيه وهدوئه حتى اللحظة الاخيرة ، وقبـل ان تنطفىء الخفقة الباقية من سراج حياته استدعى اليه الكولونيل حبيب الرحمن وطلب منه أن يحمـل الى مواطنيه الرسـالة الآتية :

« لقد كافحت حتى النهاية فى سبيل اســتقلال »
« الهند وهأنذا أبذل حياتى فى سبيل هذه الغاية »
« فامضوا فى كفاحكم أيها المواطنون ، ولن يمضى »
« وقت طويل حتى تتحرر الهند .. لتحى الهند »
« الحرة .. »

***

وقد احتفـل باحراق رفات الزعيم طبقا للتقاليـد الهندوكية فى الثانى والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٤٥ ، وجمع الرماد فى اليوم التالى واودع معبـد البوذيين فى رنكوجى باليابان فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٥

وبعد... فقد كتب الصحفى المؤلف المعروف «جون جنتر » فى كتابه « داخل آسيا » يقول : انه لايوجد هندى ضحى وتعذب فى سبيل وطنه أكثر مما ضحى صبحاس بوز ، سوى زعيم واحد هو جواهر لال نهرو.

وكان ذلك فى سنة ١٩٣٩ ..

ولم يكن « جنتر » يعلم يومئذ أن تضحية صبحاس بوز ستقوده الى اعوام أخرى من السجن ، والفرار ، والهجرة من الوطن ، والـكفاح المسلح الذى لم ينته الا بالموت ... أعنى بالخلود الذى ليس بعده خلود !

عبد الرحمن الكواكبي

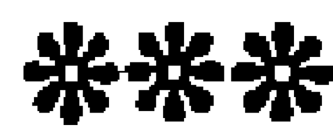


هنا رجل الدنيا ، هنا مهبط التقى
هنا خير مظلوم ، هنا خير كاتب
قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا
عليه ، فهذا القبر قبر الكواكبى

لا ادرى ماذا فعلت الرياح والرمال ، والاعوام الطوال ، بهذين البيتين اللذين نقشا على مقبرة المجاهد المناضل الفيلسوف الحر عبد الرحمن الكواكبى الذى وافته منيته بالقاهرة فى مطلع القرن الحالى ، أو فى سنة ١٩٠٢ على وجه التحديد . ولكنى أرجو ــ مع كل اعجابى بشاعر النيل حافظ ابراهيم ــ أن تكون يد الطبيعة قد عاونت يد الزمان فى محو هذا الشعر الفاتر الذى يشبه نظم « الفقهاء » رثاء لرجل من قلائل الرجال الذين لا يكمل تاريخ الكفاح فى سبيل حرية الشرق دون أن يذكروا فى أمجد صفحاته .

ولعل أروع ما يصادف الانسان فى صحبة عبد الرحمن الكواكبى أنه لم يتخذ الفلسفة أو دعوة الاصلاح حرفة يستغنى بها عن الكسب أو يكسب من طريق الاتجار بها والتواكل على حسابها ، وانما كان رجل مال وأعمال ، ورجل كفاح ونضال ، ورجل خلق واصلاح ، ورجل هندسة وقانون وسياسة ، ومع ذلك فانه لم يدرس شيئا من هذا كله دراسة علمية منتظمة

بل كان « عمدته فى هذه العلوم ما طالعه فيها من المؤلفات والجرائد التركية والعربية » كما كتبت فى تأبينه مجلة « المنار » ، وقد تساءل صاحب المنار فى هذا الصدد وكان فى تساؤله محقا : « أرأيت عقلا يتصرف هذا التصرف الذى يفوق فيه الحكماء والفلاسفة فى علم لم يأخذه بالتلقى ، وهو أصعب العلوم البشرية وأعلاها ، وكيف يكون أثره لو تربى وتعلم فى مدارس منتظمة كمدارس أوربا الجامعة ؟ .. »



لقد ولد عبد الرحمن الكواكبي سنة ١٨٤٩ بمدينة حلب من أسرة الكواكبى المشهورة ، وكان أبوه الشيخ احمد الكواكبى من أفاضل العلماء الذين يدرسون فى الجامع الاموى بدمشق . وكانت لاسرته آثار مشهورة منها المدرسة الكوكبية بحلب . وقد تلقى مبادىء القراءة والكتابة فى بعض المدارس الاهلية وتعلم اللغتين التركية والفارسية ، على يد مدرس خاص . ودرس العلوم العربية والشرعية بمدرسة الكواكبية ، كما تلقى بعض علوم الرياضة والطبيعة ، ودخل خدمة الحكومة فى الثامنة والعشرين من عمره ، اذ عين محررا للجريدة الرسمية بقسميها العربى والتركى ، ثم عين كاتبا فخريا ـ أى بدون راتب ـ للجنة المعارف بولاية حلب ، وبعد ثلاث سنوات عين عضوا فخريا أيضا بقسم الاشغال العامة ، ثم مسجلا للمحكمة ، ثم رئيسا لقلم المحضرين ، ثم عضوا فخريا بلجنة امتحان المحامين .. ثم مديرا فخريا لمطبعة الولاية الرسمية ، ثم رئيسا فخريا للجنة الاشغال .. ثم عضوا فى المحكمة المدنية بالولاية . وفى سنة ١٨٩٤ ـ أى عندما كان فى الخامسة والاربعين من عمره ـ عين رئيسا للبلدية . وبعد عامين عين رئيسا

لكتاب المحكمة الشرعية ، ثم عين ناظرا ومفتشا لمصلحة احتكار التبغ فى ولاية حلب ومدبرية الزور ، وفى خلال ذلك اتفق مع المصلحة على أن يتسلم هو جميع ما تنتجه من التبغ ويتولى بيعه فى مقابل مبلغ يزيد زيادة ضخمة عن الثمن الذى كانت تتقاضاه المصلحة ، ثم عين رئيسا لغرفة التجارة بحلب ورئيسا لمجلس ادارة البنك الزراعى ، ثم عين قاضيا شرعيا لاحدى الولايات السورية .

وقد علق احد مترجميه على هذا التنوع الغريب فى الوظائف التى تولاها الكواكبى فقال : « ان من لم يكن عارفا بالمترجم — أى الكواكبى — ولا بسيره فى هذه الوظائف العلمية ، الادبية الادارية ، العلمية ، الحقوقية ، التجارية ، الزراعية ، المالية ، يقول ان صاحبها من اوساط الناس لا من أفراد الرجال الذين يعدون من علماء الاجتماع وأركان العمران ومهذبى الامم .. ولكن من يعلم انه فى كل عمل منها آية بينة فى انفاذ العمل وحكمة التصرف يحار كيف يحسن رجل هذه الأعمال المتباينة ! »

وهذا حق تؤيده صحيفة أعمال الرجل واتجاهاته فى كل دور من أدوار حياته . وقد استهل حياته العامة بأن أنشأ ، وهو فى الثلاثين من عمره ، مجلة أسبوعية أسمها « الشهباء » حمل فيها على مظالم الدولة العثمانية ، حملة شعواء كانت سببا فى اغلاقها ، فأصدر مجلة أخرى سماها « الاعتدال » فلم تكن أسعد حظا من سابقتها ..

ولم يكن تعطيل الجريدتين هو كلما أصاب الكواكبى من ظلم وعنت ، بل ان حملته على الاستبداد جرت عليه فى أعقاب ذلك مؤامرة دبرها له أحد ولاة حلب ، وحكم

عليه بالسجن ، فاستانف الحكم ، فحكم ببراءته ، ولكنه خسر بسبب ذلك خسارة مالية جسيمة فى شركاته ومزارعه ، وما زال الاضطهاد يلاحقه فى نفسه وماله حتى هاجر الى مصر حيث أقام سنتين ، قام خلالهما بسياحتين طويلتين الى بلاد العرب والهند ، وشرقى افريقيا ، ثم توفى بمصر سنة ١٩٠٢ ، قبل أن يتجاوز الثالثة والخمسين من عمره ، وقيل فى بعض الروايات انه مات ميتة غير طبيعية ، وان السلطان عبد الحميد قد بعث الى مصر بمن دس له السم فى الطعام، بعد أن ضاق بدأبه على مهاجمة الطغيان فى سلسلة من المقالات نشرتها له جريدة « المؤيد » وجمعت فيما بعد فى كتابه المشهور الذى سمى « مصارع الاستبداد » .

على ان الرواية التى ساقها فى هذا الصدد صديقه الاديب العلامة المعروف السيد محمد كردعلى ، لاتؤيد هذا الظن ، فهو يروى فى مذكراته ماحدث فى الليلة التى مات فيها الكواكبى قائلا : « جاءنى ذات ليلة ـ أى الكواكبى ـ يسمر معى فى دارى مع الحبيب رفيق بك العظم ويستشيرنى فى أمر عظيم ، قال أن الخديو عباس عرض عليه أن يصحبه الى الآستانة ، وكان الخديو يصطاف فيها ، ليقدمه الى السلطان العثمانى ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تنحل هذه المشادة ويطمئن خليفة الترك اليه ، فصعب علي وعلى رفيق بك ابداء رأى فى موضوع جد خطير كهذا ، لان ابن عثمان لا تاخذه هوادة فيمن خرجوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الرجل ضحيتها . ومما قال لنا انه حائر فى أمره بين القبول والرفض ، وانه شعر بالامس بوجع فى ذراعه ، وما عرف له تعليلا » وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبى الى داره .

فما هي الا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ان ابن السيد « كاظم » في الباب يبكي وينوح ويقـول : قم ياكردعلي فان صديقك أبى مات ، فاضطربت اضطرابا قل أن اضطربت مثله ، ودخلت على الرجل فسجيته بيدى ، ومن الغد دفناه بمشهد حافل ، وأبنته الصحف تأبينا قدرته فيه قدره . شغل اصحابنا هول الفجيعة وذهبوا الى ان الكواكبى مات مسموما ، واستبعد ذلك بعضهم ، وكان الناس يتهمون عبد الحميد بانواع من التهم وكان بعض من اقتربوا منه يبرئونه مما يرمى به » ..

والرواية على هذا النحو لا تشير الى شيء من اعراض التسمم ، ولعلها تشير فى الوقت نفسه الى احد الاعراض التى قد تفسر المرض الذى مات به الكواكبى، فان السيد كردعلي يذكر ان الكواكبى شكا اليه ألما اصابه فى ذراعه فى اليوم السابق لوفاته ولم يعرف له تعليلا ، وانا لا احب أن أدعى علم الطب ، ولكني أذكر مع التحفظ ان مثل هذا الالم يعتبر عرضا من أعراض الذبحة الصدرية التى تودى بحياة الكثيرين أحيانا في ساعات معدودات .

ومهما يكن من أمر السبب المباشر لوفاة الكواكبى فى الثالثة والخمسين من عمره ، فان الذى لاشك فيه انه ترك فى أدب الكفاح كتابين خالدين ، على ضآلة حجمهما ، وهما : « مصارع الاستبداد » و « أم القرى » .

أما الكتاب الاول فقد جعل عنوانه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » واضاف الى العنوان هـذه الكلمات : « وهى كلمات حق وصيحة فى واد ، ان ذهبت اليوم مع الريح ، فقد تذهب غدا بالاوتاد ، وطبع

الكتاب بمطبعة التوفيق بشارع كلوت بك بمصر ، منسوبا الى « الرحالة ك ... »

وقد قال الكواكبى فى مقدمة الكتاب : « انه المضطر بالاكتتام حسب الزمان، الراجى اكتفاء المطالمين الكرام بالقول عمن قال ... »

وهكذا يعزو الكواكبى « اكتتامه » وهو تعبيره عن السرية والتخفى ، الى مقتضيات « الزمان » ... ثم يضيف الى ذلك ايضاحا يقول فيه انه حين قدم الى مصر نشر فى بعض الصحف « أبحاثا سياسية علمية فى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، منها مادرسته ومنها ما اقتبسته ، غير قاصد بها ظالما بعينه ولا حكومة مخصصة ، انما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين ، عسى يعرف الشرقيون انهم هم المتسببون فلا يعتبون على الاغيار ، ولا على الاقدار ... »

بهذه الروح الصريحة الجريئة ، وبهذا الافق الواسع الفسيح ، ولهذا الهدف الجليل الخطير، كتب الكواكبى أبحاثه ودراساته عن طبائع الاستبداد ، وقد حاول بعض الناس التشكيك فى انه صاحب هذه المقالات ، ونسبوها الى كتاب ايطالى ترجم الى اللغة التركية ، وعنه نقل الكواكبى كثيرا مما كتب ، ولكن هذه الدعوى تفتقر الى تحديد وتأييد وان يكن الكواكبى قد اعترف فى المقدمة بانه قد استعان « بالاقتباس ».

والواقع ان الذى يقرأ هذه الفصول لا يشك فى أصالة النفس الحرة التى أملتها ، وحرارة العقيدة التى دفعت اليها • وان المرء ليكاد يحار فى اقتباس بعضها والاعراض فى بقيتها ، فان الفصول فى تعددها تؤلف وحدة متناسقة ، متصلة يصعب فصلها واقتضابها

ولعل من أمتع هذه الفصول ما جاء فى مستهلها عن تعريف الاستبداد ، ومن أقواله فى هذا الفصل :

« المستبد يتحكم فى شئون الناس بارادته لا بارادتهم، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعى لمطالبته»

« المستبد عدو الحق عدو الحرية وقاتلهما والحق أبو البشر والحرية أمهم ، والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا ، والعلماء هم اخوانهم الراشدون ، ان ايقظوهم هبوا ، وان دعوهم لبوا »

ويقول فى فصل آخر عن « الاستبداد والدين » :

« ان الاسلامية مؤسسة على أصول الادارة الديمقراطية أى العمومية والشورى الارستقراطية اى شورى الاشراف . وقد مضى عهد النبى عليه السلام وعهد الخلفاء الراشدين على هذه الاصول بأتم وأكمل صورها ، خصوصا وانه لايوجد فى الاسلامية نفوذ دينى مطلقا فى غير مسائل اقامة الدين .. . »

« ان العلم كشف فى هذه القرون الاخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء اوربا وأمريكا ، والمدقق فى القرآن يجد أكثرها ورد بالتصريح أو التلميح به فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا ... »

« كشفوا ان مادة الكون هى الاثير ، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال : « واستوى الى السماء وهى دخان »

« وكشفوا ان الكائنات فى حركة دائمة ودائبة والقرآن يقول : « وآية لهم الارض الميتة أحييناها »

الى أن يقول : « وكل فى فلك يسبحون »

« وحققوا ان الارض منفتقة من النظام الشمسى والقرآن يقول : « ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما »

« وحققوا أن العالم العضوى ومنه الانسان ترقى من الجماد والقرآن يقول : « خلقنا الانسان من سلالة من طين »

ويتحدث فى فصل آخر عن الاستبداد والعلم فيقول :

« المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته ، لان للعلم سلطانا أقوى من كل سلطان فلا بد للمستبد من أن يحتقر نفسه كلما وقعت عيناه على من هو أرقى منه علما ، ولذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم ذكى فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار المتصاغر المتملق ، وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله : « فاز المتملقون » ...

« وينتج مما تقدم أن بين الاستبداد والعلم حربا دائمة ، وطرادا مستمرا ، يسعى العلماء فى نشر العلم ويجتهد المستبد فى اطفاء نوره ، والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم العوام ؟ هم أولئك الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا . وهم الذين اذا علموا قالوا ، ومتى قالوا فعلوا ... »

أليست هذه خلاصة دقيقة للصراع بين شعوب الشرق وبين الاستعمار تارة ، وبينها وبين الحكام الطغاة تارة أخرى ؟

وعلى هذا النسق يمضى الكواكبى فيحدثنا حديثا اخاذا مثيرا لانبل العواطف فيتكلم عن الاستبداد والمجد ، والاستبداد والمال ، والاستبداد والاخلاق ،

والاستبداد والتربية ، والاستبداد والترقى ، الى أن يختتم هذه الفصول الرائعة بفصل عن الاستبداد والتخلص منه . وفى هذا الفصل يطرح « لتدقيق المطالعين » رءوس مسائل تصل الى خمسة وعشرين تحدث عن آخرها فوضع القواعد التالية :

١ ـ الامة التى لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية .

٢ ـ الاستبداد لا يقاوم بالشدة ، انما يقاوم باللين والتدريج .

٣ ـ يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد .

وأخيرا يختتم الكتاب قائلا :

« وانى أختم هذا البحث بأن الله جلت حكمته قد جعل الامم مسئولة عن أعمال من حكمته عليها وهذا حق . فاذا لم تحسن الامة سياسة نفسها أذلها الله لأمة أخرى تحكمها كما تفعل الشرائع باقامة القيم على القاصر ، أو السفيه ، وهذه حكمة . ومتى بلغت أمة رشدها استرجعت عزها وهذا عدل . وهكذا لا يظلم الله الناس ، بل الناس هم أنفسهم يظلمون »

***

أما الكتاب الآخر ، وهو « أم القرى » فقد قيل فى عنوانه : « انه ضبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية المنعقدة فى مكة المكرمة سنة ١٣٩١» وقد أعدمت الطبعة الاولى من هذا الكتاب بأمر السلطان عبد الحميد ... فأعيد طبعه مرات ، وكان وجود نسخة منه فى زمن الظلم فى منزل أحدهم كافيا للقضاء عليه قضاء أبديا على حد قول ناشره .

وقد قال الـكواكبى فى تقديمه :

« اما بعد ، فأقول أنا الرحالة المتكنى بالسيد الفراقى ، انه لما كان عهدنا هذا ، وهو أوائل القرن الرابع عشر عهدا عم فيه الخلل والعنف كافة المسلمين وكان من سنة الله فى خلقه أن جعل لكل شيء سببا فلا بد لهذا الخلل الطارىء والعنف النازل من أسباب ظاهرية غير سر القدر الخفى عن البشر . فدعت حمية بعض أفاضل العلماء والفارئين والكتاب السياسيين للبحث عن أسباب ذلك والتنقيب عن أفضل الوسائل للنهضة الاسلامية ، فأخذوا ينشرون آراءهم فى ذلك فى الجرائد الاسلامية الهندية والمصرية والسورية والتاتارية وقد اطلعت على كثير من مقالاتهم الغراء فى هذا الموضوع الجليل ...

« ثم بدا لى أن أسعى فى توسيع هذا المسعى بعقد جمعية من سراة الاسلام فى مهد الهداية أعنى مكة المكرمة » .

ويستطرد الكواكبى فيذكر انه قام برحلة واسعة حتى وصل الى المدينة المنورة ، وهناك وجد أكثر الذين دعاهم للاجتماع اثناء الرحلة قد سبقوه ما عدا الاديب البيروتى ، وفى انتظار الاجتماع سعى مع بعض الوافدين فى تحرى واختيار اثنى عشر عضوا لاضافتهم للجمعية وهم من مراكش وتونس والقسطنطينية وبفجه سراى وتفليس وتبريزوكابل وكشغر وقازان وبكين ودلهى وكلكتا وليفربول .

وعن هؤلاء جميعا يقول الكواكبى انه عقد مؤتمرا للبحث فى دار اتخذها بمكة باسم مستعار وراح كل منهم يسرد آراءه فى أسباب تأخر الاسلام والمسلمين ،

والشرقيين أجمعين ، والوسائل الكفيلة بازالة هذه الاسباب .

وقد اختار الكواكبى لكل منهم اسما مستعارا ، ينسب فيه كل مندوب الى بلده .

ولم يكن لهذا المؤتمر أثر الا فى مخيلة العالم المصلح المكافح الذى أصبح اسمه اليوم علما من أرفع اعلام الكفاح ضد الفساد وضد الاستبداد .

شارلوت كورداى



ـ ماذا كان الفرض من قدومك الى باريس ؟

ـ لم يكن لى سوى غرض واحد ، هو أن أقتل مارا ...

ـ وما هى البواعث التى حملتك على ارتكاب جريمة بشعة كهذه ؟

ـ جرائمه الكثيرة ...

ـ ما هى الجرائم التى تنسبينها اليه ؟

ـ خراب فرنسا ، والحرب الاهلية التى أشعل نارها فى انحاء البلاد ...

ـ على أى أساس تبنين هذه الاتهامات ؟ ..

ـ على أساس ان جرائمه الغابرة تدل على جرائمه الحاضرة ، وانه المحرض على مذابح شهر سبتمبر ، وانه كان حريصا على ابقاء نيران الحرب الاهلية مشتعلة لعله يصبح دكتاتورا وانه حاول الاعتداء على سلطان الشعب اذ تسبب فى القبض على النواب وسجنهم فى ٣١ مايو ...

ـ وأى دليل عندك على أن مارا هو الذى ارتكب هذه الشرور التى تذكرينها ؟ ..

ـ ليس لدى أى دليل أقدمه ، ولكن هذا هو الاعتقاد السائد فى فرنسا ، وستثبت صحته الايام ،

وقد كان مارا يخفى خطته خلف قناع من الوطنية ...
ـ وهل قصدت قتله حينما سددت اليه الضربة ؟
ـ كان هذا هو قصدى الاكيد ! ..
ـ هل كنت تعلمين عندما سددت الضربة انها ستقتل مارا ؟ ..
ـ كنت أعتقد ذلك ...
ـ ان تصرفا وحشيا كهذا ما كان ليصدر عن امراة فى سنك الغضة دون أن يحرضك عليه أحد ...
ـ انني لم أفض بخطتي لأحد ، واننى حين قتلت مارا لم أكن أعتقد انني أقتل مخلوقا بشريا ، بل حيوانا ضاريا يلتهم فرنسا ! ..

بهذا المنطق ، وبهذا الايمان ، وبهذا الثبات وقفت شارلوت كورداى « الملاك القاتل » تجيب على هذه الاسئلة وعشرات ومئات من أمثالها أمام المحكمة وأمام المحققين ، غير مضطربة ، ولا متلعثمة ، ولا نادمة ، بل ممتلئة ، على العكس من ذلك ، بشعور عجيب يمتزج فيه الفخر بالايمان والوطنية بالانسانية ، والصدق بالبساطة والتضحية بالتواضع ...

ولكن ، لنبدأ المأساة من أولها ، ولنعد فترة قليلة الى الوراء ...

كانت الثورة الفرنسية فى ذلك العام ـ عام ١٧٩٣ ـ قد بلغت مرحلة من العنف والتطاحن الشخصى واختلاط الاهداف بالاطماع ، حدا كادت تضيع فيه معالم تلك الثورة الرائعة التى زرع بذورها فى صدور الفرنسيين طغيان لويس الرابع عشر ، وفساد لويس الخامس عشر وبذخ لويس السادس عشر ، وروت شجرتها كتابات فولتير وديدور وروسو ، فلما نضجت وآتت أكلها راح أبناء الشعب يضطرعون ويقتتلون ،

ويتبادلون أشنع الاتهامات ، ويسيلون دماء بعضهم بعضا فى الاندية والطرقات .

وكان الصراع على السلطة قائما على أشده بين فريق المتطرفين بزعامة روبسبير ودانتون ومارا وديمولان .. وكانوا يسمون أنفسهم باليعقوبيين أو حزب الجبل ، اشارة الى مقاعد اليسار المرتفعة التى كانوا يحتلونها فى المجلس التشريعى ، وينافسهم فريق المعتدلين الذين يسمون أنفسهم بالجيرونديين ويضمون رجال الطبقة الوسطى من المحامين والصحفيين والشعراء وغيرهم من صفوة المثقفين ، وعلى رأسهم السياسى الفيلسوف رولان وزوجته ، وبربارو ، ودوبيريه . وكان من سوء حظ الاخيرين ان معظم أتباعهم من أهل الريف الفرنسى بينما كان اليعقوبيون يركزون نشاطهم بين الدهماء فى قلب باريس ، وينشرون ظلا مروعا من الارهاب ، ويحرصون على سفك دماء خصومهم بالعشرات والمئات بلا تورع ولا حساب . وقد ارتكب الجيرونديون اكبر خطأ سياسى فى تاريخهم ، وان كان يقطع بمدى شجاعتهم واستقامتهم ، اذ وجهوا الاتهام صريحا الى مارا ، وروبسبير ، بتدبير المذابح فى السجون ، وحوكم بالفعل مارا على هذه التهمة ثم قضى ببراءته ، فكان اعدام النواب التسعة والعشرين من الجيرونديين وكان بعد ذلك ما كان من انهيار هذا الحزب وانفراد حزب الجبل بمصائر الامور .

وقد ولد جان بول مارا فى سويسرا فى ٢٤ مايو سنة ١٧٤٣ ، وقد عنى والده عناية خاصة بتعليمه ، فلما بلغ السادسة عشرة غادر دار أبيه ليشق طريقه بنفسه فى الحياة واستقر به المقام فى مدينة أدنبره بعد أن طاف بأوربا نحو عشر سنوات . وفى انجلترا درس الطب

وزاول مهنته بلندن زهاء عشر سنوات قام خلالها بتجارب فى الكيمياء والكهرباء ، وانتقل فى سنة ١٧٧٩ الى باريس حيث اشتغل طبيبا خاصا لدى الكونت داروا . وأتيح له فى أوقات الفراغ أن يكتب رسالة عن « الكهرباء والمغناطيسية وتطبيقها فى الطب» ورسالة أخرى عنوانها « اكتشافات عن النار والكهرباء والضوء » ولكنه لم يلبث أن خاض غمار السياسة وأصدر جريدة سماها « صديق الشعب » راح ينفث فيها أفتك السموم ، ويحرض فيها على الثورة ، ويحض على القتل بعبارات صريحة طافحة بألوان السباب والاسفاف التى لم تكن تخلو منها حتى مؤلفاته العلمية فى صدر حياته .

وفى هذه الفترة تعرف مارا الى فتاة فى السادسة والعشرين من العمر تدعى « سيمون افراز » واتخذها خليلة له ، واستغل ما كانت تملكه من المال فى اصدار جريدته ولم يشأ أن يتزوجها حتى لقد لقى حتفه على مشهد منها بيد شارلوت كورداى .

أما شارلوت فقد ولدت من أسرة عريقة ولكنها فقيرة ، فى ٢٧ يونية سنة ١٧٦٨ م . وقد انجب أبوها خمسة أولاد ، اثنين من الذكور وثلاث آناث ، كانت مارى آن شارلوت ثانيتهن، وكان فرانسوا دى كورداى، والد شارلوت ، مولعا بالدرس والبحث والقراءة والكتابة فى داره الريفية المتواضعة ، وكان تبرمه بفقره حافزا له على كتابة عدة رسائل تفيض بالسخط على الانظمة الاجتماعية والسياسية السائدة .

وقد اضطرت شارلوت بحكم الحاجة القاسية الى العمل فى سن باكرة ، ثم الى التخفيف عن كاهل والدها بالاقامة مع عم لها كان قسيسا فى بلدة مجاورة . ثم

عادت لتنهض بأعبـاء العناية باخوتها تخفيفا عن كاهل امها . ولـكن القدر لم يترفق بالاسرة ، اذ توفيت الام قبل أن تتم شـارلوت عامها الثالث عشر . فتقدمت راهبة كانت صديقة الام الراحلة وطلبت أن يعهد اليها بأمر شارلوت وأختها الصغرى ، وتعليمهما مع ابنـة أختها .

وفى رعاية هـذه الراهبة الـكريمة الصالحة أقامت شارلوت فترة من الزمن ، تدرس وتتعلم وتزداد على مر الايام ثقافة وازدهارا ، حتى كانت سنة ١٧٩٠ ، فاذا الاديرة تغلق بأمر من مؤتمر الثورة ، واذا شارلوت تجد نفسها مرة أخرى فى مهب الريح وهى فى العشرين من العمر ، وكانت أحوال أبيها انتقلت من سيىء الى اسوأ ، وكان أحد اخوتها قد هاجر وذهب هو الآخر فى جيش الـكونديه ، وتوفيت صغرى اخواتها وبقيت الـكبرى مقيمة مع أبيها فى الـكوخ المتواضع بالقريه .

وهكذا اضطرت شارلوت أن تلتمس المقام فترة من الزمن عند احدى قريباتها لأمها ، ريثما تجد وسيلة لطلب الرزق ، وهناك ، عند هذه العمة العجوز وجدت شارلوت من الحنان والعطف والحرية ما جعلها تشبع هوايتها الحبيبة ، فتقرأ ما شاءت لها الرغبة فى مؤلفات فولتير ، وروسو ، ورينال ، وتمضى جانبا من وقتها فى الاستماع الى عمتها وزائراتها العجائز وهن يتبادلن عبارات السخط على عقلية الجيل الجديد ...

ولـكن طائف الهناءة والهدوء الذى مر بشارلوت فى تلك الايام لم يطل المقام ، فقد حدثت فى القرى المجاورة حوادث دامية بين الحرس الوطنى من ناحيـة ، وبين طائفة من الاهلين كان من نتيجتها القبض على عمـدة القرية وعدد من القسـاوسة والراهبات ، وقد رأت

شارلوت فى هذه الحوادث صورة مصغرة لما يجرى وما ينتظر أن يجرى فى أرض وطنها من أحداث جسام ، فكتبت الى احدى صديقاتها تقول :

« . . . انظرى الى وطننا ، فرنسا المسكينة وقد سلمت الى أيدى أولئك الاوغاد الذين يسوموننا كل هذا العذاب ، ان الله وحده يعلم متى يقف هذا كله .. اننى ارتعد فزعا ... ان أولئك الذين كان مفروضا ان يمنحونا الحرية قد ذبحوها ... انهم مجرد سفاحين ... فلنحزن على مصير فرنسا المسكينة »

وبهذا الشعور المرهف ، وهذه المثالية النادرة ، اخذت شارلوت تتابع أنباء وطنها فى اسى وصمت ، وفى قلق يزداد ويتضخم بتعاقب الكوارث على وطنها المسكين الذى وقع فريسة الاحقاد والاطماع والنزوات والشهوات . وقد هالها وروعها أن شخصا بعينه يكاد يستأثر بالنصيب الاوفر فى كل ما يقع فى يدها من نداءات ، وشتى ألوان التحريض على الفوضى والانقسام ، وكان هذا الشخص المستهتر البغيض هو مارا .

ولم يكن هذا الشعور وقفا على شارلوت كورداى دون سواها ، بل كان عقيدة عامة عند الناس ، حتى لقد استقر فى أذهانهم ان مارا هو حزب الجبل ، أو ان جميع أعضاء الحزب على غراره .

وقد وجدت شارلوت مزيدا من الغذاء لحقدها ونقمتها على مارا حينما استقر راى الجيرونديين على اتخاذ كايان مركزا لنشاطهم ، فذهبت لزيارة النائب الشاب المناضل الوسيم باربارو ، وكان أن استقبلها بما كان مشهورا عنه من رقة وفروسية أصيلة ، وراح يشرح لها تفاصيل مثيرة عما يلقاه هو وزملاؤه الجيرونديون من عنت حزب الجبل وطغيانه الذى

لا يعرف حدا من الحدود .

وهكذا استقر فى ذهن شارلوت ، فى براءة ملائكية ، وفى وطنية مثالية ، أنها تستطيع أن تضرب ضربة واحدة تقطع بها حبل الارهاب الذى يحيط بعنق وطنها الجريح وتمثلت لها الضربة الحاسمة فى شيء واحد لم تعد تفكر فى شيء سواه .. هو أن تقتل مارا ..



وبدات شارلوت تدبر خطة التنفيذ ، فى عزم لاتنقصه السرعة ، وفى ترتيب لا تعوزه الدقة ، وفى تكتم لا يتفق مع المألوف عن طبيعة النساء ..

وقد رسمت خطتها فى أول الامر على اساس الانقضاض على فريستها فى مكان عام ، فيكون مصرعه ومصرعها فى وقت واحد مشهدا تاريخيا لاينسى على مر الزمان . ولكن الظروف أرغمتها على أن تعدل عن هذه الخطة ، وتنتهج خطة أخرى تقوم على المراوغة والاحتيال ، خلافا لما يلائم طبيعتها واستقامة خلقها .

وقد بدأت شارلوت بالتنقل بين القرى المجاورة لتوديع صديقاتها بدعوى اضطرارها للسفر فى رحلة لم تحدد مكانها ، وقصدت الى دار عمتها العجوز فاحرقت جميع الصحف والنشرات والاوراق التى قد تكون سببا فى ايقاع الاذى بأحد من معارفها واصدقائها . ثم واجهت أشق واجباتها وهو الاعتذار لوالدها الذى لم تقو على مواجهته ولم تجد بدا من مخادعته ، فكتبت اليه خطابا قالت فيه :

« انني مدينة لك بطاعتي ، يا أبي العزيز ، ومع ذلك اراني مضطرة للسفر دون استئذانك ، واني لراحلة دون أن أراك ، تفاديا لما يسببه ذلك من الم لى لا اطيقه ، انني ذاهبة الى انجلترا ، لانني لا اظن

ان احدا يستطيع ان يعيش سعيدا هادئا فى فرنسا قبل ان ينقضى زمن طويل . اننى أضع هذا الخطاب فى صندوق البريد فى اللحظة التى ارحل فيها ، وحين يصلك أكون قد غادرت البلاد ، ان السماء قد ابت علينا متعة العيش معا ، كما أبت علينا غير ذلك من المتع ولعلها تكون أشد رفقا بوطننا ـ وداعا يا أبى العزيز ، قبل أختى نيابة عنى ، ولا تنسنى ... »

وبعد ساعة واحدة كانت شارلوت فى طريقها الى باريس ، وهناك نزلت بفندق من الدرجة الثالثة أو الرابعة ، وهناك أعدت نداء حارا مؤثرا الى مواطنيها جاء فيه :

« الى متى أيها الفرنسيون التعساء يستهويكم الخلف والانقسام . لقد طالما آثر زعماء الاحزاب وغيرهم من الاوغاد مصالحهم الشخصية على الصالح العام . ففيم اذن أيها الضحايا المساكين يقتل بعضكم بعضا فى حين أنكم اذ تبيدون أنفسكم انما تعينون على اقامة صرح طغيانهم على صدر فرنسا المحطم ؟ .. »

« اى فرنسا . . . ان سعادتك رهن باحترام القانون ، ولكننى لا اخالف أى قانون اذ اقتل مارا .. انه اذ استحق سخط العالم أجمع ، قد خرج من حظيرة القانون . . . »

« اى وطنى العزيز . . . ان الكوارث التى تنزل بك تمزق قلبى اربا اربا ولست أملك الا ان اهبك حياتى . . . وانى لأشكر السماء على ما وهبتنى من نعمة التصرف فيها . . . »

« فليكن رأسي محمولا على الاسنة فى شوارع باريس ، ايذانا بانطلاق أصدقاء القانون أجمعين ... وليشهد حزب الجبل الذى يهتز ويترنح بالفعل ،

كيف يكتب بدمى وثيقة انهيـــــاره ، فلأكن انا آخر ضحاياهم وسيعترف العالم الذى آخـذ بثـأره اننى استحق تقدير الانسانية . . . »

« أيها الفرنسيون :

ـ لئن اخفقت فيما انتويت ، فاننى على الاقل قد هديتكم الى سواء السبيل . . . انكم لتعرفون أعداءكم فانهضوا ، وسيروا ، واضربوا ضربتكم الحاسمة ... »

وفى صبيحة السبت ١٣ يوليو سنة ١٧٩٣ قصــدت شـارلوت الى دار مارا ، وطلبت مقابلته والحت فى ذلك مدعية ان لديها انباء هامة جدا تريد ابلاغها اليه ... ولـكن حارسة الباب ابت عليها ما تريد ، فلما افلتت منها وجدت نفسها امام خليلة مارا ، سيمون افــرآر ، وهذه بدورها حالت بينها وبين الدخول على مارا .

وعندئذ عادت شارلوت أدراجها الى الفندق وكتبت الى مارا الخطاب التالى :

« باريس : ١٣ يوليه ، العام الحادى عشر للجمهورية

« أيها المواطن :

« لقد وصلت لتوى من كايان ، وان حبك لوطنك ليدعونى الى افتراض انك ستتلهف على ســـماع انباء الحوادث التعسة التى وقعت فى ذلك الجزء من الجمهورية . . . ولهذا سـأحضر الى منزلك فى نحو الساعة الاولى « بعد الظهر » فأرجو التفضل باستقبالى والاذن لى بمقابلتك دقيقة واحدة ، لاننى سأهيىء لك الطريق لتقديم خدمة كبرى الى فرنسا »

ماري كورداى

ولم تذهب شـارلوت فى الموعـد ، بل تأخرت الى المساء ، وارتدت ملابسها فى عنـاية اخذت من وقتها ومن تفكيرها قدرا أكبر مما تعودته ، وكأنما أرادت أن

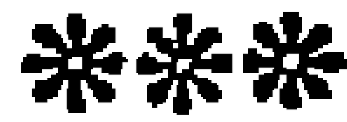
ترمز الى طهارة دوافعها فارتدت « فستانا » ناصع البياض ، وأضافت اليه « شالا » من الموسلين غطت به صدرها وعقدته من الخلف عند وسطها ، واخفت بين ثناياه الخنجر والنداء الموجه الى مواطنيها .

وقد تلقى مارا خطاب شارلوت فى منتصف الساعة الثامنة من مساء اليوم نفسه . وبينما كان يتلوه كانت شارلوت تكافح عند الباب لاقناع حارسة الباب بالسماح لها بالدخول ، وسمعت « سيمون افرار » بالضجة فخرجت من غرفة مارا ، ثم عادت بعد توسل شارلوت لتستأذنه فى ادخالها ، وعادت فى الحال فقادتها الى الغرفة التى كان يقيم فيها .

وكانت الغرفة رثة المنظر ، قليلة الاثاث ، ضعيفة الاضاءة ، ذات أرض من البلاط الذى يشبه الطوب . وقد تناثرت على أرضها بعض أعداد جريدة « صديق الشعب » ويتوسطها الحمام ، وقد وضعت بجانبه قطعة من الخشب تقوم مقام المنضدة ، وتحمل المحبرة وزجاجة الدواء ، كما وضعت لوحة من الخشب بعرض الحمام ليستند اليها مارا فى كتابة ما يريد اثناء الفترة التى يعالج نفسه فيها بالجلوس فى الحمام .

واقتربت شارلوت من الحمام بدعوى الادلاء بالمعلومات الخطيرة التى زعمت انها تحملها ، وبدأت بالفعل تروى على مسامع مارا قصة عصيان فى كايان قالت : أن سبعة عشر نائبا يتزعمونه وينظمون قوة من الجيش للمسير الى باريس وتخليصها من الفوضويين . فطلب منها مارا أن تذكر أسماء النواب ، ومضى هو يسجلها ويقول كلما كتب احدها : « الى المقصلة » .. وصمت لحظة ثم قال : « حسنا ... سأبعث بهم جميعا الى المقصلة فى باريس بعد أيام .. »

وفى هذه اللحظة كان الاشمئزاز والاستفزاز قد بلغا مداهما فى نفس شارلوت فاستجمعت شجاعتها ، وانقضت على السكين بيديها ، واغمدتها الى النصل فى ثديه الايمن ، فصاح : « النجدة ياحبيبتى ، النجدة » ... وسقط جثة هامدة قبل أن يتمكن أحد من اسعافه أو نقله من مكانه .



وطال استجواب شارلوت ، وحوكمت وحكم باعدامها ، فلم تخنها شجاعتها لحظة واحدة طوال التحقيق أو المحاكمة ، وعندما سمعت الحكم باعدامها التفتت الى محاميها « شوفو ديلاجارد » وقالت له فى لهجة هادئة تسيل رقة وعذوبة :

« سيدى ... اننى اريد أن أشكرك أجزل الشكر لدفاعك عنى بشجاعة وبأسلوب يليق بكلينا ... ان هؤلاء السادة « مشيرة الى القضاة » قد حكموا بمصادرة ما أملك ... ولكنى أريد أن أقدم لك أقوى دليل على عرفانى بالجميل ، فاطلب منك أن تسدد الديون المستحقة على للسجن ، وانى لأعتمد فى ذلك على كرمك » .

وقد نفذ المحامى هذه الوصية بأمانة تامة ، وسدد للسجن ستة وثلاثين جنيها فى اليوم التالى لاعدامها .

إبراهام لنكولن



« ... علينا ، نحن الاحياء ، أن نكرس أنفسنا لانجاز المهمة الضخمة الباقية أمامنـــا ـ فلنستمد من هؤلاء الشهداء الكرام مزيدا من الاخلاص لذلك الهدف الذى بذلوا فى سبيله هنا أوفى قسط من التضحية ـ ونعاهد أنفسنا هنا على الا نسمح بأن يكون الصرعى قد استشهدوا عبثا · فيشهد هذا الشعب فى رعاية الله مولدا جديدا للحرية ، ولا يزول عن وجه الارض حكم الشعب ، بالشعب للشعب » !

ابراهام لنكولن

هذه الـكلمات الخالدة ، التى حملت فى ختامها أدق تعريف للديمقراطيـــة ـ « حكم الشعب ، بالشعب ، للشعب » ـ هى جزء من خطاب ألقاه لنكولن بوصفه رئيسا للجمهورية الامريكية فى الاحتفـــال بدفن رفات شهداء معركة جيتسبرج التى بلغت ذروتها فى ٤ يولية سنة ١٨٦٣ ، وانتهت يومئذ بانتصـــار قوات الشمال ضد قوات الجنوب . أما الاحتفال فقد أقيم فى نوفمبر سنة ١٨٦٣ ، وكانت أعباء الحكم ، وتطورات القتـــال المحتدم بين الشمال والجنوب تحمل الرئيس الامريكى على الاعتذار من عدم اســتطاعته الحضور بنفسه فى معظم الاحتفالات التى يدعى اليهـــا . ولـكنه كان قد تلقى خطابا من أحد كبار رجال الأعمال فى بوسطن ، قبيل هــذا التاريخ ، يقول فيه : ان خطب الرئيس وتصريحاته حول تحرير العبيد قد اكسبته تأييد الرأى العام فى الداخل والخارج ، ولهذا يقترح على الرئيس انتهاز أول فرصة ليعلن : « ان الحرب ليست حرب

الشمال ضد الجنوب ، بل هى حرب الشعب ضد الاستقراطية »

وقد أتاحت الظروف للرئيس الامريكى أن يتكلم فى احتفال جيتسبرج فاذا به يلقى الخطاب الذى اختتمه بهذه الكلمات ، التى بلغت حد الاعجاز ببساطتها المطلقة . ولم يزد الخطاب عن خمسة وعشرين سطرا ، وقد فرغ لنكولن من القائه قبل أن ينتبه الحاضرون الى انه قد بدأ يلقيه ... ولهذا لم يصفق له الا عدد قليل هم الذين اتيح لهم الانصات فى اللحظات التى استغرقها الالقاء ... وجاء تصفيقهم متأخرا ، لانهم لم يتنبهوا الى أن الخطاب قد انتهى بهذه السرعة !

وقد يروق لنا نحن الصحفيين أن نتساءل : كيف نشرت الصحافة يومئذ هذا الخطاب الذى أصبح أشهر خطب لنكولن فيما بعد ، وبماذا علقت عليه ؟ ويكفى فى هذا المقام أن نذكر ان معظم الصحف اليومية الكبرى نشرته فى مكان غير ظاهر ، ولكن الصحف الاسبوعية الاقليمية أبرزته لقصره الذى يتناسب مع قلة صفحاتها واما تعليقات الصحف فقد تفاوتت طبقا لاختلاف ألوانها بين مؤيدة ومعارضة ، ومن ذلك ان جريدة « شيكاغو تيمس » وهى تنتمى الى الحزب الديمقراطى المعارض ، كتبت تقول تعليقا على الخطاب :

« ان جبين كل أمريكى لابد أن يندى بعرق الخجل وهو يقرأ العبارات السخيفة الساذجة التافهة التى ألقاها ذلك الرجل الذى لا مناص من الاشارة اليه عندما يسألنا الاجانب المثقفون عن رئيس جمهورية الولايات المتحدة »

وهكذا يكتب التاريخ ! ..

على ان أعجب ما فى تاريخ ابراهام لنكولن الذى خلعوا

عليه فيما بعد ألقابا عدة منهـا : « المحرر الاعظم » و « الاب ابراهام » و « الشهيد » و« منقذ الاتحاد» ان هذا التاريخ يكاد يتركز فى أربع سنوات تبدأ منذ انتخابه أو على الاصح تسلمه زمام السلطة كرئيس لجمهورية الولايات المتحدة الامريكية فى مارس سنة ١٨٦١ ، وتنتهى باغتياله فى مقصورة بمسرح فورد فى مساء يوم ١٤ أبريل سنة ١٨٦٥ . وفى نهاية هذه السنوات الاربع لا قبلها بيوم واحد سجل التاريخ فى أخلد صفحاته « ان الديمقراطية قد اختارت بمحض الصدفة أعظم رجل فيها ليقودها فى أحرج فترة من حياتها » كما قال أحد مؤرخى لنكولن فى العصر الحديث.

أما السنوات الخمسون أو الاحدى والخمسون التى عاشها لنكولن قبل انتخابه لرئاسة الجمهورية الامريكية فلم تحمل فى أية مرحلة منها دليلا يغرى أحدا بالتنبؤ له بالعظمة التى ارتفع اليها فى أعين مواطنيه وفى أعين الاحرار فى كل مكان وفى كل حين .

ولد ابراهام لنكولن فى يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٠٩ ، فى دار خشبية متواضعة بالقرب من مدينة هودجفيل بولاية كنتكى ، من أب مهاجر فقير يشتغل بالزراعة ، وأم لعلها كانت بنتا غير شرعية لامرأة رقيقة الحال ، والى هذه الام يرجع الفضل فى تعليمه القراءة والكتابة رغم نفور أبيه من العلم والتعليم ، اذ كان أميا جاهلا يدهش للذين يضيعون وقتهم فى طلب العلم ، وكان يقول عن ولده عندما شب عن الطوق :

ــ انه لايزال يخدع نفسه بالتعليم ، وقد حاولت جهدى أن امنعه، ولكن هذه الفكرة السخيفة رسخت فى رأسه ولا سبيل لاخراجها منه !

ورغم وفاة والدة لنكولن وهو بعد فى التاسعة من

عمره فان رغبته فى الدرس والمطالعة ظلت مطردة مع الايام ، وكان من حسن حظه ان زوجة أبيه الثانية كانت على عكس أبيه ، حريصة على تشجيعه واغرائه بالمزيد من الدراسة والتعليم . ولم يكن هو على كل حال بحاجة الى من يدفعه الى طلب العلم والاستزادة من الاطلاع ، فقد كان شديد الميل الى المطالعة حتى فى أوقات عمله بالحقل ، أو فى أوقات نومه فى الليل ، وان يكن مجموع فترات دراسته فى خمس مدارس تنقل بينها لم يزد على عام واحد .

وقد ظل ابراهام لنكولن يعيش مع أبيه وزوجة أبيه واخوته تحت سقف واحد حتى بلغ الحادية والعشرين من عمره ، فترك دار أبيه ليكسب قوته بكد يده . وبدأ حياته كاتبا فى محل تجارة بقرية « نيو سالم » بولاية الينوى . وفى هذه البلدة بدأ لنكولن يشتغل بشئون السياسة ، فرشح نفسه لعضوية المجلس التشريعي بولاية الينوى ونشر فى جريدة « سانجامو جورنال » برنامجا للاصلاحات المحلية التى يطلب انتخابه على أساسها ، وفى ختام هذا البرنامج يقول :

« اننى شاب مجهول من كثيرين منكم ، ولدت »
« ونشأت فى بيئة جد متواضعة ، ليس لى أقارب »
« من الاغنياء أو المشاهير يقدموننى اليكم ، ولكن »
« مصيرى يعتمد كل الاعتماد على أصوات ناخبى »
« هذه المقاطعة ، فاذا انتخبونى فقد اسبغوا على »
« فضلا سأحاول أن أرده ، بالعمل المتواصل ، »
« ولكن اذا رأى هذا الشعب الطيب بحكمته أن »
« يبقينى فى الصفوف الخلفية ، فقد اعتدت »
« الصدمات الى الحد الذى لم أعد معه أشعر »
« بكثير من المرارة »

وقبل أن تجرى الانتخابات تطوع لنكولن فى الحرب ضد الهنود الحمر ، ولم يشترك فى اية معركة طوال هذه الحرب ، ولكنه كسب منها شيئا من الخبره وبعض المعلومات التى أعانته اثناء رئاسة الجمهورية على مناقشة قواده العسكريين فى حرب تحرير العبيد بين الشمال والجنوب .

ولما وضعت جرب الهنود الحمر أوزارها عاد لنكولن الى العمل الحر البسيط فافتتح متجرا صغيرا مع شريك له يدعى بيرى ، ولكن المتجر لم يلبث أن أغلق أبوابه لان بيرى كان مدمنا للخمر بقدر ما كان لنكولن مدمنا للقراءة ... وقد خرج لنكولن من هذه التجربة بدين ظل يسدده خمسة عشر عاما كاملة .

ويبدأ الحظ يبتسم فى وجه لنكولن سنة ١٨٣٤ ، اذ انتخب عضوا بالمجلس التشريعى ، وبقى محتفظا بالعضوية ثمانية أعوام كسب خلالها خبرة بشئون السياسة وما تستلزمه من دراية وحنكة ، ولم تمض سنتان على انتخاب لنكولن بالمجلس التشريعى حتى كان قد درس القانون ، وحصل على شهادة تجيز له الاشتغال بالمحاماة ، وانتقل سنة ١٨٣٨ الى مدينة سبرنجفيلد التى أصبحت بعد عامين عاصمة الينوى .

وفى سنة ١٨٤٦ خطا لنكولن خطوة واسعة فى طريق النجاح ، اذ انتخب عضوا بمجلس النواب الامريكى عن دائرة الينوى ، ولكنه اتخذ موقفا ينم على شجاعة فائقة فى الراى ، لولا انه أفقده رضى الناخبين ، وذلك بمعارضته فى حرب الولايات المتحدة ضد المكسيك ، وكانت نتيجة هذا الموقف انه فى نهاية مدة عضويته الاولى وهى سنتان، لم يجد مناصا من اعتزال السياسة والعودة الى الاشتغال بالمحاماة التى كان قد نجح فيها

وذاع صيته لا كمحام بارع فحسب ، بل كانسان حريص على اكرم تماليد مهنته ، فكان ينصح الناس بتسويه خلافاتهم صلحا اذا وجدوا سبيلا لتفادي المنازعات القضائية ، وكان يرفض المرافعه اذا لم يقتنع بعدالة القضية ، وكان يصر على ان يتقاضى اقل ما يمكن من الاتعاب .

وقد ظل لنكولن منقطعا لعمله فى المحاماة ، ولكنه لم ينقطع قط عن متابعة المناقشات والمجادلات التى كانت تثار حول الشئون العامة بين الحين والحين ، ولا سيما حول تحرير العبيد ، ومن هذا القبيل ذلك الجدل الذى احتدم بشأن قضية « دريد سكوت » . وكان « دريد سكوت » هذا عبدا من الارقاء تنقل مع سيده من احدى الولايات التى تبيح الرق الى ولاية الينوى ثم الى ولاية ويسكونسين ، وكلتا الولايتين لا تبيح الرق ، فطلب العبد أن يتحرر من عبوديته استنادا الى أنه ما دام قد دخل ولاية يحرم فيها الرق فان الرق يسقط عنه بمجرد دخولها ، ولكن المحكمة العليا فى ميسورى حكمت على العبد باستمرار عبوديته ، بحجة انه ما دام قد عاد مختارا الى ولاية تبيح الرق فانه بذلك يعود عبدا كما كان ! ! !

ولم يطق لنكولن المحامى أن يمثل دور الشيطان الاخرس بالسكوت على هذه المأساة ، فراح يصول ويجول دفاعا عن وجهة نظر العبد ، ويهاجم النظرية الفاسدة التى تزعمها الشيخ الرجعى الغليظ القلب ستيفن دوجلاس ممثل ولاية الينوى — فى مجلس الشيوخ — وهى نظرية تقوم على ان من حق السكان البيض فى اية ولاية ، ومن حقهم وحدهم ، أن يقرروا ما اذا كان من مصلحتهم اباحة الرق أو تحريمه فى

ولايتهم ، وعلى هذا الاساس تعتبر مسألة الرق مسألة محليه تخضع لاعتبارات اقتصاديه او اجتماعية محض، ولا شأن لها بالمبادىء العامة والنظريات الانسانية او الدينية ، وبالتالى لا يحق لأحد خارج الولاية أن يتدخل فيها ! !

وقد تمخضت حركة السخط على هذا المنطق الرجعى الزائف عن قيام حزب جديد يضم جميع الثائرين ضد حركة دوجلاس ومناصريه وسمى هذا الحزب «بالحزب الجمهورى » ، وقد أعلنت هذه التسمية فى مؤتمر كبير عقد بمدينة جاكسون بولايه متشيجان فى ٦ يوليو سنة ١٨٥٤ .

***

وفى خلال هذه المعركة المحتدمة حول الرق والرقيق، أعلن لنكولن فى خطبه وبياناته انه لا يعارض قيام الرقيق فى الولايات التى يوجد فيها ، ولكنه يعارض التوسع فى الرق أو اباحته فى ولايات جديدة ، وكانت خطة لنكولن فى هذا الصدد هى خطة التدرج فى تحرير العبيد نزولا على المقتضيات العملية التى يمليها قيام الرق فى ولايات الجنوب التى تزرع القطن بأيدى الارقاء .

وبعودة لنكولن الى الانغماس فى ميدان السياسة سنة ١٨٥٤ ، بدأت المرحلة التى انتهت بترشيحه وفوزه برئاسة الجمهورية سنة ١٨٦٠ ، وكأنما شاء القدر أن يندبه لمواجهة أخطر أزمة فى تاريخ أمريكا ، ثم ينهى حياته بانتهاء هذه الازمة ، فهو لم يكد يتسلم زمام الرئاسة فى مارس سنة ١٨٦٠ ، حتى نشبت الحرب الاهلية بين الشمال والجنوب فى شهر أبريل الذى يليه ، اذ كانت الولايات الجنوبية ، وهى ولايات القطن المتمسكة بالرق، قد أعلنت انفصالها وتأليف «الحكومة الاتحادية»

فى الجنوب ، ولم يسع لنكولن الا أن يرفض تمزيق بلاده ، فأعلنها حربا لم تهدأ الا بتسليم قوات الجنوب وعودة الوحدة الى الولايات المتحدة الامريكية ، وفى ابان هذه الحرب صدر اعلان تحرير العبيد فى أول يناير سنة ١٨٦٣ .

وكان من أقسى مفارقات القدر أن لنكولن تسلم الرئاسة للجمهورية كما قلنا فى مارس سنة ١٨٦١ ، وفى الشهر التالى ـ أى شهر أبريل سنة ١٨٦١ ـ اندلعت نار الحرب الاهلية ...

وبعد أربع سنوات لا تزيد ـ أى فى شهر مارس سنة ١٨٦٥ ـ عاد لنكولن فارتقى منصب الرئاسة للمرة الثانية ، وفى الشهر نفسه انتهت الحرب الاهلية بسقوط مدينة رتشموند واستسلام الجنرال قائد الجنوب للجنرال جرانت قائد الشمال ...

وفى الشهر التالى لقى بطل تحرير العبيد ومنقذ الوحدة الامريكية مصرعه بيد ممثل مخبول من أهل الجنوب يدعى « بوث » فى منتصف شهر أبريل سنة ١٨٦٥ !

***

وهكذا خط القدر آخر سطر فى حياة انسان عظيم ، صعد الى قمة العظمة حاملا راية العدالة والحرية والتسامح والمساواة والديمقراطية .

وانه ليعز على الذين يحنون رءوسهم اجلالا وتكريما وتبجيلا لهذا الامريكى الحر العظيم أن ينظروا الى أمريكا اليوم ، وبعد مضى تسعين سنة على استشهاد لنكولن ، فيجدوا التفرقة البغيضة قائمة حتى الآن بين السود والبيض حتى فى ابسط الحقوق والمظاهر ، وليست مأساة ادماج السود والبيض فى مدارس «التيل روك»

الا صورة أخرى من صور هذه التفرقة الشائنة ، وقد قدر لكاتب هذه السطور أن يشهد وأن يسمع الكثير عن هذه العقلية الرجعية البغيضة : أثناء طوافه بأمريكا فى سنة ١٩٥١ ، وكم كان يحز فى قلبى ويثقل على أذنى ونفسى أن أسمع خلال هذه الرحلة الى كثيرين من الامريكيين المثقفين فى شيكاغو ونيواورلينز ولويفيل ودالاس وغيرها من المدن الكبرى ولاسيما فى الجنوب ، فأجدهم يرددون عبارة « الحى الطيب » أو «النظيف» وهم يعنون بذلك الحى الذى لا يباح للسود أن يقيموا فيه الى جانب سكانه البيض !

ومع ذلك فما أبعد الفارق بين حالة السود فى أمريكا اليوم ، وبينها منذ تسعين أو مائة عام ...

كمالا



قرينة نهرو وحبيبته
وشريكة جهاده وسجنه

ان المأساة التى خطها القدر فى حياة نهرو وزوجته كمالا ، تفوق أعنف مآسى الحب التى رواها التاريخ او تفتق عنها خيال الشعراء والادباء فى أى عصر من العصور ، واذا لم يكن بين أيدينا مرجع خاص عن تاريخ حياتها فان لدينا اطرافا من سيرتها العطرة فيما سجلته براعة زوجها الساحر فى كتابه عن تاريخ حياته ، وكتابه الآخر « الكشف عن الهنود » ولكنه لسوء الحظ لا يذكر هنا وهناك شيئا عن فترة ما قبل الزواج ، بل يطالعنا لاول وهلة بحديث طلى عن زواجه واحدى مغامراته فى جبال هيمالايا ، فيقول ان زواجه تم فى مدينة دلهى سنة ١٩١٦ ، فى عيد الزهور الذى تحتفل به الهند ايذانا بقدوم الربيع ، ومن عجائب المصادفات انه فى هذا العام نفسه قدر لنهرو ان يلتقى بالرجل الذى أصبح هو فيما بعد أخلص تلاميذه وخليفته بعد مماته ـ غاندى ـ ومن المفارقات ان نهرو ورفاقه من الشباب الهندى الوطنى فى ذلك الحين لم يكونوا راضين عن غاندى لانصرافه عن العمل السياسى ، ورفضه الاشتراك فى نشاط المؤتمر الوطنى او قضية الهند الوطنية على وجه عام ، بل كان يركز اهتمامه فى قضية الهنود فى جنوب افريقيا ، وان كانت شجاعته فى قيادة الحركة ضد

حكومة جنـوب افريقيـا قـد اكسـبته عطف الهنود وتقديرهم فى كل مكان .

ونعود الى موضوعنا وهو زواج نهرو ، فنقول : انه بعد زواجه من كمالا بمدينة دلهى سنة ١٩١٦ ، ذهب مع أسرته لقضاء بضعة أشهر من الصيف فى كشمير ، أجمل بقاع الهند على الاطلاق ، وهناك حاول هو وزوجته أن يعبـرا جبـال الهيمالايا لزيارة كهف تاريخى معين فسقط فى حفرة عميقة مغطاة بالثلج وكاد يدفن حيـا لولا انه تعلق بحبل ، وامكن انقاذه بعد جهد جهيد .

واضطرا بعد ساعات طويلة من تسلق الجبال وسـط الجليد . وبعد ان وصلا الى ارتفاع ستة عشر الف قدم ؛ ان يعودا من حيث اتيا اذ تعددت الحفر واتسعت ، رغم قرب المسافة التى اصبحت تفصلهما عن الكهف التاريخى الذى يقصدانه .

وقد سـارت الحياة هادئة هانئة بين الزوجين حتى هبت عواصـف الحركة الوطنيـة عقب الحرب العالمية الاولى ، وبدأ الهنود يطلبون مثـل ما طلبت مصر من حقوق فى الحرية والاستقلال ، بينما صمم الاسـتعمار البريطانى هنا وهناك على قمع هـذا النشـاط الوطنى بكل وسيلة فى يده ، فامتـلأت السجون والمعتقلات ، ودخل نهرو السجن لاول مرة فى سنة ١٩٢١ ، متهما بتهم عديدة ، منها التحريض على الثورة ، حتى اذا وافت سنة ١٩٢٥ ، مرضت كمالا نهرو مرضا خطيرا فى الربيع ، وظلت طريحة الفراش فى مدينة لنكاو شهورا عديدة ، ورئى من الضرورى أن تنقل الى سويسرا للعلاج ، فرحب نهرو بالفكرة ليخرج هو ايضا من الهند ويرقب الحوادث عن بعد ، لعله يكون لها صورة اوفى ، وابحرت الباخرة من ميناء بومباى الى البندقيـة تقل نهرو وزوجتـه

المريضة وابنتهما الوحيدة انديرا ، وشقيقته فيجايا لاكشمى ، وزوجها المحامى الشاب وانجيت بانديت .

واقام نهرو مع زوجته فترة فى جنيف ثم فى مصحة جبلية فى هونتانا ، فلما طرأ على صحتها بعض التحسن سافرا معا الى فرنسا وانجلترا والمانيا ، وفى سنة ١٩٢٧ ذهب والده الزعيم الهندى الكبير موتلال نهرو الى أوربا ، فاستقبله جواهر لال فى البندقية وبعد أن أقاموا هناك بضعة اشهر ذهبوا جميعا الى موسكو فى زيارة استغرقت ثلاثة أيام شاهدوا خلالها الاحتفالات بالذكرى العاشرة للثورة الروسية ، ثم أبحر نهرو وزوجته وابنته وأخته من ميناء مرسيليا عائدين الى الهند فى شهر ديسمبر من العام نفسه ، بعد اقامة فى أوربا امتدت سنة وتسعة أشهر ، تحسنت خلالها صحة كمالا ، وان لم تشف تماما ، وهدأت نفس نهرو فأقبل على نشاطه السياسى بعزم قوى ، وسرعان ما قامت حركة العصيان المدنى وتوالت حوادث الهجوم على الجموع المسالمة ، وزج بالالوف منهم فى السجون ، وقبض على نهرو مرة بعد اخرى وألقى به فى غيابة السجن ، فاحتملت كمالا هذه المحن المتوالية على زوجها بصبر وشجاعة رغم ضعف صحتها ، وبينما كان نهرو فى السجن مع كثيرين من زملائه ، جاءتهم الانباء فى أول يناير سنة ١٩٣١ ، بالقبض على زوجته كمالا لأول مرة فى حياتها ... اذ كان الاحتلال البريطانى قد ضاق ذرعا بنشاط نساء الهند بعد اعتقال الرجال ، وكانت كمالا تقود الحركة بعد اتساع حركة الاعتقال فى « الله آباد » ، فلما قررت السلطة المستعمرة أن يمتد الاعتقال الى السيدات كان طبيعيا أن تكون هى فى مقدمة المعتقلات .

وكانت كمالا شـديدة الاغتباط باعتقالها ، اذ كانت تتطلع الى اللحظة التى تلحق فيها ببقية مواطنيها فى السجون ، وقد بلغت روحها المعنوية ذروتها حين تقدم منها ساعة القبض عليها أحد الصحفيين وسألها عما اذا كانت لديها رسالة تود أن تنشر ، فأجابت من فورها قائلة :

« انني سعيدة سعادة تفوق الحدود ، وفخورة »
« باقتفـاء خطوات زوجي ، وأرجو أن يحتفـظ »
« الشعب بالعلم مرفوعا عاليا »

ولـكن القبض على كمالا أزعج والد نهرو أيما ازعاج فهرول من كلكتا الى « الله آباد » ، رغم ضعف صحته وتقدم سنه ، ولما زار نهرو فى السجن فزع الابن لمـا شـاهد من تورم وجه أبيه وأدرك ان أيامه أصـبحت معدودة ، وفى ٢٦ يناير أفرج عن كمالا من سجن لكناو، وعن جواهر لال نهرو من سجن نايني قبـل موعـده بساعات نظرا لتدهور صحة والده ، وقد توفى والده فعلا بعد عشرة أيام وكان الى جنبه غاندى ، صديقه القديم ، يرتل بعض الصلوات ، فهمس موتلال قائلا :

ــ انني ذاهب سريعا ، أيها المهـاتما العزيز ، ولن اكون هنا لارى الاستقلال ، ولكنى أعلم انكم كسبتموه وستحصلون عليه فى القريب العاجل !

***

ولم يطل بقاء نهرو خارج السجن بعد وفاة والده ، اذ القى القبض عليه مرة اخرى وعاد الى سجن نايني ، وكان أشد ما ضايقه من العودة الى السجن فى هذه المرة هو الخوف من اصابة كمالا بصدمة تذهب بالتحسن القليل الذى طرأ على صحتها ، وهـذا هو الذى حدث بالفعل ، الامر الذى دعا الى ارسال تقرير طبى عن حالتها

يوما بعـد يوم ، فكان الطبيب يتصـل بقسم البوليس تليفونيا لاملاء التقرير ، وهذا يتولى ارساله الى السجن ، اذ كانت التعليمات تمنع الاطباء من الاتصـال بالسجن مباشرة ، وقد ظلت التقارير تصل على هذا النمط خلال اسبوعين ثم توقفت فجأة رغم التدهور المطرد فى صحة كمالا ، فبلغ الضيق بنهرو أقصى درجاته فى هذه الفترة العصيبة وبعد انقضاء شهر كامل على اعتقـاله صحبه أحد ضباط البوليس من السجن فى زيارة قصيرة لزوجته وقيل له انه سيسمح له بمثل هـذه الزيارة مرتين فى الاسبوع ، ولـكنه انتظر الموعد القادم للزيارة دون ان يحضر أحد لاصطحابه ، ومر اليوم الرابع ، والخامس ، والسادس ، والسابع ، وهو ينتظر على أحر من الجمر فى غير طائل ، وجاءته الانباء فى الوقت نفسه بأن صحة كمالا تزداد سوءا على سوء ، وأخيرا ... جاء الوسطاء من هنا وهناك يعرضون عليه أن يتعهد ولو بصفة غير رسمية ، بالا يزاول أى نشاط سياسى خلال المدة الباقية من الحكم بسجنه ، فى مقابل الافراج عنه للعناية بصحة زوجته ولم يكن هو مشغولا بالسياسة ولا حريصا عليها فى تلك الايام بالذات ولـكنه مع ذلك رفض فكرة التعهد المطلوب فى اباء وشمم ، مهما تكن النتائج ، فقيل له ان صحة كمالا تسير من سيىء الى اسوأ وان وجوده الى جانبها قد يرفع معنوياتها ويكون عاملا فاصلا فى رجحان كفة الحياة على الموت ، وعندئذ دار فى أعماق ضميره صراع رهيب بين الـكرامة والواجب الوطنى والاعتبار الخلقى فى كفة وبين حياة زوجته وحبيبته وشريكة حياته فى الـكفة المقابلة ، ومع ذلك فان الصراع لم يدم سوى لحظات عرف نهرو فى نهايتها أين ينبغى أن يكون قراره لا لينقذ كرامته ومبادئه فحسب ، بل لينقذ كمالا نفسها

من صدمة قاضية أيقن انها لا تلبث أن تصيبها اذا هو تهاون حتى في سبيل حياتها وانحنى امام ادارة السلطات البريطانية وتقدم اليها طائعا ذليلا وفى يده التعهد المطلوب !

وبعد أيام سمح له بأن يخرج لزيارتها مرة أخرى ، فوجدها فى فراش المرض ، لا تكاد تفيق من وطأة الحمى وكانت مشوقة الى لقائه ، ولكنها كانت تعلم أنه سيتركها ليعود الى سجنه ، فاكتفت بأن ابتسمت فى شجاعة وأومأت اليه أن ينحنى لتسر اليه بكلمة فىأذنه ، فلما انحنى همست قائلة :

ــ ما هذا الذى سمعته عن اعطائك تعهدا للحكومة ؟ حذار أن تعطى مثل هذا التعهد !

لقد كان هذا هو القرار الذى اتخذه نهرو بالفعل ، وكأنه يقرأ ما فى نفس شريكة حياته وجهاده ، فلا غرو اذا نزلت هذه الهمسة بردا وسلاما على قلبه المضطرم بالنارين : نار الوطنية ، ونار الحب ...

وقبل أن يعود نهرو الى السجن من هذه الزيارة ، رئى ان صحة كمالا تزداد اعتلالا فى هذا المكان ، ولهذا تقرر نقلها الى الجبل فى بلدة تسمى « بهوالى » وبعد ذلك بثلاثة أسابيع تقرر نقل نهرو الى سجن آخر قريب من هذا المكان ليستطيع زيارتها ، وفى طريقه الى السجن الجديد سمح له بقضاء بضع ساعات مع زوجته فاستشعر بعض الارتياح اذ لاحظ تقدما طفيفا فى صحتها رغم قصر المدة التى أقامتها فى الجبل ، وبعد شهر سمح له بزيارتها مرة أخرى ، واستمر يزورها بعد ذلك كل ثلاثة أسابيع ، وقد كتب نهرو يقول فى هذا الصدد :

« كانت هذه الزيارات القصيرة عزيزة جدا عندى وربما أيضا عندها ، وكان الاطباء يرفعون بعض قيود

الطعام فى يوم زيارتى ، كما كان يسمح لحديثى معها أن يستمر مدة طويلة الى حد ما ، لقد كنا على الدوام يقترب أحدنا من الآخر ، وكنت أنتزع نفسى انتزاعا كلما حان موعد فراقى لها ، اننا لم نكن نلتقى الا لنفترق وكنت فى بعض الاحيان أتصور فى أسى وحسرة مجىء يوم يكون فراقنا فيه الى الابد »

ويذكر نهرو انه عندما ألقى القبض عليه فى فبراير سنة ١٩٣٤ بأمر من السلطات فى كلكتا : « صعدت كمالا الى غرفتنا لتجمع لى بعض الملابس ، فتبعتها لاقول لها كلمة الوداع ، واذا هى فجأة تتشبث بى ، ثم يغمى عليها وتسقط من فرط الاعياء والتأثر ، وكان هذا على غير عادتها ، اذ اننا روضنا انفسنا على ان ننظر باستخفاف وسرور الى هذه الاعتقالات المتكررة ، والا نوليها سوى أقل قدر من الاهتمام ، فهل طاف بها طائف من الالهام فعرفت مقدما ان هذا سيكون الى حد ما آخر لقاء طبيعى بيننا ؟ »

ويستطرد نهرو قائلا :

ـ لقد حال بينى وبينها حكمان طويلان كل منهما يقضى بالسجن سنتين ، فى نفس اللحظة التى بلغت حاجة كل منا للآخر غايتها ، وهى اللحظة التى اقترب كلانا من الآخر اشد الاقتراب ، لقد كنت أفكر فى هذا خلال أيامى الطويلة فى السجن ، ومع ذلك فقد كان الامل يراودنى فى انه لابد أن يأتى الوقت الذى يلتئم فيه شملنا مرة أخرى ، ترى كيف كان حالها فى تلك الأعوام ؟ ان فى استطاعتى أن أحدس ولكن حتى أنا لا أستطيع أن أعرف ، فلم تكن الاوضاع طبيعية خلال مقابلاتنا فى السجن ، أو خلال الفترات القصيرة خارج السجن ، لقد كان علينا أن نتصرف على أحسن وجه خشية أن

بسبب أحدنا ألما للآخر بالكشف عن جزعه ، ولكن كان من الواضح انها قلقة مضطربة بسبب أشياء كثيرة وانها لا تتمتع بشيء من هدوء البال ، وقد كان فى استطاعتى أن اقدم لها بعض العون ، ولكن ليس من السجن » !

وكانت حالة كمالا الصحية قد حتمت نقلها الى أوربا فى مايو سنة ١٩٣٥ ، لاستكمال علاجها ، فانقطعت بالطبع زياراته لها من سجن ألمورا ، حيث بقى هو لاستكمال مدة الحكم .

وبينما كان نهرو يحصى ما بقى له من ايام فى هذا السجن ، فيجدها خمسه أشهر ونصف شهر، يستطيع بعدها ان يذهب الى المانيا ليطمئن على زوجته وحبيبته اذ به يفاجأ مرة اخرى فى ٤ سبتمبر سنة ١٩٣٥ ، باطلاق سراحه ، واعلانه بوقف تنفيذ بقية العقوبة ، لان صحة كمالا تدهورت ودخلت فى مرحلة الخطر .

وانطلق نهرو من سجن ألمورا بالسيارة والقطار الى مسقط رأسه « الله آباد » فوصل فى اليوم التالى ، وبعد ظهر اليوم نفسه بدأ رحلته بالطائرة الى أوربا ، مارا بكراتشى ثم بغداد ، ثم القاهرة ، ومن الاسكندرية استقل طائرة مائية الى ميناء برنديزى ، ومنها ركب القطار الى بال فى سويسرا ، ثم استأنف رحلته بالسيارة الى المصحة التى تعالج فيها كمالا ، فى مدينة «بادنفيلر» بالغابة السوداء فى المانيا .

والآن ندع نهرو يتكلم مرة اخرى :

ـ كانت هناك نفس الابتسامة الشجاعة المألوفة على وجه كمالا عندما رأيتها ، ولكنها كانت من الضعف والوقوع فى قبضة الالم بحيث لم تستطع ان تتكلم كثيرا ، ربما افادها حضورى لانها اصبحت احسن قليلا فى

اليوم التالى وبضعة أيام بعده ، ولـكن الازمة استمرت ومضت تنزف معين الحياة منها فى بطء ، وقد خيل الى ، لعجزى عن ترويض نفسى على فكرة موتها ، انها تتحسن ، وانها اذا استطاعت ان تتغلب على هـذه الازمة فقد يكتب لها الشفاء ، وراح الاطباء ، كعادتهم ، يبعثون الامل فى نفسى ، وبدا لى ان حدة الازمة قـد انقضت ، وانها صمدت لها ، ومع ذلك فانها لم تتحسن قط الى حد احتمال حديث طويل ، فكنا نتحدث بايجاز ثم أتوقف حالما الاحظ انها بدأت تتعب ، وكنت فى بعض الاحيان أقرأ لها ، وأذكر من الـكتب التى قرأتها لها على هذا النحو كتاب « الارض الطيبة » لمؤلفته بيرل بالك ، وكانت ترتاح الى ذلك ، ولكن مطالعتنا فى الكتاب كانت تسير ببطء ...

وكنت فى الصباح والعصر أجر نفسى مشيا على قدمى من « البنسيون » الذى أنزل فيه بالمدينة الصغيرة الى المصحة ، حيث أقضى بضع ساعات معها ، وكنت ممتلئا بأشياء كثيرة أريد أن أحدثها بها ، ولـكننى كنت مضطرا الى ضبط نفسى ، كنا نتحدث قليلا فى بعض الاحيان عن الزمن الذى مضى ، وعن الذكريات القـديمة ، وعن أصـدقائنا فى الهند ، وكنا نتحدث أحيانا فى شىء من القلق عن المستقبل ، وما عسانا أن نصنع فيه ؟ وكانت رغم خطورة حالتها شـديدة التعلق بالمستقبل ، كانت عيناها براقتين مليئتين بالحيـاة ، وكان الاشراق عادة يعلو وجهها ، وكان الاصدقاء القليلون الذين يحضرون لزيارتها تعلوهم دهشة الفرح اذ يرونها تبـدو أحسن حالا مما كانوا يظنون ، لقد خدعوا بالعينين البراقتين والوجه الباسم ! »

وقد بلغت الخديعة الرهيبة بنهرو نفسه ذروتها بعد

ان نقلت كمالا الى مصحة اخرى في لوزان بسويسرا في أواخر يناير سنة ١٩٣٦ ، وخيل الى نهرو أن التحسن في صحتها يسمح له بالاستجابة الى نداء العمل الوطني الملح الذى يناديه فى الهند ، فشاور كمالا فى الامر فلم تمانع فى سفره وان كان قد تبين له فيما بعد ان كبرياءها وحرصها على المصلحة العامة منعاها من رفض رغبته ، وبينما هو يتأهب للسفر بالطائرة بعد أربعة أيام أو خمسة - اى فى ٢٨ فبراير - اذا بالطبيب يطلب اليه تأجيل السفر أسبوعا أو عشرة أيام ، فيحاول نهرو أن يستوضحه ولكنه يرفض ان يزيد شيئا على هذه النصيحة ، ولا يسع نهرو الا أن يؤجل سفره فى الحال ، ويحجز تذكرته للعودة فى طائرة تالية .

« وفى هذه الايام الاخيرة بدا ان تغيرا خفيا تسرب الى كمالا .. كانت حالتها الجسمانية على حالها ، فى حدود ما كنا نراه ، ولكن عقلها بدأ قليل الالتفات الى الاشياء المادية المحيطة بها ، فكانت تخبرنى ان شخصا ما يناديها ، أى انها ترى شخصا أو شكلا يدخل الغرفة بينما لم أكن أرى شيئا ..

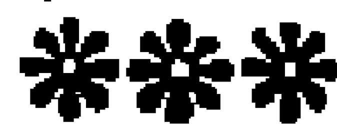
« وفى الصباح الباكر من يوم ٢٦ فبراير لفظت آخر أنفاسها ، وكانت انديرا « ابنتهما » موجودة ، وكذلك الصديق الوفى والرفيق المخلص الذى لازمها طوال تلك الشهور ، الدكتور أتال ..

« وجاء بعض الاصدقاء الآخرين من مدن سويسرا المجاورة ، فنقلناها الى مكان احراق الجثث فى لوزان ، وفى خلال بضع دقائق أصبح ذلك الجسد الرقيق ، والوجه الجميل الذى تعود أن يبتسم كثيرا فيحسن الابتسام ، أصبح هذا كله رمادا ، واحتوى اناء صغير تلك البقايا الفانية لهذه التى كانت تفيض بالحيوية ،

والاشراق ، والحياة » ..

وعندما توقفت الطائرة التى استقلها نهرو فى بغداد ، سلم الى مكتب التلغراف برقية الى الناشر الذى كان يتهيأ لاصدار ترجمة حياته بقلمه ، وفى هذه البرقية يطلب من الناشر أن يهدى الكتاب :

« الى كمالا التى لم يعد لها وجود » ! ..



هذه مأساة الفتاة الكشميرية الجميلة ، النحيلة ، الطموحة ، البسيطة ، المخلصة ، التي تزوجها نهرو منذ اربعين سنة ، وفقدها بعد عشرين سنة ، شاركته خلالها آراءه ، وكفاحه ، وسجنه ، وآلامه وآماله ، ومباهجه ، وأحزانه ، فكتب يقول :

« كنت اذا غبت عنها أياما أحس هدوءا فى البال كلما فكرت فيها ، وأتطلع فى لهفة الى اللحظة التى أعود فيها الى البيت .. »



وقد تركت كمالا بنتا وحيدة هى انديرا ، التى اصبحت الآن سيدة متزوجة من صحفى هندى معروف ، هو فيروز غاندى ـ وهو لا يمت بأية صلة من القرابة الى الزعيم غاندي ـ وقد انجبت منه ولدين . وهم ـ أى الام والولدان ـ يظفرون من نهرو رغم كل مشاغله بحنان تضرب به الامثال ، وكأنه يحمل عن نفسه وعن زوجته الراحلة أحب عبء يحمله الاب والجد ، ورب العائلة الحنون ...

جان جاك روسو



إن التفريط في الحرية معناه
إهدار وجود الإنسان
والتفريط في حقوق الإنسانية
.. بل واجباتها
روسو

لم أجد فى حياة احد من احرار التاريخ الذين قرأت لهم وعنهم عبقريا تجمعت فيه صنوف المتناقضات كما تجمعت فى حياه « جان جاك روسو » ...

وهب فرنسا مبادىء ثورتها الكبرى ، وطورد فى كل شبر منها كما يطارد المنبوذون ، المشردون !

ألهب بسياط يراعته ظهور الملوك والامراء والمترفين، وتقلب فى مراحل شتى من حياته فى ظل رعايتهم وعاش فى قصورهم ...

كان يسمى نفسه « الشخص الوحيد فى فرنسا الذى يؤمن بالله » وأجمعت الكنائس المسيحية على تكفيره واخراجه من حظيرتها !

خلف أروع مبادىء التربية ، وسجل فى اعترافاته انه ترك خمسة أطفال أنجبهم واحدا بعد الآخر ، على باب أحد الملاجىء تخلصا من نفقات تربيتهم ! !

وضع أدق النظريات السياسية والاجتماعية ، ومات مختل التفكير ، مضطرب النفس ، معـــذبا بجنون الاضطهاد !

***

ولد « جان جاك روسو » فى ٢٨ يونيو سنة ١٧١٢ فى مدينة جنيف بسويسرا ، وقد ظـل طوال حيـاته

شديد الاعتزاز بمولده فى « مدينة وجمهورية جنيف »
وكان يوقع باسم «جان جاك روسو- مواطن من جنيف» ،
كما كان شديد الحرص على التمسك بحقوقه العامة «كمواطن فى دولة حرة وفرد فى شعب متمتع بسيادته»
ولكنه رغم ذلك كان أشد تعلقا بفرنسا منه بسويسرا ،
وكان يعترف بذلك قائلا : « ان قلبه كان يخفق طربا لاقل نجاح يصيبها ، فاذا أصابتها نكسة أو صدمة نالت منه كما لو كانت قد أصابت ذات نفسه » وربما كان من أسباب ذلك ان الدم الفرنسي جرى فى عروقه قبل الدم السويسرى ، اذ كان أجداده مهاجرين من البروتستانت الذين طردوا من فرنسا أيام الاضطهاد الدينى ، ولعل الوراثة أيضا لعبت دورها فى مرض الشعور بالاضطهاد الذى أودى بعقله فى السنوات الاخيرة من حياته .

وكان أبوه « ايزاك روسو » من المشتغلين بصناعة الساعات ، شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أهل سويسرا وكان رجلا طيب القلب ولكنه كان مغامرا ، قلقا ، عنيفا فى تصرفاته ، شديد النهم الى القراءة ، ويعتقد مؤرخو روسو أنه ورث عن والده صفتين على الاقل : هما ، شغفه بالقراءة ، وحبه للتنقل من مكان الى مكان، أما أمه « سوزان برنار » فقد دفعت حياتها ثمنا لحياته ، وفارقت الدنيا بعد أن وضعته بأسبوعين ..

ويبدو أن جان جاك تعلم القراءة والكتابة واجادهما فى سن باكرة جدا ، اذ كان يقرأ الروايات والقصص ، ويسهر مع أبيه الليالى الطوال فى القراءة حتى الصباح. وكان ذلك قبل أن يبلغ السادسة من عمره !

وهو يقول فى هذا الصدد :

« عندما بلغت السادسة وقع فى يدى كتاب التراجم

« لبلوتارك ، فحفظته عن ظهر قلب !.. وكنت قد
« قرأت عددا كبيرا من الروايات ، فجعلتني هـذه
« الروايات أسكب الدموع كالسيل المنهمر قبل أن
« أبلغ السن التي يولع فيهـــا القلب بالقصص
« والروايات ، وكان من أثر ذلك أن تكونت عندي
« ملـكة أخذت من ذلك الحين تقوى وتشتد ، وهي
« تذوق معاني البطولة وأساطير المغامرة والغرام ،
« وانتهى الامر الى حـد الاشـمئزاز من كل شيء
« لا يتفق مع مزاجي وخيالاتي »

وعنـدما بلغ جان جاك سن العاشرة وقع والده في اشكال لم يجد ازاءه بدا من أن يختار بين أمرين أحلاهما مر : هما ، النفي ، أو السجن ، فاختار الاول ، وفر الى مدينة ليون بفرنسا تاركا ولده في رعاية أخيه ، ولم يلبث جان جاك أن أرسل مع ابن خالة له في مثل سنه الى مدينة « براسي » ليشرف على تربيتهما قسيس المدينة مسـيو لامبرسييه ، وكانت تعيش مع هـذا القسيس شقيقة له في الثلاثين من العمر ، سرعان ما أغرم بها الصبي روسو ، دون أن تلتفت هي اليه أو

تشعر به ... وكان لهذه العاطفـة الصبيـانية اثرها العميق في نفسه طول حياته ، ولعل في تلك الواقعة ما يلقي ضوءا على ما جاء في اعترافات روسو من انه في سن العاشرة ، لم يجد لنفسه ملاذا وملجأ في الحيـاة سوى أحلامه ، ولم يجد ما يتعزى به عن الوحدة التي أحسها سوى الارتماء في أحضان الطبيعة حتى وجـد نفسه ـ كما قال ـ أقدر على التفـاهم مع المخلوقات الخيالية التي أحاط بها نفسه ، منه مع المخلوقات التي كان يراها في هذا العالم ! ..

وعاد روسو الى خاله برنار ، واشتغل صبيا «محضرا»

ثم ظل ثلاث سنوات يتعلم الرسم والحفر ، ولكنه فر من هذه المهنة ضيقا بها وتمردا عليها وراح يستجدى من بلد الى بلد حتى بلغ مدينة صغيرة تدعى كونفينيون على مقربة من جنيف ، وهناك التقى بقسيس كاثوليكي اغراه باعتناق المذهب الكاثوليكي ، وأرسله الى سيدة حديثة عهد بالكاثوليكية تدعى « مدام فاران » وأوصاها بأن تؤدبه وتتولى اتمام تعليمه الدينى ، وفى دار هذه السيدة أقام روسو وعمل تارة سكرتيرا لها ، وأخرى أنيسا وجليسا ، وكان يومئذ فى السادسة عشرة من عمره ، أبيض البشرة ، براق العينين ، أسود الشعر ، حسن القوام والهندام ، شديد الاعتداد بنفسه ... وكانت هى فى الثامنة والعشرين من العمر ، شقراء الشعر ، كريمة النفس ، موفورة الثراء ، فنشأت بينهما علاقة من الحب ظلت تنقطع وتتصل بقدر ما يبتعد عنها أو يعود اليها ، اذ كانت تؤمن فيما يبدو بالمثل القائل : « بعيد عن العين بعيد عن القلب » . وما زال روسو ينصرف عنها ثم يقطع مئات الاميال سيرا على قدميه ليعود اليها ، حتى عاد فوجد غيره قد احتل مكانه عندها ...

وكان ذلك عام ١٧٤٠ ، أى عندما بلغ روسو عامه الثامن والعشرين . وكأنما كانت العبقرية على موعد للظهور والانطلاق يوم تختفى مدام فاران من حياة روسو ، فما هو الا أن عاد الى باريس غير عابىء بما حدث ، حتى تعرف الى الاديب العلامة المشهور « ديدرو » أحد مؤلفى دائرة المعارف الفرنسية ، كما تعرف الى أسرة أخرى من أصدقاء « ديدرو » هى أسرة « ديبان » وهذه ألحقته سكرتيرا خاصا للسفير الفرنسى فى البندقية ، فبقى نحو ثلاث سنوات عاد

بعدها الى العاصمة الفرنسية ، فأخرجت له مسرحية غنائية « أوبرا » وضعها وسماها « ربات الفن الكريمات » وأخذ يكتب مقالات عهد بها اليه « ديدرو » .

وفى سنة ١٣٤٥ التقى روسو بخادمة شابة فى أحد الفنادق تدعى « تيريز ليفاسير » وصفها فى «اعترافاته» بأنها « قبيحة جاهلة ، غبية ، وأم بغيضة » .. ومع ذلك فان روسو عاشرها خمسة وعشرين عاما قبل أن يتزوجها ... وفى خلال هذه الفترة حملت وولدت له خمسة أطفال كان يأخذ كل طفل منهم فيتركه على عتبة مستشفى اللقطاء ، لمعاذير ومبررات حاول أن ينتحلها ويفسر بها مسلكه ، ولكنها كانت كلها أقبح من الذنب الذى جناه ! ..

وفى صيف سنة ١٧٤٩ وقع لروسو حادث أشبه ما يكون بما وقع لبوذا حين نزلت عليه المعرفة تحت الشجرة المقدسة ، وكان « روسو » يذكر هذا الحادث دون أن يضطرب أو يرتعد ...

ذلك انه كان فى طريقه ذات يوم لزيارة « ديدرو » فى سجنه ، وكان « ديدرو » قد حكم عليه بالسجن فى «فانسن» لجريمة صحفية ارتكبها ، وكان الحر قائظا ، وكان فى الطريق الطويل شجرة يحتمى بها السائرون من هجير الصيف ، وبينما كان روسو يسير فى هذا الحر القائظ اخذ يسرى عن نفسه بتصفح احدى المجلات الادبية ، فوقع بصره فجأة على اعلان من أكاديمية « ديجون » ، بمنح جائزة لاحسن بحث فى الموضوع التالى :

« هل أدى تقدم العلم والفن الى انحطاط الاخلاق أم الى الرقى بها ؟ »

ويقول روسو انه احس فجأة كانما « نفذ فى اعماقه

ألف شعاع من الضوء ، وهاجمته حشود من الافكار الحية الغامضة » فألقى بنفسه تحت شجرة على مقربة من الطريق حيث أمضى نصف ساعة وهو تائه فى هذيان فكرى خرج منه وقد بللت الدموع صدر سترته ، وفى هذه اللحظة عاش فى عالم آخـــر ، وأصبح رجـــلا آخر ! »

ولم يكن السر فى ذلك مجرد الاجـابة التى تواردت على خاطره ردا على مسابقة الاكاديمية ، بل السر فيما جرت اليه تلك الخواطر وكأنما تفتحت الابواب الموصدة فى ذهنه ، واندفع منها سيل من « الحقائق العظمى » اقام على أساسها جميع مؤلفاته الخالدة .

وقد نال روســو جائزة أكاديمية ديجون فى العـام التالى ـ سنة ١٧٥٠ ـ بعد أن كتب بحثا قيما رفع فيه لواء الفضيلة والبطولة والشــجاعة ، وصــعد به اولى درجات الشهرة والنجاح ، ومن سخريات القدر ان الاطباء فى ذلك العام بالذات قدروا الا يمتد به العمر أكثر من ستة اشهر بسبب مرض خطير فى المســالك البولية !.. وقد عاش بعد ذلك ثمانية وعشرين عاما ، ولم يمت بهــذا الداء ، بل مات بانفجار فى المخ فى ٢ يولية ســنة ١٧٧٨ ، قبــل أن تنـدلع شرارة الثورة الفرنسية بعشر سنوات أو تزيد ، ولـكن يبدو أن نذير الاطباء ألقى فى نفس روسو روح الاستهتار بكل شيء فى الحياة التى لم يبق له فيها سوى أمد قصير ، اذا هو صدق النذير ، ولم يكن هنالك ما يدعوه لعدم تصديقه فراح يكتب بأسلوب طافح بالمرارة والحرارة ، غير عابىء بالرضى والسخط من هذا الجانب أو ذلك ، ومضى يحمل حملة هائلة على النظام الاجتماعى القائم ولايرى فيه شيئا سوى الظلم والبؤس والشقاء ، وجرد قلمه

من أساليب التحرز والتأنق ليجعل منه سيفا مجردا بتارا كآرائه ونقداته ، وانقلب فى غير تدرج هداما ، هجاما ساخراً يضرب بمعاوله فى مجتمع فاسد ونظام قائم على أسس منهارة من الانحلال والاستبداد ، والفساد الذى ليس بعده فساد .

ولم يلبث روسو فى العام التالى على نجاح مقاله الاول أن كتب مسرحية غنائية قصيرة أكسبته مزيدا من الشهرة والنجاح فعرض عليه أن يتقاضى معاشا ثابتا وأن يمنح وظيفة بالقصر تهيىء له الراحة من متاعبه المالية المرهقة ، ولكنه أبى ذلك رعاية لمبادئه الثائرة على حياة القصور وما فيها من مباذل ومهازل .

وأعقب ذلك بكتابة موضوع آخر سنة ١٧٥٣ بعنوان « بحث فى مصدر عدم المساواة بين البشر » ، وفى هذا البحث خطا خطوة جريئة بارجاع أسباب البلاء والشقاء الى فكرة التملك داعيا الى تدخل الدولة لمحو الظلم وعدم المساواة ، مؤكدا ان سر انهيار الدول هو تحكم القلة الموسرة واغتصابها الحكم على نحو ينتهى بتحويل الجنس البشرى الى طبقة من العبيد .

وفى سنة ١٧٥٤ عاد روسو الى مسقط رأسه جنيف حيث أعلن ارتداده عن الكاثوليكية ، ولما عاد إلى باريس تلقي دعوة من احدى السيدات للاقامة فى كوخ صغير بغابة موفمورس أهدته إليه هذه السيدة وتدعى « مدام ابيناى » ، وأقام بالفعل فى هذا الكوخ الذى أطلق عليه اسم « ارميتاج » فى ٩ ابريل سنة ١٧٥٦ ، ويقول روسو : « انه فى هذا اليوم فقط بدأت أحس بالحياة ! »

وفى هذا الكوخ الذى اتخذه روسو ملاذا وملجأ يبتعد فيه عن باريس وعن الجمهور وعن عالم البشر كله

ليرتمى فى احضان الطبيعة ، فى هذا الكوخ كتب روسو روايته الخالدة « جولى أوايلويز الجديدة » التى نالت أعظم قدر من الرواج بمجرد ظهورها ، وكانت تدور حول حقوق الفقراء وواجبات الاغنياء ، ولكنه قبل أن يتم الرواية كان قد تشاجر مع مدام ابيتاى وذهب الى قرية « مونلويه » على مقربة من المكان نفسه ، حيث أقام ضيفا على دوق ودوقة لكسمبرج ، وهنا كتب روسو معظم مؤلفاته الرائعة ومنهما « العقد الاجتماعى » و « اميل » .

أما « العقد الاجتماعى » الذى نشر سنة ١٧٦٢ ، وطبع فى امستردام خوفا من عواقب طبعه فى باريس ، فقد كان يهدف الى « اقامة جميع الحكومات على أساس موافقة مباشرة أو ضمنية ، من المحكومين » كما قال روسو ، وفى هذا البحث ذهب روسو الى افتراض ان المجتمع يقوم على أساس عقد اجتماعى يسلم كل فرد بمقتضاه ارادته الخاصة لارادة الجميع ، فى مقابل حمايته ، وعلى هذا الفرض طالب روسو بقيام نظام جمهورى ، يزاول فيه الشعب حق الانتخاب المباشر ، ويتمتع المواطن بالحرية والمساواة والاخاء ، وهى المطالب التى اتخذت بعد وفاة روسو شعارا للثورة الفرنسية .

وأما كتاب « اميل » أو « بحث فى التعليم » فقد صدر فى العام نفسه وتضمن نظريات ثورية عن تربية الاطفال المنزلية ، وعن « الدين الطبيعى » وضرورة احلاله محل المذاهب الكنائسية ، وعن النظم الغذائية والصحية كما ينبغى ان تكون ، وعن تدريب الملكات العقلية والخلقية والجسمانية على نهج جديد ...

وكان روسو يعتزم أن يجعل الكتابين آخر مؤلفاته

متوقعا أن يدرا عليه مبلغا لا يقل عن ثمانية عشر ألف فرنك، فيعيش من هذا الدخل هو وحبيبته « تريز » ويذهب ليقيم فى أحضان الريف يكتب حين تطيب له الكتابة.

ولكن روسو كان يقدر شيئا ، بينما القدر يدبر له أشياء وأشياء .

فلم تكد تمضى عشرون يوما على ظهور « اميل » فى هولندة ، وقبل أن يتسع الوقت لتوزيعه فى فرنسا ، حتى فوجىء روسو بقرار أصدره برلمان باريس فى ٩ يونية سنة ١٧٦٢ بمصادرة الكتاب واحراقه ، والقبض على مؤلفه ... وتم بالفعل جمع نسخ الكتاب وتمزيقه واحراقه بعد يومين أمام سلم وزارة العدل فى باريس .

وليس هذا فحسب ، بل لقد قيل يومئذاك ان احراق الكتاب لا يكفى ، بل يجب أن يحرق كاتبه ! ولم يسع روسو ازاء هذه النذر الخطيرة ، وتحت الحاح أصدقائه ، الا أن يلوذ بالفرار فى اليوم الاسود الذى أحرق فيه كتابه وهو يوم ١١ يونية سنة ١٧٦٢ ، ولم يكد يصل الى أرض سويسرا حتى ارتمى عليها يقبل ترابها ويهتف « لارض الحرية » .

ولا يشاء القدر فى سخريته بالكاتب الحر الثائر الا أن يفجعه حتى فى « أرض الحرية » التى لاذ بها ، وانحنى يقبل ترابها ... فما هى الا تسعة أيام مضت على احراق كتاب « اميل » فى باريس ، حتى أحرقته جنيف بدورها وتلتها برن ثم نويشاتل .

وقد وصف روسو هذه المحنة الهائلة قائلا فى اعترافاته :

« فى جميع أرجاء أوربا ، تعالت ضدى الصيحات واللعنات وثارت عاصفة من الحنق لم يسبق لها « مثيل ، فقيل اننى كافر ، وزنديق ، ومجنون ،

« ووحش ضار ، وذئب مفترس » .

ولم يكن غريبا أن تكون هـذه المرحلة بداية الخلل العصبى الذى أصاب روسو ، وظل يتفاقم على الايام حتى تطور الى جنون الاضطهاد الذى لازمه الى آخر حياته .

وقد اضطر روسو ـ على كره منه ـ الى الاحتماء بملك بروسيا فردريك الثانى ، فى نويشاتل ، وظل يستمتع بوافر حمايته عامين ونصف عام ، ولم يلبث أن نشر فى سنة ١٧٦٤ مجموعة « خطابات كتبت فى الجبل » تضمنت هجوما عنيفا على ناقديه من أهل الدين والدنيا على السـواء ، فكانت النتيجة الطبيعية أن تضـافر الجميع فى الثورة عليه ، ورمى بالحجارة ، وهدد بالقتل رميا بالرصاص ، وهوجم بيتـه تحت جنح الظلام فى سبتمبر سنة ١٧٦٥ ، فاضطر الى الفرار الى جزيرة صغيرة فى بحيرة بيين ، حيث هادنه الدهر شهرا واحدا من الزمان تلقى فى نهايته أمرا من مدينة برن بالرحيل، فاضطر آخر الامر الى الفرار من سويسرا ، وطنه الذى كان يعتز به طول حياته ، فأصبح يسميه « الارض القاتلة » .

وذهب روسـو الى لنـدن بدعوة من الفيلسـوف الانجليزى المشهور هيوم فى يناير سنة ١٧٦٦ ، فاذا هواجسه تزداد ، واذا مخاوفه تتجسم واذا شعوره بالاضطهاد يجد وقودا جديدا يلتهم عقله ونفسه وحسبه بما رأى من صعوبة التفاهم مع مضيفه ، وبما يعرف من اتصال هذا المضيف بخصومه الالداء فى انجلترا وفرنسا على السواء ، وبما تبين له من افشائه لاسراره وهواجس نفسه الى أولئك الخصوم .

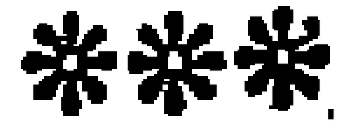
وكانت هـذه ضربة من أقسى الضربات على نفس

روسو وعقله ، ففر من انجلترا هائما على وجهه فى مايو سنة ١٧٦٧ ، وعبر البحر الى فرنسا ، حيث أخذ يتنقل من مكان الى مكان ، مطاردا ، مشردا ، معذبا بجنون الاضطهاد ، هاتفا فى ختام كل خطاب يكتبه : « انني برىء » ثم سمح له بالعودة الى باريس فأقام فى أحد بيوتها الحقيرة ، وراح يكسب لقمته بالعمل نساخا للموسيقى ، وهنا أتم كتابه « الاعترافات » وألف كتابا آخر سجل فيه هواجس نفسه والمؤامرات التى كان يعتقد أنها تحاك حوله ، وسماه « محاورات روسو مع جان جاك » ثم بدأ يكتب آخر مؤلفاته وهو « أحلام سائر وحيد » ، وهو من أجمل آثاره الادبية رغم عوارض الجنون التى ترى بين صفحاته ، وقد مات قبل أن يفرغ من هذا الكتاب الاخير .

وكأنما تعب القدر أو أشفق من مطاردة العبقرى الحر المتشرد فأتاح له فى الشهر الاخير من حياته فرصة الراحة والتمتع بالحياة والعافية من جديد ، فساق اليه رجلا كريما من الموسرين يدعى مسيو جيراردان ، دعاه الى الانتقال من بيته الحقير ايقيم فى بقعة من أجمل البقاع فى ريف فرنسا ، على مقربة من باريس ، وقبل روسو هذه الدعوة وانتقل الى مسكنه الجميل الجديد فى أواخر شهر مايو سنة ١٧٧٨ ، حيث بدأ روسو يلتقط أنفاسه ويستعيد صحته واحساسه بالحياة ، ويشترك فى عزف بعض المقطوعات الموسيقية التى الفها ...

ولكنها كانت صحوة الموت لا أكثر ولا أقل ، ففى الثانى من شهر يولية سنة ١٧٧٨ ، وجد روسو متورم الوجه ، فاقد الحياة ، ورغم ما أشاعه خصومه من انه أقدم على الانتحار فان أيامه الاخيرة وآراءه الحاسمة ضد فكرة الانتحار ، وتقرير الاطباء الذين فحصوا

جثته ، قطعت كلها بأنه لم ينتحر ، وانما مات بانفجار داخلى فى المخ ...



هكذا كانت حياة روسو ، وهكذا كانت نهايته ...

ولـكن نهاية حياته ، لم تكن الا بداية خلوده ، ورفع لواء مبادئه وتحقيق أهدافه التحريرية النبيلة .

وحسبه مجدا وخلودا أن تنسب الى كتاباته وتعاليمه بعد مماته ، أعظم ثورة فى القرن الثامن عشر وهى الثورة الفرنسـية الـكبرى ، وأن يحج الى قبره من سـنة ١٧٨٠ فى جزيرة « بيبلييه » نصف الشعب الفرنسي، بما فيه ملـكة فرنسـا وجميع أمرائها !.. وأن تأمر الثورة الفرنسية بنقل جسمانه الى « البانثيون » مدفن العظماء ويقام له تمثال نصفى يواجه تمثال فرانكلين وواشنطن فى قاعة الجمعية التأسيسية ، وأن يتجاوز الاعتراف بفضله حدود المكان والزمان، فنرى تولستوى يحيط عنقه بسلسلة تحمل صورة روسو كأنها صورة من صور القديسين .

توم بين



كتب المؤرخ الامريكى ايلبرت هبارد يقول عن توماس بين معددا بعض مآثره الخالدة :

« ان توماس بين هو أول من اقترح استقلال أمريكا ، وأول من اشار بالاتحاد الفيدرالى للولايات ، وأول من اشار بحماية الحيوانات العجماء ، وأول من دعا لانصاف المرأة ، وأول من أبرز حقيقة الاخوة البشرية ، وأول من اقترح حقوق النشر الدولية ، وأول من دعا لتعليم أبناء الفقراء على حساب الدولة ، وأول من اقترح اعلان جمهورية كبرى تضم جميع شعوب العالم ! .. »

وكتب العالم الخالد الذكر توماس اديسون يقول :

« كان من حسن حظى أن التقى بمؤلفات توماس بين فى صباى ، اذ عثرت على مجموعة من كتابات بين فى مكتبة والدى عندما كنت فى الثالثة عشرة من عمرى ، فتفتح فى ذهنى أفق جديد حقا حين قرأت آراء هذا المفكر العظيم فى الموضوعات السياسية والدينية ، وقد علمنى بين يومئذ أشياء كثيرة لم أكن قد فكرت فيها قط من قبل » ...

وقال أديسون أيضا :

« لقد كنت على الدوام أعد بين من أعظم الامريكيين

أجمعين ، فلم يتح لنا قط فى هذه الجمهورية أن نجد احدا يفوقه فى الذكاء وسلامة الادراك » ...

ومع ذلك فان توم بين ظل زهاء قرن كامل من الزمان ضحيه حملة مدبرة خبيثة نجح صانعوها فى تلويث سمعة الرجل وتلطيخ صفحته بالاوحال حتى كان اسمه لا يذكر دون أن يثير عبارات السخط والمقت والاشمئزاز وحتى كتبت مؤلفات عن تاريخ الثورة الامريكية لم يذكر فيها اسمه بكلمة واحدة ... وحتى بلغ الامر بأحد رؤساء جمهورية أمريكا ، وهو تيودور روزفلت حين وصفه بأنه « ملحد ، قذر ، ضئيل ! »

وروزفلت هذا هو الذى زار مصر فى أوائل هذا القرن وأبدى ملاحظة نابية أكسبت الشعر العربى قصيدة شوقى الخالدة التى قال فى مطلعها :

ايها المنتحى بأسوان دارا
كالثريا تريد أن تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف
واخشع لا تحاول من آية الفن غضا

ولم يكن روزفلت فى محاولته أن يغض من فن مصر وآثارها وتاريخها اقل تجنيا على الحق من محاولته التشهير بمواطنه المجاهد الحر العظيم توماس بين ، وقد رد عليه أحد المؤرخين فيما بعد قائلا :

« ان هذه العبارة المثلثة الكلمات لا تحمل كلمة واحدة صحيحة ، فلم يكن بين قذرا ، ولم يكن ضئيلا ، ولم يكن ملحدا » .

وقبل أن نكشف عن السر فى هذا التحامل الفاضح على بطل الحرية الخالد توم بين ، نقف قليلا لنعرض فى ايجاز لحياته الحافلة بالمخاطر ...

ولد توماس بين فى ٢٩ ينـاير سـنة ١٧٣٧ بقرية ثيثفورد بولاية نورفولك فى انجلترا من أبوين يختلفـان مذهبا ويختلفان مزاجا ويختلفان سنا ، ويختلفان فى الوسط الاجتماعى ، فقد كان أبوه جوزيف بين صـانع « كورسيهات » للسيدات ، ينتمى الى طائفة الكويكرز الدينية ، وكان متدينا ، هادئا رزينا ، أما أمه فكانت ابنة محام ثرى ، تنتمى الى الـكنيسة الانجليزية التى كانت تضطهد الكويكرز وتنكر مذهبهم ، وكانت سيدة سليطة اللسان ، حادة الطبع ، غريبة الاطوار ، ولأمر ما شاءت المقادير أن تربطهما بروابط الزواج فى ٢٠ يونية سنة ١٧٣٤ ، وكان هو يومئذ فى السادسة والعشرين من العمر ، بينما كانت هى عانسا فى السابعة والثلاثين .

من هـذين الابوين ولـد توماس بين فى تلك القرية الانجليزية سنة ١٧٣٧ ، كما ولدت أخت له فى العام التالى ــ أى سنة ١٧٣٨ ــ ولـكنها لم تلبث أن توفيت فى طفولتها الباكرة ، فنشأ توم وحيـدا فى بيت تخيم عليه سحابة ثقيلة من الـكآبة والجمود ، وتلقى مبادىء العلم نحو ست سنوات أو سبع فى مدرسة القرية دون أن تبدو عليه فى مرحلة دراسته مخايل النبوغ والنجابة وقد رفض أن يتعلم اللاتينية ، اذ كان استعداده لتعلم اللغات ضئيلا جدا ، حتى لقد عاش فى فرنسا فيما بعد عشر سـنوات واشترك فى الثورة الفرنسـية واجتمع بألوف الفرنسيين ومع ذلك لم يعرف من اللغة الفرنسية قدرا يكفيه للخطابة أو الـكتابة بها ...

وكان بين يقول : ان لديه ميلا طبيعيا للعلوم ، وكان يؤثر عنه التفوق فى الحسـاب والعمليـات الرياضـية المعقدة وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره أخرجه أبوه من المدرسة ليعلمه صناعة الـكورسيهات الدقيقة التى

كانت تحتاج الى تعليم طويل وتمـرين دقيق ودراية تامة بأصناف الحرير والـكتان والمطاط .

ولـكن بين لم يفلح فى هـذه المهمة التى كانت تنفر منها طبيعته ، وكان يرى ان النســاء أخلق بهـا من الرجال ، ومع ذلك فقد اضطر الى العودة الى الاشتغال بها مرة بعد أخرى كلما كانت سـبل العيش تضيق فى وجهه خلال السنوات الاولى من حياته ، وهى السنوات التى بدأت عند هربه من بيت والده فى التاسعة عشرة من عمره ، وقد فر يومئـذ ليلتحق باحـدى السفن الشراعية ، ثم ترك الخدمة فى السفينة وعاد الى الاشتغال بصناعة « الـكورسيهات » ثم غادر لندن سنة ١٧٥٨ الى دوفر حيث عمل فى المهنة نفسها ، وفى سنة ١٧٥٩ اقترض بعض المـال وافتتح لنفسـه محلا لصـناعة « الكورسيهات » فى سندويتش كنت ، وفى سبتمبر من ذلك العام تزوج بخادمة يتيمة تدعى مارى لامبرث ، ولم ينقض عام على زواجهما حتى توفيت ، وبوفاتها ترك بين مهنته واشـتغل موظفـا بالضرائب بمرتب قدره خمسون جنيها فى العام ، ولـكنه فصل سنة ١٧٦٥ ، لعدم دقته فى مراجعة البضائع فعاد الى المهنة البغيضة مضطرا ، ولـكنها كانت عودة قصيرة ، اذ لم يلبث أن ذهب الى لنـدن واشـتغل بتـدريس مبـادىء اللغـة الانجليزية باحدى المدارس الخاصة فى مقابل خمسـة وعشرين جنيها فى السنة وكان يتطلع فى الوقت نفسه للعودة الى وظيفته بالضرائب ، وقدم لذلك تظلما من قرار فصله فقبل تظلمه وأتيح له أن يعود بالفعل فى ١٥ فبراير سنة ١٧٦٨ بمركز جمركى يقع بالقرب من المصيف الذى يسمى الآن برايتون ، وهنـاك بدأ بين يبرز فى المناظرات والمناقشات السياسية وغيرها مما كان يحتدم

حوله الجدل فى بعض النوادى الخاصة وكان أكثر مطالعاته فى العلوم والتاريخ والفلسفة والاقتصاديات ، كما كان يجمع الى جانب ذلك سرعة فى الخاطر ، وقوة فى الحجة وحضورا فى البديهة أكسبته مكان الصدارة فى تلك المناقشات ، وقد كانت هذه الفترة وتبلغ نحو ست سنوات هى فترة التكوين التى بدلت « بين » من فتى متردد خجول الى رجل مقدام جرىء ...

وفى سنة ١٧٧٢ ، ذهب بين الى لندن حيث قدم عريضة باسم موظفى ضرائب الانتاج فى انجلترا الى مجلس العموم واللوردات يطلبون فيها انصافهم وزيادة أجورهم ، وقد أنابوا عنهم توماس بين ، وجعلوه ناطقا باسمهم ومحاميا عنهم . ولكن أعضاء البرلمان رفضوا الاستجابة الى العريضة وأعلنت اللجنة المختصة ان الموظف الذى لا تعجبه وظيفته يستطيع أن يستقيل ليحل محله آخرون من طالبى التوظف ...

وفى خلال اقامة بين فى لندن استطاع أن يلتقى ببعض الشخصيات البارزة وفى مقدمتها بنيامين فرنكلين الذى ألقى عليه أسئلة دقيقة عن المسائل العلمية أجاب عنها بين اجابة مرضية ، جعلته موضع التقدير والعطف من الفيلسوف الامريكى الكبير الذى جعله يولى وجهه فيما بعد شطر العالم الجديد ــ وكان « بين » قد تزوج ابنة أحد تجار التبغ بعد أن توفى عنها أبوها وترك لها ولأمها دكانه ، وقد ساءت حال الدكان أثناء غياب « بين » فى لندن وتراكمت الديون عليه ، فانتهزت ادارة الضرائب فرصة انقطاعه عن العمل أسبوعين وأصدرت قرارا بفصله للمرة الثانية ، واضطر « بين » لانقاذ نفسه من السجن الى التنازل عن جميع ما يملك ليباع بالمزاد العلنى تسوية للديون وأسكاتا للدائنين ، وجاءت الطامة

الـكبرى بعد شهرين بانفصال زوجته عنه لسبب أبى ان يذكره أو يتحدث عنه طول حياته وقد تبين انه لم يعاشرها معاشرة الازواج طيلة مدة زواجهما ، أى نحـو ثلاثين شهرا ! ..

وفى يونية سنة ١٧٧٤ ، ذهب «بين» الى لندن وأقام فيها ثلاثة أشهر بلا عمـــل ولا مورد رزق ، وقد تردد على بنيامين فرنكلين عدة مرات ويبدو أن بنيامين ادرك ان « بين » لن تقوم له قائمة فى انجلترا بعد فصـــله وافلاس تجارته وفقد زوجته ، فنصحه بالهجرة الى أمريكا ليبدأ صفحة جديدة من حياته ، وزوده بخطاب الى زوج ابنته للعناية به والحاقه بعمل يعيش منه ، فاستقل سفينة أبحرت الى فيلادلفيا فى الاسبوع الاخير من شهر سبتمبر سنة ١٧٧٤ وقطعت المسافة فى تسعة أسابيع .

وكان لخطاب فرنكلين فعل السحر فى نفوس الذين علموا به من الامريكيين ، فقد كان الدكتور بنيـــــامين فرنكلين يومئذ يحتل أرفع مكان فى نفوس مواطنيــه ، وكان الامريكى الوحيد الذى تجاوزت شـــهرته المحيط وتردد اسمه فى كل بلد من أوربا ، فـــلا غرو اذا كان « بين » قد اســـتقبل بالترحاب من اللحظة التى هبط فيها أرض الدنيا الجديدة ، فلم يكد ينهض من فراش المرض الذى أصابه على ظهر السفينة حتى عين محـررا لمجلة « بنسلفانيا » وهى صغيرة ظهر أول أعدادها فى يناير سنة ١٧٧٥ ، وقد ظل « بين » يحررها بنجـــاح ملحوظ زهاء ستة أشهر ، ثم تخلى عنها ليكرس كل وقته للمساهمة فى الثورة على الاحتلال البريطانى ...

« وفى خلال الاشهر الستة المذكورة شن توماس بين أول حملة لاحترام المرأة ومعاملتها بالانسانية والرفق ،

ووضع اول حجر فى حركة تحريرها ، وفى هذه الفترة نشر أول دعوة « للثورة العالمية » ولـكنه لم يكن شيوعيا قط ، بل كان على العكس مؤمنا بالفردية ، وكان يعتقد ان الدولة « شر ضرورى » ، ولـكن الخير فى التقليل منه وكان يدعو الى ما يسميه « الانسانية » ويقيمها على دعامات ثلاث هى « الحرية ، والعقل ، والاحسان»

وفى مارس سنة ١٧٧٥ ، كتب مقالا عنوانه : « الرق فى امريكا » دعا فيه الى الغاء الرق وتحريمه ، ولم يكد يمضى شهر على نشر المقال حتى قامت أول حركة ضـد الرق فى فيلادلفيا .

وفى ١٠ يناير سنة ١٧٧٦ ، ظهر كتيب لم ينشر اسم كاتبه ، وان لم يكن سرا عند عدد من الناس انه «توماس بين » وكان عنوان الـكتاب « حسن الادراك » ، ويضم بين دفتيه حملة شعواء ضـد الاسـتعمار البريطانى وسخافة أساليبه، مع التنديد بالشعب الامريكى واتهامه بالحماقة والغباء اذ يقبل ، وهو القوى الغنى بنفسه ، أن يتلقى الاوامر من شعب آخر عبر البحار !

وسرى الـكتاب بين الشـعب الامريكى كما تسرى النار فى الهشيم ، ولم يكسب منه «بين» ما يعادل قرشا واحدا ، لانه اتفق مع الناشر على أن يدفع هو — اى « دين » — أو أى خسارة تترتب على النشر . أما فى حالة الـكسب فللنـاشر النصف ، وللمحاربين فى صـفوف الثورة على الانجليز النصف الآخر ...

ولـكن الرواج الهائل الذى ناله الـكتاب حمل اسم توماس بين فى أمريكا على كل لسان ، كما أحدث الكتاب فى النفوس أثرا قلما كان له مثيل فى التاريخ ، وقد كتب المؤرخ الانجليزى المشهور سير جورج ترفيليان فى كتابه عن تاريخ الثورة الامريكية :

« انه من العسير ذكر أى موضوع الفه أحد البشر فأحدث اثرا يجمع بين السرعة والاتساع والاستمرار كهذا الكتاب ... وقد سطا الناشرون عليه وقلدوه ، وترجموه الى كل لغة فى كل بلد يضم أناسا يعطفون على الجمهورية الجديدة ، ان كتاب « حسن الادراك » جعل الوفا من الناس يحبذون الاستقلال بعد أن كانوا يضيقون ذرعا بمجرد التفكير فيه ، لقد أحدث ذلك الكتاب أثرا لا يقل عن المعجزة ! »

ولم يقف « بين » عند حد الدعوة الى الثورة بقلمه ، بل تطوع فى الخدمة العسكرية فى يولية سنة ١٧٧٦ ، وعمل سكرتيرا للجنرال روبردر ، الذى كان يقود فرقة تسمى « المعسكر الطائر » بالقرب من نيويورك ، ثم التحق بفرقة الجنرال جرين فى قلعة لى ، كياور متطوع ، وقد قدمه الجنرال جرين لجورج وشنطن الذى كان قائدا للجيش الامريكى وكان قد قرأ كتاب « بين » وأعجب به .

وفى خلال هذه الفترة كان « بين » يمارس واجباته الحربية نهارا ، ويعكف ليلا على كتابة سلسلة من المقالات عنوانها « الازمة » لتقوية الروح المعنوية لدى الجنود ، وكان لهذه السلسلة صداها ورواجها واثرها البعيد ، وفى المقال الثانى من هذه السلسلة كتب «بين» يخاطب قائد جيش الاحتلال البريطانى قائلا : « ان عبارة ــ الولايات المتحدة الامريكية ــ سيكون لها فى اذن العالم او فى اذن التاريخ طنين كعبارة : بريطانيا العظمى

وكانت هذه أول مرة يستخدم فيها تعبير ــ الولايات المتحدة الامريكية ــ وهو الاسم الذى أطلق على أمريكا فيما بعد ...

وقد عين « بين » فى يناير سنة ١٧٧٧ ، سكرتيرا

للجنة ألفت للتفاهم مع الهنود الحمر ، ثم انتخب سكرتيرا للجنة الشئون الخارجية التى كانت تعمل قبل ذلك باسم لجنة المراسلات السرية ، ولكنه أقحم نفسه فى مناقشات حول توريد الاسلحة الفرنسية الى الثوار فاضطر الى الاستقالة .

وفى نوفمبر سنة ١٧٧٩ ، عين توماس بين سكرتيرا للجمعية التشريعية فى بنسلفانيا وكان من أسعد اللحظات التى مرت به ان الجمعية فى أول أيامها تلقت مشروع قانون بالغاء الرق ، وأصبح المشروع قانونا نافذا فى أول مايو سنة ١٧٨٠ ، وحرر بمقتضاه ستة آلاف عبد فى الولاية ، فكان صدور هذا القانون فوزا عمليا لدعوته .

وفى ٤ يولية سنة ١٧٨٠ ، منح توماس بين درجة الماجستير الفخرية فى الآداب من جامعة بنسلفانيا .

وبينما كان « بين » يستعد لكتابة تاريخ الثورة ، بعد أن استقال لهذا الغرض من وظيفته بالجمعية التشريعية ، اذا بالقدر يعد له مهمة أخرى ، فقد قرر الكونجرس ايفاد بعثة الى فرنسا للحصول على معونة مالية وعسكرية ، وكان من أعضاء البعثة شاب من أثرياء الجنوب فى السادسة والعشرين من عمره يدعى هنرى لورنز ، فاشترط للقبول أن يسافر معه توماس بين ، لانه يعجب بكتابته ولانه يشاركه فى كراهية الانجليز الذين أسروا والده وألقوا به فى برج لندن ، فقبل أن يسافر سكرتيرا لهذا الشاب الوطنى ، وسافر بالفعل من بوستن فى ١١ فبراير سنة ١٧٨١ ، فوصلا فرنسا فى ٩ مارس ، وعاد فى ٢٥ أغسطس على سفينة حربية فرنسية ومعهما قرض لامريكا بمبلغ مليونين ونصف مليون جنيه ، عدا سفينتين أخريين مشحونتين بالبضائع للجيش الامريكى ، وكان لهذه النجدة أثرها المادى

والمعنوى الحاسم فى الجيش الامريكى ، وفى اقتراب الثورة الامريكية من نهايتها الظافرة .

وانه لمن طرائف السخريات ان توماس بين ، عند وصوله الى بوسطن بهذه النجدة الضخمة اضطر الى اقتراض دولار ليدفع أجر المركب التى اقلته عبر نهر ديلاوير ، وكان لورنز قد سبقه لابلاغ الكونجرس بنبأ الهدية الفرنسية .

وقد اشتدت الضائقة المالية على توماس بين ، داعية الثورة الاكبر فكتب خطابا يفيض بالمرارة الى وشنطن « ابو الشعب » يذكره بخدماته لبلاده ويشكو اهمال أمره ، فقرر وشنطن أن يدفع له من المصروفات السرية مبلغ ثمانمائة جنيه سنويا فى مقابل استمراره فى الدعاية للثورة بأسلوبه الذى كان يمتاز بالسلاسة والبساطة والاقناع ، ولكن هذه المعونة انقطعت باستقالة وزير المالية روبرت موريس فى يناير سنة ١٧٨٣ ، فعادت الضائقة المالية تأخذ بخناقه ، وتدهورت حالته النفسية الى أقصى الحدود ، حتى دعاه وشنطن للنزول ضيفا عليه فى مقر قيادته ، فضاعف ذلك حقد الحاقدين ، وحسد الحاسدين ، وحرك دسائس الرجعيين الذين سلطوا عليه الأقلام الاجيرة ، والالسنة البذيئة ، لتلفيق الاكاذيب والمفتريات عن حياته الشخصية ، وبلغ بهم الامر حد استئجار كاتبين لوضع تاريخين مشوهين لحياته ، أحدهما نشر فى انجلترا سنة ١٧٩١ ، والآخر بعد وفاته ببضعة أشهر سنة ١٨٠٩ .

على انه فى ربيع سنة ١٧٨٤ ، قررت ولاية نيويورك أن تهب « بين » مزرعة مساحتها ٢٧٧ قدانا ، ودارا أنيقة بجوار مدينة نيورشيل ، وكانت هدية كريمة جاءت على غير انتظار ، وعلى أثر ذلك كتب جورج

وشنطن خطابا الى بعض أعضاء المجلس التشريعى فى فرجنيا يقترح ان تقتدى الولاية بنيويورك فتقرر هبة للرجل الفقير المدين الذى خدم الثورة الامريكية بقلمه وقلبه ولسانه ، ولكن المشروع الذى قدم لمنحه الهبة المطلوبة لم ينل الاغلبية ، ومع ذلك فان أحوال توماس بين ، كانت تسير فى طريق التحسن ، ففى ديسمبر سنة ١٨٨٤ منحته ولاية بتسلفانيا خمسمائة جنيه . وفى أكتوبر سنة ١٧٨٥ قرر الكونجرس منحه ثلاثة آلاف دولار من خزانته مكافأة له على خدماته للثورة .

وسافر « بين » الى فرنسا ومعه نموذج لجسر من الحديد اخترعه ونجح فى ذلك بالفعل ، وزار مسقط راسه بانجلترا واختلط ببعض اقطابها ، ولكنه لم يلبث ان ألف كتابا ثوريا آخر عنوانه «حقوق الانسان» ركز فيه اقسى الوان الهجوم على النظام الملكى ، ووضع الاسس التى ينبغى أن يقوم عليها النظام الجمهورى ، فصودر الكتاب فى انجلترا وحوكم « بين » غيابيا على كتابته وحكم عليه بالاعدام ، وفى الوقت نفسه كان الكتاب قد ترجم الى الفرنسية وراحت أيدى الفرنسيين تتلقفه كما أخذت الصحف تتبارى فى اقتباس فقراته ، وفى ٢٦ اغسطس سنة ١٧٩٢ قررت الجمعية الوطنية الفرنسية منح لقب المواطن الفخرى لتوماس بين ، وتقدمت أربع مقاطعات فرنسية تطلب أن يشرفها بتمثيلها فى المؤتمر الوطنى الذى كان قد تقرر عقده فى باريس لوضع نظام جمهورى يحكم بمقتضاه الشعب ، فاختار « بين » احداها وقبل عضوية المؤتمر باسمها ، وقد استقبله الاعضاء بالتصفيق الشديد حين اتخذ مقعده لاول مرة يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ ، وفى اليوم التالى أعلن الغاء الملكية فى فرنسا ، بقرار من المؤتمر

الوطني ، كما بدأ الاخـذ بالتقويم الثوري الجديد وهو الذي يجعل بداية العام الاول يوم ٢٢ سبتمبر سـنة ١٧٩٢ .

على ان روح الثورة المتأصلة في نفس توماس بين، لم تذهب به الى حدالموافقة على اعدام لويس السادس‌عشر وقد دافع طويلا أمام المؤتمر عن فكرة نفيه الى بلد ناء مدى الحياة ، لان الاعدام فى نظره لم يكن يخدم قضية الحرية الانسـانية فى شيء ، بل هو مظهر من مظـاهر الوحشية ، وكان من رأيه أن يرسل الملك المعزول لويس السادس عشر الىأمريكا ، وقد تولى الكونت‌كوندورسيه ترجمة خطاب « بين » الى الفرنسـية ، وأعطـاه بين الى سكرتير المؤتمر ليتلوه باسمه فى جلسة ٢١ نوفمبر.

وعاد مرة أخرى فى جلسة ٢٩ يناير ، فألقى دفاعا حارا ضد اعدام لويس السادس عشر قال فيه :

« . . . لئن قدر لى ، بعد العودة الى أمريكا ، أن أشتغل بوضع تاريخ للثورة الفرنسية ، فانى أفضل أن أسجل ألف خطأ للثورة أملته روح الانسانية على أن أسجل خطأ واحدا أملته القسوة فى طلب العدالة !»

وفى نهاية المناقشات أخذ الرأى فكان ٣٨٧ فى صف الاعدام و ٣٣٤ ضد الاعدام .

وقد أدى تطور الحوادث واشـتداد الصراع بين اليعقوبيين « أصـحاب الجبـل » وبين الجيرونديين « أصحاب السهل» الذين كان ينتمى اليهم توماس بين، الى القاء القبض عليه والزج به فى السجن ، بينما أعدم كثيرون من زملائه والقى فى السـجن بالآخرين ، ولولا انه احتمى بجنسيته الامريكية لـكان مصيره الى المقصلة مع الاولين ، وقد ظل « بين » فى السجن عشرة أشـهر وتسعة أيام ، ثم أفرج عنه تحت ضغط ممثل امريكا فى

باريس ، وكان الضعف قد أخذ منه مأخذه ، فنقله وزير أمريكا الى داره ، وتولى علاجه من آثار سوء المعاملة وضعف التغذية .

ولم يكد « بين » يخرج من سجنه حتى امتلأت نفسه بالمرارة ضد معبوده السابق « أب الشعب الامريكى » جورج وشنطن، لعدم تدخله الشخصى لاطلاق سراحه ، وقد نشر فيما بعد كتيبا بعنوان «خطاب الى وشنطن» حشاه بألوان التقريع والتجنى على وشنطن ، ولكنه لم ينل من الرئيس الامريكى الاول شيئا بهذا الخطاب ؛ بل أعطى خصومه سلاحا جديدا راحوا يمزقون به سمعته واخلاصه تحت ستار الغضب لأبى الشعب والنقمة على شاتمه .

ولقد لبث « بين » فى فرنسا حينا يترقب فرصة العودة الى أمريكا وسافر فعلا الى الهافر فى سنة ١٧٩٧ ليصحب صديقه الوزير الامريكى منرو الذى كان قد دعاه للعودة الى بلاده ، ولكن « بين » عاد الى باريس حين علم ان الاسطول البريطانى يعترض السفن المحايدة ويفتشها ، وقد خشى أن يقبض عليه ويؤخذ الى انجلترا حيث يواجه حكم الاعدام الصادر عليه .

وأقام « بين » خمس سنوات بعد ذلك مع صديقه نقولا بون فرى وزوجته ، وكان يدفع لهما أجر اقامته ، وفى هذا المسكن المتواضع زاره يوما نابليون بونابرت فى ربيع سنة ١٨٩٧ ، وقال له : انه تأثر أشد التأثر بكتابه « حقوق الانسان ! » .. ونام ليالى طويلة وهو يضع الكتاب تحت رأسه ، ثم قال : « ان الواجب أن يقام لك تمثال من الذهب فى كل مدينة من مدن العالم »

وقد تبين «بين» فى خلال مقابلته لبونابرت ان زيارته لم تكن بريئة، اذ أخبره انه يعتزم غزو انجلترا لتحريرها

من الطغيان الملكى وانه يود أن يحصل من «بين» على معلومات عن انجلترا تساعده فى خطتــه ، وقد أخـذ « بين » يصف بونابرت بعد ذلك «بالدجال الفرنسى»

وأخيرا عاد « بين » الى أمريكا ، بعد خمسة عشر عاما ، فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٠٢ ، فوجد الحال غير الحال ، والاهداف غير الاهداف ، والناس غير الناس ، وقد نصحه توماس جفرسون رئيس الجمهورية اذ ذاك أن ينسى ما وجه اليه من اساءات وما نسب اليه من مفتريات ، فقبل أول الامر ، ثم انقلب الى الهجوم فى سلسلة مقالات بعنوان : « خطابات الى مواطنى الولايات المتحدة » ..

وقد ظل « بين» طوال السنوات الخمس أو الست الاخيرة من حياته هدفا لالوان شتى من الشتائم واللعنات التى اثار معظمها كتابه « عصر العقل » وهو كتاب تناول فيه العقائد والاديان بأسلوب يتنافى مع المعتقدات المسيحية بوجه خاص .

وفى ٢٥ فبراير سنة ١٨٠٩ ، أصيب بحمى جاءت فى أعقاب فترة من الضعف والهزال ، وكانت تتخللها نوبات من التشنج العصبى ، وقد ظل يلفظ الخفقات الباقية من سراج حياته فى بطء وعناء حتى لفظ آخر أنفاسه فى ٨ يونية سنة ١٨٠٩ ، ولما مات لم يشيع جنازته سوى ستة أشخاص ، أحدهم ساعاتى من طائفة الكويكرز ، ومدام بونفلد الفرنسية وولدها ، وزنجيان جاءا لحمل النعش ووضعه فى المقبرة ..

وهكذا طويت صفحة هذا الانجليزى الذى ثار على الاستعمار البريطانى .. فحكمت بريطانيا باعدامه ، وخاض غمار الثورة الامريكية بروحه وقلمه فجنى الشوك والحنظل والجحود ، وانضم الى الثورة الفرنسية ضد

طغيان الملــكية الفاسدة المستهترة فكادت الثورة تأكله كالقطــة المسعورة حين ولغت فى الدماء ، وراح قادتها يتقاذفون التهم ليفتك بعضهم ببعض تحت ستار الوطنية والحرية والعدالة !!


جان دارك
العذراء التي حررت فرنسا
من الاستعمار البريطاني

ان قصة جان دارك ، فتاة أورليان التى قادت جيوش فرنسا فى ثورة عارمة ضد الاحتلال البريطانى ، هى قصة تكلل بالغار جبين فرنسا الغابرة ، وتدمغ بالعار وجه فرنسا المستعمرة الغادرة ! ..

فما أبعد الفارق بين فرنسا الامس المحتلة المهيضة الجناح ، الناقمة الحاقدة على الاستعمار ، المشوقة الى الحرية والاستقلال ... وبين فرنسا اليوم ، المتنكرة للحرية والاحرار ، السائرة فى ركب الاستعمار ضد المجاهدين الابرار ...

ان فرنسا التى هتفت بالامس لجان دارك بطلة الحرية والكفاح ، تختلف أشد الاختلاف عن فرنسا التى هتفت منذ بضع سنوات لجنيفييف ، ممرضة قلعة « ديان بيان فو .. »

وما أبعد البون بين الفتاتين ... فالاولى مجاهدة فتية فى سبيل الحرية ، والاخرى مغامرة صمدت فى تمريض القوات الفرنسية التى نصبت نفسها حامية للاستعمار ضد طلاب الاستقلال والحرية !

وقد يكون الشبه الوحيد بين الفتاتين هو اشتراكهما فى التشبه بالرجال فى ميدان القتال ، اذ ارتدت جنيفييف ملابس الجنود ـ رغم حرصها على وضع أحمر الشفاه !

ـ وكذلك كانت جـان دارك ترتدى زى الرجـال ، فى الميدان وخارج الميدان ...

ولقد كان لمسألة الزى هذه أثر عظيم فى تاريخ « جان دارك »وفى توجيه الدسائس التى انتهت باعدامها ، وما زال المؤرخون يختلفون أشد الاختلاف فى تعليل استمساك جان دارك بهذا الزى ، حتى فى المناسبـات التى كان ينبغى أن تتغلب فيهـا الطبيعة النسوية ، فتوحي الى فتاة ناضرة الشباب، أن تطرح زى الرجال لتزدان بأثواب النساء .

عرض برنارد شو لهذه النقطة بالتحليـل فى المقدمة المستفيضة التى قدم بها روايته المشهورة عن جان دارك فتساءل :

« . . . لماذا لم تذهب فتاة كهذه تحمل رسالة
« خاصة من السماء الى ولى العهـد (فهكذا كانت
« تنظر جان دارك الى المشروع الذى وضعته بمهارة
« فائقة لتخليص ذلك الملك غير المتوج من ورطتـه
« الشنعاء) ... لماذا لم تذهب فتـاة كهذه بكل
« بساطة الى البلاط فى ثياب النساء ، لاقناع ولى
« العهد على طريقة النساء بقبول مشورتها ، كما
« جاءت قبلها نساء أخريات يحملن مثل هذه الرسالة
« الى والده المجنون وجده العاقل ؟ . . ! لماذا كانت
« تصر على أن يكون لها ملابس الجندى ، وأن يكون
« لها ما له من سلاح وسيف وجواد وعدة ؟ ولمـاذا
« كانت تصر على معاملة جندها معاملة الرفاق ؟..
« فتنام معهم على الارض جنبا الى جنب حين يجن
« الليل ؟ ! »

وفى أثناء محاكمة جان دارك الاولى سألها بوبير عضو المحكمة « ان صح أن يطلق على مثل تلك الهيئة المأجورة

هذا اللفظ » :
ــ أى ثوب كنت ترتدين ؟ ..
فأجابت :
ــ كنت أرتدى ثوبا من ثياب الرجال وأتمنطق بسيف أخذته من دى بودريكور ، ولم يكن معى سلاح غيره .

ولكن المحكمة لم تكن معنية بأمر السلاح الذى كانت تحمله جان دارك ، بل كان همها الاكبر مسالة الزى الذى خرجت به على المألوف وتشبهت بالرجال ، فعاد بوبير يسألها :
ــ ومن الذى نصح لك بأن ترتدى ثوب الرجال ؟..

ولما فطنت جان دارك الى ان المقصود استدراجها الى اجابة معينة هى ان « أصوات » جان المقدسة هى التى نصحت لها بذلك ، ومن هنا تستطيع المحكمة التنديد بتلك الاصوات التى توحى بما يخالف تقاليد الكنيسة وتعاليمها ــ لما فطنت جان دارك الى ذلك ، رفضت باصرار أن تجيب عن السؤال رغم تكراره ، طالبة الى القاضى أن ينتقل الى موضوع آخر ؛ ولكنه لا يكاد ــ ينتقل الى موضوع آخر ــ حتى يعود الى مسألة الزى فيسألها :
ــ هل « الصوت » هو الذى نصحك بهذا الزى ؟..
فتفادت الجواب الصريح قائلة فى لباقة نادرة :
ــ أعتقد ان « الصوت » كان يزودنى دائما بنصائح طيبة ! ..

ولما صدر الحكم بالسجن المؤبد على جان دارك ذهب وراءها كوشون ، رئيس المحكمة الخائن ، ولفتها الى ان من بين الشروط التى أخذت عليها ووقعتها ، نصا تتعهد فيه بألا تعود الى ارتداء زى الرجال ، فاذا فعلت كانت كافرة تستحق أن تموت حرقا ! .. وبهذا وضعت

الخطة التمهيدية ، كما يعتقد بعض المؤرخين ، غير الانجليز ، لاستبدال حكم الاعدام بحكم السجن المؤبد ، فقد عادت جان دارك الى ارتداء زى الرجال ، اما عن اصرار على العناد ، واما نتيجة دسيسة مدبرة .. كما يقول بعض المؤرخين ، وفحوى هذه الدسيسة ان جان دارك نفقدت ملابسها النسوية ذات يوم فى السجن فلم تجدها ، وانما وجدت على مقربة منها بعض ملابس الرجال فاضطرت الى ارتدائها ، ولكن الذى يلفت النظر هو ان جان نفسها حين حضر كوشون الى السجن على الاثر لاستجوابها لم تذكر له شيئا عن هذه الدسيسة ، مع انها لو فعلت لما اثر ذلك فى كرامتها أو قدسية رسالتها ، ويزيد الامر غرابة ان أحد القضاة قد صرح فعلا بارتيابه فى ان تكون جان دارك قد عادت الى ارتداء ملابسها طائعة مختارة دون أن يشعر بذلك رجال الحرس ، ومع ذلك نرى موقف هذا القاضى لا يشجعها على انتهاز الفرصة للكشف عن الدسيسة والدساسين ، وتعزيز نظرية القاضى بالادلة والبراهين ! فقد سأل جان دارك :

— لماذا عدت الى ارتداء هذا الزى ؟ !

فأجابت اجابة صريحة لا محل معها للتأويل والتجريح اذ قالت :

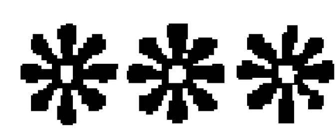
— عدت اليه مدفوعة برغبتى ! ..

فقيل لها انها تعهدت وأقسمت ألا تعود الى ارتداء هذا الزى ، فأجابت فى شجاعة وجرأة وجدل منطقى سديد :

— لم أكن أنوى قط ، ولا عنيت قط ألا أعود اليه ، واذا لم أكن قد أوفيت بالعهد فان أحدا منكم لم يبر بوعده معى ، فقد قطعتم لى عهودا كثيرة أذكر منها أن

تفك عنى هـذه الاغلال ، ولـكنها لا تزال ترهقنى الى اليوم ! ! ..

فلما سئلت مزيدا من التفسير والايضاح ازدادت جرأة وصراحة وصلابة ، فقالت : انها عادت الى زى الرجال لانها وجدت نفسـها بين الرجال ، فآثرت أن تكون مثلهم . وترى الموت خيرا لها من أن تعـود الى زى النساء ، الا اذا سمح لها بتأدية الصلاة ونقلت الى سجن مناسب يتولى النساء فيه مهمة الحراسة .



وهذه الحجة التى ذكرتها جان دارك ، حجة الوجود بين الرجال ، تبريرا لارتدائها أزياءهم تعززها فتـوى سابقة ، لعلها هى التى أوحت الى جان دارك بهـذه الاجابة ، وهى فتوى اثنين من العلماء ، قبيل اقتناع الملك بتعيينها قائدا عاما للجيوش الفرنسية ، وكان احد هذين العالمين عميدا لجامعة باريس ، تلك الفتوى التى أعلنا فيها انه لا تثريب على جان دارك فى أن ترتدى زى الرجال ما دامت تقوم بأعمال الرجال ! ..

وطبيعى الا يقتنع كوشون وأعوانه بهذه الاجـابة ، وأن يبادر الى استدعاء هيئة المحكمة لاصـدار الحكم باعدام جان دارك ، وسواء أكان فى الامر دسيسة أم لا فان هذا لا يغير شيئا من جوهر الموضـوع ، وهو ان مسألة شخصية كهذه قد اتخذت تكأة للانتقام السياسى من هذه الشهيدة المخلصة ، ولو لم تكن جان دارك قد عادت الى ارتداء زى الرجال لما عدم كوشون وسادته الانجليز ألف وسيلة أخرى للوصول الى ما يرومون .

ان جان دارك عند الفرنسيين رمز الوطنية الصادقة والتضحية الغالية فى سبيل الوطن ، والوطنية فى ذاتها صفة جديرة بالاعجاب والتمجيد ، ولـكن جان دارك

تمثل عندنا ناحية أخرى أجل وأعظم من الوطنيـة ، وهى الايمان ! ..

الايمان الصادق الراسخ الذى ينبعث من القلب !

الايمان القوى الجبار الذى يزعزع راسخات الجبال!

الايمان الرائع العتيد الذى يجل عن المطامع والمغانم ، ويسمو على الصعاب والعقبات ، ويرتفع بصاحبه الى مقام لا يرى فيه الا النور واليقين ، والارادة التى لا تعبأ بالعوائق ولا تخضع لما يخضع له سائر البشر من قيود واثقال ! ..

ولدت جان دارك فى قرية دومريمى عند ملتقى مقاطعة تشبين بمقاطعة اللورين بفرنسا فى ٦ يناير سنة ١٤١٢ ، فى بيت متوسط الحـال ، وكانت أمها سيدة تدعى ايزابيل موسومة بالصلاح والتقوى ، شديدة المواظبة على أداء الفرائض الدينيـة فى الكنيسة ، ولم تكن الكنيسة بعيدة عن البيت ، بل لم يكن يفصل بينهما سوى حديقة صغيرة ، فتهيأت لجان بذلك بعض أسباب الايمان الدينى بحكم التردد المنتظم على الكنيسة وبعامل القدوة الحسنة ممثلة فى الام التقية الصالحة ، وقد غلبت طبيعة التدين على الفتـاة حتى تفردت دون صاحباتها بقلة النزوع الى اللهو وشدة التمسك بشعائر الدين وقضاء الشطر الاكبر من وقتها فى اداء فرائضه !

وكان والد جان رجلا صاحب حقول واسعة يستغل جانبا منها فى تربية الغنم ، وكان يرعى غنمه بنفسه أحيانا ويعهد بذلك الى ابنائه وبناته أحيـانا أخرى ، شأنه فى ذلك شأن أنداده من الريفيين الذين لا يصرفهم لهو المدن ولا ترف الثراء المتوسط عن واجب العمل ، يتولونه بأيديهم ويدفعون اليه أولادهم ، وهكذا قدر لجان دارك أن تتولى فى طفولتها الاولى عملا قلما نجد

بين الانبياء والرسل من لم يشتغل به قبل الرسالة ، وهو رعاية الغنم ، وليس بعسير على الانسان أن يعلل السر فى هذا الارتباط بين النبوة والرسالة وبين تلك المهنة ، ومرجع السر فيما نعتقد هو هذه الوحدة التى

تتيح للانسان أن يخلو الى نفسه ، بعيدا عن لغط الناس وتناحرهم على البقاء ، وفى ظل هذه الخلوة الهادئة يتخلى اللسان عن وظيفته ، فيهيىء الجو الصالح لمناجاة الضمائر ، وتطهير القلوب والسرائر . والسرائر الطاهرة والقلوب العامرة كانت دائما وراء الخير الشامل والاصلاح القائم على أوطد الدعائم .

على أن جان دارك قد وجدت لمناجاتها مادة غير الاصلاح الدينى أو الخلقى ، اذ اتجهت بحكم البيئة العامة التى نشأت فيها وجهة أخرى من وجهات الاصلاح والتقويم ، ونعنى بها وجهة الجهاد الوطنى الذى لم يعرف العالم سلاحا لمن يخوضون غماره أقوى من سلاح القوة المعنوية والايمان الوطيد .

فقد ولدت جان دارك والاحتلال الانجليزى منشب أظفاره فى عنق فرنسا التى كانت قد أنهكتها الحروب ومزقتها الفتن والمنازعات الداخلية ، وكان شارل السادس ملك فرنسا رجلا ضعيف الهمة ضعيف العقل فارتبط مع هنرى الخامس ملك انجلترا ، بمعاهدة تروى سنة ١٤٢٠ ، وبين بنود هذه المعاهدة أن يتزوج ملك انجلترا بأميرة فرنسية معينة ، وانه اذا مات شارل السادس دون أن يترك وارثا شرعيا آل عرش فرنسا بعده الى ملك الانجليز ، وواضح ان نصا كهذا يفتح باب الدسائس والمؤامرات ليتخلص الانجليز من ولى العهد اذ ذاك « الدوفان » الذى لم يكن أوفر حظا فى الشجاعة أو العقل من أبيه ، فلم تكد المنية تعاجل شارل

السادس بعد توقيع هذه المعاهدة المشئومة حتى استكتب الانجليز الملكة المستهترة ايزابيلا ان ولى العهد ليس ابنا شرعيا لها ، وبهذه الوثيقة المخزية استباح الانجليز أن يضموا عرش فرنسا الى ملكهم الطفل هنرى السادس مستندين الى ما نصت عليه معاهدة تروى ، فلما حاول ولى العهد على ضعفه أن يسترد حقه المغصوب شتت الانجليز شمل عسكره الواهن المتخاذل ، وهزموه شر هزيمة فى موقعة فرناى سنة ١٣٢٤ ، فارتد الى أورليان ، واحتمى فى حصونها الحصينة فاقد الامل والرجاء .

وكانت انباء هذه الدسائس والوقائع والهزائم تصل قرية دومريمى فتقابل بأشد مظاهر الاهتمام المقرون بالالم والاسى ، فقد كان أهلها من أكثر الناس حماسة وانتصارا لولى العهد « الدوفان » المغلوب على أمره ، بينما كان سائر الاهلين من سكان القرى المحيطة بها يؤيدون دوق برجندى الذى كان يناصر ملك الانجليز ويمالئه طمعا فى أن يظفر بعرش البلاد بعد موت شارل السادس ، جزاء تلك الممالأة الآثمة ، ولم تكن هذه الشئون السياسية والحربية شغل الرجال والشيوخ وحدهم من أهل دومريمى ، بل كان الاطفال أنفسهم يتلقونها فى مثل لهفة الرجال وجزعهم وكانما كانت نفوسهم تتغذى بلبان الوطنية والثورة بينما تتغذى أجسامهم بلبان الامهات .

فى هذه الظروف العصيبة ، وفى هذا الجو المكهرب ، وفى هذه البيئة المثيرة ، ولدت جان دارك وترعرعت ، ولكنها ما كانت لتحقق مكانتها العالية فى عالم البطولة لو لم تنفرد دون أبناء القرية وبناتها ، بل دون مثيلاتها فى العالم أجمع بظواهر نادرة أعانتها على أن تشق طريقها

الى الخلود ، وابرز هذه الظواهر وأبعدها أثرا فى حياتها من غير شك ظاهرتان : أولاهما ، تلك الظاهرة التى حيرت المؤرخين فاختلفوا اشد الخلاف فى تعليلها وفى محاولة تفسيرها ، وسيظلون على خلافهم ما دام فى العالم أناس يؤمنون بالوحى وآخرون ينكرونه ، وما دام فى العالم قوم يعتقدون بالروحانيات ، وقوم يجحدون كل شىء سوى المادة والماديات ، ونعنى بتلك الظاهرة هذا الاتصال الذى كان بين جان دارك وبين «أصوات» القديسات ، فقد كانت فى منتصف عامها الثالث عشر حين كثر صمتها وطال تفكيرها واشتد شغفها بالعزلة ،

حتى اذا كانت ترعى غنم ابيها ذات يوم آوت الى شجرة فى الغابة ، وبينا هى فى تفكيرها ، تستعرض ما آلت اليه حال بلادها من احتلال واذلال ، وما انتهى اليه مصير الوارث الشرعى للعرش من ضعف وهوان ، اذا بالشجر يشتد حفيف أوراقه، واذا بالطيور تتجمع مغردة مبتهجة ، فلم تكد جان دارك ترفع بصرها الى أعلى الشجرة حتى شاهدت نورا يهبط عليها من السماء ، ويغمرها من كل جانب ، ثم تبينت صوتا يهتف بها :

« جان ، جان ، لا تخافى ، كونى ابنة بارة ، فستذهبين لنجدة ملك فرنسا » ، فلما أنعمت النظر فى مصدر الصوت رأت ان التى تخاطبها هى القديسة كاترين ، وبجوارها القديسة مرجريت ، وقد ظلتا تناديانها مرة فى كل يومين أو ثلاثة ، وهى تسمعهما وتتحدث اليهما كما تحدث أمها وأبيها ، ولكنها كتمت الامر أقصى التكتم ثلاثة أعوام كاملة أو تزيد ، طوعا لمشورة « الاصوات » على حد تسميتها للقديستين، والقديسين الآخرين اللذين كانا يظهران لها ويوحيان اليها ، فتنقاد لوحيهم وتصدع بأمرهم ، لا تنى ولا تتردد ، ولا تعبأ

بخطر ينتظرها أو حائل يصدها عن سبيل الطاعة العمياء لهؤلاء القديسين .

فاما ان جان كانت صادقة فيما روت عن ظهور « الاصوات » وكانت مخلصة فى اعتقادها ان القديسات يهبطن من السماء لمحادثتها وهى فى خلوتها ٠٠والايحاء اليها بالاستعداد لمواجهة المهمة الخطيرة التى ستلقى على عاتقها ، ثم الايحاء اليها بالخطوات التى تتخذها يوما بعد يوم فى أيام كفاحها ـ فذلك ما لاسبيل الى الشك فيه ، مهما يكن وجه التفسير الذى يلتمسه الانسان تعليلا لهذه الظاهرة ، وانما يتجلى الخلاف على اشده فى تكييف الطريقة التى نشأت بها هذه الظاهرة .

فالعامة والمتدينون من الدهماء يعتقدون ان نزول القديسات لمحادثة « عذراء أورليان » حقيقة لا تقبل الشك ولا الجدال ، وان التفسير الوحيد الذى يقبلونه هو ان الله اختص جان دارك بهذه المعجزة ليتم على يديها تخليص الوطن من عبودية الاحتلال .

والخاصة الذين يؤمنون بعلم الارواح ، يفسرون هذه الظاهرة بأن أرواح القديسين قد هبطت حقيقة على الفتاة ، على صورة من الصور ، وذلك « لامكان ظهور كائنات روحانية لبعض المستعدين لرؤيتها ، تخاطبهم أو تظل ملازمة الصمت العميق ... ومن تلك الارواح الصامتة ما كان يراه نابليون الاول من الشبح الذى كان يلازمه ، ومن الروح المتكلمة التى كانت تظهر لشيخ الفلسفة اليونانية « سقراط » الحكيم وقد صرح هو بذلك ، واثبتها له تلميذه « افلاطون » ونقل ذلك عنه جميع كتاب تاريخه من الغربيين » .

والمؤمنون بنظرية العقل الباطن يرون ان هذه

« الاصوات » صورة منتزعة من شخصية جان دارك الباطنة ، تلك الشخصية التي تتكون في كل انسان دون أن تخضع للعقل الواعي وتتكيف بالبيئة وما توحي الى أعماق النفس من مخاوف وآلام وآمال .

وأصحاب نظرية فرويد يرجعون بهذه الظاهرة على قداستها ، كما يريدون أن يرجعوا بكل ما يصدر عن الانسان من تصرفات الى الغريزة الجنسية ! ..

وجورج برنارد شو يلتمس لهذه الظاهرة تعليلا يقوم على ان لبعض الناس قدرة خاصة على تصور الاشياء تصورا يكاد يجسمها لهم وهي غير موجودة ، ومن ذلك ان قوما يستطيعون أن يرسموا على صفحات أذهانهم أرقاما عدة يضربون بعضها في بعض ويطرحون بعضها من بعض ، ثم يجمعون ويقسمون ، وهكذا كأنما يشاهدونها في لوح مكتوب ، وقد كانت جان دارك من أصحاب هذه القدرة الخارقة في ناحية أخرى ، هي تصور أشخاص القديسين وقد تجسموا أمامها تجسما وراحوا يخاطبونها ويناقشونها ! ..

على ان اختلاف هذه التعليلات كلها لا ينقض حقيقة هي وحدها الجوهر في هذا المقام ، وهي أن جان دارك كانت تؤمن بأنها ترى بالفعل شخوصا لا يختلفون عن شخوص الآدميين ، وكانت تخاطبهم وتستمع اليهم ، باعتبارهم قديسين ، وبوحي هؤلاء القديسين نهضت بالعبء الثقيل الذي قدر لها أن تنهض به .

ننتقل من هذا الى الظاهرة الثانية التي قدمنا انها احدى اثنتين كان لهما أعظم الاثر فيما بلغت جان دارك من مجد وخلود ، وهذه الظاهرة هي طغيان جانب عظيم من روح « الرجولة » عليها وتغلبها على حركاتها وتصرفاتها حتى في سن الطفولة ، فانه ليؤثر عنها انها

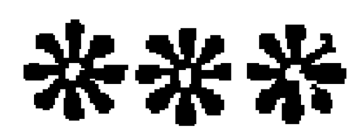
كانت منذ طفولتها مشغوفة بحياة الجندية ، ويظهر ان اباها لاحظ عليها ذلك أو سمع عنها حديثا يدل عليه أو هو قد رآها فى المنام بلباس الجند ، فما كان منه الا أن حذرها من مغبة الاندفاع فى هذا السبيل وهددها على نحو ما يفعل بعض الآباء مع أطفالهم ، بأنه سيبادر الى القائها فى اليم لتموت غرقا اذا هى حاولت مخالطة الجند ومشاركتهم فى مهنتهم الخشنة التى لم تخلق للنساء ، وواضح ان هذه النزعة لم تفارق جان دارك تحت ضغط هذا التهديد الذى ربما فعل فعله وهى طفلة ناعمة الاظفار ، فلما تخطت مرحلة الطفولة لم تعبأ به ولم تأبه له ..

ومن الثابت عن جان دارك انها كانت شجاعة الى حد مجابهة الخطر الذى يكاد يكون محققا ، غير هيابة ولا مترددة ، على نحو ما فعلت يوم لقيت مجنونا هائجا على وجهه يحمل فى يده « بلطة » مرفوعة للقتل ، فانتزعت منه « البلطة » وهى رابطة الجاش ، واقتادته من يده الى المدينة حيث أعيد الى الاسر الذى فر منه ، وليست هذه الشجاعة الخارقة مما يؤثر عادة عن النساء ..

وينطوى تحت هذا المعنى ما هو ثابت كذلك من ان جان دارك ظلت ترى « الاصوات » وتتحدث اليها مرتين أو ثلاثا فى اليوم الواحد ثلاثة أعوام كاملة دون أن تطلع على هذا السر واحدا من الناس ، كائنة ما كانت صلتها به وثقتها فيه ، وعندى ان ذلك من ادل الظواهر على تغلب روح الرجولة على نفسها ، فلم يكن كتمان السر يوما صفة معروفة من صفات النساء ! ..

أضف الى هذا كله عزيمة ماضية تندر حتى فى الرجال ، ولولا هذه الصفات التى تجتمع كلها تحت

معنى واحد هو « روح الرجولة » لما تمت رسالة جان، ولبقى اتصالها « بالاصوات » ضربا من الرؤى ونوعا من المحاورات الافلاطونية التى لا تقدم فى عالم الواقع ولا تؤخر ..



وبعد سنوات ثلاث من اتصال « الاصوات » بجان دارك ، تلقت أول أمر منها بأن تسرع فى العمل لتنفيذ الرسالة التى خصتها بها العناية الالهية ، فذهبت طوعا بمشورة « الاصوات» الى حاكم «فوكولير» ، واستعانت على مغادرة دار أبويها للسفر الى مقر الحاكم بقريب لأمها يسمى « دوران لاكسار » جاء يدعي بايحاء جان أن زوجته مريضة تحتاج الى من يعنى بها ويرجـــو أن يسمح له بأن يصطحب جان الى بيته لهذا الغرض ، وذهبت جان لمقابلة الحاكم « روبير دى بودريكور » بعد أن أفضت لخالها بمكنون سرها ، فلما أذن لها طلبت اليه فى سذاجة واصرار ان يبعث الى « الدوفان » ولى العهد ، بنصيحة خالصة فى أن يصبر ولا يقاتل عدوه الى أن يمده الله بعون من عنده ، وطلبت أن يرســـلها الحاكم الى « الدوفان » بعد ذلك ومعها حرس مسلح، لانها تريد أن يعهد اليها ولى العهد بقيادة جيشه وبذلك تنفذ ما أمرت به من اجلاء الانجليز عن بلادها وتتويج ملـكها فى كنيسة رامس ! .. وقالت جان : ان مولاها رب السماوات والارض هو الذى عهد اليها بهذه المهمة الخطيرة ! ..

وكان طبيعيا أن يقابل الحاكم هـــذا الــكلام من فتاة فى الســـابعة عشرة من عمرها مقـــابلة ملؤها السخرية والاستخفاف ، فأوصى قريبها بأن يضربها « علقـــة » طيبة تردها عن هذا الهذيان ! ..

ولـكن الخبر انتشر وذاع ، ولا بد أن تكون قـد أضيفت اليه الحواشي والزيادات التى تلحق بكل خبر تتناقله الالسن وتتبادله المجالس ، فـكثير بين العوام الاوساط في تلك القـــرون المظلمة آمنوا برســـالة الفتاة ايمانا لا يرقى اليه الشك أو الجدل ، وســاعد على انتشار هذه الموجة من الايمان بالفتاة ما كان يرويه العامة من ان عرافه تدعى « مرلان » منذ ثلثمائة ســنة تنبأت بأن فرنسا ستضيعها امرأة وتستردها فتاة من اللورين ، فقالوا : ان الشطر الاول من النبوءة قد تحقق بما فعلت ايزابيل التى أنكرت شرعية ولى العهد ، ولابد أن تكون جان دارك فتاة اللورين هي المقصودة بالشطر التالى من نبوءة العرافة ، وبينما حاكم « فوكولير» باق على عقيدته فى الفتاة ، معرض عن الاصغاء الى أقاصيصها ساق القدر اليهــا فتى من الاشراف يدعى « جان دى متز » آمن برسالتها ووعد بمرافقتها الى الملك أو على الاصح ولى العهد ، ولـكنها رفضت أن تتخطى مشوره « الاصـــــوات » التى أمرتها بأن تذهب الى حاكم « فوكولير » وتأخذ معها حرسا مسلحا ، ثم تذهب لمقابلة الملك ومعها كتاب من الحاكم ، فما زالت على الحاحها حتى كان يوم السبت ١٢ فبراير سنة ١٤٢٩ ، اذ قصدت الى الحــاكم وأخبـرته فى لهجة الغضــب المقرون بالالم والاسف ، بأن تعطيلها عن مهمتها قد أدى الى هزيمة جيوش « الدوفان » قرب أورليــان وانها علمت نبأ هذه الهزيمة من « أصواتها » ، ورأى الرجل هنا فرصة طيبة لامتحان الفتاة وتفنيد دعواها بأن يقدم لها ما تريد اذا صح ما أنبأتها به « الاصــوات » من هزيمة جيوش الملك ، فلما وصل الحاكم بعد أسبوع نبأ هزيمة الجيوش فى نفس اليوم الذى حضرت فيه

الفتاة ذهب الى بيتها وقد أخذ معه قسيسا يفحص روح جان لعلها تخضع لشيطان من الشياطين !

وبعد أن اقتنع الحاكم بنتيجة « الفحص » أمد الفتاة بما أرادت من قوة ، وزودها بخطاب منه الى الملك ، فبدأت جان رحلتها تحت جنح الليل مرتدية زى الرجال ومعها حرسها وخدمها ، وعدتهم جميعا خمسة وعشرون ، وما زالت تختار المسالك الوعرة المنزوية ، وتؤثر السرى دون سفر النهار تخفيا عن عيون الاعداء حتى وصلت الى مقر ولى العهد ، وكان ذلك فى ٦ مارس سنة ١٤٢٩ ، بعد مسيرة عشرة أيام لم تسلم فيها من المؤامرات ومناوشات الاعداء .

وقد حاولت بطانة الدس والسوء التى كانت تحيط بالملك اذ ذاك أن تحول بين جان دارك وبين الظفر بلقائه فأوفدت تلك البطانة أربعة من القساوسة جاءوها فى الفندق الذى نزلت فيه يطلبون أن تسلمهم الرسالة التى تقول أنها تحملها الى الملك ، ولكنها ردتهم بكل ثبات وهدوء قائلة : انها رسالة للملك وحده ، فلا بد من أن تسلم اليه بشخصه ، وتمت المقابلة بعد يومين اثنين ، وقد حاولوا أن يضللوا الفتاة اختبارا لحقيقة رسالتها فأجلسوا مكان الملك شخصا آخر ، وألبسوا الملك شارل لباسا عاديا لا ينم عن حقيقته ، فلما دخلت جان دارك أثارت دهشة الحاضرين بتجاوزها كرسى الملك والجالس عليه ، واتجاهها الى شارل مخاطبة اياه بلقب الملك فى يقين وثبات ، حتى اذا حاول شارل أن يوهمها بأن الملك هو الذى يجلس على العرش لم تنهض من ركوعها أمامه وردت قائلة : « باسم الله مولاى ، بل الملك أنت ، ولا أحد غيرك ، أعطنى الجند أنقذ أورليان ، واذهب بك الى رامس حيث نمسح

بالزيت المقدس وتضع التاج على مفرقك ، وفق مشيئة الله ... » وبعد ان أسرت جان دارك فى اذن الملك شيئا ، نالت موافقته ورضاه ، ثم اقامت بأمر خاص منه فى برج يدعى برج « كوداري » تنتظر بصبر نافذ ساعة العمل الحاسم السريع .

بيد ان بطانة الملك أطلقت فى هذه اللحظة سهما آخر من سهامها المسمومه ، وأخذت تلقى فى روع الملك الضعيف المتردد بذور الشك فى أمر جان دارك ، حتى اقتنع بارسال الفتاه الى بواتييه لفحصها والتأكد من انها لا تصدر فى أفعالها عن الشياطين ! .. فلم تضق جان دارك بوابل أسئلتهم التى لا تكاد تنتهى ، وهى تجيب فى صراحه قاطعه ، وشجاعة فائقه ، وبديهه حاضره نادره ، فاذا سألوها : كيف تحتاج الى جنود مع ان الله قادر على كل شىء ، وفى استطاعته سبحانه وتعالى أن يجلى الانجليز عن فرنسا بغير جنود ؟ .. لم تدخل معهم فى مناقشات دينية حول القدرة الالهية ، وكيف انها لا تتعلق بالمستحيل ، ولكنها تجيبهم فى سخرية قوامها الحقيقة المرة ، قائلة : ان الله يعين من يعين نفسه ، فعلى الفرنسيين أن ينهضوا بأعباء الحرب ، والله يمدهم بنصره ! ..

وينتهى التحقيق والفحص بانتصار جان دارك واعلان القضاة بالاجماع انها « مؤمنة ، صادقة الايمان ، كاثوليكية ، سليمة العقيدة ، ليس فى شخصها ولا قولها ما يناقض الدين ، وواجب على الملك أن يقبل عونها ، لان فى رفضه حرمانا لنفسه من عون الله ! »

وعادت فى الوقت عينه بعثة الرهبان الذين كانوا قد أوفدوا الى « دومريمى » للبحث عن نشأة الفتاة وتقصى سيرتها ، فجاءت نتيجة هذا البحث قاطعة بأن جان دارك

منذ مولدها الى أن وصلت شنون ، طاهرة ، شريفة ، لا يعلق بسمعتها ولا خلقها أدنى شك أو افتراء .

وعلى ذلك أصدر الملك أمرا بتعيين جان دارك قائدا عاما للجيوش الفرنسية ، واعداد العدة الحربية لمسيرها الى أورليان ، وانقاذها من بين براثن العدو الذى يحاصرها منذ ستة أشهر كاملة ، أقام فى أثنائها الحصون وأرسل يطلب مددا يضاعف من قوته استعدادا لالتهام أورليان لقمة مستساغة ، وقبل أن تبدأ جان دارك طريقها الى الميدان ، أملت بلاغا الى الجنود الانجليز تقول فيه :

« باسم الله آمركم بالعودة الى بلادكم ، فان لم
« تفعلوا فحذار من العذراء ، وستعلمون فى القريب »
« العاجل أى أذى ستنزله بكم ، خذوها كلمة »
« صادقة منى : انكم لن تأخذوا فرنسا التى »
« أمرها لملك السماء ، وانما سيحتفظ بها شارل ! »

وأرسلت جان دارك الى قواد الانجليز سفولك ، وتالبوت الجبار ، وسيكلز ، وغيرهم تقول :

« أجيبوا على هذا بأنكم قبلتم الصلح فى مدينة »
« أورليان فان لم تفعلوا فلكم الويل والثبور ! »

وقد علق المحامى الانجليزى المشهور السير جون مكدونل على هاتين الرسالتين وعلى الرسالة الثالثة الى الوصى على ملك الانجليز ، فقال : انه ليس عجيبا أن لا يعبأ بهذه الرسائل أحد من القواد الانجليز ، ولكن العجيب حقا هو ما تدل عليه من مبلغ ما كان لهذه الفتاة الساذجة ، وعمرها سبعة عشر عاما من سلطان هائل على العظماء ورجال الدين والجنود والمحنكين من رجال السياسة ، الذين وافقوها على ارسال هذه الخطابات الطافحة بالغطرسة والعجرفة ، وفى ذلك ما

يدل دلالة كبيرة على مبلغ ارتفاع شـــأنها وعلو قدرها بل فيه ما يدل أقوى من كل الشهادات التى لدينا على مبلغ ما كان لها من محبة فى نفوس العامة ، وما كان لها من احترام ورهبة فى نظر الجنود .

لم يعبأ الانجليز بهذا التهديد « الصبيانى » فسارت جان دارك الى « أورليان » ودخلتها فى ٢٩ ابريل سنة ١٤٢٩ ، بين مظاهر الابتهاج التى يندر نظيرها على مر الزمان ، وفى الغداة عاودت انذارها للانجليز أن يجلوا عن وطنها ، فلم يكن جوابهم سوى أن أشاروا عليها فى سخرية ان تعود هى الى قريتها ترعى الغنم لانهم اذا ظفروا بها سيصلونها عذاب السعير ! . .

ازاء هذا لم يسع جان سوى أن تبدأ عملها الخطير ، فسارت الى الميدان ، وافتتحت سلســلة انتصــاراتها بالاستيلاء على حصن سان لو ، وما زالت جيوشـها تتقدم الى النصر من قلعة الى قلعة ، وتبث فيهم من ايمانها الالهى بالفوز المبين ، وتوقع فى صفوف الانجليز الرعب بشجاعتها الخارقة ، حتى استولت على قلعتى سان جون وأوجستيان ، ثم دان لها حصن «لىتوريل» بعد معركة جرحت فيها وسـقطت تبكى والفرنسيون يقاتلون عنها الانجليز الذين رأوا فى جرحها فرصـة للظفر «بالساحرة الملعونة» التى أنزلت بهم شر الهزائم .

فلما وقفت رحى المعركة نهضت جان دارك قبيــل المساء وتقــدمت جنــدها وهى جريح الى الحصن ، فاستولت عليه وفر من كان فيه من الانجليز وغرق منهم كثيرون ، وفى فجر اليوم التالى ٩ مايو سنة ١٤٢٩ ، سحب الانجليز فلولهم مرتدين عن أورليــان ، تاركين ذخائرهم ومدافعهم نهبا لأهــل أورليــان الذين انقلب همهم عيدا دونه كل الاعياد .

وسارت جان دارك فى ١٠ مايو الى تورز مقر الملك ، حيث استقبلها الشعب استقبال أعظم الابطال ، وخف الملك الى لقائها أحسن اللقاء ، ورفعها هى وأهلها الى مصاف النبلاء ، وراحت هى تلح عليه أن يطرح جانبا مشورة حاشيته الخائنة ، ويصغى الى توسلها فيذهب معها الى رامس حيث يتوج ملكا على فرنسا . ويمسح عليه بالزيت المقدس ، فلم يستجب الى ندائها الا بعد شهر من دخولها أورليان ، فتقدمت جان دارك بجنودها وبددت شمل الجيوش الانجليزية فى الطريق الى رامس ، وأسرت قائدهم سافولك نفسه ، وردت قائدهم الآخر تالبوت على أعقابه لائذا بأذيال الفرار ، ثم أسرته وعادت به الى اورليان ! . . ثم بدأت جان دارك رحلتها مع الملك الى رامس بجيش عتيد بعدده وروحه المعنوية . فلم تلق مقاومة تذكر من فلول الجيوش الانجليزية ، واحتفل بتتويج الملك ومسح رأسه بالزيت كما أرادت جان دارك اذعانا « لاصواتها » .

الى هنا كانت رسالة جان دارك قد تمت ، وكان عليها ما دامت قد نفذت مشيئة « أصواتها » وعملت بوحيها ، أن تعود الى بلدها ، مكرمة مبجلة فى الحياة والممات ، ولكنها بقيت ــ لأمر ما ــ دون استشارة أصواتها ، واستصدرت من الملك امرا بالزحف على باريس ، فسارت هى على رأس الجيش ومعها الملك نفسه ومستشاره الخائن « لاتريموى » ، ولكن ضعف الملك ووقوعه فى حبائل الدس التى نصبها له مستشاره ، جعلاه يعقد مع دوق برجندى هدنة لمدة خمسة عشر يوما تسلم له باريس على أثر انقضائها بغير ما حرب ونضال ، فلم يسع جان دارك الا أن تقبل على مضض ما قبله ملكها حتى لا تعرض كلمته وكرامته للمهانة ؛

فلما انتهت مده الهــدنة اصــدرت جان دارك امرها باستئناف الزحف على باريس وتخلف الملك عنهــا ، لفرط جبنه وخور عزيمته ، وسارت هى وحدها على راس الجيش حتى بلغت سان دينى في ٢٦ أغسطس سنة ١٤٢٩ ، وهناك أرسلت تلمح على الملك فى موافاتها الى هذا الموقع ، واضطرت الى انتظاره هناك حتى وصل بعد أسبوعين ، فكان هذا التأخير كسبا للوقت استغله الانجليز فى تقوية أنفسهم وتجديد نشــاطهم ، فلمــا استؤنف القتال عند سان أونوريه ســقطت جان دارك جريحة ، وحملها زميلاها القائدان المخلصان دالنسون وجانكور بعيدا عن المعركة خوفا على حياتها ، وارادت هى فى اليوم التالى استئناف القتال رغم جرحها ، فاذا الملك قد انصاع من جديد لمكائد مستشاره لاتريموى ووقع هدنة أخرى يرتد بمقتضاها الى الوراء فى مقابل وعود عابثة ، فوقع ذلك من نفس جان دارك اســوأ وقع ، وطلبت الى الملك اعفاءها من أعباء القيادة العامة ، فأبى عليها ذلك بحجة ان الهدنة لاتمنع الانتفاع بخدماتها فى ميادين غير التى نص عليها فى الشروط ..

ولم تكن « الاصوات » قد انقطعت عن الاتصال بجان دارك ، وان لم تكن هى التى أوحت اليها بما كان منها بعد التتويج ، فأشارت عليها فى هذا الموقف بأن تبقى فى سان دينى ، ولــكن الملك ابى عليها الا أن ترافقه ، ولم تكن تستطيع المقاومة وهى جريح اذا احتاج الامر الى أن تقاوم بالقوة ، فلم يسعها سوى الانصياع لأمر الملك ومخالفة « أصواتها » لاول مرة مخالفة صريحة .

ولــكن جان دارك لم تطق صبرا على خطة الملك الذى كان قد سرح الجيش ، وانصرفت حاشيته الى اللهو والعبث ، فقررت أن تقاتل العدو بفرق من المتطوعين ،

وانضم اليها فى ذلك صديقها القائد دالنسون ، وكأنما طرأ على جان دارك شيء من الشك فى نجاح هذه الحملات المرتجلة على الاعداء ، فجاءتها « الاصوات » مصدقة لما فى صدرها من وساوس ، واخبرتها فى ابريل سنة ١٤٣٠ ، بأنها ستقع فى الاسر قبيل عيد القديس يوحنا وعليها أن تتقبل هذه المحنة بالرضا ، والثقة فى عون الله ..

وصحت النبوءة وأسرت جان دارك على مقربة من « كومبين » فى الموعد الذى ضربته « الاصوات » ، وقد ظل « جين دى لوكسمبرج » أياما ينتظر فداءها من شارل السابع ولكن شارل تركها معرضا عن صيحة أستاذه فى طفولته « جاك جيلو » الا يدخر جهدا فى سبيل انقاذها ، فلما اتصل نبأ أسرها بالانجليز دقوا النواقيس وأقاموا الصلوات ابتهاجا بنجاتهم منها ، وارسلوا صنيعتهم « كوشون » أسقف «بوفيه» يساوم جين دى لوكسمبرج على شرائها ، فنجح فى مهمته وابتاعها بثمن قدره عشرة آلاف من الجنيهات ، جمعها الانجليز من الفرنسيين أنفسهم ! .. وعندئذ حاولت جان دارك الانتحار بالقاء نفسها من نافذة قلعة بوريفوار ، وقد نفذت هذه المحاولة رغم نصيحة « الاصوات » لها بألا تفعل ، وكانت النافذة على ارتفاع ستين قدما من سطح الارض فسقطت المسكينة فاقدة الرشد ، وأعادوها الى غرفتها بالقلعة حيث استردت صحتها بعد أيام .

ونقلت جان دارك بعد ذلك من قلعة الى قلعة أسيرة فى أيدى الانجليز ، حتى القيت آخر الامر فى روان بقلعة «فيليب أوجست» مكبلة بالاغلال ، مصفدة بالسلاسل

فى عنقها ووسطها ، محبوسة فى قفص من الحديد خمسة اشهر كاملة ..

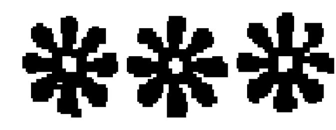
***

قدمت جان‌دارك بعد ذلك الى المحاكمة ، أمام احدى محاكم التفتيش الدينية ، بتهمة الالحاد ، والزندقة ، والسحر ، والارتداد ، ونحو ذلك من التهم الملفقة التى اخترعها الانجليز ، وعهدوا الى صنائعهم من المرتشين وذوى المطامع ومرضى النفوس « بتكييف » كل تهمة منها مهما يكلفوا أنفسهم من شطط وعسف وعدوان ، وواجهت جان دارك ، وهى فتاة لم تتم عامها التاسع عشر ، هيئة من رجال الدين وأعوانهم ، بلغ عددها نحو خمسة وتسعين شخصا ، وقد انتهت هذه المحاكمة الاولى بالحكم على جان دارك ، بعد جلسات مرهقة طويلة ، بالسجن المؤبد ، وهو أقصى حكم يبيحه قانون الكنيسة اذا أعلن المتهم خضوعه وتسليمه ، وهو ما فعلت جان دارك فى اللحظة الاخيرة بعد أن أخذ منها الارهاق كل مأخذ ..

وكانت بعد ذلك مهزلة ابدال هذا الحكم بحكم الاعدام حرقا ، بدعوى ان جان دارك نكثت بعهدها بعدم العودة الى ارتداء زى الرجال ، والحق الذى لايخفى هو ان الاعدام كان أقل حكم يرضاه الانجليز لجان دارك ، وقد صرحوا بذلك قبل صدور الحكم وهاج هائجهم حين حسبوا حكم السجن المؤبد نهائيا ، فلو لم تكن جان‌دارك قد عادت الى زى الرجال لما عدموا ألف سبب وسبب لاشباع شهوتهم الى الانتقام من خصيمتهم الشريفة ، على أفظع الصور وابعدها عن العدل والرحمة والانسانية

وغنى عن البيان ان هذه المحاكمة رغم مظهرها الدينى كانت محاكمة سياسية من الالف الى الياء ، وأنها

بحذافيرها من تدبير الانجليز ، ومن مفضوح المغالطات أن يحاول رجل مثل برنارد شو أن يثبت ان السياسة لم تتطرق الى هذه المحاكمة فى قليل ولا كثير ! وأمعن في المغالطة والتبجح أن يختتم اللورد بركنهد الفصل الذى عقده عنها فى كتابه « أشهر المحاكمات » بقوله : ان مصرع جان دارك سيظل الى الابد وصمة فى جبين الفرنسيين ! . .



وقد درست قضية جان دارك من جديد فى سنة ١٤٤٩ ، وبعد ست سنوات ونيف بدىء نظرها أمام محكمة دينية فى كنيسة نوتردام ، بناء على التماس من امها التى كانت بلغت السادسة والسبعين من عمرها ، وفى ٧ يوليو سنة ١٤٥٦ ، قررت المحكمة اعتبار التهم التى بنى عليها الحكم الاول باطلة ، واعتبار المحكوم عليها فى عداد الشهيدات ، وفى سنة ١٩٢٠ ، أى بعد اكثر من أربعة قرون ونصف قرن على هذا الحكم ، اعلنت الكنيسة قداسة « عذراء أورليان » .

فهرس

كتاب الهلال

عدد خاص

بمناسبة عيد الثورة

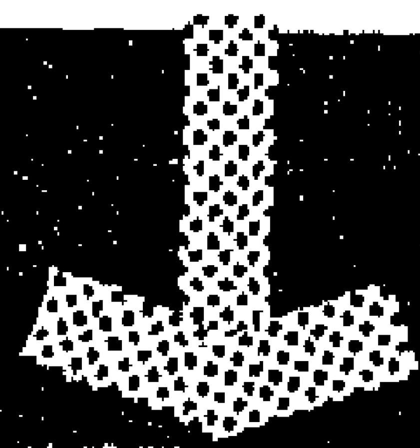
يصدر ٢٣ يولية

أنور السادات

قصة إيمان بالعسكرية المصرية

سجل حافل يروى فيه زملاؤه في السلاح قصته بالكلمة والصورة

الثمن ١٢ قرشا



روايات الهلال

تقدم

القصة الرائدة

للكاتب الكبير

صالح جودت

الشبّاك

تصدر ١٥ يولية

الثمن ١٠ قروش

روايات الهلال تحمل إليك المتعة

كتاب الهلال

يقدم

سندباد في سيارة

أروع ما كتب السندباد المصري

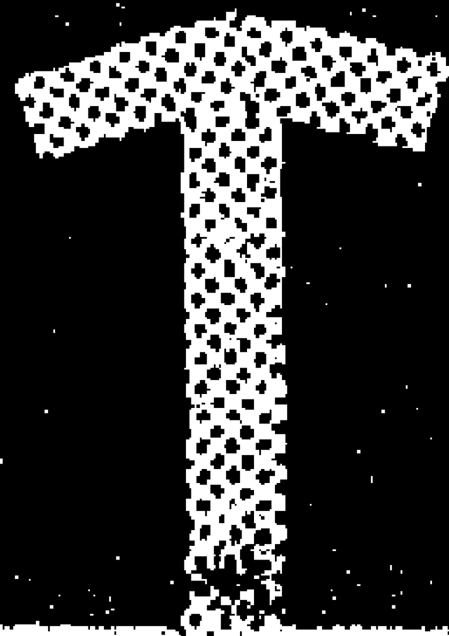
الدكتور

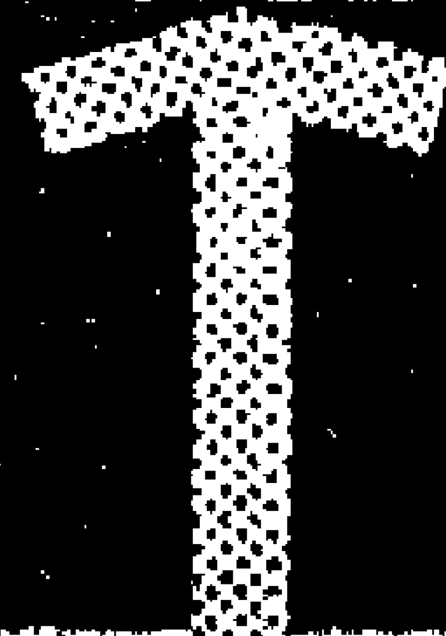
حسين فوزي

كتاب الهلال خير ما يزين مكتبتك

يصدر ٥ أغسطس

الثمن ١٠ قروش





وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ــ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

مؤلف هذا الكتاب من الصحفيين العرب الأحرار الـذين ظلوا يناضلون في سبيل الحرية ومكافحة الاستعمار ونشر الوعي بين المواطنين في نزاهة وشجاعة وجراة حتى فاجاته المنية وهو يقوم بمهمة صحفية في احد الاقطار الشقيقة •

والفصول التي يتناولها هذا الكتاب تمثل الصـدى العميق الذي تركته في نفس المؤلف سير مجموعة من الإبطال الذين وقفوا حياتهم - او الشطر الاكبر منها - على الجهاد الذي لا يهدا لتحرير اوطانهم ، وازكاء شعلة الحرية في نفوس مواطنيهم ، ومواجهة قوى السيطرة والطغيان التي فرضت نفسها على بلادهم - ولم يكن من المصادفة ، ولا كان من العجب ، أن يدفع هؤلاء الابطال الاحرار ثمنا غاليا وصل في بعض الاحيان الى بذل ارواحهم رخيصة في سبيل اداء الواجب المحبب الى قلوبهم فلقوا ربهم في اتون المعارك على أيدي الطغـاة القساة الذين اذاقوا البشرية من اقدم العصور حتى اليوم الوانا شتى من الهوان والعذاب •

وعلى الرغم من انقضاء سنوات على كتابة هذه الفصول ، وعلى صدور الطبعة الاولى من هذا الكتاب ، فان القارىء سيجد متعة كبيرة في مشاركة المؤلف احاسيسه والافادة من تجاربه وقراءاته ودراساته عن هؤلاء الابطال الاحرار الخالدين •

١٠ قـــروش



كتاب الهلال

أنور السادات

قصة إيماننا بالعسكرية المصرية

حمدي لطفي

٩٠

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعي

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٢٥٩ - جمادى الآخرة ١٣٩٢ - يوليه ١٩٧٢

No. 259 — Juillet 1972

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادي البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ - فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية او ٢ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية : فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية - الاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

حمدى لطفى

أنور السادات

قصة إيمان بالعسكرية المصرية

دار الهلال

أنور السادات

الرمز الحى للمطالبة بالحرية

بقلم: يوسف السباعى

يتحول كثير من الذكريات بتطور الأحداث الى قطعة من تاريخ الوطن ، فتبقى هذه الذكريات على مر الزمن مصدرا يغرى المؤرخ بالبحث والدراسة ، ويستهوى الصحفى لمعرفة ماتحويه من أحداث وما تشتمل عليه من دلالات .

وفى هذا الكتاب الذى يصدر ونحن نحتفل بذكرى من أغلى ذكريات شعبنا وأكثرها ثراء ، ذكرى العيد العشرين لقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وأعنى بالكتاب هذه الصفحات التى تروى لنا قصة أنور السادات وايمانه بالعسكرية المصرية ، وهى صفحات تعود بنا الى ذكريات بعينها ، والى الأيام الأولى من شباب ثوار يوليو ووقودها ، وهى فترة الثلاثينات التى عشناها فتيانا ، تملؤنا أكبر الآمال ، وتحركنا أعنف الانفعالات

الوطنية ، على طريق التجـربة ••• وفى منتصف فترة الثلاثينات هذه كانت جماهير الشعب كلها قد امتزجت بمطلبها الوطنى الوحيد : « سيادة الأرض قبل الخبز » وأصـبحت قضـية حرية مصر ، واخراج الاحتـلال البريطانى من بلادنا مطلبا أساسيا حيويا ، لا يقل أهمية عن مطالب الحياة اليومية والتزاماتها ، وكان تفكير الشباب الثائر مركزا فى العمـل على طرد الانجليز المحتلين ، وتصاعدت غيرة الشعب على كرامة الوطن الى ذروة الغضب ، الأمر الذى أعاد الى الأذهان حينئذ أحداث « ثورة ١٩ » الخالدة ، وانتفاضة الجماهير من فلاحين وعمال ورجال دين ، وضباط ومعلمين ، وفنانين وطلبة ، وكأنهم جميعا رجل واحد ، ثائر واحد ، ويد واحدة ، تتحرك بارادة قوية لا تقهر ولا تلين ..

فى منتصف الثلاثينات كانت مصر تنضج فى سـكون مجموعة من أبنائها ، ليقودوا نضـالها الـكفاحى ، ولقد نجحت بعد سنوات قليلة فى أن تنجب عددا من شبابها اليافع البسيط ، تولى فى شجاعة نادرة قيادتها على طريق الحرية والخلاص ، واقتحام آفاق الى مستقبل أفضل ،

كان مجرد التفكير فيها جريمة يعاقب عليهـا بالسـجن والتشريد .

لقد نشأ جيل ثوار يوليو ١٩٥٢ بين أبناء العشرينات أول ما نشأ فى ذلك المناخ الوطنى الذى عكسته ثورة ١٩ ، وعاش تلك الأحداث والانتفاضـات الشعبية التى شهدتها مصر بعد ذلك حتى توقيع معـاهدة ١٩٣٦ ، فتكونت عقيدته ومفاهيمه من نبع الحـرية والارادة الصلبة فى تحرير الوطن والدفاع عن شـعبه وكرامته والعمل على تحقيق استقلاله ، فكانت تلك الفترة بمثابة الميلاد الجديد للفكر الثورى داخل وحدات الجيش ، حيث اندلعت فى نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينـات ، شرارة الوطنية فى العقول الشـابة الرافضة لكل ما هو تقليدى وخطأ وسلبى ، بحثا عن طريق يقودها للخلاص من الفسـاد والخنـوع والتبعيـة المطلقة ــ للانجليز وأعوانهم من ضباط الملك السابق .

وفى الجولة الأولى من حرب فلسطين عام ١٩٤٨ أنبتت المعركة مفجر الثورة وقائد مسيرتها ، الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ليصنع التحدى التاريخى الذى شهدناه منذ

عام ١٩٥٢ ، وليقود المسيرة بعد رحيله ، زميل صباه فى المدرسة الحربية ، ورفيقه فى السلاح ، وشريكه فى الفكر الثورى والتشكيل الوطنى السرى فى الجيش المصرى ، وواحد من قادة الثورة التى تفجرت حين تهيأ المناخ المناسب ، ونادى الايمان والواجب بالخروج فى ليلة خالدة ، ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، هو القائد الرئيس أنور السادات .

واذا كانت هذه الصفحات من كتاب الهلال تتحدث عن أنور السادات الضابط بالجيش ، وإيمانه المطلق بالعسكرية المصرية ، طريقا للتحرير والبذل ، فهى أيضا ترسم جانبا من فكر السادات الوطنى المشفوع بالعقيدة العسكرية ، هذا الفكر الذى عبر عنه خلال الفترة الماضية بقوله :

ـ « اننا مطالبون بأن نعطى الحياة لكى تكون لنا حياة مطالبون بأن نضحى بالروح لكى تبقى وحدة ترابنا الوطنى مصونة على طول الزمان » .

ولقد كان السادات بكل كيانه وامكانياته خلف عمليات عسكرية ذات أهمية قصوى فى فترتى الصمود

والاستنزاف للعدو خلال العمليات الحربية عام ٦٩ – ١٩٧٠ ، بوصفه نائبا لرئيس الجمهورية ، وأبرز هذه المراحل مرحلة بناء قواعد الصواريخ ، ثم اسقاط الفانتوم وسكاى هوك الأمريكية – الأسرائيلية تباعا بعد ذلك ، وهى مرحلة من أخطر مراحل التصدى للعدو ، واستنزافه ، ثم محاولاته لضرب قواتنا حتى تتوقف عن بناء قواعدها الصاروخية .. غير أن المقاتل المصرى وقف يحمى شقيقه العامل المصرى ، والمهندس المصرى .. فكان الجميع يشيدون القواعد العسكرية الحديثة ويحاربون العدو فى الوقت نفسه ، وقد قدم الرجال أعظم التضحيات فى شموخ بطولى ، خلال معاركهم الانتحارية ، ولم يتوقف البناء ، بل استمر فى اصرار على تحقيق الخطة حتى النهاية ...

وبقول الرئيس أنور السادات عن ذلك العمل الرائع ، ملحمة البطولة والفداء :

– « ان أولادنا لم ينكسروا قط »

« استمرينا ومشينا ، وجاءت سنة ١٩٧٠ ، وحكيت لكم هنا فى الهيئة البرلمانية بالتفصيل كيف بدأت غارات

العمق ، ووضعت خطة اسرائيل بمساندة امريكا فى أواخر سنة ٦٩ للاجهاز علينا عن طريق تفوق الطيران الاسرائيلى فى الأشهر الستة الأولى من سنة ١٩٧٠ .

« وبدأت اسرائيل ، وتذكروا أننى رويت لكم عن بدء هذه الاستراتيجية الجديدة والخطة الجديدة حين جاء العدو يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٦٩ بـ ٢٦٤ طيارة مع أنه جاء يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ بـ ٢١٠ أو ٢٢٠ طيارة . يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٦٩ جاء العدو بـ ٢٦٤ طيارة ، واستمرت الغارات من ٨ صباحا الى آخر ضوء ، أربعة ونصف مساء ، ومانالتش منا شيء أبدا ، ولا نالت من قواتنا ولا من خططنا ولا روح قواتنا المسلحة ، ولا من ابطالنا شيء أبدا ..

« فى هذا اليوم كان الرئيس جمال عبد الناصر رحمه الله فى الرباط ، ولما انتهت الغارات الساعة ٤ ونصف مساء بعد قذف قنابل من جميع الأحجام والأنواع ، زمنية وغير زمنية وبتركيز ٢٦٤ طيارة ... تذكروا اننى قلت لكم أصدرت الأمر يومها بنقل بطاريات الصواريخ وتغيير أماكنها قبل صباح اليوم التالى ، وفوجيء العـــدو

لأنهم ألقوا قنابلهم الزمنية وأمامها وقت حتى تنفجر ، وعادوا فى اليوم التالى يبحثوا فلم يجدوا البطاريات المصرية فى أماكنها ، واضطروا الى تغيير خطتهم على ما يستطلعوا تانى ويعودوا تانى للغارات ، ولم يستطع العدو كسر أولادنا أبدا ..

« لقد واجه أولادنا العدو بكل امكانياته ، ومن وسط القنابل الزمنية من وسط غارات استمرت من ٨ صباحا لأربعة ونصف مساء ، ثم كملوا طول الليل وغيروا الأماكن ووضعوا البطاريات فى مواقعها الجديدة ..

« ولم يحدث أن انكسر اولادنا أبدا ...

« ماشيين وجاءت سنة ١٩٧٠ ، وابتدأت غارات العمق وسافر الرئيس جمال رحمه الله الى الاتحاد السوفييتى وزى ما قلت لكم يجب أننا نحفظ له دائما مكان الصديق الشريف ، قدموا لنا صواريخ سام ٣ من أجل حماية العمق ، وقامت هنا أجهزتنا فى بلدنا ، خلال أربعين يوما بعمل لا يمكن ان تتمه الا دولة من الدول العظمى كانت شركاتنا كلها ، مهندسينا ، عمالنا ، بيشتغلوا فى بناء المواقع الجديدة للصواريخ .. وفى خلال أربعين

يوما تم عمل ثمنه أربعين مليونا من الجنيهات ، أى كنا نصرف فى اليوم الواحـــد مليون جنيه ، وتم انجازها ودخلت صواريخ سام ٣ وتوقفت غارات العمق » .

***

وكانت ملحمة من أشرف وأعظم ملاحم المقاتل المصرى المسموعة بكل دقائقها لشعوب العالم أجمع ، لتكشف عن إيمانه الصلب الشامخ فى ثبـــات الجبال من واقع هذه التجربة الخالدة المحفورة بدم شهدائنا الأبطـــال فى صفحات العسكرية المصرية ونضالها الوطنى المكثف ..

لقد استمد السادات قدراته الشخصية من خــلال المعاناة الطويلة والتجربة الواعية ، وكانت انطـــلاقاته الوطنية التى عرفناها بأقصى درجات التحرر نابعة دائما من مراحل التصدى للمسئولية الوطنية قبل ١٩٥٢ وبعد ١٩٥٢ ، وقد تربى سياسيا فى مناخ نضالى منذ التحق بالمدرسة الحربية ، ضد احتلال وطنه ، فرأيناه شابا ثوريا يعمل بحرارة الشباب وقوته وإخلاصه ، مرتكزا على قيم غنية مفعمة بالأحاسيس الوطنية مؤمنة بأن كل من ارتدى زى العسكرية المصرية فهو له فدية وجزية لمعركة

بلاده وكرامتها وحريتها .

***

ولقد حاول الزميل الأستاذ حمدى لطفى محرر الشئون العسكرية لمجلة المصور وقد ارتبط بالجيش مع قيام ثورة ١٩٥٢ وكان وقتها صحفيا تحت التمرين ، أن يجمع كل نشاطات القائد الأعلى للقوات المسلحة داخل وحدات الجيش من زملاء الدفعة ورفاق السلاح فى هذه الصفحات .. واذا لم يكن قد استكمل الصورة ، فان محاولته بلا شك تستحق الوقوف عندها ، ذلك انه مزج بين الوطنية والعسكرية المصرية للرئيس السادات ورفاق الثورة وهو المزج الذى كان بمثابة دعائم للفكر الثورى بين الضباط الاحرار قبل جولة فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ ، حتى قيام الثورة ، ثم انهاء الاحتلال البريطانى الطويل لبلادنا بعد عامين من ٥٢ ، وقد كشف الشعب وجيشه عن ارادة قتالية صامدة ، لا تلين ولا تضعف ، ارادة قتالية انجبتها الروح الوطنية للشعب المقاتل ، الروح التى لم يستطع الغزاة منذ فجر التاريخ ، ان ينالوا منها قط ..

ان أنور السادات هو ابن هـذا الشعب المصرى الأصيل وهو نبت هذه الأرض المصرية الكريمة الطيبة انه « رمز حى للمطالبة بالحرية » كما وصفه القائد الخالد الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ذات يوم من الأيام الأولى لثورة ٢٣ يوليو الخالدة .

يوسف السباعى

لمـاذا هـذا الكتاب؟

اربعه أعــــوام ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ ، ١٩٥٢ ، ١٩٧٢ : لها دلالات فى تاريخ بلادنا ، وهى أعـــــوام بارزة فى ســجل النضالِ الوطنى لشـعبنا ، وشبابه الثائر الذى قام دواما يتصـدى للدفاع عن مصر ، ويشق لارادته مسـارا ، ويقاتل بأظافره حين يفقد السلاح ...

فى هذه الحقبـــة الطويلة من العمر ، منـذ احتل الاستعمار البريطانى أرضنا ، تصدى الرجال للشدائد ، وكانوا أمام المحن والارهاب والتنكيل ، أكثر صـــلابة وأكثر ثباتا وأكثر ايمانا ، فاجتـازوا المعـابر الدموية الرهيبـة بتماســكهم وايمانهم والتحامهم ، حتى جاء الجيل الذى ولد فى العشرينات ، وقام بثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ...

واليوم وثورتنا فى عامها العشرين ، يقودها القـائد الرئيس انور السادات ، مكملا الطريق الشـــاق الوعر الذى بدأه قائد النضـــال ، والتجسـيد الحى لأشجع الرجال ، الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ... اجدنى اطرح سـؤالا :

ـ لماذا هـذا الكتاب اليوم ؟ ..
ـ وماذا يضيف من جديد ؟ ..
وببساطة أستطيع أن أقول :

ـ هذا الكتاب ليس الا تعبيرا عن مكونات الانسان الثورى فى القائد الرئيس أنور السادات ، وهو يقودنا اليوم من خلال ايمانه بالشعب ، ومن خلال ايمانه بالتضحية ، ذلك الايمان المتفرد عام ١٩٣٨ ، الذى جمع حوله اشجع الشباب من صغار الضباط بالجيش المصرى ، وقد تجاهلوا مستقبلهم الشخصى دفاعا عن مستقبل مصر ...

لقد ظل « السادات » مؤمنا بالعسكرية المصرية فأعطاها من روحه صياغات وطنية جديدة حرص على نشوئها وارتقائها فى أسلحة الجيش التى خدم بها ، كما كانت نوازعه التى يحملها فى ثناياه تدفعه للعمل بتركيز وتكثيف على التفاف الجماعة حول هدف واحد ، وتماسك هذه الجماعة وارتفاعها فوق المثالب والخلافات الصغيرة ، لتنتشر وتثرى من حولها ..

وكان احساسه متدفقا دائما بتأصل الجذور المصرية العريقة ، ونبتها البشرى ، ابنائنا ، أفراد قواتنا المسلحة ، أمس .. واليوم .. وغدا ، فعرف « زملاء الدفعة ، ثم رفاق السلاح » قيمه ومقاييسه حية نابضة خصبة ، تعطى وتجود دائما بالثراء الانسانى الذى خصه الله به ، رغم نشأته البسيطة وما تعرض له فى شبابه من تنكيل ومطاردة ...

كان « السادات » وكل ما أذكره ، حدثنى فيه باستفاضة قدامى المعلمين ، ومنهم من ترك الخدمة العسكرية قبل قيام الثورة ، وبعضهم من تنبأ له

بالهزيمة امام الانجليز ، حتى شاهدوه وهو الضابط الصغير يقف فى وجه ونشـــــاط ومشروعات القيـادة الانجليزية بالشرق الاوسـط ، ولـــكنهم فى الاعمـاق كانوا يأملون فوزه ، فمصريته وعقيـدته القتـالية التى عمل على تمصيرها بالرغم من أنف كبار القادة البريطانيين ، كانت أحلى واعظم ما يرجـو الانســـان أن يتحلى به ، خاصة لدى الضباط المصريين ...

كان « السـادات » متصـلا أتصالا وثيقا بالحياة ، وكان يقول لقادته وزملائه :

« ان بعضنا غارق فى احسـاس بالرضاء عن نفســه وعن عمله ، وهــذا البعض ببســاطة يفتقر الى هــزة كبيرة ، هزة تقوده الى فهم جديد ينقـذه من التخلف النفسى ، بل من السـجن الانفرادى الذى اغلقـه على نفســه ، دون أن يرى أنه قابع بين أســوار هــذا السجن ... »

جملة ذكرها لى « اللواء متقاعد محمود مختـار » ، احد قادة السلاح ، الذين احيلوا الى المعـاش قديمـا

كان شابا بسيطا يمثل أغلبيـة شباب مصر ، ثريا بحبها مؤمنا بضرورة التضـحية بالروح من أجلهـا ، وباقتدار المقـاتل المصرى على تحرير أرضـه وحمـاية استقلالها ، وبالقيم التى ترقد فى داخـله وبالطـاقات الخـلاقة لديه ، وبقوة الدفع التى يملـكها ... ومن أجل هذا استثمر نفسه فى المجموع حوله ، وبتميز وموضوعية عمـل دائمـا بمفهوم لا خطـوة محلك سر ،

والنظر الى الماضى فى شجاعة « ولنطل على المستقبل من أوسع النوافذ لا من كوة ضـــيقة صغيرة ... ولنجعل من هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ ، قاعدة انطـلاق لبناء بلادنا ، ذلك البناء المشفوع بالعلم المقترن بالايمان »

لذلك كان « السادات » دائما قوى محركة بالنسبة لنا ، وكما يصفه « الزعيم الخالد جمال عبد الناصر » بقوله :

« لـــكم تحمــل من ألوان الحرمان والتعـــذيب والاعتقـــال والســـجن المتكرر ، فلم تهن عزيمته ، ولم تتزعزع عقيدته ، ولم يفت ذلك فى عضده ، بل ازداد رســوخا وايمانا ، حتى صـــار رمزا حيــا للمطالبـــة بالحرية ، ومعبرا صادقا للشعور الوطنى الجامح الذى سرى فى وادى النيل ... »

***

من أجل هذه الاعتبارات ، أعددت هذه الصفحات ، قصـــة رجل حرص دائما على بذل الجهـــد حتى الحد الاقصى ، مبرزا فى فترات حيـــاته كلهـــا عامل التـــآلف والتآخى والتماســـك الجماعى ، والثبـــات الانفعالى الارادى ، لتحقيق الهدف ، محــددا مكانه فى معــركة المصير ، بالصفوف الاولى بين تشكيلات القتـــال ، كمـــا قال « للقوات المسلحة » عام ١٩٧١ :

« انكم مواجهون بمهمة النصر ، وهى أشرف معركة ، لاشرف زى ، زى القتـــال ، وســـأكون بينــكم ، فى مقدمتكم ، حين نخطو خطوتنا المتقدمة ... »

يوليو ١٩٧٢ **حمدى لطفى**

الفصل الاول

أشرف الغضب

هو الشعب المصري ، امس وغدا ، وطوال أجياله المتعاقبة ، اختار المقاومة دائما ، وواجه التحدي بصمود وعناد واقتدار ، وظل ابدا دائم النضال دائم الكفاح والتضحيات ، ما توقفت معاركه عبر التاريخ ، أو منذ بدأ يمسك بحدوده الجغرافية دفاعا عن حرية تلك الحدود ويخرج من معركة الى اخرى وارضه مقبرة لغزاته ، صحيح كان صموده في كثير من معاركه أكبر من انتصاراته ولكنه دواما ظل صامدا كالصخر أمام أضعاف قوته ، فياضا بأشجع الرجال كالنهر امام جحافل الغزاة والمحتلين ، ما ضعفت صلابته وما وهن عناده ، وما ضاعت كبرياؤه وما استسلم على الاطلاق ، ربما لم يدفع شعب مثلما دفع شعبنا وقدم من أغلى التضحيات ، ولذلك كان يعطى دائما ويجود بأشجع الرجال ، مثل هؤلاء الشباب الذين كانوا يخططون لامتلاك القوة المسلحة وتكوين جيش مصري وطني خالص المصرية ، فحاولوا هم ومن سبقوهم المرة تلو المرة أن يلتحقوا بالمدرسة الحربية ، ولكن محاولتهم الجريئة كانت تتحطم دائما امام رغبة وسياسة الاستعمار المسيطر ، الحاكم الفعلي للبلاد

ثم وقعت مفاجأة ... واقتحم ابنـاء الشعب البسطاء المدرسـة الحربية « الـكلية الحربية ـ بعـد ذلك » وقبضـة الاسـتعمار قوية مسـيطرة على المدرسـة والجيش والحكم فى مصر ... واذا بمجموعة من هؤلاء الابناء يشتد عودهم ، فيلوون عنق الاسد البريطانى ، ثم يديرون وجـه الامبراطورية العظمى التى لا تغـرب عنها الشمس نحو الافول ...

النبع الفياض بالرجال

فجر ٢٥ ديسمبر عام ١٩١٨ ..

خرج الى الحياة طفل جديد اسمر البشرة فى « قرية ميت أبو الكوم » مركز تلا منوفية ، هو الرئيس القائد الاعلى للقوات المسلحة ، محمد انور محمد السادات ...

ولقد كتب الله فى صفحته ، ان يكون واحدا من صناع التاريخ فى بلاده ، وان يتولى بعد ذلك قيادة وطنه ، ويحمل فوق كتفيه واحدة من أكبر المسئوليات التاريخية وأخطرها فى تاريخ مصر الوطنى ..

ولد الرئيس القائد انور السادات قبل ثورة عام ١٩١٩ ، بأربعة وسبعين يوما .. كان الشعب المصرى خلالها يموج بالغضب الوطنى النبيل ، ليعلن بعد ذلك فى ٩ مارس عام ١٩١٩ ، غضبة من أعظم غضباته واخلدها ؛ وتصبح بمرور السنين نبعا فياضا بالوطنية ، يثرى مصر بأصلب ابنائها ؛ نبعا خصبا اشبيه بالنهر لا يفرغ ابدا ...

كيف كانت البلاد ساعة ميلاده ؟ ..

ماهى « المعاناة » التى عاشتها الجماهير المصرية البطلة ، تلك الايام المحفورة فى جبهة الوطن ؟ ..

مصر والحرب العالمية الأولى

لنعد الى الوراء عامين ..

مصر عام ١٩١٦ ، وكل مواردها وثرواتها من الرجال والحاصلات الزراعية تحت تصرف السلطة العسكرية البريطانية التى اخذت تجمع ما تستطيع جمعه من العمال والفلاحين المصريين بالاكراه وارسالهم لخدمة قواتها فى سيناء ، والعراق ، وفلسطين ، والبردنيل ، وفرنسا ، خلال الحرب العالمية الاولى ..

كان ظاهر الدعوة جمع العمال المصريين بطريق التطوع ، ولذلك سموا بالمتطوعين ، ولكن الحقيقة انهم كانوا مكرهين ، وقد وضعت الحكومة المصرية سلطتها رهن اوامر الاستعمار البريطانى وقيادته العسكرية ، فكان المديرون فى المديريات ، والعمد فى الريف ، يقومون بجمع الرجال قسرا لحسابها ، حتى بلغ عدد العمال والفلاحين الذين جندوا بهذا الاسلوب مليونا وربع مليون رجل ، اطلق عليهم اسم « فرق العمال والجمالة » ..

واستولت القيادة الانجليزية على كل دواب مصر ، فلم تبق على جمل ، أو حمار ، صالح للعمل ، الا استولت عليه بأبخس الثمن ، كذلك فعلت بالنسبة للمحاصيل الزراعية ، والحيوانات من المواشى ، بل

اقتلعت اكثر الاشجار للانتفـــاع بأخشابها ، وقـــد اضطرت الحكومة المصرية الى خفض مســـاحات الاراضى المزروعة قطنـــا ، وزيادة المســاحات المزروعة بالحبوب لتموين جيوش بريطانيا وحلفائها ..

وفى ١٦ يناير عام ١٩١٦ ، اصدر « اســـماعيل سرى باشا ، وزير الحربية » بنـاء على ترخيص مجلس الوزراء قرارات بطلب جميـــع الرجال الموجودين « بالرديف ـ الاحتيـــاطى » للخدمة العسكرية ، ما عدا المستخدمين منهم بمصالح الحكومة ، اســـتجابة لطلب قائد الجيش البريطانى بمصر ، الذى كتب الى رئيس الوزراء يقول .

« ولما كانت قواتنـا فى حاجـــة الى تنظيم فـــروع تشهيلات لازمة للدفاع عن قنـــاة الســـويس ، وهـــذا التنظيم يجعلنا فى حاجة الى طـــائفة من العمال المتعودين على النظم العسكرية ، كالذين يمكن الحصول عليهم من أفراد رديف الجيش المصرى ...

فنأمل امدادنا بهم فى أقرب وقت » ...

وقد جمعت الحكومة المصرية اثنى عشر الفـا مجندا من أنحاء البلاد ، عوملوا بعد ذلك أسوأ معاملة ، وكان الغذاء الذى يصرف لهم ســيئا ورديئا ، بل ان بعضهم ظل أسبوعا بدون طعـــام على الاطـلاق ، فتجمعوا فى اول مظاهرة احتجاج لهم أمام قصر عابدين ، وقد تركوا ثكناتهم فى عين شمس صباح يوم ٢٩ يناير عام ١٩١٦ ، فجاء اليهم رئيس الوزراء ووعدهم بحل مشاكلهم ، وفى اليوم التـــالى تجددت المظـاهرة ، وصـــدرت الاوامر

بضربهم وتعريفهم بالقوة ، وقد سقط بعضهم قتلى فى ميدان عابدين ، واصبح هـذا الحادث حديث الشعب فى كل مـكان ... وكانت ثورة الرديف المصرى ، هى الارضـية الجماهيرية التي أطلقت بعـد ثلاث سـنوات « ثورة عام ١٩١٩ » الخالدة ...

مصر عام ١٩١٨

تولى السلطان – الملك – بعد ذلك « احمد فــؤاد » عرش مصر ، فى ٩ أكتوبر عام ١٩١٧ ، وارسل اليه السير رجنلد ونجت ، المندوب الســامى البريطانى خطابا أطلق عليه « تبليغا » من الحكومة الانجليزية يقول فيه :

« احيط علم عظمتكم انه لما كان نظام الوراثة على عرش السلطنة المصرية لم يوضع للان ، وكنتم عظمتكم بعد طبقة البنين الوراث المتعين طبقا لوراثة العرش ... فان حــكومة صاحب الجــلالة البريطانية تعرض على عظمتكم تبوأ هذا العرش السامى على أن يكون لورثتكم من بعدكم حسب النظام الوراثى الذى سيوضع بالاتفاق بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وعظمتكم ..

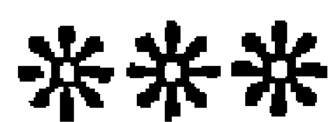
ثم يقول فى نهاية رسالته او تبليغه ان حكومة صاحب الجلالة البريطانية مقتنعة أن فى استطاعتها ان تعتمد فى العمل على عظمتكم ، ذلك الامر الذى له من المكانة فى نفس الحكومة البريطانية ما لا يقــل منزلتــه لــدى عظمتكم ... »

وبهذا الخطاب ، وقبوله من جانب احمــــد فؤاد ، اصبحت الحــكومة البريطانية مصــدر ولاية العرش ، وصاحبة الكلمة الاولى فى حكم البلاد ....

وقد تألفت في ١٠ أكتوبر عام ١٩١٧ ، وزارة جديدة برئاسة حسين رشدي باشا ، فجاء مرة أخرى باسماعيل سرى باشا وزيرا للحربية ، والذى استصدر مرسوما سلطانيا بعد عشرة أيام من تأليف الوزارة ، بضرورة التطوع في خدمة السلطة العسكرية ،ومصادرة الجمال والدواب في الريف ، تمهيدا لشرائها ! ...

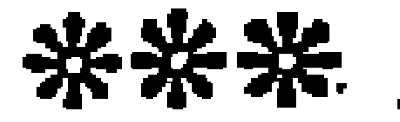
وفي ٩ مارس عام ١٩١٨، قرر مجلس الوزراء برئاسة السلطان ، ان تتحمل الخزانة المصرية « ثلاثة ملايين جنيه » اعترافا بجميل بريطانيا العظمى التى حمت البلاد من الغارات ، وان تدرج وزارة المالية « نصف مليون جنيه » لخدمة مطالب القيادة الإنجليزية لدى المصالح الحكومية كالسكك الحديدية ... وكانت الخزانة المصرية قد تحملت حتى نهاية عام ١٩١٧ مبلغ « ٢ مليون ونصف مليون جنيه » لاستخدامها في احتياجات قوات صاحب الجلالة البريطانية خلال الحرب ..

وفي ١١ نوفمبر من نفس العام ، انتهت الحرب العالمية الاولى بهزيمة المانيا وحلفائها ...



جعل الشعب المصرى يرنو بعد نتيجة الحرب ، وبعد ما تحمله من تضحيات وخسائر لحساب بريطانيا ، جعل يرنو الى جلاء الاحتلال عن أرضه ، لكن سلطات المستعمر اخذت على الفور توطد اقدامها ،وتتغلغل في شئون الحكم ، وتسيطر على مرافق البلاد ، لكنها لم تستطع ان تقضى على الشعور الوطني الجارف الذي

ساد جماهير الشعب ، وجعلها ساخطة متبرمة ... خاصة حين رفضت القيادة الانجليزية ان تسمح « لسعد زغلول باشا ورفاقه » أعضاء الوفد المصرى ، فى ٢٨ نوفمبر عام ١٩١٨ ، بالسفر الى لندن المطالبة بجلاء الأنجليز ، فأثار هذا الرفض جماهير الشعب المصرى ، التى احتشدت على طول مجرى النيل تطالب بالاستقلال ، وردد الكتاب والفنانون من الوطنيين الشرفاء قصة « شهداء الرديف » فى ميدان عابدين عام ١٩١٦ ، حيث ثاروا وتمردوا على القيادة العسكرية البريطانية ، وعلى الحكومة المصرية وسلطانها ، وانتشرت القصة تسرى فى بطء ، حتى اشعلت البلاد كلها بعد ثلاثة شهور « بثورة عام ١٩١٩ » الخالدة ....



فى هذا المناخ ، ولد الرئيس محمد انور السادات ، ثم رضع طفلا قصة الثورة الوطنية الكبرى واحداثها ، ورجالها ، واطوارها ...

فى المدرسة الابتدائيه

سافر الاب عائدا الى عمله بالسودان ، تاركا طفله « محمد » فى رعاية جدته لابيه بقرية ميت أبو الكوم ــ مركز تلا ــ منوفية ، وكان الاب قد اعتاد ان يقضى ثلاثة شهور ــ وهى اجازته السنوية ــ بمسقط راسه كل عام ..

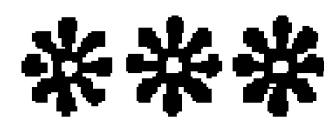
ولقد كان لهذه « الجدة » تأثير بالغ فى تربية حفيدها محمد انور الســادات ، وفى القــرية ، قال لى رفاق الصبا يروون عنها وعنه :

« كانت سيدة فاضلة تجمع بين صفات كثيرة ، قوة الشخصية ، ورجاحة العقل ووعيها بما يجرى خارج قريتها ، فكان ابناء القرية يلجأون اليها لحل مشاكلهم ومنازعاتهم ، وقد اعتادوا قبول كلمــاتها احــكاما فاصلة يطبقونها على الفور ، كما كانت سـيدة متدينة تحرص الى جانب الصلاة على الاستماع يوميــا الى تلاوة القرآن الكريم ، و « محمد » حفيدها فى يدها دائما ، لا يفارقها الا قليلا ، حين ينضم الى اطفــال القرية ، فيحدثهم بما ترويه له جدته ..

كانت هذه « الجدة » قد عاشت قبل زواجهــا فى رعاية عمها ، وهو ضابط من أعوان الزعيم القائد احمــد عرابى ، اشترك فى القتال ضــد الانجليز ، وقد اهتم

بتربية ابنة شقيقه تربية وطنية كاملة ، فعكفت هى الاخرى على تلقين حفيدها « محمد » قصة عرابى ، وكفاح الشعب المصرى ، وحفر قناة السويس ، واستبداد « السلطة » بالرجال للعمل فى معسكرات الانجليز ، وكيف سقطوا صرعى الجوع والامراض . وغارات الالمان ، كما سقط شهداء الردبف قتلى برصاص السلطة امام قصر عابدين ..

وتعلق « محمد » بجدته واحاديثها ، وروى عن تعلقه بها ، وتأثيرهاعليه ، كثيرا فى كتبه التى اصدرها عقب قيام الثورة ، فكما ارضعته حب مصر ، وكراهية الاحتلال البريطانى والسلطة الحليفة له ، ربته على الارتباط بالدين ، وتأديه فرائضه فى دقة وحرص بالغين ، فكان مثال الطفل المتدين ، حتى ان رجال القرية كانوا ينادونه : « بالشيخ محمد » ..



وحين بلغ الخامسة من عمره ، أخذه والده الى « كتاب » الشيخ عبد الحميد عيسى ، مأذون القرية الان ، وكان « كتابا كبيرا » يضم قرابة ١٥٠ طفلا ، من ابناء قرية ميت أبو الكوم ..

يقول الشيخ :

ـ كان « محمد » هادئا ، طيعا ، يتقدم صفوف الاطفال ويجلس قبالتى ، مستمعا لما أقوله ، متيقظا قادرا على الفهم والهضم ، وكان حريصا ايضا على نظافة ملابسه ، عكس بقية الاطفال ، وحين تعلم مبادىء الكتابة لمحت فيه حرصه على النظام ، والخط

الجميل المنسق ، واتباعه القاعدة دائما .. ولذلك لم يحدث مره ان تعرض للعقاب ..

ورأيت « محمدا » يؤدي الصلاة وهو في السادسة من عمره ، وتركته يعلم بقية زملائه كيف يؤدون واجباتهم الدينيه ، وحين بلغ الثامنة كان قد حفظ قدرا كبيرا من القرآن الكريم ، واجاد الحساب والكتابة ...

***

وفى لقاء مع اثنين من رفاق الطفولة « رفعت » النقيب بالقوات المسلحة الان ، و « بولس » المدرس ، قالا لى :

ــ قرر الوالد ان يلحق ابنه « محمد » بالمدرسة الابتدائية الوحيدة فى منطقتنا ، مدرسة الاقباط الابتدائية .. بقرية « طوخ دلكه » على بعد كيلو متر من قريتنا ، وكنا قد سبقناه بحكم العمر الى هذه المدرسة ، ولكن الناظر قرر أن يلحقه بالصف الثانى مباشرة بعد ان عقد له امتحانا فى اللغة العربية والحساب

يقول « بولس بطرس » المدرس الان بالمدرسة نفسها :

ــ ظل منافسا قويا للمتفوقين من التلاميذ ، وخاصة فى المواد الرئيسية كاللغة الانجليزية ، واللغة العربية ، والحساب ، وكان يحب المشي على الاقدام ، والتربية البدنية ، كما كان حريصا على علاقاته بالمدرسين والتلاميذ ، فأحبه الجميع واحبهم ، وقد حرص دائما وطوال حياته على زيارة قريته فى جميع المناسبات ، ولم ينس ان يزور مدرسته الابتدائية ، وقد كتب فى سجل زيارات المدرسة يوم ٩ اكتوبر عام ١٩٥٣ ، هذه العبارة :

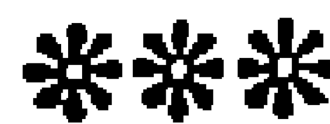
« بسم الله والله أكبر والمجد لله » ...

اللهم انى أحمدك وأشكرك ، فقد أراد جل وعلا أن ازور مهبط الوحى وأصل ثقافتى والمدرسة التى وهبت روحى الكفاح فى الحياة ، فهى فى نظرى قبلة أحج اليها لاتزود من جديد بالقوة والايمان ..

اننى أتمنى للجمعية والمدرسة اخلص ما أتمنى ، وأعد أن أكون خادما لهذه المدرسة حتى أرد ولو بعض الجميل ...

وفق الله الجميع وهدانا جميعا سواء السبيل ...

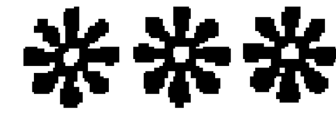
انور السادات



عام ١٩٣١ كان والد الرئيس قد نقل الى القاهرة ، وسكن فى بيت صغير بكوبرى القبة هو « مدرسة القائد » الآن ، بشارع القائد المواجه لقصر القبة .. وقد الحق ولده بالمدرسة الثانوية « فؤاد الاول » بالعباسية ؛ متحملا مصاريف الدراسة الثانوية الباهظة فى ذلك الوقت ...

تحدث الرئيس أنور السادات عن هذه الفترة من حياته فى بداية عام ١٩٧٢ ، فقال : ان والده عجز عن الحاقه هو وشقيقه بالمدرسة الثانوية ، وقرر أن

يختار بينهما ، فكانت المرحلة الثانوية من نصيبه بمحض الصدفة البحتة . . .



يقول السيد احمد شفيق حسيب ، احد زملاء المدرسة الثانوية ، ثم المدرسة الحربية بعد ذلك :

ـ كنا جيلا أكبر من أعمارنا ، جيلا جادا ، خشنا ، عاش طفولته يستمع الى قصة ثورة عام ١٩١٩ وشهدائها ، والمحاكمات التى أجرتها سلطات الاحتلال العسكرية الانجليزية لجماهير الشعب فى أنحاء الوطن عقابا على قيامهم بالثورة ، وهى المحاكمات التى انتهت باعدام ٥١ مواطنا ، وسجن وجلد عشرات المئات فى القاهرة وأسيوط والواسطى وديروط وملوى والمنيا وفاقوس ورشيد وقليوب وبنى سويف وطنطا وكوم امبو ودير مواس ومطاي وابو قرقاص والاسكندرية . . .

وقد ظلت هذه المحاكمات تملأ خيالنا ووجداننا ، وأورثتنا الكراهية المطلقة للاستعمار واعوانه من الباشوات والحكام ، ولذلك لم يكن مستغربا أن تكون اهتمامات تلاميذ المدارس الثانوية محصورة فى العمل الوطنى ، والنضال الجماعي ضد الاحتلال خلال الثلاثينات ، وكان « السادات » واحدا منا ، غير انه لم تكن له حياة خاصة كبقية الشباب ، بل كانت القضية الوطنية هى كل حياته ومشاغله ، فاشتهر بكراهيته الهائلة لقوات الاحتلال ، وقدرته الشخصية على جذب الطلبة حوله ، وشحنهم دواما بالمشاعر الوطنية ، وبذل كل ما يمكن بذله من أجل الحرية والاستقلال . . .

ومضت السنوات الخمس فى المدرسة الثانوية ، والسادات يعرف ويقرأ ويتقصى ويلتحم بالناس ، ويقول أصدقاء عمره : انه أحب العسكرية المصرية خلال تلك الايام ، فقد بقى مغرما بسيرة أحمد عرابى ورفاقه ، وكان يعبر عن هذا الغرام بحديثه اليومى تقريبا عنه ، ويرسم اللوحات التى تصور مواقف عرابى الوطنية الجريئة ، مما جعله يتقدم الى المدرسة الحربية طالبا الالتحاق بها ، وفى راسه أحلام وامنيات عريضة . . . فى مقدمتها جلاء قوات الاستعمار البريطانى عن أرض الوطن . . .

الفصل الثانى

طلائع الثورة

ان النجاح الأكبر الذى تستطيع ثورة ٢٣ يوليو أن تحققه ، يتأكد ويبقى فى حيـــاة الشعب المصرى ، كما نادى به « عبدالناصر » عندما تذوب الطـــلائع الثورية التى تحملت بمسئوليتها يوم ٢٣ يوليو فى حياة الجماهير المدنية ، وارادتها العليا ، فتتقدم أجيـال اخرى ، تقود وتصنع التحول العظيم ٠

انور السادات

٢٣ يوليو ١٩٧١

كانت مفاجأة ...

لقد ظل الانجليز يحرصون على ابعادهم عن العسكرية المصرية ، ثم عادوا وسمحوا لهم بالالتحاق بالمدرســـة الحربية ... ما السر وراء ذلك .. ؟

كانت بريطانيا تخطط استراتيجيا فى البلاد التى تستعمرها ، وبفتحها باب المدرسة الحربية أمام ابنائنا ستحصل على جيش مصرى شاب يدافع عن مصالحها الاستعمارية فى شمال افريقيا ... ولكن شبابنا الذى رضع ثورة عام ١٩١٩ ، وتخرج بعد ذلك ضباطا فى الكليه الحربية ، كان يخطط هو أيضا ويرسم فى خياله كيف يمكن عن طريق هذا الجيش ان ينتزع من الانجليز مطالب مصر الوطنية ...

لقد تخرجت فى الكلية الحربية طلائع ثورية شابة ، هى التى أنهت وجود الاحتلال الانجليزى لبلادنا ، بل هى التى لوت عنق وذيل الاسد البريطانى فى المنطقة العربية ، ثم استدارت تصنع التاريخ الحديث لمصر الثورة وتذوب فى كيان الشعب المصرى ، ذلك البطل الذى انتفضت من عزمه أشرف الثورات واقدرها سمودا ذات صباح خالد من يوليو عام ١٩٥٢ ، وكان بين جنودها المقدم أركان حرب محمد أنور السادات ، قصة حية خصبة ، آمنت بالعسكرية المصرية ، فاقترن وجوده باضافات متميزة ، وأصداء ايجابية .. كشف عنها الستار لاول مرة ، منذ عام ١٩٥١ ، قصة مليئة بالايمان والنضال واليقين والمعارك المتصلة ...

وفى هذا الفصل ، يتحدث زملاء الدفعة التى تخرجت فى الكلية الحربية فى فبراير عام ١٩٣٨ ـ دفعة الرئيس السادات ـ عن السنوات التى قضوها بالكلية يدرسون « العسكرية » تحت اشراف القادة الانجليز ، ومحاولاتهم العديدة للانسلاخ من الجلد الانجليزى ، وبقاء مكوناتهم الثورية فى أرواحهم نقية سليمة ، قادرة على العطاء والبذل من أجل مصر وخلاصها ...

كان لقاء بلا موعد ، أعده القدر ليجمع بينهم ، ولكنه بدا بعد ذلك وكأنهم اتفقوا مسبقا عليه ، حتى حين اضطر أحدهم الى التخلف مرغما لم يقبل ابعاده كواقع لا فرار من التسليم به ، بل ناضل فى ثبات واصرار ، ليعود من جديد ، وينضم الى رفاق الطابور ، الذين لم يكن قد تبينهم أو تبينوه جيدا ، يوم أعادوا اليه أوراقه ، وأخرجوه من صفوف زملائه ، لانه ظهر من قبل سافرا فى احدى المظاهرات الوطنية ! .. ذلك ، هو القائد الراحل جمال عبد الناصر ...

كانت مصر فى منتصف الثلاثينات تمر بمرحلة دقيقة بالغة الحساسية عبر تاريخ نضالها الطويل والجماهير مشحونة انفعالا وطنيا متأججا بمطالب الاستقلال ، تطرح بنوازعها الوطنية ، وبوحى من ضميرها ، صياغات ولدتها « ثورة عام ١٩١٩ » الخالدة ، وما خاضته من معارك ، ثم ما أثمرته فى أرواح شعبها من صلابة ونضج وتجربة واعية ...

فى هذه الفترة ، جاءت مجموعات شابة من أبناء الشعب الثائر تسعى الى الالتحاق بالمدرسة الحربية « الكلية الحربية فيما بعد » جاءت من كل ناحية وصوب ، من الكفور فى أعماق الريف المصرى ،

بالصعيد واندلتا ، أو من قلب المـــدن الكبيرة الزاخرة بالمشاعر الوطنية ، مجموعات شــابة مفطورة على قوة نفاذة محركة ، ولــكنها مقيدة محبوسة داخل كوامنهم ، وبالرغم من قيــدها ظلت مرشــدهم ودليــلهم ، كانت ملامحهم ولهجاتهم مختلفة تنبىء عن مواطنهم ، ولــكن ما يدور فى رؤوسهم كان فكرا متقاربا ، تماما كأعمارهم ، ولذلك تعارفوا وتآلفوا سريعا ، كأن رباطا وثيقــا هو الذى يجمعهم ، ويوحد كلمتهم ويشــدهم بعضا الى بعض ...

من بين هؤلاء الشـــــباب الذى قدر له الالتحاق بالمدرسة الحربية ما بين أعوام «١٩٣٥ ، حتى ١٩٣٨» خرج القائد الراحل جمال عبد الناصر ليقود ثورة ٢٣ يوليو ، ويحرر البلاد من الاحتلال الانجليزى ، ويصبح اول رئيس مصرى لاول جمهــورية مصرية ، ويؤسس مصر الثورة ... كما خرج ايضا معه رفيق الســلاح والعمر ، الرئيس أنور السادات ، احد العلامات البارزة على طريق النضال الوطنى ، اللذى خاضه شباب مصر ، فاعطوها دائما أشرف التضحيات ، ومن بينهم أيضــا حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية ...

رحلة عمر مثيرة حافلة بالاحــداث والتجارب قطعها هؤلاء الشـباب ، منذ تخرجوا بالـكلية الحربية فى نهاية الثلاثينـــات ، وقضـــوا فتــرة طويلة ضبــاطا بالقوات المســلحة ، قبــل ان يخرجوا الى الخــدمة العــامة ، ويشتركوا .. كل منهم بقدره فى صنع المجتمع الثورى الجديد ..

ولقد واجه بعضهم الموت وجها لوجه ، وقدر له أن يبقى وينتصر ، بينما مضى البعض الى رحاب الله عند بداية أو منتصف الطريق ، استشهادا فى الميدان او فوق فراش المرض ، بل ان أحدهم تخرج وبعد تخرجه بساعات توفى فى حادث بالطريق ، وخريج آخر توفى قبل تخرجه بيوم واحد وهو يقوم بتدريب خاص فى طائرة مقاتلة ، ومنهم السيد حافظ اسماعيل مستشار السيد الرئيس لشئون الامن القومى ، واللواء احمد اسماعيل مدير المخابرات العامة ، والفريق اول محمد احمد صادق وزير الحربية ونائب رئيس الوزراء وقد تخرج عام ١٩٣٩ .

ومن بينهم ، من تولى مناصب قيادية عسكرية ، كالبطل الشهيد الفريق اول عبد المنعم رياض ، ثم الفريق على عبد الكريم مساعد وزير الحربية الآن ، واللواء احمد فتحى عبد الغنى قائد الدفاع الشعبى والعسكرى ، واللواء احمد زكى عبد اللطيف مدير الكلية الحربية ، واللواء محمد عوض الاحول مدير ادارة القضاء العسكرى ، بينما ترك البعض منصبه القيادي العسكرى الى منصب المحافظ ، فتولى الفريق محمود ماهر الرمالى قائد المدفعية ، ثم مدير اكاديمية ناصر العسكرية العليا ، محافظة سوهاج ، والفريق صلاح محسن مساعد وزير الحربية سابقا محافظة المنيا ، واللواء سليمان مظهر قائد المشاة سابقا محافظة البحر الاحمر ، واللواء عبد التواب هديب مساعد رئيس الاركان سابقا محافظة بورسعيد ..

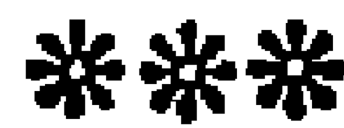
ونجد أيضا بين طلبة الكلية الحربية فى الثلاثينات صلاح جوهر وكيل وزارة الخارجية والمرحوم عصام حلمى المصرى سفيرنا السابق بالارجنتين ، والسيد امين حلمى الثانى سفيرنا بالهند ، وأمين سامى سفيرنا ببولاندا ، ومصطفى لطفى بمدريد ، وسعد متولى بتشيكوسلوفاكيا ، وفريد عبد القادر ببورما ...

وفى ميدان العمل الادارى والتنفيذى ، يراس الفريق جمال عسكر الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ، كما تولى اللواءات جعفر العبد ، ومحسن متولى ، شقيق فريق اول سعد متولى ، وجمال سلطان ، واحمد المصرى ، مناصب وكلاء الجهاز المركزى للتنظيم والادارة منذ عام ١٩٦٥ ...

ومن بين هؤلاء الشباب طلبة الكلية الحربية ما بين اعوام ١٩٣٥ و ١٩٣٨ ، نلتقى بطالبين ، أحبا الادب والقراءة .. أولهما : اللواء مدرعات يوسف السباعى ، رئيس مجلس ادارة دار الهلال الآن ، وقد اعطى الادب اجمل سنوات العمر ، فاصدر عشرات الكتب والروايات الطويلة ، كما كتب اليوميات والمقالات فى الصحف والمجلات ، واستطاع خلال الخمسينات والستينات ، أن يقيم العلاقات الثقافية الحية بين أدباء آسيا وافريقيا ، الى جانب تدعيم التعاون السياسى بين ساسة وادباء وكتاب القارتين ، ولذلك انتخب سكرتيرا عاما لمؤتمر التضامن الآسيوى الافريقى ...

وقد استطاع يوسف السباعى ، بدافع من ثروته

الادبية وعشقه للكلمة المكتوبة أن ينشىء فى بداية الثورة المجلس الاعلى للآداب والفنون ، وكان انشاء هذا المجلس نقطة مضيئة فى طريق من آمنوا بالكلمة واقتدارها ، أولئكم الذين وصفهم أحد الثوار القدامى « بمهندسى الحياة » ...



والرجل الثانى هو اللواء جمال حماد ، الذى شغله عمله العسكرى والتنفيذى عن اخراج كل انتاجه الادبى الى القارىء العربى ، ومن اشهر رواياته « شروق وغروب » التى قدمتها السينما المصرية منذ سنوات .

ونجد بين هؤلاء الشباب اثنين تركا العمل العسكرى الى السينما المصرية ، الاول هو المرحوم عز الدين ذو الفقار ، الذى تفرغ للاخراج السينمائى قبل قيام الثورة ، وقد ترك عمله كضابط وهو برتبة نقيب ، ثم الفنان احمد مظهر الممثل السينمائى الذى اعتزل العسكرية وهو برتبة عقيد ، ليصبح واحدا من اشهر نجوم الشاشة المصرية ...

مناخ ماقبل ٣٥

بعد هذا التقديم للكثير من ضباط أهم السنين التى عاشتها الكلية الحربية عبر تاريخها العسكرى ، السنين الفياضة بالوطنية والفداء ، والافكار الثورية ، والانتفاضات الجماهيرية المستمرة ... أو كما يصفها احدهم « بالفترة الزمنية التاريخية التى اجتازتها البلاد وكانت بمثابة الاب الشرعى لظهور الافكار التحررية على نطاق بسيط بين الجماهير اخذت تنمو بعد ذلك حتى شملت شباب جيلنا ، فخرجت منه هذه المجموعات الفتية التى تقدمت الى المدرسة الحربية لا تملك من الدنيا واسطة أو ارضا زراعية ، وليس لديها غير شبابها وشرفها وعلمها وثروتها الوطنية ... »

كيف كان المناخ السياسى تلك الايام ؟ .. ماذا نعل الانجليز ؟ .. وكيف كانت تبدو خططهم ؟ .. ورجالنا بالامس ، خضر العود ، فى العشرينات أو أقل من العمر ! ؟ ..

الزمان : أكتوبر عام ١٩٣٥ ...

فى ذلك الشهر ، التحقت بالمدرسة الحربية ـ الكلية الحربية بعد أعوام ـ اكبر دفعة من الشباب المصرى ، بلغ عددها ٤٠ طالبا ، وقبل أكتوبر عام ١٩٣٥ ، والكلام هنا « للسيد حافظ اسماعيل » مستشار رئيس

الجمهورية ، احد ضباط هذه الدفعة ، لم تكن المدرسة تقبل أكثر من ١٥ طالبا فى أكثر الحالات ...

ومضى عام ، وفى ٦ أكتوبر عام ١٩٣٦ ، بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ المشهورة ، أعلنت المدرسة الحربية عن قبول دفعة جديدة ، تقدم اليها الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ، والرئيس أنور السادات ، والشهيد البطل الفريق عبد المنعم رياض ، والسيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية ، وعدد كبير من الطلبة ، كان لهم بعد ذلك ، أشجع الادوار واخطرها فى تاريخ مصر ...

وقبلت المدرسة أوراق ٤٤ طالبا ، وكان من بين الاسماء التى اعيد اوراقها الى اصحابها الطالب جمال عبد الناصر حسين، بعد أن اكتشف المسئولون الانجليز ، واعوانهم من المصريين ان هذا الطالب قد نشرت الصحف اليومية صورته مصابا ، اثناء تظاهره ضد الاستعمار البريطانى ...

وذهب عبد الناصر الى كلية الحقوق ، ولكنه استطاع بعناده واصراره ، أن يعود الى المدرسة الحربية ، ويلتحق بها فى ١٧ مارس عام ١٩٣٧ ...

لقد انضم هؤلاء الفتيان الى المدرسة الحربية ، وهم يمثلون بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، أو قبلها بعام ، كما ذكرت ، جيل الشباب الثورى الذى عاش فى الدرجة الاولى لواجب كان من اقدس واجبات عمره ، وهو اجلاء المحتل البريطانى عن البلاد ...

حسين الشافعى

اترك الحديث هنا للسيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية ، ليعود بالذكريات الى ٤٥ عاما مضت :

« من الاوفق أن نعود الى ما قبل ذلك ، الى عام ١٩٢٧ ، ومفاوضات تدور بين ثروت باشا رئيس الوزراء ، ومستر تشمبرلن وزير خارجية بريطانيا ، حول مشروع معاهدة ، وكان من بين بنودها التى عرفها الشعب أن يسمح ملك مصر لملك بريطانيا ضمانا لحماية خطوط المواصلات الامبراطورية البريطانية ، بأن تكون له القوات اللازمة لذلك الفرض ، مع العلم بأن وجود هذه القوات ليس معناه احتلالا ولا يمس حقوق سيادة مصر ! هكذا يقول البند ...

« وبعد عشر سنوات ينظر الطرفان المتعاقدان فى ضوء تجاربهما ، مسألة المناطق التى تعمل فيها هذه القوات ...

« ولقد فشل هذا المشروع بفضل وعى الشعب المصرى ، كما فشلت كل مشاريع وخطط الاستعمار بعد ذلك ، الذى عاد يحاول فى مفاوضات « محمد محمود ـ هندرسون » عام ١٩٢٩ ، لاقناع الشعب بأن بقاء قواته فى بلاده انما هو لحماية قناة السويس ،

ولذلك نص فى مشروع هـذه المعاهدة ، على انه ضمانا لحماية قناة السويس كوسيلة اساسية للمواصلات بين أجزاء الامبراطورية الانجليزية بسمح ملك مصر للملك انجلترا بان يضع فى الاراضى المصرية وفى جهات اتفق عليها الى شرقى خط ٣٢ شرقا القوات التى يراها ملك بريطانيا لازمة لهذا الغرض ...

« وجاء عام ١٩٣٠ ، والوزارات تتكون وتسقط ، وكل وزارة تحمل اسما ، كوزارة الحكم الصالح ، او وزارة المائة يوم ؛ وبعد خمسة اعوام كانت الظروف الدولية تنذر بتغيرات كبيرة ليست فى صالح انجلترا ..

« ظهرت فى ايطاليا قوة عسكرية جديدة تهدد وتطالب ؛ ورائحة الحرب فى المانيا النازية تزكم الانوف وفى آسيا ثورات تطالب بالاستقلال ، وفى اليابان قوة عسكرية جديدة تميل بثقلها الى جانب اعداء انجلترا ، وفى افريقيا ما ينذر بالانفجار حيث اصبح موقف ايطاليا الفاشية بالنسبة للحبشة لا يسمح بالصمت ، وفى مصر غليان وطنى جعل بريطانيا تدرك ان قوات احتلالها لن تستطيع شيئا اذا ما اشتعلت شرارة الثورة المصرية مرة اخرى ... ولذلك سمح الاستعمار باعادة « دستور ١٩٢٣ » كترضية للشعب ، وبعودة حكومة الوفد ، وبفتح باب المفاوضات من جديد ، وكمحاولة استعمارية لامتصاص غضب الجماهير المصرية ، أعلن عن قبول دفعة جديدة من الشباب المصرى بالمدرسة الحربية لتدعيم القوات المصرية ...

« ورغم ما كان يخفيه الاستعمار من اغراض ، الا

أن هذا العمل فى حـــد ذاته خاطب عواطف المصريين ووطنيتهم فتقدم اليها مئات من ابناء الشعب ، يحلمون جميعا بالذود عن حرية بلدهم ، وقبلت المدرسة لاول مرة عددا كبيرا منهم فى أكتوبر عام ١٩٣٥ ، ثم وقع الجانب المصرى مع انجلترا فى ٢٦ أغسطس عام ١٩٣٦ . المعاهدة المعروفة بذلك العام ، وانقسم الرأى العام بين مؤيد لها ومعارض ، وبين من يراها مكسبا مرحليا ، ومن يراها قيـــدا اســتعماريا جـديدا ، وبات الموقف مشحونا بالغضب الوطنى ، يهدد بريطانيا من جديد ..

« فى تلك الايام أعلنت المدرســة الحربية عن قبول دفعة جديدة من الطلبة المصريين وتركت المنصورة كما ترك كثير من الشـــباب بلادهم الصغيرة ، وجاءوا الى القاهرة ، وفى رأس كل منا عشرات الافكار والاحلام ، والتحقنا بالمدرسة فى ٦ أكتوبر عام ١٩٣٦ ، وتخرجت دفعتنا فى فبراير عام ١٩٣٨ ، وفيما بين هذين العامين، التقى الـكثير من الزملاء الذين يحملون نفس المشـــاعر والمفاهيم الوطنية وتبلورت آمال كثيرة ، ومن خـــلال التآلف والزمالة ، خرجت صداقات قوية بين الطلبة ، قائمة على حب مصر والتضحية من أجلها بأغلى ما نملكه ... ويكفى أن أقول انه كان بيننـــا « المعلم » الذى وهب حياته وفكره وجهــده منــذ كان طالبا بالمرحلة الثانوية ، للعمل الوطنى ، حتى أنتقل الى رحاب الله فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ ...

« على أية حـــال يمكننـــا ان نقول الآن ، اذا كان الاستعمار قد استهدف من فتح باب المدرسة الحربية

أمام أبناء الشعب ، الحصول على قوات مصرية شابة يستغلها فى أغراضه العسكرية ، او امتصاص غضب الجماهير الثائرة بهذا الاجراء الوقتى ، فقد عرف الشباب المصرى كيف يعمل على تحويل هذه الفرصة الى كسب وطنى ، يضيفه الى بناء بلده وهو يناضل من أجل طرد الاحتلال الرابض فوق صدره ، ذلك العمل الجليل الذى قاده الزعيم الراحل بعد ذلك ومن خلفه مجلس قيادة الثورة ، وقاعدته العريضة الشعبية التى أعطته من القوة والتأييد ما أخضع الاستعمار البريطانى ليرحل عن البلاد ويكون أول من يدخل أو يقتحم القواعد البريطانية فى القناة ، لينظم ترتيبات تسليمها الى القوات المصرية ، واحدا من شباب الوطن الذين التحقوا بالمدرسة الحربية فى أكتوبر عام ١٩٣٦ ، ولم يتوقف نضاله بعد ذلك ، ولم تضعف ارادته الثورية أمام التنكيل والارهاب الذى تعرض له بعد تخرجه فى الكلية الحربية ، وهو يعيش لهدف واحد « الحرية للوطن » حتى دخل قواعد الاستعمار البريطانى بالقناة ، منتصرا فى يوليو عام ١٩٥٤ ، موفدا من مجلس قيادة الثورة ، ذلكم هو الرئيس القائد أنور السادات » .

حافظ اسماعيل

وفى لقاء مع السيد حافظ اسماعيل مستشار رئيس الجمهورية لشئون الامن القومى ، تحدث حول الاوضاع السياسية ــ العسكرية السائدة عام ١٩٣٥ :

« اقترن ذلك العام بأزمة الحبشة وايطاليا ؛ وكانت الازمة تهدد الاستراتيجية الانجليزية كما اقترن بالحرب الاهلية فى اسبانيا ، وبتهديدات النازية فى المانيا ، ربما كانت انجلترا تتوقع مواجهة أزمة دولية نتيجة هذه الاعتبارات مجتمعة ، وربما جعلها هذا التوقع تتصور دورا للجيش المصرى وقد تدعم بضباط من الشباب ، يخدم مصالحها فى اى أزمة مقبلة بعد ذلك فجعلها تفتح باب القبول بالمدرسة الحربية فى نهاية عام ١٩٣٥ ، ثم فى أكتوبر عام ١٩٣٦ ، ثم فى يناير ، فمارس عام ١٩٣٧ ...

«لم تكن المدرسة الحربية نقطة اجتذاب للارستقراطية المصرية ، ربما دخلها واحد ، أو اثنان من الاسرة المالكة ، بينما كان الاقبال عليها من الطبقات المتوسطة والشعبية ...

***

وفى يوليو عام ١٩٣٧ ، اختارت لندن أربعة من الطلبة المتفوقين بالمدرسة لبعثة مدفعية فى انجلترا

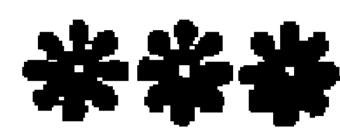
من بينهم السيد حافظ اسماعيل ، والسيد نور الدين قرة ، وزير التموين السابق ، حيث قضوا هناك عامين ثم عاد حافظ اسماعيل ليخدم برتبة ملازم ثان فى مرسى مطروح ... « فى تلك الايام حاول الانجليز استغلال القصر الملكى فى سحب الاسلحة من ضباط الجيش المصري ... وكان لهذا الاجراء أثر سيىء على نفوسنا ، وأذكر اننا بقيادة السيد أحمد حسن الفقى سفيرنا السابق فى لندن رفضنا التسليم فأعادونا الى القاهرة ، وما لبثت أن عدت الى الصحراء الغربية ضمن وحدة خفيفة الحركة من السوارى والمدفعية لحماية خطوط المواصلات الانجليزية حتى السلوم ... وكانت القوات البريطانية قد زحفت حتى سيدى برانى ... »

انتقل الضابط حافظ اسماعيل بعد ذلك الى سيوه ، فالواحات البحرية ثم وادي حلفا عام ١٩٤١ لحماية ما يطلق عليه عسكريا « رأس السكة الحديد » ...

« بعد ذلك التحقت بكلية أركان حرب عام ١٩٤٥ ، وفي بداية عام ١٩٤٨ ، سافرت لدراسة أركان حرب فى انجلترا ، فقامت الجولة الاولى فى فلسطين ، وطلبت السماح لى بالعودة فرفض طلبى ، ولكنى عدت فى ديسمبر عام ١٩٤٨ ، الى القاهرة ، وعملت مدرسا بكلية أركان حرب ، ثم حدث أن كان العدو الاسرائيلى يعد هجوما كبيرا على منطقة النقب ، فأغلقنا الكلية ، وذهبنا جميعا الى العريش لتنظيم الدفاع عن المدينة حين حاول العدو احتلالها ، وقضينا على هجوم اسرائيل فى جنوب العريش ، ثم انتقلنا للعمليات فى

رفح ، وانتهت بفشل متكرر للهجمات الاسرائيلية من أجل الاستيلاء على المدينة ...

« عدت بعد ذلك الى كلية أركان حرب حتى نهاية عام ١٩٥١ ، حيث كان الزعيم الراحل يعمل مدرسا بالكلية ، ثم عينت مساعد ملحق عسكرى فى واشنطن، وظللت هناك حتى ابريل عام ١٩٥٣ ، ومنذ ذلك التاريخ وأنا أعمل بمكتب القائد العام للقوات المسلحة ، حتى سبتمبر عام ١٩٦٠ » .



كان اللواء حافظ اسماعيل قد اصطدم بالفساد الذى زحف بطيئا الى القيادة العامة فى ذلك الوقت ، فعملت بعض العناصر على ابعاده ، ولكن الزعيم الراحل اختار له منصب وكيل وزارة الخارجية المصرية الذى ظل به حتى يونيو عام ١٩٦٤ ؛ ثم عمل سفيرا لمصر فى لندن فايطاليا وفرنسا ، وفى مارس عام ١٩٧٠ ، اختاره القائد الخالد مديرا للمخابرات العامة ، وظل بها حتى نوفمبر عام ١٩٧٠ ، ليعمل بعد ذلك وزيرا برئاسة الوزارة ، ثم وزيرا للدولة للشئون الخارجية ، ثم مستشارا لرئيس الجمهورية لشئون الامن القومى .

جمال عسكر

اللقاء الثالث كان مع الفريق جمال عسكر رئيس الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء ، وأحد ضباط الدفعة التى التحقت بالمدرسة الحربية عام ١٩٣٦

« كان عمرى وقتها ١٦ عاما ونصف عام ، ولكن وعينا السياسي أيامها كان أكبر من أعمارنا ولذلك كنا نعيش مع الآباء أحلامهم الوطنية الكبيرة ، ومنها على سبيل المثال أن يصبح لمصر جيش وطنى مصرى قوى ، ولما فتحوا أمامنا باب القبول بالمدرسة الحربية تقدمنا وكان عددنا أكثر من مائة شاب فقبلوا ٤٤ طالبا فقط .

« فترة تحول ، يمكن أن نسميها فترة تطور نسبى ، من الاحتلال السافر الرسمى ، الى الاستقلال الاسمى، الذى يعطى للدولة بعض السلطات السيادية ، وان كان بعضها مظهريا للغاية ... مثلا عدلوا الاسم من المدرسة الحربية الى الكلية الحربية ، ثم عادوا مرة أخرى وجعلوه المدرسة الحربية !.. وكنا نحن الطلبة ندرك هذا الموقف سياسيا وما يمكن أن يسمح به الاستعمار البريطانى من أجلنا وما يتحتم عليه أن يحرمنا منه ، من علوم ومعارف وامكانيات عسكرية ، فبذلنا كل الجهد من أجل التحصيل والدراسة ..

« وقبل ان نسترسل ، أحب ان اذكر اسم الشهيد

البطل محمد وجيه خليل ، أول شهداء دفعتنا فى حرب عام ١٩٤٨ ، بالتحية لذكراه ...

« وخلال الدراسة ، اكتشفنا ان معاهدة عام ١٩٣٦ لم تكن غير ستار يخفى أغراض الاستعمار وسيطرته ، فسيطرت علينا فكرة تكوين جيش مصرى بدم جديد ، وقيادة جديدة لم تتلوث بخدمة الانجليز واحتلالهم لبلادنا ..

« كلمة حق يجب أن تقال ... اذا كان هناك مصدر لانتشار الوعى السياسى بين دفعتنا ، أو بين دفعة مارس عام ١٩٣٧ ، فلم يكن ذلك غير القائد الراحل جمال عبد الناصر ، وزميله الرئيس أنور السادات ، كنا نشعر بأن ادراكهما السياسى لامور كثيرة أكبر من أجتهاداتنا ، ولذلك تعودنا الاستماع اليهما كأشقاء كبار وليس كزملاء دفعة ، فأحاديثهما دائما جادة ترفع من معنوياتنا ، وتنشر فينا الاحساس المبكر بالرجولة ، كما كان سلوكهما مثار تقديرنا ، وكل منهما كان حريصا على تأدية فرائض الصلاة حرصه على حياته ، مما جعل القادة والمعلمين ، يعاملونهما بتقدير خاص طوال فترة الدراسة ...

« وكنت كزميل دفعة للرئيس السادات ، أرى كراهيته للاستعمار واضحة فى سلوكه ، وتصرفاته دائما ، نابعة من مشاعره الوطنية ، فنعمل على تأييده ايمانا منا بما تحمله هذه الشخصية ، من رقى وارتفاع فوق الصغائر والتفاهات ...

« كان يعتنى دائما بمظهره ، ويطلب منا تقليده ، وكثيرا ما سمعته يقول :

ـ المظهر النظيف يعطيك احساسا بالقوة والنشاط، ويمكن أن تكون فقيرا جـدا ، ونظيفا جـدا فى الوقت نفسه ...

« وتخرجنا ، وعملت فى سلاح الفرسـان ، وعمل الرئيس السادات بسلاح المشاة ، ثم نقل بعـد فترة قصيرة الى سلاح الاشارة ، وعاصرت دفعتنا فترة تحول جيشنا ، من العـدم تقريبا ، الى جيش يملك معـدات قليلة ! ..

« عام ١٩٤١ ، كنت قائدا لـكتيبة سيارات تابعـة لسلاح الحدود ، فالتقيت مرة أخرى بالرئيس السادات وكان يعمل باشـارة سلاح الحدود ، وكنا نركب عادة سيارة واحدة فى طريقنا الى الجبل الاصفر ، فأجـده شديد المتابعة لاخبار الحرب العالمية الثانية وتفاصيل القتال ، وكان يخرج من الحديث عن هذه الحرب الى امكانيـات تحرير الوطن من الاسـتعمار البريطـانى ، وكيفية تحقيق هذه الامكانيات ، وكان « أنور السادات» كضابط اشارة يعمل مع جميع وحدات الجيش ، لذلك عرفناه باستعداده ووعيه السياسى ، ثم باتجـاهاته الثورية التى كانت تفوق مقـدرة الشـباب فى عمره ، وكثيرا ما كان يضع خطوطا تحتعبارات تنشرها الصحف المصرية ، ثم يناقشنا فى مضمونها ، وما تحمله من معان مختفية بين السطور ، ومدلولات هذه المعانى بالنسبة للوطن ومستقبل الايام ...

« ولقد مارس الرئيس أنور السادات العمل الايجـابى من أجل مصر خلال الحرب العالمية الثانية وتعرض لمطاردة

الاستعمار وتنكيل الملك وحكامه ، وكان يرسل اثناء اختبائه بمن يسأل عنا وعن اخبار الضباط والجنود الذين زاملوه ، وارتبطوا به ، وكم تأكد لنا جميعا مدى صلابته وايمانه بالعمل الثورى طوال مدة المطاردة التى عاناها ، حتى عاد الى الجيش من جديد ، وبدأ يعمل كأحد ضباط الهيئة التأسيسية للثورة تحت قيادة القائد الراحل جمال عبد الناصر ، وحين اذاع بيان ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، لم يكن ذلك مفاجأة لنا ، بل كانت المفاجأة تصبح كبيرة ومثيرة ، اذا لم يكن انور السادات احد الذين قاموا بالثورة ...

« لقد عاش عمره منذ صباه يحمل راسه فوق كفه ، ولا يبخل بحياته من اجل الوطن لانه وهب هذه الحياة منذ زمن بعيد من اجل مصر ، وخلاصها ، وحريتها » ....

على عبد الكريم

اللقاء الرابع كان مع الفريق على عبد الكريم زميل الدفعة ، ومساعد وزير الحربية الآن .. لقد سرح بالذاكرة الى عام ١٩٣٦ :

ايامها كانت المدرسة الحربية دورا واحدا فقط ، بها ١٠٢ سرير ، وكان جنرال سبنكس يشغل منصب سردار الجيش المصرى ، مثل رئيس الاركان الآن — وكثيرا ما زار المدرسة الحربية ، ليقف على ادق التفاصيل والمعلومات الخاصة بالطلبة ، وكان كبير المعلمين فى البداية ضابطا اسمه ثوريون برتبة أميرالاى ، الى جانب عدد ليس بالقليل من المدرسين العسكريين الانجليز ، عادوا الى قيادتهم بعد توقيع معاهدة عام ١٩٣٦ ، وبقى معنا مدرس واحد اسمه « ماكنزى » ..

وبعد خمسة أشهر من دخولنا ، جاءت دفعة القائد الخالد جمال عبد الناصر ، وانضمت الينا ...

تخرجنا ... والتحقت باحدى كتائب المشاة بالاسكندرية ، وكان بالكتيبة مشاة المجاورة ، الرئيس أنور السادات ، ثم نقل السيد الرئيس السادات الى سلاح الاشارة ، وانتقلت الى أسوان ، ثم عملت بسلاح الحدود ثلاثة اعوام ، جبت خلالها الصحراء المصرية ، وكان هذا العمل ميدانا جديدا بالنسبة لى ، اعطانى

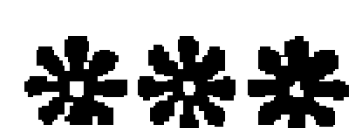
الخبرة ، والوقت الكافى للقراءة والاطلاع المستمر ، والقدرة على تحمل الخدمة فى الصحراء خلال تلك الفترة عديمة الامكانيات ، وكانت نوعا من العذاب أشبه بالجحيم.

معظم خدمتي بعد ذلك كانت مع القوات المتحالفة ، ثم تولينا حماية القناة حين كان الالمان يلقون بالالغام من الجو ، وبعدها عملت مدرسا بالكلية الحربية ، وتقدمت مع القائد الخالد الى كلية أركان حرب ، وكان معنا المرحوم صلاح سالم ، والمرحوم اللواء امين الشريف والفريق اول متقاعد محمد عبد المحسن مرتجى ، واللواء محسن آدريس .

بعد تخرجنا ، ذهبت الدفعة باكملها الى حرب فلسطين ، واختارنى اللواء موسى باشا لطفى مدير العمليات ، ضابطا بهيئة العمليات بالقاهرة ـ زميلا الشهيد البطل عبد المنعم رياض ، زميل الدفعة ، وعرفنا بعدها كيف استمرت حرب فلسطين ، وكيف عشناها ، لم تكن بالحرب فى تقديرات المعايير العسكرية ، ولكنها كانت فترة متناقضات ، بقدر ما كان فيها من بطولات وتضحية ، راينا القيادات تعمل ولا صلة لها اطلاقا بالقيادات العسكرية أو المدنية ... كانت الرئاسات فى الجيش المصرى تختلف كل الاختلاف عقلا وفكرا ومناخا عن ضباط الجيش وجنوده ، ولذلك شد «عبد الناصر» اليه جميع الضباط الشرفاء ..

بعد توقيع الهدنة مع اسرائيل ، اندفع العدو الى احتلال منطقة « أم رشرش » ايلات الآن ، وقد ضرب

باتفاقية الهدنة عرض الحائط ، فقمت على رأس قوة مصرية باحتلال « جزيرة ثيران » بناء على تقرير تقدمت به ... واستمر الوجود المصرى هناك ، حتى دخلنا فى عمليات دفاعية عن مدخل الخليج ابتداء من شرم الشيخ حتى ثيران ، وكانت الدفاعات المصرية قوية مقتدرة . . ولكن تعليمات القيادة العليا جاءت بالانسحاب ! . .



ــ عدت مدرسا بكلية أركان حرب ، وزميلا فى هيئة التدريس للقائد الخالد ، ثم اختارونى لبعثة بكلية الاركان الانجليزية عام ١٩٥١ ، وعدت الى الوطن بعد حريق القاهرة بأيام قليلة ، فوجدت الجيش والشعب فى ثورة مكبوتة تستعد للانطلاق ، وكنت أعمل الى جانب القائد الراحل فى اعطاء الدروس الخصوصية لطلبة الكلية من الضباط ، ومعنا المهندس محمود يونس ، برتبة عقيد ، والرائد كمال الدين حسين ، ومن بين هؤلاء الطلبة ، قام عدد كبير منهم بالثورة ليلة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ...

ــ وفى فجر ٢٣ يوليو ، كلفنا الزعيم الخالد بالواجبات ، عهد الى محمود يونس بالشئون الادارية فى الجيش ، وعهد الى بمهمة عسكرية بالعمليات ، وكان الرئيس انور السادات هو المسئول عن الشبكات اللاسلكية فى البلاد ، وقطع الاتصال اللاسلكى بين القصور الملكية والقيادات العسكرية الملكية وتأمين اتصالات الثورة لاسلكيا منذ ليلة الثورة ...

محسن متولى

بين ضباط دفعة أعوام ١٩٣٦ ـ ١٦٣٨ ، بالمدرسة الحربية ، كان الطالبان الشقيقان محسن وسعد متولى، اللواء محسن متولى ، والفريق اول سعد متولى بعد ذلك ، وقد التحقا بالمدرسة لانهما أبناء ضابط مصرى ، وقد تولى والدهما اللواء محمد متولى باشا ، ادارة الكلية الحربية فى الاربعينات ، ولم يكن مسموحا من قبل بدخول الاشقاء معا الى المدرسة الحربية ، بناء على تعليمات القيادة الاستعمارية فى الشرق الاوسط .

وكان اللقاء الخامس باللواء محسن متولى ، احد وكلاء الجهاز المركزى للتنظيم والادارة الآن :

« قبل الحديث عن الدفعة وما تميزت به ، لابد من الاشارة الى الشعور الوطنى السائد وقتها ، عام ١٩٣٥ قام تجمع وطنى للأحزاب السياسية فى مصر ، لتكوين جبهة وطنية متحدة ، تستطيع أن تقف أمام مناورات الانجليز ، وتسد أمامهم طريق التحايل ، الذى خبرناه طويلا ، وكان للشباب المصرى وللطلبة بالتحديد ، طلبة المرحلة الثانوية دور رئيسي وهام فى الدعوة لهذا التجمع ، وقيام الجبهة الواحدة من بين اعضاء احزاب الوفد ، والشعب ، والاتحاد ، والاحرار الدستوريين..

وجاءت معاهدة عام ١٩٣٦ ، وكان الوفد يعتبرها

استقلالا مشرفا ، والبعض يراها خطوة فى سبيل الاستقلال ، وكثيرون يعارضونها ويرون فيها قيدا استعماريا مقنعا .. ونتيجة ضغط هذه الظروف الوطنية ، فتح الانجليز أبواب المدرسة الحربية ، وعرفنا بعد ذلك ان لندن كانت تخطط لبناء جيش مصرى جديد ، تستخدمه فى الدفاع عن مصالحها العسكرية بعد ذلك ، وخاصة أن معاهدة عام ١٩٣٦ ، نصت على اشتراك المصريين فى الحرب اذا تعرضت الاراضي المصرية حتى ولو كان فوقها جنود انجليز ـ للهجوم وهذا الجزء لم يذكر صراحة فى المعاهدة المعلنة ، ولكنه كان اتفاقا سريا ، تم بين القيادة الانجليزية والسراى الملكية واعوانها من رؤساء الاحزاب السياسية

وفى الكلية الحربية مررنا بفترة تحول دقيقة ، لقد دخلنا المدرسة والانجليز لهم السيطرة الكاملة عليها ، وتركناها وقد أصبحت القيادة مصرية مائة فى المائة ..

كانوا يسمونها المدرسة الحربية ، ثم أطلقوا عليها « اورطة الطلبة » ثم الكلية الحربية ، واذكر ان اول مدير مصرى للكلية كان الاميرالاى على اسلام باشا ..

● يقول اللواء محسن متولى :

ـ لقد كان الجيش المصرى خلف انتصارات الانجليز فى معركة العلمين ، وهى المعركة التى غيرت مجرى الحرب العالمية الثانية وجاءت بالنصر فى النهاية ضد الالمان ...

ـ فى سبتمبر عام ١٩٣٨، كنت ضابطا لنقطة ملاحظة بمرسى مطروح وكانت القوات المصرية تحتل قطاعا

بجانب القوات البريطانية ، وحضرت ذات مساء حوارا بين المرحوم الفريق عزيز المصرى ، وكان رئيسا للأركان، وجنرال ويلسون قائد القوات البريطانية فى الشرق الاوسط ...

سأل القائد المصرى الجنرال الانجليزى :

ـ ما هى الفوائد التى يمكن أن تحققها اى قوات تتمركز فى مرسى مطروح ؟ ..

● واجاب جنرال ويلسون :

ـ هذا وضع تكتيكى مناسب جدا ، لمواجهة تقدم الايطاليين اذا قدموا أو قدم غيرهم من ليبيا ..

ـ هذا خطأ كبير .. كيف لا تدركونه ؟ ..

وطلب الفريق المصرى ان احضر له خرائط المواقع ، واخذ يشرح للقائد الانجليزى :

ـ ان وجود القوات فى هذا المكان « واشار رحمه الله الى الوادى القائم جنوب مرسى مطروح » الذى يبعد عن مرمى المدفعية بمرسى مطروح باكثر من ٤ كيلومترات يجعل اى تقدم للايطاليين خلال الوادى غير معرض اطلاقا لاى تدخل من جانب وحدات مرسى مطروح ، بل ان وحدات مرسى مطروح فى النهاية ستصبح محاصرة دون أن تطلق طلقة واحدة ! ..

● وفكر الضابط الانجليزى قليلا ، ثم تساءل :

ـ وما هو اقتراحكم ؟ ..

● اشار الفريق المصرى الى الخريطة قائلا :

ـ احتلوا هنا .. فى العلمين ..

● وارسل الاقتراح المصرى الى لندن ، وعرفنا

بعد ذلك ان القيادة البريطانية انتخبت العلمين كموقع مناسب لها ...

● ولقـد عاش « الفريق المصرى » يجمع حـوله الضباط الاكفاء ، وكان يعقد لنـا اجتماعا مساء كل اربعاء ، ويتركنا نتكلم ، ثم يعلق هو ، وكان الرئيس السادات واحدا ممن لم يتخلفوا عن لقائه ، واذكر ان الفريق المصرى طالب ذات يوم بأن يكون للجيش ورش ومصانع جديدة ، وبفضل قيادته وحماسته استطعنـا انتاج عربة مصرية مدرعة ... وثارت ثائرة الانجليز ، وثار الملك ، وحورب المشروع حربا غير شريفة ، بل وصفه بعض العملاء بالانقلاب ...

ترى لو كان جيشنا قد بدأ فى تصنيع معداته واسلحته منذ عام ١٩٣٩ .. فكيف كان يبدو فى حرب عام ١٩٤٨، بل كيف كان يبدو بعد ذلك مرورا بمجزرة عام ١٩٥٥ ، فى غزة ، حتى عمليات ١٩٦٧ ..

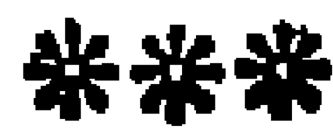
***

● عن الاعداد للثورة ، قال اللواء محسن متولى :

« كنت قائدا لاحدى وحدات المدفعيـة ، وكانت منشورات الضباط الاحرار تصل الينا بانتظام وبأساليب مختلفة ، تارة تصـل بالبريد الحربى ، وتارة بالبريد العادى ، او نجدها فوق مكاتبنا او فوق فراش نومنا فى الوحدات ، أو تحت ابواب بيوتنا ، أو داخل ملفات العرض فى القيادات ...

وكان الضباط الاحرار ، وفى مقدمتهم اعضاء مجلس قيادة الثورة ، يتابعون رد الفعل لدى الضـباط بعـد

قراءتهم لهذه المنشورات .. كان البعض يقرؤها ويحتفظ بها ليعرضها على أصدقائه ، والبعض يسرع بها الى المخابرات الملكية ، أو يقرؤها ثم يمزقها ، ولم يكن الحكم يصدر من الضباط الاحرار على زملائهم الذين يتلقون المنشورات ، الا بعد أن يصل المنشور الثالث الى يد كل ضابط ... ساعتها وبناء على معلومات متكاملة عنه ، يفاتحونه فى أمر انضمامه الى التشكيل الثورى السرى ، أو يتجاهلون اسمه نهائيا ...



ومن الطرائف الجميلة ، أن بعض زملائنا من الضباط ، كانوا ينفردون بأعضاء الهيئة التأسيسية للثورة ، ويقرأون أمامهم المنشورات ، ويحاولون اقناعهم بما تطالبهم به ، وكان من بينهم من هو حسن النية الميال بطبيعته الى الثورة على الفساد ، كما كان من بينهم المجند لهذا العمل ، من عملاء مخابرات الملك ، للايقاع بالضباط الاحرار ...

ولقد ظل اللواء محسن متولى يتدرج فى مناصب المدفعية ، حتى سافر فى بعثة الى «كلية فرونز» بالاتحاد السوفييتى ، ثم تولى رئاسة أركان سلاح المدفعية ، ثم مديرا لسلاح الحدود حتى عام ١٩٦٥ ، نقل بعدها الى منصبه الادارى الحالى .

الرمالى وصلاح محسن

بين المحافظين الجدد ... ، التقيت بالسيد محمود ماهر الرمالى محافظ سوهاج ، وبالسيد صلاح محسن محافظ المنيا ، والاثنان زميلا دفعة ، تخرجا عام ١٩٣٨ .

ولقد رأس الفريق محمود ماهر الرمالى احدى المحاكم العسكرية التى حاكمت المسئولين عسكريا عن الهزيمة فى سيناء عام ١٩٦٧ ، وكان وقتها مديرا لسلاح المدفعية ، ثم تولى ادارة أكاديمية ناصر العليا عام ١٩٦٨ ، وظل بها حتى اختير للعمل بالحكم المحلى.

يقول الفريق الرمالى :

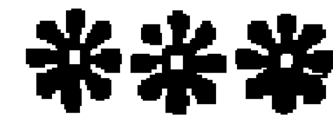
« لم يكن عدد الطلبة الذين التحقوا بالمدرسة الحربية يزيد على مائة طالب ، هكذا كانت التعليمات الانجليزية لا طالب زيادة عن المائة ، وقد قبلوا هذا العدد البسيط خلال ثلاثة اعوام لا خلال دفعة واحدة ! ..

وبعد توقيع معاهدة عام ١٩٣٦ ، واعادة تنظيم الجيش المصرى توسعت المدرسة فى قبول الشباب ، حتى انها قبلت فى دفعة واحدة بعد ذلك ١٥٠ طالبا .

وتمصرت بعض المواد الاساسية فى البرامج الدراسية العسكرية التى كنا ندرسها كمادة التكتيك « فن الحرب » كما أصبحت الوظائف الرئيسية فى الجيش

والمدرسة أو الكلية ، كمناصب رئيس هيئة أركان حرب ، وكبير المعلمين ، واقدم المعلمين العسكريين ، يشغلها مصريون ، ولكننا فى الحقيقة كنا جميعا فى حالة اقتناع بأن هذه المكاسب التى حصلنا عليها مظهرية أو شكلية ، لان الكلمة الاخيرة فى شكل مستقبلنا وحياتنا كانت تصدر من الانجليز ! ..

وبعد تخرجنا عام ١٩٣٨ ، عملت ضابطا بالآلاى الاول مدفعية وكان معى من الزملاء المرحوم السيد صلاح سالم ، والسيد حافظ اسماعيل مستشار رئيس الجمهورية والسفير احمد حسن الفقى والسيد حسن صنديد وكان يعمل كضابط اشارة للآلاى ...



كنا نعيش مرحلة غريبة مثيرة فى تلك الايام فالاسلحة التى فى أيدينا لم يكن الجيش المصرى يملكها بحق الشراء ، ولكنه يستأجرها من الجيش البريطانى ، وليس له حق شرائها وكانت القيادة البريطانية تخطط فى اعداد الجيش المصرى ليكون بمثابة وقود لها تلقى به في اى حرب مقبلة كباقى دول الكومنولث ولذلك قررت أن يحتل جيشنا مواقعه الدفاعية طبقا لهذه الخطة فى الصحراء الغربية ، وسيوة ، ومرسى مطروح، بينما فرقة مصرية خفيفة الحركة شكلت كاحتياطى فى منطقة « القصابة » .

ولما اشتركت ايطاليا فى الحرب خلال سبتمبر عام ١٩٤٠ ، وبدأت تتقدم حتى وصلت الى مشارف مرسى مطروح ، أدت هذه الوحدات المصرية واجباتها على الوجه الاكمل حتى صدر قرار الحكومة المصرية وكانت

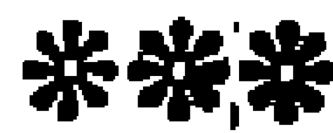
برئاسة المرحوم على ماهر باشا ، بالوقوف على الحياد بين المعسكرين المتحاربين وكانت مفاجأة للندن وقيادتها العسكرية فى الشرق الاوسط ، فطلب الانجليز الينا ان نعيد اليهم أسلحتهم، خاصة الثقيلة منها ، والغريب فى الامر ان التعليمات التى صدرت من القاهرة كانت تؤيد هذا الوضع الذى رفضناه رفضا قاطعا ، وقلنا اننا لن نعود الى القاهرة الا بكامل أسلحتنا .

● وردت القيادة البريطانية علينا فى تهور وجنون بأننا محاصرون من أمام عند مرسى مطروح بالقوات البريطانية ومن الخلف بالقوات الهندية والباكستانية.. فوجهنا مدافعنا الى مخازن الذخيرة البريطانية وكنا نعلم مواقعها بدقة لاشتراكنا فى وضع الخطة الدفاعية عن ثلثى مرسى مطروح ، وتولى أقدم ضابط بيننا وهو السيد أحمد حسن الفقى سفيرنا السابق فى لندن ، وكان قائدا ثانيا للآلاى ، احاطة القيادة البريطانية بأننا سنضرب مخازن الذخيرة فى حالة اجبارنا على تسليم الاسلحة .

***

بعد ذلك سمعنا كضباط بالقضية التى قبض فيها بواسطة الاستعمار على السيد الرئيس أنور السادات زميل الدفعة ثم تقرر وقفه تمهيدا لمحاكمته ووضعوه تحت التحفظ بعيدا عن سلاحه الاصلى وهو سلاح الاشارة ، فقدم الينا بالآلاى ، وكنت أيامها قائدا لاحدى بطاريات الآلاى ، وظل معنا فترة من الزمن حتى تتم اجراءات المحاكمة .

وقد علمنا بعد ذلك أن المستعمر قرر اخراج السيد أنور السادات من الجيش لوطنيته وانتشار هذه الوطنية بين صفوف الضباط الذين امتلأت صدورهم بالكراهية المطلقة ، وبالعزم على الخلاص بعد حادث محاصرة الدبابات الانجليزية للقصر الملكي في ٤ فبراير المشهور واحسسنا بأن الاستعمار يهين مصر بأكملها ، لا الملك فحسب ، ولذلك توحدت مشاعر الضباط ، وهم يكبتون ثورتهم ، ويخططون للعمل الايجابي حين ظهر بيننا « القائد » الذى استطاع لم الشمل وتوجيه طاقات الضباط الى الطريق الصحيح ، وقد استطاع الرئيس أنور السادات أن يعود الى الجيش ، وأن يقوم بدوره كعضو في الهيئة التأسيسية للضباط الاحرار ، حتى انطلقت شرارة الثورة ليلة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، معلنة مولد فجر جديد على البلاد ...



كذلك كان الفريق صلاح محسن ضابط المشاة ، الذى قاد أهم ألوية سلاح المشاة بعد قيام الثورة مباشرة ، وكان نواة بناء الجيش المصرى الجديد ، ولذلك أطلقوا عليه لواء التجارب ، ثم تدرج في المناصب القيادية العسكرية حتى تولى رئاسة أركان القوات البرية ، ثم اصبح مساعدا للقائد العام بعد يونيو عام ١٩٦٧ ، ثم مساعد وزير الحربية .

● قال لى الفريق صلاح محسن محافظ المنيا الآن :

« كنا نجتمع دائما كزملاء دفعة فى فبراير من كل عام ، وكان الرئيس السادات يحرص على حضور هذه

الاجتماعات وكثيرا ما كانت تتم فى بيته ، ثم توقفت هـــذه اللقاءات عام ١٩٦٧ ، وقررنا عدم الاحتفـــال بالذكرى حتى يتم النصر .

ولقد عملنا منذ البداية على تكوين رابطة لدفعتنا ، وعهدنا بادارتها الى الزميل اللواء عدلى اسحاق رمزى لاستعداده الادارى والمالى ، ولنشاطه الدائم ، ولثقة زملائه به ، انه يشغل أحد المناصب القيادية الآن فى القطاع العام ...

عدلى اسحاق رمزى

● والتقيت بسكرتير رابطة دفعة الكلية الحربية أعوام ١٩٣٦ ، ١٩٣٨ ، اللواء عدلى اسحاق رمزى ، رئيس مجلس ادارة احدى الشركات التابعة لوزارة التموين وعضو مجلس الامة الاتحادى :

« بعد تخرجنا ، عملنا على تكوين هذه الرابطة ، وكان أكثرنا حماسة لها ولتدعيمها ماليا الرئيس أنور السادات ولذلك تراس الرابطة عام ١٩٣٩ ، وكان الشهيد البطل عبد المنعم رياض نائبا للرئيس ، بينما عهد لى بسكرتيريتها ، وعلى الفور أنشأنا صندوقا للزمالة يقدم المعونة المالية لزملاء الدفعة ، أمام الازمات الاجتماعية الطارئة ، منذ تخرجنا ، وحتى اليوم ...

« كنا ٤٤ ضابطا ، توفى منا تسعة ، ورحل العاشر خارج البلاد ، ومن بيننا سبعة سفراء لبلادنا فى حكومات العالم ، وستة يتولون مراكز قيادية فى الدولة ، ولقد أدى كل منا دورا حاسما فى الاعداد للثورة ، ثم فى القيام بها وحملنا جميعا مسئوليات عسكرية وتنفيذية وادارية ، وخدم كل منا فى موقعه ، عسكريا أو مدنيا ، بنفس القدر من الايمان والطاقة المشتعلة اخلاصا وحبا لمصر ، التى كانت تملأ أرواحنا يوم تقدمنا الى المدرسة الحربية ، ذات صباح من شتاء عام ١٩٣٦ » .

واللواء عدلى اسحاق من مواليد القاهرة عام ١٩١٨ ، التحق بالمدرسة الحربية عام ١٩٣٦ ، ثم اشترك فى الحرب العالمية الثانية بالصحراء الغربية ، وحارب فى فلسطين عام ١٩٤٨ ، وكان قائدا لاحدى وحدات بطارية مدافع ماكينة ، وعرف القائد الخالد فى حصار الفالوجا .. « كنت أيامها أتولى قيادة جماعة هاون ، ونعمل مع الكتيبة السادسة مشاة وكان القائد الراحل أركان حربها » وبعد عودتى التحقت بمعهد الضباط العظام ، وتركت القوات المسلحة عام ١٩٦١ ، الى القطاع العام » .

جمال سلطان

ثمة ضابط آخر ، من ضباط دفعة أعـــوام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ ، عمل فترة طويلة بجانب زميل دفعته الشهيد البطل عبد المنعم رياض ، ثم عمـل نائبا له فى قيـادة الدفاع الجوى حتى عام ١٩٥٧ ، وسافر الاثنان الى الدراسة العسكرية فى أكاديمية فرونز السوفييتيـة ، ثم عادا سويا ، وتولى اللواء جمال سلطان قيادة الدفاع الجوى عام ١٩٥٨ ، حتى عام ١٩٦٠ ، رأس بعـدها هيئة التنظيم والادارة التابعة للقوات ، حتى عام ١٩٦٥ فتولى منصب وكيل الجهاز المركزى للتنظيم والادارة ، الى جانب زميل دفعته اللواء محسن متولى .

« كانت علاقات الوحدات العسكرية متقاربة دائما ، وكنا كضباط دفاع جوى نعمل كثيرا مع ضباط المشاة وضباط الاشارة ولذلك عملنا طويلا مع القائد الراحل، والرئيس السادات فى الصحراء الغربية واسوان ووادى حلفا » .

ولقد ظـل الرئيس السادات دائما صـديق زملائه الوفى ، وبفضل نشاطه الشخصى بالوحدات التى خدم بها ، ارتفعت العلاقات بين الضباط الى مستوى أفراد الاسرة الواحدة ، ذلك سر قوته الـكامن فى أعماقه »

لواء محمد ابراهيم سلامة

من مواليد السويس عام ١٩١٧ : « إلتحقت بالمدرسة الحربية عام ١٩٣٥ ، وعملت بعد التخرج فى الاورطة الرابعة مشاة وانضم اليها الرئيس السادات والوزير السابق حمدى عبيد ، ثم نقلت الى منقباد ، واقتربت من الزعيم الراحل هناك » .

« أذكر ان الرئيس أنور السادات تزعم حملة بيننا لكى نرفض تفتيش المستشار الانجليزى على وحداتنا الا بمرافقة ضابط مصرى له ، وتحمس أكثرنا لهذا الاقتراح .

وحارب اللواء محمد ابراهيم سلامة فى فلسطين ، ثم عمل بادارة الجيش حتى عام ١٩٥٢ ، وانشأ مدرسة ضباط الصف بعد أن وضع مشروعها ، وهى أول مدرسة عسكرية مصرية تعمل فى معسكرات القنال بعد جلاء المستعمر عنها ، ثم عاد نائبا لرئيس ادارة الجيش عام ١٩٦٣ ، فنائبا لرئيس هيئة التنظيم والادارة ، فقائدا للمنطقة الشمالية العسكرية حتى نهاية عام ١٩٦٥ .

لواء عبد الله لطفي

« يوم ٢٨ ديسمبر عام ١٩٤٨ ، كنا نحاول السيطرة على بيرلحفل ، أذكر ان اللواء احمد اسماعيل على مدير المخابرات العامة الآن كان معى ، وجمال حماد ورءوف محفوظ ويوسف الحديني أيضا ، وضابط ملازم أول اسمه « أبو زيد » كان يعمل على مدفع مضاد للطائرات استعمله في الاشتباك مع دبابات العدو، اصاب منها اثنتين قبل أن يستشهد بقذيفة مباشرة

« كان السادات يبحث عن هذه القصص بين الوحدات العسكرية ويرددها بين ضباطه وجنوده ، وفى كل وحدة التحق بها كانت معنويات مقاتليها ترتفع الى السماء نتيجة وجوده بينهم ، وسلوكه النابع من أخلاقياته المتينة ودعامتها الايمان والتربية الاسرية ، الفنية بتقاليد ومفاهيم القرية المصرية » .

لقد سمعنا بعد تخرجه انه أقام بمعاونة بعض زملائه مسجدا صغيرا فى سلاح الاشارة ، بامكانيات ضئيلة جدا ... وكان عمره ٢١ عاما ، وقد دفع كثيرا من ضباط السلاح الى تأدية الصلاة ، وحين صار « بعضنا » برتبة لواء ، اعترفنا بان أنور السادات هو الذى قادنا الى حظيرة الايمان » .

لواء على البورينى

كان يخدم فى غزة حتى عام ١٩٥٠ ، وهناك التقى مرة اخرى بزميل الدفعة النقيب أنور السادات ، ثم نقل « البورينى » الى القاهرة حيث انضم الى احدى كتائب سلاح المشاة - التي اشتركت فى ثورة ٢٣ يوليو داخل العاصمة ، ثم سافر بعد يومين الى الاسكندرية واشترك فى حصار قصر رأس التين حتى تنازل الملك عن العرش ...

« رايت السادات فى القاهرة والاسكندرية طوال الايام الأربعة من ٢٣ يوليو حتى ٢٦ يوليو عام ١٩٥٢ ، كتلة نشاط هائلة - وعقل مرتب وتصرفات هادئة فى تلك الايام بالغة الحساسية والخطورة ، ولقد استطاع بفضل دقته وتخطيطه الذى أعده منذ عام ١٩٥١ ، لدوره وواجبه ليلة الثورة ، وعلاقته الطيبة بالجميع ان يسيطر على شبكات اللاسلكى عبر القاهرة والاسكندرية ، وخاصة بين وحدات الجيش ، ثم المرافق الحكومية الهامة ... »

« وبعد خروج فاروق من البلاد وفى منتصف ليلة ٢٧ يوليو عام ١٩٥٢ ، نام السادات لاول مرة منذ صباح ٢١ يوليو فى ثكنات مصطفى كامل ببدلته العسكرية - ثم عاد للقاهرة مع أول ضوء لتبدأ مسيرة الثورة ويؤدى دوره المعروف ... »

عميد حنا توفيق

من مواليد القاهرة عام ١٩١٤ : « التحقت بالمدرسة الحربية عام ١٩٣٤ ، وفؤاد اخى لحق بى عام ١٩٣٦ ، ومات مريضا عام ١٩٣٨ » .

« كنت ضابطا للاشارة لمدة ٤ أعوام ، اثناء الحرب العالمية الثانية ، وتسلم منى الرئيس أنور السادات فى العلمين ، وعدت لسلاح المشاة ، ومنذ عام ١٩٤٩ ، حتى عام ١٩٥٢ ، كنت مدرسا بالكلية الحربية . وكان ثمة طريق مهجور يؤدى الى الكلية ، يستعمله القائد الراحل فى لقاءاته السرية بالضباط الاحرار ، بعد أن يجرى معهم مكالمة تليفونية عادية ، يفهمون بعدها ان القائد فى انتظارهم فيأتون اليه على الفور ...

لقد تعلمنا من « النقيب أنور السادات » الضابط بسلاح الاشارة ، كيف نحمى كرامة الضابط المصرى أمام تصرفات القادة الانجليز ، كالتعالى والغطرسة ، واظهارنا بمظهر العاجزين ، وكان الضباط الانجليز يخشون وجوده ، فاذا ظهر بينهم تبدلت معاملاتهم لنا تماما ، وانطوت على الاحترام والانصياع لاوامره ، ولم يكن يقبل أن يفرط لحظة واحدة فى حقوقه ومبادئه ، حتى خلال معارك الحرب العالمية الثانية التى اشترك فيها بالصحراء الغربية » .

عميد أحمد نور الدين

من مواليـد القـاهرة عام ١٩١٩ ، خدم فى سـلاح المشاة ، ثم فى سلاح المهمات ، وكان نائبا لمدير السلاح عام ١٩٥٢ ، من انشـط ضـباط دفعة الرئيس أنور السادات كعضو فى الرابطة .

« اجتماعاتنا كانت سنوية بشكل رسمى ، وأسبوعية بشكل طبيعى ، ومنـذ عام ١٩٣٩ ، لم يتوقف لقـاء زملاء الدفعة ، حتى عام ١٩٦٧ ، يومها قررنا أن يكون لقاؤنا الجديد بعد النصر ...

قبل الثورة ، وأيام كان مطاردا ، كان هو الذى يبحث عنا ليطمئن علينا ، ان لم يكن بالاتصـال الشخصى ـ فعن طريق البريد ، وكان هذا الاهتمام بنا وهو الذى يطارد من الاسـتعمار والسراى الملـكية ، يترك فينـا أكبر الاثر ، ولذلك كنا حين نجتمع كل عام كدفعـة واحدة ، نتحدث عنه ونبحث فيما يستطيـع كل منا أن نعاون به حتى عاد الى الجيش ، فأخذنا نجتمـع فى بيته ، وحتى قيام الثورة وطوال خمسة عشر عاما ، بعد ذلك كان لقاؤنا السنوى فى بيته ، وفى ظل رعايته ووفائه » ..

الفكر الثورى للضباط الأحرار

« ١٩٣٨ — ١٩٤٠ »

فى أوراقه الخاصة ، كتب أنور السادات الكثير من اليوميات ، سجل فيها ذكريات الأيام الاولى فى لقاءات الثوار ، بعد تخرجهم فى المدرسة الحربية وتوزيعهم على وحدات الجيش ، وهى ذكريات تلقى الضوء على ميلاد الفكر الثورى للضباط الاحرار ، وكيف تولد هذا الفكر ابنا شرعيا للحركات الشعبية الوطنية منذ ثورة عام ١٩١٩ ، ثم تحويل هذا الفكر الى واقع حى مع منتصف ليلة ٢٣ يوليو ..

يقول الرئيس السادات :

— لقد نشأت هذه الثورة نشأة طبيعية ونما التمهيد لها نموا طبيعيا ، لانها كانت فى كل مراحلها تفاعلا طبيعيا قويا بين ضمير جيش مصر وضمير شعبها الثائر

ولنرجع الى الوراء ، الى عام ١٩٣٨ ، ولنذهب الى منقباد ...

فى هذه البيئة المصرية الخالصة ، حيث يشعر المصرى بعناصره العريقة تملأ كيانه وتسيطر عليه وفى الشتاء حين يقسو الجو ، وتتمرد العواصف فتزداد الروابط بين الأصدقاء ، يقاومون بها قسوة الطبيعة ، وينتصرون بها على عواء الرياح ... هناك حول نار صغيرة فى معسكر المناورات بتباب الشريف كنا نقضى طرفا من

كل ليلة ، أصدقاء كلهم صغار السن ، صغار المناصب كبار الآمال وأفرو الشباب ، ضـــباط لم تزد رتبـــة أحدنا عن الملازم ثان ، نحترق طول النهار فى الجبل ، فـكأنما الجبـل مرآة تعكس نار القلوب .. وفى جو الصداقة والزمالة والالفة ، كنا نجلس فنمرح لنذيب فى هذا المرح شقاء النفس وكان يتوسطنا دائما شـاب رقيق وديع عامر النفس بالصفاء ، لا يكبرنا سنا ولا رتبة ، ولـكنه كان الملتقى الذى جمع صداقتنا ، وكان يفكر بقلبه ووعيه ولا نكاد ننطلق فى المرح حتى نجد موضوعا هادئا يثيره بيننا هـذا الزميل ، جمال عبـد الناصر ... ربما كان موضوعا شخصيا ، وربما كان موضوعا عاما ، وربما كان ذكريات عابرة ، فلا يلبث أن يستنبط منها فكرة أو رأيا يثير بيننا مناقشة طويلة هادئة ..

كان هذا الصديق الزميل صـــورة حلوة للاخـاء والصـداقة والاتزان والحيـاء والـكرامة ، فاسـتأثر باحترامنا جميعا وكأنه المعنى المجسم الحى لكل المعانى الـكريمة والعواطف الانسانية ..

وهكذا ، وحول هـذا الرجل ، التقت مجموعة من الضباط الصـغار الاصدقاء لم يكن أحـد يدرى انها ستكون نواة لمجموعة أكبر وأكبر ، وان اجتمـاعها فى تلك التباب البعيدة لن يكون مجرد صدفة تمر ويفترق الاصدقاء ، وانما سيكون البـدء الحقيقى لجهاد عنيف ومحن كثيرة وعمل خطير ..

واشتدت الصلات بين كل منا وبين المجموعة الكاملة ،

حتى أصبح كل منا يفكر بعقلية الكل وأصبح من حق كل منا أن يتصرف باسم الجماعة وأصبحت هذه الجماعة يوما بعد يوم فيدا جديدا لتصرفاتنا لان كل عمل يأتيه فرد منا سينسب الى الجماعة شاءت أم لم تشا ، علمت بالامر أم لم تعلم ! ..

وأمام المشاكل التى كانت تعترضنا ، وحياة قادتنا الكبار وخضوعهم لاصغر الضباط الانجليز وشراستهم معنا ، وفرضهم علينا تقاليد لمعاملتهم وكأنهم سلاطين،

امام كل هذا أخذنا نفكر طويلا كل ليلة ، حتى قال جمال عبد الناصر :

ــ انهم الانجليز .. اصل بلائنا ..

وكانت مفتاح تفكير طويل ، لم يلبث أن أصبح خطي عمليه متتابعة ...

كنا جميعا نعلم ذلك ، نعلم ان الانجليز أصل البلاء ، ونكره استعمارهم لبلادنا ، ولكن هذه الجملة من جمال عبد الناصر كانت بمثابة تحديد لواجب ، تحديد لرسالة لا ينبغى لاحد أن يتخلى عنها ..

وشهدت « تباب الشريف » والنار الموقدة عليها عهدا مقدسا ربط بين هذه المجموعة الصغيرة من الشباب الصغير ...

لم يربطهم بعمل معين ، ولا بزمن محدد ، ولكن ربطهم بفكرة الحياة ..

وأخذنا نجمع حولنا انصارا لفكرة الحياة ، كل منا يختبر عددا من الضباط الآخرين ، ويكون فى محيطه خلية صغيرة يثير فيها هذه الفكرة ويرى مدى استعدادها

للعمل يوم يأتى وقت العمل ..

وبدأنا نخطو الخطوة الاولى فنحسب لها حسابا ، ونلقى الكلمة فنفكر قبل القائها مرتين ..

بدأنا ننزع من أعماقنا زهو الشباب ، ونحل فيها الشعور بالمسئولية والاقتصاد فى الأمل .. لقد قتل جمال فينا المرح ، وكنا فى شرخ الشباب ! !

وجاء الدرس الاول الذى أفدناه بعد ذلك فأصبح درس حياتنا ...

فقد مرت أيام قليلة .. كنا فيها لا نزال فى فترة تكويننا الاولى .. واذا بالشىء الذى نسيناه جميعا يقع وكنا خليقين بتوقعه فان ضابط الجيش لا يستقر فى مكان واحد طويلا .. وان هى الا لحظة مفاجئة ، حتى كنا قد تفرقنا شعاعا .. واحد فى الاسكندرية ، والثانى فى طنطا ، والثالث فى القاهرة .. والرابع فى مرسى مطروح ...

وكانت الحرب اذ ذاك قد بدأت .. والاعصاب توترت ورأينا حلمنا الكبير يذوب ويتساقط كما تتساقط حبات الندى عالقة بزهرة أو تذوب فى شعاع الصباح ..

وافترقنا ...

ولكن الحلم لم يذب ... والفرقة لم تستطع ان تكون حاجزا بين هذه المجموعة فى أقسى الظروف التى حلت بها ...

وفهمنا مع مرور الايام هذا الدرس ، وهو ان الصداقة القوية عندما تقوم على نقاء وطهر ، وعندما

تتركز أيضـا حول فكرة فانها قادرة على الحياة مهما فرقت الحياة بين الاصدقاء ، بل هى أكثر من ذلك ، تستطيع وحدها صنع المعجزات ..

والذى وقع بعد تلك الايام ، هو الاثر القوى لهـذه الصـداقة النقية التى ربطتنـا .. فقد فرقت بيننـا الظروف كثيرا ، وجمعت بيننا بعد ذلك كثيرا ...

وكنا اذ نفترق لا تفارقنا الفكرة ولا عهد الجماعة ، وكل ما هناك ان أحدنا كان يجد الفرصـة للعمـل ،

فيعمل ... يعمل مسـتقلا بارادته فى ظـاهر الامر ، ولـكنه فى حقيقته يكون مقيدا بارادة الجماعة المتمثلة فى فكرتها الـكبيرة .. وعهدها المقدس ...

وقد تختفى من بيننا أسماء فى كثير من الاوقات ، كما اختفى اسم جمال عبد الناصر عامين كاملين ، بين ديسمبر عام ١٩٣٩ ، وديسمبر عام ١٩٤١ ، اذ كان فى هذه الفترة قد نقل الى السودان ...

ولـكن الذى كان يبقى فى ميدان العمل .. كان يعمل .. يعمل بارادته ، ولـكن باسم هذه المجموعة وفكرتها الاصـيلة ، ويعمـل بارادته ، ولـكنه يرجع الى من يستطيع الرجوع اليه من جماعتنا .. فى كل فرصـة تواتيه لذلك .

ولم تعد الايام تمر هينـة ولا رفيقة ، فقـد بدات احداث كثيرة تقع ...

بدات بالحادث الاول عام ١٩٤٠ ، وكان ميدانه ميدان القتال فى مرسى مطروح ..

كنا قد نقلنـا جميعا من منقباد ، وتفرقت جماعتنا

بين وحدات الجيش فى مختلف انحاء البلاد ... وبين السودان العزيز ...

وقد كان السودان من نصيب جمال عبد الناصر ، فقد نقل من منقباد الى امبابة .. وبعد شهر واحد ، نقل الى العلمين ، وقضى هناك أربعة شهور ، ثم نقل مرة أخرى الى أبى زعبل ، ومنها الى السودان ...

وفى فترة تنقلات « جمال » جمع على الفكرة عددا آخر من الضباط ... وكنا نحن أيضا نصنع مثل هذا

ولم نكن نعرف على وجه التحديد ماذا سوف نعمل؟ لقد كان هدفنا أن نقوم بدورنا فى تخليص البلاد من جنود الانجليز ولم تكن الفرصة لذلك تسنح أثناء الحرب وقد سيطر الانجليز على كل مرفق من مرافقنا .. واحتلوا جميع قواعدنا وطرق مواصلاتنا ... بل لقد كنا نحارب الى جانبهم أيضا ..

وسنحت أول فرصة لنا فى مرسى مطروح .. ولكنها كانت فرصة مفاجئة لم نستطع أن نحقق منها هدفا كبيرا ... واستطاعت هى أن تكشف للانجليز عن وجود اتجاه عملى ضدهم فى جيش مصر ...

كانت نيران الحرب قد اقتربت كثيرا من أرضنا العزيزة .. فقد بدأت جيوش ايطاليا تغزو منطقة مرسى مطروح ..

وكان الدفاع عن هذه المنطقة منقسما بين ثلاثة قطاعات :

قطاعين بريين ، يحتلهما الجيش المصرى ، وقطاع بحرى يدافع عنه الانجليز .. كنا نحارب .. رغم ان

مصر لم تكن قد أعلنت الحرب !

وكانت سياط العذاب التى تلفعنا نحن الجنود والضباط ، تتلاحق علينا مع الليل والنهار ومع الاحداث المتعاقبة التى تمر بها البلاد ..

كان موقف الحكومة من هذه الحرب موقفا مائعا ... ولم يكن من السهل تحديده فى صورة مفهومة واضحة.

وكان من المؤكد ان هــذا الموقف ان تحدد ، فلن تكون مصر هى التى تحدده على التأكيد ...

كانت سياسة مصر التى أعلنها رئيس حكومتها عند اعلان الحرب هى سياسة «تجنيب مصر ويلات الحرب»

ولم تكن الحكومة تستطيع أن ترسم لنفسها سياسة اوضح من هذه او أكثر حسما وتحديدا .. فقد كانت هناك المعاهدة .. وكانت قوات الاحتلال تملأ بلادنا ، وطائراتهم تجثم على صدور مطاراتنا وتنطلق منها الى الميادين القريبة الحافلة بالموت .. ودباباتهم تختال فى شوارعنا ومن فوقها جنود حمر الوجوه .. ومخازن ذخيرتهم ترصع ارجاء الوادى بالبارود والقنابل واسلحة الدمار .. وكانت ارضنا فوق ذلك حقلا كبيرا يشرب حبات العرق من جباه آبائنا واخوتنا ليخرجها قمحا للغاصبين ..

وكان موقفنا نحن ضباط الجيش وجنوده ، هو الموقف الضنك .. فسياسة « تجنيب مصر ويلات الحرب » لم يكن معناها اننا لن نحارب فعلا .. وكان الذى يشقينا هو ان نسأل انفسنا نحارب من أجل من ؟

فهل كانت سياسة « تجنيب مصر ويلات الحرب »

تحمل هذا المعنى واضحا وترسم خطته كاملة الى نهايتها ؟

لقد كانت تشير الى شيء ، أو ترنو الى أمل .. وهذا الشيء وهذا الامل هو الذى فهمته مصر منها .. وفهمه الانجليز أيضا ..

فهمته مصر ، فحاولت أن تستبشر به ، وفهمه الانجليز ، فأبرق رئيس وزرائهم « تشمبرلين » الى سفير انجلترا « كيلرن » ببرقية قصيرة حاسمة :

- يجب أن تستقيل حكومة على ماهر ..

وكانت هذه البرقية كأنها القضاء الذى لا يرد .. فاستقالت فعلا حكومة على ماهر ، لانها أشارت بسياستها الى شيء ، ورنت الى أمل ، وفهم الانجليز الشيء والامل ! ..

لم يكن أمر مصر اذن فى يدها ، بل كان فى أيدى الانجليز ... وكنا ننظر الى المستقبل على هذا الوجه ، فلا يلبث ان يرتد الى الماضى .. الى الحرب العالمية الاولى التى سيقت فيها مواكب آبائنا مسخرين الى ميادين القتال يحفرون الخنادق ليموتوا فى أحشائها ، ويحملون الروث ليدفنوا تحت أكوامه ، ويلعقون العرق ليوفروا كئوس الشراب للانجليز ! ..

ويجلب الماضى صورا مؤلمة ، ولا يشير الى بارقة أمل فى مستقبل البلاد تحت هذه الاوضاع ....

يجلب صورة الثورة المجيدة التى أشعلها الشعب عام ١٩١٩ ، فأطفأها زعماؤه يوم وصلوا الى الحكم وأصبحوا احزابا .. مطايا للانجليز ...

ويجلب صورة الثورة المجيدة التى اشعلها الشباب عام ١٩٣٥ ، ليجمع الاحزاب فى حزب واحد لمصر ، فاجتمعت الاحزاب فى حزب واحد ليوقع معاهدة الصداقة والتحالف مع الانجليز !

وما تغير الزعماء ...

ولا خرج الانجليز ...

ولكن قامت الحرب .. وبدأت بوادر شقاء جديد

ماض كله حسرات ، ومستقبل كله مخاوف ، وحرب قائمة لابد أن نصلاها ، حتى فى ظل « سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب » ..

وفجأة علمنا ان أوامر من قيادتنا ستصدر لنا ... بالانسحاب من القطاعين البريين لتحتلهما قوات بريطانية حتى تنفرد بريطانيا بالدفاع عن المنطقة كلها ..

والى هنا كانت الاوامر بسيطة يمكن قبولها ، ولكن الشق الاخير فيها كان يقضى بأن نترك سلاحنا ونسلمه للقوات البريطانية التى ستحتل القطاعين ..

وهاج الضباط وماجوا ...

وتحرج الامر جدا ...

وصممنا على ألا نترك سلاحنا ، ولو اقتضى ذلك أن نموت عن آخرنا ..

وكنت أجد فى هذا الاجراء فرصة مناسبة ، لتجعل من « فكرة الحياة » حقيقة مجسمة ، يشارك فى حمل أعبائها الجيش كله ، والشعب كله أيضا ..

وكنت أعتقد ان أى احتكاك منا بالانجليز سيقفز بفكرة الحياة مائة عام الى الامام ..

كانت قوتنا هناك قوة مختلطة ، تسمى « القوة الحقيقية » ... وكانت تتكون من خلاصة الجيش المصرى ، تضم زهرة سلاح المدفعية وبقية الاسلحة الاخرى ..

فوضعنا خطتنا على أساس أن تعود هذه القوات ، فتحتل وهى فى طريقها الى القاهرة كل المرافق العامة ، ثم تفرض حكومة على ماهر مرة أخرى ، بعد استقالته المعروفة المدوية ..

كنا اذ ذاك فى شهر سبتمبر ، وكان على ماهر قد استقال فى شهر يوليو ، وكان الشعور القومى ضد الانجليز قد بلغ أقصى مداه فى البلاد ...

وصدرت الاوامر لنا فعلا بالانسحاب وبترك أسلحتنا ... فرفضنا ترك السلاح وتقدمنا الى القاهرة ..

ولاكثر من سبب تبين لنا ان تنفيذ هذه الخطة سيكون وبالا علينا .. فقد أدركنا على أساس تقدير الموقف ، اننا لن نستطيع أن ننجح فيها الى نهايتها .. فاكتفينا بالعودة بأسلحتنا كاملة . . واعتبرنا هذا نصرا كافيا لنا فى مرحلة جهادنا الاولى .

وعلى الرغم من كل الاحاديث التى دارت بشأن هذه الخطة والتمهيدات التى كنا قد بدأنا نقوم فعلا بها ، فان الانجليز لم يكتشفوا منها اى شيء . . ولكنهم فى الوقت نفسه ادركوا سيطرة روح العداء لهم على ضباط الجيش الصغار . . وايقنوا ان هذه الروح قد تلعب دورا أخطر من ذلك الدور فى يوم قريب .

وبدأنا نحن نكون هدفا لعيون الانجليز حيثما كنا . .

فى القاهرة أوفى اى سلاح من اسلحة الجيش ننقل اليه .

والـكسب الاكبر الذى كسبناه من هذه الحادثة ، هو عودتنا الى القاهرة فقد جمعتنى القاهرة فورا بجميع اصدقاء منقباد ... ما عدا جمال الذى كان لا يزال فى السودان ...



وفى القاهرة بدأت اجتماعاتنا تتوالى وتتركز ... واخذنا نفكر فى شىء نقوم به على أساس من الدراسة الكاملة ، وبحيث يكون توقيته الكامل فى ايدينا نحن لا فى أيدى الظروف وحدها ..

وكان فى خيالنا رجلان .. نريد ان نتصل بهما ، وان نشركهما معنا فى عملنا الكبير ...

على ماهر .. صاحب البيان المشهور والاستقالة المدوية ..

وعزيز المصرى رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، وهو الرجل الذى وقع اختيارنا عليه عندئذ ، لكى يقود ثورتنا ..

وحاولنا أن نتصل بعلى ماهر ، فلم نستطع ...

وحاولنا ان نتصل بعزيز المصرى ، فاستطعنا ...

الشهداء منهم ..

تحية لهم فى مواقعهم ، لصلابتهم وايمانهم ، لقد وقف الكثير منهم فى وجه الخطأ والانحراف دفاعا عن شرف العسكرية المصرية ، وظن المنحرفون انهم انتصروا على هؤلاء الشرفاء ، ولكن العكس كان هو الصحيح وكانت نهاية المفسدين قاسية أو سوداء أو خلف أسوار السجون ..

تحية للشهداء منهم ، وللذين انتقلوا الى رحاب الله للفريق أول على على عامر ، للشهيد البطل محمد وجيه خليل ، للشهيد البطل عبد الحميد أبو زيد ، تحية الى روح محيى الدين نسيم ، الى محمد على ذهنى ، الى وجيه الموجى ، الى جمال خليفة ، الى على أبو العز ، الى فؤاد نصر هندى ، الى عصام المصرى ، الى محمد كمال الدين عفيفى ، الى محمود شكرى عبد الخالق ، الى محمد عزت محمد ، الى احمد فهمى ابراهيم ، الى فيليب حنا بقطر ، الى فؤاد شكرى ، الى فؤاد توفيق حنا ، الى محمود حمدى محمود ، الى حسن عبد الوهاب ، الى شفيق معوض ، الى ابراهيم العلايلى ، الى فؤاد عفيفى ، الى جلال قريطم ، الى عدلى كفافى ، والى كل من فشلت فى العثور على قصة استشهاده ، تحية الى أسمائهم المحفورة فوق قطعة

ناصعة من تاريخ مصر العسكرى ، قطعة تحمل مئات الاسماء من شباب الوطن ، التقوا وعاشوا وقدموا أغلى التضحيات من أجل أعرض الامانى وأعظمها وقادهم ذات يوم منذ عشرين عاما مضت واحد منهم ليؤسس وطن الحلم والامنية مصر الثورة ، وليتولى بعد رحيله عنا ، زميل عمره ورفيق سلاحه ، تكملة المشوار ..

الفصل الثالث

أنور السادات "٢٧٤٢"

تخرج الرئيس السادات فى فبراير عام ١٩٣٨ ، وتخرجت دفعة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر فى يونيو من نفس العام ، وقد ظل السادات خمسة أعوام ضابطا بالجيش ، تعرض بعدها لمحن طويلة ، واضطهادات عديدة ، لانه ظل مؤمنا بما يدور فى راسه من أفكار واحلام وطنية ، حاول تطبيقها فى وحداته العسكرية التى خدم بها ..

وفى ٧ اكتوبر عام ١٩٤٢ ، اخرجوه من الجيش المصرى وظنت السراى الملكية ، كما ظنت القيادة العسكرية البريطانية ، انها قضت على ذلك الشباب المشحون بكراهية الاحتلال والفساد بطرده من الجيش وسجنه ، وتدبير المحاكمات الجنائية له ...

ولكنه عاد مرة أخرى الى الجيش الذى وهبه حياته وآماله ..

لقد كان أنور السادات نوعا فريدا من الرجال ، بل واحدا من أولئك الذين يتميزون منذ صباهم بخاصيات بشرية منفردة بين اقرانهم من اصحاب الاعمار المتقاربة أو الثقافات المتجانسة أو ابناء البيئة الواحدة

ويشعر المرء « والحديث هنا لاكثر من رجل اقترب منه خلال نصف قرن مضى » حين يلتقى به انه أمام

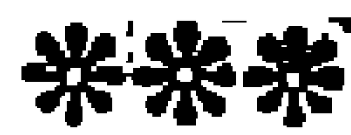
نسيج بشرى ذى تماسك صلب ، مصر تملأ وجدانه وطموحه ، ارادة بشرية مختلفة ، بل عجينة ثورية مختلفة عمن سبقها من أصحابها الثوار ..

لقد ظل مشحونا دائما بطاقة ضخمة من ذلك النشاط العقلى المتمرس بالتطبيق العملى ، مالكا لرصيد من التجربة المنوعة ، وثروة حصينة من الايمان تحمى روحه ومعنوياته فلا يتطرق الشك الى احكامه او قراراته على الاطلاق ... وربما وهذا هو الارجح تلك هى الثروة التى اعطته ذلك الاحساس المركز طوال حياته بالنفور من السلوك المعوج واللجوء الى الحق والوضوح والعمل المشروع ، مما جعل اقتداره الشخصي يتجاوز به موجات المشاكل والازمات ، بل المحن والأخطار التى اعترضته ، وظلت تتهدده طوال أعوام النضال الاول — وما أقساها ، وما أغناها ، وما أعقدها من أيام ! ..

تخرج الرئيس السادات والتحق بسلاح المشاة ، وذهب الى منقباد ، وهناك التقى مرة ثانية بالقائد الخالد جمال عبد الناصر ، بعد لقائهما الاول بالكلية الحربية ..

ونقل السادات الى سلاح الاشارة التى كان يهواها ، ولم يتخل عن واجبه الوطنى كشاب مصرى أقسم أن ينتزع تحرير وطنه ، فتعرض للارهاب من المستعمر ، والملك ، تكلوا به ، سجنوه ، فصلوه من الجيش ، طاردوه ، ولم يهتز ايمانه ، كان أقوى من سلسلة الارهاب التى حاولوا تقييده بها ، وظل منذ خرج من الجيش فى ٨ أكتوبر عام ١٩٤٢ ، يفكر ويعمل من أجل

العودة للجيش حتى استطاع بفضل صموده ، وايمانه بالعسكرية المصرية ووقوف الشرفاء الى جانبه ، أن يعود الى القوات المسلحة فى ١٥ ينـاير عام ١٩٥٠ ، لينضم الى رفيق الاعوام الاولى ، ويقود بجانبه ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ..



وفى هذا الفصل سنرسم صورة بالكلمة من قريب للرئيس السادات من خلال ملفه العسكرى الشخصى الذى يحمل رقم «٢٢٧٤» بين ضباط قواتنا المسلحة ، وما يضمه من وثائق واوراق وتقارير سرية ، ثم نستعرض قصة الاعوام الثمانية التى قضاها مطارداً من الملك والانجليز ، من عام ١٩٤٢ حتى عام ١٩٥٠، وكيف جمع فى نهايتها حصيلة طيبة من المعلومات عن المنشآت العسكرية البريطانية وخاصة فى منطقة القنال حين كان يتردد على هذه المعسكرات ، كسائق نقل ، أو حمال فوق عربة نقل ، تنقل المؤن للقوات البريطانية ، وكيف استغل هذه الحصيلة من المعلومات فى خطة العمل الفدائى المسلح ، الذى قاده منذ عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٥٣ ، ضد قوات الاحتلال البريطانى باشراف الزعيم الراحل ، وكان من بين معاونى السادات ، السيد حسن التهامى مستشار رئيس الجمهورية حاليا ، والسيد صلاح هدايت الوزير بالوزارة الاتحادية ، كان السادات يجمع المعلومات ومعدات الهجوم ، ثم يضع الخطة ، والتهامى يقوم بالتنفيذ مع بقية الرجال ، وهدايت يعد القنابل والالغام البرية والبحرية ، كضابط تخرج فى كلية العلوم من قبل

يقول السيد حسن التهامى :

« بعد عودة القوات المصرية من فلسطين ، بدانا بقيادة الزعيم الراحل نفكر فى مواجهة عسكرية مع قوات الاحتلال البريطانى ، وكان تشكيل الضباط الاحرار قد انتشر فى أسلحة الجيش ، بل فى المخابرات الحربية الملكية أيضا ، ومن خلال المخابرات كنا نعد الخطط الفدائية ضد القوات البريطانية فى معسكراتها بمنطقة القناة ، ولم تستطع السراى الملكية أن تكتشف من هم الذين يقفون خلف هذه العمليات ، ذلك أن ظنونها لم تكن تصل الى المخابرات الملكبة أو تتخيل وجود خلايا ثورية بداخلها !

وجاء الرئيس أنور السادات عائدا الى الجيش عام ١٩٥٠ ، وأوكل القائد الراحل اليه تخطيط بعض العمليات الكبيرة والاعداد لها ، وقد استفدنا بالمعلومات التى كانت لديه عن معسكرات الانجليز وأسرارها بالمنطقة ، وبدأنا العمل عام ١٩٥١ و ١٩٥٢ ، واستمر الرجال يقاتلون حتى بعد قيام الثورة ، اذ حرص القائد الراحل على استمرار الكفاح المسلح ضد المحتل حتى قررت بريطانيا الجلاء عن الوطن ..

اننى أذكر من العمليات الناجحة ذات التاثير الكبير لدى الانجليز معركة القرين ، ومعركة مرشح المياه ، ومعركة التل الكبير ، وفى المعركة الاخيرة قفزت قوات مظلات انجليزية الى ارض المعركة لانقاذ ونجدة وحداتهم ونجح الهجوم المصرى وانتشر رعب هائل بين جنود الاحتلال البريطانى .

وكانت هناك خطة لعملية أخرى ، وهى عملية غلق القناة بواسطة تفجير لغم كبير فى سفينة انجليزية ناقلة للبترول ، واشرف على هذه العملية السيد أنور السادات وأعددنا اللغم باشراف الزميل صلاح هدايت ، بصفته خريج علوم ، وقد شغل منصب مدير مكتب الرئيس للشئون العلمية ، ثم وزارة البحث العلمى عدة أعوام ، وكان الرئيس السادات يصف اللغم بعد أن شاهده « بالتيتل » لحجمه الكبير ، وفي اليوم المقرر للعملية أفسدنا اللغم بناء على تعليمات السادات ، فقد وصل الى علمه ان السفينة القادمة سفينة ركاب ، وليست سفينة ناقلة للبترول ، وتفجير اللغم فيها اشبه بمجزرة بشرية ، ولما علم القائد الخالد بذلك ، أيد القرار وهنأ السادات عليه ..



وبعد قيام الثورة أمر القائد الراحل بوضع خطة طويلة للقيام بعمليات فدائية ضد المعسكرات الانجليزية وقواتها فى القنال وطبقت الخطة عام ١٩٥٣ واستمرت الى عام ١٩٥٤ ، وقد قام بها عدد كبير من الضباط الاحرار ، وعدد أكبر من المدنيين الوطنيين ، وكان للسادات والتهامي نصيب فى هذه المعارك ، التى انتهت بتوقيع اتفاقية جلاء المستعمر عن أرض الوطن ..

الضباط الأحرار ومعارك القنال

ان عمليات الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال البريطاني فى مدن القنال خلال الاعوام ١٩٥١ ، ١٩٥٢، ثم ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ ، لهى صورة بارزة المعالم فى اقتدار الجماهير المصرية ، وتحولها الى رجل واحد وعقل واحد ، وذراع واحدة ، تمسك السلاح فى ارادة قوية ، وشعور عال بالمسئولية الوطنية ، ثم يقظة الى أقصى حد ، وروح جماعية لا تزعزعها المنافسات الشخصية الصغيرة ، وقد أظهر المقاتلون المدنيون منهم والعسكريون الذين قاتلوا معهم بصفاتهم الشخصية لا العسكرية ، تعطشا للقتال والتحرير ، فرض ارادتهم على المحتل الانجليزى ، وكان تعاونهم المتبادل يكتسب كل يوم طابعا متزايدا من الكفاح النشط المسلح ، ويمتد من مدينة لاخرى فى نمو سريع أضعف وهز أقوى المعسكرات البريطانية التى كانت تشكل قلب قواعدها العسكرية فى الشرق الاوسط ، مما اضطر الانجليز الى طرح قضية الجلاء عن مصر كحقيقة واقعة لا بد من التسليم بها ..

هذا التأثير المحسوس من النضال بالنيران لم يكن وليد لحظة ما بعد الغاء معاهدة عام ١٩٣٦ مباشرة ، بل كان نتيجة تخطيط وتحضير قام به أقوى وأشجع الرجال ، وعلى راسهم القائد الراحل، والرئيس انور

الســـادات ، وقد اعدوا خططهم بوحى من التصـــاقهم النفسى والفكرى بالقضية الوطنية وقتها ، وهى قضية انتزاع مصر لاستقلالها ، وكان العسكريون يحصلون على اجازات طويلة من وحداتهم كى يتفرغوا لتدريب الشباب على السلاح ، وحرب العصابات ، بل ان بعض الضباط كان واجبه نقل السلاح سرا لاستعماله ضد المحتل ، بدلا من تكدسه فى مخازن الجيش ! ..

ولذلك كانت اعمال الفدائيين المصريين فى منطقة القنال لا تتسم بالجرأة والبسالة فحسب ، بل بالحســـابات الدقيقة والفطنة القتالية فى عمليات حرب العصـــابات ، وايجاد أســـاليب مفاجئـــة للقوات الانجليـــزية فى كل هجماتهم التى قاموا بها ، وقد دفع بعضهم روحه فداء لمعاركه ، وجزية للنصر ..



ان العودة الى الوراء حتى عام ١٩٥١ ، ستعطى لنا حصيلة لاحداث ذلك العام ، والعام الذى تلاه ، تلك الاحداث التى سجلها نضال الشعب المصرى عبر تاريخه البطولى ، وهى أحداث قرأها جيـــل الخمسينات من خـــلال عرض مركز فى كتاب صغير أو استماعا لرواية تروى قلما تكون على لسان شاهد عيان ، أو فدائى اشترك فى القتال وهى عادة روايات لا تلم بكل الجوانب ، وتهتم بالضرورة بالتفاصيـــل الشخصيـــة ... ولقـــد تصادف رغم أهمية هذه الفترة من تاريخ مصر أن تلقى اهتماما بسيطا من وسائل الاعلام ، وربما .. وهـــذا تبرير أقرب الى المنـــطق ، طغت عليهـــا أنبـــاء الثورة

ومسيرتها ابتداء من يوم ٢٤ يوليو عام ١٩٥٢ ثم يـوم اسقاط الملك ، وما تلاه من أيام مصيرية بعد ذلك ، مما جعل العمل الفدائي المسلح بمنطقة القنال منذ عام ١٩٥١ في حاجة الى تأريخ صادق وحقيقي يكون مرجعا لتلك الفترة النضالية الجماهيرية العريضة أمام جيل الخمسينات وما بعده من أجيال ، تأريخ لا يخضع الآن بالطبع لسيطرة الاستعمار ، أو لرغبات الملك وحكوماته التي أطلق عليها الشعب تلك الايام « أدوات الشطرنج »

لقـد ترتب يوم ٨ أكتوبر عام ١٩٥١ ، من الناحية القانونية الدولية على الغاء معاهدة الصداقة والتحالف بين المملكة المصرية وبريطانيا العظمى المبرمة في لندن يوم ٢٦ أغسطس عام ١٩٣٦ ، الغاء جميـع الاعفاءات والامتيازات والمعونات والتسهيلات التي كانت تقـدمها الحكومات المصرية لقوات الاحتلال في مجالات المواصلات اللاسلكية والنقل والجمارك ، وتقديم الاغذية والمعلومات الفنية والعسكرية وذلك من الناحية الرسـمية ، أما الجماهير فقد اعتبرت وجود جنود بريطانيا فوق ارضها اغتصابا يتطلب طورا قويا جديدا في مكافحته والقضاء عليه ، ولذلك امتنع عمال ومستخدمو السكك الحديدية عن نقل الجنود البريطانيين ومهماتهم ، اذ وصلت الى ميناء بور سعيد يوم ١٣ أكتوبر ثلاث ناقلات جنـود انجليز لتدعيم قواتهم المرابطة بالقنال ، ونزل منها حوالي ثلاثة آلاف من الجنود والضباط ، ولـكنهم فوجئوا بعـدم سير القطارات التي كان مفروضا أن تقلهم الى معسكراتهم واضطرت القيادة البريطانية الى استعمال اللوريات ،

وقد انفجر أحدها وقتل من فيه وكان هذا العمل الذى حرصت القيادة البريطانية على اخفائه بداية للنشاط الفدائى المصرى ..

وفى الموانىء المصرية رفض العمال شحن أو تفريغ السفن الانجليزية ، وقد ظل أكثر من سبع عشرة سفينة فى مياه القناة دون أن تستطيع انزال جنودها ومهماتها فى الوقت المحدد لها ، وخسرت القيادة البريطانية فى اسبوع واحد مليونين من الجنيهات نتيجة موقف العمال المصريين ..

وفى المعسكرات الانجليزية ، انسحب المصريون فى موقف جماعى رائع ، وضحوا بمرتباتهم الكبيرة ، وتوقفت الورش والمصانع والادارات المختلفة داخل هذه المعسكرات ، وهاجر هؤلاء العمال والموظفون الى الاقاليم والمدن الاخرى، ولاقوا متاعب ضخمة فى سبيل الحصول على مساكن جديدة لهم ولأسرهم ، وتحملوا الكثير من المتاعب والمشاق بكل صبر وشجاعة ، استجابة للنداء الوطنى الذى طالبهم بعدم التعاون مع قوات الاحتلال.

وقد أثبت هذا الاضراب الجماعى من عمال مصر ، ان قاعدة القنال لم تعد بالارض التى كان يستعمرها الانجليز فى هدوء واستقرار ، كما كان له أكبر الاثر لدى شعوب العالم التى تعاطفت مع جماهيرنا بعد ان أعلنت استعدادها للتضحية والوقوف وقفة رجل واحد من أجل تحرير أرضها ..

وكذلك أضرب المتعهدون والموردون الذين كانوا يمدون القوات البريطانية بمواد التموين عن توريد ما

تعاقدوا عليه من قبل ، واضطر الانجليز الى استيراد احتياجاتهم الغذائية من الخارج نقلا بالطائرات والسفن

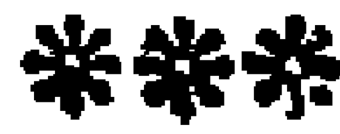
وفى يوم ١٦ اكتوبر عام ١٩٥١ ، قامت أول مظاهرة شعبية بالاسماعيلية فاصطدمت بدوريات الانجليز الراكبة المسلحة بالمدافع الرشاشة ، ودار قتال فى بعض الشوارع واستشهد سبعة من رجالنا ، واصيب كثيرون ، واحتلت القوات البريطانية المدينة ، واخذت فى تفتيش السيارات والقطارات القادمة والخارجة من والى الاسماعيلية ، وكان احتلال شوارع المدينة بداية للعمليات الفدائية المسلحة ذات المهام المتعددة ..

فى نفس اليوم تكرر قيام المظاهرات فى مدينة بور سعيد ، وهاجم السكان مخازن البحرية البريطانية واشعلوا فيها النيران ، ووقع قتال عنيف بين الجانبين، واستشهد خمسة من أبناء بور سعيد ..

وفى اليوم التالى دارت معركة أخرى أمام كوبرى الفردان ، وكان فى حماية قوات مصرية ، واستشهد جنديان من المدافعين عن الكوبرى ، وسقط للانجليز عدد لا بأس به من القتلى ، قبل أن يحتلوا الكوبرى.

وكان كوبرى « الفردان » هو الوسيلة البرية الموصلة بطريق السكة الحديدية بين مصر وسيناء عبر قناة السويس ، وفوقه تمر القطارات فى طريقها الى مواقع القوات المصرية فى العريش ، وغزة ، وسيناء ، وقد ارادت القيادة الانجليزية عزل القوات المصرية عن جماهيرها الشعبية ... ولم تكن تدرى ان بداخل القاهرة كثيرا من الضباط المصريين الوطنيين الذين

اخذوا منذ اللحظة الاولى فى القيام بواجباتهم الفدائية الانتحارية ، وعلى رأسهم الزعيم الخالد جمال عبد الناصر ، والقائد الرئيس انور السادات ..



كانت خطة الانجليز التى اعدوها لمواجهة الكفاح الشعبى المسلح هى احتلال جميع الاماكن الهامة فى مدن القناة ، وعزلها عن القطر المصرى ، ومقاومة المصريين بقدر كبير من النيران والقوات التى نصبت مدافعها الرشاشة فوق أسطح البيوت والعمارات المغتصبة ، كما تدفقت امدادات انجليزية هائلة من البحر الابيض والبحر الاحمر ، بالجنود والعتاد .. ولكن هذا الاستعداد لم يفعل شيئا سوى تدعيم نشاط كتائب الفدائيين ، وتنظيم عملياتهم الهجومية ، واحراز عنصر المفاجأة فى كل خطة قاموا بتنفيذها ..

كانت كتائب الفدائيين أو كتائب التحرير قد بدأت فى التكوين بالقاهرة ، وبعض المحافظات ، بل والمناطق الريفية القريبة من مدن القناة ، لتتلقى تدريبا عنيفا فى الشرقية والبحيرة ، وقد اختار عبد الناصر والسادات وزملاؤهما عددا من رفاق السلاح لتدريب افراد الكتائب وكان واجبهم هو اعداد بيانات التدريب حسب شكل الهجوم المختلف من مكان لآخر واحتياجات هذا الهجوم من نوعيات القتال ، ثم الاشراف على ارتفاع مستوى التدريب ضمانا لتحقيق اقل قدر من الخسائر فى الارواح ، وكان يعاونهما كثير من رجال الشرطة ، ممن عرفوا السادات وهو يعمل فوق سيارات النقل داخل

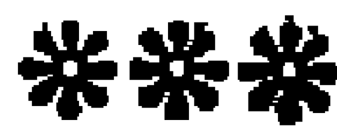
المنطقة قبل عودته للجيش ، أيام كان مطاردا من الانجليز والملك ، وبعضهم عمل عينا وأذنا له فى قلب المعسكرات البريطانية وظل القائد الرئيس السادات حريصا على مشاركتهم أفراحهم واحزانهم بعد ذلك تشده اليهم دائما أثرى الصداقات وأغلى الذكريات ..

ولقد جاء المرحوم الفريق عزيز المصرى بدعوة من عبد الناصر والسادات ، للاشراف على تدريب كتائب الفدائيين ، وكان لوجوده بينهم أكبر الاثر فى رفع معنوياتهم وشحنهم بروح القتال حتى التضحية بالروح، تلك المعنويات العالية التى كانت خلف نجاح عملياتهم الانتحارية حين قاموا بها هجوما على معسكرات الانجليز ، ومراكز تجمعاتهم ، ولعب عامل المفاجأة دورا هاما فى سيطرة الفدائيين المصريين على ارض الهجوم .

فى ذلك الوقت وقفت الحكومة المصرية موقفا مخزيا حين انكرت على المرحوم عزيز المصرى ، وضباط الجيش حق تدريب الكتائب الجماهيرية ، وأصدرت فى نهاية نوفمبر عام ١٩٥١ ، بيانا من مجلس الوزراء قالت فيه « انها لن تسمح لاى هيئة أو فرد بتدريب الكتائب او بجمع الاموال اللازمة لذلك ، وانها ـ أى الحكومة ـ ستتولى هذه المهمة وفقا لنظام تضعه هى » ..

واستندت فى تبرير اصدار هذا البيان الى قيام بعض الخطرين على الامن العام بالاندساس بين صفوف الفدائيين ، مستغلين حمل السلاح بدون ترخيص ، لاستعماله فى الارهاب والاعتداء على النفس والمال ضد المواطنين ! ..

ولم يحدث بعد ذلك ان أقدمت الحكومة المصرية على اى خطوة جدية لتدريب كتائب التحرير ... كل ما أصدرته هو عدة قرارات ، باعتماد مبالغ وهمية وبتكوين لجنة وهمية أيضا ، تقوم باختيار المناطق الصالحة للتدريب ، وظلت هذه اللجنه تبحث عن الارض الملائمة ، حتى وقع حريق القاهرة وأقيلت الحكومة ! !



ورغم كل هذه القيود على النشاط الفدائى ، الا ان عملياتهم كان لها دوى ضخم ، وقد استولت الكتائب على كثير من أسلحة المخازن البريطانية ، ونسفوا منشآتها ، ومستودعات الوقود بها ، وفجروا الالغام فى سياراتها وخطوطها الحديدية ومواصلاتها اللاسلكية ، وقتلوا عددا كبيرا من جنودهم فى هجماتهم على القوافل البريطانية نهارا ، وعلى المعسكرات ليلا ..

ومن المعارك البارزة خلال تلك الايام ، معركة الاسماعيلية يومى ١٧ ، ١٨ نوفمبر عام ١٩٥١ ، وقد اشتركت فيها قوات بلوكات النظام « الشرطة » وصمدوا طويلا أمام نيران المصفحات الانجليزية ، وحين تطورت المعركة بانضمام الفدائيين الى بلوكات النظام ، جاءت قوات نجدة انجليزية من الدبابات ، واحتل الانجليز مبنى الاسعاف وجعلوا منه موقعا لفتح نيرانهم ، وقد سقط جرحى كثيرون من الجانبين وكان عدد شهدائنا ١٣ شهيدا ، بينما بلغ عدد قتلى العدو خمسة من الضباط ، وعددا كبيرا من جنودهم ، ومئات من المصابين ، وتحدثت صحافة بريطانيا عن الخسائر التى

تلحق بقواتها أمام تزايد قوة وصمود وامكانيات الفدائيين المصريين . .

وعلى اثر هذه المعركة ، طلب الجنرال « ارسكين » القائد العام للقوات البريطانية من محافظ القنال لقاءه وذلك لبحث امكانيات تهدئة الموقف ، وعرض طلباته ، فاذا بها كالآتى :

١ ـ سحب قوات البوليس من حى الافرنج بالمدينة الى ان يتم نقل العائلات البريطانية من المنطقة .

٢ ـ سحب جنود بلوكات النظام من حراسة المرافق العامة وقيام جنود الصف الاول من البوليس بهذا الواجب .

٣ ـ عدم ظهور الضباط والجنود المصريين بأسلحتهم فى حى الافرنج الى ان يتم ترحيل العائلات الانجليزية .

٤ ـ مقابل ذلك ستجلو القوات البريطانية عن المدينة بعد ترحيل عائلاتها .

وكان واضحا من عرض هذه الطلبات مدى الخسائر التى لحقت بقوات جنرال ارسكين ، ولذلك وافق المحافظ على قبولها ، ورحلت الاسر الإنجليزية عن الإسماعيلية وغيرها من مدن القنال .



وفى السويس قامت أول معاركها الفدائية فى ٣ ديسمبر عام ١٩٥١ ، وكانت معركة دامية ، اشتركت فيها عشرات السيارات الانجليزية المصفحة المحملة بجنود المدافع الرشاشة ، وقام الفدائيون ورجال الشرطة والسكان بالشوارع العامة ، بصد الهجوم في

شجاعة وبطولة ، هى احـدى علامات الروح القتاليـة الموجودة داخل الانسان المصرى البسيط حين يتحول الى مقاتل ، وظهره الى الحائط ، وقد طبق الفدائيون خطة تكتيكية عسكرية ناجحة ، فتفرقوا الى جماعات .. جماعة تقوم بالهجوم المضاد على السيارات المصفحة فى حى الاربعين وما حوله من شوارع .. وجماعة تنتظر النجدات الانجليزية المدرعة اثنـاء خروجها من مواقع تمركزها ، بينما جماعة ثالثة تنتظر فى منتصف الطريق للقاء ما يفلت من هذه النجدات .

كانت معركة مشرفة من حيث التخطيط والتحضير الذى اعده القادة ، ومن حيث التنفيذ الدقيق المشفوع بالقتال الكاسح الحـاسم الـذى قام به الفدائيون ، وبالرغم من ان خسائرنا فى الارواح كانت كبيرة ، اذ بلغ عدد شهداء هذه المعركة ٢٨ شهيدا وشهيدة ، الا ان حجم الخسائر التى الحقناها بدبابات ومصفحات وجنود العدو كانت ترسل موجات البهجة والتفاؤل والايمان بحتمية النصر ، الى كل مواطن ومواطنة فى السويس بالدرجة الاولى ، وفى مدن القنال ، وجميـع البـلاد بالدرجة الثانية .

وفى اليوم التالى مباشرة تجدد القتال ، ففى اللحظات التى كانت الجماهير تشيع فيها شهداءنا الابطال ، فتح الانجليز رشاشاتهم على المشيعين عند كوبرى «الهويس» وظهرت الدبابات والمصفحات البريطانية ، فأسرع بعض السكان بصناديق اجساد الشهداء بعيدا ، بينما تحول الفدائيون فوق الارض وفى المنازل المحيطة بالمنطقة ،

الى جنود الاحتلال واستمر القتال عدة ساعات ، وسقط للانجليز ٢٤ قتيلا ، بين ضابط وجندى ، و ٦٧ مصابا .. بينما كان عدد شهدائنا ١٤ شهيدا ، وسيدة شهيدة اذ كان لدى الفدائيين معلومات مسبقة بمحاولة الانجليز الوحشية ، فاستعدت جماعات مختلفة الاسلحة من رجالنا وشبابنا لانتظارهم داخل البيوت ، وفى مخابىء سرية لاصطياد الدبابات ، واضطرت القوات البريطانية الى فتح مدافع دباباتها على المنازل بعد أن احترق بعض مدرعاتها .

وقد شيعت جنازات الشهداء فى اليوم التالى ، وارتفعت الاصوات تغنى « بلادى بلادى » ، وكانت نعوش الابطال ملفوفة بالعلم المصرى ، كما غنى الرجال طوال اليوم أغانى « ثورة عام ١٩١٩ » الخالدة .

وفى ١٧ ديسمبر ، وقعت معركة أخرى فى الاسماعيلية ولجأت القوات الانجليزية الى مدافع الهاون - بدافع الحرص على ارواح جنودها ، ولكن الفدائيين المصريين ، ومعهم بعض جنود الشرطة هاجموا جماعات الهاون فى مراكزها المختفية ، وكان قتالا بالالتحام والسلاح الابيض .



وفى ٨ ديسمبر عام ١٩٥١ ، حشد الانجليز ستة آلاف جندى ، و ٢٥٠ دبابة و ٥٠٠ مصفحة ووقفت بعض السفن الانجليزية وقد صوبت مدافعها نحو السويس ، فى استعداد للرد على الفدائيين المصريين ، اذا هاجموهم أثناء هدم « كفر أحمد عبده - ١٥٦ منزلا - بحجة ان الكفر يقع بجوار وابور المياه الذى يزود

المعسكرات البريطانية بالماء ، ولأن القيادة الانجليزية تعتزم أن تمد طريقا وجسرا يصلان بين المعسكرات وبين وابور المياه ، مما يتطلب هدم الكفر وبيوته .

وكانت معركة خاسرة اذ حاولت كتائب التحرير الوقوف فى وجه المتدين ، ولم تفلح محاولات الملك وحكومته والسفير البريطانى فى زحزحة « جنرال ارسكين » عن خطته وتوقيتها الذى حدده فى طلبه لمحافظ السويس ، وما أن هدمت قوات بريطانيا الكفر حتى رددت الصحافة العالمية الحرة انباء الموقعة التى وصفتها بوصمة عار فى جبين الامبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس ، وقالت بعض الاقلام الاوربية تصف عملية هدم الكفر بأنها صفحة سوداء جديدة فى تاريخ انجلترا .

وعقدت الحكومة المصرية عدة اجتماعات سلبية ، واستدعت سفيرها فى لندن احتجاجا على تصرفات الانجليز ، ثم ارسلت مذكرة احتجاج الى السفير البريطاني فى القاهرة ، وأبلغت ممثلى دول العالم بالجريمة التى وقعت فى كفر أحمد عبده ، كما أصدرت بعض القرارات الانتقامية الهزلية كالاستيلاء على نادى الجزيرة للمنفعة العامة ، ونقل المكتب الهندسى المصرى من لندن الى سويسرا ! ..

فى نفس الوقت اجتمعت الهيئة التأسيسية للضباط الاحرار برئاسة القائد الراحل جمال عبد الناصر ، وحضر القائد الرئيس السادات هذا الاجتماع السرى المفاجيء وبعد دراسة تصرفات جنرال ارسكين وهدمه

للكفر الشعبى الفقير ، قرروا الرد عمليا ، وذلك بشن هجمات انتقامية موسعة ، واستمرار الكفاح المسلح على طول مدن القناة ، من السويس جنوبا حتى بورسعيد شمالا . . . وكانت أولى هذه المعارك ، معركة وابور المياه التى أشار اليها السيد حسن التهامى فى الصفحات السابقة ، وهى المعركة التى استمرت ٤٨ ساعة كاملة « ٣ و ٤ يناير عام ١٩٥٢ » وكان الفدائيون الذين كلفوا بالمعركة قد تلقوا خطتهم واحتمالاتها ، وذخيرتهم وأسلحتهم المضادة للدبابات ، ثم تحصنوا فى « كفر سلامة ، وكفر البراجيل » وبعض المناطق المجاورة لوابور المياه ، وبدأ القتال ضد ٢٥ دبابة وأكثر من ٦٠٠ جندى انجليزى ، وخلال الاشتباك نسف الفدائيون جنوب الوابور . .

ولقد تجلت فى هذين اليومين كفاءة التخطيط المصرى لقتال الفدائيين ، كما اثبت شبابنا مقدرة هجومية عالية المستوى والكفاءة طوال فترة القتال ، حتى ان القنصل البريطانى اتصل فى نهاية يوم ٤ يناير ، طالبا من المحافظ وقف اطلاق النار من الجانب المصرى مقابل المثل من جانبهم ، وقد خسر الانجليز عددا كبيرا من ضباطهم وجنودهم الى جانب الجرحى . .

فى نفس اليوم وقعت معركة مسلحة اخرى فى ابى صوير بالاسماعيلية ، وبعد خمسة أيام وقعت معركة ثالثة فى طريق المحسمة ، واستعانت القيادة الانجليزية بنصف لواء مظلات انجليزى . وبقيت هذه القوة عدة أيام تفتش القرى الواقعة على ترعة الاسماعيلية بحثا

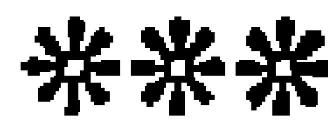
عن الفدائيين أو مخازن أسلحتهم ، وانتقموا فى النهاية من الفلاحين الذين وقفوا كالصناديد يمنعون الانجليز من اقتحام بيوتهم ، ولذلك قام الفدائيون بمعركة التل الكبير التى أشار السيد حسن التهامى اليها فى مهامه وقد بدأت المعركة بنسف قطار انجليزى كان محملا بالذخيرة والجنود ، ثم انتقل الفدائيون الى الهجوم المفاجىء على القوات المعتدية التى حاولت الخروج من معسكر التل الكبير لنجدة القطار وركابه ، وخلال القتال تسللت بعض الوحدات الانجليزية لعبور الكوبرى القائم على ترعة الاسماعيلية ، فنزل احد رجالنا الى قاع الترعة وفتح الكوبرى ، وظل فتح النيران مستمرا بين الجانبين على ضفتى الترعة ، ثم استطاع الانجليز العبور الى الضفة اليمني ، وكان قتالا ضاريا بالالتحام ، انتهي بأمر من « جنرال أرسكين » لقواته بوقف اطلاق النار ، والعودة الى معسكرهم وقد نسف بعضه ..

وقالت الصحف الانجليزية تصف المعركة بأنها من المعارك المنظمة تنظيما جيدا يشير الى وجود بعض العسكريين المصريين ممن يضعون الخطط ويرسمون العمليات للفدائيين ، ثم يدربونهم عليها قبل شن غاراتهم على قواتنا ..

وقالت أيضا : « ان الفدائيين المصريين تصدوا لثلاث مجموعات من المشاة ، والمظلات الانجليزية ، تدعمها الدبابات ، وان المصريين قاتلوا بشجاعة واحكام وتنشين جيد .. »

وقالت صحيفة اخرى : « ان الفدائيين كانوا يقاتلون

بحماس لا نستطيع أن نتجاهله ، لقد قاتلوا يوما كاملا بلا توقف ، وانتصروا فى النهاية بصمودهم وجراتهم ، ولم يركن احدهم الى الفرار خوفا من الموت ، ان « بسالتهم » أصبح بعض القادة الانجليز يصفها بالتفوق ، بعد ان كان يطلق عليها أكاذيب مضحكة ! »



وجاء يوم ٢٥ يناير عام ١٩٥٢ ، ووقعت مجزرة الاسماعيلية ضد جنود شرطة الحكمدارية ، وقاتل رجالنا من بلوكات النظام والبوليس قتالا مشرفا رفع راس المصريين عاليا ، وواجهوا وهم الذين لايملكون غير البنادق القديمة ، دبابات ومدفعية الانجليز — بكل شجاعة وايمان وقد رفضوا وعددهم لايزيد على ٨٠٠ شرطى ، أن يستسلموا أمام سبعة آلاف جندى انجليزى بل رفضوا أن يتوقفوا عن اطلاق النار حتى نفذت آخر طلقة لديهم ، فوقف الرأى العام العالمى ، كما وقفت شعوب العالم أمام قتالهم وتضحياتهم التى أعادت الى الاذهان بطولات العصور الاولى ، الى جانب المصريين اجلالا واكبارا ، واطلقت بعض الصحف الشريفة فى أوربا على معركة الشرطة اسم « معركة الشرف في الاسماعيلية » ..

ثم قام الاستعمار والملك والرجعية فى البلاد بحريق القاهرة يوم ٢٦ يناير عام ١٩٥٢ ، وبدات رائحة الخيانة تفوح وتنتشر ، بعد أن اعتقل الملك جميع الفدائيين ، وسمح للانجليز بالسيطرة الكاملة من جديد على مرافق وثروات مصر ، واستدار ليوجه ضربته ضد العناصر

الثورية فى الجيش المصرى... تلك العناصر التى زودت وحدات الجيش بالمنشورات الثورية السرية فى الوقت الذى كانت تشرف فيه على نشاط حركة الفدائيين إلى جانب اشتراك بعض عناصرها من الضباط كما ذكرنا من قبل فى عملياتها الهجومية ضد قوات الاحتلال البريطانى ... ومع كل هذه الواجبات ... وعيون الجواسيس الذين يعملون لحساب الملك والانجليز مفتوحة تكاد تغطى نشاط المصريين بأكملهم ، كان الثوار يعقدون اجتماعاتهم باستمرار ، على مستوى الخلايا فى أسلحة الجيش أو على مستوى الهيئة التأسيسية للضباط الاحرار ، خاصة بعد حريق القاهرة ، وقد جعلتهم المؤامرة الملكية ـ الاستعمارية ـ الاقطاعية ـ اكثر حذرا وتحفزا ويقظة ، فعجلوا بموعد « الخطة نصر » الى يوليو من نفس العام ، بدلا من نوفمبر عام ١٩٥٥ ..

وقام الرجال بالثورة ، ووقف الله الى جانبهم ، وكان القائد الرئيس انور السادات قد ترك « رفح » عائدا الي القاهرة ، ليؤدي دوره الثوري تلك الليلة الخالدة ، وما توقف نضاله أبدا بعد ذلك ، بل ما توقف على الاطلاق منذ يوم تخرجه ، برتبة ملازم ثان ، وقد حمل ملفه العسكري رقم « ٢٢٧٤ » بين ملفات ضباط الجيش المصرى ..

وثائق الملف العسكرى

نعود الى أوراق الملف العسكرى رقم « ٢٢٧٤ » ، فنجدها تقول ان صاحبها الملازم ثان محمد أنور السادات انضم الى الاورطة الرابعة مشاة كضابط مشاة ، فى فبراير عام ١٩٣٨ ، بمنطقة المكس بالاسكندرية ، وظل هناك حتى يوليو من نفس العام ، فنقل الى منقباد ، وهناك التقى مرة أخرى بالزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، وظل السادات بمنقباد حتى أول أكتوبر عام ١٩٣٩ ، وفى اليوم التالى نقل الى سلاح الاشارة ، وظل يخدم فى منطقة المعادى برتبة ملازم أول حتى اغسطس عام ١٩٤٠ ، حينما ذهب الى الصحراء الغربية بمرسى مطروح ثم عاد الى المعادى فى أول سبتمبر عام ١٩٤٠ ، ويظل بها حتى ابريل عام ١٩٤١ ، فينقل مرة أخرى الى الصحراء الغربية فى ٢٥ ابريل عام ١٩٤١ ، الى ٢٧ يونيو من نفس العام ، وكان قد رقى الى رتبة ملازم أول كما ذكرت مع بداية عام ١٩٤٠ ، ونشرت الصحف اسمه بين أسماء الضباط الذين ترقوا من دفعته صباح ٨ يناير عام ١٩٤٠ ..

انضم السادات الى سلاح الحدود ، والتحق بكتيبة اشارة السلاح بالجبل الاصفر ، وبقى بها حتى ٧ أكتوبر عام ١٩٤٢ ، ليترك الخدمة بالقوات المسلحة بالرغم

مثله ـ تحت ضغط الاستعمار البريطاني والملك ، ويبقى بعيدا عن الجيش المصرى الى ١٥ ينـــاير عام ١٩٥٠ ، حيث عاد الى سلاح الاشارة برتبة يوزباشي وكان قد حصل عليها قبل اكتوبر عام ١٩٤٢ ، فى الوقت الذى كان زملاؤه يحملون رتبة « بكباشى » ..

***

وابتداء من يناير عام ١٩٥٠ ، حتى سبتمبر من نفس العام ، ظل ضابطا للاشـــارة بالقاهرة ، دخل خلالهـــا امتحانين للترقى ، ونجح فيهما ، ورقى الى رتبة صاغ « رائد » وكان ذلك فى ٢٣ سبتمبر عام ١٩٥٠ ، وقبل ترقيته بثلاثة عشر يوما صدر له قرار نقل الى القنطرة ، وبقى بها حتى ١٠ اكتوبر ، ثم خدم بالعريش حتى نهاية مارس عام ١٩٥١ ، واخيرا فى رفح ، حيث ذهب اليها فى ابريل عام ١٩٥١ ، ورقى فى ٦ مايو عام ١٩٥١ ، الى رتبة البكباشى ، واستمر « برفح » كضابط اشارة بالفرقة الاولى مشاة حتى يوم ٢١ يوليو عام ١٩٥٢ ، حيث عاد الى القاهرة فى نصف اجازة ميدان ، وهى اربعة أيام ، ليقوم بواجبه الى جانب الزعيم الراحل فى ليلة ٢٣ يوليو الخالدة ... وكان الرئيس السادات قد ذكر فى يوليو الماضى ، أن السيد حسن ابراهيم عضو مجلس قيادة الثورة قد زاره « برفح » حيث التقى به بالمطار الحربى ، وانبأه بساعة الصفر التى حددها القائد الخالد جمال عبد الناصر ، لتنفيذ الخطة نصر ، خطة ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ..

وكانت هنـــاك معلومات أخرى قـــد ابلغت للرئيس

السادات قبل أيام من وصـول السيد حسن ابراهيم اليه ، تفيد بأن موعد التحرك «سيتحدد وينفذ» خلال أسبوع ، فاستعد لذلك ، كما سنرى فى أحاديث رفاق السلاح الذين خدموا معه بالاشارة حتى صباح ٢٢ يوليو عام ١٩٥٢ ، وهو يستقل قطار غزة عائدا الى القاهرة ، للقاء الزعيم الخالد جمال عبد النـاصر ، والقيام بالثورة ...

تقاريره السرية

ذكر الرئيس السادات فى الاوراق التى حررها بخطه لضمها الى ملفه ، انه عند بدء تخرجه فى الكلية الحربية ، وأثناء دراسته العسكرية بها ، كان يسكن مع والده بالقاهرة بالمنزل رقم ١٨٣ بشارع القائد بكوبرى القبة ، وما زال الشارع قائما يحمل نفس الاسم ، وما زال البيت موجودا ، وبه الآن مدرسة القائد الخاصة ، وان وظيفة والده هى كبير كتاب القسم الطبى بالمستشفى العسكرى العام بالقاهرة ، واسمه « محمد السادات » ..

ثمة وثيقة اخرى حررها بخطه ، ويقول فيها : « انه يرغب فى دخول امتحان كلية أركان الحرب ، الدورة الثالثة عشرة ، وان اللغة الاجنبية التى يرغب الامتحان فيها هى الانجليزية — توقيع بكباشى محمد أنور السادات — آلاى اشارة الفرقة الاولى — سلاح الاشارة الملكى — رفح — فى ٢٤ نوفمبر عام ١٩٥١ » ..

وفى ملف الرئيس السادات عدة تقارير سرية ، وضعها قادته عن عسكريته وسلوكه ... جاء فى التقرير السرى السنوى الاول ، وهو عن المدة من ٢ نوفمبر عام ١٩٣٩ ، حتى نهاية آبريل عام ١٩٤٠ ، وكان برتبة ملازم أول :

« الحالة الصحية ـ جيدة جداً » ..

ناشيء يحترم نفسه جدا ويحترم رؤساءه ، يقدس واجبه الرسمي ويقوم به على أكمل وجه ، على جانب عظيم من الاخلاق ، هاديء الطبع ، يعمل فى صمت وسكون ، كفاءته الفنية والعسكرية تستوجب التقدير مكانته الشخصية موضع احترام زملائه ورضائى التام .. » التوقيع للقائد ..

وفى تقرير آخر عنه وضعه قائد اللواء المشاة فى ٢٢ مايو عام ١٩٤٠ ، ويبدو ان السراى الملكية كانت قد طلبت تقريرا سريعا عنه لان الفارق الزمنى بين تاريخ التقرير السابق وهو نهاية ابريل عام ١٩٤٠ ، وتاريخ هذا التقرير ٢٣ مايو عام ١٩٤٠ ، ٢٣ يوما ، لا تبرر اعداد تقرير سرى جديد عنه الا اذا كانت هناك تعليمات بذلك من وزير الدفاع أو الملك ... وفى تلك الفترة كان نشاط الملازم أول أنورالسادات ضد الاحتلالالبريطانى، قد بدأ يخرج عن نطاق المجموعة الخاصة من الاصدقاء والزملاء ...

يقول التقرير :

أخلاقه حسنة ، نشط ، ضابط جيد جدا ومثالى ، قدير فى فنه ، ميال للضبط والربط ، أخلاقه حسنة ، مكانته متينة بين اخوانه ..

وفى تقرير ثالث عن المدة من أول مايو عام ١٩٤٢ ، حتى نهاية سبتمبر عام ١٩٤٢ ، ويبدو أن بعض قادته شعر بأن السراى لم تعد تطمئن الى نشاط هذا الضابط الذى يعمل بالسياسة ، فوضعوا فى تقريرهم كلمات مختصرة مثل :

« ضابط مؤدب، هادىء الطباع، محترم من اخوانه، حسن المظهر والهندام ، كفاءته الفنية مرضية » ..

وكان « الرئيس أنور السادات » فى تلك الايام برتبة يوزباشي ويعمل « قائد ثان » كتيبة لاسلكى بسلاح الاشارة ، ثم قرر « الملك » تلبية لرغبة القادة الانجليز اخراجه من الجيش المصرى بدون تحقيق أو محاكمة ، ولم يكن قد حدث من قبل ان أبعد أى ضابط بهذا الاسلوب الارهابى ... حدث هذا فى ٨ أكتوبر عام ١٩٤٢ ، أي بعد كتابة التقرير السرى السابق بأسبوع واحد ، وكان ابعاده عن الجيش بداية لسلسلة من المطاردات البوليسية، والزج به الى السجون والمعتقلات .. ولم تتوقف هذه الحملة الملكية الاستعمارية ضده حتى بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية ، الى أن استطاع بفضل صموده ، ومعاونة بعض كبار الضباط الشرفاء ، العودة الى الجيش فى منتصف يناير عام ١٩٥٠ ..

ولكن ماذا كتب قائده عنه فى أول تقرير سرى ، بعد عودته ضابطا ؟ !

ذكرت هذه الكلمات : كفء ، مطيع ، مؤدب ، نبيل الاخلاق ، معلوماته الفنية جيدة ..

وفى عام ١٩٥١ ، جاء فى تقريره السرى عن ذلك العام : متين الاخلاق ، حسن المظهر ، شخصيته محترمة وقوية ، كفء عسكريا واداريا ، ضابط مؤدب ومطيع ، يمتاز بالرجولة الكاملة ـ توقيع : قائمقام محمود حسنى ، قائد آلاى الاشارة بالمشاة ، ثم توقيع آخر بالموافقة للأميرالاى محمد سيف ، قائد الفرقة الاولى مشاة ، تاريخ أول أغسطس عام ١٩٥١ ..

وفى آخر تقرير عسكرى وضع عنه كضابط بالجيش، ويحمل تاريخ نهاية ابريل عام ١٩٥٢ ، أى قبل قيــام الثورة بثلاثة أشــهر ، جاء فيه : « ان البكباشى محمد أنور السادات ، شخصية بارزة ، أبرز صفاته الوفاء ، والامانة ، والرجولة ، موضع ثقة ومحبوب جـدا من مرءوسيه ، نجح نجاحا تاما فى عمله ، وحصل على ثنـاء قائد الفرقة ، توقيع : قائمقام حسن محمد على قائد آلاى الاشارة » ..

وفى الملف أيضا عدة شهادات نجاح بتفوق فى امتحانات فرق الشئون الادارية ، والاسـلحة الصـغيرة وقادة السرايا ، ولقد حصل على هــذه الشهادات وهو برتبة يوزباشى ، واختصاصاته « اشــارة » وكان قد قضى فور التحاقه بسلاح الاشارة فترة ليست بالقصيرة فى مدرسة الاشارة ، والتقى الاثنان مرة أخرى ، الزعيم الراحل ، والقائد الرئيس أنور السادات ، وكان الملازم جمال عبد الناصر يحصل على فرقة اشارة كضــابط مشاة ، بمدرسة الاشارة وقتها ..

ومضى هذا اللقاء الطويل بينهما يصنع كبقية اللقاءات التى تلته ، حلقة جديدة من حلقــات الفكر الواحد ، والمشاعر الملتحمــة ، والارادة التى لا تلين ، ولا يضــيع الهدف منها يوما ... ولقد حقق الرجال بالفعــل تلك الاحلام الوطنيــة التى راودتهم ذات يوم وهم يتقدمون بأوراقهم الى المدرسة الحربية ، وعاشوا من اجلها طلبة وضباطا ، ففجروا ـ بعد ١٤ عاما حافلة بالجهد والعمل والتعبئــة والارهاب المســلط عليهم ـ ثورة ٢٣ يوليو الخالدة ، وقد دخلت الآن عامها العشرين مليئة باليقين والمعارك المستمرة ، دفاعا عن الحرية والحق والشرعية.

تاريخه النضالى

من المفيد لاستكمال الصورة اذا أردنا استقراء تاريخ « أنور السادات » النضالى أن نعود الى الفترة التى تقرر فيها فصله من الجيش المصرى ، بخطاب صادر من مكتب رئيس الديوان الملكى ، ما زال بملفه العسكرى حتى اليوم ، ثم مطاردته واعتقاله أكثر من مرة وتقديمه للمحاكمة الجنائية ...

كيف كان يبدو مناخ تلك الايام ، ذلك المناخ الذى دفع الاستعمار البريطانى، والسراى الملكية ، والحكومة التى تتولى الحكم ، الى محاولة التخلص من اليوزباشى محمد أنور السادات ؟ !

كانت القيادة العسكرية الانجليزية للشرق الاوسط تعانى هزائم متكررة فى الصحراء الغربية امام روميل ، فأخلى الانجليز « بنى غازى » بعد معركة خاسرة — يناير عام ١٩٤٢ — وظل الحصار الالمانى مضروبا حول « طبرق » ..

وفى ٢٦ مايو عام ١٩٤٢ ، بدأ هجوم الالمان على الجيش البريطانى الثامن يقوده «الجنرال رتشى» ودارت عدة معارك ضارية ، انتهت باستيلاء الالمان على « بير الحكيم » ٢٥ ميلا جنوبى طبرق غرب ، ثم انسحب الانجليز من « جسر الفرسان ومن الفزالة » جنوبى

طبرق فى منتصف يونيو عام ١٩٤٢ ..

وفى ٢١ يونيو سقطت طبرق وأسر الالمان نحو ثلاثين الف مقاتل انجليزى ، وكان لسقوطها أثر كبير على خطط القيادة الانجليزية التى توقعت زحف الالمان حتى الاسكندرية والقاهرة ..

وفى اواخر يونيو عام ١٩٤٢ ، زحف الالمان مرة اخرى فانسحبت القوات البريطانية امامها ، أخلت مرسى مطروح ، وفوكه ، والضبعة ، وقررت الثبات بناء على نصيحة المرحوم الفريق عزيز المصرى فى منخفض القطارة وهو خط دفاعى كعنق الزجاجة بحيث يصعب على الجيش المهاجم اختراقه ..

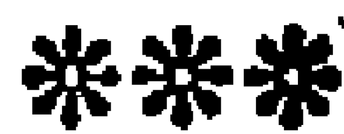
وفى اول يوليو عام ١٩٤٢ ، اشتعلت المعارك القتالية بين الالمان والانجليز واستمرت ستة أيام وقد استطاع الجيش البريطانى ان يصمد طويلا ، رغم موقفه الحرج وخسائره الكبيرة ..

وفى أغسطس وسبتمبر عام ١٩٤٢ ، عاود «روميل» هجومه ، مما جعل القيادة الانجليزية تطرح خطة الانسحاب من العلمين الى الطريق الممتد بين الاسكندرية والقاهرة ، فى اجتماعاتها العسكرية ..

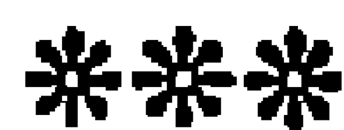
هكذا كان الموقف العسكرى الذى تعيشه القيادة البريطانية فى سبتمبر عام ١٩٤٢ ، حين طلبت من السراى التخلص من بعض الضباط المصريين المعروفين بعدائهم للانجليز حتى لا يكونوا شوكة فى ظهرها اذا اضطرتها ظروف القتال الى الانسحاب حتى القاهرة ، وقد تعللت فى تبليغها هذا الطلب الى الملك فاروق الاول ،

والحكومة التى جاءت بها فى ٤ فبراير المشهور من نفس العام .. بما تتوقعه من قيام هؤلاء الضباط بنشاط قد يخدم الالمان . وطلبت أيضا اعتقال بعض العناصر المدنية المعروفة بعدائها للاستعمار ، وقليل من الاجانب الذين يعيشون بمصر ..

وللتاريخ ، لم يهتم الملك الا باليوزباشى انور السادات الذى كان يعلم الكثير عن نشاطه الوطنى داخل الجيش وخارجه ، من خلال التقارير التى يعدها جواسيسه ، فطلب فصله على الفور ، وكان أنور السادات أول ضابط مصرى يفصل من الجيش بدون محاكمة جدية ، وقد تنبه أعوان الملك لذلك ، فأعدوا له الاتهامات والمحاكمات المزيفة بعد فترة قصيرة فى محاولة لاستصدار حكم قضائى شرعى باعدامه أو سجنه مدى الحياة .



من المفيد ايضا ان نلقى نظرة على الموقف الداخلى فى البلاد ، خلال تلك الايام التى قرروا فيها ابعاده عن الجيش المصرى ، بعد تحقيق شكلى أجراه الضباط الانجليز بمعاونة بعض الضباط المصريين ، وقد رفض « السادات » ان يقبل الوقوف أمام « هؤلاء » ، بل ورفض أن يجيب على سؤال واحد من الاسئلة التى وجهوها اليه ، ولم يعلن أمامهم غير رفضه الكامل لتشكيلهم العسكرى ..



كيف كانت تبدو أوضاع مصر السياسية عام ١٩٤٢ ؟

ـ لقد شهدت البلاد فى الاسبوع الاخير من يناير عام

١٩٤٢ ، مظاهرات صاخبة .. لم يعرف كما يقول « الرافعي » على وجه التحديد مصدرها ، ولكنها كانت مظاهرات جماهيرية تعبر عن ازمة التموين ، ولم يكن السكان يستطيعون الحصول على رغيف الخبز كل يوم .. واستعاض القادرون عنه بالمكرونة والبطاطس ، وبدا من الطبيعى أن تجد الزحام الشديد والمشاجرات المستمرة امام كل مخبز ، وفى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار ، واغلقت كثير من المخابز أفرانها ، كما اصبح الشاى نادرا كالذهب ومثله السكر ، وحين انفجرت الجماهير تعبر عن مطالبها فى مظاهرات مكثفة ، انما كانت تعبر ايضا عن سخطها على قوات الاحتلال البريطانى ، فترددت الهتافات : « تسقط بريطانيا » .. الى الامام يا روميل ...

وذعرت قيادة المستعمر ، وتكهنت باحتمالات عديدة فطلبت السفارة البريطانية فى القاهرة من المرحوم حسين سرى باشا رئيس الوزراء ايامها ضرب هذه المظاهرات العدائية ، فقال لهم : ان الموقف أفلت من يده ، وامام تطور الاحداث وثورة الرأى العام المصرى قدم استقالته فى ٢ فبراير عام ١٩٤٢ ..

ولقد استغل الانجليز هذه الاستقالة فقاموا بحركتهم الجريئة وهى العملية المعروفة بحادث ٤ فبراير ، اذ حاصروا القصر الملكى فى عابدين بالدبابات والمدفعية ووجهوا انذارا الى الملك فاروق بتحمل ما يترتب من نتائج اذا لم يطلب من النحاس باشا ، تأليف الوزارة .

وخضع الملك للانذار البريطانى ، وكتب النحاس

باشا الى السفير البريطاني خطابا جاء فيه : « وليكن مفهوما يا صاحب السعادة ان الاساس الذى قبلت عليه مهمة تأليف الوزارة هو انه لا المعاهدة البريطانية المصرية ، ولا مركز مصر كدولة مستقلة ذات سيادة يسمحان للحليفة بالتدخل فى شئون مصر الداخلية ، وبخاصة فى تأليف الوزارات أو تغييرها ! »

« وانى آمل يا صاحب السعادة أن تتفضلوا بتأييد يتضمن ما فى خطابى هذا من المعانى » ..

ولقد رد السفير البريطانى بقوله : « لى الشرف ان اؤيد وجهة النظر التى عبر عنها خطاب رفعتكم ، وانى أؤكد ان سياسة الحكومة البريطانية قائمة على تحقيق التعاون باخلاص مع حكومة مصر من غير اى تدخل منها فى شئون مصر الداخلية ولا فى تأليف الوزارات » !..

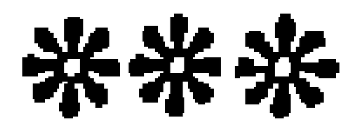
وعندما اذيع نص الخطابين استقبلهما الشعب المصرى بسخرية شديدة ووصف ما حدث بالمهزلة ! ..

وفى مارس عام ١٩٤٢ ، استصدرت وزارة ٤ فبراير برئاسة النحاس باشا مرسوما بحل مجلس النواب حيث أجريت الانتخابات بعد ذلك وأسفرت عن اغلبية وفدية، وفعلت نفس الشيء بمجلس الشيوخ ...

يقول الرافعى :

« أول ما يؤخذ على وزارة النحاس أعوام ١٩٤٢ ـ ١٩٤٤ ، انها سايرت الانجليز وعاونتهم بشكل لا يتفق مع الواجبات الوطنية ، فقد سمح النحاس باشا لانصاره ان يهتفوا طويلا بحياة انجلترا فى فناء مجلس الوزراء عند قدوم السير مايلز لامبسون « لورد كيلرن » للتهنئة بالوزارة وهذا ما لم يحدث فى عهد أى وزارة من قبل ولا من بعد ! .. »

ثم اقام رئيس الوزراء حفل تكريم للسفير البريطانى بسراى الزعفران لمناسبة الانعام عليه بلقب لورد ، وتبادلا فى هذه الحفلة خطبتين اشتملتا على شتى المعانى المنافية لكرامة البلاد وعزتها » ..



وسيطرت السفارة البريطانية بعد ذلك على مرافق البلاد الحيوية ، كالتموين والمواصلات ، ثم طلبت سرا اعلان الاحكام العرفية فى مصر ، وكانت بداية حركة اعتقالات وتشريد واسعة فرضتها سلطات الاستعمار ، واستغلتها السراى الملكية والوزارة الحاكمة للتخلص من خصومها ... وكان « أنور السادات » الضابط الشاب الوطنى فى مقدمة أعداء الاستعمار البريطانى والنظام الملكى العميل .

مع عزيز المصرى

كان انور السادات حين تقرر ابعاده عن الجيش المصرى عضوا فى التشكيل الثورى العسكرى الذى أخذ ينمو فى سرية وبطء باحثا عن صيغة مناسبة ، يعمل من خلالها ...

وقد كان وجود مثل هذا التشكيل داخل الجيش المصرى ، قبل تلك الفترة من المستحيلات . وللحق ، وللتاريخ ، نقول : ان تكوين هذه المجموعة من شباب مصر داخل الجيش المصرى يعتبر من أخطر الاحداث التى وقعت فى النصف الاول من القرن العشرين ويروى الرئيس انور السادات قصة هؤلاء الضباط الصغار فى السن والرتب ، والكبار فى الاحلام والآمال ، فيقول :

« كنا ضباطا صغارا وكان لنا قادة وكان هناك أيضا انجليز ، وكان قوادنا المصريون ، لا عمل لهم الا اذلالنا والانحناء أمام الانجليز .. وكنا نرى هذا الوضع الكريه ، فنحترق ، ونسخط ، ولكننا لم نستطع ان نتكلم . وماذا يستطيع ملازم ثان ان يفعل داخل النظام العسكرى وفى تلك الاوضاع الرهيبة الا أن يسكت ويكظم الغيظ ويدفن النار فى حشاه » ..

ويروى الرئيس السادات تحرك المجموعة الاولى من هؤلاء الضباط الشبان فى منقباد ، عام ١٩٣٨ ، وكيف

توصلت بالحوار المخلص الى ان الانجليز هم أصل بلائنا كله ، وكيف بدأ هؤلاء العمـــــل ، عندما اعلن رئيس الحكومة المصرية وقتئذ ـ على ماهر ، سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب ـ اثر نشوب الحرب العالمية الثانية فغضبت بريطانيا وأجبرته على الاستقالة ، وفكر هــؤلاء الضباط الشبان بعد مزيد من الدراسة أن يحتلوا كل المرافق العامة فى القــاهرة ، ثم يفرضــوا حكومة على ماهر مرة أخرى ، بعد اســتقالته المعروفة المدوية ، ثم عدلوا عن تنفيــذ هــذه الخطة بعــد أن تراءى لهم أن تنفيذها سيكون وبالا عليهم وانهم لن يستطيعوا النجاح فيها الى النهاية • ويذكر الرئيس الســادات ، كيف بدأ هؤلاء الضباط الشبان فى الاتصال بعزيز المصرى ، وعزيز المصرى قطعة من تاريخ العروبة أوقف كل شبابه وحياته للعمل العربى الثورى وتعرض فى سبيل ذلك للاضطهاد والتشريد ، فلما أتيح له أن يراس اركان حرب الجيش المصرى عمــد الى خلق جيش مصرى سليم .. الامر الذى اثار حفيظة الاحتلال البريطانى ضده ، فاذا بهم يعطونه اجازة اجبارية ، ولم يكن عزيز المصرى ، وهو الجندى المحارب دائما يرضى بمثل هذه النهاية ، فراح يكتب ، ويخطب ، ويتصل بابنائه الكثيرين من الضباط الشبان الذين راحوا بدورهم يضعون آمالهم فيه .. وكانت الاجازة الاجبارية ، لعزيز المصرى ـ كما يروى السادات ـ اشبه بناقوس كبير يدوى فى آذاننا لــكى تبدأ العمل ، ويلتقى السادات بعزيز المصرى ، ويقول عزيز المصرى لانور الســادات : عيب هــذا البلد انه

ضعيف ، وانه لا يجد العناصر التى تغـذيه بالقوة ، ويسأله السادات : وكيف نأتى بالقوه ؟ .. ويقول عزيز المصرى :

« أنتم شبـاب الجيش .. ماذا تنتظـرون ؟ ومتى تعرفون مسـئوليتـكم الحقيقيـة ؟ ومتى تبـدأون فى الاضطلاع بها ؟ »

ويعود السادات متسائلا : وهل تظن اننا فى داخل الاوضاع القائمة نستطيع اليوم شيئا ؟ ..

ويجيب عزيز المصرى وقد انتفض :

« تستطيعون كل شىء ، وغيركم لا يستطيع شيئا ، ماذا تنتظرون ؟ توجيها منى ؟ من لواءاتكم ؟ من حكام البلاد ؟ .. »

وسكت وهو يتمتم : « كلام فارغ » ..

وينظر عزيز المصرى الى انور السـادات فى عزيمة شابة ، ثم يقول :

« لقـد كان نابليون فى السابعة والعشرين من عمره فقط ، كان مثلك هكذا شابا صغيرا ، ولكنه اسـتطاع ان يكون فى تلك السن المبكرة ، نابليون القائد ، واستطاع ان يقود بلاده وجيشه ولم يكن يتلقى توجيها من أحد .. التوجيـه الوحيـد الذى كان نابليون يستلهمه فى كل خطـواته هو الايمان ، الذى كان ينبعث من نفسـه ، فابحثوا عن الايمان ولا تعتمدوا ابدا على أحد الا على انفسكم .. »

وكان لـكلمـة الايمان فى نفسى ـ هـكذا قال انور السادات ـ رنين خاص عميق فقد كنت انا ايضا ابحث

عن الايمان واومن فى الوقت نفسه ، بأنه المخرج الوحيد لنا من الحيرة ، التى كان المصريون جميعا يعيشون فيها فلا يكادون يقدمون حتى يحجموا ، تيئسهم الحسرات وترهبهم المخاوف ..

ويقول عزيز المصرى مرة أخرى : اعملوا وحدكم ، واعتمدوا على شبابكم وايمانكم ، والذى يستطيع ان يقصى عزيز المصرى عن توجيه الملك والذى يستطيع أن يقصيه عن توجيه الجيش لا يستطيع ان يقصى ضباط الجيش عنه ..

فى المعتقلات

انطلق « السادات » بعد ذلك الى مجال النضال الوطنى ، مسلحا بالايمان ، لا يفكر الا فى مصير بلده المحتل ، وكان دائم النشاط والتنقل بين الضباط الذين يختبرهم عن قرب ، عاملا على اثارتهم ضد سياسة القيادة الانجليزية المسيطرة على الجيش المصرى ، وتوسع نشاطه فشمل صف الضباط والجنود حتى اصبحت له قواعد بشرية مؤيدة فى سلاح المشاة وسلاح الاشارة وسلاح الحدود ، وهى الاسلحة التى خدم بها قبل أن يقف أمام مجلس عسكرى مكون من ثلاثة ضباط مصريين ، وانجليزيين : أحدهما برتبة صاغ ، واسمه « جنكيز » والثانى برتبة يوزباشى واسمه «سمبسون» وضابط من البوليس المصرى يبدو كما يقول السادات وكأنه انجليزى ..

وقد كان أهم ما دار فى المجلس العسكرى ، هكذا يقول الرئيس السادات .. اعتراضنا على أن نحاكم كضباط مصريين أمام ضباط انجليز ، ولو كانوا مخولين هذه السلطة من وزير الدفاع المصرى ، ومن رئيس الحكومة المصرية نفسه مصطفى النحاس باشا ، بل لقد كان هذا التصرف من حمدى سيف النصر باشا وزير الدفاع ، هو الخنجر الذى طعنا به فى ذلك اليوم ...

ولم يستطع المجلس العسكرى ان يحصل منا على شيء أو يقدم لنا أدلة ادانة ، لا اعترافات ولا اجابات على ابسئلة ، لا شيء غير الاحتجاج العنيف ، ثم التجاهل والاحتقار له ..

ولقد تقرر بعد ذلك وضعنا تحت الايقاف ، ثم طردنا من الجيش فى ٨ اكتوبر عام ١٩٤٢ ، اى بعد ثمانية أشهر من حادث ٤ فبراير المشهور ! ..

ولم نكد نبرح مكاننا فى الجيش حتى تسلمتنا السلطات المدنية الى سجن الاجانب ، ثم الى معتقل المنيا ..



وبعد فترة قصيرة نقل أنور السادات مع رفاقه الى معتقل فى قرية ماقوسة على بعد ٤ كيلومترات جنوب المنيا ، ثم بعد فترة أخرى الى معتقل الزيتون ، وقد اصيب خلالها ببعض الامراض ، فذهبوا به الى مستشفى قصر العينى ، وبواسطة زملاء التشكيل السرى استطاع الهرب من المستشفى واتخذ لنفسه اسما مستعارا ، وشكلا مختلفا ، وعرف باسم الحاج محمد نور الدين ، واخذ يعمل ليكسب قوته فافتتح مكتبا للمقاولات بشارع سكة المناخ ، ثم عمل فى نقل الطرود ، ورسى عليه ، هو وزميل له عطاء انشاء طريق بين شركة بورتلاند ، ومدينة حلوان ، وانشاء طريق البدرشين ، ويتحمل أنور السادات فى سبيل بلده ما لايتحمله الا المناضلون ، المخلصون الشرفاء ولم يكن اكتساب لقمة العيش بتلك الاعمال الشاقة المضنية ليحول بين أنور وبين العمل

الوطني الجاد ، المتواصل القائم على التضحية الفـذة الفريدة ..

ثم اعتقلوه مرة أخرى ! ..

وعن تلك الايام القاسـية ، المظلمـة ، كتب أنور السادات يقول :

كنت قد نقلت الى معتقل المنيا وكنت أذود عن نفسي هم التفكير في العـالم الخارجي بالقراءة الـكثيره أقطع بها وقتي .وكان هم التفكير في خارج المعتقل ، هما ثقيلا مثيرا للنفس ، باعثا للكآبه ، والجنون .. فمثلي فقـير لا يملك غير عمله وزوجـة وأولاد ، يعيش في المعتقـل لايعرف لأهله معينا غير الذي خلقه وخلقهم ، وفي طريقي اليومي الى مكتبة المعتقل التقيت بالمرحوم الشهيد يوزباشي محمد وجيه خليل الذي استشهد في حرب فلسـطين وينتحي بي الصديق ناحية ليسر في أذني ان التشكيل قد رتب لعائلتي عشرة جنيهات في كل شهر ، وانه جاء لـكي يطمئنني بعد أن عزت على الجميع زيارتي وكانت هذه العاطفة الصادقة من زملائي هي أسمى ما يمكن أن يشعر به مثلي في ظلمة الاعتقال.. فقد تعرف عن الذين زاولوا الـكفاح من أجل فكرة انهم لايضعفون أمام الموت ولا يضعفون أمام السجن ولا يضعفون أمام التعذيب ، وقد يخيل اليهم في لحظات الحماس والانفعال انهم لن يضعفوا أمام شيء في الوجود ولـكنهم في هذا واهمون ، فهناك الشيء الذي يضـعفون أمامه والذي لا يملـكون حياله شيئا الا الفرار من الواقع ، والفرار من التفكير فيه ، والفرار من هـذه المطـارق التي تطرق الرأس

والقلب والضمير ، وتحيل الجبار شخصا ضعيفا يكاد يستسلم ، ويكاد يستغيث ، لولا كبرياء الكفاح وتأثير الفكرة المتأصلة فى نفسه ومثالية الهدف.، ولعلك عرفت الآن ما هو هذا الشيء الذى يضعف أمامه المجاهدون ، انه الولد ، الطفل ، العيال ، هؤلاء الصـغار الودعاء الذين ندفعهم دفعـا الى مرارة الـكفاح ، ونأخـذهم اخذا على الصبر والحرمان ، والتقشف ، ولما يبرحوا بعد مراحل الصبا .. هؤلاء هم نقطة الضعف فينا ، وهى نقطة ضعف أعترف بها ولا تخجلنى لاننى انسان ، وقد كنت أحتمل أن يحرم أطفالى من رعاية أبيهم ولـكنى ما كنت أصبر على حرمانهم من ضرورات الحياة ..

وقد كانت هذه الجنيهات العشرة هى العون الوحيد الذى أقبله لاطفالى لانها لم تصـدر عن عطف ، ولا اشفاق ، وانما صدرت عن فكرة مشتركة وتكافل بين مكافحين ، وبدأت أنسى هم الحياة فى خارج المعتقل ، وبدأت أفكر فى خطوط المستقبل ، وخطوات الجهاد .

أمام القضاء

وفى خضم المَعركة العنيفة ضد الاحتلال البريطانى تلك المعركة الشعبية الرائعة التى اتخذت موقعا جديدا اثر انتهاء الحرب العالمية الثانية ، اغتيـل أمين عثمان فى مساء ٩ يناير عام ١٩٤٦ ، وقد قام بهذا الاغتيال تشكيل من خارج الجيش ، وامين عثمان باشا هو أحد أعمدة السياسة البريطانية فى مصر ، ورئيس رابطـة النهضة التى أنشئت عام ١٩٤٥ ، لتكون مقرا للدعاية البريطانية فى القاهرة وأمين عثمان باشـا هو صاحب تلك العبارة المشهورة :

« بريطانيا ومصر ، كزوجين كاثوليكيين ، لايتم الطلاق بينهما ، ولا يتم الفراق الا بالموت » . وقـد كانت قضية مقتل أمين عثمان ـ وهى التى عرفت فيما بعد بقضية الاعتداءات السياسية من أخطر ما مر بتاريخ مصر من القضايا وقد قبض على عزيز المصرى فى تلك القضية لعلاقة أنور السادات ـ المتهم فى القضية ـ به وكان ما جاء فى محضر التحقيق مع عزيز المصرى ، انه يعرف أنور السادات وهو معجب به منـذ كان رئيسا لاركان حرب الجيش المصرى وكان أنور ضابطا فى سلاح الاشارة ، وبعد خروج عزيز باشا من الجيش ظل انور يتردد عليه ويزوره فى بيته خلال الاعيـاد وكان عدد

المتهمين فى القضية ٢٦ شـابا مصريا وكان مركز أنور السادات بين المتهمين « السابع » ، وقد انتهى التحقيق فى القضية فى شهر مارس عام ١٩٤٦ ، وشهدت المحاكمة احـداثا هامة من بينها اتفـاق القضـاء والمحاماة على التحدث فى بداية جلسـة ٢ ديسمبر عام ١٩٤٦ عن القضية الفلسطينية ، وقد أناب المحامون المصريون عنهم المحامى الموسوى ، الاسـتاذ زكى عريبى ، وفى هـذه القضية أدى الشهادة مصطفى النحاس ، وعلى ماهر ، وحافظ رمضان ، وبهى الدين بركات ، وحسين سرى ، ومحمد حسين هيكل ، وفى هذه القضية أثير موضوع خطير هو مطالبة الدفاع بتنحية محمد كامل القاويش ممثل النيابة عن كرسى الادعاء ، وفى هـذه القضيـة ايضا ـ ولاول مرة فى التـاريخ ـ يقف ممثل الاتهام الاستاذ حسـن أنور حبيب فى جلسـة ١٠ ابريل عام ١٩٤٦ ، ليصف يوم ٤ فبراير بأنه سيظل وصـمة فى جبين الامبراطورية البريطانية وسيظل دليـلا صـارخا على البربرية التى هوى اليهـا الانجليز فى ذلك اليوم الاغبر الكالح . وسنظل نلعن الانجليز أبد الدهر ماداموا محتلين بلادنا ولو كانوا فى أجدب بقعة فيها ويخيل الى ان كل باب يغلق كأنما ينصفق فى وجوههم وان كل حجر بأرض الوادى ود لو طار فحصبهم فى جبـاههم وان كل كلب ينبح انما يصرخ فى وجوههم : اخرجوا من هذا البلد ، الجلاء ووحدة وادى النيـل شعورنا وشعارنا ، بل هو ترديد لوجيب قلوبنـا ، ونبضـات دمائنا وهمسات أرواحنا شيبا وشبانا رجالا ونسـاء .

وفى جلسة ثالثة جاء محمـــود منصور «بك» النائب العام ليصرح بأن تلك العبارات التى وردت على لسان أنور حبيب لا تعبر بحال عن رأى النيـابة العامة .. وهـاج المتهمون فى قفص الاتهـام وثاروا ووقف انور السادات يقول بصوت جهورى : أنا أفضل أن اشنق ألف مرة على أن أرى النائب العام يتراجع ويقف هذا الموقف غير المشرف ؟ ! ..

التشكيل الثانى

يقول احد رفاق الطفولة والشباب :

ـ لم يكن بالرجل الذى يحطمه المعتقل أو يقضى على معنوياته ونشاطه ، اذ عمل ذات مرة على انشاء تشكيل سرى من زملائه المعتقلين ، ووضعوا خطة للهرب والقيام بعمليات انتحارية ضد قوات الاحتلال البريطانى ـ ثم كتب رسالة سرية خبأها فى « ذيل جاكت البيجاما » التى اعتاد ارسالها الى أسرته للتنظيف ، طلب منا ان نسلمها للمرحوم الفريق عزيز المصرى يدا بيد .

وكانت الرسالة تقول : « التشكيل الثانى فى السجن على تمام الاستعداد للتنفيذ » .

ولقد قام « كامل القاويش » بمهاجمة بيت السادات وهو نزيل المعتقل اكثر من مرة ، للبحث عن هذه الرسائل السرية التى يرسلها مع ملابسه المعدة للتنظيف وتعرضت الاسرة لكثير من الارهاب ، حتى قرر السادات ان يهرب من المعتقل ، وقد نجح فعلا فى الهروب بواسطة اصدقائه الذين أمدوه بطلباته من المعدات الصغيرة ، وذات مرة هرب من المعتقل ثم عاد اليه بقدميه ، بعد ان قابل احد كبار رجال الشرطة وابلغه بالتعذيب والتنكيل الذى يوقع عليه وعلى زملائه من المعتقلين ، وكان عملا جريئا هز البوليس السياسى تلك الايام حين تناثرت القصة ، وعرفتها أجهزة الأمن ...

وعمل أنور السادات فى مهن ومدن مختلفة ، ومن بينها مهنة نقل الفواكه والاغذية الى معسكرات الانجليز بمدن القناة ، وخلال تردده المستمر استطاع أن يرسم عدة خرائط للمعسكرات ومداخلها ومخازنها ومواقع تجمعات الجنود والطريق اليها ، وكانت هذه المعلومات سندا هاما فى نجاح العمل الفدائى المسلح الذى أشرف عليه وساهم فيه ، بعد عودته ضابطا بالجيش المصرى مع بداية عام ١٩٥٠ .

الفصل الرابع

السادات..
ضابطاً بسلاح الإشارة

قضي أنور السادات أجمل سنى العمر ضابطا بسلاح الاشارة ...

لقد عاش الرئيس القائد سنوات عمره مليئة بالنضال والمعارك ، بحب لا يتجاوزه حب ، وبطموح لايدانيه طموح ، وبرجاء يرقى فوق كل الاحلام والامنيات ، كانت مصر ملء وجدانه ، فلم يكن غيرها فى القلب منذ التحق بالمدرسة الثانوية فى الثلاثينات ، وقد ظل مرتبطا بقضية وطنه ، يدفع الثمن كل يوم من شبابه وحريته الشخصية ، ولم ينهزم مرة واحدة على الاطلاق، وعاش وايمانه بالشعب وبالعسكرية المصرية ، خصب راسخ ، ثابت كالسماء ، لا تثنيه المحن أو النكسات ..

فى هذا الفصل نرى من خلال رفاق السلاح ، كيف كان يبدو الملازم ثان ، أول ، اليوزباشى ، الصاغ ـ البكباشى ، انور السادات ، منذ عام ١٩٣٨ ، حتى يوليو عام ١٩٥٢ ، ضابطا بسلاح الاشارة ؟ ..

كيف راى الرفاق خصائصه ؟ امكانياته العقلية ؟ نسيجه البشرى ؟ عقيدته الوطنية والعسكرية ؟ مكونات الانسان الثورى لديه وهو يواجه الازمات والصعاب ، فيجتازها ، ويبقى ايمانه بالثورة عاليا يعيش لها ، وبها ظل صامداً ، ومنها استمد قوة بأسه وايمانه ، وقيادته الثورية لوطنه وشعبه البطل ..

رفاق الاشارة

انه أشبه بالشرايين ، يتدفق منها دم الحياة الى الجيش ، بل هو الجهاز العصبي للقوات المسلحة ، يربط بين جسد وحداتها العسكرية ، ويلغى المسافات بينها ، ويقرب الرؤيا بوضوح امامها ، ويوحد فى النهاية قراراتها ، فسلاح الاشارة هو لسان القائد وعيناه وأذناه ، بل حواس القائد الخمس فى أى وحدة عسكرية صغيرة او كبيرة .

ورغم اهمية سلاح الاشارة فى كل جيوش العالم ، فقد حرص الاستعمار البريطانى خلال سيطرته على جيشنا وحرمانه من مشروعات التجديد والتطوير حتى الاربعينات على ابقاء هذا السلاح متأخرا فنيا ، عاجزا عسكريا ، لتظل قوة المواصلات اللاسلكية فى الجيش المصرى ضعيفة هزيلة خاضعة فى سهولة لسيطرة القادة الانجليز .

وبعد توقيع معاهدة عام ١٩٣٦ ، وتحت ضغط الفوران الوطنى لجماهير مصر المتعطشة للثورة ، وفى محاولة استعمارية لامتصاص غضب الشعب ، اعيد تنظيم الجيش المصرى عام ١٩٣٧ ، وانشىء سلاح الاشارة عام ١٩٣٨ ، وبدأ أول ربط لاسلكى بين الوحدات والكتائب ورئاسة الفرق العسكرية ، مبتدئا بسلاح الطيران .

قبل ذلك بعام ،وقع اختيار الانجليز على ثلاثة ضباط مصريين للسفر فى بعثة اشارة الى انجلترا ، وهم : لواء احمد سعيد الرافعى ، ولواء حسن همت الصيرفى ، ولواء طه طه فتح الدين ، والاخير كان رئيس الجانب العسكرى فى مباحثات الجلاء عام ١٩٥٤ ، كما تولى رئاسة لجنة تصفية القاعدة البريطانية فى القناة ، وتسلم المعسكرات الانجليزية بعد توقيع اتفاقية الجلاء

وسافر الضباط الثلاثة ، وعادوا فى نهاية عام ١٩٣٨ ليصبحوا روادا للسلاح ، ويبدأوا تدريب الرجال مع بعثة عسكرية بريطانية كانت تشرف على اعادة تنظيم الجيش ، ولم تكن المجموعة الانجليزية التى عملت معهم بسلاح الاشارة تضم غير ضابط واحد برتبة صاغ ، واثنين صف ضابط .

ولقد بدأ الضباط الثلاثة فور عودتهم للوطن يتعرفون على مستوى قيادة السلاح فنيا وعسكريا وكان « أبو الاشارة » فى مصر يقود السلاح تلك الايام وهو اللواء اسكندر أبو السعد ، من مواليد عام ١٨٨٥ ، وخريج المدرسة الحربية عام ١٩٠٧ ، وقد ظل ضابطا بسلاح الاشارة حتى أحيل الى المعاش فى نهاية عام ١٩٤٠ .

يقول اللواء متقاعد طه طه فتح الدين :

كان عددنا كضباط اشارة فى جميع وحدات الجيش ٥٥٠ ضابطا اختيروا من مختلف أسلحة الجيش ، أكفأ الضباط مقياسا ومعيارا هو الذى يلحق على الاشارة ، كسلاح فنى جديد له أهميته مستقبلا .. تلك الاهمية التى اعتمد عليها تشكيل ثورة ٢٣ يوليو ، كما كان هناك أيامها دورة تعليم اشارة ، تقدم لضباط بقية الاسلحة ، ويحصل عليها الضابط الممتاز فقط ، فكان بين هؤلاء الضباط الذين بلغ عددهم ٥٥٠ ضابطا ، الملازم ثان محمد أنور السادات ، كما كان بين الضباط الممتازين الذين حصلوا على دورة تعليم الاشارة ، الملازم ثان جمال عبد الناصر حسين .

وفى مدرسة سلاح الاشارة كان ثمة لقاء للرجلين ، حيث تزاملا شابين ، وتآلفا ، وربطت بينهما صداقة قوية ، دعامتها فكر متقارب ، ورجاء واحد ، هو « مصر » وخلاصها من الاحتلال الاجنبى .

وحتى نهاية عام ١٩٣٩ ، لم تكن هناك وحدة ثابتة لاشارة سلاح المشاة ، ولم يكن الجيش المصرى يزيد أيامها على قوة ٣ لواءات ، وكانت وحدات الاشارة تتكون وبشكل مؤقت أثناء المناورات السنوية فقط ، فتستعير الافراد من فصائل الكتائب ، كل كتيبة تقدم ثلاثة او أربعة أفراد ، وتتكون المجموعة لربط الكتائب ببعضها البعض فترة المناورة فقط ، ثم يعود الأفراد الى وحداتهم ! ..

وفى عام ١٩٤٠ ، انشىء أول قسم ثابت لاشارة لواء مشاة ، واختير الملازم أول محمد أنور السادات لتولى قيادة هذا القسم ، ورغم ان نشاطه كضابط اشارة كان مصدر خلاف دائم مع القادة الانجليز ، أعضـــاء البعثة العسكرية البريطانية التى تشرف على استخدامات أجهزة السلاح ، وذلك لرفضه تطبيق المعدلات الانجليزية فى خطط الاشارة فى حدود الضبط والربط ، حتى لايعطى ضابطا من قوات الاحتلال فرصة الاستناد الى أى مأخذ عليه ، الا انهم وافقوا على اسناد القيادة له ، تحت ضغط مزاياه الفنية ، وميله للابتكار فى استخدام الاجهزة المتاحة بين يديه وأيدى رجاله ، وعدم تقيده بالروتين، فقد رايت السادات لا يمل الاستقصاء أو تقصى المعرفة ، والتنقيب عن كل ما هو مفيد وجديد ، دون أن يبخل بجهد أو بوقت راحة ممنوحة له .

أقول ذلك لاننى بالمعاش منذ ســـــنوات طويلة .. ولو كنت ضابطا عاملا حتى اليوم لترددت فى ذكرها ... ولتركتها للتاريخ .

وعاد اللواء متقاعد طه طه فتح الدين ، يقول :

ـ شهدت الضبـــــاط الانجليز يكرهون وطنية أنور السادات ، ويعجبون بعسكريته فى أعماقهم ، فقد ظل دائما الضابط الصغير الذى يرتفع بسلوكه وأخلاقياته فوق المثالب والمنافع الشخصية ...

لواء م. أبو حسين

عاد الرئيس أنور السادات الى الجيش المصرى عام ١٩٥٠ ، وكان أكثرنا كضبـاط اشـارة يعرف قصـة نضاله ... عددنا فى تلك الايام كان قليلا جدا ، وتولى قيادة السرية الاولى ، ثم الثالثة بالآلاى اشارة الفرقة الاولى مشاة فى رفح برتبة يوزباشى ، بينما زملاؤه بلغوا رتبة البكباشى ، فطالب بأقدميته ، فلم يكن السادات بالرجل الذى يسكت على فقـدان حقوقه لانهم أعادوه للجيش ، وكنت أيامها أركان حرب مدرسة الاشارة ، ورأيته يحضر الفرق التـدريبية ، ويؤدى الامتحانات المطلوبة ، ولقد نجح فيها ، ثم تقدم للفرق الحتمية ، ونجح فى امتحان الترقى الى رتبة صـاغ ، ومعنوياته مرتفعة دائما ، ثم حصل على رتبة المقدم أى بكباشى ، من خلال تقاريره السرية ، وأصبح فى أقدميته الطبيعية من حيث الرتبة .

قبل ذلك بعشرة أعوام ، كنت قد تخرجت فى الكلية الحربية عام ١٩٤٠ ، وبدأت احصل على فرقة اشـارة عام ١٩٤١ ، ورأيت الرئيس السادات برتبة ملازم أول، منذ شبـابه وهو رجل يحرص كل الحرص على تأدية فرائض الدين ، فكان محل احترام اقرانه من الضباط واحترام الجنود حوله ... واذكر انه كان حين يتولى

ضابط نوبتجي لليلة ، يتجمع الجنود حوله ، فى حلقة مناقشة بعد صلاة العشاء ، وبعضهم يضحى بأجازته من اجل هذه الحلقة التى تشمل درسا دينيا ، وبالضرورة درسا سياسيا وطنيا .. كانت أحاديثه عن الوطن والاستقلال فى تلك الايام وهى تصدر من شاب فى بداية الثلاثينات من العمر يفيض وطنية وايمانا بالشعب المصرى شيئا غير عادى ... وربما هى بالامر البسيط اليوم .. ولكن الوضع يختلف كل الاختلاف عن عام ١٩٤١ ، لذلك كانت مشاعر الضباط والجنود ممن خدموا معه ، دائما حوله ، فارتبطوا به ، وأخلصوا له

ذات يوم جاء الينا ضابط انجليزى من قادة السلاح وكان على الرئيس السادات وهو ضابط صغير أن يقوم بجولة معه ، وأمام السيارة تقدم الضابط الانجليزى ليركب بجانب السائق ، فمنعه السادات أمامنا ، قائلا له :

ـ تفضل بالركوب فى الخلف ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ سأركب أنا بجانب السائق ، لان هذه العربة عربة الجيش المصرى ، وأنت ضيف هنا ..

وارتبك الضابط الانجليزى وكان برتبة ميجور ، ونفذ الامر فى صمت وغيظ مكتوم ؛ وكانت هذه القصة حديث الوحدات بعد ذلك .. تنتقل من وحدة لاخرى ، فعرف الكثيرون أنور السادات ، الضابط الوطنى الجرىء ، دون أن يروه .

عميد ف . خفاجى

بعد عودته لسلاح الاشـــارة ، صــدرت التعليمات بالحاقه على « آلاى الاشارة » بالعباسية .. وكان هذا الآلاى يضم عددا من الضباط ممن لايملـكون أى سند فى الجيش غير وجودهم ، وأكثرهم كانت ميوله السياسية ضد الحكم القائم وقتها ، وكانت الرابطة التى تشدهم بعضا الى بعض هى اضطهادهم من السراى وقيـادتها العليا .. وبعدها مبـاشرة صــدرت الاوامر العسكرية بتحرك هذا « الآلاى » الى ســيناء ، فطلب الرئيس الســـادات أن يكون « مقدمة » لهذا الآلاى ، فلم يجب الى طلبه وأرسلوه الى القنطرة شرق ..

بعد نقله الى القنطرة ، خدم فى العريش ، ثم جاء الى رفح ، وهناك التحمنا واقتربنا منه أكثر .. كان برتبة يوزباشي ، ولكننا لعلمنـــا بقصــــة كفاحه ، ولسلوكه كضابط ، وكأخ كبير لنا ، كنا نـــاديه من تلقاء أنفسنا ورتبة البكباشي تسبق اسمه ..

وكان يحرص على معرفة كل ضابط معرفة جيدة ، ولقد اختار بعضنا لطبع منشور الضبـاط الاحرار الذى كان يصله من القاهرة ، نطبع عددا كبيرا منه بعد ١١ مساء كل ليلة ، وقبل منتصف الليل ننتشر لتوزيعها داخل ميســات الوحدات ، مستغلين حظر التجول ،

والليالى المطرة .. والارض الموحلة التى تمنع الضباط من التحرك ، وغلق الابواب شتاء .. وكان واجبه هو دراسة رد الفعل عند جميع الضبـاط الذين يفاجأون بالمنشورات فى الصباح تحت عتبة الابواب .. ثم يختار منهم من يقع عليه اختياره بعد عدة اختبارات لضمه الى الضباط الاحرار ..

ولقد رأيته أبا للجنود منذ عملت معه ، كان يناديهم بأولادى فى رفح .. نفس النداء الذى يصدر عنه اليوم ، وكثيرا ما قضى اجازاته بينهم .. فى الاعياد لايتركهم ، يقضى الاجازة فى الوحدة ثم ينزل الى القاهرة بعد العيد .. وما سب جنديا فى حياته وكان أكثر الضباط أيامها يستعمل ألفاظ السباب فى تعامله مع الجنود ، بل كان هناك من يلجأ الى ضرب الجندى اذا أخطأ أو تكاسل كأنه طفل صغير وكان الرئيس السادات يحرص دائما على توعية الضباط بمساوىء هذا الاسلوب فى قيادتهم للجنود ، ويحثهم على تغيير المعاملة .

واذكر اننى كنت أستعمل خاتما ذهبيا ، ثم رأيته ينظر اليه ، وفهمت نظرته ، فخلعت الخاتم على الفور ، فقال لى : « أسـعدتنى .. كنت أنتظر منك هـذا التصرف » ..

ورأيته حزينا ذات يوم ، وحدثنى بمرارة عن قصة وقعت له : « دخل الى القائد لتوقيع ورقة عمل ، فاذا بالقـائد وكان برتبة « أميرالاى » يطلب منه توقيـع « البلوكامين » على هذه الورقة قبل أن يوقع هو !..

وفى الجيش ، كان اذا سـار اثنان من الضـباط ،

أحدهما بجانب الآخر ، فعلى الضابط الاصفر رتبة أن يغير الخطوة ، ولـكنه كان يغير خطوته اذا سار احد منا بجانبه ، تواضعا واشعارا منه لنا بتقديره، فأحببناه وارتبطنا به نفسيا وعسكريا ، وما اختلف اثنـان على حبه والانتماء اليه على الاطلاق ..



ليلة الثورة ، وبعـد الاستيلاء على القيـادة العامة للقوات المسـلحة ، دخـل ليسـيطر على الاتصـالات اللاسلـكية .. هبط الى البدروم حيث تحويلة خطوط التليفونات ، وكان جنود التحويلة فى حالة ذعر نتيجة القتـال الذى دار خـارج المبنى ، فتركوا التحويلة ، واستطاع السادات أن يجمعهم ، وأن يلقى فيهم كلمـة قصيرة ليعودوا الى أماكنهم ، وبدأ بنفسه فأخذ مكان أحد الجنود وأدار الاتصالات ، فاذا بالجنود يجلسون الى مقاعدهم ، ويمسكون بالاجهزة وينتظرون تعليماته

فى هـذه اللحظـة اتصل وزير الدفاع أيامهـا وكان بالاسكندرية ، يسأل عن الاخبار التى سمعها ، وتلقى السادات المـكالمة ، وأجاب وزير الدفاع كأنه أحـد جنود التحويلة ، وسأل الوزير :

ــ ايه ياعسكرى اللى حصل عندكم ؟ .. سمعت اخبار بتقول فيه تمرد أمام القيادة ؟ ..

وقال الرئيس السادات :

ــ دى اشـاعات غير صحيحة يا معالى الباشـا ، الحالة عادية جـدا ، وسـعادة رئيس الاركان موجود دلوقتى فى مكتبه ..

ـ لـكن تليفونه ما بيردش ! ..

واجاب الرئيس السادات :

ـ كان عطلان واتصلح من دقائق يا معالى الباشا ؛ حاوصل معاليك بيه حالا ..

وكان رئيس الاركان اللواء حسين فريد باشا مقبوضا عليه فى تلك اللحظة ، ولقد تحدث بالفعل الى وزيره ، ولم يستطع بالطبع أن يبلغه بشىء مما حدث قبل دقائق من هـذه المـكالمة ..

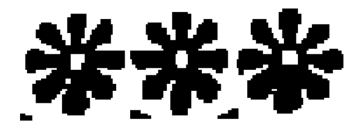
عميد م . كمال

التقيت به لاول مرة فى ثكنات العباســية ، ثم فى رفح ، وكانت وحدتنا هى آلاى اشارة الفرقة الاولى مشاة هناك وآلاى تعنى الآن قوة لواء أو فوج ، وكان المرحوم صلاح سالم بقيــادة الفرقة وشــقيقه الاكبر المرحوم جمال سالم بالمطار الحربى فى العريش ، وكان الرئيس السادات قائدا للسرية الاولى ، وكنت أتولى أركان حرب الآلاى .. وكانت أسرتى تعيش معى فى رفح وأسرته أيضا وقد طلب الى الجنود من الفلاحين زراعة الرمال حولنا ، فزرعوا البطيخ والطماطم وتكرر نفس الشىء على مستوى وحدات الفرقة ..

وكان معروفا بايمانه ، اذا قام للصلاة ونحن جلوس حوله ، نصمت عن الحديث احتراما للصــلاة ، وظل مدة طويلة يحرص على أداء صلاة الجمعة فى « غزة » .

وحتى قبل قيام الثورة بأيام ، كان الرئيس السادات يتولى شئون خزينة الآلاى ، واذكر انه طلب يوم ١٨ ، أو ١٩ يوليو عام ١٩٥٢ ، نصف اجازة ميدان ، وكنا بالليل ، فرجانى أن أذهب بطلب الاجازة الى القائد فى بيته ، لأحصل له على التصديق بنصف الاجازة ، ٤ أيام ، ففعلت .. غير ان القائد اشترط موافقة قيادة الفرقة .. لا أدرى لمــاذا ؟ ..

ولـكن هذا ما حدث ، وعلى الفور أرسلنا اشـارة لقيادة الفرقة بالطلب ، وظللنا ننتظر .



كان الرئيس السـادات مهتما بهذه الاجازة اهتماما غير عادي ، وسألته تفسيرا لهذا الاهتمام فقال لى : ان السيده والدته مريضه ويخشى عليها من مفاجآت المرض .. وكلنا يعلم حبه الشديد لها ..

وجاءت موافقة قيادة الفرقة على قيامه بالاجازة ، وكان سعيدا بهذه الموافقة وقبل ان يرتب حقيبته .. وكانت أسرته أيامها بالقاهرة ، طلب منى معاونتـه فى تسليم خزينة الآلاى للمقدم تادرس وهبه « لواء » فيما بعد .. فقلت له متعجبا :

ـ ولماذا الخزينة بأكملها .. اترك لنا مبلغا بسيطا من المـال حتى عودتك ..

يومها نظر لى نظرة صارمة ، وقال :

ـ قـد يتطلب مرض والدتى أن أبقى بجانبها عدة أيام فأطلب بقية الاجازة ، ولا أريد أن أبقى بالقـاهرة مشغولا بالخزينة فى رفح ..

وبالفعل قام « المقـدم تادرس » قائد ثانى الآلاى باستلام الخزينة ، وسهرنا طول الليل نتحدث ، وركب القطار فجرا ونحن نودعه ، ووصل القاهرة قبل غروب يوم ٢٢ يوليو عام ١٩٥٢ ، وبعد أقل من ٤٨ سـاعة سمعنا صوته فى الراديو يذيع أول بيان للثورة ..

كان فى امكانه ان ينزل سرا الى القاهرة دون اجازة رسمية ، وكان بامكانه أن يغلق الخـــزينة ويتركنا بلا نقود .. ولكنه رفض أن يفعل شـــيئا من هذا بدافع من حرصه على النظـــام ، وعلى سلامة كل ما يقوم به من تصرف شخصى كضابط مثالى ..

عقيد ا . فهمى

خدمت معه منذ عام ١٩٥٠ حتى يوليو عام ١٩٥٢ ، كنت ضابط اشارة بالآلاى نفسه ، وكان يجمعنا ونحن ضباط صـــغار ويحدثنا طويلا عن مصر ، ويشرح لنا كيف يحكمنا الانجليـز ، وكيف يجد المستعمر حكاما مصريين يتعـاونون معه ، ويروى لنـا أسرار السراى الملـكية وفسادها ، كما يذكر بطولات الوطنيين الثوار قديما وحديثا .. كانت مثل هـذه الاحاديث فى تلك الايام شيئا مثيرا للغاية ، ولذلك كنا نحرص على الجلوس اليه ضباطا وجنودا ..

لقد أوجد فينا روح الجماعة ، اقنعنـا بتوديع كل ضـابط يعود الى القـاهرة فى اجازة حتى القطـار ، وباستقبال كل ضابط يأتى من الاجازة ، وعلمنا الوفاء والحب والتغاضى عن الخلافات الصغيرة ، واذا اخطـأ احدنا انفرد به وشرح له خطـأه وقدم له النصـح فى ابوة وحنان ..

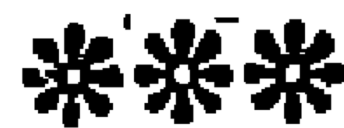
وكان يقول لنا : « ليس جميع القـادة الـكبار على ذلك المسـتوى السيىء الذى نراه فى البعض منهم ، هناك رجال لا يقل الواحد منهم وطنية عن أى وطنى وهب حياته من أجل مصر ..

وروى لنا قصة أحد القادة ممن خدم معهم ، فوجىء

ذات ليلة بقوة عسكرية تهاجم بيتـه ، وعلى رأسـها ضـابط انجليزى ، ومعه ضـابط مصرى ، هو قائد الملازم أول أنور السادات ، فى ذلك الحين ، جاء مع الضـابط الانجليزى ليشهد تفتيش بيت هـذا الملازم المتهم بالعمل العدائى ضد الانجليز ، بحثا عن مسدس مدنى معين ..

وقال الرئيس السادات ، لزملائه الضباط :

ــ واسفر التفتيش عن عدم وجود هذا المسدس ، واندهشت ، فكنت أعلم ان المسدس موجود بالمنزل ، واذا بهذا القائد المصرى يهمس فى أذنى : « الامانة فى جيبى ، أنا عثرت عليه أول ما دخلنـا .. أطمئن بقى »



ولذلك كان البكباشى أنور السادات بعد نجاح ثورة يوليو عام ١٩٥٢ ، حريصا كل الحرص على معـاملة كبار القادة من ضباط ما قبل الثورة الذين كانت لهم مواقف مشرفة ، أو حتى الذين لم تكن لهم تلك المواقف وكانوا يعاملون جنودهم وضباطهم معاملة تليق بكرامة الانسان المصرى البسيط ، بكل رعاية وتكريم ..

فى سلاح الحدود

فى عام ١٩٤٢ ، نقل اليوزباشى انور السادات الى سلاح الحدود ، ضابطا بكتيبة الاشارة التابعة للحدود وهى الكتيبة السادسة ، وكان يطلق عليها « أورطة اشارة السجن » وهناك خدم معه جندى متطوع عبد المنعم السيد « ملازم الآن » والمساعد رفعت ماضى ، «نقيب اليوم» ، والاثنان ما زالا بسلاح الحدود ، وكان الرجلان يلازمانه كظله وقد التقيت بهما خلال جولة البحث ...

قال لى النقيب رفعت ماضى :

ـ كان لى شرف الانتساب الى نفس القرية التى ولد فيها الرئيس السادات ، وقد زاملته فى مدرسة الاقباط الابتدائية بقرية طوخ دلكه ، وتبعد قليلا عن قريتنا ، بل كنا فى « كتاب » واحد يملكه الشيخ عبد الحميد عيسى قبل المرحلة الابتدائية ..

وفى سلاح الحدود خدمت معه ، كان عليه أن يحاضرنا بمدرسة اللاسلكى بالجبل الاصفر ، وبعد درس اللاسلكى يبدأ درس الوطنية ، وتوعية الجنود خاصة ممن كانوا فى حاجة الى التوعية السياسية وفهم ما يدور فى بلادهم ..

ومن أبناء قريته عمل معه عدد ليس بقليل من شباب

عمره فى اعداد القنابل اليدوية بعد تدريبهم عليها ، لالقائها على معسكرات الاحتلال البريطانى ..

وفى عام ١٩٤٢ ، كان قادة سلاح الحدود من الضباط الانجليز ، وكثيرا ما شهدنا مواقف وطنية له ضد تعسف الضباط الانجليز ومحاولاتهم المستمرة للنيل من كرامة ومعنويات الجنود المصريين ..

واذكر انه اعتقل ثلاث مرات فى معتقل ماقوسة بالمنيا ، وفى معتقل الزيتون ، وفى معتقل هاكستب ، ودخل سجن الاجانب ، وسجن مصر ، بشرف الاشتغال بالوطنية ..

وكنا نجمع النقود من زملائنا لزيارته فى سجن الاجانب ، فثمة ضابط انجليزى كان لا يسمح بالزيارة الا فى مقابل جنيهين عن كل لقاء به ..

وفى قريتنا وهذا للتاريخ ، حرص الرئيس السادات على معاونة عدد كبير من الفلاحين على تعليم ابنائهم قبل الثورة ، حتى المرحلة الجامعية ، وما عرف بفلاح يواجه أزمة الا واسرع اليه يقف الى جانبه ويمده باقصى العون ..

وقال لى الملازم عبد المنعم السيد :

ــ كان « الصولات » على أيامنا يعاملوننا بخشونة شديدة ، بل بقسوة .. وحين جاء الينا اخذ يعاملنا كأخوة له ، ويحمينا من اى ارهاب يقع علينا وكان يقود الطابور اليومى بنفسه ، ويطلب من صف الضباط أن يدخلوا الطابور معنا ، فرفع من معنويات الجنود .. بل استطاع أن يحصل لنا على اشتراكات مجانية

لاستعمال المواصلات ، وعمل على عودتنا كل مساء الى بيوتنا ، وكان معسكرنا بالجبل الاصفر بعد المرج .

ذات يوم جمعنا وقال لنا :

ـ نحن جميعا أبناء وطن واحد ، وأنا أتحدث اليكم الآن كواحد من أسرتكم ، ولا أطالبكم بغير حماية هذه الاسرة .. اذا استطعنا أن نبقى بالسلاح كأسرة قوية متماسكة نجحنا فى مواجهة سيطرة الانجليز وغطرستهم .. انا لا يحزننى شىء غير هذه الايام التى نعيشها تحت قيادة الانجليز .. وهذا وضع غير طبيعى ولذلك أعدكم بأنه لن يستمر طويلا ، وسنحصل كشعب على حريتنا واستقلال وطننا ..

ولم نتذكر هذه الكلمات الا بعد جلاء المستعمر عن مصر ، وما كان أحدنا يتخيل ان هذا الحلم سيتحقق يوما ما ..

المعلمون القدامى

فى جولة البحث عن رفاق السلاح ، التقيت ببعض القادة من ضباط الاشارة الذين تركوا القوات المسلحة الى مواقع أخرى للخدمة الوطنية العامة .

ـ لواء طه فتح الدين : من مواليد فارسكور عام ١٩١٠ ، تخرج فى المدرسة الحربية عام ١٩٣١ ، وكان أحد ثلاثة من ضباط الاشارة الذين سافروا فى بعثة فنية للدراسة فى سلاح الاشارة الملكى البريطانى عام ١٩٣٧ ، وعاد فى نهاية عام ١٩٣٨ ، ولقد ظل ضابطا بالاشارة حتى نهاية ابريل عام ١٩٥٦ ، حيث نقل الى وزارة الخارجية ..

ـ كان الرئيس أنور السادات ضابطا صغيرا لايشكو أبدا من العبء الملقى عليه ، وما اعترض يوما على قسوة العمل ، بل كان يطلب ايفاده الى المأموريات الصحراوية وقبل عام ١٩٣٧ ، لم يكن لدينا سلاح اشارة رغم أن الاشارة هى بمثابة الجهاز العصبى لجسد الجيش ، بل هى حواس القائد الخمس فى أى وحدة عسكرية .. وفى ذلك العام عهد الى « أبو الاشارة » فى بلدنا اللواء اسكندر أبو السعد ، من مواليد عام ١٨٨٥ ، وتخرج فى المدرسة الحربية عام ١٩٠٧ ، عهد اليه بانشاء مدرسة الاشارة المصرية الملكية .. بينما كان اللاسلكى

سيدخل لاول مرة فى أساليب المواصلات لدى الجيش ، وكان قائدنا ضابطا انجليزيا برتبة ميجور يعاونه اثنان من صف الضباط الانجليز أيضا ، وبعد عودتنا من لندن تولينا العمل على مستوى قيادة السلاح ، وكنت برتبة ملازم أول فتوليت منصب أركان حرب فنى رئاسة السلاح ، وظللت به حتى رتبة العقيد ، وحتى قيام الثورة عام ١٩٥٢ ..

***

وفى نهاية عام ١٩٣٩ ، عقدت دورة تعليم لضباط الاشارة والتحق بها أكفأ الضباط مقياسا ومعيارا ومن بين ضباطها الزعيم الراحل ، والرئيس السادات .. وربما تدعمت أواصر الصداقة بينهما تلك الايام ، ورأيت السادات كعمدة من رجال الريف يلتف حوله كل الضباط ، وهو قادر على جذبهم اليه وكان يؤم الصلاة وبيننا من هو ضعف عمره ومن حج الى بيت الله اكثر من مرة ولكننا كنا نراه أكثر منا اقترابا من الله وكثيرا ما حدثنا فى الوطنية وفى تفسير القرآن الكريم بصوت جميل ومنطق هادىء ، فضلا عن حبه ، بل غرامه للاشارة واللاسلكى ، ولذلك كان الاول على الفرقة ، فعهد اليه بانشاء أكبر قسم ثابت من اقسام سلاح الاشارة على مستوى قوة لواء ، وهو اللواء الاول مشاة وقد تولى قيادته ، وطور الكثير من معدلات الاشارة وخططها واصطدم بالضباط الذين يحرصون على تطبيق ما تعلموه من الانجليز ، وكانت له الغلبة فى النهاية ..

ولقد عاش ميالا دائما للابتكار ، لا يتقيد بالروتين ،

يعمل باكثر من المدى القانونى للأجهزة التى يملـكها ، يستغل الجو والموجات المغناطيسـية استغلالا فنيا عاليا ،

يطوع الاجهزة لارادته ، يبتكر طرقا تبـادلية جـديدة باستمرار .. دقيق ، حريص على ملـكية قطع غيـار وبطاريات واحمـاض أينما كان .. ولقد دعمت هـذه الاعتبارات اتصاله بجميـع وحدات الجيش ، مشـاة ومدرعات وطيران ، فكان له أصدقاء فى كل سلاح على مستوى الفرقة حتى السرية ..



وقد عاد لنا عام ١٩٥٠ ، فاعتبرنا عودته انتصـارا للحق والعدل ، وتولى قيادة السرية الثالثة وهى المنوط بها مواصلات مدفعية الفرقة — وقبل قيام الثورة بأيام التقيت به فى رفح ، وكنت أعرف ان اجازته الميدانية تنتهى فى منتصف يوليو ، فقلت له :

— ألم تحصل على اجازتك بعد ؟ ..

— بلى .. لم أحصلْ عليها ..

— لماذا ؟ .. هل وجودنا « وكان معى قائد السلاح فى زيارة تفتيشية » عطلك عن النزول ؟ ..

— بالعكس .. لقد عملت على تأجيل اجازتى عدة ايام ، حتى يصلَ طبيب مصرى قادم من الخارج فأعرض والدتى عليه .. انه أخصائى ماهر ..

وغادرنا يوم ٢٢ يوليو فجرا ، وسمعت صـوته فى اليوم التالى يذيع أول بيان للثورة .. ولم أتعجب .. فقد كنت اشعر نحوه بمشاعر آلاب ، وانه ليس بالشاب العادىْ ..

خطة سرية للانجليز

لواء مراد عبد الشافى : أول دفعة مهندسين تلتحق بالجيش المصرى عام ١٩٣٩ ، خدم فى جميع وحدات الاشارة ، وتولى قيادة السلاح حتى عام ١٩٦١ ، ثم ترك القوات المسلحة الى موقع عام آخر .

ـ التقيت بالرئيس السادات عام ١٩٣٩ ، كنا برتبة ملازم ثان ، ولما عاد الى الجيش عام ١٩٥٠ ، كنت أتولى منصب أركان حرب السلاح فنشأت صلة عمل بيننا مرة اخرى .

اذكر أنه كان منذ شبابه مشحونا بالوطنية ، باحثا عن كل ما يمكن تنفيذه ضد قوات الاحتلال ، وقد حصل بمعاونة بعض زملائنا على خطة انجليزية لاغراق مصر ، اذا ما دخل الالمان القاهرة ، وكانت الخطة تتضمن اغراق التليفونات والكبارى وضرب المجارى واجراء عملية تخريب واسعة ، وتقرر على الفور أن تقوم وحدات من الجيش المصرى بحماية المنشآت العامة سرا ضد هذه الخطة ، وكان انور السادات يدير احد المراكز التى تولت تجميع صغار الرتب من الضباط حول مصر وضرورة حمايتها من جريمة المستعمر الذى كان سيسحب قواته الى السودان .

معارك الحرب الثانية

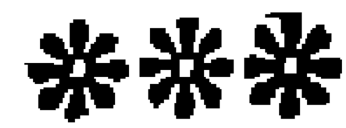
عبد الرحمن سعيد : ممن تركوا القوات المسلحة مبكرا ولكنه زامل الرئيس السادات منذ عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٥٢ برفح ، كرفيق سلاح واحد .

— لقد حضر الرئيس السادات أكثر معارك الحرب العالمية الثانية فى الصحراء الغربية ، كانت روحه المعنوية عالية جدا وهو دائم التنقل فى الصحراء كضابط اشارة تحت النيران المتساقطة من الطائرات فى السماء ، ومن المدفعية فوق الارض ، ورغم رتبته الصغيرة ، وسنه الصغير أيامها ، الا انه لكفاءته الفنية كان مسئولا عن جميع المواصلات اللاسلكية بالصحراء الغربية .

عرفناه كلنا منذ عام ١٩٤٠ حتى ١٩٤٢ بقدرته السياسية ووعيه الوطنى ، وفهمه للأحداث ، وتحليله لكل موقف سياسى خارجى أو داخلى . فيما مضى كان مثل هذا الشاب بين مجموعات الشباب المصرى قليلا للغاية ، فضلا عن قلبه الكبير ، وأذكر انه حين كان « يمسك إمباشى » الكلية الحربية ، يحرص كل منا كطلبة على الضبط والربط خوفا من اغضابه ، فقد عشنا معه وعهدناه دائما رقيقا مهذبا ، حنونا ، مهتما بنا وبمشاكلنا ، فحرصنا بدورنا على أن نعامله بالمثل .

وكان يحب الحوار والمناقشة الطويلة ، وفى جميع

احاديثه نجده متفائلا بالمستقبل ، متحدثا عنه متخيلا صورة بلدنا بعد تحريرها من المستعمر .



ولقـد اعتقل عدة مرات ، وانتصر على المعتقل ذات يوم بأن حطم قيده وأفلت من حراسة الانجليز ، وناضل سنوات طويلة نضال الابطال ، وبحثا عن لقمة العيش ، عمل بكل مهنة يمكن أن يتخيلها انسان ، ولم ييأس ، وتحت اسم مستعار وملامح متخفية كان يلتقى بنا ، واذا به يتحدث عن مصر وعن قوات الاحتـلال ، ولا يترك لنا دقيقة واحدة نسأله كيف حاله ؟ كيف يعيش أيامه ؟ ثم يتركنا ، ليعود .. حتى عاد الى الجيش منتصرا ، وفى قلبه كل التصميم على الثورة ، وتغيير الاوضاع .. ولايمانه بربه وبوطنه ، وقف الله دائما الى جانبه ، ولم يخذله على الاطلاق .

الفصل الخامس

تنظيم الضباط الأحرار بعد ٢٠ سنة فى عمر الثورة

توقف رفاق السلاح فى ذكرياتهم عن القائد الرئيس أنور السادات عند مغادرته رفح فى طريقه الى القاهرة فجر يوم ٢٢ يوليو عام ١٩٥٢ ، ليقوم بدوره ليلة ٢٣ يوليو ..

وليشهد الشعب المصرى بعد ذلك فترة من أنضج فترات كفاحه ونضاله الوطنى الجماهيرى ، ويحكم مصر خلالها ولاول مرة فى تاريخها حاكم من أبنائها ، وتصنع ثورة يوليو تحولا جذريا فى بناء وارساء المجتمع المصرى الجديد ـ بعد اجلاء قوات الاحتلال البريطانى عن البلاد ـ وهو أول وأكبر أهداف الثورة عند قيامها .

واليوم وثورة ٢٣ يوليو تدرك عامها العشرين ، مليئة بالمعارك المتصلة ، مليئة بالايمان واليقين ، وهى تستعد لمعركة أخرى من أخطر معاركنا الوطنية ، معركة مصيرية لا بديل فيها للنصر غير النصر ..

اليوم نترك « الكلام » لذكريات الرئيس القائد عن مكونات تنظيم الضباط الاحرار ، وصلابته وعزمه، وتصميمه على تغيير وجه الحياة فى بلاده ، وايمانه بأن عمر الخطأ قصير ، مهما طالت به الايام .

لم يفرق احدهم بين انتصار المبادىء التى جمعتهم وبين أعواد المشانق التى تنتظرهم اذا لم تنجح ثورتهم ، فجاءت وقفتهم المؤمنة المجيدة صفا واحدا ، كتلة متراصة قوية ، تلتف حول مبادئها وكانت هى حجر الزاوية فيما حققوا لوطنهم من اعمال بارزة ، وقفت شعوب العالم أمامها بكل تقدير واكبار ، وقلبت موازين ومقاييس حكومات كبرى فى الخارج ، لم يكن فى حساباتها قيام واستمرار الثورة ، وانجازها لكثير من أهدافها ، والشعب خلفها يمدها بتأييده ، ويغذيها بصلابته ، حتى رحل القائد الخالد عنا يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠ ليتولى رفيق الايام الاولى ، رفيق السلاح والثورة ، قيادة الوطن فى فترة من ادق واخطر مراحل نضالنا الوطنى ، وما توقف أبدا عبر الاجيال ..

يقول الرئيس القائد أنور السادات :

ـ ان السر الحقيقى فى نجاح هذه الثورة ، راجع الى الروح التى سادت فى التمهيد لها ..

فقد يجتمع الناس حول مبادىء ، حول نظريات يقرؤونها ، ويعتنقونها ، أو أفكار يبشر بها دعاتها وقد يبلغ بهم الاقتناع بهذه المبادىء والنظريات ، والافكار غايته ، ويبلغ بهم التعصب لها ذروته وما بعد الذروة أيضا ان صح هذا القول ..

ولكن هذه المبادىء والنظريات قد تتعرض للجدل، فتتعرض الجماعة للانقسام .. وقد يتفاقم الجدل ، فينحرف عن الآراء الى أصحابها ، وتبرز الاشخاص ، وتختفي الآراء .. وتتلاعب أهواء النفوس .. ثم تنهار الجماعة وما اجتمعت عليه .. !

حدث هذا كثيراً .. حدث فى مصر ، وحدث فى غير مصر .. وفقدت الشعوب فرصا كثيرة للتحرر والتطور، لان مجادلات قامت بين قادتهـــا ، أورثتهم التفكك والتحزب ، وفتحت الثغرات بينهم لمطـــامع النفوس وأهوائها ..

ولست أكتب هذا غضا من قيمة المبادىء والنظريات فما استحق الحياة من لا مبدأ له يعيش من أجله ... ولـكننى فقط أرى ان المبادىء وحدها لا تكفى ، لان الرباط الذى يربط العقول ، لايستطيع دائما أن يربط القلوب ، وأن يذيب الهوى ، ويقتل الاطماع ..

ولذلك أرجع الفضل فى نجاح هـذه الثورة ، وعدم انكشاف أمرها .. الى شىء أهم كثيرا من المبادىء التى قامت عليها ، وقامت من أجلها .. الى الصداقة العزيزة الوثيقة ، التى ربطت بين كل من شارك فيها ، صغيرا كان أم كبيراً ..

وهل كان يمكن ، لولا هـذه الصداقة أن يزيد عدد الضباط الاحرار قبيل الثورة على الالف ضـابط فلا يوجد بينهم خائن ، ولا وجل ، ولا ثرثار ؟ !

وهل كان يمكن ، لولا هذه الصداقة ، أن تقوم الثورة فعلا ، وتنجح ، فلا يعرف من الاحرار الا هـذا العدد الضئيل ، الذى ألزمته ظروف الثورة ان يظهر بوجهه على مسرح الاحداث ، وأن يتحمل بنفسه مسئوليات العمل الـكبير ؟ ! ..

انها الصداقة فقط .. الصداقة التى استطاعت أن تحوط مبادىء الثورة بسـياجها المتـين ، وأن تحمى النفوس من نزواتها .. لانها احتلت من كل قلب منزل الاطماع ..

وبهذا الدستور .. دستور الصداقة .. بدأ التكوين الفعلى للأحرار فى عام ١٩٤٤ ..

كانوا قد أصبحوا جماعة من الاصدقاء .. جماعة صغيرة عرف بعضهم فى ظروف كثيرة مختلفة .. وقربت بينهم صداقة أثيرة واعية ..

ومنهم من عرفه الناس فى مجلس الثورة بعد ذلك .. ومنهم من لا يزال يقوم بنصيبه من العمل فى وحدته أو سلاحه أو الادارة التى ينتمى اليها ..

أصدقاء متفاهمون .. يريدون أن يعملوا شيئا ..

ويستعرض هؤلاء الاصدقاء حالة البلاد .. فيخرجون بعدد من الحقائق التى يجب أن يحسب لكل منها حسابها ..

يستعرضون حالة الجيش ، فاذا هى حالة أليمة غير مشجعة .. فلم يكن لضباط الجيش اذ ذاك أى رأى عام .. ولو فرض ان كل ضابط صغير كان اذ ذاك ساخطا فى نفسه .. فان هذا السخط لايمكن أن يؤدى الى نتيجة عملية ، ما لم يصبح سخطا عاما ، محدد الاسباب ، دافعا الى التكتل والعمل ..

فالمشكلة الاولى اذن ، هى مشكلة خلق رأى عام بين ضباط الجيش ، حتى يستطيع هذا الرأى العام أن يحرك الجيش كله نحو هدف واحد ، بصورة منظمة منسقة تؤتى ثمارها .. -

ولم يكن يغيب عن ذهن هذه المجموعة ، ما سبق من احداث خلال الفترة الاولى من أيام الحرب .. فقد كنا اذ ذاك نعمل .. ولكننا كنا نعمل اعتمادا على أنفسنا ،

لا على رأى عام موحد بين الضباط .. ولذلك كانت اعمالنا فردية ، أو شبه فردية .. وقد تأكد لهذه المجموعة ألا جدوى هناك من اى عمل فردى .. وان العمل يجب أن يكون عملا جماعيا كبيرا يأتى نتيجة لرأى عام يجمع الضباط ..

والمشكلة الثانية التى كانت هذه الجماعة تفكر فيها.. هى مشكلة انعزال الجيش عن الشعب ، وتسخيره دائما ضد كل حركة شعبية تقوم فى البلاد ..

فقد كان الشعب فى تلك الفترة يتحمل العبء كله.. عبء الثورة بعد الثورة .. عبء التضحيات الجسيمة والاستشهاد برصاص السلطات المصرية والانجليزية أيضا ..

وكانت هذه المجموعة ترى ان الشعب الذى تحمل حتى اليوم كل التبعات والتضحيات ينبغى أن يطمئن الى جانب جيشه .. وأن يدرك ان هذا الجيش معه ، لا عليه .. وعلى الاقل ، أن يدرك ان هذا الجيش ، ان لم يستطع أن يكون معه بحكم ظروفه وواقعه ، فلن يكون عليه بحكم مصريته ..

واستقرت المجموعة على خطة طويلة المدى ..

واصبح دور هذه المجموعة منذ تلك الايام ، هو السير خطوة خطوة حسب برنامج مرسوم على الوجه التالى :

- خلق رأى عام قوى بين ضباط الجيش ..

- اشعار الضباط ان عليهم مسئولية كمواطنين ، لا تقل عن مسئولية أفراد الشعب العاديين ..

ـ التدرج فى بث الوعى السياسى بين الضباط حتى يصبح من الممكن توجيههم الى ان يكون للجيش نفسه دور فى عملية انقاذ البلاد ، أو أن يكون على الاقل محايدا بين الشعب والسلطات الغاصبة الحاكمة ، بحيث لايشترك فى تسديد الضربات الى الشعب اذا تقدم أحد لحمل تبعة الانقاذ ..

اما الهدف البعيد من كل هذا فهو الوصول باى صورة من الصور الى تغيير النظام الملكى القائم فى البلاد ..

وبدأت المجموعة بعد ذلك تسير الى هذه الاهداف وفق نظام معين أيضا تم الاتفاق عليه ..

فقد تم الاتفاق مثلا على نبذ السرية نبذا تاما فى هذه المرحلة من مراحل الدعوة ..

فان السرية توحى بالتآمر ، وتنذر بالخطورة ولا تستطيع ان تجمع الانصار بسهولة ، لان عامل الخوف والحذر قد يتغلب فى آخر الامر ..

فلتكن العلنية اذن هى الوسيلة .. ففى جوها يمكن تكوين الصداقات وتعزيزها ، واختيار الاشخاص الذين يبدو اخلاصهم وقدرتهم على العمل دون اثارة لغط او شكوك فى صفوف الضباط أو فى الاوساط الحاكمة ..

وكانت هذه هى الخطوة الاولى .. فقد قامت هذه المجموعة بين جماعات الاصدقاء فى الجيش تثير المناقشات العلنية فى جميع مشاكل الدولة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .. الداخلية والخارجية ..

وانتشرت هذه الاجتماعات ٠٠ أو ـ بمعنى أصح ـ انتشرت

هـذه المناقشات العلنية بين الضباط بصـورة مبشرة ناجحة ..

وبدأت بواكير النجاح تظهر سريعا ..

فقد بدأت تسمع نفس المناقشـات هنا وهناك .. وبدأت ترى الضباط يلتقون فاذا هم متفقون فى السخط، متفقون فى الشعور بحاجات الوطن ، متفقون فى التفكير فيما يجب عمله من أجل انقاذه ..

ومعنى هذا ان الرأى العام قد بدأ يتكون .. وان عقبة كبيرة من عقبات الطريق قد أخذت تزول ..

وكان لابد بعد ذلك من التوجيه .. فقد كان واضحا ان هذا السخط عنـدما ينمو ، يمكن أن يكون خطرا كبيرا ، اذا لم يصحبه توجيه سديد ..

فقد تقع أحداث كالتى كانت تقع بين شهر وآخر ، وبين يوم وآخر من تلك الايام العصيبة السوداء .. واذا بالساخطين ينفجرون فرادى .. أو ينفجرون دون وعى ، فيؤخرون الحركة بدلا من أن يسـاعدوا على تقدمها ..

وقد تستطيع بعض الهيئات أو الجماعات اذ تشعر بهذه الروح الجديدة تدب بين ضباط الجيش أن تحاول ضمهم اليها بصـورة أو بأخرى .. وعندئذ تفلت من الجيش قيادته ، الى أيد قد لا تحسن التوجيه ..

وعادت المجموعة تتفق على أسـاسين آخرين تعتبر المحافظة عليهما عاملا جوهريا من عوامل النجاح :

العمل على الا يتأثر الضباط بالاحداث الجارية اى تأثر يدفعهم فرادى أو جماعات على القيام بأى عمل دون

وعى أساسى ، ودون خطة حكيمة مرسومة ..

والعمل على أن يحتفظ ضبــاط الجيش باستقلال تفكيرهم ، فلا يرتبطون كأفراد ، أو كجماعات بأية هيئة أو حزب خارج نطاق الجيش ، لان الجيش عنصر خطير يجب أن يظل توجيهه فى الايدى القادرة على تقــدير خطره ، فلا يكون أداة فى يد احد أو جماعة من الناس.

وكان لابد لضمان هذين العنصرين من نشاط منظم تسيطر على توجيهه المجموعة نفسها ..

ويوما بعد يوم ، وجدت حلقتـــان كبيرتان تجتمعان علنا ، وفى نطاق واسع ، وعلى أساس الصداقة ايضا..

وعن طريق هاتين الحركتين ، بثت الافكار ، وحذر الضباط من التأثر بالحوادث تأثرا فرديا ومن الارتباط باية جماعة أو فرد خارج نطاق الجيش ..

وبدأت هاتان الفكرتان ترسخان فى نفوس الضباط..

واصبحتا جزءا لا يتجزأ من الرأى العام المنتشر الموحد بين ضباط مختلف الاسلحة ..

واطمأنت المجموعة الى ان الجيش لن يقوم باى عمل اخرق ، أو احمق .. وان الضبــاط سيظلون بمنأى عن التأثر الفردى .. وانهم لن يعملوا الا جبهة واحــدة منظمة ..

وبطبيعة الحال لم تكن سيطرة المجموعة قد شملت جميع ضباط الجيش ، ولا نسبة كبيرة منهم ..

فقد كانت فى الجيش العناصر السلبية التى لا تضر ولا تفيد ، والتى لا يمكن الاعتماد عليها فى اى شىء ..

وكانت فى الجيش عناصر اخرى مستقلة عن هــذا

التكوين ، رفضت جماعتنا التعاون معها ..

وكانت فى الجيش عناصر انتهازية ، لم يكن من الصعب تحديدها ، واتقاء خطرها ..

وفى ظلال هذه الاجتماعات العلنية ، والمناقشات المخلصة ، والوعي الذى بدأ ينمو ، تكونت الصداقة القوية بين الضباط .. التى كانت سياج الحركة منذ ذلك التاريخ .. وظلت سياجها حتى اليوم ..

ومثلما كان من المستحيل الوصول الى السيطرة الكاملة على جميع ضباط الجيش وعناصره ، فقد كان من المستحيل منع الضباط من التأثر بالاحداث الجارية فى البلاد .. ولكن المبدأ الذى اتفقت المجموعة عليه ، منذ البدء .. وهو الا يؤدى هذا التأثر الى اى عمل فردي ، قد ظل سائدا طول الوقت .. وكان تأثر الضباط بالاحداث ، عاملا مساعدا لاكتمال صفوفهم حول الفكرة والهدف البعيد ، ولتحديد دورهم تحديدا واضحا وضوح الشمس ..

وجاء عام ١٩٤٩، بعد محنة الحرب الكبرى ، وعاد الجيش من فلسطين ومعه المأساة التى صنعها الخونة والسماسرة ، الذين حكموا الشعب وقتلوا جنوده وضباطه ومزقوا كرامته وسخروا من مقدساته ..

فى ذلك العام بدات مرحلة جديدة فى الموقف السياسى للبلاد ، وكان تنظيم الضباط الاحرار فى ذلك الوقت قد خسر كثيرا خلال المعركة بفلسطين ، فأصبح حتما بعد المحنة ان يعوض التنظيم تلك الخسائر خاصة وانها ، اي الخسائر ، كانت قد بلغت حد فقدان الاتصال

بعضهم ببعض ... فبداوا يعملون على الفور لتجديد الاتصـــال ، بهدف تكوين هيئـــة تأسيســـية للضـــباط الاحرار ، ثم السيطرة على الجيش تماما بتنظيم ضخم متماسك يمكن ان يبعد شبح المآسى عن الجيش وعن الشعب ..

وتكونت الهيئة التأسيسية فعلا ، وتضاعف نشـــاط الضبـــاط الاحرار ، وفى ينـــاير عام ١٩٥٠ ، أجريت انتخابات رئاسة الهيئـــة التأسيسية ، وانتخب جمـــال عبد الناصر رئيسا لها بالاجماع ، وعلى أثر هذا مضينا نستعد لخوض أضخم معركة فى تاريخ الشعب ، بدأنا نعد أنفسنا للاشتباك مع الاعداء جميعا تحت سماء هذه البلاد ..

وقد كانت البلاد فى ذلك الوقت اشبه بمسرح كبير يشهد العالم فوق خشبته اعنف مأساة انسانية تعـرض لها شعب من شعوب الأرض ..

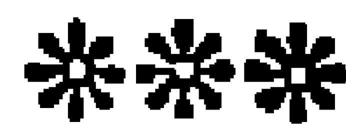
لا عدالة ولا حرية ولا حق فى ارضـــنا ، بل فساد ، واستبداد ، وحكم مطلق ، وسماسرة يتـــاجرون بكل شىء ، بالسياسة ، وبالارزاق ، وبالمستقبل نفسه ، مستقبل الملايين ، اما مستقبلهم هم فقد كانوا على ثقة من انه لا توجـــد قوة فى الوجود يمكنها زحزحتهم عن اماكنهم ...

وجاء عام ١٩٥٠ ، وقـــد تكونت فعلا قيـــادة للثورة المصرية داخل الجيش ، وكان تنظيم الضباط الاحرار كما قلت قد نما واصبح نشاطه مضاعفا فى عام ١٩٥٠.

وبدأت الهيئة التأسيسية لتنظيم الضباط الاحرار تعد للضربة الـكبرى ..

وخرجت المنشـــورات السرية لتقض مضـاجع قادة الجيش ورجـال القصر وحكامهم وكانت المنشـورات ثورية ، حددنا فيها أهداف الشعب بصراحة ..

لم نحدد فيها مطلبا للجيش أو لضباطه وجنوده ، كل كلمة فى تلك المنشورات كانت مستمدة من اتجاهات الرأى العام فى البلاد ، فالشعب يريد العدالة الاجتماعية ونحن ننادى بها .. والشعب يريد القضاء على المستعمر واذنابه .. ونحن نسـجل ارادته .. والشـعب يلعن الاحلاف العسكرية والدفاع المشترك .. ونحن نطبـع مئات المنشورات لنؤيد وجهة نظر الشعب ، ومضى كل منا يكتل ضباط الجيش فى جميع الوحدات استعدادا لبدء المعركة الشعبية ، اما متى تبدأ المعركة ؟ .. فهذا ما يحدده تقديرنا للموقف ، بلغة العسكريين ..



وقدر الموقف فعلا على أساس قلب نظـام الحكم ، واحلال نظام جديد مكانه وحددت المدة لتنفيـذ الخطة كاملة فى عام ١٩٥٠ بخمس سنوات ، أى ان قيام الثورة كان سيبدأ عام ١٩٥٥ ، وليس فى يوليو عام ١٩٥٢ .

وفى ينـاير عام ١٩٥١ ، أجريت انتخابات جـديدة للهيئة التأسيسية للضباط الاحرار واعيد انتخاب جمال عبد الناصر رئيسا لها للمرة الثانية ، وازداد اصرارنا على أن يكون الجيش بعيدا عن نفوذ الاحزاب والهيئات وان يظل جيش الشعب ، لا أدوات لفئة أو جماعة أو حزب معين ..

ومضت الايام بأحـداثها الـكبيرة ، وقام الضـباط

الاحرار بواجبهم الوطنى فى عمليات الفدائيين « معارك القنال » خلال عامى ١٩٥١ و ١٩٥٢ ، رغم ارادة القصر، والحكومة ، وكان نجاح فكرة تكوين تشكيلات ثورية داخل الجيش أكثر مما قدرت الهيئة التأسيسية للحركة، وقد أصبح فى كل وحدة من الوحدات العسكرية، افراد منضمون لتنظيم الضباط الاحرار ، ونجحت الفكرة الى حد كبير ، بينما الامور فى البلاد تتطور بشكل سريع ومثير ، من بينها قرار الملك بتأجيل انتخابات نادى ضباط الجيش الى أجل غير مسمى، فقرر الضباط الاحرار تحدى هذا القرار بشكل سافر .. لماذا ؟ !

يقول الرئيس السادات :

— لم يكن غرض التنظيم من خوض معركة نادى الضباط الانتقام من احد عملاء الملك ، او رد اللطمة للقصر الملكى فقط ، بل راينا أن هذه المعركة اذا انتصرنا فيها تكون بداية عظيمة للمعركة الكبرى القادمة ، معركة قلب نظام الحكم ، فمعركة الانتخابات اذا خضناها تكون أول معركة علنية يخوضها الضباط الاحرار ضد القصر ، وانتصارنا فيها يشعرنا بالثقة ويبعث فى نفوس جميع الرفاق بالتنظيم الاحساس بالقوة .. وليس هذا فقط ، فان الجيش بعد انتصارنا فى معركة النادى سوف تسرى فيه روح جديدة ويكون الانتصار اختبارا لروح التضامن بين القوات المسلحة كمجموعة واحدة تقف خلف تنظيم الضباط الاحرار ..

وقدرنا أيضا نتائج كثيرة اخرى لمعركة انتخابات النادى لو انتصرنا فيها ، فالملك سوف يشعر بهزيمة

عملائه في تلك الانتخابات وسيفهم بأن الجيش غير راض عن تصرفاته ويمكن أثناء المعركة الانتخابية كشف الخونة وعملاء القصر ، وهم الذين سيقفون ضدنا وضد الذين سنرشحهم للفوز فى معركة النادى ..

ومضينا نستعد للمعركة الاولى بيننا وبين القصر ، وشعر الملك بأن فى الجيش نشاطا مريبا ، وان فى الافق سحبا تنذر بالشر ، فأصدر امرا بتأجيل الانتخابات فى نادى الضباط ..

وقرر تنظيم الضباط الاحرار تحدى أمر التأجيل ، وان نمضي حتى النهاية لتنفيذ خطتنا كاملة ، فلم نبال بالقرار الملكي ، وصدرت التوجيهات لجميع الضباط الاحرار بأن يتوجه أكبر عدد منهم الى النادى فى نفس التاريخ المحدد للانتخابات وكان محددا لها يوم ٣١ ديسمبر عام ١٩٥١ ..

وفى الموعد المحدد كان فى نادى الضباط عدد كبير من الضباط الاحرار ، وأعلنوا على الفور إحتجاجهم على أمر تأجيل الانتخابات ، ثم طلبوا دعوة الجمعية العمومية للاجتماع بعد ثلاثة أيام بواسطة رئاسة الجيش لتقرر ما تشاء ..

ولم نكن نتوقع ان تستجيب رئاسة الجيش لهذا التحدى ، لكن يبدو انها خشيت توتر الموقف .. فاستجابت للمطلب وتمت عملية الانتخابات ..

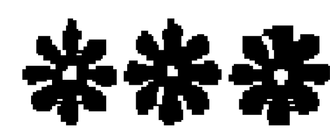
ولقد نجحت خطة التنظيم ، فكل الذين سجلنا اسماءهم فى قائمة الانتخابات حصلوا على اصوات باغلبية ساحقة ، وارتفعت المعنويات بين جميع أفراد القوات

المسلحة ، وازددنا ثقة في خطتنا وفي معاركنا وفي أعمالنا

واقبلت الاحداث لتدفع عجلة التاريخ بسرعة لم نكن نتوقعها ، فقد وقع حريق القاهرة في يناير عام ١٩٥٢، واجتمعنا على الفور لنغير خطتنا كلها ، وكنا قد قدرنا مدة خمس سنوات للقيام بالعملية الكبرى ، لكن ذلك الحدث الضخم كان أشبه بالنذير لنا وقدرنا الموقف في ذلك الاجتماع مرة ثانية ..

ثم قررنا ان نكون على استعداد خلال شهر واحد وبذلك تغيرت الخطة ..

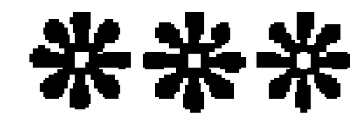
وأثناء حريق القاهرة ، صدرت الاوامر لجميع الضباط الاحرار الذين في القاهرة بمقاومة اعمال التخريب كنا نعرف النتيجة ، فالقصر والاستعمار واعوانهما سيمضون في ضرب الحركة الوطنية بكل وسيلة ، ولا سبيل الى مقاومة هؤلاء الاعداء الا بثورة وليس بالتخريب او الخطب الرنانة . وقد وضح الموقف السياسي في البلاد وضوحا تاما بعد حريق القاهرة ، وعرف من لم يكن يعرف انه لا توجد قيادة شعبية لثورة مصر ضد الاستعمار ..



وجاء يوم ١٨ ثم ١٩ يوليو .. وتقرر ان يكون موعد الثورة ليلة ٢١ يوليو ، ثم تأجل الموعد الى ليلة ٢٢ يوليو ، حتى يمكن استدعاء جميع الضباط الاحرار الذين كانوا في اجازاتهم

كل الخطوات كانت معدة بدقة وتخطيط وتفاصيلها مكتملة ، وفي صباح ٢٢ يوليو تركت « رفح » في طريقي

الى القاهرة وأشرقت شمس اليوم التالى على العاصمة وخرج الناس من منازلهم ، وامتلأت شوارع المدينة الكبيرة بهم ، وقد استمعوا الى أول بيان للثورة ، وخرج أفراد منا الى المدينة ليشاهدوا بأنفسهم مدى انعكاس الثورة على الشعب ، ثم بدأ الصحفيون يفدون الى مبنى القيادة .. ان الشعب يؤيد ما حدث .. ان الشعب يعلن عن تأييده فى كل شبر بالبلد ، الناس فرحون ، كل الناس ، فقد كانت فرحة العمر ..



وما أن انتصف نهار ٢٣ يوليو حتى كانت السيطرة على الجيش قد أصبحت مطلقة وتحركت القوات الى الاسكندرية ، وفى مساء ٢٦ يوليو خرج الملك مطرودا بناء على رغبة الشعب .. وبقى أمامنا الكثير وكان علينا أن نمضى فى تحقيق الاهداف التى رسمناها من قبل . اهداف الثورة المصرية ..

ومضت الايام ... عشرون عاما حافلة ... سائرة باذن الله فى طريق النصر

فهرس

صفحة

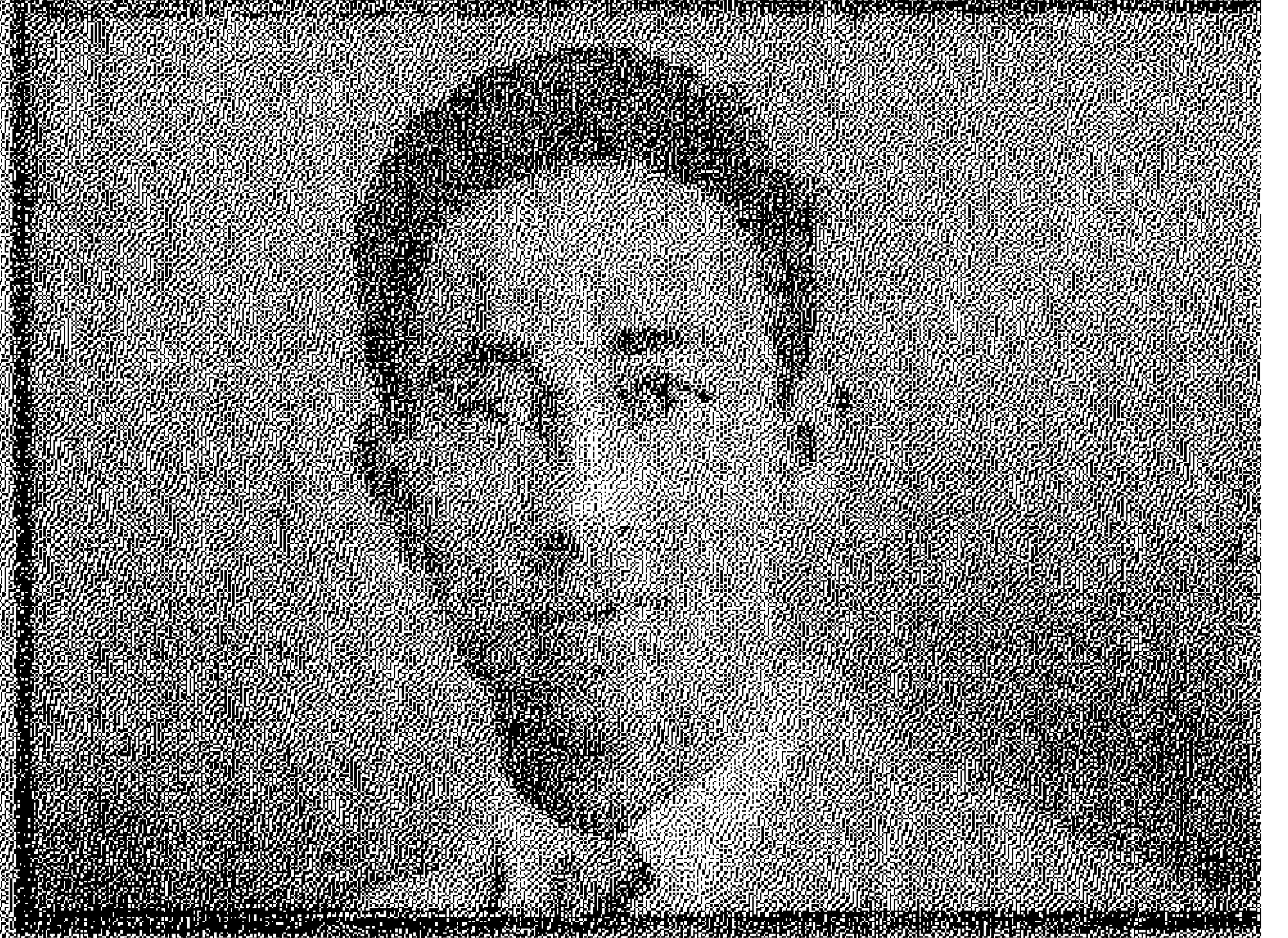
سيرة حياته بالصور



كان ايمانه منذ صباه هو سلاحه فى جميع معاركه التى خاضها ـ
والصورة التقطها المصور حسين جمعة ـ عصر احد ايام ١٩٥٨

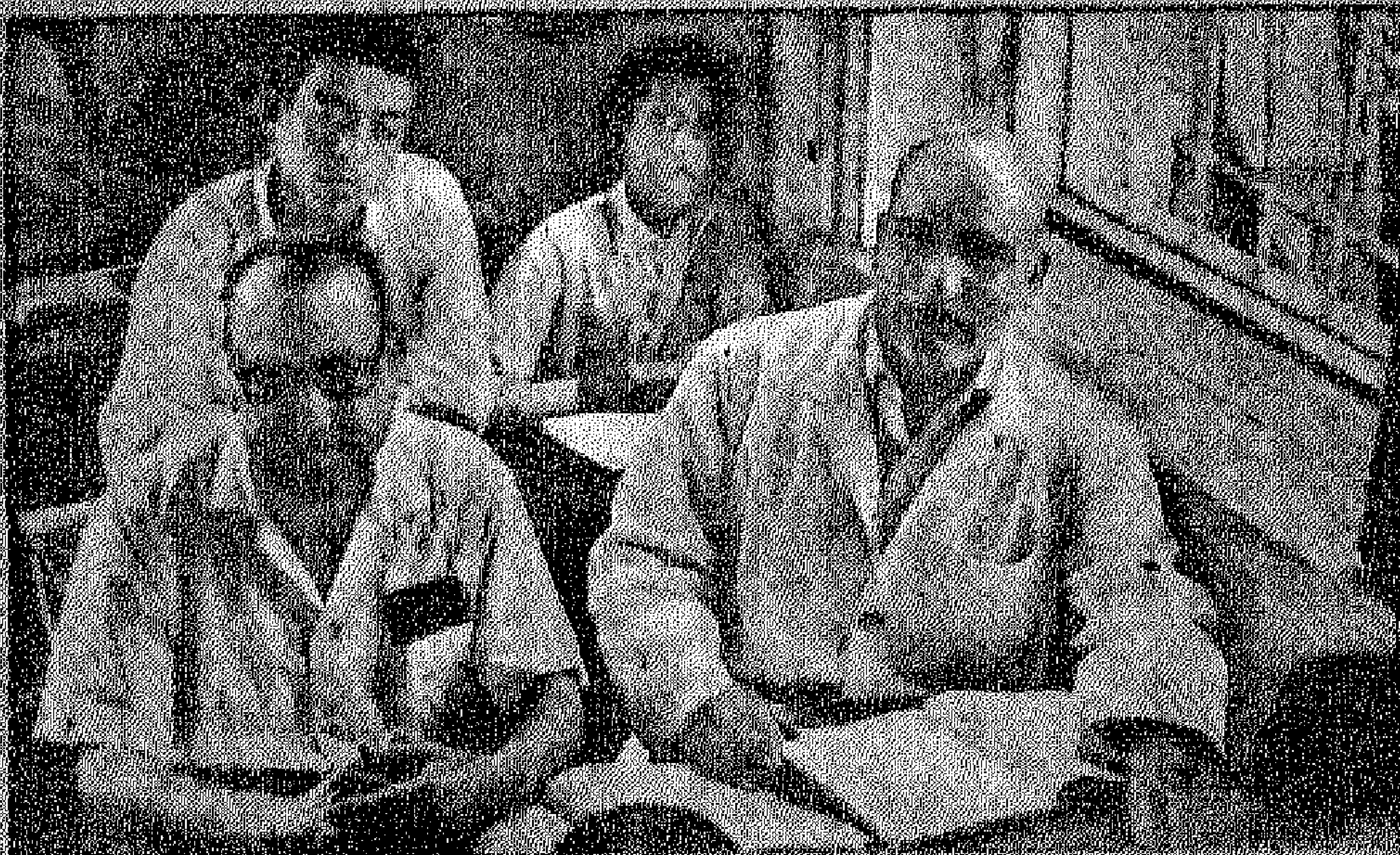
من القريـة يتزود دائما بالقوة والإيمان





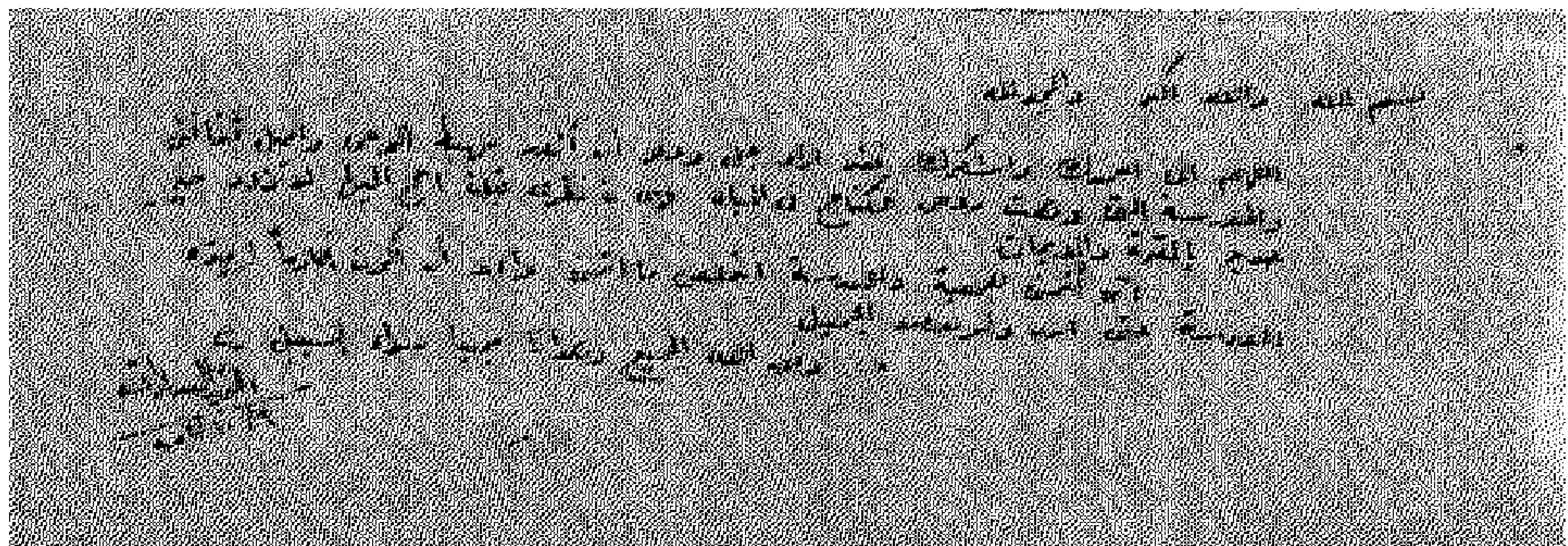
بالمرحلة الثانوية ، ثم بعد تخرجه في الكلية الحربية بالملابس المدنية.

زميلا الدراسة الابتدائية بالقرية خلال العشرينات



« كتاب » الشيخ عبد الحميد حيث حفظ الرئيس آيات القرآن الكريم

« كلمة » سجلها السادات بمدرسته الابتدائية حين زارها عام ١٩٥٢



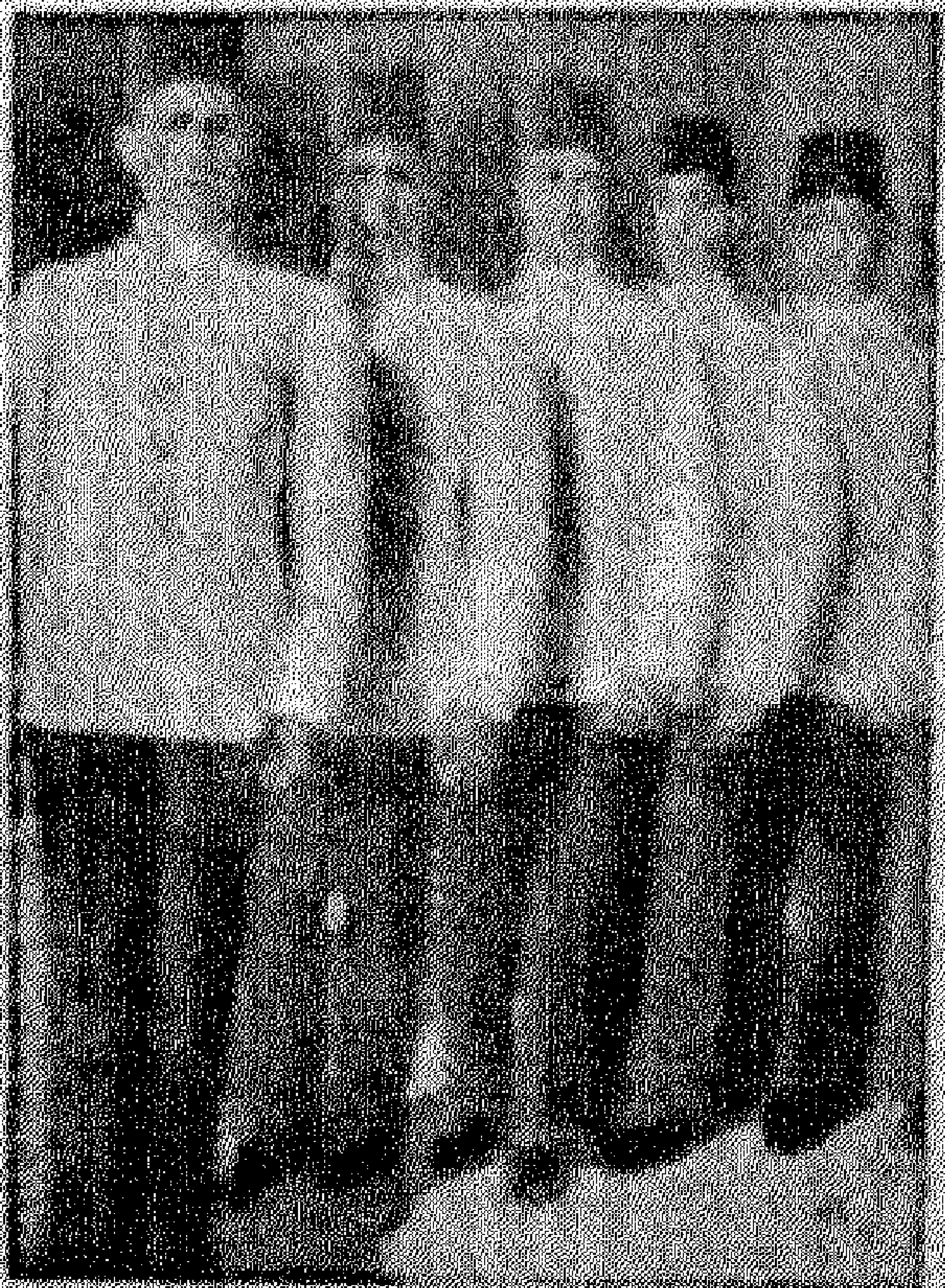
السادات طالبا بالمدرسة الحربية عام ١٩٣٦



المدرسة الحربية
١٩٣٥ - ١٩٣٨



[illegible]
الدبلوماسية [illegible]
[illegible]
الرياض [illegible]
رحلة الصيد [illegible]
عام ١٩٣٧ . . .



خريجو دفعة السادات بحفل التخرج « ٦ فبراير ١٩٣٨ »

نفس الدفعة ، بعد عشرين سنة في بيت الرئيس السادات





بمدرسة الاشارة عام
٣٨ - ٣٩ - حيث
تولدت افكاره الثورية
بين رفاق السلاح

وزارة الحربية

إدارة شئون ضباط

الملف العسكري الخاص بالرئيس السادات ، ضابطا بالجيش المصري ويحمل رقم « ١٢٧١ » ويشمل مختلف التقارير السرية العسكرية التي وضعت عنه . .



بين ضباط الاشارة ، وصـــورة النشرة العســكرية باسماء الدفعة ، التي كانت تصدر بالانجليـزية ، عام ١٩٣٨

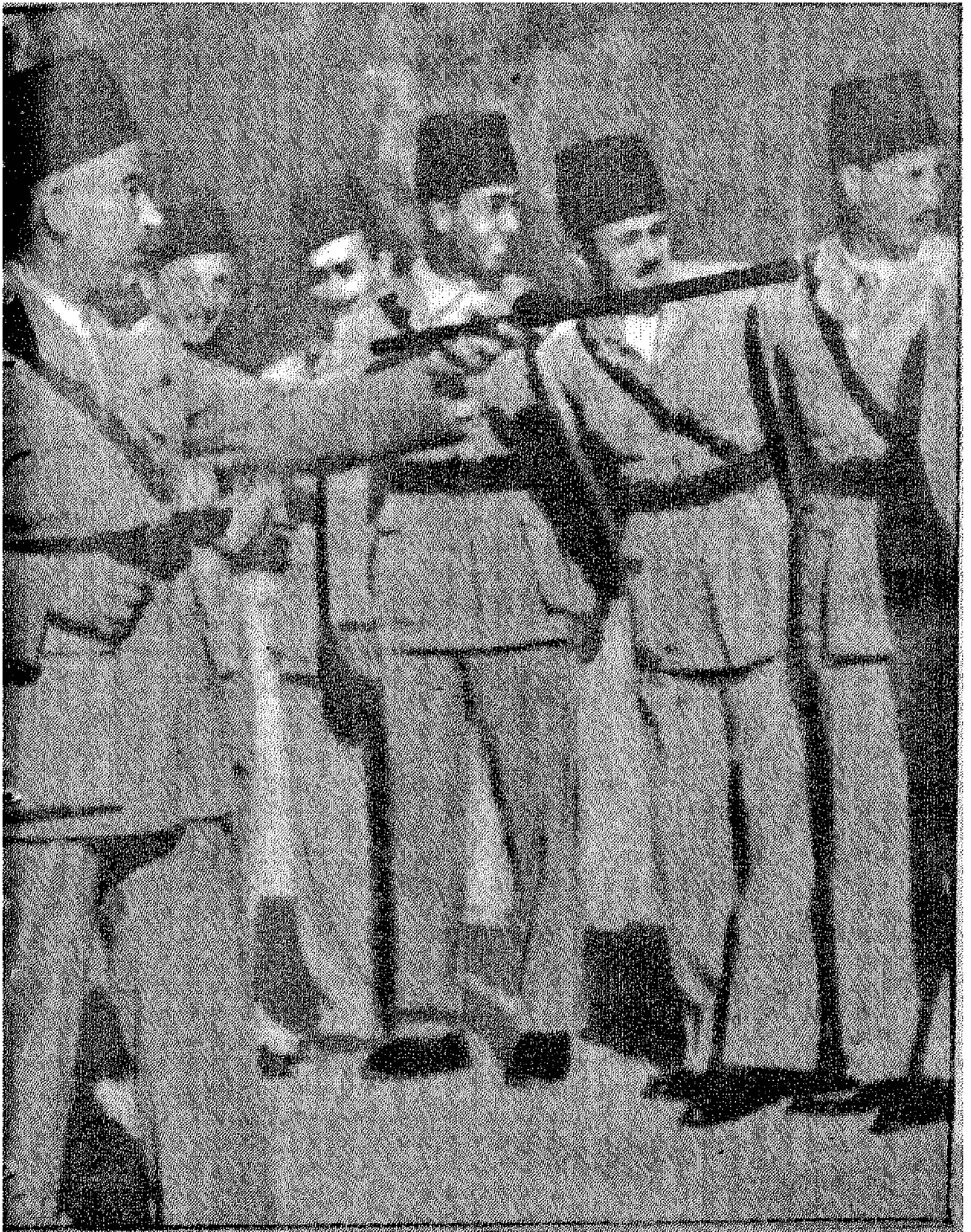


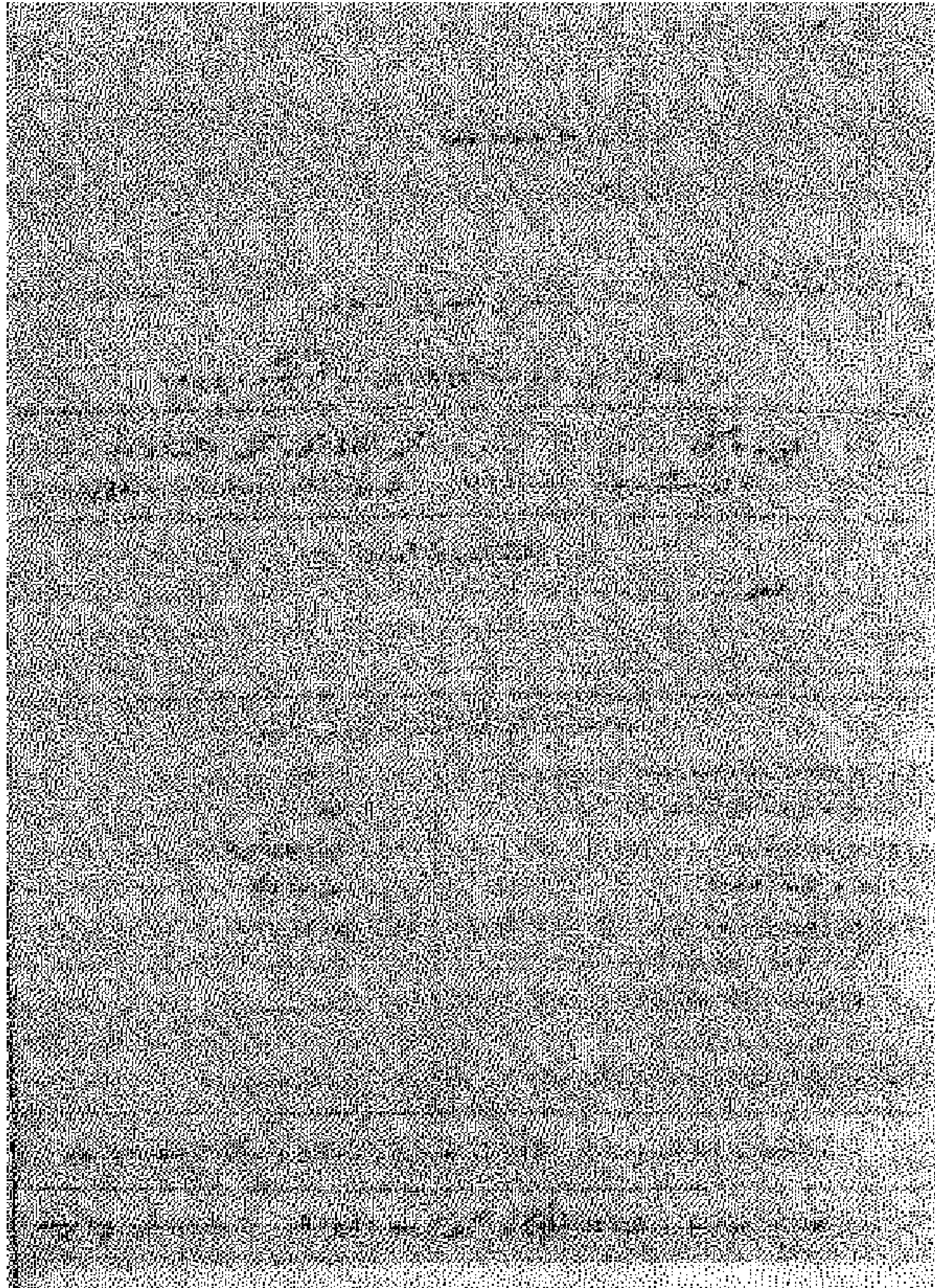
إقرار

أقر أنني أرغب في دخولي امتحان مسابقة كلية أركان الحرب الملكية الدورة الثالثة عشرة علماً بأن اللغة الأجنبية التي أرغب بامتحاني فيها هي اللغة الإنجليزية

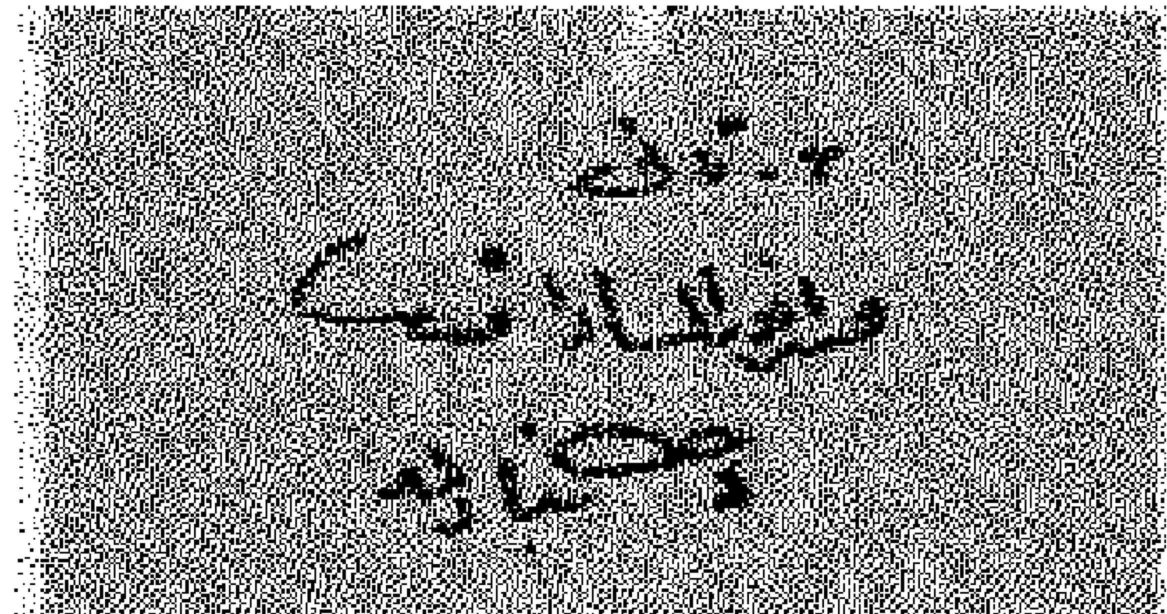
في ٢٢/١١/١٩٥١

القرار كتبه عام ١٩٥١ عند التحاقه بامتحان اركان حرب ، ثم تقرير سري بكفاءاته العسكرية والادارية صادر في نفس العام.









السادات ضابطا برتبه ملازم ثان مع « أبو الاشارة » فى مصر اللواء اسكندر أبو السعد

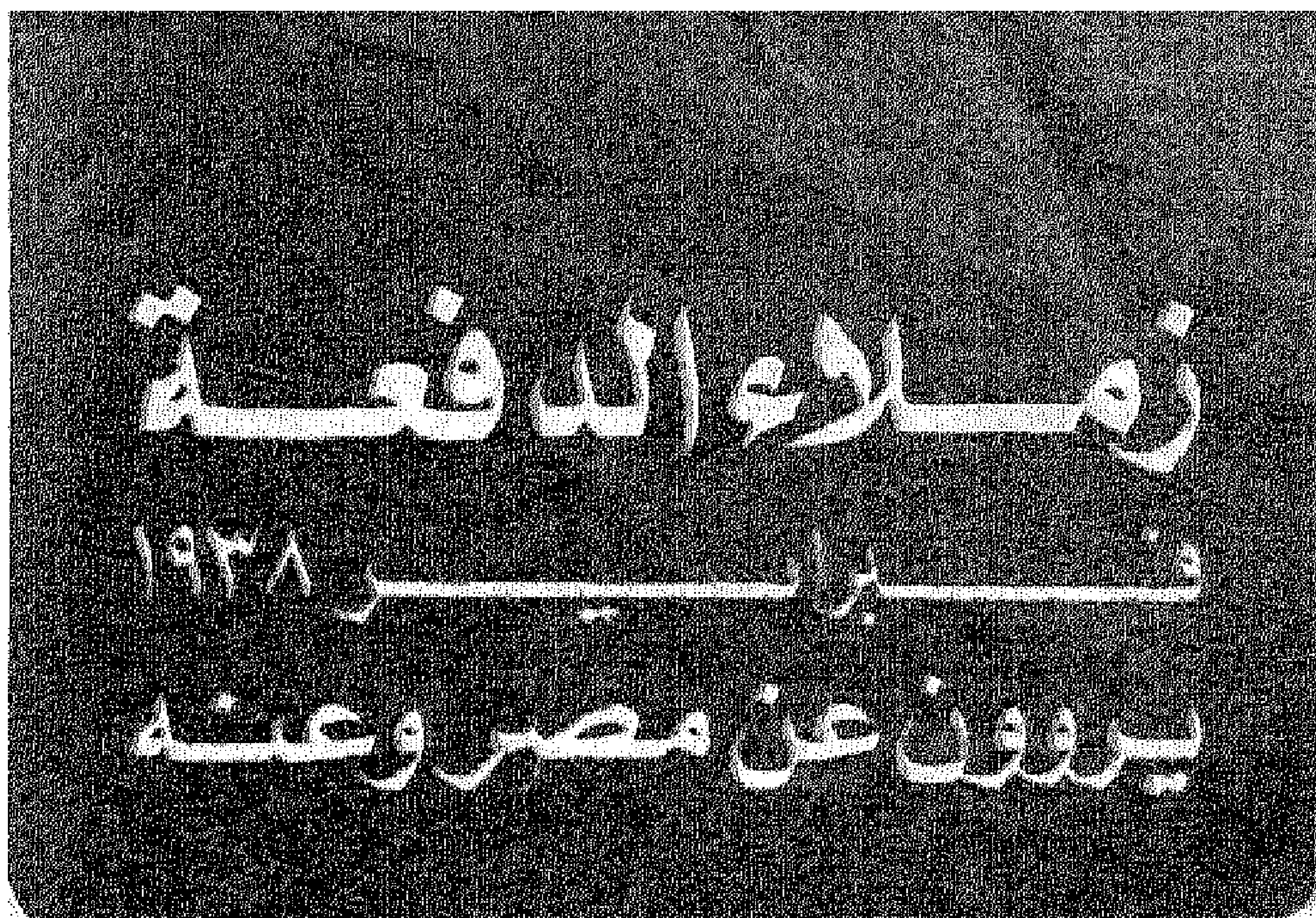


وأخرجوه من الجيش
ولكن إيمانه
بالعسكرية المصرية
كان أقوى منهم

صورة التقطت له قبل اخراجه من الجيش المصرى عام ٤٢ ، ثم صورته بالملابس المدنية اثناء المحاكمات الارهابية التى تعرض لها











حسين الشافعي ، وصورة له طالبا بالمدرسة الحربية .. دفعة الرئيس السادات



● علي عبد الكريم ●

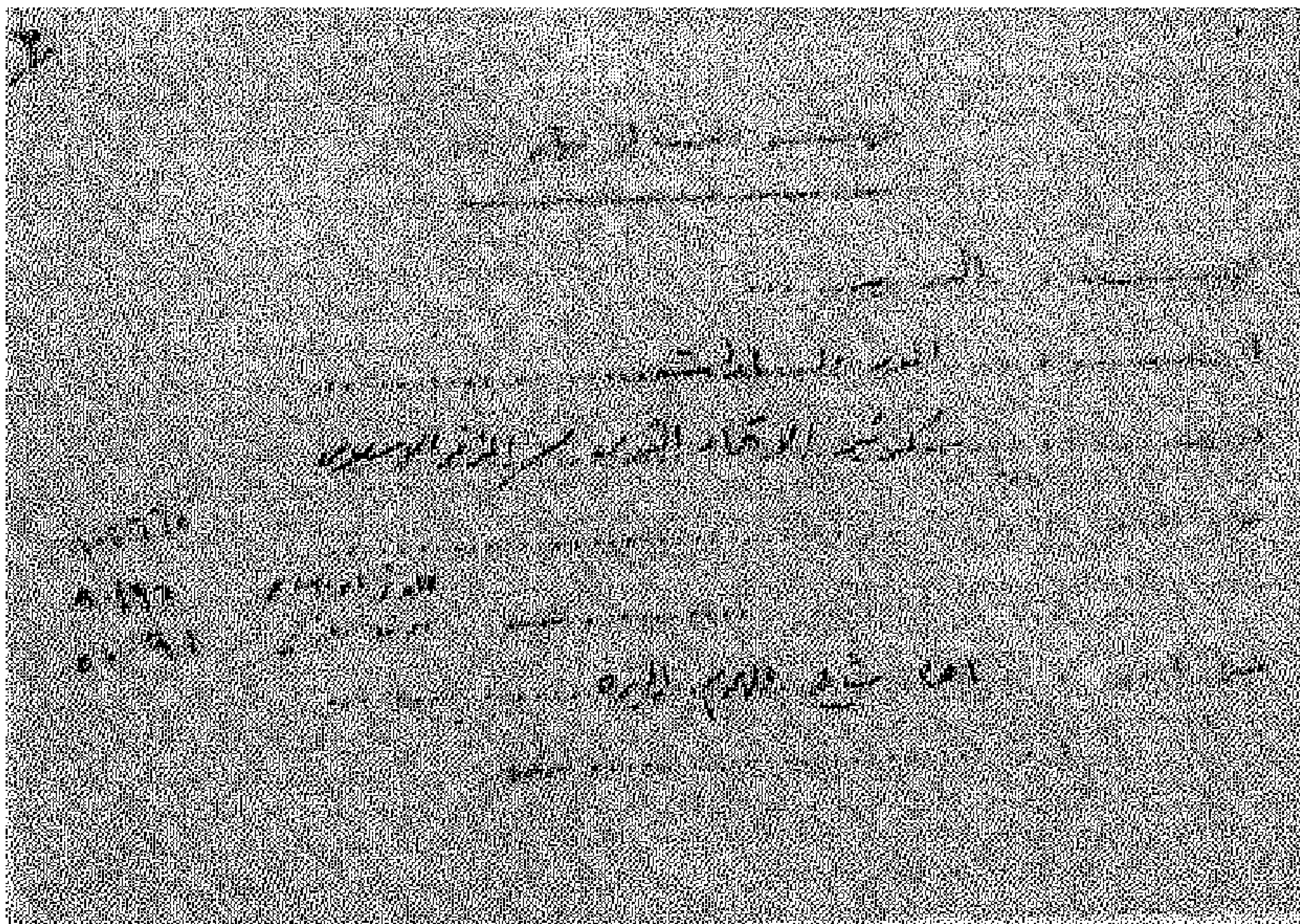


● حافظ اسماعيل ●



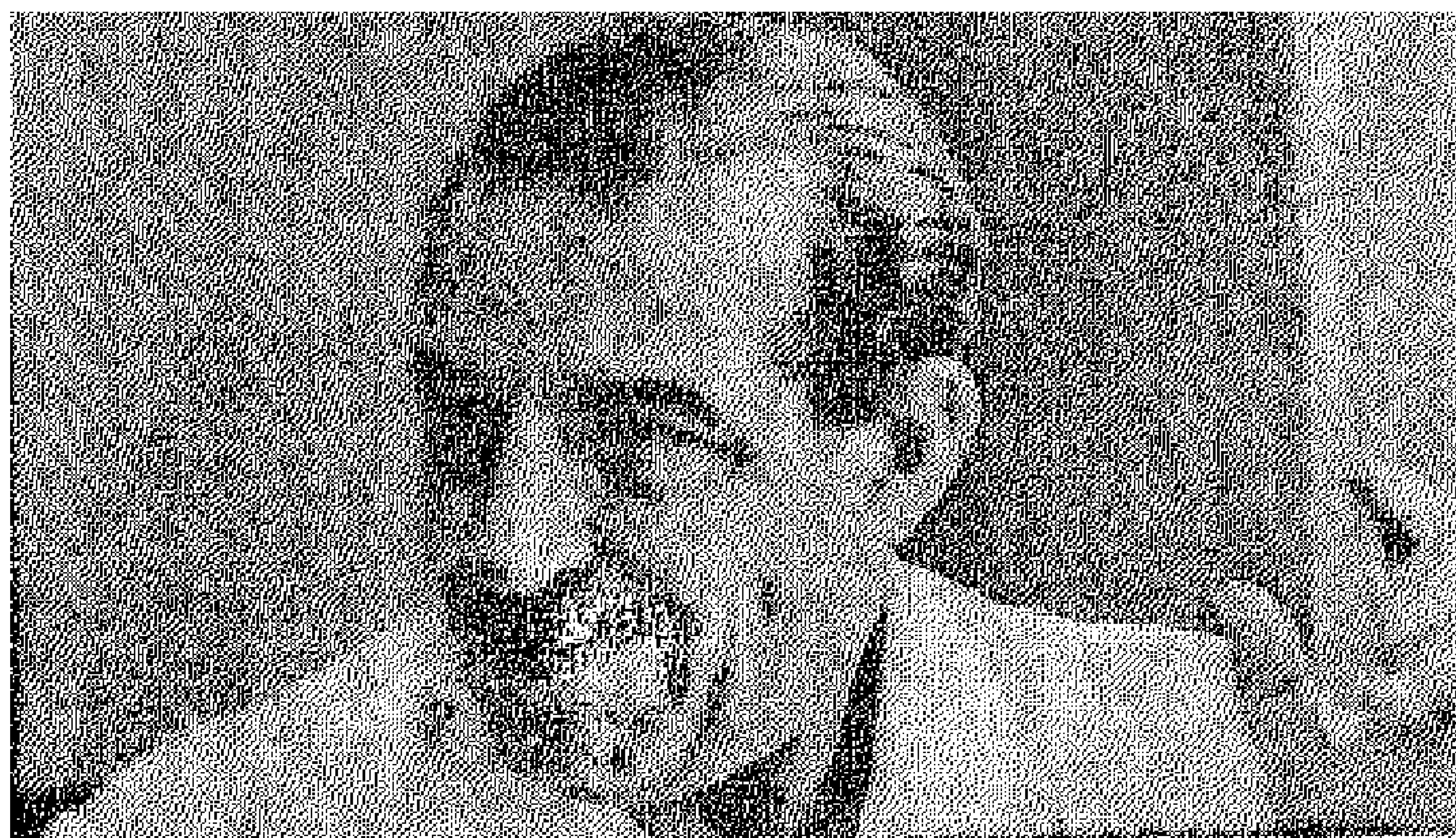
● محمود الرمالي ●

يدى قسائم اشتراكه
ابطـــة الدفعـــة ،
القسيمة تعود لعـــام
١٩٥ ..





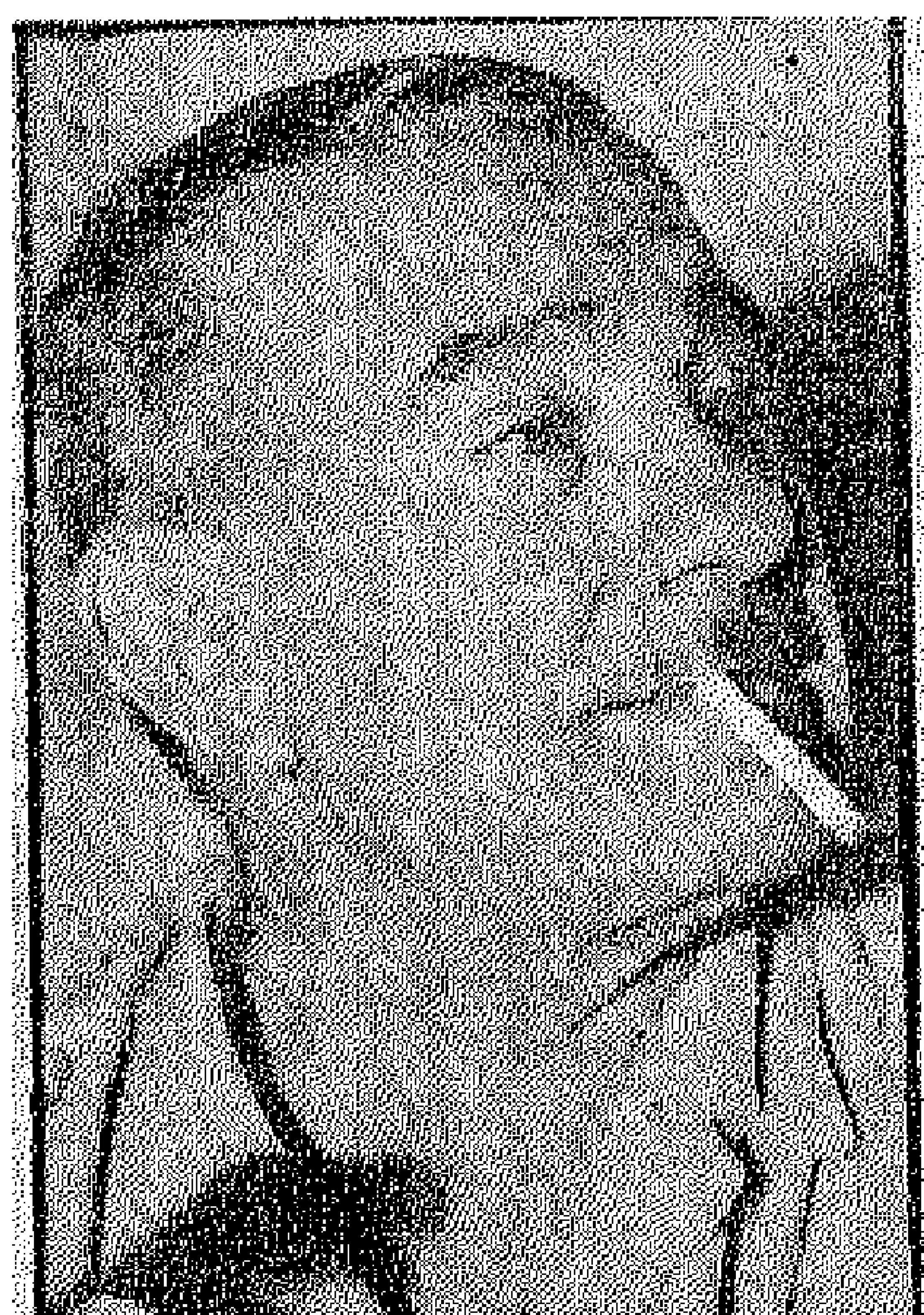
● صلاح محسن ●



● محسن متولى ●



● جمال عسكر ●



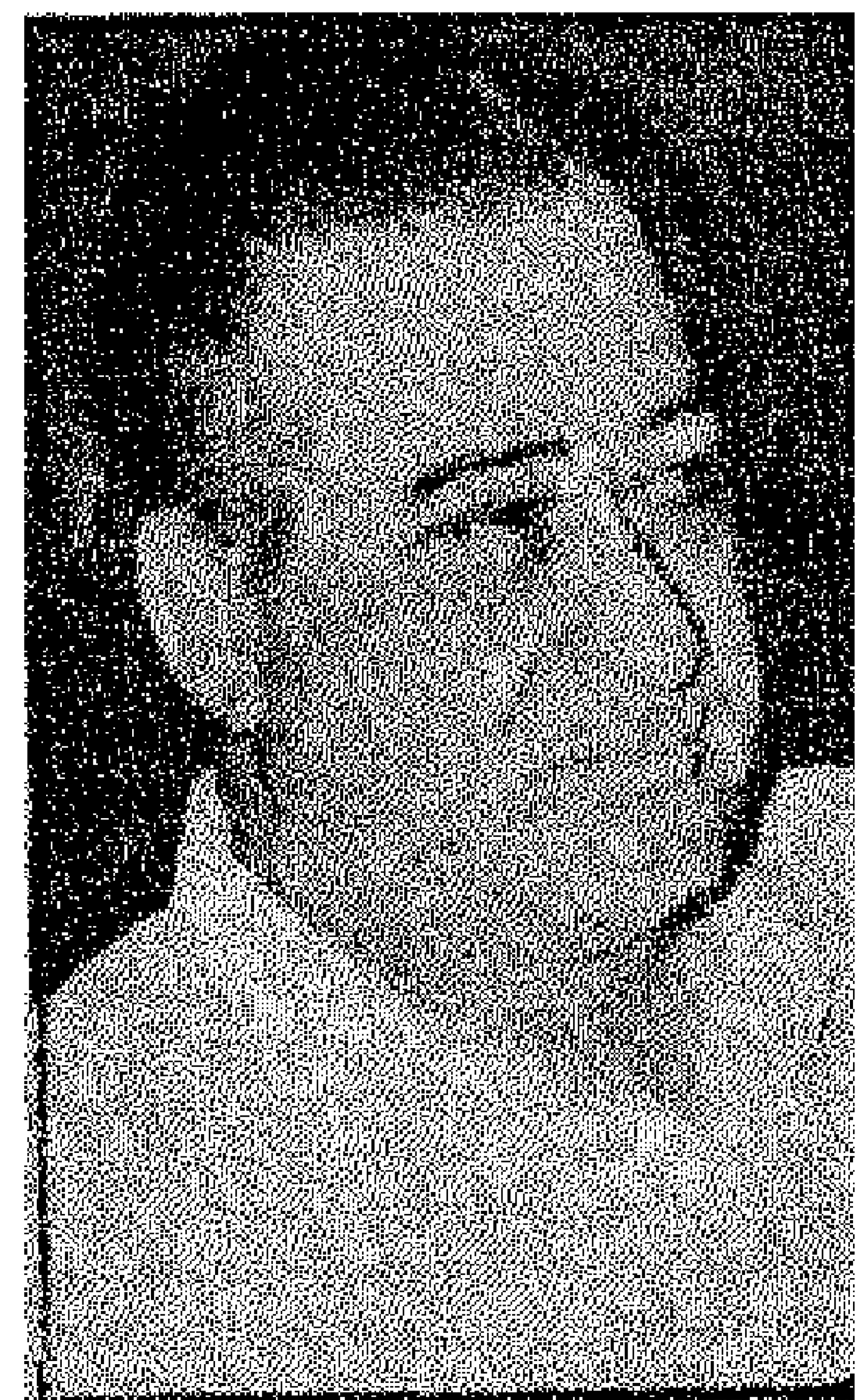
● احمدنور الدين ●



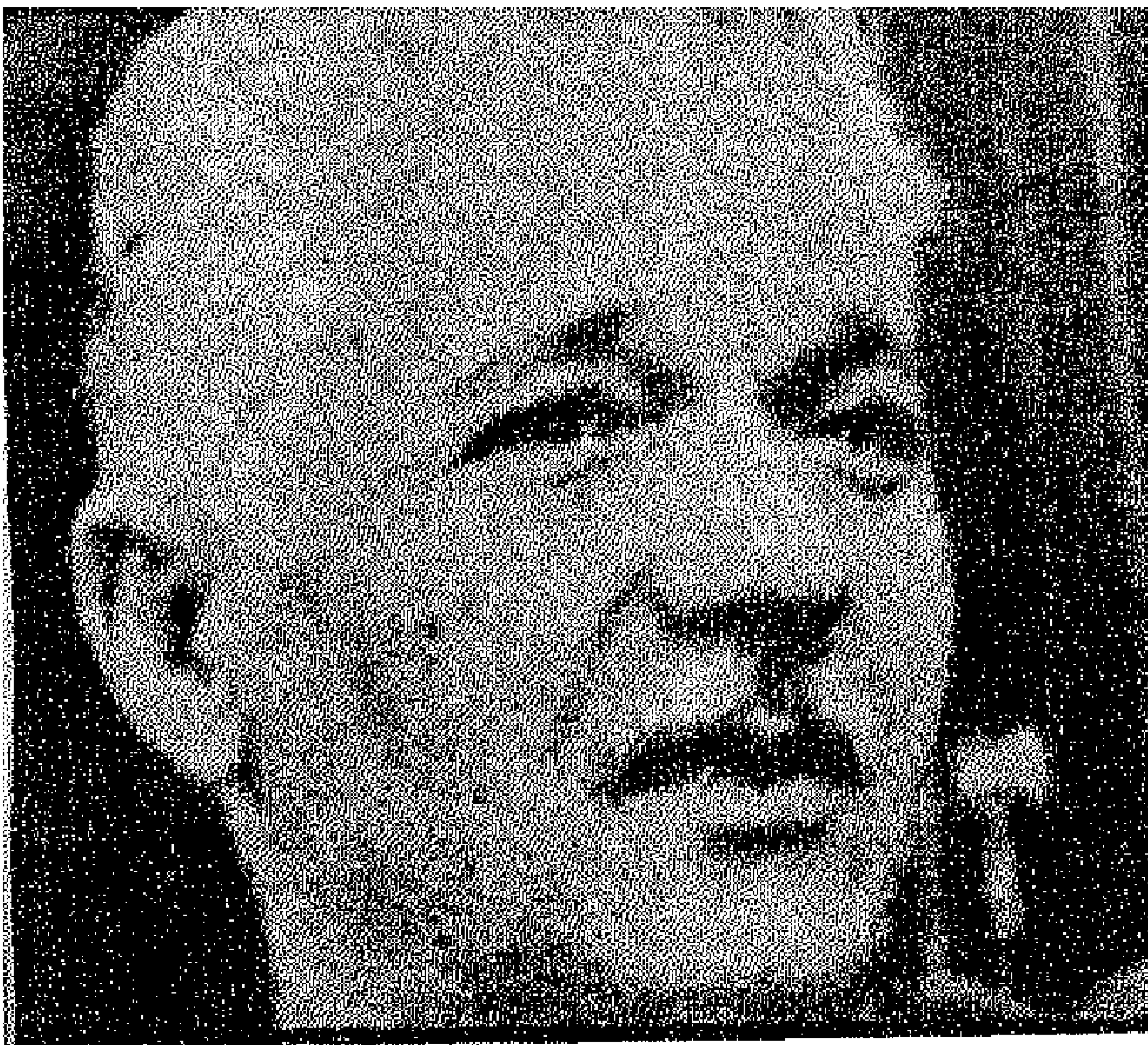
● عبد الله لطفي ●



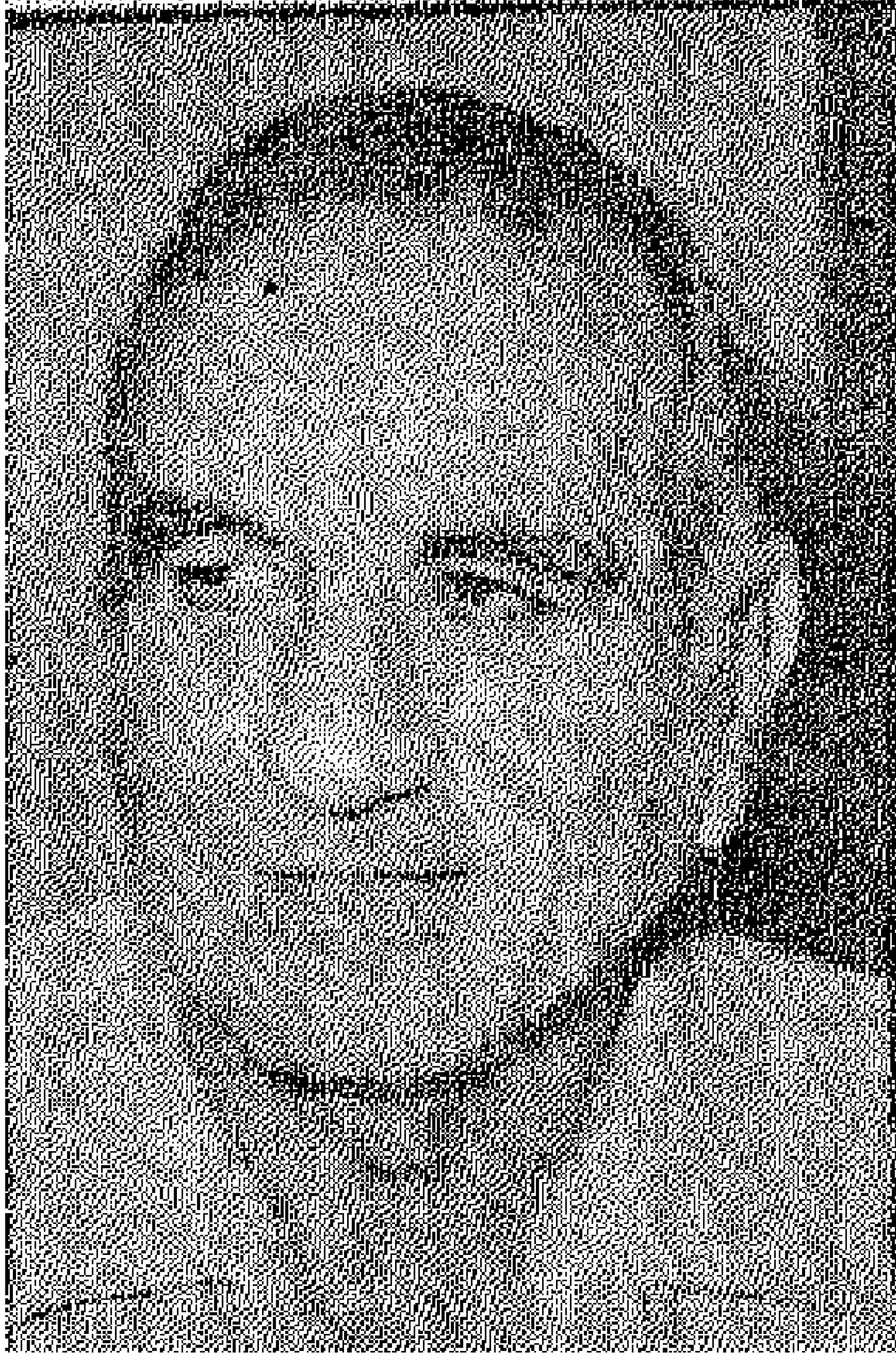
● لواء أسكندر أبو السعد ●



● البوريني ●



● عدلي أسحاق رمزی ●

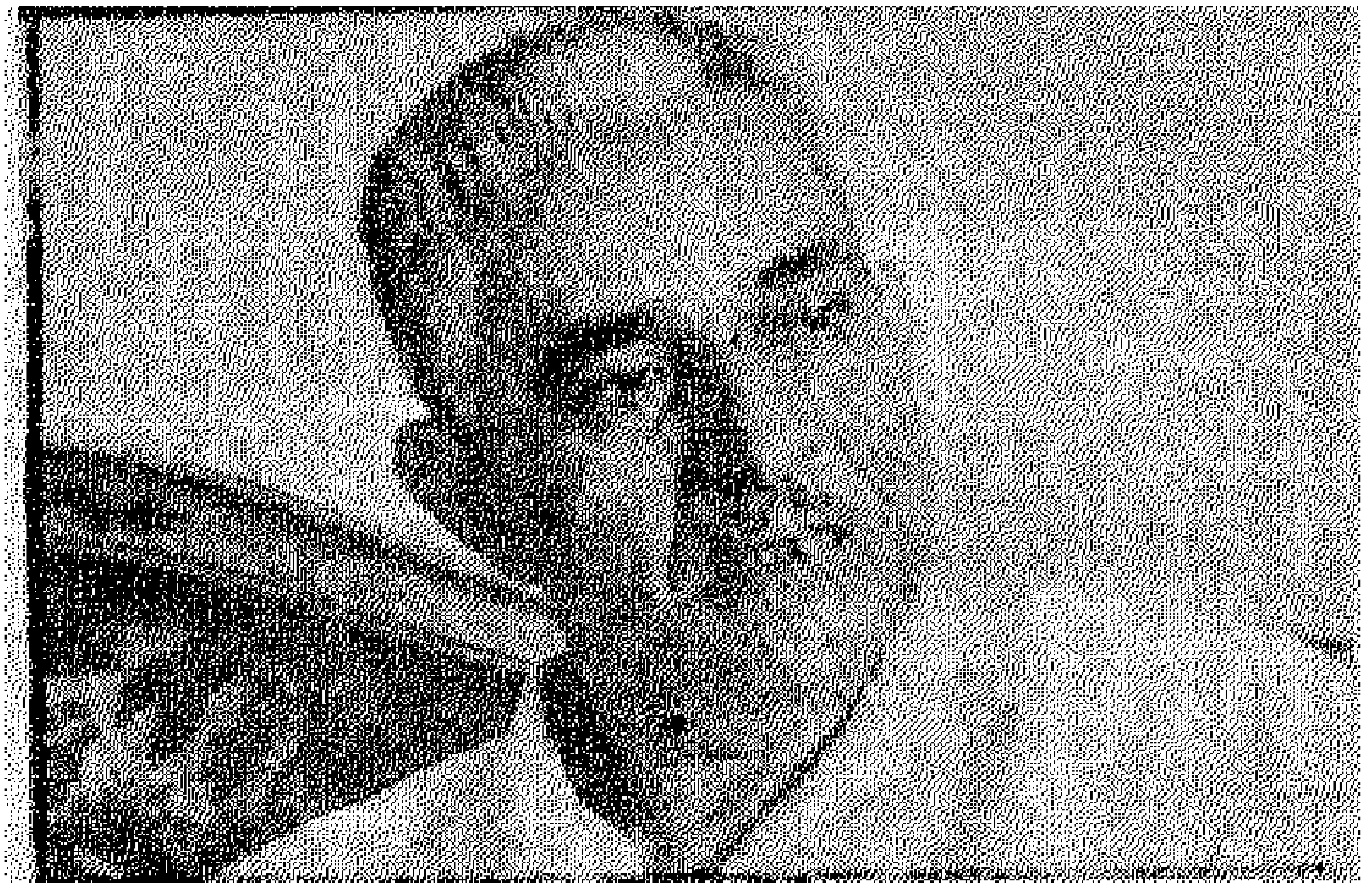


● حنا توفيق ●





● شفيق حسيب ●



● طه طه فتح الدين ●



● عبد الرحمن سعيد ●



● مراد عبد الشافي ●



● م . أبو حسين ●

● ف . خفاجي ●





● م . . كمال ●

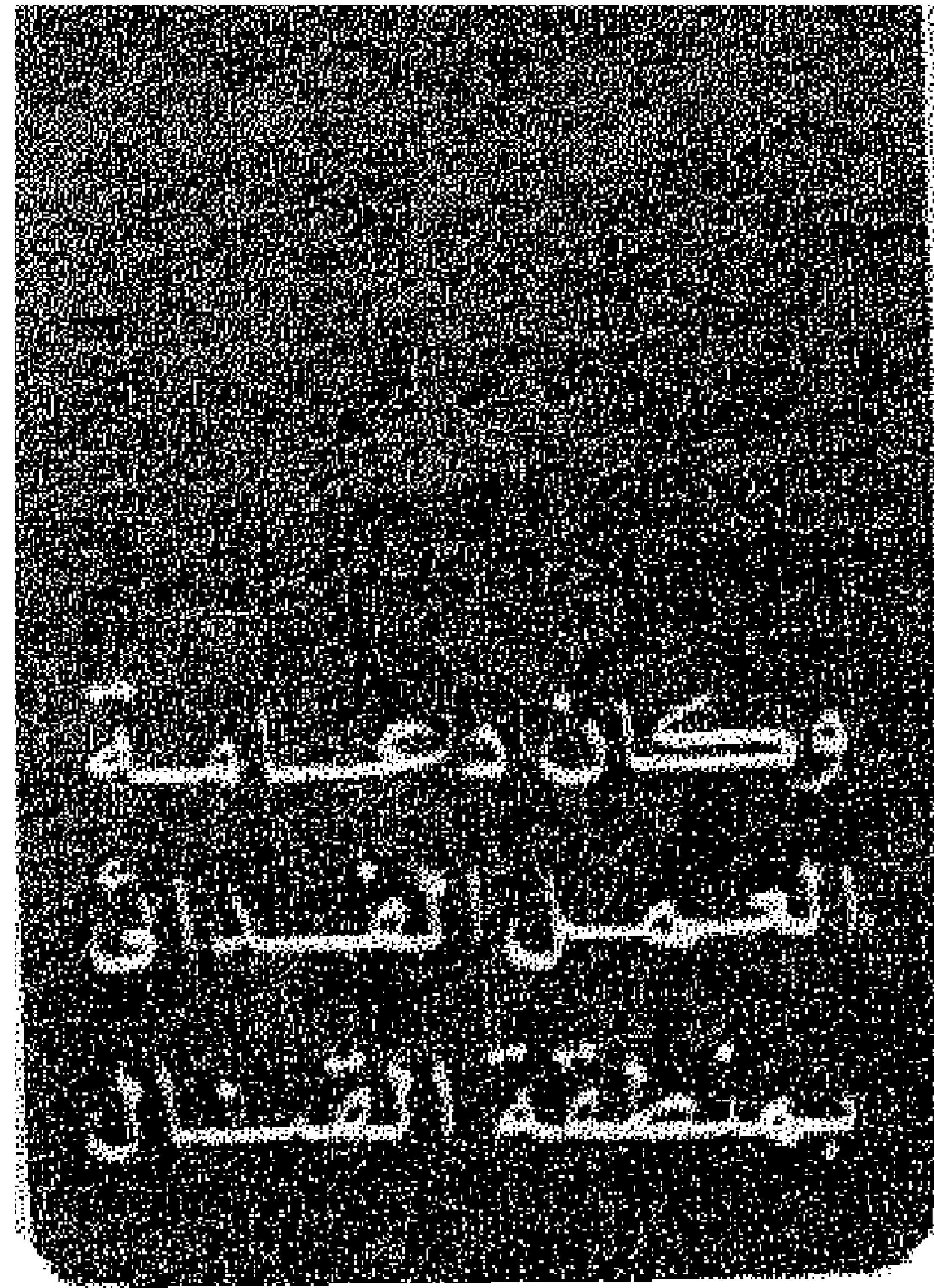


● أ . فهمي ●



● رفعت ماضي ●









حسن التهامى الآن ، وصورة قديمة له فى عمليات فلسطين ١٩٤٨

الرئيس السادات قبل قيام الثورة خـــلال
اشتراكه بعمليـــات القنـابل عام ٥١ / ١٩٥٢

صلاح هدايت، احد الفدائيين العسكريين ١٩٥١
كان مسئولا عن اعداد القنابل والالغـــام ٠ .





ثم قام بدوره الثورى لليلة ٢٣ يوليو الخالدة

الرئيس السادات في بداية الثورة عندما عهد إليه باستلام المعسكرات الإنجليزية في منطقة القناة

[illegible]

من القائد العام [illegible]
إلى الشعب المصري

اجتازت مصر فترة عصيبة [illegible] من الرشوة والفساد
وعدم استقرار الحكم [illegible] كل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش
وتسبب المرتشون المغرضون في [illegible] في حرب فلسطين
وأما فترة ما بعد الحرب [illegible] عوامل الفساد وتآمر
الخونة على الجيش وتولى أمره إما جاهل أو خائن أو فاسد حتى
تصبح مصر بلا جيش يحميها وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا
وتولى أمرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي
وطنيتهم ولابد أن مصر كلها ستتلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب
أما من رأينا اعتقالهم من رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم
ضرر وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب
وإني أؤكد للشعب المصري أن الجيش اليوم كله أصبح يعمل لصالح
الوطن في ظل الدستور مجردا من أية غاية
وأنتهز هذه الفرصة فأطلب من الشعب ألا يسمح لأحد من الخونة
أن يلجأ لأعمال التخريب أو العنف لأن هذا ليس في صالح مصر وإن
أي عمل من هذا القبيل سيقابل بشدة لم يسبق لها مثيل وسيلقى فاعله
جزاء الخائن في الحال وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاونا مع البوليس
وإني أطمئن إخواننا الأجانب على مصالحهم وأرواحهم وأموالهم ويعتبر
الجيش نفسه مسئولا عنهم والله ولي التوفيق

أول بيان للثورة بخط الرئيس السادات بعد أن كتبه فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢

إننا مواجهون
بمعركة المصير
ولا بديل للنصر

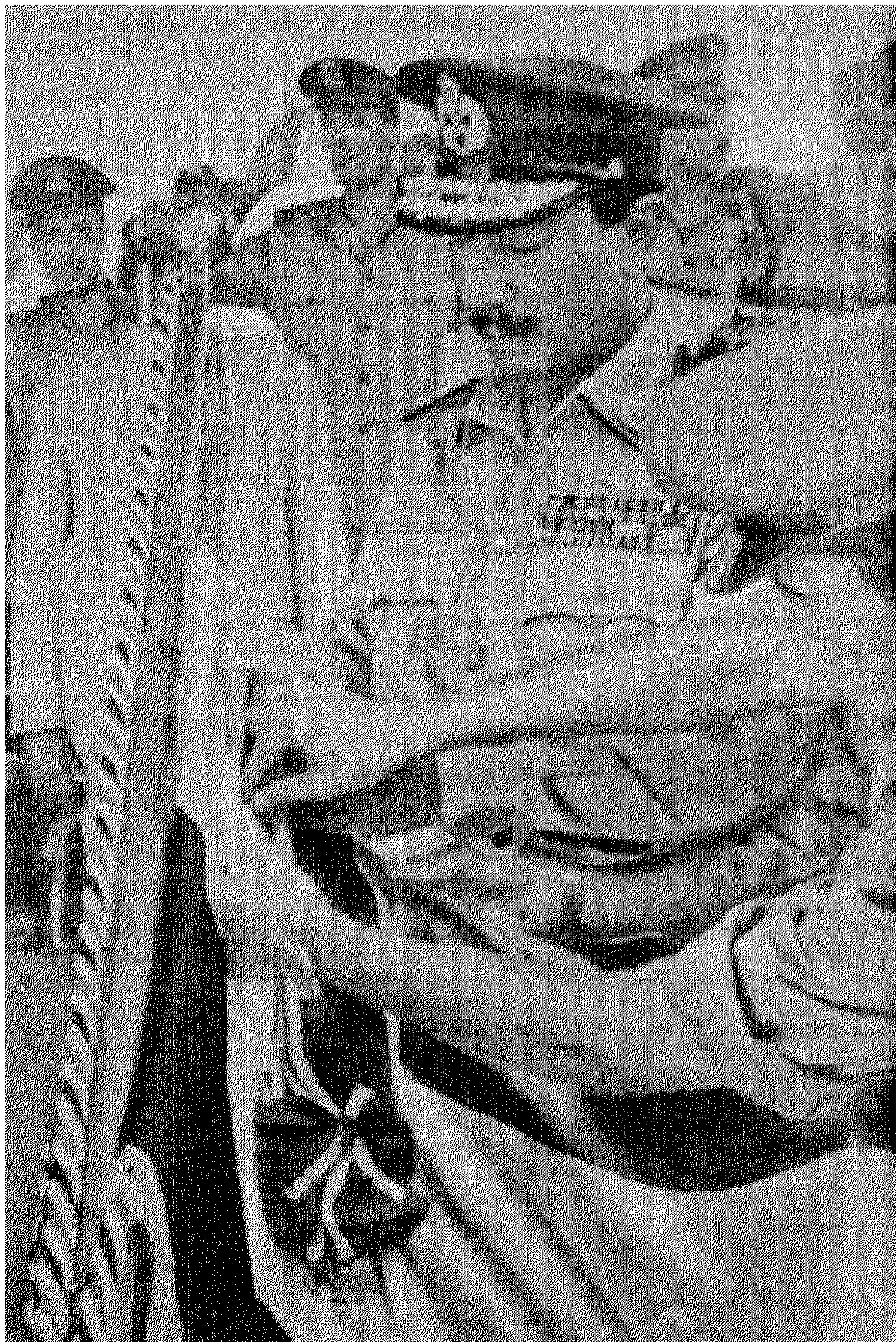
القائد الأعلى للقوات المسلحة



القائد الاعلى فى زيارته للقــوات البحرية والى يمينه القائد العام الفريق أول محمد أحمد صادق ـ ١٩٧٢



القــائد الاعــلى فى زيارته لاحدى وحدات العمليات الخاصة ـ ١٩٧١





● الأب والابن عام ١٩٥٨ ●

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة — ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل : Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

كان اسم أنور السادات ، هو أول اسم عرفناه من بين الأبطال الذين صنعوا ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ٠

عرفنا اسمه ، قبل قيام هذه الثورة بعشر سنوات ٠٠٠

عرفنا أن هذا الشاب المصرى الأسمر ، هو طليعة الفدائيين الذين وهبوا أرواحهم لله والوطن ٠

سمعنا به كما نسمع بالأسطورة الرائعة ، شابا رائدا ، يعشق مصر ، وفي سبيل هذا العشق ، يتحدى طاغوت الانجليز ، وجبروت الملك ، ويضرب بالوظيفة عرض الحائط ، ويقف فى قفص الاتهام ، ويدخل السجن ، ويقفز من فوق أسوار السجن ، ويعـــانى الجوع والحرمان ، دون أن يهتز له ايمان ٠

عرفناه فدائيا ٠٠٠

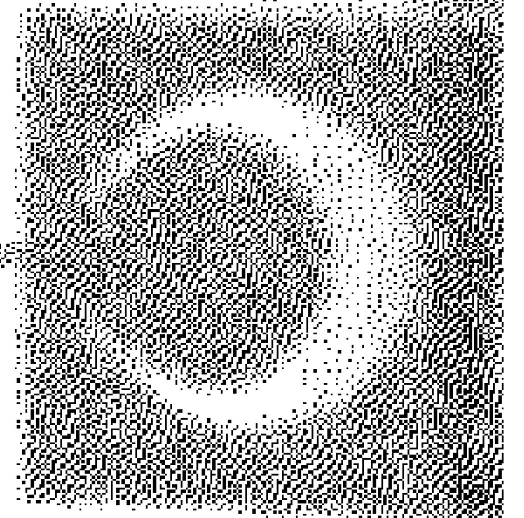
ثم عرفناه في صفوفنا ، خادما من خدام الكلمة ، يكتب مذكراته وخواطره وسوانحه فى صحف دارنا ـ دار الهلال ـ ويؤلف أكثر من كتاب ، وفي أسلوبه لغة الأديب وروح الشاعر وخيال الحالم وعزم المناضل ٠

وبقى لنا أن نعرفه عسكريا ، وهـــذه هى الرؤية الكبيرة التى يرسمها لنا رفاقه فى السلاح ، فى هذا الكتاب ، الذى نقدمه اليوم الى شباب مصر والأمة العربية فى عيد الثورة ، تحية لأول وجه عرفناه من وجوه الثورة ٠٠٠ ولأول ثائر فى سبيل الثورة ٠

انه بطل ١٩٤٢ ، وبطل ١٩٥٢ ، وبطل ١٩٧١ ٠٠٠ وبطل معركة النصر بإذن الله ٠

صالح جودت

١٢ قرشا



كتاب الهلال

سندباد في سيارة

دكتور حسين فوزي

١٩٠

...لة
...افية
...هرية

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر من « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعي

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفني : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٢٦٠ ـ جمادى الآخره ١٣٩٢ أغسطس ١٩٧٢

No, 260 — Août 1972

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية او ٢ جك ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة ..

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــــلاف بريشة
الفنان جمــال قطب

دكتور حسين فوزي

سندباد في سيارة

دار الهلال

تقديم

بلغنى أيها الملك السـعيد ان كان فى زمن الخليفة هارون الرشيد بمدينة بغداد رجل يقال له : «السندباد الحمال » . تعب من مشاله ذات يوم شديد الحر ، فألقى به الى مصطبة عريضة بباب بيت عظيم « أمامه كنس ورش ، وهواء معتدل » حمل اليه عبيرا منعشا ، ونغم أوتار ، وتفريد أطيار ، يدعوه صـاحب الدار ؛ فاذا الحمال بحضرة رجـل عظيم « وكزه الشـيب فى عارضيه ، مليح الصورة ، عليه هيبة ووقار ، وعز وافتخار » .

يكرم العظيم وفادة الحمال، فاذا عرف بأنه السندباد قال له ان اسمك مثـل اسـمى ، فأنا « السـندباد البحـرى » والتفت الى من فى المجلس من الضـيوف قائلا : « وما دامت الفرصـة التى أتاحها لى أخى السندباد البرى قد سنحت ، فانى محدثكم بحديثى ، وما قاسيت من أهوال فى حياة المخاطر التى عشتها » .

ولقد دعانى السندباد البحرى الى مجلسه ؛ عندما اتاحت لى صروف الزمان أن أركب البحار التى ركبها ، دون معاناة المخاطر التى عاشها .. واسـتأذنته فى ان تحمل كتبى اسمه الـكريم

رحلة الربيع وبعض هذا الصيف سندبادية من نوع

عجيب وجديد على ، لم اركب فيها البحر الا ساعة زمانية ، عبرت فيها مضيق جبل طارق من مدينة الجزيرة (الخثيراس) فى معدية انتقلت اليها أسوق سيارة عند طرف الاندلس الجنوبى ، وغادرتها خلف عجلة القيادة الى طرف المغرب الشمالى عند سبتة .

رحلة بدأت فى باريس يوم ١٧ مايو عام ١٩٧١ ، وانتهت فى القاهرة ، يوم أول يولية .. ستة أسابيع قطعت فيها السيارة الهمام عشرة آلاف كيلومتر وبضعة مئات ، نهبا فى الارض ، وقطعتها نهبا للقلق المستحوذ على خشية خطأ فى التقدير ، وانكسار فى عصا التسيار ، والتيه ، وانقطاع أسباب العيش حيث لا مجيب ولا نصير . أقضى هزيعا من الليل أعد للمرحلة التالية تحديدا للمسافات واختيارا للمأوى ، واطلاعا مسبقا على ما يقدر لى مشاهدته فى الظعن والاقامة .

رحلة القلق ، لا أتراسل مع قريب أو صديق ، ولا اتوقع رسالة من احد ، بحكم الانتقال الدائم ، والتركيز على خط السير .

رحلة لا تسمح بالتأمل الهادىء فى الطبيعة السخية بأشكالها والوانها ، ارضها وتضاريسها ، وسمائها وانهارها ، وجبالها وودبانها .. وصحاريها .. حقت علي فيها قولة « ينهب الارض نهبا » !

الا ان اهجع فى مكان ليلة أو أكثر ، فأعود الى المشى والتسكع ، والمشاهدة الهادئة .. وحدث هذا فى انجوليم وبايون بفرنسا ، وسان سباستيان ومدريد وقرطبة واشبيليه وغرناطة بأسبانيا ، ومراكش والرباط وفاس ومكناس بالمغرب ووهران وتلمسان والجزائر وقسنطينة وعنابة بالجزائر ، وتونس والقيروان وسوسة وصفاقس وقابس بتونس ، وطرابلس وبنغازى وطبرق بليبيا .

تتدافع الرؤى وتختلط اسماء الفنـــادق مع اسماء مدنها ، الا أشكالها ؛ اذ يكفى أن اتذكر شكل الفنـدق والمنظر من نافذة حجرتى حتى ارد اسمه الى مكانه .

رحلة بلا مذكرات ؛ مثل الـكثير من رحـلاتى التى اشغل فيها بما لا يسمح بتدوين أشياء عنها تفقد قيمتها مع الزمن . أما ما تختزنه الذاكرة فهو الجدير بالكتابة عنه فيما بعد ، مستعينا بالـكتب والخرائط والصور.. وأوراق حساب الفنادق !

فى رحلتى هذه نزل واحد لا يحمل اسما ولا رسما ، بدائى متواضع ، قيمته عندى أن وجدت فيه المـأوى والمـأكل ، وقد سـمح لى بقطع رحلة الالف كيلومتر وزيادة ما بين طرابلس وبنغازى . ولقـد صـورت لى هذه الآلاف (خطـأ) وكأنها غفل من كل شىء ، حتى المـاء والنفط ، مما اضطرنى قبـل مغادرة بلاد تونس الى اقتناء صفيحتين (جيرى كان) ، احتياطا لم يكن له داع ولا لزوم ، بفضل ذلك النزل البسـيط .

صـعدت فى جبـال شـامخة ، ونزلت الى وديان سحيقة . ومسـالك الجبال واحدة فى تعاريجها صعدا وهبوطا .. تدور لها رأس السائق دوخا ، ويبلغ حرصه فيها الاحتفاظ بما لا يقل عن شبر بين السيارة الطالعة والنازلة ، وبخاصة فى المنحنيات ، التى لا ينتهى أمرها الا عندما تغادر السفح الى المنبسط . ولا يقف الامر عند جبل واحد ؛ فما تلبث حتى تصعد فى المرتفع التالى، وما يليه .

صاحبت بحرنا الابيض على مسـتواه ، ومن أعالى السفوح . وسقت على أطراف الهوات السحيقـة فى طرق متآكلة تحذرك لافتاتها من الانهيـار اذا انحرفت الى الشفا ، ثم تسلمك لمسالك عجيبة ، أنفاق وممرات

ذات أسقف من صخور بارزة معلقة تنبهك اللافتات الى أنك تعبر تحت « مساقط أحجار » (ما أصدق قول القصاص الشعبي « جبال تشيلك وجبال تحطك »)

وعندما اتخذت طريقي فى الجزائر من عنابة الى سوق الاحراز ، متجها الى حدود تونس وسط جبال وتلال جرداء ، حتى « غار الدماء » ، اندفعت كالسيل العرم ، لا ألوى على شيء ، وكأنى اتشفى من عذاب المسالك « الزجزاجية » ، ذات المنحنيات التى تشبه بدبوس الشعر ، حتى بلغت «مجاز الباب» ، فتونس الخضراء .

وسلمتنى طرق تونس المنبسطة الى طرق ليبيا الفسيحة ، الذاهبة على مدد الشوف دون انحراف ، لا تعطلك فيها حيوانات المراعى ، ولا صريخ ابن يومين .

فاذا بي أنطلق من خطر الاصطدام والهوى فوق المفاوز المتشابكة ، الى خطر السرعات التى لم أبلغها من قبل أبدا . والسرعة فوق الطرق الليبية توقظك من ملال الطريق السوى الممتد الى مئات ومئات من الفراسخ . سرعات لا تكاد تحس بها فى ذلك الفضاء الواسع . فاذا أدركت تعديك المائة واربعين كيلو مترا الى المائة والستين فالسبعين ، اخذت الرهبة بتلابيب نفسك ، اذ تشعر بأن احتكامك بالآلة المخيفة لم يعد كما كان حول المائة .. فتستفيد هدوءك اذ تستقر حوالى المائة والثلاثين ...

أما بعد اجتياز نقطة الحدود الليبية عند « مساعد » والإتجاه الى السلوم ، فأن الطريق غير السوية تفرض عليك السير بحذر بالغ ، وبطء قاس ، لتواصل السير مداولة بين الطريق الاصلية ، وما يعتورها من تحويلات خارج الخط ، تهددك فيها الحجارة والحصى والرمال والاتربة

بالانفراس الا ان تتلمس طريقك فوق « مدق » سيارات سابقة .

يالله ! كيف يتأتى أن تحمينا شر الطرق من السرعة الخطيرة ، فوق المسالك المنبسطة ، المستوية التى عرفت فى فرنسا واسبانيا والشمال الافريقى ـ الا فوق الجبال !

وما أعجب طرق الحضارة تلك ! .. تجتازها بخريطة وبغير خريطة ، بمعرفة مسبقة من كتب الادلاء ، وبدون معرفة ، وكانت خرائطى وأدلائى كافية طوال العشرة آلاف كيلومتر ، فيما عدا الجزائر ، التى بحثت عن خرائط لها خارج الجزائر وداخلها ، فلم أوفق الى شىء منها !

علامات الطرق واضحة ، وأخطارها يشار اليها بالرمز والكتابة . فلا ظلام فيها ولا تغريب ، ولا تيه. انطلق على باب الله دون وجل ، فاللافتات كفيلة بحمايتك من الخطأ والخطر .. على الا تهمل قراءة اية واحدة منها .

لم يحدث لى أن تهت فى العراء .. وأكثر ما ضايقنى التيه فى المدن ، ارسم طريقى على خرائطها ، واودعها ذاكرتى .. واذا بطرق « الاتجاه الواحد » تمحو معالم استعدادى ، فأدور فى حلقة لا أخرج منها الا بسؤال أهل المروءة .

ولقد عرفت فى هؤلاء من يتحاشون الاقرار بأنهم لا يعرفون ، فيدلونك بطريقة « كل شن كان » وحدث أن سألت شخصين متجاورين فقال الواحد يمنة ، وقال الآخر يسرة ، وغادرتهما يتجادلان : خلاصا بنفسى من الميمنة والميسرة !

هذا كل ما عرفت من حوادث . لم يصب السيارة

عطب ولا خدش ، لا بفضل قيادتي ، ولكن بفضل اتقان القيادة عند كافة السائقين بكل تلك البلاد ، كانوا هم الذين يتجنبون خطئي !

أهم حادث وقع لي كان في حاضرة من الشمال الافريقي .. نزلت من فندق الضاحية الى جادة فسيحة هي أوسع واطول شارع في عاصمة البلاد . وركنت السيارة وسط رتل طويل من سيارات تقف على صفي طوار يتوسط الشارع العريض . كان ذلك في الصباح التالي لوصولي مساء الى العاصمة ، وضاحيتها الجميلة على شاطئ البحر .

دلفت أسعى الى مصرف لتحويل النقد ، فاذا مكاتب الكامبيو تقفل قبل الظهر بساعة . فأخذت أتجول مشيا في أسواق المدينة الآسرة ، استعيد ذكريات شبابي فيها ، بين جاداتها وبطحاواتها ومساجدها الاثرية التي جمعت بين فن المشارقة والمغاربة .

وعندما عدت الى الجادة الفسيحة ، وجدت طوارها خاليا تماما من السيارات التي كانت تزحمه في الصباح .. حتى السيارة التي تركتها هناك .. اختفت بقدرة قادر ! ..

لم افكر أبدا في ان تكون قد سرقت .. وحسبت لاول وهلة انني اخطأت تحديد موقعها ، فقطعت الشارع ريحة وجيئة حتى تأكدت من اختفاء السيارة فعلا ! ..

وتذكرت ان محافظا للقاهرة « تعازم » ذات مرة ، وامر برفع كل سيارة تخالف المرابط المقررة ، ونقلها الى قلم المرور ، وتغريم سائقها خمسة جنيهات . فأسرعت الى واحد من الاهالي أسأله : هل يحدث عندكم أن تحمل الشرطة سيارة مقفلة مفرملة باحكام ؟

وقال لى بالفرنسية : امال ! .. اذهب وابحث عن سيارتك فى حوش قلم المرور . واستعمل كلمة أضحكتنى هى التى تطلق على معتقل الكلاب السائمة ! ..

مشيت فى حمارة القيظ طويلا ، فليس معى من نقد البلاد مليم واحد ، حتى بلغت شفخانة المرور ، فاذا السيارة هناك ، نقلت « شـــيلة بيلة » ، ووقفت كالعروس كسيفة البال وسط السيارات الشضلية التى تعاقب على مخالفتها الاوامر .

قادونى الى الوكل بأمر المحابيس.. فاعتذرت بطريقة لا تخلو من العتاب المستتر : وصلت ياسيدى مســاء الامس من خارج بلادكم ، ونزلت الى عاصمتكم هـذا الصباح ، وأوقفت السيارة وسـط صفين طويلين من اخدانها ، وواضح لـكم من لوحتها الدولية ان صاحبها سائح ، عابر سبيل.. وفى بلدى يعامل مرور الاسكندرية سيارات القاهرة والاقاليم برفق .

كان الرجل لطيف المعشر ، فبرأ السيارة ، وشطب رقمها من جدول المخالفات . ولو لم يفعل لدخلنـا فى اشكال خلو الجيب من نقد البلد المضياف الـكريم .. فى ساعة نحس البنوك ! ..

ودرس كبير وعيتــه من المرور باثنى عشر جمـرك وشرطة حدود ، لا علاقة له بتفتيش الامتعة ، أو عدم تفتيشها . ولا اذكر ان فتشت امتعتى الا فى الجمرك الاسبانى عند الحدود الفرنسية .. أمرت بفتح حقيبة كبيرة .. قلب الرجل محتوياتها ، فاكتشف مجلدا من خمس مجلدات فى سيرة فولفجانج اماديوس موزار .. نظر الى زميله مبتسما ، وانزل بيـده غطاء الحقيبة ، وحيانى فى أدب بالغ ! ..

قضيت فى بعض جمارك الشمال الافريقى ما لا يقل

عن ساعتين أملأ فى أوراق واستمارات أختمها من شباك الى شباك .. فما هو الدرس الذى وعيت ؟ ..

البلد الذى تشغلك جماركه بملء استمارات وبطاقات وامضاءات وبصمات وأختام ، يعنى انه قليــل الادراك لاهمية السياحة حتى لو قال بلسانه غير ذلك ، وأقسم ان لم يستغرق دخولى وخروجى من بلاد غربى أوربا وشماليها أكثر من ربع ساعة ! ..

لم يخفف هم العطل الـكبير فى بلاد الشمال الافريقى سوى حسن المعاملة واشعارى من قبل السلطات بأنى أخ وضيف . ومثل هــذا ، وخير من هــذا ما رأيت وأشهد ، من أمانة ولطف وانسانية ، والاحساس بأننى اعود الى بلدى الحبيب . . . فى تلك المنطقة النائية عند الحدود المصرية الليبية ، وقد أصبحت نموذجا فى الدقة والحرص على أداء الواجب فى نزاهة ، وحســن ادراك الظروف . جزاهم الله عنا نحن السفار الابرياء كل خير .. فبمثل أولئك الرجال نتوقع اصلاح الحال ، وحسن المآل ، آمين ..

مصـــــر ..
واسطة العقد بين المشارقة والمغاربة

فى حياة هذا المســـــافر مفارقة بين ما تعلمـــه فى المدرسـة ، وما خبره فى رحلاته .. عرف فى المدرسة ، والاطلاع العام ، المشرق الاسلامى أكثر من المغرب .. وكان الموكلين ببرامج التعليم فى زمانى وقفوا عند اسلوم .. وطبيعى أن يتجه المغاربه والمشارقة الى ارض الوحى والرسالة والخلافه ..

شـاءت المقادير أن تبدأ التجربة الحية لهذا المسافر فى المجموعة العربية بالمغـــرب ، قبل المشرق .. عندما سـافرت منذ نيف وأربعين عاما من باريس الى تونس ، لاتابع بحثا علميا بمعهد «سلامبو» الاقيانوغرافى بضاحية تونس .. بقيت هناك شهرا كاملا أعمل مع فرنسيين ، وأسكن فى نزل فرنسى بالضـاحية .. وكنت أنزل الى تونس الخضراء فى أوقات فراغى للتجوال فى المدينـــة الآسرة ، والجلوس الى وراق أمام جامع الزيتونة .. وتناول الطعام على مقربة من ذلك المكان .. وقد أزور متحف قصر « الباردو » ، فى الناحيـــة الاخرى من ارباض المدينة ..

واذا لم يسعفنى وقت الفراغ ، كنت اكتفى بالتجوال فيما بين ضاحية سلامبو وقرطاج لأزور آثار البونيقيين، ولم يبق منها الا القليل .. بعض المدافن ، ومعبد ربة

الفينيقيين « تانيت » وربهم « بعــل حمــون » وآثار الرومان وقد انتهوا الى القضاء على قرطاجة ، كخاتمة للحروب البونيقية بعد أن درج كاتون القديم في مجلس شيوخ روما على تكرار تحريضه : « مهما كان الامر ففى ظنى يجب تدمير قرطاجة (كارتاجينم أسى ديلندم) » .

واعرج على قرية سيدى أبو سعيد أجمل ما عرفت من القرى تنسيقا وموقعا وبساطة ونظافة . .

فى نهاية اقامتى بســلامبو ، ســافرت الى القيروان مدينة عقبة بن نافع الفهرى فاتح المغرب ، أزور جامعهــا الــكبير ، وما حوله من مساجد ، أذكر منهــا المسجد ذا الثلاثة البيبان ، ومسجد أبى زمعة البلوى .

ثم عبرت الى الجزائر لاقضى فيها بضعة أيام قبــل العودة الى معملى بالسوربون . وفى الجزائر صــدمتنى تجربة الاستعمار الفرنسي فى عاصــمة من أبهى عواصم المغرب . اكتفيت منهــا بالصــعود الى « القصبــة » للاحساس بأهل البلاد الاصالى ، ولــكى أطل على بحرنا من الاعالى . وقد كرهت أن لا أرى لاهــل البــلاد فى عاصمتهم التاريخية أثرا بين المستعمرين . فالمســـجد الكبير فى المدينة المنخفضة قد تحــول الى غير ما أنشىء له ، وغير ذلك من مظاهر عاصــمة بمبانيها الفخمــة وسكانها ، أقرب الى أن تكون مدينة فرنسية من مدن الجنوب .

وغادرت الجزائر بعد يوم وليلة عندما لم أطق البقاء فى ذلك الجو الاستعمارى الذريع .

وكنت قد عشت فى تونس تجربة استعمارية تركت فى نفسى جرحا عميقا ، عرفت فى زمانها باسم « المؤتمر الافخارستى » شاهدت الرسول الـكاثوليكي يستقبله المقيم العام الفرنسى (الحاكم بأمر الجمهورية الفرنسية

العلمانية ا) استقبـال الفاتحين .. والسفن الداخلة ميناء تونس تحمل وفود المؤتمر تهزم بالتراتيل اللاتينية، وقد جاءت لتشيد بذكرى القديس الصليبى لويس التاسع أسير بيت ابن لقمان بالمنصوره ، والمتوفى بالوباء فى تونس .

ورايت الوفود تقف بتمثال الكاردينال لافيجرى المستعمر الدينى منصوبا قبل باب تونس الخضراء رافعا الصليب .

كما ذكرت وأنا بالجزائر واقعة بسيطة ، حدثت بباريس ، عندما تداولت بضع كلمات مع طالبة بمدرسة النورمال للموسيقى ونحن ننتظر مجىء الاستاذ .. عرفت منها بانها « جزائريه » فظننتها عربية او قبلية مسلمة ، وأجابتنى بالنفى ، وأنها فرنسيه أبا عن جد، مولودة بالجزائر .. سألتها : اذا كنت جزائرية ، فكيف تصفين أهل البلاد الاصالى ؟ قالت : اوه ! .. انهم العرب .

استعيد هذه الذكريات الواخزة لاوضح واحدا من حوافز رحلتى الاخيره عبر الشمال الافريقى ، وهو العوده الى ما تصفه اللغه الرومانتيكية بمراتع الشباب .

أزيح تمثال لافيجرى ، وعاد مسجد الجزائر الكبير .. مسجدا .

حققت تونس بعد استقلالها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية العجب العجاب اتساعا ، وعمرانا وحضارة هى الصورة الحية لبلاد تعود الى أهلها ، وتنتظم توا فى سلك الحضارة الحديثة .

فهذا المعهد الاقيانوغرافى فى سلامبو اعود اليه بعد اربعين عاما وأزوره بصحبة العاملين فيه من علماء البحر التونسيين ، يواصلون بحوثهم لانماء الثروة المائية ،

فى جد وكفاية .

والمساجد الاثرية ترمم وتصلح فى تونس والقيروان وغيرها . والآثار والحفائر تتابع فى نشـــاط ، وتنشـــا المتاحف المحلية تعرض ما تخرجه بطون الارض .

فالحضارة فى تونس تنتهج الســـبيل ذا الشعبتين : الاحتفاظ بترات الماضى : بونيقيا او رومانيا أو اسلاميا. والسير حثيثا فى مدارج الحضاره المعاصرة مع الحفاظ على اسلوب مميز فى البناء ، وفى الموسيقى والفناء ، يجمع بين المــاضى والحاضر . واستطاعت البــلاد أن تتحول باثارها وطرفاتها وشبــطئــاتها وجزرها الى بلد سياحى من الدرجه الاولى ، يؤمه الوافــدون من اوربا وامريكا يمتعون الجســـد والروح بما يقــدمه العمران الحديث من فنادق وشواطىء ومهرجانات ثقافية للسينما والمسرح والموسيقى .. وما يقدمه التــاريخ العريق من اثار العصور الســالفة ، وعصر الفتوح الاسلاميه ، فنا وفكرا وأدبا .

كان ما رأيت فى عودتى الى الشمال الافريقى صورة حية « لعودة الروح » فى لغة توفيق الحكيم .

وأمسك عما قد يساء فهمه اذا ما حاولت التعبير عما تجيش به نفسى من أسى على بعض مآخذ هذه العودة .

سمعت شـــخصين من عامة الشعب فى بلد من بلاد الشمال الافريقى ، أشبه بمثلهما من حى باب سدرة او باب الشعرية ، فتى وفتاة يتبادلان حديثا خاصـــا .. بالفرنسية ، وهذا فى رأيى انكى وأقسى من أن يضـــطر الـــكاتب هناك الى تأليف قصصه وتمثيلياته بتلك اللغة. فلا أقل هنا من ان أولئك الكتاب يدافعون عن قوميتهم ، ويقدمون صورا فنية واجتماعية وتاريخيـــــة لاهلهم وعشيرتهم يطالعها العالم فى لغة أوسع انتشارا وأسهل

منالا من غيرها .

اما أن تتحدث بنت البلد زينب ، الى قريبها أو خطيبها محمد السلامى .. بالفرنسية ، فهذا مما يثور له الضمير القومى . واللائمة فى هذا تقع على المستعمر الحديث الذى قارب فى عتوه واستثاره التشبه بما صنع مستعمرو العصور الخالية بشعوب الآزتك والانكا والهنود الحمر

والحافز الثانى ، والاهم لرحلتى الخاطفة الطويلة عبر اسبانيا والشمال الافريقى هو التقصى العملى للصلات الحضارية بين الدول الاسلامية فى الاندلس وبين بلاد المغرب .

نما هذا الحافز فى نفسى عندما زرت المغرب لاول مرة عام ١٩٥٨ ، فى مؤتمر للدول العربية دعت اليه حكومة المغرب ونظمته اليونسكو . ودعانا صديقنا الكبير الاستاذ محمد الفاسى وزير المعارف فى ذلك الوقت ، ورئيس المؤتمر ، الى حفل موسيقى غنائى كبير بمدينة فاس شاركت فيه جوقات من تطوان وطنجة وفاس والرباط . سمعنا فيه ادوارا نموذجية ، وموشحات قديمة ، قيل انها تمثل البواقى الحية من موسيقى الاندلس .

لم أكن زرت الاندلس حتى ذلك الوقت ، وكانت معارفى عنها ضئيلة لا تتعدى حكاية عبور طارق بن زياد المضيق الذى يحمل اسمه ، وحكاية تدمير سفنه ، ولم أقبلها على علاتها ولا صدقت ان طارقا البربرى هو صاحب الخطبة التى حفظناها ، وتبارينا فى القائها بالطريقة التمثيلية الفجة .

وقد تمتد معارفى (؟) الى ما قرأناه جميعا . ورأينا صوره عن قصر الحمراء ، ونهاية أبى عبد الله بخروجه

من ملكه بغرناطة باكيا . فاذا بأمه تعنفه بكلمة من أقصى ما عرف التاريخ . قرأت تاريخ صقر قريش عبد الرحمن الداخل وشذرات عن عبد الرحمن الناصر والطوائف والمرابطين والموحدين ..

أما تاريخ المغرب ذاته ، وحضارته ، وأسره الحاكمة فقد سمعت بها فى تلك الزيارة الاولى ، امام مدافن المرينيين والسعديين . وهناك قيل لى بأن حضارة الاندلس نبعت من حضارة المغرب ، وان المرابطين والموحدين أقاموا دولهم بالمغرب ، وعبروا المضيق استجابة لمعونة الاندلسيين حين ضيق ملوك قشتالة واراجون عليهم الخناق فى عمليات الاسترداد . فأنجدوهم واستقروا هناك فاتحين جددا .

كما علمت ان تحرير الاسبان لبلادهم نهائيا ، واضطهاد المسلمين واليهود دفع بهؤلاء الى عبور بحر الزقاق الى المغرب حيث استقروا نهائيا ، وما فتئت أسر كثيرة بالمغرب تحمل أسماء أولئك اللاجئين .

الحافز الاكبر للرحلة الطويلة عبر اسبانيا والشمال الافريقى كان اذن : متابعة الوحدة الحضارية بين الاندلس والمغرب الاقصى ..

وما من شك فى ان ذروة هذه الرحلة حول حضارات عزيزة على قلب المشارقة والمغاربة تحققت فى غرناطة ، وقد اختار لى الحظ أن أقيم على قيد خطوات من قصر الحمراء وحصونه ، والمصيف الملكى فى « الخنراليفة» أو ما يعرف « بجنة العريف » .

« وعجيب الزمان غير عجيب » فى قول ابن الرومى : أن أجمع فى خلال بضعة أشهر رحلة الى الفن الاسلامى المغولى بشمالى الهند .. أى ما يكاد يمثل أقصى الفن

الاسلامى شرقا (*) والى الفن الاسلامى بالمغرب والاندلس فيما هو فعلا أقصى امتداد لهذا الفن غربا وشمالا ..

لقد عبر طارق بن زياد الى الاندلس ، فيما يقال ، من طنجة الى الجزيرة ؛ وكانى بزيارتى لأسبانيا من الشمال الى الجنوب ؛ وعبورى الى المغرب من الجزيرة الى سبته ، سلكت طريق الفتح والخروج لدولة الاسلام فى الاندلس .

ولعلى أستطيع فى هذه المجالات تسجيل انطباعاتى من آثار تلك الحضارة الزاهرة بعد الاطلاع على كتب أعلامنا من « المتغربين » المصريين : المرحوم عبد الحميد العبادى ، والاساتذة محمد عبد الله عنان ، وحسين مؤنس والسيد عبد العزيز سالم وعبد العزيز الاهوانى ومختار العبادى وغيرهم ممن اتحفوا وأثروا المكتبة العربية بمجموعة قيمة حقا من الدراسات المتخصصة مختصرات ومطولات ومترجمات .

(*) سنة ١٩٧٠ . انظر كتاب « سندباد فى هندباد »

ولا غالب إلا الله

« يقدم الينا التاريخ الاندلسى فى مراحله الاولى ، صفحات باهرات من ضروب المجد الحربى والسياسى ، وآيات ساطعات من ضروب التمــدن والعرفان ، ولكنه يقدم الينــا فى مراحله الاخيرة ، صفحات مشــجية مؤثرة ، من تقلب الجــدود وتعاقب المدن ، والانحدار الى معترك الهزيمة والذلة ...

ولــكن الصراع الطــويل المضطرم الذى خاضــته الامة الاسلامية فى الاندلس ، قبــل أن تستسلم الى قدرها المحتوم ، يبــدو صفحة رائعــة من الاستشهاد المؤثر ، قلما يقدمها الينا تاريخ أمة من الأمم ...

محمد عبد الله عنان :
نهـــــاية الاندلس

« ارتفاع شأو الحضــــارة الاسلامية وتدهورها واحد من المعــالم الكبرى فى التاريخ .

ولمــدى خمسة قرون ، من سنة ٧٠٠ م حتى سنة ١٢٠٠ م، قاد الاسلام العــالم سؤددا ، ونظــاما ، واتســاع ملك ، وأسلوبا فى الحياة رقيقـــا مهذبا .

كما قاده فى نماذج المعيشة ومستوياتها ، وفى التشريعات الانسانية الحانية ، والتسامح الدينى ، وفى مجالات الادب وبحوثه ، وميــادين العلوم ، والطب ، والفلسفة » .

ول ديورانت :
«عصر الايمان»

ما أشبه اليوم ، فوق مرتفعات قصر « الحمراء » وقصبته ، تطل على غرناطة ، بالبارحة وأنا مقبل على مدفن « تاج محل » درة أجرا بشمال الهند .. تشوق

الى الرؤية الواقعة لاثر عرفته منـذ مطالع الصـبا ، بالرسم والصـورة والوصـف والصيت . وتوجس أن ينتقص الواقع من روعة التصور ..

وكان الواقع فى الحالين مؤيدا لحقيقة من حقائق الفن .. وهو ان لا خطر من الواقع عندما يبلغ الاثر المعمارى قمة نمطه واسلوبه ، فيكون النموذج الارفع والمثـال الاعلى لفن بعينه .

حقيقة تبينتها ووعيتها فى مواجهة « البارتينون » فوق اكروبول أثينا ، وكاتدرائية « شارتر » فى الجنوب الغربى من باريس ، و « تاج محل » بالهند ، وقصر « الحمراء » بالاندلس .

فى شبابى الاول كنت اتقدم الى العمل الفنى الـكبير متهيبا ، متفتح أبواب الحمـاس .. مقـدما .. وفى شيخوختي أتصنع الهدوء وعدم المبالاة ، فاكذب على نفسى ، وانما اتلمس وسيلة خارجة عنى ، تعيننى على لقاء عقلى ، يسبق العناق الفنى .

فقد هدأت الممارسة العلميـة أجيج الرومانتيكية ، وأصبح العقل ، على الرغم من حمى الاحساس ، هو المسيطر وحده . فاذا انفجر الاحساس وتغلب بذاته ، كان لى فى الانفجار عذر ودلالة .

ولجت مع حشد من السائحين أبواب « الحمراء » ، ومررنا بالقصر الدائرى النشاز الذى أقامه شارلـكان مزاحما مناكفا لقصر بنى الاحمر ، مع انه القائل يوم اطل من طنف « الحمراء » على الرياض والمياه الجارية : « ما أتعس من شاء له حظه العاثر فقدان كل هذا » ، مشيرا الى أبى عبد الله آخر ملوك غرناطة .

واذا بشحط عتـل امريكى يضرب بجماع يديه بابا موصدا من أبواب قصر شـارلـكان ، ويرفع عقـيرته

بالاحتجاج ، ونسعى لتهدئة ثورته ، فيأنس الى ، ويترك الباب ليمشى الى جانبى ، يشكو الاستغلال الفاضح للسياح ، ويخرج بطاقة دخول ليؤكد لى احتواءها على اذن بزيارة قصر شارلكان ، ويقول : هؤلاء الناس لا يقدرون ما يتكلفه السائح من مال وجهد وعناء ليشهد آثارهم . انني حفيت مشيا لازور هذه الروائع ..

قاطعته : ولكنك تطرق باب قصر على هامش ماجئنا لرؤياه ، ولا قيمة ..

واستمر فى كلامه دون أن يعير انتباها الى ما أقول :
ــ حفيت مشيا .. أنظر :

وخلع حذاءه ليشهدنى على خرق واسع يطل كالطاقة المستديرة ، من وسط نعله ..

كتمت ضحكى ، ورثيت لرجل يهذى ، تسلمه الحراس والناس ، ولا أدرى ما صنعوا به فلم أره خلال تجوالى بقاعات « الحمراء » . . .

وعبرت ذاكرتى واقعة بالامم المتحدة ، اشتد فيها غضب رجل كان عظيما فى قومه ، فخلع حذاءه ، وأخذ يضرب به على المنصة فى ايقاعات عنيفة تصاحب خطابه.

وقبل أن أتجه بكافة حواسى الى تأمل «تاج محل» ، استوقفنى فى الحديقة قرد ظريف ، حييته بالانجليزية : هالو ياكابتن ! .. ويبدو انه استقبل الرتبة راضيا !

لا تتوقع منى ان أفصح عن انفعالى ، أو أن أستعير ثرثرة الادلاء ، وجلها حكايات وأساطير لا تترك لك متنفسا ولا فسحة تأمل .

ومن ذا الذى لا يعرف قصر « الحمراء » أبهاءه ، وعرصاته المكشوفة ، وانسياب الماء من أفواه سباعه ، وخريره فى القنوات . ومن لم ير صور سقوفه وحلياتها ، وتيجان عيدانه ، وزخارف أركانه وحيطانه

.. وكلنا ، حيث نشر الفن الاسـلامى آثاره شرقا وغربا ، متمرسون بالتنويعات الموسيقية للحن واحد يتألف من أقواس ، وخطوط ، واسـتلاكتيتات ، وسيقان نبات بأزهاره ، ولوحات الخط العربى بأشكاله، تقرأ بسهولة فى حديثها ، وبصعوبة فى قديمها .

وقصر « الحمراء » يجمع بين عمارة وظيفية منطقية فى ابراجه العارية ، وأسواره ، وبين زخارف حيطانه وعمدانه وقبابه وأسقفه ، مقابلة فنية ومعارضة بين عمارتين : الذكر والانثى .

كان خاتمة ساحرة للفن الاندلسى ، فن الغروب ، فى عصر ينذر بنهاية الدولة الاسلامية الزهراء ، تقوضت دعائمها ، وانتزع الاسبان أوراقها كالخرشوفة ، بقوة الارادة والتماسك والمثابرة فى مقابل خلافات الاندلسيين عربا يمنيين وشواما وبربرا وموالى ، وتطاحنهم ، وطلابهم العون على أهلهم ، وبنى جلدتهم ، باستعداء عدوهم المتربص بهم ، يضرب بعضهم بالبعض ، ويضيف حزازاتهم القبلية ، وأطماعهم الملكية ، الى أسلحته المدمرة ..

لقد استطاع بنو « الاحمر » تأجيل النهاية ، واستمهال القضاء المحتوم زهاء مائتين وخمسين عاما. ودفع رأس الاسرة محمد بن يوسف.. بن نصر بن قيس الخزرجى ، ثمن ذلك استكانة وخضوعا للعدو ، أو كما يقول الاستاذ محمد عبد الله عنان :

« وعاون ابن الاحمر النصارى فى الاستيلاء على ثغر قادس ، وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الارض الاسلامية الواقعة غربى ولاية الاندلس، وأخذت رقعة الدولة الاسلامية تنكمش بسرعة مروعة .. وكان موقف ابن الاحمر من هذه الحوادث موقفا شاذا مؤلما.

ولو انه كان يقبل هــذا الوضع المؤلم انقاذا لتراث لم يكتمل الرسوخ بعد . . . وهكذا فقدت الاندلس معظم قواعدها التالدة فى بحر ثلاثين عاما فى وابل مروع من الاحداث والمحن ، واستحال الوطن الاندلسى الذى كان قبل قرن فقط ، يشغل نصف الجزيرة الاسـبانيـة ، الى رقعة متواضعة هى مملـكة غرناطة .. ونظم شاعر العصر ابو الطيب صـالح بن شريف الرندى مرثيتـه الشهيرة :

لـكل شىء اذا ما تم نقصـان
فلا يغر بطيب العيش انسـان
هى الامور كما شـاهدتها دول
من سره زمن سـاءته ازمان

... ...

. ...

اعنـدكم نبـأ من أهل اندلس
فقـد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم
أسرى وقتلى فما يهتز انسـان

***

قضيت فى قصر « الحمراء » وأبراجه وسوره ، اليوم بطوله ، ويوما ثانيا ، ثم ثالثا فى « جنة العريف » ، وكأننى أنقب عن كنوز مخبوءة تحت الارض كما يجىء فى أساطير وروايات الاسبان الى عهد قريب .

ولا أحسب ان فن « الحمراء » ، هو الذى جذبنى وحده الى ذلك الاثر العظيم . فلو اننى لبثت فى اجرا أكثر من يوم ، لما وجدت فى نفسى دافعا للعودة الى « تاج محل » .

ولـكن فى فن « الحمراء » ، وفى لون حجارتها ،

وفى موضعها فوق الهضبة ، وفى أبراجها السامقة العارية ، وفى رياضها ، ومغاني « جنة العريف » ، سحرا خفيا ، ليس مصدره الانفعال الفنى وحده ...

انما أساسه – بعد تعمق التحليل لاحساسى – هو « حركة التاريخ » ، وكأننى أراها قبل حدوثها ، نذرا رهيبة باقتراب النهاية المفجعة .

و « حركة التاريخ » كلمة كبيرة . فلنتواضع ، ولنعد الى الشعر العربى القديم :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

أجل ، هو ذاك : الجذور الشعرية فى نفوسنا ، تأصلت فى البكاء على الدمن والاطلال . أليست هذه مأساة التاريخ المصرى بطوله فى قرار أرواحنا ؟

وحاشا أن تكون « الحمراء » طللا ، بله الدمن .. فما برحت عروس الزمان ، شاهدة على مجد غابر ، وسؤدد زائل ...

وللحفاظ على هذا الاثر الساحر تاريخ حافل . فقد هزته الزلازل فلم تدك سوى سقف واحد ، وبعد أن سكنه ملوك الاسبان عقب « الاسترداد » .. هجروه وأهملوه ففشاه النور واللصوص والمهربون . وفى هذا يقول المستشرق الاسبانى اميليو جارثيا جومث :

« الحمراء فى أكثرها هشة ، مما يجعلنا نتساءل : كيف استطاع الهش المعرض للزوال أن يبقى ؟ » .

وذهب فى تفسير ذلك مذاهب شتى مغلفة بفلسفة غامضة .. انما الذى أهدف اليه هو تحليل نظرتى الى « الحمراء » التى نجح الاسبان فى الحفاظ عليها بالاصلاح والترميم والتهذيب ، واحاطتها بكل ما يحفظ رونقها على الزمان .. أجلْ ! لسنا إمام بناء عتيق

يتداعي وسط العشير • وصدق جارثيا جومث حين قال :

« قصر الحمراء ليس أجمل القصور العربية القديمة فحسب ، ولكنه أكثرها احتفاظا برونقه ، وأقدمها ، بل هو الوحيد الباقي من العصر الوسيط » .

نظرتي الى « الحمراء » كانت نظرة الحسرة فى عينى امرىء القيس وهو يتأمل سقط اللوى بين الدخول وحومل . صعدت اليها تعتمل فى نفسى مأساة «خروج» أبى عبد الله ، سايل بنى نصر ، على وجهه ، بعد تسليم مفاتيحها الى الملك الاسبانى ، وتقول الرواية ان أبا عبد الله وقف على أكمة بعيدة يملى ناظره بآخر صورة لملكه ومقر ملكه ، فخنقته العبرات ، وأجهش بالبكاء . فصاحت به أمه عائشة الحرة : « فلتبك بكاء النساء ملكا لم تستطع أن تدافع عنه دفاع الرجال» . وتعرف تلك الاكمة عند الاسبان باسم « زفرة المغربى الاخيرة » .

بهذا الشعور طالعت شعار بنى نصر بتكرر مئات المرات وسط زخارف قصر الحمراء « ولا غالب الا الله » . فى كافة الاوضاع والاشكال، فى دوائر وبيضاويات ومربعات ومستطيلات . لا تحوجك لاماته والفاته الغلابة الى تركيز بصر لتطالعه على القرب والبعد ، فى يسر الخط أو تعقيده ، وقد تطالع هنا وهناك فى تكرار مشابه : « العزة لله وحده » . « الملك لله وحده » ، فلا تضيق ذرعا بهذا الترداد .. أما الشعر فى مدح الامير ، أما آيات الذكر الحكيم ، فهى أقل مما كنت أتوقع .

واذا كان الشعار الغلاب يؤدى دوره الزخرفى أحسن الإداء ، في مقابلة فنية للتشابك « الارابسكي » ..

فقد تساءلت عن العلة فى تكراره ..

لان رنين هذا الشعار فى نفسي يتصل راسا بالنهاية المحزنه . هو عندى نذير بالمأساة .. اذ أطالعه وقد نمى فصولا . فى حين ان الآمر ببناء القصر ، أو بزخارفه لم يكشف عنه حجاب الغيب ..

كنت أشعر وسط هذا الجمال المتألق الفتان ، كلما قرات « ولا غالب الا الله » انى أجوب وسط المقابر ، اردد فى نفسي : « البقاء لله وحده » ... « البقاء لله وحده ، هو الحى القيوم » .

وربما اتخذ ترداد الشعار هذا المعنى : لقد فتحنا وظفرنا ، وحكمنا ، ونعمنا . أقمنا حضارة رفيعة واوربا فى غفلة من الزمان ، تعمه فى ظلام العصر الوسيط ، ننشر عليها ، ومن كل ركن فيها ، ضياء ونورا .. كانت لنا الغلبة فى الاولى ، وفى الثانية كانت الغلبة لعدونا .. « ولا غالب الا الله » !

ما اكثر ما بحثت فى صحائف التاريخ عن هذا الشعار النذير ، وكيف اختاره راس الاسرة محمد بن يوسف .. بن نصر بن قيس الخزرجى .

وكانت الاجابة على قيد صفحات لم أقراها ، من كتاب كنت اتسلى بقصصه وحواديته عن قصر الحمراء دون أخذه مآخذ الجد ـ ألفه الكاتب الامريكى واشنطن ايرفنج (١٧٨٣ ـ ١٨٥٩) الذى عاش فى قاعات الحمراء زمانا ، وكان سفير الولايات المتحدة فى ثلاثينات القرن الماضي ، وألف كتابا عن «فتح غرناطة» ، وكتابا ثانيا عنوانه « قصص من قصر الحمراء » طالعته دون نظام ، يثقل على بأسلوبه المعسل المطوط ، على الرغم من ملكة رومانتيكية فى السرد ، لا بأس بها أبدا ...

ثم تنبهت الى ان آخر فصلين من فصـــوله يتحولان عن الاساطير ، ليحدثنا الاول عن « محمد بن الاحمر » منشيء الحمراء ، والثاني عن ابى الحجاج يوسف بن ابى الوليد ، من أعظم ملوك بنى نصر ، وكان عالما وشاعرا يحمى الآداب والفنون ، وهو الذى أضـــــــاف الى « الحمراء » أعظم منشآتها واجملها .

يصف واشنطن ايرفنج عودة محمد بن يوسف الى غرناطة ، بعد أن ساعد الملك فرناندو الـكاثوليكى على فتح اشـــبيلية المسلمين .

فعندما قارب الظافر الحزين بلوغ عاصمته الحبيبة، احتشد الناس احتفاء بأميرهم الغالى ، فقد احبوا فيه ولى نعمتهم . وأقاموا أقواس النصر على شرف ظفره المؤلم . وكلما مر بحشود النـــاس هتفوا جميعا بحياة المنتصر «الغالب» . فكان محمد بن يوسف يهز رأسه ، ويرد على الهـــاتفين ، « ولا غالب الا الله » ، وكأنه يستغفر ربه عما دفعته اليه مآزق السياسة ، والحلف الشيطانى مع عدوه .

ومنذ تلك اللحظة ذهب احتجاج ضميره هذا شعارا لملـكه ، أمر بنقشه على رنكه ، واستمر شعارا لخلفائه من بعده .

ما بين الرّصافة والجسر

« والجامع قد كسى ببردة الازدهــاء ، وجلى في معرض البهاء ، كان شرفاته فلول في سنان ، او اشر في أسنان ·· وللذبال تالق كنصنصة الحيات ، أو اشارة السبابة في التحيات ، قد اترعت من السليط كؤوسها ، ووصلت بمحاجن الحــديد رؤوسها ، ونيطت بسلاسل كالجـذوع القائمة ، او كالثعابين العائمة » ·

أفادكم الله يا ابا محمد يابن صاحب الصــلاة
فكاننا يا بدر لا رحنا ··· ولا جينا !

« اذا مات عـــالم باشبيليه ، حملت كتبه الى قرطبة ، حتى تباع فيها ·

وان مات مطرب بقرطبة ، وأريد بيع آلاته ، حملت الى اشبيليه » ·

المقرى فى « نفخ الطيب »

كانت اولى مشــاهداتى لبعض آثار الحضــارة الاندلسية فى « شنترة » من ضواحى لشبونة (١٩٥٤) ، حصن مغربى بأعلى الجبل ، وقصر فوق سفحه اقيم فى القرن الرابع عشر ، أى لنحو قرنين بعد اســترداد البرتغاليين لمدينة «أشبونة» . طرازه اسلامى ، يدل فى الاقل على ما كان لفن المغاربة من اثر بعيد على نمط العمارة فى شبه جزيرة ايبريا .

وفى زيارة عابرة لمدريد عام ١٩٥٨ ، خطفت الى طليطلة ، مربوطا بمقود الدليل ، فلم أر من آثارها الاسلامية القليلة سوى النزر اليسير : بقايا الاسوار ، وقنطرة على نهر التاجة (٩٩٧ م فى حكم المنصور بن أبى عامر) .

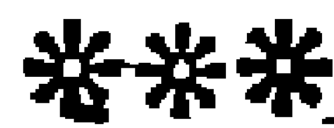
وفى زيارتى الثانية لاسبانيا (١٩٧١) ركزت على الاندلس ، فعبرت من سان جان ده لوس بفرنسا الى سان سباستيان بأسبانيا ، ومنها الى بورجوس (برغش) لادور وازور متعجلا كاتدرائيتها العظيمة ... دون تأثر وفى مدريد عدت الى لوحات فيلاسكيت وجويا بمتحف « البرادو » ... ثم انطلقت الى قرطبة دون توقف .

ويجدر بالزائر العربى اذا خصص اجازة للكشف عن بقايا الحضارة الاندلسية أن يصطحب كتاب الاستاذ عبد الله عنان : « الآثار الاندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال » ، فلم يترك المؤلف حجرا اسلاميا فى الطبيعة أو فى المتاحف دون ذكر أو فحص أو تأمل .

كما يطيب التنويه بكتاب صدر حديثا عن « أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية » ، مجموعة دراسات أعدت باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بين الشرق والغرب ، متعاونا مع « اليونسكو » .. ففى فصله الاول بحث عميق فى « الادب » ، شارك فى اعداده الاستاذان : الدكتورة سهير القلماوى ، والدكتور محمد على مكى ، الرجل الذى جمع بين التفقه فى لغته ، واللغة الاسبانية قديمها وحديثها ، فيحدثنا عن «شيوع اللغة اللاتينية الدارجة ، الى جانب العربية بين المسيحيين والمسلمين الاندلسيين ، ثم ما نتج عن ذلك كله من ظهور لون جديد من الشعر الاندلسى فى القرن التاسع

الميلادى - هو الذى عرف بالموشحة ، ومنه تفرع الزجل » .

وعالج الفصل المجموعات القصصية التى وصلت أوربا فى مطلع الرينسانس وتكلم عن الشعر الملحمى والمسرح ، وخاصة ملحمة « السيد كامبيادور » ، وأثر الشعر الاندلسى فيها ... الخ



قرطبة ! ياله من اسم مجلجل باهر فى تاريخ الحضارات ! .. ومن منا لم يسمع بجامعة قرطبة ، المصباح المنير فى ظلام أوروبا العصور الوسطى .

المدينة التى اتخذها عبد الرحمن الداخل ، صقر قريش ، حاضرة لدولة أموية مجددة ، أنشأها بالاندلس ومهد لها حضارة تزهر بالعلماء والفلاسفة والشعراء والفنانين . وزاد فى عزها وسؤددها الفكرى والحربى عبد الرحمن الناصر ، ومن بعده ابنه الحكم المستنصر، ذلك الامير العلامة الذى قيل فيه : « قلما وجد كتاب فى خزانته الا وله فيه قراءة أو نظر أو تعليق .. كما كان يقرب العلماء والادباء والمؤرخين ، ويستقدم المشارقة منهم ، مثل أبى على بن القاسم القالى، الذى طرز كتابه « الامالى » باسم الحكم المستنصر بالله » .

وتحضرنى واقعة ظريفة لابن هذا اللغوى الكبير ، وكان الابن أديبا شاعرا ، بنى له أبوه بقرطبة مرتبة ملحوظة .

وكان مقربا على الحاجب المنصور ابن أبى عامر . دخل عليه يوما فقال من أراد ان ينكت عليه : ياًمولانا ، هذا هو القالى (بمعنى الكاره) ، فرد الكيد الى النحر اطلاقة رصاصة ، اذ قال : القالى لاعداء الحاجب أذلهم الله بعزته .

..ثار فى خاطره أن يرحل الى موطن ابيه ببغداد ، فلما حل بها كذبت عينه ظنه ، فرجع لا يلوى على متعذر ، ولا يمر بغير مستكره عند متكدر ، وأنشد :

أصولى فلما أن حللت ببغداد
رأيت ديارا يبعث الهم لحظها
وقوما يسومون الغريب باحقاد
فوليت عنهم عائدا غير عاطف
وان كان فيما بينهم نشء أجدادى
وجزت على مصر فغمضت مقلتى
وقلت بعنف : مفرب الشمس يا حادى

وكان أشد ما لقيه ببغداد انه حرد يوما بحضرة جماعة منهم ، وأفرط فى سوء الخلق ، فقال أحدهم : يا هذا . بئس ما عوضتنا عما نقله أبوك (أى صاحب « الامالى ») من بلدنا الى المغرب ، حمل عنا علما وأدبا ، وجئتنا بجهل وسوء أدب . فنهض من حينه قائلا : المشى يلزمنى الى مكة حافيا راجلا ، ان قعدت لكم فى بلد من يومى هذا . وخرج .

اعترضه البواب وقال له : من أين أتيت يا انسان ؟ أجاب بشدة الغيظ : من لعنة الله .. فأوقفه وقال : اصبر حتى استأذن عليك . وكتب بالواقعة الى الوزير . فأشر الوزير البغدادى على المكتوب : لا ينكر هذا الخلق على مغربى فاطلقوه ينصرف الى موضعه الذى ذكر .

عن كتاب « المغرب فى حلى المغرب »

***

دخلت قرطبة عصر اليوم الذى غادرت فيه مدريد ، وكان قد وقع اختيارى على الاقامة بفندق من فنادق

الحكومة ، وهى المعروفة باسم « بارادور » ، وكانت فى بدايتها نوعا من « الاستراحات » الحكومية . و « البارادور » - حيث يوجد فى مناطق الآثار ، يمتاز دائما بجمال الموقع ، وحسن الادارة وجودة الطعام . ولا يتمكن السائح من الفوز بحجرة فيه الا أن يبكر فى حجزها ، قبل وصوله بأيام .

دفعنى الى اختيار « بارادور الرصافة » اسمه ذو الرنين الشعرى فى نفس أهل اللغة العربية جميعا . يقع فى الربض الشمالى الغربى من المدينة ، وسط الرياض الفناء ، بالموقع الذى أقام فيه صقر قريش ، عبد الرحمن بن معاوية ضاحية لنزهته واستجمامه ، سماها « منية الرصافة » ، أسوة برصافة جده هشام ابن عبد الملك ، التى انشأها فى الشمال الشرقى من تدمر بالشام .

كان حنين عبد الرحمن الاموى الى رصافة الشام يستأهل أن يوصف بحنين الغرباء الى الاوطان فى اللغات الاوروبية : « نوستالجيا » .

ويقال بأنه أول ما نزل برصافة قرطبة ، شاهد نخلة اهاجت منه ذلك الحنين الخاص ، فأنشد :

تبدت لنا بين الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى
وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض انت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى
سقاك غوادى المزن من صوبها الذى
يسح ويستمرى السماكين بالويل

وله ايضا :

أيهــــا الراكب الميمـــم ارضى
أقــر من بعــض الســـلام لبعضى
ان جســــــمى كما تراه بأرض
وفؤادى ومالــكيـــــــــه بأرض
قدر البين بيننـــا فافترقنـــــا
وطوى البـــين من جفونى غمضى
قد قضى الله بالبعـــاد علينـــا
فعسى باقترابنـــا ســـوف يقضى

هــذا هو الامير الاموى طريد بلاده ، الهــارب من مذبحة اهله ، صقر قريش الذى أعاد مجد بنى امية فى شبـه الجزيرة باقصى المغرب ، فلم يخفف النجاح الباهر من لوعته وتحرقه على وطنه بالمشرق .

وما ان وضعت حقائبى فى « بارادور اروثانا » حتى هرعت منحدرا الى جسر الوادى الـكبير «جوادالكفير» لا الوى على شيء فى قرطبة الحديثة « كوردوفا » قبل ان اشـاهد المسجد الجامع ، أطوف بسـوره وأرتاد عرصاته ، أتوه بين سواريه ، رافع الراس الى عقـوده المزدوجة ، وما تبقى من محاريبه وقبابه .

حجيج المشوق الى أثر من أمجاد الانسانية عنـدما تعشق السلام ، وتخلد الى البناء .

حقب نادرة فى حياة الشعوب تسمو بها عن ضراوة الوحوش ، والوحش فى الانسان حى لايموت : معتديا اثيما ، إو مدافعا عن الحمى والزمار كريما . .

هاك اذن ، أيها المنتحى بالرصافة دارا ، هو جامع قرطبة الذى بناه عبد الرحمن الداخـل على أنقـاض كنيسة عوض أصـحابها من بيت المـال (٧٨٦ م) ، واضاف اليه عبد الرحمن الاوسـط حفيـده ، فعبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر بالله . .

اثر حضارى اسلامى شوهته الحضارة الـكاثوليكية ، عندما استأذن اسقف قرطبة الامبراطور شارلـكان فى اقامة كنيسة جامعة (كاتدرائية) ، وسـط المسجد الجامع ، وأذن له .

لم يعرف الخلف : النصـارى : حق السلف : المسلمين . لسبب عجيب فى ذاته ، وان تكرر فى أكثر من موضع من الارض : هو اختلاف الديانة . بل المذهب او العنصر ، او الارومة ، أو ما نريد .

كلا ! « لا تعذليه فان العذل يوجعه » لا تتعجلى اتهامه بالتعصب . كاتب هذه السطور . فقد حاسب نفسه وساءلها : ماذا كان شعورى ذات يوم من عام ١٩٣٥ . وأنا أجتاز باب « أياصوفيا » وأذكر ما صنع محمد الفاتح بالـكنيسة العظمى فى عاصمة الامبراطوريه الرومانية الشرقية ؛ غداة فتحه للقسطنطينية . كان أتاتورك فى ذلك العـام قد قضى بأن يتحول جامع « أياصوفيا » الى متحف . فأزيل الملاط والبيـاض عن بعض حيطانه وظهرت صور بالفسيفساء (الموزايكه) تمثل الفن البيزنطى فى أروعه .

لم أكن أحب للسلطان الفاتح أن يحول مكان عبـادة الى عبـادة أخرى مع ان العثمانيين لم يصنعوا بذلك الاثر العظيم أكثر كثيرا من اخفاء . او ازالة ما لايقبله الاسلام من رموز وتصاوير .

ولم أرض ، ولا أمنت على ما أتاه محمود الغزنوى بالهندوس ومعابدهم .

لم يكن عدم الرضا علامة تخلخل العقيدة أو وهن فيها . بل كان جرحا لشـعورى وايمانى بسـماحة الاسلام .

ومن حقى اليوم أن لا أرضى بما اقتـرنه التعصب

بمسجد قرطبة الجامع ، وبغيره من روائع الآثار بأرض الاندلس .

ولا أعدو فى ذلك ما يقوله علماء نصارى من الاسبان وغيرهم ، وهو ان ما حل بجامع قرطبة عمل همجى شنيع . وحتى الامبراطور نفسه ، الذى أذن لاسقف قرطبة بانشاء الكاتدرائية فى صميم الجامع ، لم يعتم حين رأى الصرح الفضولى الضخم أن أبدى سخطه ، وندمه على ما أذن به . ويعزى اليه قوله للمشرفين على تشويه الجامع : « لقد بنيتم هنا ما كان يمكن بناؤه فى أى مكان آخر . وقضيتم بذلك على ماكان أثرا وحيدا فى العالم » .

هذا ما نقله الينا الاستاذ محمد عبد الله عنان ، ويبدو انه شاك مثلى فى أن يصدر هذا القول من شارلكان (قارلة الخامس) ، وهو الآمر بازالة جانب من قصر الحمراء بغرناطة ، ليبنى قصره النشاز على نمط الرينسانس ، كما قوض مسجد الحمراء ، لتقوم مكانه كنيسة .

وقد يعرف القارىء أنى كثير الارتياد للمعابد ذات القيمة الفنية ، أيا كانت العقيدة التى ترسم طقوسها . فالمعبد فى كل دين يمثل أرفع وأبلغ ما يحققه الابداع الفنى للانسان ، المتميز عن الحيوان لا بالعقل وحده — ومن الحيوان ما تلوح عليه بعض مخايل النجابة — ولكن بالإيمان أيا كان منحاه ومثابته . فلم يعرف الى اليوم مكان عبادة ولا مراسيم صلوات للقرود فى أرقى مراتبها .

ومن الميسور والمألوف أن يعبر المشاهد عن أثر جامع قرطبة فى نفسه ، فيكون الاعجاب بروعته وعظمته . ولكن الغيظ غام على اعجابى ، مثلما خيمت

حيطان المصليات الناشزة على عقود المسجد وسواريه ، واعشى بصرى انعكاس ضوء الشموع على ذهب حقيقى او زائف .

لم يشوه مسجد قرطبة الجامع بكنيسة كبيرة فحسب ، كان الجامع جديرا بأن يبتلعها لقمة غير سائغة ، بل شوه بعدد من الكنائس الصغيرة أو المصليات يمكن حصرها ، ويرفض حنقى أن يكون لها حصر حتى لو كان عددها اقل أو أكثر من أصابع اليد الواحدة . فقليلها المزوق المزدان ، كثير على الفن الرجولى الفحل الذى يشع من أشلاء جامع قرطبة ، واشلاء ليست التعبير الصحيح ، فجسد العملاق بقرت بطنه جيوش « لليبوت » .

ولكم دمرت آثار وهدمت معابد فى كل مكان وزمان، بيد الحدثان أو الانسان . فنحن لا نذكر امام « البارتينون » ان أقواما من الهمج جعلوا منه مخزنا للبارود ، ينفجر ذات يوم فيما يكاد يعتبر حتما . وننعى اختفاء مساجد أثرية فى فتح الشارع ذى البواكى الموصل من العتبة الخضراء حتى القلعة . والمعابد المصرية التالدة التى اقتلعت حجارتها لبناء المصانع البائرة التى أقامها محمد على

ولكننا نتعزى بما أبقى عليه الزمان من آثار أجدادنا واسلافنا العظام ، فهو شىء قائم بذاته ، كمل أو نقص.

اما أن نقف بميدان الرميلة (الاسم التاريخى القديم لميدان صلاح الدين حاليا) وسوق الخيل نتأمل مدرسة السلطان حسن ، ومسجد أمير اخور ، وقلعة صلاح الدين ، فيقذى العين منظر عمارات شائهة ، تمثل الجهالة والحمق ، فان للغيظ والحنق هنا الغلبة على الاحساس بالفن .

وتصور انك تشاهد جامع قرطبة وقد قضى البلى على بعض أرجائه مما يحدث لكثير من الآثار العظيمة فى العالم القديم والدنيا الجديدة .. انك تأسى لحاله ولكن احساسك بروعة بنائه وجماله ، ينسيك ما صنعته صروف الزمان .

اما أن ترى بعض أركانه ، ووسطه ، تحتلها ابنية مهجنة مستهجنة ، فان احساس الغضب قمين بالطغيان على ما عداه .

ويطيب جراح قلبى أن اطالع كلاما للعلامة الاسبانى المسيحى دون رودريجو فادور دى لوس ريوس ، استهل به كتابه عن المسجد الجامع :

« ان ثمة عالما من الذكريات يملأ مخيلة السائح ، حينما يسرح البصر بشعور من الأسى خلال هذه التشويهات ، تلك الاعمال التى املاها ايمان اجدادنا المفرق المخاص معا ، فدفعتهم الرغبة فى أن يمحوا الى الابد روح محمد ، واطياف أوليائه الذين يغشونها ، وسوف يغشونها ما بقيت قائمة . ذلك انه بالرغم من كل ما اصابها من تشويه وتغيير ، فقد ختم عليها بخاتم الفن الذى أوحى بها وروح الامة التى صممتها واقامتها »

هذا بناقوس يدق

عندما استولى الادفنش (الفونس السادس) ملك قشتالة وليون على طليطلة ، ارتاع المسلمون فى الاندلس قاطبة ، وخفقت قلوبهم رهبة وتوجسا عبر عنه شاعر اندلسى بهذا النعيق :

يا أهل أندلس حثوا مطيتكم
فما المقام بها الا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وارى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا
كيف الحياة مع الحيات فى سقط

كان سقوط طليطلة اولى حركات الاسترداد الكبرى التى انتهت باخلاء المسلمين عن ملكهم عام ١٤٩٢ م ، سنة اكتشاف كريستوف كولومب للعالم الجديد .

فكان لاستيلاء الفونس السادس عليها سنة ١٠٨٥ م ذات الصدى الذى تردد بين القوط الغربيين «الفيزيقوط» عندما وقعت عاصمتهم ـ توليدو ، أى طليطلة ـ غنيمة للمسلمين ، قبل ذلك بأربعمائة عام .

ولا يقاس معنى ذلك الشعور العام باهمية طليطلة فحسب ، كواحدة من مدن الاندلس العظيمة ، ولكن بالجو الذى اشتمل عملية الاسترداد ، وكان نذيرا بما

سوف يحدث مرارا وتكرارا على مر القرون التالية ، يواصل فيها الاسبان الضغط ، والحصار ، والمؤامرات والمعاهدات المنقوضة ، حتى يقضوا قضاء مبرما على الدولة الاسلامية الباهرة فى جنوب غربى أوربا .

لم يسترد الفونس السادس الحاضرة الكبرى بالحرب والحصار وحدهما ، بل أعانه على ذلك ملكها المدعو « القادر » ، واحد من أضعف ملوك الطوائف ، وصفه ابن بسام صاحب « الذخيرة » ، بأنه « كان آية فى قرب غوره ، امعة امرة ، أجبن من قبرة . ان حزم لم يعزم، وان سدى لم يلحم » .

مج أهل طليطلة حكمه وثاروا به ، فولى الادبار ، وانتهى بما حدث وسوف يحدث طوال سنوات الاسترداد : سعى للعودة الى عرشه ، مستنجدا بملك ليون وقشتالة .. فما عتم هذا أن حاصر المدينة ، وفى ركابه الملك المطرود ، « القادر » على لا شىء ، سوى مصالح نفسه ، يدفع لها ثمنا خيانة شعبه ووطنه .

وعندما ضاق بأهل طليطلة الحصار خرج وفد منهم لمقابلة الملك القشتالى. ووصف ابن بسام المنظر المزرى : « أذخل الوفد على ادفونش ... فاقبل عليهم بوجه كريه ، ولحظ لايشكون أن الشر فيه ، وقال لهم : بأى شىء تطمعون ؟ قالوا : بنا بقية ، ولنا فى فلان وفلان أمنية .. وسموا له بعض ملوك الطوائف (اعتمادا على المعونة التى يتوقعونها منهم) .
فصفق بيديه ،وتهافت حتى فحص برجليه ، ثم قال : أين رسل ابن عباد (صاحب اشبيلية) « فجىء بهم يرفلون فى ثياب الخناعة ، وينبسون بألسنة السمع والطاعة .. فقال لهم : مذ كم تحومون على ، وترومون الوصول الى ؟ ومتى عهدكم بفلان ، وأين ماجئتم به ،

لا كنتم ولا كان ؟ فجاءوا بجملة مرة ، واحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة . فما زاد على أن ركل كل ذلك برجله ، وأمر بانتهابه كله .

« ولم يبق ملك من ملوك الطوائف الا احضر يومئذ رسله ، وكانت حاله حال من كان قبله . وجعل اعلاجه يدفعون فى ظهورهم ، وأهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم ومصيرهم . فخرج شيختها من عنده ، وقد سقط فى أيديهم ، وطمع كل شيء فيهم . وخلوا بينه وبين البلد لثلاثة ايام من ذلك المشهد ، ودخل طليطلة على حكمه ، واثبت فى عرصتها قدم ظلمه » .

وما أن لبث شهرا فى المدينة المنكوبة حتى « أمر ادفونش بتغيير المسجد الجامع .. وحدثنى من شهد طواغيته تبتدره (أى الجامع) فى يوم أعمى البصائر .. وليس فيه الا الشيخ الاستاذ المغامي (محمد بن عيسى) ، آخر من صدر عنه ، واعتمده فى ذلك اليوم ليتزود منه . وقد أطلق به مردة عفاريته (ادفونش) ، وسرعان طواغيته ، وبين يدى الشيخ أحد التلامذة يقرأ . فكلما قالوا له : عجل ، أشار هو الى تلميذه بأن اكمل .

« ثم قام ، ما طاش ولا تهيب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه مليا وانتحب . والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه . لم تمتد اليه يد ، ولا عرض له بمكروه أحد » .

هذه صورة نموذجية لمآسى « استرداد » الاندلس ، تخيلتها وأنا واقف بميدان كاتدرائية اشبيلية ، واحدة من أكبر وأعظم كنائس العالم ، احتلت مكان المسجد الجامع الذى هدم وقوض فيما عدا « صومعته » ، أى منارته أو مأذنته .

وسطت المنـــارة ، واستبدل ببعضها الاعلى عمـــارة للنـــاقوس ، يعلوها تمثال يدور مع الريح ، دوران التاريخ فى تلك البلاد العريقة ، مسيحية أو مسلمة .

تلـكم هى « الخيرالدا » ، اى الدوارة ، وفىعاميتنا « أبو رياح » .

وعجيب من أمرى أن أعزف فى اسبانيا عن زيارة اثر شائه ، كلما قرات فى كتب الادلاء عن قصر أو قصبة ، فعرفت ان قد أحدثت فيهـــــا تعديلات وتحويرات واضافات ، عقب الاستيلاء على ثغور الاندلس الكبرى . فلست المدله بعشق أشلاء الجدران والابواب والعقود ، محشورة مطمورة وســط المبـــانى المجددة على مدى الاعوام والقرون .

انما « الخيرالدا » خريدة أخنىعليها الدهر ، مافتىء العشاق يتغزلون فى بهائها . وزعموا ان أهل اشبيلية ، بعد الاسترداد ، مسيحيين ومسلمين ، قاوموا هــدم منارة الجامع الزاهرة مع سائره ، فأبقىعلى بعضها . وبدلوا فى شطرها الاعلى ، وكأنها « مانكان » خشبى بلا راس ، يلبسها الحائك ما يعد من الثياب ، ثم يركب لها الراس المناسب لظروف العرض والبيع والشراء .

رايت اختهـــا الـكبرى بالجنوب المغربى قبـــل أن اشهد « الخيرالدا » فحفظت الود لخريدة مراكش الفتانة بلونها المحمر فى رائع النهار ، ووضح شمس الصحراء ، عند أقدام جبال الاطلس الشماء ، يجللها الجليد الدائم . هى المعروفة بمنارة « الـكتبية » ، اسم الجامع الكبير الذى كانت تقوم حواليه حوانيت الوراقين ، مثلمـــا رايت فى صبـــاى « كتبية » الحلوجى تواجه الجدار الغربى للأزهر الشريف .

شاءت محاسن الصدف ان اقيم بفندق يحمل اسم

« المنارة » ، وان ارى « الـكتبية » من نافذة مخدعى، ما طلعت الشمس أو غربت على اجمل مدائن الجنوب المغربى ، مدينــة يوسف بن تاشفين ، مؤسس دولة المرابطين الملثمين .

تراها من كل موضــع بمراكش ، جوهرة تتألق فى سماء عاصمة البربر ، عمودا مربع الاضلاع من نضار، أما « الخيرالدا » ، وزنقتها فى كشح كاتدرائية اشبيلية، فلا سبيل الى تاملها ، الا أن يصيب العابر نافذة تطل عليها من البعد ، وكانت نافذة فندقى تطل هناك على الرياض التى اشتهرت بها المدينة الساحرة على ضــفة الوادى الـكبير .

سمعت باسمها لاول مرة من زميل لنا ، ونحن نتأمل منارة « الـكتبية » فى زيارتى السابقة لمراكش ، عام ١٩٥٨ ، وكانت « الخيرالدا » على لسان زميلى شيئا يفوق جمالا وروعة منارة مراكش .

واعجبت أخيرا بمنارة اشبيلية اعجابا مهجنا ، على غرار جدها العاثر فيما أصابها وحاطهــا بكل جــديد وغريب عليها ، وكافر بها .

حتى « البرج الذهبى » ، حارس مينــــاء الوادى الـكبير ، انطفأ نوره فى عينى ، لا يمثل شيئا له علاقة بعصر المعتمد بن عباد ، أو بغير ابن عباد . . فأنا اليوم ، قطعا ، فى مدينة عصرية ، عاصمة الثراء والحظ والغناء « الهوندو » والرقص « الفلامنكو » . وما كرهت شيئا اكثر من الاثنين ، لا لعيب فيهما أو سوء ، ولـكن ضيقا بنزولهما الى الاســواق نمرا بملاهى وكباريهات الشرق والغرب ، سلعة رخيصة ، مع انهما من اجمــل وادق بواقى الفن الفولــكلورى فى العالم .

واشبيلية مدينة مصارعى الثيران ، وما كرهت شيئا

اكثر من كرهي لمصارعة الثيران ، لم أر منها الا حفلا في باحة المسرح الروماني بمدينة نيم في البروفانس ، كان اشبه بتمثيلية منه بصراع حقيقي ، اكتشفت أمرها بعد نهايتها ، عندما سمعت بعض المتحمسين الفرنسيين يحتجون على صفر سن الثيران التي قدمت ، وقتلت وسحلت الى خارج الحلبة .

وما هو ذلك الصراع غير المتكافىء حتى في أعظمه ؟ كوكبة من المهرجين الراجلين والراكبين خيولا عجافا ، يرشقون جسد الثور بسهام مريشة ، ويطعنونه بمزاريق طويلة ، فاذا ما كل الوحش جريا ومطاردة وخوارا انفرد به « التوريرو » — ولو انفرد به قبل رشق السهام المريشة في لحمه ، لكان للصراع الرهيب معنى — ووقف وتحرك يستثيره بالقباء الاحمر ، ويخفي في طياته سيفه البتار ، الثور هائج يرغي ويزبد ، و « الزول » يدور على مشط قدميه ، ويجثو على ركبة ونصف فيصرخ الجمهور اعجابا « أوليه ! » ، يتحدى المصارع نحيته الهالكة حتما الا اذا لم تتقبل السيدة العذراء صلاة البطل مفتول العضل ، ممشوق القوام .

كنت في ذلك الزمان غرا شرها الى المعرفة ، طالعت قصة بلاسكو ايبانيث « الحلبات الدامية » لا لشيء سوى اشتمالها على شرح مفصل واف لقواعد اللعبة الوحشية .

لايفضلن عليها رواية « كارمن » بموسيقى جورج بيزيه ، أحفظ الحانها واعزفها من قديم ، وهانذا يتردد على الفور في رأسي غناء كاميللو ، ذلك الديك الرومي منفوش الريش ، يدخل على مارش « التوريادور » ، مختالا كالطاووس في طريقه الى ميدان الصراع . . .

بأشبيلية ، بمنتفخ الصدر والاوداج ، يحب لفافة السجاير ، الفانية كارمن ، صديقة قطاع الطرق والمهربين ، وقد تزيت فى ذلك اليوم بأجمل ملابس الاندلسيات ، تغطي رأسها « المانتلا » السوداء ، لتشهد حبيبها « التوريرو » المعظم فى ذروة انتصاره .

لعله انتصر وفاز ، على تصفيق الجماهير المتعطشة للدماء ، أما هى كارمن ، فلم يترك لها دون جوزيه ، العشيق المحقر المهجور ، سبيلا الى باب المدرجات ، حاورها محاورة الثور وقضى عليها قبل أن يقضى كاميللو على الثور الهائج .

قتلها باسم الغيرة ، الحاسة الحيوانية التى لا تعرف لها قطاطى اسما ، ولكن فعلها لا يقل عنفا فيها عن عنف العاقل ، ابن حوة وآدم ..

لا فضان أيضا الاحتفاظ فى صميم روحى بكوميديا بومارشية « حلاق اشبيلية » ، وبموسيقى روسينى ،

وأعز من كل هذا « زواج فيجارو » ، اوبرا موزار الخالدة ، وفيجارو هو حلاق اشبيلية ، رب الحيل .

لا يعنينى من اشبيلية مغانيها ومقاهيها وكهوفها تردد أصداء الهوندو والفلامنكو وطرقعة الصاجات الخشبية وموسيقى الفجر ، فلست من أبناء الليل ، ولدت فى الفجر ، انا سائح رائعة النهار ، آوى إلى فراشى مبكرا كالدجاج ، منهكا من السير والمشاهدة والانفعال بالآثار .

نعم زرت كاتدرائية اشبيلية ، أفخم ما شهدت من كنائس ، وعبرت غير مكترث بقبر الملكين الكاثوليكيين ، وأدرت البصر والخطا حول جدث ذلك الايطالى العظيم ، ابن جنوا ، كريستوف كولومب .

نعم ، تجولت فى حى «سانتاكروث» حواريه وزنقاته

وكنائسه ، ومتعت نظري بأفنيته الفناء « باسيو » ، وبالخضرة تتدلى من الطيقان وتغطى الحيطان ، وأصص الورد والريحان مرصوصة فوق الطنف ذات المشتبكات الحديدية كأنها سيقان الازاهير .

هكذا أتصور أحياء الاندلس عندما كان يسكنها المسلمون من البربر والعرب والصقالبة والموالى ثم اليهود والموريسكو .

ولكنها اليوم مساكن أقوام غير أولئك ، قد يكون من بينهم أحفاد مدجنين ومتنصرين . وما على من كل هذا الزيف التاريخى ، وقد عرفت فى فاس ومكناس وتلمسان ومراكش الاسلوب الاندلسى فى البناء ، وربما فى اللباس وقطعا فى الموسيقى والغناء ، وفى الدين واللغة .. عالما يتدفق حيوية ويزهو بجمال هو الصدق والاصالة .

فالسائح الباحث عن حضارة « المور » (المغاربة) فى الاندلس ، ينسى أن يضيف العيان الى الاثر ، الاثر فى الاندلس ، والعيان البيان فى المغرب الاقصى ، سهله وحزنه ، ما بين جبال الريف والاطلس ، وحينما عبرت من اسبانيا الى المغرب ، من الجزيرة (الخثيراس) الى سبته ، عرفت انى انهج بعض طريق المطرودين من جنة الاندلس ، لائذين ببنى عمومتهم ، ورأيت لاول مرة صخرة ابن زياد ، وجزت مجازه أو بوغازه ، وهو بحر الزقاق قبل أن يحمل اسم القائد المغربى الشهير .

حان أن ننتقل الى بر العدوة ، لنتابع رحلتى البرقية عبر الشمال الافريقى ، وتمثلا بالمذيع الذى يعد السامع الى حفلة « طرب » خارجية ، أستأذنه فى استعارة حماسه العجيب مناديا :

فالى هناك !

سندباد يبلغ المغرب الأقصى

شكا صديق قديم ، فى عرض حديث عن برامج التعليم بمدارسنا ، من ان ابنته تجهل كل شيء عن المغرب أدناه وأوسطه وأقصاه ، وهذا على الرغم من دراستهم لما يعرف بالقومية العربية « من الخليج الى المحيط » . واذا كانت قد سمعت بفتوح العرب للمغرب والاندلس ، فقد توقف استيعابها عند اسمين أو ثلاثة من ابطال الفتح العربى : عقبة بن نافع الفهرى، وموسى ابن نصير ، واضافت اليهما - باعتباره عربيا - طارقا ابن زياد ، وهو من سبى البربر ، ظفر به موسى فكان من مواليه .

سألها عن « الموحدين » فأجابت بأنهم : المؤمنون بالتوحيد ، فقال لها : وفسر الماء بعد الجهد بالماء ، واتبع بسؤاله : ومن هم « المرابطون » فلم تحر الفتاة جوابا .

قلت له : لو فاجأتنى بالسؤال عن الاخيرين ، قبل ظعنى الاول الى المغرب (١٩٥٨) ، لما وجدتنى أفصح من ابنتك ، ذلك لاننا فى مصر ، وفى الركن الشمالى الشرقى من افريقيا ، تقوم ثقافتنا الاسلامية فى معظمها على المشرق دون المغرب .

ولن احاول فى هذا المقال اقامة خلفية تاريخية

للمغرب ، فقد أقنعتني قراءاتي المطولة نوعا في تاريخ المغاربة ، قبل الفتح الاسلامي ، وبعده ، بأن تفاصيل هـذا التاريخ في ذرواته الحضارية والحربية العظيمة، وفي وهاده ومنخفضاته ، معقدة تعقيدا لا سبيل الى تبسيطه ، فكم من أسر وقبائل ، وأفخاذ من قبائل عربية يمانية ، شامية ، هلالية ، أو قبائل بربرية صنهاجة ، وزناته ، وكتامة ، ومصمودة ، وبرغواطة ، ودكالة ، ونفوسة ، ولواته ، ومكناسة ، ومغراوة ، وبني زيان ، وبني مرين .. الخ .. الخ ..

وكم من حروب أهلية ، وغزوات ، وفتوح واحتلال نورماندي من صقلية ، الى احتلال اسباني ، وانتقال من الشمال الافريقي عبر بحر الزقاق الى شبه جزيرة أيبيريا ، مجاهدين ، فمستوطنين فمواطنين عادوا كلهم الى افريقيا على وجوههم وقد أجلاهم النصارى عن ملك دام سبعمائة عام .

وكم من أسر ملوكية ، وزعامات دينية ، تدوخ من يتابع تقلباتها على مدى القرون ، وطول الشمال الافريقي ، وعرضه : من مرابطين وموحدين ومرينيين وأغالبة وحفصيين ، وادارسة ، وفاطمية ، وخوارج اباضية ، وعبد الواد.. ولن تسعفك الذاكرة ، وسوف يتلخبط كيانك بين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن . وأبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وأبي يعقوب بن محمد الناصر بن أبي يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

يجب أن أهرب من كل هذا الحرج الذي أثاره عبوري من الاندلس الى المغرب اثارة في غير مكانها ، فما أنا الا عابر سبيل ، تهمني رؤية الغابة ، قبل أن أتوه بين أشجارها ، أدون انطباعاتي الطائرة ، قبل أن تضيع

من الذاكرة ؛ لانى اذا حاولت تلخيص هـذا التـاريخ المتشابك المعقد ، ضاعت بهجته ، وانكسر وزنه وايقاعه الحى المتوثب ، وغدوت أشبه بالمؤرخ الذى حمل مؤلفه على ظهور الابل الى العاهل الآمر بكتابته ، وهذا يطالبه على مدى السـنين بايجاز بعد ايجاز ، حتى حضرت العاهل الوفاة ؛ فسأل مؤرخه تلخيصه الاخير ، أجابه : لقد ولدوا ؛ واشتد عودهم ، وجاهدوا ، وظفروا ، ثم اصابتهم الهزيمة ، وذهب ربحهم ، رحمـة الله عليك وعليهم أجمعين .

او كما قال يوليوس قيصر فى رسـالته الى مجلس شيوخ روما : حضرت ، ونظرت ، وظفرت . فهل تغنى رسالته المقتضبة عن الاثر الادبى الفريد الذى تركه لنا ذلك القائد الرومانى الاعظم عن حروبه فى غاليا ؟

كان من حسن الطالع أن بدأت معرفتى بالمغرب الاقصى فى فاس ، أجمل مدنه ، وأغنـاها حضـارة تالدة . واحتفاء بالعلوم الدينية فى واحدة من أقدم جامعـات العالم ، وهى جامعة القرويين ، وما برحت نبراسـا للعلوم الاسلامية على المذهب المـالـكى .

فقد ركبت الطائرة ذات صباح من عام ١٩٥٨ ، مع وفد مصر الى مؤتمر اللجان القومية العربية لليونسكو ، دعت اليـه الحكومة الملـكية بالمغرب ، وكان الطـريق الايسر والاسرع فى ذلك الزمان من القاهرة الى باريس ، ومنها الى الرباط ففاس .

افتتحه وخطبه المغفور له الملك محمـد الخامس ، ذلك الوطنى الـكبير الذى لاقى من الاستعمار الفرنسى الضارى ضروبا من الاعنات والابعاد عن العرش والنفى ، فلم تلن له قناة ، وعاد الى سدة عرشه بقوة شعبه ، عامته وخاصته . جرى حفل الافتتاح فى قاعة الاحتفالات

بمدرسة مولاى أدريس ، وعلى قيد خطوات من جامعة القرويين ، وتحدث عن الوفود المرحوم الاستاذ محمد شفيق غربال، مندوب الجامعة العربية ، وتراس المؤتمر صديقنا الكبير الاستاذ محمد الفاسي وزير التهذيب الوطنى والشبيبة والرياضة والفنون الجميلة حينذاك.

وانزلتنا الحكومة الشريفية أحسن منزل ، وافاضت علينا من كرمها وحبها ما لانوفيه بلسان ، فقد حرصت على أن تسير بنا فى معارج فاس القديمة ، وغيرها من بلاد المغرب ، نتلقى تحيات أهلها ، تزدحم بهم طرقاتها، وبطحاواتها ، ذات الجمال الساحر فى اصالتها ، ودعانا الاهل والصحاب المغاربة الى عقر دورهم ، وحسن ضيافتهم يسبغون علينا من فيض كرمهم ونبل خلقهم ، ما تدوم ذكراه على مدى الايام ، واستأذن هنا فى الانتفاع بما سجلته عقب عودتى الى مصر من انطباعات عن حفل موسيقى بمنزل السيد أحمد مكوار بساحة البطحاء .

ففي الصفحة الاولى من الكتيب الذى وزع علينا بعد العشاء — وفن الطهى المغربى شىء هائل يجل عن الوصف — جاءت هذه الكلمات :

« بسم الله الرحمن الرحيم .. تفتتح السهرة الموسيقية بكلمة صاحب المعالى الاستاذ السيد محمد الفاسى :

ا — جوق الاذاعة الوطنية المغربية برئاسة السيد احمد الوليلى .

ب — جوق المعهد الموسيقى بتطوان برئاسة النابغة السيد محمد التلمسانى .

ج — جوق المرحوم البريهى بفاس ، برئاسة العبقرى السيد عبد الكريم الرايس .

١ ــ « مشاليت » من طبع (اى مقام) « الحجاز الشرقى » .
٢ ــ « النواشي (كذا) السبع » من طبع « الحجاز الشرقى » » .

فضينا الليل حتى مطلع الفجر نستمع الى ما يقرب من الخمسين منشدا وعازفا يتداولون أداء الموشحات والأزجال والدوبيت ، أداء المؤمنين بفنهم : الاحياء فى تاريخهم القريب والبعيد .

يا من له أحسن الصفات
يا غصن آس ويا قمر
غبت عنا فلم يأت منك آت
فاستوحش السمع والبصر
لولا الصبا من تلك الجهات
لذاب جسمى من الفكر
يا ايها الطالع السعيد
جاءت بأنبائك الرياح
ان الصبا عنك أخبرتنى
فاهتز روض المنى وفاح

ثم هذا الزجل :

وحسنك اشتهر فى غرناطة وحدك
يا زين الصفار
نعم فى السهر تسقى الملاح بيدك
كؤوس العقار
وحين تنقر الوتر يشرق حينا خدك
كشمس النهار
وخلى قريب ، وعيشى يطيب
ودع الرقيب ، فى قصده يخيب
عن بصرى يغيب

قوة الايحاء فى هـذه الموسـيقى ! شبابى يعود الى مزدأنا بكل ما يضفيه عليه خيال السنين الفابرة ، لأن هؤلاء المغنين والعازفين أكثر احساسا بما ينشدون ، ممن سمعتهم فى طفولتى ، أولئك كانوا يغنون كأنهم فى غفوة ، دون اقتناع ، وهؤلاء يعيشون تاريخهم الطويل ، فيذكرون انهم فتحوا الاندلس ، ثم خرجوا من الاندلس الى قطاعهم الجنوبى ، ولـكنهم فى هجرتهم حملوا معهم دينهم ، ولغتهم ، وقوميتهم . . . وكنزهم الموسيـقى الغالى : هذه التواشيح .

يعيش أهل المغرب الاقصى تاريخهم عندما يجتمعون ليغنوا اندلسياتهم الجميلة ، بمصـاحبة الآلات التقليدية ، وغيرها ، فهم لايتزمتون للناى ولا للرباب ، ويضيفون الى التخت الاندلسى آلات البيانو والشللو والـكلارينت والساكسفون ، ويستبدلون بالنـاى الفلوت ، وبالرباب الـكمنجة ، وان كانوا يمسكونها واقفة كالرباب ..

وتعبيرهم الموسـيقى خلو من التخنث والتكسر والطراوة ، يبعث فيك النشاط وحب الحياة ، بدل أن يحرضك على النعاس .. والهيام والاستسلام .

وطريقـة غنائهم الجمـاعى فيهـا تلوين جميـل ، فالاصوات لا تشترك جميعهـا طول الوقت : يسكت بعضها آنا فيهدأ النغم ، ويغنى الجميع آنا آخر فترتفع حرارة النغم ، واذا بصوت رجل واحد يعلو على الجميع فى طبقة نسائية اللون ، تعرف فى الغناء الاوربى بصوت الرجال « الفالستو » ، فتحس كأن الحان التوشيحة تعلوها ألسنة من اللهب ، هى الصورة الذهنية للوجد والصبابة ونار العشق .

وكذلك هم فى التوزيع بين الآلات ، دون أن يخرجوا

عن الاجماع الميلودى البحت .

كنت وأنا أستمع ، اطالع فى الوقت نفسه نقوش البهو الذى جاسنا فيه ، فتتحرك عيناى مع تلك الاقواس والمقرنصات والصفف ، وتنزلق فوق الزليخ الاخضر والازرق ، ثم تنتقل الى خوان الحلوى، وقماقم الطيب ، والاباريق الفضية التى يملأون لنا منها كئوس الشراب الطهور .

فأنا املأ عينى وسمعى وقلبى بهذا الفن المغربى الاصيل ، يحتفظون به الى اليوم ، ويعيشون فيه ، ويبنون قصورهم الحديثة على اسلوبه ، فكأنك بين ظهرانيهم تحيا فى قصور اسبانيا ، وتصهر « غصن الاندلس الرطيب » ؛ ولا تراها مجرد متاحف ، كأنها الطلل البالى .

ليلتنا فى منزل السيد أحمد مكوار بفاس ، لم تكن من ليالى العصر الحاضر ، والموسيقى الاندلسية فتحت طاقات خيالى ، فاذا بى استوحى منارتى «الكتبية» و « الخيرالدا » وقصر الحمراء وجامع قرطبة ، وبوابات طليطلة ؛ وبرج حسان ، بل أنا أعيش فى القصص الشعبية المصرية التى تحدثنا عن « تغريبة بنى هلال » و « خضرة الشريفة » و .. و .. « هلا هلا يا بدوى جاب اليسرى (الاسرى) » .

سرت مع موسى بن نصير الى مدينة النحاس ، بعد ان صحبنى عقبة بن نافع الى مدينة القيروان، ورافقت « المغررين » لاكتشاف بحر الظلمات ، حتى بلغنا الجزائر السعيدة «فرطناتس» ، والتى تحرف « ألف ليلة » اسمها من جزائر الخالدات الى جزائر خالدان ، حيث حكم الملك شهرمان ، أبو قمر الزمان .

وعندما : « طلع البدر علينا من ثنيات وداع » ،

ختمت الاصوات مجتمعة بشــذرات من درج « نوبة رمل الماية » :

الله عظم قـــدر جاه محمـــــد
وأناله فضــــــلا لديه عظيــــما
فى محكم التنزيل قال لخلقـــه :
صلوا عليه وســـــلموا تســـليما

والالحان الختامية هذه انشدت فى ايقاع دينى جليل، وكانت شطرة « صلوا عليه وسلموا تسليما » ، صلاة حارة تجيش بها نفوس محبة وامقة .

***

لم أكن رأيت أندلس فى ذلك الوقت وان عرفتها فى الصور والـكتب والسينما .

وأشـــهد ان رحلتى الاخيرة (١٩٧١) من الاندلس الى الشمال الافريقى ، كانت بنت تلك الليلة الموسيقية فى بيت مغربى كريم .

ولذلك حرصت على زيارة صديقنا الـكبير ، وزير الدولة ، الاستاذ محمد الفاسى ، فى مكتبه بوزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية ، و « التعليم الاصلى » ، وكان محور حديثنا هو موسيقى «بلاد المغرب السعيدة» ونفحاتها الاندلسية .

جـــادك الغيـــث اذا الغيـــث همى
يا زمان الوصـــــــــل بالاندلس

فذلكة المرابطين الملثمين

بنو الحرب غذتهم لبان ثديهـا فلم يستطيبوا منه الا العلقمـا
يحثون للهيجاء جردا سلاهبـا وينضون فى البيداء بذلا صلادما
اذا طعنوا بالسـمهرية خلتهم ضراغم تغرى بالقلوب اراقمـا
وان كر منهم ذو لثـام مصمم غدا لفم الهيجاء بالسيف لاثما

« ابن حمديس الاندلسى »

قلت ان رحلتى عام ۱۹۷۱ من الاندلس الى الشمال الافريقى كانت بنت ليلة موسيقية فى بيت رجل كريم من فاس ، استمعنا فيهـا الى الموشحات الاندلسـية المغربية أو ما يسميه الافرنج عادة بالفن «الموريسكى» ، نسبة الى « المور » ، وهم المغاربة .

وأبديت الشك فى قدرتى على تلخيص تاريخ المغرب الـكبير ، ثم عدت بعد الانتهاء من كتابة ذلك الفصل ألوم نفسى على التخلف والنكوص ، بل الهروب السهل أمام صعوبة يجب التغلب عليهـا ، لا سيما واننى لم اجب عن سؤال صديق لى ألقاه على ابنته التلميـذة بالثـانوية العـامة ، فلم تتمكن من الاجـابة ، كان السؤال : من هم المرابطون ؟

وهو سـؤال لايكفى فيه مجرد التعريف بهم خارج الاحداث التى نشأوا فيها ، والبقاع التى خرجوا منها ليشيدوا امبراطورية اسلامية عظمى تبـدأ من الجزائر

حتى بحر الظلمات ، ومن الاندلس حتى بلاد السنغال.

وفيما أنا احاسب نفسى على هروبى من تلخيص تاريخ طويل معقد ، اهتديت الى انني قد أيسر الامر لو ركزت على تاريخ المغرب الاقصى وحده ، فمصدر الصعوبة هو ان تاريخ المغرب الكبير متشعب متفكك ، يتناول تاريخ الشمال الافريقى فى كل ما يلى مصر غربا ، بدءا ببرقة وطرابلس : وانتهاء بمدينة اسفى على المحيط الاطلنطى غربا ، وأود هنا تذكير القارىء بأن الفتوح الاسلامية لبلاد المغرب استغرقت نحو سبعين سنة ، مع ان فتح العرب لمصر والشام والعراق وفارس تم فى أقل من عشر سنوات .

وبين يدى دراسة تاريخية عمرانية أثرية عنوانها : « المغرب الكبير ـ العصر الاسلامى » تأليف الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم (١٩٦٦) يحتويها مجلد ضخم يقع فى نحو ألف صفحة ، يصفه مؤلفه بأنه « عرض سريع (كذا) لتاريخ المغرب فى العصر الاسلامى، وخلاصة دراسة قمت بها فى بلاد المغرب والاندلس» ، علما بأن هذه الدراسة تقف عند دولة « الموحدين » أى حوالى سنة ١٢٦٩ ميلادية .

سأقصر مقالى ، اذن ، على شطيرة من تاريخ المغرب الاقصى ، من بدء انتشار الاسلام فى أنحائه على يد اسرة الادارسة ، حتى عصر المرابطين ، فيما أسميه سخرية بنفسى : تلخيص التلخيص المختزل .

***

انفصل المغرب الاقصى عن الامبراطورية الاسلامية فى الشرق ، وكان العباسيون قليلى الاحتفاء بتلك الاقطار النائية ، فأصبحت القيروان ، حاضرة افريقية (أى القطر التونسي حالا) ، وقرطبة حاضرة الإندلس ،

منارتى العرفان والحضارة فى الغرب الاسلامى

وسيرتفع منار جديد للحضارة فى وسط المغرب الاقصى ، ما فتىء مضيئا حتى اليوم بمدينة فاس ، انشأها عربى (ادريس بن عبد الله بن الحسن ، حفيد على بن أبى طالب) خرج على العباسيين مع العلويين بمكة والمدينة تحت زعامة ابن أخيه الحسين ، وتمكن بعد هزيمة العلويين على يد الخليفة الهادى ، من الهرب الى مصر ، ومنهـا رحل الى الشمال الافريقى ، بحيث انتهى ضيفا عزيزا على قبيلة « الاوربية » بمدينة وليلي (فولوبليس الرومان) ، فولوه الامامة ، وأخذ فى نشر الدعوة الاسلامية بين ظهرانيهم ، والقبائل البربرية الاخرى ، ويقول الرواة بأن هارون الرشيد انفذ اليه جاسوسا سفاحا فى صورة لاجىء نجح فى اجتذاب ثقة الامام الادريسى ، فدس له السم القاتل (٧٩٢ م) .

توفى مولاى ادريس دون ولد ، ولكنه ترك جارية من البربر حاملا فى شهرها السابع ، وقررت قبائل البربر ، ان وضعت غلاما ، كفلوه ثم بايعوه لخلافة أبيه ، ونشأ غلاما كثير الشبه بأبيه فسمي باسمه .

وادريس الثانى هـذا هو منشىء مدينة فاس ، ولكن المؤرخين اختلفوا فيما اذا كان ادريس الاول قد شرع فى تأسيس المدينة ، ثم أكملها ابنه ، وقد أثبت المستشرق الفرنسي ليفي ـ بروفنسال تفاصيل هـذا الانشاء مقاسمة بين الادريسين : الاول ، والثانى ، وكانت المدينة تتألف من قسمين : أحدهما يعرف بعدوة الاندلسيين ، اسكنهم ادريس الثانى عندما وفدوا عليه لاجئين من اضطهاد أمرائهم ، والآخر يعرف بعدوة القرويين ، وسور كل قسم بسور خاص ، يجرى بينهما وادي فاس ثم ضم القسمان وأحيطا بسور واحد ، فكانت فاس

الزهراء التي احتفظت الى اليوم بطـابعها التاريخي ، وسبقها الحضاري ، علما وفنا وأدبا وصناعة ، وان لم تقم دائما كعاصمة للمغرب الاقصى ، فبعض السلاطين اقاموا عاصمتهم بمكناس ، وانشـأ المرابطون مدينـة مراكش حاضرة لامبراطوريتهم ، وكذلك الموحدون .

واذا كانت مدينة الرباط اليوم هي عاصمة الحكومة الشريفية ، فما برحت فاس المدينـة الغنيـة بآثارها وتحفها ، ومدارسها ، تضمها جامعة « القرويين » ، من أقدم جامعات العالم ، وبثروتها الزراعية في صقعها وفحصها .

انتهت دولة الادارسة عام ٩٢٠ م ، وتلاها في الحكم بعد فترة طويلة ، دولة المرابطـين ، واذا كانت أسرة الادارسة عربية الارومة ، ترتد في أصولها الى العلويين ، فان أسرة المرابطين كانت من البربر الخلص ، خرجت من قبائل صنهاجة الجنوب ، الضاربة في الصحراء : وتولت لمتونه زعامة قبائل جدالة ومسوفه ، ثم انتقلت الرئاسة الى جدالة يتزعمها يحيى بن ابراهيم ، وكان رجلا شـديد الاحسـاس بنقص التعاليم الدينيـة في الصنهاجة ، وحاجتهم الى من يتولى تثقيفهم ، وتهذيب طباعهم ، وكانت حجته الى مكة والمدينـة فتحا مبينا لقبائل البربر ، فما أن عاد يحيى الى أهله حتى استدعى فقيها من سجلماسة بأقصى الجنوب ، من أرباب العلم والتقوى ، اسمه عبد الله بن ياسين ، ليؤدي رسـالة الاسلام الصحيحة بين مسلمين على البـداوة وخشونة الطبع .

وفي مضـارب لمتونة بدأ عبـد الله دروس الدعوة والارشاد الى أصول الدين الصحيحة ، وعنى فيما عني

بدعوتهم وارشـــــادهم الى السلوك السليم ومحاسن الاخلاق .

ضاقت لمتونة ذرعا بهـذه التعاليم الصـارمة التى لا تتفق مع حياة أولئك البدو الملثمين، ومدارها الاعتداء والبغى ، وارتكاب المعاصى دون رادع من خلق أو دين، وما أن مات زعيمهم يحيى بن ابراهيم الجدالى ، ولم يتمكن خليفته يحيى بن عمر من كبح جماحهم ، حتى أخرجوا عنهم المرشد الامين ، فتبعه أميرهم يحيى بن عمر ، مصطحبا شقيقه أبا بكر بن عمر ، واتجهوا جنوبا نحو السنغال ، ومعهم سبعة رجال من جدالة ، ويرجح المؤرخون انهم اختلوا فوق ربوة محاطة بالماء ، انفردوا فى غياضها منقطعين للعبادة ، وأسس عبـد الله هناك رباطا .

والرباط من المرابطة ، اى ملازمة مكان للجهاد حيث ترابط خيل المجاهدين ، من قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، ومن قوله جل وعلا : « يا أيها الذين آمنوا اصـبروا وصـابروا ورابطوا واتقوا الله لعلـكم تفلحون » .

والرباط حصن منيع للتعبـد ، ومسلحة ، ومركز تدريب حربى عنيف للجهاد والغزو، ولايعرف المؤرخون على التحقيق موضع هذا الرباط الاول لزعماء الصنهاجة ومبعث دولة المرابطين العظمى .

انضم الى الفئة القليلة من العباد المجاهدين ، كل من تاب عن مسلك الصنهاجة ، حتى بلغوا الالف عدا ، فقرر عبـد الله بن ياسين الخروج بهم لاخضـاع بربر الصحراء لصرامة الشريعة الغراء .

وأصبح الالف رأس الحربة لمجموعة مترابطة ، تآلفت

من قبائل لمتونة وجدالة ومسوفة ، واستولت على سلجماسة ، فواحات الجنوب الغربى فالسوس الاعلى والادنى .

كان جهادا شاقا مكللا بالظفر ، وان سقط فى ساحته القائد يحيى بن ابراهيم وأخوه أبو بكر والراس المدبر لجمع شمل المرابطين : عبد الله بن ياسين .

وفى عام ١٠٦٠ م بلغ المرابطون سهول الاطلانطى بزعامة يوسف بن تاشفين الذى جمع فى شخصه بطولة الاميرين المحاربين ، وعقل المدبر : عبد الله بن ياسين .

تولى يوسف بن تاشفين الزعامة فى سن الخمسين ، وحكم دولة المرابطين خمسين عاما أخرى ، حكمها بصرامة المتدين القانت ، واتساع أفق القائد وحيلته ، وقد رأى أن يقيم مركزا لدعوته وقيادته عند أقدام جبال الاطلس فكانت مراكش ، انشأها سنة ١٠٦٢ م ، ومنها أخذ يستولى على المغرب الاقصى كله ، ومساحة واسعة من المغرب الاوسط (الجزائر) ، ولم يتخل عن تحركاته نحو السنغال جنوبا ، فلم يحل عام ١٠٨٦ حتى كانت دولة الملثمين قد امتدت من بعض الجزائر شرقا ، حتى المحيط الاطلسى غربا ، ومن السنغال جنوبا حتى بلاد الريف المطلة على بحر الزقاق شمالا .

وفى ذلك العام عبر يوسف بن تاشفين وجيشه الى عدوة الاندلس ، واحتل الجزيرة الخضراء لتموينه ، وضمانا لخط مواصلاته مع المغرب ، وكان الفونسو السادس ، رئيس الحلف القشتالى ، قد أقسم ليحشدن من الجنود بعدد شعر رأسه ، حتى يبلغ بحر الزقاق ويزيح الاسلام عن شبه الجزيرة الايبرية قاطبة.

كان عبور ابن تاشفين ، زعيم المرابطين الملثمين ، و « أمير المسلمين » الى العدوة تلبية لاستنجاد المعتمد

ابن عباد صاحب أشبيلية ، وهنا نورد واقعة مؤثرة استشار فيها المعتمد ابنه الرشيد أبا الحسن عبد الله قائلا : « أنا فى هذه الاندلس غريب بين بحر مظلم ، وعدو مجرم ، وليس لنا ولى ولا ناصر الا الله تعالى . وان اخواننا وجيراننا ملوك الاندلس (أى الطوائف) ليس فيهم ولا يرجى منهم نصرة ولا حيلة ان نزل بنا مصاب ، أو نالنا عدو ، وهذا اللعين ادفنش (الفونسو) وقد أخذ طليطلة من ابن ذى النون بعد سبع سنين ، وعادت دار كفر ، وها هو قد رفع راسه الينا ، وان نزل علينا كما نزل بطليطلة ، فانه ما يرفع عنا حتى يأخذ اشبيلية ، ونرى من الرأى أن نبعث الى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز ، ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، اذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا؛ فقد تلف لحاؤنا ، وتدبرت بل وتبردت أجنادنا ، واجتبتنا العامة والخاصة » .

اجابه الرشيد : « يا ابت ، اندخل علينا فى اندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا » .

قال ابن عباد : « أى بنى ، والله لايسمع عنى أبدا انى اعدت الاندلس الى دار كفر ، ولا للنصاري لتقوم على اللعنة فى منابر الاسلام ، مثلما قامت على غيرى . وحرز الجمال عندى ، والله ، خير من حرز الخنازير »

وكان من أمر نجدة أكبر المسلمين ابن تاشفين لابن عباد ان تم للأندلسيين والملثمين المرابطين الانتصار الساحق الماحق على الادفنش وجيشه الجرار فى معركة كبرى تعرف « بالزلاقة . » .

واذا كانت المحنة تربط الناس برباط الاخوة فى السلاح ، فالنصر كثيرا ما يعيد الى النفوس توجسها وحزازاتها النائمة (راجع ختام الحرب العالمية الثانية

.. وما بعدها .) وقد حاول أهل الشر فى الفريقين المرابطين والاندلسيين ، الايقاع بين ابن تاشفين وابن عباد ، واستطاع الرجلان الكبيران ترك امر ذلك حتى يأتى الله امرا كان مفعولا .

وواقع الامر ان أمير المرابطين كان قد أحس بما يملأ نفوس الطوائف من اثرة وحرص على ملكهم بأى ثمن، كما رأى فى ترفهم وترديهم فى الملذات الحسية وارتكاب المعاصى ما تمجه نفس البربرى المتقشف ابن الصحراء صادق العقيدة ، وادرك ان من واجبه مستقبلا الضرب على أيدى أولئك الصغار المتناحرين على فتات ممالكهم. فعاد الى الاندلس المرة تلو المرة حتى انتهى الى الاستيلاء على ثغورها .



واورث يوسف بن تاشفين ابنه دولة كبرى امتدت فى مطلع القرن الثانى عشر الميلادى من الجزائر حتى المحيط الاطلنطى ، ومن سرقسطة فى الاندلس وجزائر البليار شمالا حتى السنغال جنوبا .

خمسون عاما قضاها المرابط الاعظم فى جهاد وغزو وحرب وتدبير سياسة ، وتنظيم ملك واسع ، واقامة منشآت دينية ومدنية فى مراكش ، وفاس ومكناس وتلمسان ، وغيرها من بلاد المغرب الاقصى والاوسط .

ويطيب لى ان أختم هذه الفذلكة الجادة بدعابة قد تكون من آثار التندر على قصور فهم ابن تاشفين أمير المسلمين البربرى للسان العربى :

فقد ذكر ابو اليد الشقندى فى رسالته عن فضائل الاندلس ، ان المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية كتب الى يوسف بن تاشفين ، بعد انصرافه الى حضرة ملكه ، رسالة تمثل فيها بشعر ابن زيدون :

بنتم وبنـا فما أبتلت جوانحنـا
شـوقا اليكم ولا جفت مآقينـا
حالت لبعـدكم أيامنا فغـدت
سودا وكانت بكم بيضـا ليالينـا

فلما قرىء هذان البيتان على كبير المرابطين ، قال : يطلب منا جوارى سودا وبيضا .

فأجاب القارىء : « لا يامولانا ، ما أراد الا ان ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا ، لان ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ليلا ، لان ليالى الحزن ليال سود » .

قال يوسف : والله ، منيح . اكتب له فى جوابه : ان دموعنا تجرى عليه ، ورءوسنا توجعنا بعده . .

عظيم عظماء صنهاجة بين المغرب والأندلس

ختمت الفصل السابق بمداعبة رجل البربر العظيم و « أمير المسلمين » يوسف بن تاشفين ، مؤسس وحدة المغرب الاقصى ، تلك الوحدة التى صقلت شعبه ، وميزته بوضع خاص على بقية شعوب المغرب الاسلامى وفى هذا يقول المستعرب الفرنسى ، المؤرخ العلامة ليفى — بروفنسال :

« هناك حدود لم تتغير اطلاقا فى مجموعها ، تفصل المغرب الاقصى عن بقية شمال افريقيا منذ قرون عدة ، وليست هذه الحدود مجرد حاجز طبيعى ، أو سلسلة من الجبال ، أو مجرى مياه ، وانما هى ، شأنها فى ذلك شأن الحدود التى تقوم بين الدول ، سياسية بوجه خاص ، فهى تحدد على الاقل فى نطاقها الشمالى أقصى النقط التى بلغها التقدم التركى بالجزائر فى العصر الحديث .. وكذلك يوجد الى الشرق فيما بين المغرب الاقصى وبقية الشمال الافريقى، فاصل طبيعى، ومن المستطاع ادراك ما بين القطرين من فوارق فى الكيان الجغرافى والمناخ ، وبالتالى فى نوع الحياة التى يحياها السكان .

« أما الاختلافات الاجتماعية والسياسية ، فلا يمكن انكار وجودها رغم الوحدة الدينية فى المغرب كله ،

ولكن هـذه الاختلافات لم يبدأ ظهورها فى التاريخ الا منذ نهاية العصر الوسيط ، أى من اللحظة التى صارت فيها بلاد المغرب الاقصى الدولة الوحيـدة المستقلة فى شمالي افريقيا ، والدولة الوحيـده التى لم تقع تحت سلطان دوله اسلامية اخرى .. ففى ماضى بلاد المغرب الاسلامى ، تؤلف تلك البـلاد مجموعة منفردة بذاتها منذ أقدم عصور تاريخها .

« . . . كان يسيطر على تاريخ المغرب الاقصى دفع مزدوج من الفاتحين ومؤسسى الدول ، دفع المرابطين، ودفع الموحدين ، وقد كان لهذين اللفظين .. حق الذكر فى لسان أوربا منذ زمن بعيد . . . أظهر امارة دالة على الدهشة التى أصابت امراء النصارى وملوكهم فى شبه الجزيرة الايبرية حيال ما لا سبيل الى صده من سطوة أولئك البربر الذين راحت جماعاتهم الواحـدة تلو الاخرى ، تنزل بهم الهزائم المدوية فى أوربا ذاتها .. فالمرابطون والموحدون يدوى اسماهما كأنهما من أسماء الرعب فى مصنفات التاريخ اللاتينية التى تروى أخبار الاسترداد ..

« . . . فالمرابطون ، أولئك الملثمون أبناء الصحراء الذين لم يلبثوا أن تهذبت نفوسهم بحيث اضطلعوا بدور الملوك الصيد ، ثم لم يلبثوا أن تأثروا بالحضـــارة الاسبانية فى الاندلس ، ولم يكن هـذا شأن الفارس البربرى العظيم يوسف بن تاشفين ، وانما كان شأن ابنه على بن يوسف الذى استهل حكمه بحقبة طويلة من الرخاء والازدهار . . . لقـد كان اسم على بن يوسف ، منذ توليه امارة المسلمين (سنة ١١٠٦ م) ولم تتجاوز سنه الثالثة والعشرين ، يذكر على الفين وثلاثمائة منبر فى مساجد المغرب الاقصى والاندلس ،

وامتد سلطانه من بجاية (بالجزائر ، وكانت تسمى أيام الاستعمار الفرنسى : بوجى) ألى السوس الاقصى ، ومن تافيللت الى السودان ، كما كان يخضع له جنوب شبه جزيرة ايبريا بأجمعه ، ويمتد حكم عماله الى جزر البليار ، وذلك كله بفضل جهاد أبيه يوسف بن تاشفين . وكانت دولة المرابطين فى أوجها ، والاسرة البربرية تزداد على مر الايام رقة وترفا بحيث صدق ما قيل فى هذا العصر من ان الثقافة الاندلسية سادت فى المغرب الاقصى » .

ذكرت فى الفصل السابق كذلك كيف دخل يوسف ابن تاشفين بلاد الاندلس ، والظروف التى دعت أن يستنجد به المعتمد بن عباد ، صاحب اشبيلية ، وما انتهت اليه معركة « الزلاقة » (ساكر الياس ، عند مؤرخى الافرنج) من انتصار المرابطين الحاسم ، هم والاندلسيون ، على حشود الحلف القشتالى بقيادة الفونسو السادس . ولقد وصف صاحب « الحلل الموشية ، فى ذكر الاخبار المراكشية » يوم الزلاقة ، قائلا : «كان يوما لم يسمع بمثله منذ اليرموك والقادسية فياله من فتح ، ما كان اعظمه ، ويوم كبير ، ما كان اكرمه ، فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقتها ، وعادت ظلمة الحق الى أشراقها ، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتزت بها رؤى الاندلس » ، وفى اول هذا القول مبالغة كاتب قاصر المعرفة بأيام الاسلام فى غير اليرموك والقادسية .

غادر ابن تاشفين الاندلس ، وقد وضع فيها ثلاثة آلاف مقاتل من الملثمين تحت تصرف ابن عباد ، صاحب اشبيلية ، ولم تفت هزيمة الفونسو السادس فى عضده ، فان حركة الاسترداد المسيحى تمثل المكابدة

والعزيمة والاصرار ، لا تفلها السنوات انتصارا أو هزيمة ، لقد قرر الاسبان طرد المسلمين من شبه الجزيرة مهما طال الزمن .

اتجه « الادفنش » الى شرقى شبه الجزيرة يغزو ثغورها ، وينشر الخراب فى ربوعها وحقولها . ولم يمض على هزيمته فى « الزلاقة » أكثر من عامين .

فقدم على كبير المرابطين بحاضرته مراكش وفد من تلك الثغور الشرقية ، من بلنسية ومرسية ولورقة المهددة بالغزو القشتالى ، يشكون اليه حال بلادهم ، وعبث « الروم » فيها ، كما قدم اليه ابن عباد ، فلم ير يوسف بن تاشفين مندوحة عن الاستجابة ، وعبر بحر الزقاق مرة ثانية عرف فيها حقيقة ملوك الطوائف، وحزازتهم وفلاكتهم ، ولم يستنجد به ابن عباد لمحاربة القشتالية فحسب ، بل ليساعده على استرجاع ثغر مرسية الذى استولى عليه دعى من الادعياء اسمه ابن رشيق .

كانت خطة ابن تاشفين تسديد هجومه على حصن بشرقى الاندلس يحتله الاسبان ، ويهددون به الثغور الشرقية ، لم ينجح المسلمون فى استرداد الحصن ، مصدر الخطر الداهم على تلك الثغور .

لقد اخطأت حين زعمت فى الفصل السابق بأن المحنة تقرب بين الافئدة ، وكان أخلق بى أن أضيف : فى الظاهر ، ولا أثر لها على ما فى السرائر ، وكان فشل المسلمين أمام الحصن فاتحة مساجلات واتهامات وخلافات بين ملوك الطوائف ، يتراشقون بالعتاب والسباب فى حضرة ناصرهم « أمير المسلمين » الملثم ، الذى أمر برفع الحصار ، ثم قفل عائدا الى مراكش حيث تناهى اليه ان صاحب غرناطة توالس مع مندوب الادفنش

مقـابل مبلغ من المـال له صورة ، وأن ابن رشيق ، مغتصب مرسيه من ابن عباد تعاون مع النصـارى فى خلال حصار المسلمين للحصن المنيع .

وهنا قرر البطل البربرى العودة الى الاندلس للمرة الثالثة ، دون اسـتدعاء أو استنجاد من أولئك الملوك الهلافيت ، وفى عزمه الاطاحة بهم ، وجمع كلمة شعب الاندلس وشـعب المغرب تحت زعامتـه : عزل ونفى صاحب غرناطة وصاحب مالقة ، وأقام ابن عمه على رأس مجموعة جيوش اربعة من المرابطين ، للقضاء على ملوك الطوائف قاطبة ، فحاصر اشبيليـة وقبض على المعتمد بن عباد ونفـاه الى المغرب ، واقتحم بطليوس واسقط صاحبها الذى قتل هو وابناه ، وفتح المرابطون قرطبة ، والمرية ، ومرسية ، ورندة .

قال يوسف تاشفين : « وانما كان غرضـنا فى ملك هـذه الجزيرة (الاندلس) أن نستنقـذها من أيدى « الروم » ، لما رأينا استيلاء هؤلاء على أكثرها ، وغفلة ملوك المسلمين ، واهمالهم للغزو، وتواكلهم ، وتخاذلهم وايثارهم الراحة ، وانما هم وأحدهم كأس يشربها ، وقينة تشنف أسماعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لاعيدن جميع البلاد الى المسلمين ، ولأملأنها على الروم خيلا ورجلا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش، انما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبى دعوته . . . »

وهكذا قضى المرابطون الاعوام التى قامت فيهـا مملـكتهم فى جهاد ضد الحلف القشتالى ، استرجعوا به أكثر البلاد التى أخرج عنها المسلمون ، وخضع لهم جنوب شبه جزيرة ايبريا بأجمعه ، وجزائر البليار . عنـد تمام المائة الخامسة من الهجرة (١١٠٦ م)

توفى البطل الملثم الاعظم ، وخلفه على بن يوسف بن تاشفين ولم تكن مراكش عاصمة المرابطين حينذاك اكثر من رباط للمحاربين يقول فيها ابن خلدون : « وجعل يوسف مدينة مراكش لعسكره ، ولتمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها فى جبل درن » ، وبنى بها مسجدا وقصبة (قلعة) .

وفى عصر ابنه على ، انفسحت رحاب المدينة بمبانيها حول قصبتها ، وكثر سكانها ، ولم يكن على ابن الصحراء القح مثل ابيه ، فقد ولد لام نصرانية من السبايا ، على شاطىء بحر الزقاق بمدينة سبته ، وتلقى ثقافة أندلسية ، ونشأ يحذو حذو خلفاء بنى امية العظام فى قرطبة ، وجاز الى أسبانيا بعد توليه بسنوات قليلة ، وتوفى الفونسو السادس بعد ذلك ، فتولى محاربة المسلمين الفونسو المحارب ملك اراجون (ارغون) وحليفه ملك قطالونية ، وانتصرت جيوش على بن يوسف فى معركة « اقليش » بقيادة أخيه تميم بن يوسف ، وكانت هزيمة منكرة ، لقى فيها حتفه الامير سانشو بن الفونسو السادس وزايدة المسلمة ، كنة المعتمد بن عباد ، كما قتل فيها عدد كبير من مقاتلة النصارى وكماتهم ، ومن بينهم سبعة اقيال يحملون لقب «قومس» (كونت) وعرفت المعركة بموقعة « القوامس السبعة» .

وقد أفضى هذا النصر بعلى بن يوسف الى أن يجىء ليضطلع بأعباء الحرب على رأس جيش عرمرم ، وهمه الاستيلاء على طليطلة ، فدمر ما حولها وحاصرها ولكنه ارتد عنها بعد شهر عندما فشل فى اقتحام أسوارها ، بينما وفق واحد من ذوى قرباه ، الامير سير بن أبى بكر فى حملة جردها على البرتغال تم فيها فتح مدائن شنترين وبطليوس وبورتو ولشبونة .

تتابعت حمــلات المرابطين فى حكم على بن يوسف ، ما بين توفيق وخذلان ، الا ان القوات المرابطة علىحدود الشرك كفلت للأندلسيين أمنا لم يكونوا يعرفونه منــذ أمد بعيد ، ووجدت أسبانيا الاسلامية وقتئذ فى السلام متعة الحياة ، وأحست بالرغبة فى التفوق أمام أنظــار العالم الاسلامى .

وأهمية حكم على بن يوسف ــ من الوجهة الحضارية ــ هى توطد الاسلوب الاندلسي فى حياة المغرب الاقصى فنا وعلما وأدبا ، وقد أم بلاط أمير المسلمين بمراكش جمع غفير من نخبة الاندلســيين ، مفكرين وعلماء وفنانين وأدباء .

الا ان النفوذ الــكبير الذى كان يتمتع به الفقهــاء والعلماء فى الاندلس ، ومشاركتهم فى شئون الحكم ، امتــد الى المغرب وعاصمة المرابطين ، وكان لهــا أثر رجعية بغيضة ، وضيق فى الافق الفكرى ، تعصبا ضد من لم يشاطر أولئك الفقهاء معتقداتهم .

ومن دراسة العلامة جولدتسيهر نعرف ان انتصــار المذهب المالــكى (السائد فى المغرب الى اليوم) تم عام ١٠٤٨ م ، وكانت وحدة المذهب قد أضفت على الفقهاء المغــاربة التوقف والجمود ، فعزفوا عن الرجوع الى « الاصول » يستنبطون منها الاحكام ، ويتخذونها مادة للدراســة ، وقنعوا بكتب « الفروع » ، وهنــا يقول محيى الدين عبد الواحد المراكشى : « وكثر ذلك حتى نسي النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، وانساق القوم وراء التقليد ، وانصرفوا عن النظر والاجتهاد .

ولقد وقعت حادثة ذات خطر من الناحية الفكرية ، بسبب سيطرة الفقهاء القاصرين المتزمتين ، هى احراق

كتب أبى حامد الغزالى ، فقد كان الفيلسوف المسلم العظيم يستجب نزعات الفقهاء وحرصهم على الدنيا ، وطمعهم فى المناصب المرموقة ، والضغن الذى يحملونه للعلماء الزهاد ، ولم يكن العلم فى نظر الغزالى مهنة دنيوية تعود على صاحبها بالربح . وانما هو « عبادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن الى الله تعالى» .

ففى عام ١١٠٩ م ، أمر على بن يوسف « أمير المسلمين » ، باملاء الفقهاء ، أن تحرق كتب الغزالى ، وأحرقت نسخة مجلدة من « احياء العلوم » أمام الباب الغربى لجامع قرطبة ، فى جمع حضره الفقهاء ، وصدر « الظهير » الاميرى فى جميع أنحاء امبراطورية المرابطين باحراق كل ما يعثر عليه من مؤلفات الغزالى.

وكان هذا وغيره مما ينذر بخاتمة المرابطين وشيكا ، وصعود نجم « المهدى » ابن تومرت ، «فقيه السوس» و « داعية الموحدين » الاكبر ، وقيام دولتهم بزعامة عبد المؤمن بن على « سراج الموحدين » .

تحت شجرة الخروب

شخصية عجيبة تحمل اسم محمد بن عبد الله بن تومرت ، من قبيلة هرغة ، فخذ من أفخاذ المصمودية ، نشأ فى بلاد السوس الاقصى ، الى الجنوب الابعد من مراكش ، على سفح جبل انجليز .

« والسوس عرفت فى العالم الاسلامى كبلاد للسحرة والمشعوذين ، كما يعتبر أهل الجنوب بالمغرب الاقصى اساتذة فى علم العرافة والتنجيم والقوى الخفية ، يأمرون الجن ويكشفون عن الكنوز المخبوءة وراء الارصاد .. وهم الى ذلك قوم أولو فصاحة بسيطة تأخذ بمجامع الافئدة ، يخاطبون جمهور السذج الطلعة ، وجلهم يجيد لغتين ، يضمنون خطبهم — بالعربية أو بالبربرية — آيات من كتاب الله ، أو عبارات دينية تضفى على أعمالهم التى ينكرها الاسلام أحيانا صبغة من التمسك السطحى بالدين . . .

« وبربر المغرب فى جملتهم أهل صلاح وتقوى ، الا ان الاسلام يقتصر عندهم على جانبه الدينى فقط ، والدين مكرم فى المدينة ، لكنه لا يتدخل فى حياتها الخاصة ونظمها وميولها ، والمثل الاعلى الغامض الذى تحاول أن تترسمه » (العلامة بروفنسال) .

ومحمد ليس اسمه أصلا ، ولا عبد الله اسم أبيه ،

انما استعار الاسمين تيمنا وتبركا ، بعد تبحره في العلوم الاسلامية ، وقد نزح الى الشرق طلابا للمعرفة العليا ، وتعمقا واعيا للأصول .

فهو بربري قح ، وكان أبوه تومرت رأس قبيلته أو « امفارها » باللسان البربري، واسم جده لابيه وجليد، وجده لامه وابوركن .

بدأ رحلتــه الشرقية يافعا في مطالع القرن السادس الهجري (١١١٠ م ؟) ، وانتهى الى بغداد حيث قرأ على علمائها شيئا من أصول الدين ، وسمع الحديث على أقطاب المحدثين ، ثم انتقل من بلاد الرافدين الى الشام والمظنون انه اجتمع هنــاك بأبي حامد الغزالي ، وان صاحب « احياء العلوم » حين سمع منه بما جرى على كتبه من مصادرة واحراق ، باشارة الفقهاء على « أمير المسلمين » في دولة المرابطين القائمة في ذلك الوقت ، علق على الخبر بقول غير مثبوت : « ليذهبن عن قليــل ملـكهم (أي المرابطين) ، وليقتلن ولد علي بن يوسف ابن تاشفين » .

وجاز محمد بن تومرت بمصر في حكم الفاطمي، الآمر بأحكام الله ، وكانت الاسكندرية وقتذاك عامرة بالعلماء، مواطنين ومستوطنين ، من أمثال ابن ميسر ، والفقيه عبد الرحمن العلاف ، وأبي بكر الطرطوشي ، وكان ابن تومرت يختلف الى مجلسه بخاصة .

قضى الطالب المغربي المجد نحو عشر سنوات في رحلته العلمية بالمشرق ، وقد أفعمت روحه ايمانا ، وعقــله فهما موسعا لدينه ، ثم قفل عائدا الى وطنه على مراحل فكان في كل مدينة يحل بها ، وعلى ظهر السفينة التي خطفت به الى المغرب ، لا يفتر لسانه عن وعظ الناس في عنف الشاب المتدروش، حتى قيل بأن ركاب السفينة

تبرموا بلجاجته فرموا به فى البحر ، حيث « أقام أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة لم يصبه شىء ، فلما رأوا ذلك أنزلوا اليه من أخذه من البحر ، وعظم فى صدورهم ، ولم يزالوا مكرمين له الى أن نزل من بلاد المغرب الاوسط بمدينة بجاية »، (بوجى بالجزائر، كما كانت تسمى أيام الاحتلال الفرنسى) .

وما لبث فى بجاية هنيهــة حتى نهى النــاس عن « الاقراق (النعال) الزرارية ، وعمائم الجاهلية ، ولباس الفتوحيات للرجال والنساء » ، وفى عيــد الفطر خرج الناس ، رجالا ونساء يرفلون فى حلل العيــد ، فأقبل ابن تومرت بدير الضرب بهراوته فى ميسرتهم وميمنتهم.

وخرج أو أخرج الى أرباض بجاية ، حيث عاش فى زاوية يقضى النهار قارئا ، وشارحا ومعلما ، وفى المساء حين ينفض عنه الطلاب ، ينطلق من خلوته ، ويمضى الى مفتــرق من الطرق قريب ، يجلس تحت شــجرة خروب يردد ابتهالاته ، ويستغرق فى تأملاته وتهجداته.

ولقد سمعه بعض أتباعه ، ورفقاء رحلته ــ وهم على وجه الدقة : الحاج يوسف الدوكالى ، والحاج عبــد الرحمن ، وثالثهم أبو بكر الصنهاجى وكنيته البيدق، وكان مسجل أخبار الرحلة ، المتخيل خوارقها وكراماتها ــ سمعوه يقول : « الحمد لله الذى أنجز وعده ، ونصر عبده ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلكم غدا طالب ، طوبى لمن عرفه ، وويل لمن أنكره » .

وصل هــذا الطالب من المغرب ، وكان متوجها الى المشرق ، مصدر النور والعرفان ، ولما عرف بأمر مواطنه الفقيه محمد بن تومرت ، قصده واستأذن فى الدخول عليه بالمسجد :

ــ ادخل يا شاب (دخل وتهيأ للجلوس بين الناس)

ـ ادن مني يا شاب (بلغ حضرته)
ـ ما اسمك يافتى ؟
ـ عبد المؤمن بن علي
ـ واين تريد يافتى ؟
ـ المشرق ياسيدى ، التمس منه العلم .

قال ابن تومرت : العلم الذى تريد اقتباسه بالمشرق، وجدته بالمغرب يافتى .

بقي الشاب الى جانب أستاذه ، فلما جن الليل ، سمعه يقول : « لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن على ، سراج الموحدين ! » .

بكى عبد المؤمن وقال : « يا فقيه ، ما كنت من شيء من هذا ، انما أنا رجل أريد ما يطهرنى من ذنوبى » .

قال ابن تومرت : « تطهرك صلاح الدنيا على يديك ؛ وطوبى لاقوام كنت أنت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك ، اولهم وآخرهم ، أكثر من ذكر الله يبارك لك في عمرك، ويهديك مما تخاف وتحذر » .

وهكذا لازم الفتى أستاذه على رأس طلابه واتباعه ، وسافروا من بجاية الى تلمسان ، فوجدة (آخر مدينة مغربية على الحدود الحالية بين المغرب الاقصى والجزائر) ، ومنها الى فاس حيث استقروا بواحد من مساجدها ، يقرأون على أستاذهم ، وينضم اليهم المريدون .

وكلما خلا ابن تومرت من الدرس ، خرج الى المدينة يسعى داعيا الى الفضائل ، والتمسك بأهداب الدين ، ونبذ البدع . ومن أخباره بفاس أن هاجم حوانيت آلات الطرب من « دفوف وقراقر ومزامير وعيدان وروط (نوع من الرباب) ، وأربية (جمع رباب) وكيتارات ، وتولى هو واتباعه تحطيمها » .

وكان مآلهم هنا ، مآلهم من قبل ومن بعد : الاخراج من المدينة .

واصلوا طريقهم الى مراكش عاصمة المرابطين الزاهرة ، ونزلوا بمسجدها ، وروى ابن الاثير المؤرخ : ان ابن تومرت رأى ذات يوم أخت واحد من أمراء المرابطين فى موكب من الجوارى الحسان عدة كثيرة ، وهن مسفرات كعادة صنهاجة ، تسفر نساؤهم ، ويلتثم الرجال ، فأمرهن بستر وجوههن ، وانهال مع أصحابه ضربا فى دوابهن ، ووقعت الاميرة عن دابتها .

وأيا كان حظ الحادث من الصدق — ولقد أذكر ان ابن بطوطة المغربى الطنجى، فى ذيبة المهل (حاضرة جزائر المحلديب ببحر الهند) ، وكان قاضيها ، أمر النسوة بستر أجسادهن العارية من الرأس حتى السرة ، فرفضن، واكتفى بأن يشترط دخول المتقاضيات الى ساحة العدالة محجبات بالحجاب الشرعى — فقد أبعد الفقيه الدرويش ومريدوه عن مراكش .

ونزح الجمع المشاغب الى الجنوب حتى بلغوا هرغة ، مسقط رأس استاذهم فى مضارب المصمودية بالسوس الاعلى ، حيث أقام الفقيه بين أهله وعشيرته يعظ ويتعبد ، ويستقبل وفود القبائل التى عرفت بأمره ، وقد سبقته اليهم شهرته .

تلك كانت نشأة الموحدين ، حسبما جاء فى مذكرات أبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيدق ، ممن صحب « المهدى » فى رحلته من المشرق الى المغرب .

ولا يفهم اصطلاح «الموحدين» على مجرد كلمة التوحيد، وانما كان شعارا للحركة التى أثارها ابن تومرت تقويما لقصور المرابطين فى فهم دينهم ، وحرص فقهائهم المالكية على التمسك بالفروع دون الاصول ، وقد

أخذوا فى تفسير صفات الله أتجاها ماديا ، حتى فشت بين اهل المغرب فى عصر المرابطين بدعه « التجسيم » ، واعاد ابن تومرت الحق الى نصابه فى أن صفاته تعلى من داته ، وان شريعه الاسلام تقوم على دراسة القران والحديث أصولا ، لا على تعاليم فقهاء يعتمدون على القياس والاجماع فحسب .

غادر ابن تومرت وأبناؤه المقربون مضارب هرغة وتوغل فى مرتفعات السوس حتى محلة « نين ملل » (اى البئر البيضاء) حيث بايعه من اتبع هداه تحت شجرة خروب سنة ٥١٥ من الهجره ، وكان أول من بايعه تلميذه الاتي عبد المؤمن بن على ـ ولقب فقيه السوس بلقب « المهدى المعصوم » .

كانت دعوة « المهدى المعصوم » ، قد أخذت فى الانتشار من «تين ملل» ، (تينمل فى اللغات الاجنبية) الى سائر بلاد المغرب الاقصى ، وتحولت الى ثورة على دولة المرابطين وقد آذن نجمها بالافول .

وجهز المهدى ابن تومرت جيشا من الموحدين لفتح مراكش ، وخطب فيهم قائلا :

« اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، وادعوهم الى اماتة المنكر ، واحياء المعروف ، وازالة البدع ، والاقرار بالمهدى المعصوم ، فان اجابوكم فهم اخوانكم ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وان لم يفعلوا قاتلوهم ، وقد أتاحت لكم السنة قتالهم » .

ونصب على الجيش تلميذه وخليفته عبد المؤمن قائلا : « أنتم المؤمنون ، وهذا اميركم » ولقب عبد المؤمن وخلفاؤه من بعده بأمراء المؤمنين .

كان عبد المؤمن ابن فلاح متوسط الحال من قبيلة بربرية الاصل تعربت منذ الفتح الاسلامى ، وقد تخلت

فى عهد ابن ثومرت عن التمسك بلغتها البربرية ، ولتميز وحدها من بين الجماعات المذكورة فى كتاب الانساب بأن الاسماء العربية لبطونها لا تقترن بما يقابلها فى الاسماء البربرية على ما يقول العلامة المستعرب بروفنسال .

كان أبو عبد المؤمن عليا بن علوى بن يعلى ، وزوجته كانت تعلو بنت عطية بن الخير ، وعبد المؤمن هو ثالث أبناء على بن علوى من السيدة تعلو ، نشأ على الحفظ والقراءة ، وطلب العلم بتلمسان ، ثم عول على الذهاب الى المشرق ، عندما تبين له ان التعليم فى المغرب لايشفى له غليلا ، ورأى عمه أن يرافقه فقصدا بجاية ليركبا منها أول سفينة تبحر شرقا ، ثم حدث ما سبقت الاشارة اليه من لقائه بفقيه السوس ، ابن تومرت « المهدى المعصوم » .

« ويمكن أن نتمثل هذا الشاب المجد ، ولا شك انه كان فيما يظهر لمن يراه ميسور الحال ، قرويا عليه مسحة من التمدن أشبه بأمثاله ممن تكتظ بهم لوقتنا الحاضر زنقات (أزقة) الاحياء القديمة بمدينة فاس ، اجتمع له التواضع والحياء اللذان يتسم بهما من كان فى سنه ، نفس يقظة طلعة ، متعطشة للمعرفة ، يقوم عمه منه مقام المرشد ، وهكذا انطلق عبد المؤمن فى الطريق الذى رسمه له القدر .

« كان قدرا عظيما أن يبدأ تحت قيادة روحية لشخصية ابن تومرت التى تستهوى من حولها الى أقصى حد ، ونفس تجمع بين البساطة والتعقيد ، ونزعة حالمة ، شخصية المصلح الدينى ، الا انه سياسى بلغ الغاية فى الالمعية والاخلاص ، يؤمن برسالته ايمانا يفضى به الى الرغبة فى تحقيقها بقوة عارمة .. ومجمل القول ان ابن تومرت كان شعلة ذكاء .. مع صفاء فى النفس

لا يخلو من اللياقة الحضرية والرقة فيمن حوله ، والخشونة والقسوة مع تقدير العواقب ، لين العريكة فى الوقت المناسب ، لقد استطاع هذا البربرى القادم من الاطلس والعالم المسلم أن يصبح لدى مواطنيه شيخ القبيلة (الامغار) ، مسموع الكلمة يتخلى فى خطبه عن أسلوب الاحتجاج ولو لحظة ليتحدث فى بساطة دون التشدق بالفصاحة على طريقة القوم ، وله فى الرسول أسوة حسنة . . . لم يكن فيه شيء من سجايا العربى الساكن فى شبه الجزيرة ، وكان يعلم انه مهما فعل فان اللغة التى يكتبها لغة غريبة عليه ، ومهما كان من بلاغة رسائله فانه كان يفكر بالبربرية وبلسان البربر كان يخاطب قومه أبناء « تين ملل » ، أما العربية فكانت لغة المواعظ والخطب التى تزيد أتباعه الجدد ايمانا ، يؤثر فى نفوسهم ايقاع العبارات الجميلة التى تتردد فى آذانهم رنينا عذبا ، دون أن يحيطوا بها احاطة تامة ، اذ كانت البربرية ، لسانهم ، لغة الشجب واللعن ، ولغة الدعاة الذين يعلنون مقدم « المهدى المعصوم » من قرية الى قرية ، ومن واد الى واد .

« الاسلام فى المغرب والاندلس ــ ليفى بروفنسال »

وكان الجيش المؤلف من أربعين ألف مقاتل ، المعقود لواؤه لعبد المؤمن ، خليفة « المهدى » تحت أسوار مراكش ... « كناطح صخرة يوما ليوهنها ، فلم ... الخ » ، وانتهت الحملة بهزيمة قتل فيها الكثير ، وأصيب « أمير المؤمنين » القائد بجرح عميق فى فخذه الايمن تخلف عنه عرج ، فلما وصل الخبر الى ابن تومرت ، قال : « أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ » قالوا : نعم .. قال : لم يفقد أحد» .. وهذه فى الحق مكابرة من داعية الموحدين الاعظم ، اخفى بها الجرح النفسى

العميق ، فقد مرض بعد شهور من هزيمة جيشه ، وتوفى بداره فى « تين ملل » ، ودفن بأرض المسجد الملاصق للدار ، وأخفى الاتباع موته ، ليواصلوا غاراتهم على المرابطين ، ثم أعلنوا وفاته بعد انقضاء ثلاث سنوات وبايعوا عبد المؤمن بن على ، أول خليفة فى أسرة الموحدين الحاكمة ، التى انتهت بالقضاء على دولة المرابطين ، وبامتداد ملكها الواسع على المغرب الكبير قاطبة ، من برقة حتى المحيط الاطلسى ، ومن بلاد السودان جنوبا حتى شمال الاندلس ، ودام ملكهم قرنا ونصف قرن ، أشاعوا الرهبة فى قلوب أعدائهم ، وعقد النصر لالويتهم فى أكثر من موقعة وموقع .

ثم حل قضاؤهم المحتوم ـ قضاء الدول طرا ـ ونذير انهيار دولتهم بعد موقعة رهيبة بينهم وبين نصارى الاندلس ، تعرف بمعركة « العقاب » ،وسيخلفهم على المغرب الاقصى بنو مرين ، فالسعديون ، وأخيرا العلويون ، وهذه هى الاسرة القائمة حالا ، والتى تحكم ما كان يعرف فى شبابى ببلاد مراكش ، منذ ثلاثمائة عام .

كانت موقعة « العقاب » بفحص « طولوصا » حدثا خطيرا فى تاريخ الاسلام بالاندلس ، نشأت على اثر حلف صليبى أقامه أسقف طليطلة رودريجو خيمينث من الامارات والممالك الاسبانية والبرتغالية ، ودعا اليه اقيال فرنسا وايطاليا لينضموا الى اخوانهم فى الدين بشبه جزيرة ايبريا (١٢٠٦ م) ، وكان بابا روما انوتشنتى الثالث المحرض الاكبر على توحيد كلمة الكاثوليكية ضد الاسلام ، بارك عدة كثيرة ممن وفدوا على اسبانيا من ايطاليا وفرنسا والبرتغال وقطالونيا .

اجتمعت فى طليطلة عاصمة قشتالة حشود هائلة من

محاربى تلك ألبلاد ، ومن فرسان الصليب « الاسبتارية والداوية » ، وغيرهم وغيرهم وزحفت تلك الجموع والجحافل من طليطلة فى ٢٠ يونية عام ١٢١٢ .

وخرج أبو عبد الله محمد الناصر بن أبى يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، من اشبيلية فى العام نفسه على رأس جيش موزع الفكر ، مفكك العزيمة والعرى ، بلغ قرطبة ومنها الى جيان .

وزحفت القوات الصليبية جنوبا حتى بلغت واديا قريبا من بلدة طولوصا ، يعرف باسم « لاس نافاس دى طولوصا » ، (أى فحص طولوصا) ، واسمه فى المدونات العربية « العقاب » (الطائر) نسبة الى حصن اموى قائم بالفحص الذى دارت فيه المعركة .

انهزم المسلمون هزيمة نكراء ، وعاد محمد الناصر لدين الله ، « أمير المؤمنين » الموحدين الى اشبيلية ، ومنها الى المغرب ، واحتجب فى قصره بمراكش، كسير الفؤاد ، حتى قضى بعد سبعة أشهر من اندحار جيوشه .

وكان ابنه المستنصر بالله أبو يعقوب أول خلفاء الموحدين الضعفاء ، بويع بالخلافة فى السادسة عشرة من عمره ، ونشبت الفتنة فى كل مكان ، وبعد وفاته تفرق أمر الموحدين الى أكثر من خليفة ينازع « أمير المؤمنين » ، وكان آخرهم من بويع بالاندلس ، ومزاحمه الذى بويع فى المغرب ، وتحول المغرب مسرحا للقتال بين خلفاء الموحدين ، وعادت أرض الاندلس الى أسوأ مما كانت أيام ملوك الطوائف .

وتأبين الدول الزائلة لا يتأتى الا أن يعرف المرء بآثار العمران التى خلفها أمراؤها وملوكها .

نظرة .. فابتسامة .. فسلام .. فلقاء

عشقت المغرب الاقصى من أول نظـرة ، عنـد اول لقـاء (١٩٥٨) ، واعجبت بأعلام الفـكر المغربى فى اجتماعاتنـا بمؤتمر اللجان القومية لليونسكو بمدينـة فاس ، تم فى اللقاء الثقافى بمناسبة المهرجان الافريقى بالجزائر (١٩٦٩) وأخيرا بجامعة لوفان (بلجيكا) ، الجامعة الـكاثوليكية العريقة التى استضافت مجموعة مختارة من الشرق العربى والمغرب ، ليحاضروا طلبـة الدراسات العربية بتلك الجامعة ، ويناقشـوا موضوع الساعة وهو « نهضة العالم العربى » (١٩٧٠)

وكانت رحـلتى عام ١٩٧١ من الاندلس الى المغرب توكيدا للألفة الحارة التى أشـعر بها نحو تلك البـلاد البعيدة وقد بهرتنى بتكوينها الجغرافى وجوها وتاريخها العجيب ، وآثارها ، وألوان سهولها ووديانها وجبالها ، وسواحلها الطويلة على الاقيـانوس الاطلسى ، والبحر الابيض المتوسط ، كما كانت تعلقا بشعبها الذى اجتمعت فيه خصائص تاريخه ، وصلاته الاندلسية ، والأجناس التى يتألف منها بيضا وسمرا ، بربرا وعربا ، ثم أثر قربه من أوربا فى تهيئته للحضارة الشاملة مع احتفاظه بشخصيته التى تفرض عليه التؤدة فى تطوره .

اننا فى مصر ، بقوامها الجغرافى المتناسق السهل ،

وبالعوامل الاخرى التيجعلت منا شعبا واحدا موحدا ، منذ فجر التاريخ ، ليصعب علينا أن نفهم معنىتماسك بلاد كالمغرب الاقصى لا تساعد تضاريسها ، ولا قبائلها وبطونها على هذا التماسك ، فمن سكان الجبال ، فى بلاد الريف الى الشمال بمحاذاة شاطىء البحرالابيض، الى قبائل جبال الاطلس التى تمتد من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى : فتقسم المغرب الى شطر شرقى ينبسط سهولا وسباسب ودهاسا ، وشطر اوسط خصب ما بين وادى الملوية ووادى السبو ، وشطر الى الجنوب من جبال الاطلس ، بواحاته وسط امتداد الصحراء الافريقية الكبرى ، ويتصل بالسنغال وضفاف نهر النيجر .

بلاد الخصب والمحل ، والجفاف والمطر ، وجليد الجبال الشماء وثلوجها ، ومجارى مياهها ــ ويعرفونها بالاودية كما كانت تسمى بالاندلس ــ تنحدر الى البحر المتوسط شمالا ، والى الاطلنطى غربا ، ومنها ما لايعرف له مصب ، اذ تغيب مياهها فىغرود الجنوب الصحراوى وسباسبه .

بلاد الربيع المزهر ، والخريف المثمر بالفواكه ، منبت أشجار الصنوبر والسنديان والارز والدلب على سفوح الجبال ، وشجيرات العشب العابس قرب القمم، والشطئان الرملية والصخرية الى مئات الاميال، والامواج القصيرة ذات أعراف الزبد شمالا . والعاتية العالية تحركها رياح بحر الظلمات . شعب مختلط ، وان تميزت أجناسه ، والمؤكد ان الجنس الغالب ــ البربر ــ استعمر المغرب من اقدم الازمنة ، ولا يعرف العلم عن منبته سوى القليل الذى لا يشفى غليلا . . ومن يدرى ، لعل كلمة السر فى أصل شعوب الشمال

الافريقى تقبع فى كلمة « ليبيا » ، حتى أن مصر ذاتها ترتد فى بعض أرومتها الى جنس ليبى عاش فيما قبل التاريخ يمرح فى الاحراج الواسعة أيام كانت الغزلان والسباع والتياتل والزراف تهيم وسط المراعى الخضراء قبل أن يتحول الجو ، ويتوقف الغيث ، ونمحل الارض ، ويأتى الماعز على كل نبت ، ويستوى جريان النيل فى واديه ، وبين شريطيه الاخضرين .

سكن الفينيقيون شواطىء الشمال الافريقى ، وأخلافهم القرطاجيون ، واحتلها الرومان دون التوغل بعيدا ، أو التصعيد فى الجبال ، وكل ذلك لم يكن فى تاريخ المغرب الاقصى شيئا مذكورا الا قليلا ، لم يترك من الآثار الا نزرا يسيرا ، أهمها ما نرى من بقايا « فولوبيلبس » الرومانية ، وهى « وليلى » اليوم الى الشمال من مكناسة ، والغرب من فاس .

أما الاسلام فقد طبعها بطابعه ، ونبت غرسه فى اراضيها : وأينع فى السهل والحزن ، فى الوهاد والجبال لم يكن ذلك ميسرا فى مطالع الفتح ، على الرغم من اقتحام عقبة بن نافع الفهرى للشمال الافريقى كله حتى بلغ شواطىء بحر الظلمات . وانا لنتصوره ، على ماجاءت به أخبار الاولين ، وقد لكز فرسه يدفعه الى خوض ماء الاقيانوس حتى بلغ الماء ركبتى القائد العربى ؛ ثم رفع ناظرته الى أعلى يشهد ربه على البر بقسمه أن يحمل راية الاسلام حتى مغرب الشمس ، بكل ما وهبه سبحانه من قوة على الفتح والجهاد فى سبيل الله ، وبث فى قلبه من الايمان بالشهادة .

ويبدو ان البربر وقد استمعوا الى كلمة الاسلام من القائد العربى وصحبه ، لم يحفظوا عهده ، ولا استنارت بصائرهم بالنور الجديد ، فارتدوا الى بداوتهم وعقائدهم

« الانيمية » ، بعد رحيل عقبة عنهم فى القرن السابع (٦٨٣ م) .

انما القرن الثامن هو عصر الاسلام الظافر على طول المغرب الكبير قاطبة حين اجتاحه موسى بن نصير ، واستولى على المغرب الاقصى من طنجة فى الشمال الى تافيلالت فى الجنوب ، ثم أقام مولاه البربرى طارق بن زياد حاكما على طنجة ، وقائدا على جيش من البربر عبر بحر الزقاق الى اسبانيا ، وشتت جحافل القوط ، وحقق أول فتوح الاسلام فى الاندلس .

وكان لادريس بن على ، وابنه ادريس الثانى الايادى البيضاء على تثبيت قواعد الدين الحنيف فى المغرب الاقصى ، وعلى انشاء حاضرته الاولى فاس ، وما برحت عاصمته العلمية والدينية والادبية .

ولاذكرن فى رحلتى الاخيرة زيارة مسجد ادريس بن ادريس بفاس ، وبلوغى باب مقامه امتلأ بالمريدين قعودا يتلون آيات الذكر الحكيم جماعة ، لم اجتز عتبة المقام فليس فيه مكان لقدم ، وقفت ببابه أقرىء صاحبه السلام وأتلو فاتحة الكتاب .

ووقوفى بمعارج الجبل ، فى الطريق من مكناسة الى وليلى لمشاهدة آثار « فولوبيليس » الرومانية ، أرفع البصر الى مدينة المغرب المقدسة ، واسمها من اسم وليها المدفون فى أرضها : مولاى ادريس ، صاعدة فى الجو ، شامخة تتبوأ كتف الجبل ، كأنها أوكار النسور

وكيف لا يكون عشقا أن أعكف منذ عودتى على دراسة حياة تلك البلاد فى ماضيها وحاضرها ، لا مجرد استزادة من معارف ، بل لاطيل أيامى فى « المملكة السعيدة » باستيحاء رحلتى القصيرتين اليها .

جلست وحدى على المقهى الكبير فى مواجهة دار

البريد بالرباط ، ساعة وبعض ساعة ، لا أمل النظر فى تلك العصرية الى السائرين زرافات ووحدانا ، رجالا ونساء ، من كل سن ، مع غلبة الشباب على الشيوخ — على عكس ما أحزننى بالجزائر هبوط النسبة عن هذا المستوى ، فكرتنى بأكرم الضحايا الذين سقطوا شهداء وأبطالا فى حرب التحرير الطويلة — وانها لعادة قديمة ألفتها فى كثير من البلاد التى زرتها ، أن أطالع فى الزى والسيماء ، وفى ايقاع الحركة والسير ، صورة الحياة القائمة ، أستشف من ورائها قدرا ثمينا من روح البلد الذى أجهل ، وما بلغته من أدوار التطور .

وفى الرباط عاصمة المملكة المغربية الشريفة ، كنت أشهد هذه الاطوار وكأنها « فلاش باك » لما عرفته منذ الحلم ، وسايرته فى تطور مصر ، من الحبرة والبرقع والملاية اللف ، والعربة الكارو وسوارس والترام المهكع ، وأوائل السيارات والاوتوبيسات ، وكرنفال الازياء ، والحفاء ، وعفريت الليل الحافى يجرى بمشعله ليضىء فوانيس غاز الاستصباح . . . الى ما نراه اليوم فى القاهرة الكبرى ، عاصمة افريقيا . . . لابد ان كانت الظاهرة ذاتها تحدث فى المغرب ، وان تفاوت الزمن ، متقدما فى مصر ، متأخرا فى غيرها من بلاد الشمال الافريقى .

فى الرباط ، من مقعدى على الجادة الواسعة ، احسست كأنى بالقاهرة فى صميم العصر الحاضر ، الا فيما يختص بالعنصر المحافظ ، وما برح ظاهرة مميزة فى عاصمة المغرب ، وقد قارب على الاختفاء تماما من وسط العاصمة المصرية . فى فاس ومكناسة أوضح من الرباط ، وفى مراكش كأنها أيام مولد السيد أحمد البدوى بطنطا ، ولا أنساها فى العشرينات ، ولم تردم الجعفرية بعد ،

وكان حفل المولد يقام فى ارض فضـــاء نعبر اليهـا على كوبرى سيجر ، حلقة الحشر حول مركز « الصارى » الاعظم .

الفتيان الجالسون حولى بالمقهى ، والعابرون بى ، طوال شعر الراس ممطوطو السوالف ، هم شـــبابنا بالتمام والـكمال ، وان كانوا أكثر حدة وعصبيـة ، وأنشط خطوا ، والفتيات هن فتياتنا وان كن أكثر رزانة وخفرا ، ولـكن المحتفظين بالزى المغربى : الجلابة ذات الـكبود ، للرجال والنساء ، بالنسبة الى لابسات المينى والماكسى والبنطلون ، والى لابسي البنطلون المحزق كأنه المايوه ، اظهر مما تراه فى القاهرة ، هذا الى ان الحجاب الابيض والازرق أكثر اصرارا على البقـاء فى المغرب ، بينما البرقع بالعروسة وبغيرها قـــد اختفى أو كاد فى شوارعنا الحديثة ، هذا فى الواجهة الحضارية لبلدينا.

أما الواجهة القومية « الفولـكلورية » فكانت حيـة منتعشة بعاصمة الجنوب : مراكش الرائعة ، أعادتنى

الى ماضى البعيد فى موالد السيدة زينب ، والحسين ، والحسينية ، والمحمدى ، وذلك عندما قضيت العصرية اتجول فى ميدان مراكش الشهير باسمه المخيف « جمعة الفناء » : ما بين الحاوى بألاعيبه وطلوع زرابينه وحياته وثعابينه ، والشاعر بربابة وبغير ربابة ، ولاعب السيرك على القارعة، وجواسق الباعة، وحامل الماء « الحملى » الذى اختفى من القاهرة منذ طفولتى ـ وهو فى مراكش يذكرنى ببطـل أوبرا « النـاى السـحرى » لموزار : « باباجينو » المـدندش ، وبمصـارع الثيران ، بقبعة واسعة يتدلى منها « الصفا » والجلاجل ذات الجرس النحاسى ، يستجيب لضربات صاجاته وكاساته تنادى العطاشى ، وقارىء البخت ، وضارب الرمل والودع ،

وحلاق الهواء الطلق يصفف اللحية ، ويحلق الراس زلطة .

سرحت فى « المدينة » ـ كما كانت تسمى فى صفرى احياء الحمزاوى ، والتربيعة ، وخان الخليلى ، وتحت الربع ، والفورية ، والخيمية ، والسروجيــة ، وحارة اليهود ـ كل ذلك فى مراكش ، وفاس ، ومكناسة ، وغيرها ، ما فتىء حيا صاخبا لم يغيره الزمن كثيرا ، بينما العمران فى عواصمنا يعبث بقاياه ، وكأننا نأنف من بقائه .

وجامع « الـكتبية » بمراكش لم أر حوله أثرا لمصدر اسمه ، وان ذكرنى بكتبية الحلوجى ، وكانوا فى صغرى حانوتا لصق دكان ، يجلس فيها الوراقون القرفصــاء أو يتربعون فوق أرضية خشبية تعلو بأكثر من ذراع عن ارضية الشارع .

أهم المدن التى زرتها فى رحلتى الاخيرة هى : فاس ، ومراكش ، والرباط ، ومكناسة ، توصف هناك بالحواضر الملوكية : تحمل تاجا فوق « رنكها » أو شعارها، يعلوه خاتم سليمان ، النجمة المخمسة الخضراء التى تتوسط الراية المغربية . « فاس المحمية » كانت عاصـــــمة الادارسة والمرينيين والسعديين ، و «مراكش الحمراء» كانت حاضرة المرابطين والموحدين ، دون أن ترتد فاس خطوة الى الوراء ، و « رباط الفتــح » انشــأها أول الموحدين عبــد المؤمن « قصــبة » أى قلعــة وقصرا ومسجدا ، ووسعها خلفاؤه ، واختار مولاى اسماعيل « مكناسة الزيتون» عاصـــــمة لملكه (ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر) ، ثم عادت الرباط حاضرة المغرب فى حكم خلفــائه من أسرة الاشراف العلويين ، سلاطين المغرب وملوكها الى يومنا هــذا .

ان جمال المغرب الاقصى ، واقبال السائحين عليه من كل صوب وحدب ، وحسن استعداده لاستقبالهم ، لم أر له مثيلا فى بلاد الشمال الافريقى ، وما برحت مصرا على ان الاندلس تفرض على زائريها اتمامها بزيارة المغرب الاقصى ، اذا راموا أن يعيشوا الاندلس الاسلامية عينا لا أثرا .

الفن الأندلسى المغربى

« البربر قوم ذوو همة وبأس ،
حباهم الرب من فضله بكثير »
ابن خلدون

لا أدرى مدى تحمل القارىء لكل الفذالك التاريخية التى حرصت فيها على أن أسبر أعماق شعب البربر ، ذلك الشعب العجيب ، الذى لم يكن يقدر له أكثر من تناحر قبائله وأفخاذها وبطونها ، تنحدر من سفوح جبالها لتتولى تقشيط السهول والفحوص ، وتعود منها بالاسلاب .

لم يقدر عليهم الفينيقيون ولا القرطاجيون ولا الرومان ، ولعل « وليلى » (فولوبيليس) كانت أبعد ما بلغه الاحتلال الرومانى للمغرب الاقصى ، ولقد عرف أبناء روما المستعمرون المنظمون ، بأمر القوة القتالية للبربر ، مع الاحتمال والتقشف ، فجندوا منهم فرقا (ليجيون) من المشاة والركبان ، تؤمن لهم الخلفية الجبلية الخطيرة .

أقول : لم يكن يقدر لعشائر البربر ، ولا لفلاحى السهول ، أن يقوم لهم ذكر تاريخى مميز ، لولا أن ضمت شملهم شريعة نزل بها على جاهلية شبيهة ، كتاب الحياة الدنيا والآخرة ، تؤمن بالوحدانية ، وتهدى القوم

الى صراط مستقيم وانسانية سامية ، شريعة لا اسرار فيها ولا أحاجى ، ولا رموز .

تاريخهم منذ ضحى الاسلام شاهد على حقائق باهرة ، وهى ان فرسان العرب القادمين من الشرق بقيادة عقبة بن نافع ، ثم بزعامة موسى بن نصير ، قد جعلوا من فتوحاتهم بالمغرب حملات اضاءت نفوس البربر البدائيين بنور الاسلام ، ثم كان للعلوى مولاى ادريس ابن عبد الله ، المجاهد ضد العباسيين واللاجىء بعد هزيمته فى المشرق الى حمى البربر فى المغرب ، بمحلة « وليلى » ، والممهد هو وابنه لانشاء اجمل وأرسخ حاضرة مغربية على جانبي وادى فاس ، اثر أعمق فى نفوس القبائل البربرية من كل فتح وغزو ، فثبتت قواعد الاسلام ، وتمكنت من نفوسهم .

وواجبنا ونحن نطرق حضارة المغرب الاقصى ابان العصر الوسيط أن نؤكد ما تدين به العشائر المغربية لحضارة الاندلس ، والاصل فيها هو قيام الدولة التى اسسها عبد الرحمن الداخل الاموى فى قرطبة مستوحيا حضارة أسرته فى الشرق الاسلامى ، واذا كان ملوك الطوائف قد انتهوا بالدولة الاموية الباهرة فى الاندلس، الى التفاشل والتفسخ ، مما شجع أسبانيا المسيحية على القيام بحروب الاسترداد من شمالى شبه الجزيرة ، فقد تمكنت دولتا المرابطين والموحدين من ايقاف الزحف القشتالى الارجونى اللاونى الى مدى من الزمان والمكان .. وبذلك تم اخصاب المغرب بحضارة الاندلسيين ، واضحى الحكم الاسلامى ، قبل جلائه نهائيا عن شبه الجزيرة ، كلا لا يتجزأ ، يجمع بين الضفة الشمالية لبحر الزقاق ، وضفته الجنوبية ، اى بين عدوة الاندلس وعدوة المغرب .

ومع ماتدين به الدول الاسلامية فى المغرب والاندلس لحضارة الشرق الاسلامى وهو المنبع والاصل ، فان طبيعة الناس والارض والسماء ، وما تم من الاختلاط الوثيق بين المسلمين ، عربا وبربرا وموالى ، وبين الاسبان، سواء من أسلم منهم أو من التزم بمسيحيته ، قد طبعت المغرب وأدبه بخصائص مميزة ، وشخصية فريدة وسط الفنون الاسلامية ، وهى ظاهرة معروفة فى تنوع الفنون الاسلامية ما بين أواسط آسيا ، وشمالى الهند وبلاد ما وراء النهر ، وهضبة ايران ، ووادى الدجلة والفرات ، وسوريا ومصر ، والمغرب والاندلس .

وسنختار من ذلك التزاوج بين حضارة الاندلس وحضارة المغرب بعض الامثلة التى توصف فى تاريخ الفنون بالفن « الهسبانو ــ موريسكى » ، أى الفن « الاندلسى المغربى » اذا أردنا توخى الدقة التاريخية ، وذلك على امتداد تاريخ الدول التى نشأت بالمغرب الاقصى ، علما بأن الفن المغربى قد واصل طريق اصالته وخصائصه ، حتى بعد انتهاء الحكم الاسلامى بالاندلس، خاضعا لسنة التطوير ارتفاعا أو هبوطا .

وأمثلتنا مختارة من بين أهم منشآت الفن الاسلامى، وهى دور العبادة ، مساجد وجوامع وزوايا ، وما يتبعها من معاهد العلم ، والمدارس لاقامة الطلاب ، ثم عمارة التحصينات فى أسوار المدن وأبوابها ، وما يعرف «بالقصبة» ، وتعنى مجموعة القلعة والحصن والمسجد والقصر ، وعمارة الرباطات ، وأخيرا المنشآت الخاصة والعامة من قصور الخلفاء والسلاطين والامراء ، والبيوت والحمامات العامة والاسواق والقيساريات ، ولنترك جانبا فنون الزخرف فى الصناعات والحرف المختلفة .

ولقد اشرنا فى فصل سابق الى أثر الاندلس فى الموسيقي المغربية « الفنية » تمييزا لها عن الموسيقى الشعبية فى السهول ، المعروفة « بالجريهة » وينشدها الشيوخ والشيخات على نصوص باللغة الدارجة ، وعن موسيقى البربر : « اهيدو » فى جبال الاطلس الوسطى، و « اهواش » فى الاطلس العليا .

ويدين المغرب الاسلامى لمشارقه فى فن الموسيقى ، حين خرج أبو الحسن على بن نافع ، المشهور بزرياب ، عن بغداد قاصدا قرطبة ، منشقا على أستاذه اسحاق الموصلى ، وقد تلقاه الاموى عبد الرحمن الثانى بالترحاب والنعم . ولم يقف دور زرياب عند الموسيقى التى ازدهرت بفضله فى بلاط الامويين بالاندلس ، فكان مستشارا خاصا للخليفة فى شئون الفن والاناقة (٨٢٢ م)

اجتمعت لزرياب ملكات الشعر والتأليف الموسيقى والعلم ، مقتفيا أثر الكندى أستاذه ، وزرياب هو الذى أضاف الى العود وترا خامسا ، وهو صاحب مدرسة فى الغناء يعتبرها الاوربيون أساسا لتدريب الصوت بتمرينات على التصويت « الفوكاليز » وهو واضع قالب التأليف الموسيقى الذى يبدأ بالنشيد فى نوع من التلاوة المنغمة ، ويتبع بالحركات ويختم بالاهازيج .

الا ان الموسيقى فى ممالك غرناطة واشبيلية وبلنسية قد تأثرت بالفن الاسبانى ، ونرجمت عن جو الدعة وهناء المعيشة وسط طبيعة كريمة خلابة ، وكانت اشبيلية مركزا لصناعات آلات العزف : القانون ، والعود والرباب والسلامية والناى والبوق ، وقيل فى المقارنة بين اشبيلية وقرطبة : « اذا مات عالم باشبيلية

حملت كتبه الى قرطبة حتى تباع فيهـا ، وان مات مطرب بقرطبة ، وأريد بيع آلاته ، حملت الى اشبيلية»

والاندلسيون هم مبدعو « الموشـحات » ضربا من الشعر المصوغ للغناء المقطعى ، و « الازجال » التى خرجت عن قواعد الفصـحى الى العـامية الاندلسيـة تختلط فيها العربية بالاسبانية ... والبربرية .

ويعزو عبد الرحمن بن خلدون ابتداع قالب الموشحات الى الشاعر عبادة بن القزاز (القرن الحادى عشر) ، والزجل الى ابن قزمان (القرن الثانى عشر) .

والموسـيقى الاندلسية انتقلت الى المغرب نتيجة للهجرات الكبيرة التى اضطر اليها المسلمون واليهود نتيجة لحركات الاسترداد المسيحية .

فعند سقوط قرطبة (١٢٣٦م) ، هاجر نحو خمسين ألف مسـلم الى تلمسان ، ومع سـقوط اشبيليـة ، تقاسمت غرناطة ، والشمال الافريقى آلاف المهاجرين ،

كما تقاسمت غرناطة وفاس مائتى ألف مهاجر بعد ضياع بلنسية ، وتلقت تطوان سيل المهاجرين المسلمين ، وعلى رأسهم أبو عبد الله من بنى الاحمر ، آخر ملوك المسلمين فى الاندلس .

ولا مكان للزعم بأن المغرب الاقصى أخرج فى العمـارة طرازا يتفوق على ما ابتدعته قرطبـة ، أو القيروان ، وحتى القرن الحادى عشر لم يظهـر به ما هو جـدير بالذكر .

انما عصر المرابطين، أبناء لمتونة من بطون الصنهاجة ، هو العصر الذى استألف الفن الاندلسى (منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر) وأدل مثل على تأثر المغرب بالاندلس نراه فى جامع القرويين ، ومسجد الاندلسيين بفاس ، وما أسرع ما يدرك الزائر تأثر هذين بالمسجد

الجامع فى قرطبة ، وسواء لمسنت فى طراز الاساطين الضخمة وعقودها المفلطحة بدائية المقلد أو شخصية المستألف ، فانك حيال فن قرطبى ، ما فى ذلك من شك

وفى عصر الموحدين (منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر) ــ وكانوا أوثق صلة بالاندلس ــ يتفجر الفن الاندلسى ــ المغربى استلكتيات أو مقرنصات ، وقبابا وعقودا تبدو فى مساجد تازة ومراكش ، وحتى فيما بقى من مسجد « تين ملل » ، حيث دفن ابن تومرت فقيه السوس .

وهذا أبو يعقوب بن عبد المؤمن يقوم على انشاء مسجد اشبيلية الجامع وقد هدمه الاسبان ، وتمسك أهل المدينة بصومعته (منارته أو مأذنته) الكنز الغالى الى اليوم ، تحمل برج النواقيس لكاتدرائية اشبيلية ، اعظم كنائس اسبانيا ، وتعرف فى تاريخ العمارة باسم « الخيرالدا » .

وأكمل أبو يوسف يعقوب المنصور عمل جده فأتم قصبة مراكش ومسجدها الجامع ، وهو الذى اعتزم انشاء جامع من أكبر وأوسع جوامع الاسلام بمدينة الرباط ، وأقام صومعته ، الشقيقة الصغرى «للخيرالدا» بأشبيلية و « الكتبية » بمراكش ، ولم يتح له ان يرتفع بها الى غايتها ، ولا أن يكمل بناء الجامع ، فهو اليوم باحة بارحة فى فضاء الرباط ، رصت فيها الاعمدة ، وتحمل المنارة المنقوصة المبتورة اسم « برج حسان »

وأروع المآذن أو الصوامع فى رأيى المتواضع هى منارة « الكتبية » ، بدأها عبد المؤمن وأتمها أبو يوسف يعقوب المنصور ، كاملة المعانى ، لم يشوهها برج أجراس ولا دوارة رياح (خيرالدا) ، بل تعلوها التفافيح الثلاث (جمع تفاحة) ، وهى كرات من معدن مذهب تلبس فى

صارى المنارة ، بأحجام تتناقص صعدا ، (بأقطار مترين، ومتر ونصف متر) ، قيل بأنها كانت فى الاصل من حلى زوجة المنصور ، جادت بها لتتوج عمل بعلها ، وأيا كان المعدن الذى صنعت منه ، فما برحت تضوى بانعكاس أشعة الشمس عليها ، فاذا مالت هـذه الى المغيب ، بدت فى الافق البعيـد جبـال الاطلس ، تتوج الثلوج قناتها ، تشرف عليها من علو أربعة آلاف متر قمة جبل « توبكال » .

وفن بنى مرين لا يقل فخامة وجمالا ، وقد امتدت دولتهم من الجزائر الى المحيط الاطلسى ، ومن أقصى الجنوب حتى أقصى الشمال فى الاندلس ولا تكاد مدينة فى المغرب تخلو من أثر مرينى عظيم : فى تلمسان وتازة وفاس ومكناسة وسالا ومراكش وسبتة وغيرها .

وحقق المرينيون فنا أندلسـيا مغربيـا رائعا فى « المدارس » أى مساكن طلبة العلم ، وخاصة تلك التى أنشأها السلطان بوعنان .

كان الموحدون بناة معاقل وبيوت عبادة ، أما المرينيون فقد درجوا على الحياة فى مظهـرها الاندلسى ، بيوتهم وقصورهم متعـة للبصر وكذلك مسـاكن النـاس ، والحمامات العامة ، والوكالات ، والبيمارسـتانات ، وأسـوار العيون ، والحصون ، أقيم كل ذلك بفضـل تبرتمبكتو ، بأيدى صناع حذاق فى البناء والزخرف ، قيل بأنهم كانوا يعملون على نغمات الموسيقى الغرناطية!

وسار من جاء بعد المرينيين على الدرب ، وان مالوا الى الاغراق فى الزينة والبرقشة والنقش ، واستعمال « الزليخ » الاخضر الفاقع زخرفا للواجهات والحيطان.

وأجـداث المرينيين والسعديين والعلويين ومدافنهم نماذج جميلة للفن المغربى الاندلسى ، وكذلك الاسـوار

والبوابات والقصبات تأسر الزائر بالوانها الخضراء ، وما اروعه مشهدا اذا وقف المســـافر على مبعدة من فاس او مكناسة ليتأمل هذه الجواهر تحميها الاسوار العتيقة والابراج العابسـة وسط الهضاب ، وترتفع فى سمائها الصوامع اللامعــة ، مربعة الاركان ، ما لم نتعود نحن اهل الشرق الاسلامى على رؤيته فى مآذن مساجدنا ، ولا فى بوابات أسوازنا ، الا فيما ندر .

عبور الحدود فراق

رعى الله اياما اذا سر غيرها فان سروري بعدها متكلف .
ابن سعيد المغربي

لا معنى لعبور حدود البلدان عند ركاب الطيارات : الا أن تعلن المضيفة بمكاننا في الهواء وقت المرور فوق التخوم ، وعرفت في زمان مضى اجتياز الحدود في القطار ، فلم تزد عن دخول بوليس الحدود على الديوان ليبصم جوازات المسافرين ، يتبعه رجل الجمارك ليتناول الاقرار ، ويتفرس في أوجه الجالسين ويتأمل الحقائب المرصوصة فوق الشبكة ، وقد يطلب انزال واحدة منها أو اثنتين ، ولا أذكر ان مفتش الجمرك بقي في ديوان أكثر من بضع دقائق .

أما في عربات النوم فانسانية مفتشي الجمارك ، وشرطة الحدود تأبى في غالب الاحيان ايقاظ الراكب ، وتكتفي الشرطة بختم الجواز ، والجمركشي بتناول الاقرار من مندوب شركة عربات النوم .

لم أعرف اجتياز الحدود بالسيارات الا في أواخر الحرب العالمية الثانية بعد تحرير لبنان من ربقة حكومة فيشي ، فعبرت خط الحدود من لبنان الى فلسطين الانتداب . ونسيت الآن كيف عوملنا ، والغالب انا حملنا

الحقائب حتى صالة التفتيش ، وعتلناها عائدين بها الى التاكسى العام .

ولكنى لم أنس فى تلك الرحلة كيف عوملت بصالة التفتيش عند وصولى بالطائرة الى مطار بيروت ، وكيف احتجز موظف الجمرك ، أو شرطتها ، اوراقا بخط زوجتى تقدم بها مختاراتها المعدة للطبع ، من دائرة معارف ديدرو ، فما أن قرأ الزلمة فى الاوراق اسماء روسو ، وفولتير ، ودالامبير ، حتى شخر ونفر، وتوليت عنه سب الشمس والقمر، ولم يكلفنى الزعيق والغضب سوى ضياع أوتوبيس شركة الطيران ، واضطرارى الى نزول بيروت فى تاكسى خاص ، واحتفاظ زلمة الجمرك بمقدمة أدبية تأليف الحرم المصون ، وقد استرجعنا أوراقها من الفرنسى القائم اذ ذاك على الرقابة فى لبنان الانتداب ، اعادها الينا بمنزله العامر فى بيت مرى على فنجان شاى وبيتى فور .

الجديد فى حكايات العبور حدث أثناء رحلتى الاخيرة بالسيارة ، فقد اجتزت التخوم ست مرات (فرنسا — اسبانيا — المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا — مصر) والمرة تحسب مرتين اذ تمر بشرطة جمارك البلد الذى تغادر وبأندادهم فى البلد الذى تدخل .

ولقد ذكرت فى أول فصول الرحلة طيب المعاملة فى كل هذه الجمارك دون استثناء ، حتى فى جمرك ليبيا حين ظهر ان تأشيرة الدخول التى حصلت عليها من قنصلية ليبيا بباريس « طايحة » ، فسألت الجندى الحارس عن معنى « طايحة » فى هذا الصدد ، لاننى لم أر رأس التأشيرة فى مكان وجثمانها فى مكان آخر . قال : «طايحة » ما بيمكن الدخول ، ضحكت وقلت له ان من حقى على الاقل ان أجتاز البلاد فى حدود ٧٢

ساعة ، ورجوته التوجه الى ضـــــابطه ، وعلى الله التساهيل ، وأتحفت بتأشيرة جديدة بدل « الطايحة » (ولم يمض عليها أكثر من شهر !) وطوابع من الفئات العالية !

ومع الرقة وحسن المعاملة ، فان عبور الحدود فى افريقيا يستغرق وقتا غير قصير ، مرده الحب المتبادل بين البيروقراطية ،وبين الاستمارات والاختام والطوابع

انما أعنى فى هذا الفصل بشعور الرحالة عندما ينتهى من زيارة بلد ويتجه الى البلد المتاخم ، والعادة أن يقضى المسافر ليلته فى اقرب مدينـــة الى الحدود ، وكانت مدينة الجزيرة « الخيثراس » فى الطـرف الجنـوبى لاسبانيا و « وجدة » بالمغرب و «عنابة» (بون) بالجزائر ، و«قابس» بتونس و«طبرق» بليبيا ، وأحمل من هذه المدن جميعا أطيب الذكريات ، مع شعور غامض مبعثه فراق الماضى ، وتوقع المستقبل . نهاية حقبـــة ، وبدء حقبة ، غروب شمس وترقب شمس جديدة ، وتحول من نقد الى نقد ، ومن رنين لغة أو لهجة الى لغة او لهجة أخرى .

أجمـل مدن التوديع كانت « الجزيرة الخضراء » بموضعها على بحر الزقاق وفنـدقها الفخم بحديقته الغناء المطلة على البحر ، أشبه بحدائق القصور الكبيرة والغالب ان الفندق قصر معدل . كنت حزينــــا لوداع الاندلس ، وكان آخر عهدى بها اشبيلية « الخيرالدا » وحى « سانتا كروث » و « برج الذهب » حـارس « الوادى الـكبير » .

« قال الرازى : « مدينة الجزيرة الخضراء من ارشق المدن واطيبها ، وأرفقها بأهلهـا ، واجمعها لخير البر والبحر ... ومرساها أحسن المراسى للجواز وأرضها

ارض زرع وضرع ونتاج ..

« قال ابن سعيد المغربى : لما رجعت اشبيلية الى ابن هود ولى على الجزيرة الخضراء والدى ، فقمنا بها مدة فى عيش يجب ذكره والحنين اليه ، وفيها أقول :

رعى الله أياما اذا سر غيرها
فان سرورى بعدها متكلف

« وعندما يخرج الانسان من بابها ، يجد المياه الجارية والبساتين النضرة ونهرها يعرف بوادى العسل سمى بذلك لحلاوته » . (المغرب فى حلى المغرب)

ذهبت فى الصباح الى ميناء الجزيرة ودخلت أقود السيارة الى موضعها من المعدية الكبيرة ، ثم ارتقيت الى سطح السفينة أتأمل صخرة «جبرولتار» وأتفحصها بالمنظار المقرب ، ولم يكن لى هم أثناء ساعة العبور (٣٠ كيلومترا) من الجزيرة فى أوربا الى سبتة فى افريقيا سوى التطلع الى بوغاز جبل طارق ، وصخرة طارق ، والتفت الى طرف أوربا ثم الى طرف افريقيا دواليك ، بوغاز أراه لاول مرة على تكرار ذكره فى محاضراتى على طلبة الدراسات العليا لعلوم البحار بجامعة الاسكندرية ، وما عرفته من تياراته السطحية والعميقة : واتصالاته البيولوجية الهيدروجرافية بين البحر المتوسط والمحيط الاطلسى .

عندما دخلت المعدية ميناء سبتة الافريقى ، غاب عنى انها مدينة تابعة لاسبانيا ، لاسيما وان جواز السفر وتفتيش الجمرك قد أجريا فى ميناء الجزيرة ، فمررت بجمرك سبتة على ظن انى ادخل بلاد المغرب واذ بنا نغادره ركوبا ، دون ختم الباسبور .. عجيبة ! وقطعت بالسيارة غلوة على الكورنيش أتساءل : وماذا أصنع عند خروجى من المغرب الاقصى ، فلا يجدون على الجواز

تأشيرة دخول ؟ وفكرت بأن أعود ادراجى حين ظهرت شرطة المغــرب على مفرق طريقين ، ووجهت ســيارتنا الى الطريق الداخلى ، المنفصل عن طريق الـكورنيش، فما هي برهة حتى وجدتنا فى الدائرة الجمركية للمملكة المغربية الشريفة .

.. بعدر خطأى ان طنجة كانت مقيمة على وضــعها الدولى عند زيارتى الاولى للمغرب (١٩٥٨) ثم علمت بعد ذلك انها ردت للمغرب وهــذا سر رحالتها العظيم محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ، المعروف بابن بطوطة (طنجة ١٣٠٤ ـ فاس ١٣٧٧ م) وظننت انها آخر ما للمغرب من أرض يحتلها الآخرون .

أما حزنى الاعمق فقد كان يوم خروجى من مكناسة ، المدينة الساحرة فى اتجاه الحدود بين المغرب والجزائر ، على طريق طويل يعبر فتحة « تازه » وهى الممر الهام جدا بين جبال الاطلس وجبــال الريف ، وكانت باب الهزو من الشرق . وصلت الى مدينة « وحدة » الهادئة الناعسة ، فسيحة الطرقات فى شطرها الحديث ضيقة المسالك مزدحمة فى شطرها القديم : « المدينة » أشبه بحى سوق الزلط والميدان بباب الشعرية .

وفى الصباح الباكر اجتزت الحدود راسا الى تلمســان حيث تناولنا الغداء بعد جولة سريعة بالمدينة التاريخية مساجدها وقلعتها وقد شــاركت تلمســان فى تاريخى المغرب والجزائر، كما سأبينه فى حديثنا عن بلاد الجزائر واستأنفنا السير الى وهران فوصلنــا فى المساء ، ولم ترق لنا الاقامة فيها ، فهى مدينة حديثة وميناء كبير، ومركز تجارى ، لا أثر فيها سوى كنيسة اسبانية قائمة على مرتفع شاهدتها من نافذة الفندق .

والثانى شــعور الفراق والانتزاع فى نهاية تجوالى

بالجزائر عندما وصلت الى عنابة لاقضي فيهـا الليـلة السابقة على المجاز الى البـلاد التونسية . لم أقم فى عنابة ذاتها ، وانما ارتقيت الى ضاحية لها تطـل على البحر من ربوة عالية (٩٠٠ م) أنشـأ فيهـا معمارى فرنسى فندقا على نمط ما يعرف فى بلاد القبائل وجبال الاوراس (بالقصـور) وهى بيوت البربر تتجمع على سفوح الجبال كأنها القلاع . اسم المعمارى بويون ، كان من أشهر مهندسى باريس ثم قضى فى السجن سـنوات بتهمة التبديد أو شىء من هذا ، نتيجة حيـاة البـذخ والعظمة التى كان يعيشها فى عاصمة فرنسا .

وعندما هبطت من الضاحية الى عنابة فى صباح اليوم التالى ، يممت شطر « سوق الاحراز » (وللاسم عندى رنين المواقع بين جيوش الحلفـاء والنـازية فى الحرب العالمية الثانية) ، ومنها الى « غار الدماء » (جارديماو) البلدة التونسية على الحدود ، ثم اندفعت تاركا ورائى الوعر والجبال ومسالـكها الحلزونية الى السهل الممتد من غار الدماء الى « جنـدوبة » و « بجا » و « مجاز الباب » (ذكرى المعارك المشار اليها) فمدينة تونس ، ولم أدخلها بل سقت توا الى ضـواحيها على شـاطىء بحرنا .. أبحث عبثا عن فندقى القديم الى جانب معهد سلامبو الاقيانوغرافى ، وضحكت من نفسى وأنا أشبهنى بأهل الـكهف ، أتوقع بعد أربعين سنة أن أرى الناس هم الناس والبيوت هى البيوت ، واذا بضاحيتى سلامبو وقرطاج وغيرهما قد تحولت الى مصايف من أجمـل ما ترى العين فخامة بناء ونظافة طرق ، ومطاعم وفنادق وكازينوهات ، فنزلت بفندق من أفخم فنادق البـلاد التونسـية ، يحمل اسم أبى هانبيـــال ، ومنه بدأت استيحاء ذكرياتى القديمة فى قرية سيدى بو سعيد ،

تحفة في سلامة الذوق والبساطة ، واذا لم تفقد سلامة الذوق في مبانيها على النمط الاندلسي المغربي ، فقد تحولت الى فيللات أنيقة ، لم اعرف منها في شبابي سوى فيللا العلامة الموسيقى الفرنسي البارون ايرلانجيه ، ناشر ترجمات كتب التراث العربي في الموسيقى وكان البارون واحدا من منظمي مؤتمر الموسيقى العربية عام ١٩٣٢ ، زاره حينذاك أمين عام المؤتمر صديقي الاستاذ الدكتور محمود أحمد الحفني ، وتداول معه في الاعداد للمؤتمر الشهير .

ثم حلت ليلة الوداع للقطر التونسي في فندق على البحر بمدينة قابس ، صورة من التنظيم السياحي السديد الذي قامت به الجمهورية الشقيقة بعد تحقيق استقلالها بزعامة المجاهد الكبير الحبيب بورقيبة .

وفي الصباح اجتزت طريقا معبدا وسط مناطق عفرة جفرة الى « مدنين » ومنها الى « بن قردان » فنقطة الحدود .

دخلت ليبيا متجها الى طرابلس وقضيت ليلتين قبل ان أبدأ الرحلة الطويلة جدا فيما بين طرابلس وبنغازي (١٢٠٠ كيلومتر) ، وقد سعيت الى حل لتقسيم الطريق الى مرحلتين ، وكان مواطن ليبي قابلته في صفاقس قد دلني على محلة في نحو منتصف الطريق تسمى سيرتا ، قضينا الليلة بها في نوع من النزل البدائي تعشينا فيه بسمكة صادها لنا صاحب النزل ، أطعمنا منها لحما وشوربة .

وواصلنا السير في الصباح الباكر الى بنغازي ، وكنا قد مررنا في النصف الاول من الطريق الطويل بزليطن (لبتس ماجنا الرومانية) ومسراطة والبويرات ، وبعد سرتا مررنا براس سندرة ، ومرسى العويجة (ذكرى

الحرب) ومرسى بريجا والعجيلة واجدابية (شرحه) ، وتتركز فى خليج سدرة موانى بترول الجمهورية الشقيقة

لم تترك طرابلس فى نفسى أثرا ، فهى خليط من المدينة العصرية والمدينة الليبية ، وليس فيها سوى موقعها الجميل على البحر وروضة لا بأس بها ، أهم منها امتداد الكورنيش بطول المدينة .

وبقيت فى بنغازى اكثر من ليلة لأتمكن من زيارة « طلميثه » ، وبعدها اتجهت الى طبرق وعرجت فى الطريق على موقع مدينة « قيرينة » القديمة ، وقد اخطأت الطريق اليها مرتين من جراء غلطة طفيفة فى الخريطة وجهتنى من ميسا الى حانيا ، قطعت نحو ثلاثين كيلو مترا ريحة جيئة لاكتشف فى حانيا انه حتى رجال الشرطة ، لا فكرة عندهم من وجود آثار قديمة على مقربة منها ، ثم نبهتنى مطوية سياحية محلاة بالصور عن قيرينة ومحررة بالالمانية الى فقرة تقول بأن قيرينة هى قرية « شحات » ، وهنا تكشف لى الطريق اليها متفرعا من البيضا الى الشحات ، ومنها الى قيرينة .

وهذه هى أجمل الآثار القديمة فى ليبيا ، أشرفت عليها فى نهاية الطريق من عل ، ولقيت شابا ليبيا جالسا على جانب الطريق يتأمل المدينة اليونانية ، لم أتوقع ان يعرف الفتى عنها شيئا ــ كما حدث مع شرطة حانيا ــ واذ به شاعر يتغنى بسحر الموقع ، وما تبقى من آثار به تشهد للمدينة بصدق ماتقوله المطوية السياحية « قيرينة سر من أسرار العالم القديم ، بل هبة من الطبيعة ، لوحة لفنان موهوب ، أسطورة لشاعر مبدع ، هى مدينة « الخرائد الثلاث » ربات الجمال والتناسق والهناء ، من اجمل مدن الاغريق القدماء

لا تتفوق عليها سوى أثينا ، وصفها الشاعر بندار بقصيدة يقول فيها : « المدينة المقامة فوق تاج من ذهب » .

وليس فى كلام الاعلام السياحى مغالاة ، فالمدينة والمدرسة الفلسفية المعروفة باسمها : « القيرينيات » ، تشغل ثلاثة أعمدة ونصفا من المجلد السادس للموسوعة البريطانية ، وتحدث عنها هيرودوت فى كتابه الرابع حديثا ممتعا ، تقع على سفح الجبل الاخضر ، أنشأها اغارقة هاجروا من سانتورين بسبب مجاعة ، واقلعوا جنوبا حوالى عام ٦٣٠ ق . م حتى بلغوا الموقع ، حكمتها أسرة ملكية مدى ثمانية أجيال ، كانت فيها مركزا اقتصاديا نافقا ، وانشأت تلك الاسرة فى القرن السادس ق . م ، ميناء « أبوللونيا » (مرسى سوسة حالا) ، ثم « برقة » (المرج حالا) واخيرا مدينة « الاسبريدة » (بنغازى فيما بعد) ..

دخلت قيرينة فى حكم البطالسة عام ٣٢٢ ق . م ، وقد أنشأوا ميناء لمدينة برقة سمى « بطليموسة » (طلميتة حالا) احتفالا بعقد قران بطليموس الثالث على برنيقة أميرة برقة ، وغدت قيرينة واحدة من المدن الخمس (بنتابوليس) : ابوللونيا ، بطليموسة ، توشيرة ، وبرنيقة ، وهى الخمس مدن الغربية التى ترد فى ألقاب قداسة بابا الكرازة المرقسية : بطريرك الاقباط .

وقد وضع بطليموس فيلادلف دستورا لقيرينة ، يحتفظ متحف البلدة بنسخة أصيلة منه ، وكانت قيرينة فى تلك العصور مركز عرفان وثقافة من مراكز العالم القديم ، اشتهرت بمدرستها الطبية ، ونبغ من ابنائها : ايراطوسطين العلامة الجغرافى الكبير بمدرسة

الإسكندرية ، والفلاسفة كارتيادس ، وأريستيب منشىء مدرسة القيرينيات فى الفلسفة (الهيدونية) ، والشاعر كاليماخوس ، وقد عاش فى الاسكندرية وعينه بطليموس فيلادلف مديرا لمكتبة الاسكندرية ، دخلت فى حكم الرومان سنة ٩٦ ق.م ، وعاشت فى رخاء نسبى طوال القرنين : الاول ، والثانى للامبراطورية الرومانية ، ثم بدات فى التدهور من جراء زلزال ، وبدأ اهلها فى الهجرة وانتهت حياتها بالفتح العربى عام ٦٤٢ م .

وفى زيارتى لطلميثة ، رأيت أكثر مناطق الآثار اتساعا فى ليبيا ، كانت ميناء لمدينة برقة (المرج حالا) منذ عام ٢٤٧ ق . م ، وكان لها أسطول تجارى وحربى ، وعلى خلاف قيرينة ، بقيت شهرة مينائها التجارى بعد الفتح العربى ، وكانت متصلة بالاسكندرية بخط ملاحى تبادل عسلها والزبد والجلود والغلال بالغزل والنسيج من الاسكندرية .

ثم كانت مدينة الوداع فى ليبيا هى طبرق ، قضيت الليل فى فندق خارج أسوار المدينة الحصينة (ذكرى تسليم حاميتها الاسترالية النيوزيلندية للألمان فى الحرب العالمية الثانية !) .

هـذه مدينـة وداع الرحلة الطويلة التى بدأت من باريس فى ١٧ مايو وانتهت فى الاسكندرية مع ختام شهر يونية ١٩٧١ ، ولكنها لم تكن ليلة شعور بالفراق والانتزاع ، بل ليلة الفرحة باللقاء القريب بارض الوطن الحبيب ، بعد غياب ثلاثة اشهر : كيف قدرت ياربى فى شبابى أن تمتد غيبتى عن هذا الوطن الى خمس سنوات

وهنـا أفضـل تأجيل حديثى عن العودة الى خاتمة هذه الفصول ولنستأنف الرحلة وقد انتهينا منها عند المغرب الاقصى .

وحان الجواز الى الجزائر ..

بين الماضي والحاضر في بلاد الجزائر

وجدتها « اوريكا » ، كلمة السر فى مأساة الجزائر ، والـكلام على هذه البلاد العزيزة لايمكن أن يغفل ضحايا الحرية من أهلها، غلمانا وشبابا ، نساء ورجالا ، كهولا وشيوخا ، وقد تنسيك العاصمة بازدحامها ونشاطهـا وحركة مينائها الـكبير يطل عليه الـكورنيش بعض ذلك الهم ، فالعواصم بحر متـلاطم الآذى ، والسـائح فيه قنينة مختومة على هواء ، يشيلها الموج ويحطها .

أما فى جبال الاوراس والقبائل ، فى السهل والحزن، فى بجايا أو سطيف أو تيزى أوزو ، فان غمامة من الحزن الدفين تغلف نفسى بغلالتهـا الخفيفة ، اذ أذكر بعض الاحداث الرهيبة من غدر الانسان بالانسان ، وارتفاع الرحمة حتى عن أرق القلوب ، عنـدما انفجر غضب المغلوب على الغالب ، وصاحب الارض على الغاصب ، فكانت ثورة الالفين وسبعمائة يوم .

حزن ماض ، مثـل تعريف « الفعل » اذا صـدقت ذاكرتى (حـدث والزمن جزء منه) ، والفعل المـاضى يجمع بين أمرين ، حدث وزمن فات كما يقول النحويون، وفواته لا يعنى نسيانه .

« اوريكا » ، وجدتها : عبارة منقوشة على الصخر (لأبيدير) ، حاسمة كالسيف ، فى كتاب سنياحى صغير

اصدرته عام ١٩٣٠ سكة حديد باريس ـ ليون ـ مرسيليا ، صفحاته خمسون ، أهدانيه مكتب كوك بباريس قبل سفري الاول الى تونس فى ذلك العام ، ومنها الى الجزائر ، فالعودة الى باريس..

عنوان الكتيب : « الجزائر ـ مراكش ـ تونس» ، يحتوى على مجمل معلومات أساسية للزائر ، ومقدمة لمن يطلب التعمق ، والعبارة التى وجدتها جاءت تحت عنوان : « الحكومة الحالية فى الجزائر » ، وهى :

« الجزائر أرض فرنسية ! ! »

أى والله! هذه والفتاة الفرنسية التى قابلتها بباريس ووصفت نفسها بأنها جزائرية فحسبتها مسلمة من أهل تلك البلاد ، واذ بها تنكر ان هؤلاء جزائريون .. امال يبقوا ايه يا آنستى المانوسة ، النوسة ، كوانوسة ؟..

قالت بلسان فصيح : سوسون ديزاراب : (انهم عرب) .

«الجزائر أرض فرنسية» ، وجواب الآنسة الفرنسية الجزائرية ، وما الى ذلك ، فاتحة شهية على القرف الذى مرانى فى أول زيارة لمدينة الجزائر ، فلم أقو على البقاء فيها سوى يومين ، أو بعض يومين .

والكتاب الصغير لايتركنا للعجب ولا للصيام فى رجب ، قبل أن يثبت زعمه ، فيعقب بعد شولة بأنها ضمت (أقرأ مضفت وابتلعت) عام ١٨٤٨ .

فلنتابع المنطق اللاتينى : اذا كانت الجزائر أرضا فرنسية ، فلماذا لا يصبح المسلم ، من العرب والبربر ، جزائريا مثل الآنسة المولودة بالجزائر من اب وأم فرنسيين ؟

يجيبك الدليل البليغ عن هذا :انما التمييز ـ أو « الخط الفاصل » بين الاثنين ـ هو فى الاحوال

الشخصية ، فالفتاة الجزائرية مواطنة فرنسية ــ حتى لو كانت ايطاليــة أو اسبانية أو مالطيــة أو يهودية ، بحكم ان كل هؤلاء « قبلوا بأن يجرى على اشــخاصهم وأسرهم وممتلكاتهم القــانون المدنى الفرنسى . . . فالجزائر ليست فى قليل أو كثير مستعمرة على طريقــة الدومنيون الانجليزى ، انما هى تؤلف ثلاث مديريات فرنسية ، تحكم أساسا بواسطة وزراء فرنسا ، وتشرع قوانينها فى البرلمان الفرنسى ، وهى تنتخب ، أو فى الاقل : ينتخب المواطنون الفرنسيون بالجزائر ممثلــين لهم فى مجلس النواب والشــيوخ بباريس ، وتحميهــا وحدات من الجيــش والبحــرية الفرنسية ، الجزائر امتداد لفرنسا » .

ويظهر ان المسألة لم تمض بهذا اليسر فى «الحلقوم» فقد تعدل هذا النظام بشلوط مفيد ، عندما تعدل نظام حكم الجزائر سنة ١٨٩٨ وما بعدها الى لامركزية ادارية بانشاء وظيفة « حاكم عام » للجزائر يقوم بأعباء الادارة نيابة عن الوزارة الفرنسية .

هــذا ما جعل من حرب التحرير التى بدأت فى ليلة ٣١ اكتوبر ــ أول نوفمبر ١٩٥٤ ، مأساة شعب بأكمله ، لم يقف ضد نصف مليون جندى فحسب ، بل ضــد نحو مليون من الاســياد المستعمرين أيا كان أصــلهم ومنبتهم ، وقد وصموا انفسهم بنعت قبيح : فهم ذوو « الاقدام السوداء » ، والاحق أن يكون الســواد صفة لقلوبهم قبل أقدامهم .

فحين بدأ الفرنسى العظيم الجنرال ديجول مشروعه لتحرير الجزائر بوسيلة ديموقراطية (الاستفتــاء) ، ثارت «القلوب السوداء» ، وتألبعليه القواد الفرنسيون فى الجزائر ، وناصرتهم حركة محلية امتدت الى فرنسا

ذاتها باسم « تنظيم الجيش السرى (أوه ـ آه ـ اس) تهاجم بالديناميت حتى بيوت وزراء ديجول واعوانه ، وقام منهم ضابط مهندس على راس مؤامرة لاغتيال الجنرال ، كادت تنجح حينما أطلق المتآمرون على سيارته القنابل والرصاص ، وهو عائد الى جانب زوجته من المطار الى قصر الاليزيه ، وأعدم رأس المؤامرة رميا بالرصاص .

وان النفس لتتقزز من ذكر الجرائم الرهيبة التى اقترفها الجيش المحتل و « الاقدام السوداء » مدى نيف وسبع سنين ، واليك ما سجله الكاتب الجزائرى مولود فرعون فى آخر « يوميات معركة الجزائر » ترجمة الاخ عبد العاطى جلال .

« ١٤ مارس ١٩٦٢ : الذعر يغشى الجزائر ، والناس يسيرون على كل حال ، من يسعى فى طلب العيش ، او يؤدى على الاقل مطالبه ، يخرجون دون أن يعرفوا ما اذا كانوا يرجعون أو يسقطون صرعى على قارعة الطريق ، كلنا هكذا : الشجعان والجبناء ، لدرجة أن يسأل الانسان نفسه عما اذا كانت الخصلتان : الشجاعة والجبن ، حقيقة موجودة ، أو هما وهم بلا حقيقة حقة ، كلا ثم كلا ، لم يعد المرء يميز ، وقد أصبحنا بلا مشاعر ولا ادراك ، بفعل حياة الخوف التى نحياها »

وفى اليوم التالى لتاريخ هذه المذكرة ، فى ١٥ مارس ، وفى حى البيار فوق مرتفعات مدينة الجزائر ، اطلق أفراد المنظمة السرية اثنتى عشرة رصاصة على مولود فرعون ، أردته قتيلا .

***

سألنا شيخا جليلا فى شارع ديدوش مراد عن حانوت يبيع الخرائط ، فسار معنا غلوة يحدثنا بلغة فرنسية

انيقة عن ذكرياته فى فرقة الاصباحية مع الجيش الفرنسى فى سنوات الحرب الكبرى بالميدان الغربى .

قلت لرفيقة السفر : مثل هذا الرجل قبل التحرير، كان يزهو بأوسمة الجمهورية الفرنسية على صدره ، فلم تحم أنداده ، ولا أولادهم وأسرهم أوسمة ، ولا مؤازرتهم لفرنسا فى محنتها الكبرى تنافح عن ارضها ضد جحفل غليوم الثانى ، ألم يرد الشاعر رابندرانات طاجور أوسمته ولقب سير الى بريطانيا بعد مذبحة امرتسار ؟

***

معرض لمنتجات فنية صنعها الصبية ، وهم واضحو المواهب ، مثل الاطفال والصبية فى كل مكان . لفت نظرى فقر الخط العربى فى لوحات العرض ، وضعف كبير فى قواعد النحو ، وبيت من الشعر ــ فريد معرضه ــ لا أذكره الآن ، ربما كان « وانما الامم الاخلاق .. » أو شيئا من هذا القبيل ، يعوزه المجبراتى لكسر بسيط فيه .

سألت الشاب المشرف ان كان يلاحظ امرا فى ذلك البيت ، أجابنى : « هذا جاء الينا من الادارة الثقافية» صححت له البيت ، ورجوته أن ينفذ الترميم .. ولعله ينتظر وصول « المقايسة » من الوزارة « لنهو » اللازم الى يومنا هذا .

تألمت ، لعلمى بما أمام هذه البلاد من جهد ومكابدة قبل أن يستعيد أهلها التحكم فى لغتهم الشريفة ، دون أن يفقدوا اجادتهم الملحوظة للغة الفرنسية ، مثلما خسرت أجيال من الشباب عندنا ما كسبته اجيالنا من حرص البخيل على لغتنا ، مع اتقان لغة أوربية واحدة على الاقل الى جانبها .

ولست أشك فى انهم بالغون ما يطمحون اليه من تعريب حياتهم الثقافية .. فنحن لا ننسى ان كرامة من كرامات القرآن هى التى حفظت شعب الجزائر من الانحلال توطئة للزوال ، لان رفضهم القانون المدنى الفرنسي ، ذلك الرفض الذى حال بينهم وبين «شرف» المواطنة الفرنسية ، ونزل بهم الى درك الاستعباد ، هو الذى حفظ عليهم قوميتهم .

***

قضيت الليل بمدينة « مليانة » بمنطقة جبل زكور ، فى طريقى من وهران الى الجزائر . يجب أن تقوم لهذا المكان قداسة فى التاريخ القومى للبلاد. هنا آخر معقل للحرية ، وقف به الامير عبد القادر الجزائرى آخر وقفة لمقاومة الفرنسيين الغزاة . لم أقف عمدا بمليانه ، بل ولم أكن أعرف مكانتها من تاريخ القضاء على حرية الجزائر ، انما الطريق الذى اخترته لم يكن المسلك المطروق ، بل كان الطريق المحاذى لشاطىء البحر جبالا بعد جبال ، وتلالا تلو تلال ، يفرض سلوك هذا الطريق اجتياز واحدها بعد الآخر صعدا حلزونيا نذهب فيه الى ارتفاع مئات الامتار ، ثم ما نلبث حتى ننحدر حلزونيا الى مقربة من سطح البحر ، لنكابد تسلقا جديدا فهبوطا ، قد تسير غلوة قصيرة فوق هضبة ، لتعود الى اللف والدوران صعودا ونزولا حتى تتعب قدماك فوق البدالات ، ويداك على عجلة القيادة تديرها يمنة ويسرة ، مع الحرص الشديد فى المنحنيات الحادة — وما أكثرها فى الجبال ويشبهونها بدبوس الشعر — وأكثر معبدى طرق الجبال لا حيلة لهم فى توسيع هذه المسالك الى أكثر مما يمكن — « يدوب » — سيارتين من المرور متقابلتين فى اتجاهين .

ما أقل ما التقينا به من سيارات خاصة فى هذا الطريق ، كلها ، فيما عدا النادر ، كاميونات صغيرة تحمل تجارة أو حجارة ، عبر مجرى مياه ضحله أو جافة ، تعبرها قناطر ضيقة لا تتسع لغير سيارة واحدة ، وواحدة من هذه القناطر كانت مجرد الواح خشبية متراصة.. دون حواجز.. وماء المجرى ينساب من تحتها ، ويعبر فوق منتصفها فيما يشبه حركة الماء فوق السلسبيل ، تصور أن تعبر فوق قنطرة دون حواجز ، تتسع لسيارة واحدة ، وعليك أن تخوض بها ماء السلسبيل .

وأخطر من ذلك أن ترقى الى مرتفع شاهق : لتسوق على شفا جرف هار .. كلا ، ليست هذه صيغة شعرية ، فأمامك لوحات مكتوبة تحذرك من السير على حافة الطريق ، فتتعرض لخطر انهياره والتردى فى الهوة السحيقة ، لتستقر غالبا .. فوق البلاج .

وعلى الرغم من كل هذه الصعوبات ، لم تكن المخاطرة ثمنا مرتفعا لروعة المناظر وسط الارض الخضراء الى جانب بحرنا الابيض اسما ، واللازوردى أو الفيروزى ، ترصعه الشمس بحبب الماس .

كل ما كنت أخشاه من المغامرة اللذيذة ، أن لايضيق بنا النهار ذرعا فيتركنا للغسق ودجنة الليل فى تلك المعابر الوعرة المخيفة .

تناولنا الغداء عند بلدة تينس فى فندق فخم يطل على البحر ، مزدحم بأغلبية من السياح الالمان .. هؤلاء الشماليون يعشقون الجنوب عشقا ، ويذوبون حبا .. فى رمال البيداء .

لم يكن ممكنا أن نبلغ الجزائر قبل الليل ، حتى لو حرمنا أنفسنا من الغداء ، لا مناص اذن من الالتجاء

الى أول قرية أو نجع يأوينا ، وهدانا السبيل بعد لأى الى مليانة ، دخلناها بليل ، حيث لقينا اللقمة البسيطة والمنامة والدكان ــ جراج .

هكذا رتب القدر أن اقضي ليلتى فى مليــانة ، آخر معقل من معاقل الجهاد فى سبيل الحرية ، وقف فيه البطل الخالد ، الامير عبد القادر الجزائرى .

***

أقرب مكان الى قلبى فى عاصــمة الجزائر ــ على ما فيها من جمال وأناقة وترف ونعيم ــ هو « قصبتها » الفقيرة ، ضيقة المسالك الطالعة النازلة ، وسط بيوت يشد بعضها بعضا ، وتكاد تتســاند عبر الطريق من أعلاه .. كانت « القصبــة » حصيــلة رحلتى الاولى (المبتورة) ، عدت اليها فى رحلتى الثانية وقد حلت فى ربوعها الحرية ، والحرية أغلى وأنظف وأجمــل وأكمل. ما يتحلى به الانسان على الفقر وشظف العيش وضيق المثوى .

وزرتها فى رحلتى الثــالثة وهى التى تفرغت فيهــا لزيارة سياحية ، اخترت السكنى فى مواجهة أحب بحار العالم لدى رجل كانت مهنته دراسة علمية للأقيانوس (الاقيانوغرافيا) . لم أر فى مدينة من أرشــق مدن العالم موقعا ، ما يسترعي النظر كأثر ذى قيمة كبيرة ، وكان كل أثر فى هــذا البلد يفرض عليك العودة الى مأساة الاستعمار الطويل ، فكان مسجد من المســاجد الذى أطلت زيارته قد تحول بعد الغزو الى كنيسة ، وأعاده أبطال التحرير الى ماضى انواره ، ما أغرب أن يصنع فرنسيو القرن التاسع عشر ــ أبناء ثلاث ثورات! ما صنع الاسبان المتعصبون بأماكن العبــادة فى حرب الاسترداد قبل ختام القرن الخامس عشر ، وما بعده

.. وما صنع محمد الفاتح بكنيسة أياصوفيا عقب استيلائه على القسطنطينية ! لم يكن المستعمر فقيرا ، ولا كان انصرافه عن البناء تراخيا ، وانما كان التعصب واذلال انسانية أهل البلاد هو الدافع الى العمل الخسيس .

والادهى أن تأتي حكومة الجمهورية الثالثة ، العلمانية ، فعلا بغيضا ادا في الايالة التونسية ، وفي الربع الثاني من هذا القرن العشرين ، وليس لها في تونس أى حق الا اذا كان بسط الحماية بالعافية والزور والجشع الاستعماري يعطى حقا ، ولا انقل هنا كلاما سمعته ، أو تواتر اخبار ، فقد تصادف أن كنت أقيم في تونس ، وشهدت بعيني رأسي واقع المؤتمر « الافخارستى » ، الذي نصب هناك فرضا على ذلك البلد الاسلامي ، احياء لذكرى مستعمر صليبي قديم ، لويس التاسع ، الملك القديس ، المغلوب على امره في بيت لقمان بالمنصورة ، والمتوفى بالطاعون في موقع قرطاجة بضواحي تونس .

***

قمت من قسنطينة لاقضي يوما في آثار « تمجاد » المدينة الرومانية شبه الكاملة ، على بعد ١٥٠ كيلومترا ، انشئت عام ١٠٠ م ، في حكم الامبراطور تراجان على اقدام جبال الاوراس وارتفاع الف متر ، وفاتني أن أواصل السفر لاقضي ليلة في واحة بسكرة (على بعد ٤٢٥ كيلومترا من قسنطينة) فجمالها جدير بزيارة ، وآسف على هذا التقصير ، وعذرى انى ، وأنا عارف بأن عقبة بن نافع الفهري ـ فاتح المغرب ومؤسس القيروان ـ توفى في بسكرة لم اكن أعلم ان له بقرب الواحة مقاما ومزارا ، عرفت ذلك بعد عودتي الى مصر

وانا اطالع ما كتبه صديقنا الاستاذ جاك بيرك ، المولود فى الجزائر ، حين عاد الى ربوعها سنة ١٩٦٥ ، قال :

« هل القى الاصالة التى عهدت فى مقام سيدي عقبة ؟ وا أسفاه ، كان هناك دليل تافه يسرد بفرنسية المواخير تاريخ الفاتح العربى مضمخا بالصلصة الاستعمارية ، البناء يتداعى ، والاكلمة تدخن عفارا ، والبنديرة المهلهلة مرخية ، زميلى فى الرحلة يبدى غضبه ، وشعورنا بالزيف يمسك بخناقنا ، لقد تحول البطل العربى الى صورة كرت بوستالية ، اجتذابا وتسلية للسائحين ، صورة المفارقة لحداثة العصر .

« يا اخوانى الجزائريين ، ما اكثر ما عليكم عمله ، او بالأولى اعادته الى أصله ، او فتح الطريق امامه ليكون . . . . »

وحتى جهلى بوجود قبر لعقبة فى بسكرة لايكفينى عذرا عن تخلفى لزيارة أجمل واحات الجزائر ، وقد قرأت عنها فى شبابى (اندريه جيد) ، والتى أقام فيها ردحا الموسيقى المجرى العظيم بيلابارطوك ، بدرس موسيقى أهل الواحة ، وقد وضع فيها بحثا قيما اهدتنى الحكومة المجرية صورة فوتوغرافية لصفحاته .

***

بالجزائر ثلاث مدن يجب الا تفوت الزائر مشاهدتها، بعد العاصمة ، أولها تلمسان ، وآخرها قسنطينة وواسطة العقد بينهما بجاية .

واقليم بأكمله يتعين على السائح ان يرتاده ولو عبورا : منطقة القبائل ، وجبال الاوراس ، فمن هنا انطلقت الشرارة الاولى عام ١٩٥٤ فى ثورة التحرير .

وقضيت لحظات فى بجاية اتناول الفداء ، واذا بصاحب النزل يستأذن فى أن يتحدث الينا ضيف من

ضيوفه ، وهو شخصية من شخصيات حركة التحرير ، تبادلنا الحديث من أول وهلة وكأننا أصدقاء ، بل اقرباء . أكرمني وحرص على أن يرافقني بعض الطريق ، ويدعوني الى مكانين على شاطىء البحر ، نشرف منهما على « الكورنيش الذهبي » ، لاحظت ان القوم يستقبلون مضيفي باحترام ، أعجبتني فيه اصالته وصراحته . . . وتواضعه ، يتكلم الفرنسية كأهلها .. دون التحرج من القول بأنه لم يتخرج من جامعة ، ولا حتى من ليسيه ، على حد قوله .

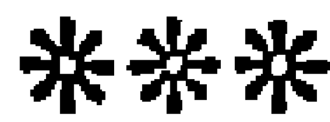
يمثل عندي الامل في المستقبل ، وقد كان يجاهد شابا في خمسينات القرن ، وهو اليوم رجل أنضجته التجربة العنيفة . . . هؤلاء هم أساتذة الجيل ، وليس ضروريا أن يحملوا درجات جامعية ليبثوا في شباب الجزائر روحا جديدا . ما أجمل أن يحقق الآباء في تعليم أبنائهم ، وابلاغهم أقصى درجات التخصص مع خلفية عميقة من الثقافة ، ما لم يتح أن يحققوه لانفسهم ، بهذا تنشأ الاجيال التي تحرك التاريخ . . .

رافقني زعيم بجاية بعض الطريق نحو سطيف ... والغروب دان ، وعلى قطع الطريق الى هذه المدينة قبل أن يجن الليل ، فهو طريق جبلي وعر ، وفي سفري من الجزائر الى قسنطينة ، كررت اقتحام الطرق الحلزونية ، التي عانيت فيما بين وهران والجزائر ، علام التوبة ؟ الم يقولوا في المثل السائر : « يموت الزمار .. الخ ؟ »

بلغت سطيف في حلكة الليل ، واتخذت الطريق الطوالي الى قسنطينة (حوالي ٢٠٠ كيلومترا) لا الوى على غير سيارة أتبعها ، مع الامل أن لا تخلو بي في الطريق لتقف في محلة أو قرية . فزت بها ، وكان سيرها منتظما (١٠٠ كيلومتر ــ ساعة) ، فيما عدا ما

يقتضيه الحذر عند ظهور ضـوء سـيارات فى الاتجاه المضاد ، وهذا وحده من اخطار سواقة الليل الحالك ، تابعت السيارة . . كظلها ، أو على خط نورها الاحمر، حتى بلغنا مداخل المدينة ، ثم وسـطها ، واستمرت السيارة القائدة حتى دلفت الى حى سكنى متطرف ، ووقفت أمام دار خاصة ، فأسرعت الى صاحبها اعتذر له عن مطاردتى المشبوهة ، وأشكره على ما أداه لى من خدمة دون علمه ، ولولاه لما شعرت باطمئنان فى طريق الليل وأنا غريب الديار .

كان الرجـل كريما ، كعهدى بالجزائريين ، فأنزل اصحابه أو أهله ، ثم سألنى عن وجهتى فأخبرته باسم الفندق ، وقادنى اليه خلال معارج المدينـة ، وكأنها سكك أبو زيد .



قسنطينة عاصمة شرقى الجزائر ، موقعها الطبيعى حصين بحكم احتضان نهر (وادى) الرمل هضبة الموقع.

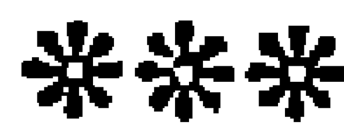
كانت تسمى « كيرتا » أو سيرتا فى القديم ، تأثرت بحضارة قرطاجة ، وكانت عاصـمة « نوميديا » حتى تغلب الرومان على أميرها جوجورتا ، ثم خضـعت لبيزنطة . أعاد الامبراطور بنـاءها وسـميت باسـمه « قسطنطينة » ، ولـكن أهلها ينطقونها « قسنطينة » بسكون القاف تلصق بها السين المفتوحة .

وفى العصر الاسلامى تنازعتها الامارات الاسلامية ، والخلفاء الفاطميون، فبنو زيرى ، فالموحدون ، وانتهت الى حكم الحفصيين فى افريقية (أى تونس) . وفى العصر العثمانى كان يحكمها باى ، نائبا عن داى الجزائر. حاصرها الجيش الفرنسى مرتين ، قبل ان يقتحمها أمام مقاومة عنيفة جدا يقودها أحمد باى ، وبرغم سقوطها

عام ١٨٣٧ ، فقد واصل احمد باى جهاده علي راس القبائل فى جبال الاوراس ، وصمدوا حتى سنة ١٨٤٨ .
وقصر احمد باى هذا من أجمل قصور المغرب ، وبالمدينة الجامع الكبير ، من عصر الحفصيين ، وجامع سيدى الكتانى ، أو مسجد صلاح باى ، وسيدى الاخضر كلاهما من العصر العثمانى .

وبالمدينة أعمال انشائية فوق أغوار وادى الرمل : كوبرى سيدى راشد ، ثم الكوبرى المعلق الهائل المسمى بسيدي م ، سيد ، طوله ١٦٨ مترا معلق على ارتفاع ١٧٥ مترا ، أنشىء عام ١٩١٢ .

ولاحظت ان خمار المرأة وازارها فى قسنطين وربوعها ـ على خلاف المناطق الاخرى ـ تتميزان باللون الاسود.



لن نفهم آثار تلمسان ، ولا يمكن القاء بعض الضوء على بلاد الجزائر الا أن نلم بتاريخ المغربين : الاوسط ، والادنى ، اتماما لما بدأناه من تاريخ المغرب الاقصى .

والآثار الاسلامية الهامة بالجزائر نجدها فى طرفى البلاد الشرقى بقسنطينة وصقعها ، والغربى بتلمسان .

وفضلت أن يجىء هنا مكان هـذا الالمام ، وأنا على وشك الانتقال الى البلاد التونسية ، والحديث عن تاريخ الجزائر لايوضحه الا اتصاله بتاريخ المغرب الاقصى من الغرب ، وبتاريخ افريقية (تونس) من الشرق ، ثم ببعض تاريخ البحرية العثمانية وكان بطلها خير الدين بارباروسا ، فهو الذى اتخذ من جونة الجزائر عرينـا لاسطول المغامرين المسلمين ضد حركة التجارة المسيحية فى البحر الابيض ، وهو الذى قدم المغرب الاوسط ، والمغرب الادنى هدية لآل عثمان فى استامبول .

خلفية تاريخية لا بد منها

« ... ثم كانت ولاية مروان بن الحكم ثم ولي عبد الملك بن مروان ، فاستقام له الناس . واستعمل اخاه عبد العزيز على مصر ، فولى افريقية زهير بن قيس البلوى .. وولى بعده حسان بن النعمان الغساني فغزا ملكة البربر « الكاهنة » فهزمته . فاتى قصورا فى حيز برقة ، وعاد الى غزو « الكاهنة » فقتلها وسبى سبيا من البربر ، وبعث به الى عبد العزيز ، فكان ابو محجز الشاعر يقول : لقد حضرنا عند عبد العزيز سبيا من البربر ما رايت وجوها احسن من وجوههم . »

« فتوح البلدان للامام ابي الحسن البلاذري »

تملكت « الكاهنة » ، من قبيلة الجراوة ، على البربر ، ووصفت بالداهية ولا يعرف لها أسم بعينه ، طارت شهرتها ما بين افريقية وموريتانيا ، هبطت جبال الاوراس لنزال عدوها حسان بن النعمان، وكانت ساعة متأخرة من النهار فلم تقبل على المعركة ، وقضت الليلة فوق سرجها. وفى الصباح وقف فرسان البربر فى نصف دائرة تتقدمهم صفوف الهجانة ، وبين اقدام الجمال رماة النبال ، وخلف الجيش احتشدت النساء ، وعتاد الحرب .

جمحت جياد حسان من رائحة الجمال ، وانهزم القائد العربى وطورد مرتدا حتى قابس ، وتحصن فى موضع يعرف بقصور حسان . ودارت رحى المعركة فوقع عدد من الاسرى بين يدى « الكاهنة » واذا بها تعيدهم الى صفوف أعدائها ، الا فتى مليحا يدعى خالد بن يزيد من بطون قيس ، راق فى عينى ملكة البربر فتغنت بملاحته وسمرته وقالت له سأرضعك لتصبح ابنا للكاهنة وأخا لأولادى ، وأجريت مراسم التبنى تبعا لتقاليد البربر (راجع تبنى أمنا الغولة فى حواديتنا) .

كانت الكاهنة تستقبل صباح معركتها الاخيرة بفال سوء ، قائلة : « كلما واجهت المشرق رف منى الطرف نذيرا ، لقد جاء العرب لامتلاك بلادنا » ، وأمرت بأبنائها وبالفتى القيسى أن يسلموا الى حسان بن النعمان .

واحتدم القتال بين الجيشين عنيفا داميا ، عقد النصر فيه للمسلمين ولم تطلب الكاهنة النجاة قائلة : انى اعرف كيف أموت ملكة ، ووقعت فى الاسر ، فقطع رأسها وألقى بها فى بئر عرف ببئر الكاهنة .

تلك صورة ، أو أسطورة من أساطير البربر حول الفتوحات الاسلامية الاولى بالشمال الافريقى ، ولم يكن يعرف فى ذلك الزمان بأقسامه التى أقامتها الدول الاسلامية فيما بعد ، بل كان على حاله منذ فجر التاريخ . أقام فيه الفينيقيون بعض الثغور ، وتبعهم القرطاجيون فالرومان فالوندال فالبيزنطيون ، وأطلق اليونان على « افريقية » اسم « نوميديا » بمعنى بلاد « القوم الرحل » ، وهم جنس لم تتحقق أصوله الاتنوغرافية على وجه الدقة ، والغالب انه جنس ليبى يصفه علم الاجناس بأنه الجنس « الميدتيرانى » الجنوبي

فى مواجهة الجنس الميدتيرانى الشمالى .. وكلاهما يمثلان السكان القدامى حول حوض البحر المتوسط .

قامت فى العصور الوسطى ثلاث دول بالمغرب لكل منها حدود طبيعية :

المغرب الاقصى : من شواطىء المحيط الاطلسى حتى وادى ملويا ، وحاضرته فاس .

المغرب الاوسط : ويشتمل على ارض وهران ، وجونة الجزائر ، وعاصمته تلمسان .

المغرب الادنى : وهو « افريقية » التاريخ الاسلامى (ونوميديا العالم القديم) ويضم ارض قسنطينة وتونس وبعض ليبيا ، وعاصمته القيروان .

قام بموقع مدينة الجزائر فى العصر الرومانى بلد اسمه « اكوزيوم » وفى القرن العاشر (٩٣٥ م) ، انشأ الامير بلكين (بولجين) بن زيرى فى ذلك الموضع مدينة اطلق عليها اسم « الجزائر » نسبة الى مجموعة جزر صغيرة فى مداخل الجونة الكبيرة .

وقد دخلت هذه المدينة فى حكم بنى حماد ، فالموحدين ، فعبد الواد ، فدولة بنى زيادة التى تحكم فى تلمسان .

أما بلاد الجزائر كما تعرف اليوم فلم تحدد تخومها الا عام ١٦١٤ م .

فلنطرق الآن تاريخ المغرب الاوسط والادنى بدءا من دولة بنى عبد الواد فى تلمسان (القرون ١٣ الى ١٦ م) ودولة الحفصيين فى افريقية .

بنو عبد الواد من قبيلة زناتة ، استقروا فيها بين وادى ملويا ، غربا والزاب والاوراس شرقا ، فى مطالع القرن الثالث عشر .

شارك بنو عبد الواد قبيلة المغاورة (بطن من زناته) فى محاربة العرب من بنى هلال وبنى سليم ، وهى القبائل العربية المقيمة بمصر ، والتى أطلقها الفاطميون على المغرب لمحاربة فرقة الاباضية فى الزاب ، ولتخريب المغرب .

وأقام الموحدون سيطرتهم على بنى عبد الواد واستعملوهم لمقاومة بنى مرين ، الاسرة الصاعدة التى تهدد دولة الموحدين فى المغرب الاقصى ، وكوفىء بنو عبد الواد بأن اقطعوا المغرب الاوسط كما ذكرنا .

ويغموراسن بن زيان هو مؤسس الاسرة الحاكمة فى تلمسان ، كان أميا لاينطق بغير لسانه البربرى ، ولا شأن للأمية وما اليها أن يكون الرجل عبقرية حربية ، امضى سنوات حكمه فى محاربة العرب الهلالية ، وامتد جهاده الى الإشتباك مع الدولة القوية شرقيه (بنى حفص فى افريقية) ، والموحدين وبنى مرين فى المغرب الاقصى .

هاجمه أبو زكريا الحفصى ، واضطره الى الاحتماء بالجبال ، ولكنه عاد الى عاصمته تلمسان بعد عودة أبى زكريا الى افريقية ، باتفاق على أن يدفع الجزية الى الحفصى .

كان المرينيون يركزون حروبهم على قهر الموحدين وازالة ملكهم ، فهم بحاجة الى معونة يغمراسن ، الحريص على امارته بتلمسان ، فى مواجهة بنى مرين فى فاس .

لم يدم السلام طويلا بين بنى عبد الواد وبنى مرين ، وقامت الحرب بينهما سجالا على طريق تازة ، الممر الخطير مابين فاس والمغرب الاوسط ، وهو الممر الفاصل بين جبال الريف شمالا ، وجبال الاطلس جنوبا .

ترك يغمراسن بن زيان امارة تلمسان قوية الجانب ،

تتمتع برخاء اقتصادى مرده انها ملتقى تجارة البحر الابيض المتوسط ، كما اشتهرت تلمسان بمدارسها واقبال أهل العلم والادب عليها ، وخاصة من الاندلس، وكان على راسهم أبو بكر محمد بن الخطيب ، الذي أقامه بغمراس على رسائله .

بيد ان هذه الدولة الصغيرة المحصورة بين الحفصيين فى افريقية والمرينيين فى المغرب الاقصى لا تنفك فى صراع للحفاظ على استقلالها ، حتى انتهت دولة عبد الواد عام ١٥٥٤ م .

فمن هم الحفصيون ، وما اصلهم ؟

فى مطالع القرن الثالث عشر أتم الموحدون الاستيلاء على ملك المرابطين فى المغرب كله ، ما عدا الجنوب التونسى حيث صمد المرابط ابن غانية الى ان تغلب عليه سلطان الموحدين الناصر بن المنصور ، فعين أبا محمد ابن أبى حفص حاكما على الاقليم .

وحينما حاقت الهزيمة بالموحدين فى الاندلس ، مما اضعف شوكتهم ، استقل أبناء حفص بأمورهم فى افريقية ، ويعزو ابن خلدون ذلك الى ان أبا زكريا الحفصى تخلص من سيطرة الموحدين عندما بلغه انهم سمحوا للمصلين باستعمال لغة البربر فى أداء فريضتهم، وغير ذلك مما اعتبره الحفصى مخالفة خطيرة ، بل مروقا

امتد حكم بنى حفص حتى اقليم بجايا بعد زوال ملك الموحدين فالجزائر ، ثم احتلوا تلمسان وفرضوا الجزية على يغموراسن (كما سبق ذكره) بل بسطوا حكمهم على سبته وطنجة ، واعترف بهم سكان بلنسية وشرقى الاندلس ، فكان أبو زكريا الحفصى أقوى حكام الشمال الافريقى ، وقد راسل الملوك والامراء فى أوربا ، وعقد ميثاقا تجاريا مع امبراطور الجرمان فريدريك الثانى ،

آل هوهنشتاوفن ، بطل الحملة الصليبية السادسة ، الذى عقد معاهـدة صلح مع الملك الـكامل الايوبى ، سلطان مصر ، دامت نحو احد عشر عاما .

توفى أبو زكريا فى عنابة ، وتفككت دولة الحفصيين فى القرن الخامس عشر ،خرجت عنها قسنطينة وبجايا ، ولم تبق لها فى القرن السادس عشر غير تونس ، وكان العرب من قبائل القوب وبنى سليم قـد استولوا على بقية البلاد ، مما اضطر معه الحفصيون الى الاستنجاد بالاتراك العثمانيين الحاكمين فى الجزائر ، وكان ذلك ايذانا بدخول تونس فى حكم آل عثمان .

وقبـل أن نفصـل استيلاء العثمانيين على الجزائر يجدر بنا أن نشير الى حملة الصليبى لويس التاسع على تونس ، ونزول جيشه بضاحيتها « قرطاجة » ، فقد حدثت ودولة بنى حفص فى عزها ، وعاصمتهم تونس قد احتلت مكانة القيروان فى العلوم والآداب والتـجارة والصناعة .

ومن الطريف ان يرجع القارىء الى الجزء الثانى من تاريخ ابن خلدون لمراجعة هذه الحادثة التى علق عليها مؤرخ فرنسي مسيحى قائلا : كانت حملة القديس لويس تشهد بجهالة عجيبة لشئون افريقية ، فمع ان الجيش الصليبى المتحصن فى قرطاجة لم يتمكن من دخول معركة واحدة مع المسلمين فقـد زعم املاء ارادته عليهم حين اشترط لعقد الصلح بينه وبين الحفصيين . . أن يتنصر خليفتهم المسلم .

وعلق عبد الرحمن بن خلدون على هـذا الشرط الرائع ! بأن يد الله نزلت على رأس « الريدفرانس » لويس بن لويس ، فنفق بالطـاعون فى الموضـع الذى

انزل به جيشه ، وأجلى الحفصى هـذا الجيش مقابل دنانير معدودة .

لقد تغير حال المغرب الاوسط وافريقية فى خلال القرن السادس عشر : احتل الاسبان شواطىء وهران ، فى الوقت الذى كانت شمس بنى عبـد الواد تنحدر الى الغروب ، والحفصيون يعانون سكرات الموت فى افريقية

وأهم حـادث فى ذلك القرن كان ظهور الاتراك على الضفاف الجنوبية للبحر المتوسط ، واستيلاؤهم على مصر وبلاد المغرب الادنى والاوسط .

وكان للعثمانيين ــ دولة الخلافة ــ فضل لا ينكر على بلاد المغرب الاوسط ، وهو مدافعة الاسبان الطامعين فى احتلال الثغور الاسلامية .

واذا كان سقوط مصر المملوكية بين براثن العثمانيين غزوا وقهرا واذلالا ، فقد كان اسـتيلاؤهم على تونس والجزائر هدية لطيفة من قرصان مغامر ، تاجر باسلابه وغنائمه مبادلة مع الحكام ، ثم انتهى بضم أسطوله الى الباب العالى ، وكوفىء بأن عينه خاقان البحرين أمير امراء البحر برتبة قبطان (قبودان) باشا .

وهذا المغامر تركى، أو البانى ، ولد بجزيرة لسبوس لأب فخرانى رزق بأربعة أبناء ، عملوا كلهم على مراكب القرصنة ، وهم اليـاس ، واسحق ، وبابا عروج ، وخيرالدين .

أشدهم مغامرة كان بابا عروج ، وقع فى أسر فرسان الصليب أصحاب جزيرة رودس ، وحين أفلت من الاسر لجأ الى شاطىء افريقية ، وجعل من جزيرة « جربة » (فى مواجهـة قابس بالجنوب التونسى) مركز قيـادة لقرصانه ، وأغرى الامير الحفصى على اشراكه فى السبايا والغنائم .

لحق به أخوه خيرالدين ، وذاعت شهرة ولدى صانع الجرار ، وأشاعا الفزع على طول البحر المتوسط بعرضه من جراء المغامرات الجريئة ، وقطعهما الطريق على السفن المسيحية .

واستنجد « شيخ » الجزائر بانشقيقين ليخلصاه من ربقة الاسبان ، وعندما وصل المغامران الى الجزائر وجدا ان الاسبان يحتلون واحدة من الجزر القائمة بمدخل المرفأ الكبير ، ورأى بابا عروج ، بما طبع عليه من انتهاز الفرص والغدر ، أن يتخلص من الشيخ بقتله وأعلن نفسه ملكا على النواحى ومد سيطرته على الشاطىء حتى دخل تلمسان فحوصر فيها ، ثم هرب منها غربا الى وجدة ، حيث أدرك وقتل جزاء وفاقا على غدره .

تولى خيرالدين قيادة أسطول القرصنة ودخل الجزائر فاتحا ، وبدأ منها الشهرة التى طبقت آفاق «الفرنجة تحت اسم ذى اللحية الحمراء (باربا روسا) .

وبضم أسطوله الى اسطنبول ارتقى الى قيادة البحرية العثمانية كما سبقت الاشارة اليه ، وتقدم بأسطوله الى تونس فاحتلها ، وأنهى حكم الحفصيين (١٥٣٤ م)

وغرقلة ملاحة الدول المسيحية فى البحر المتوسط لم يقف أمامها شارلكان يهز رأسه ، فما أن استقر حكمه الامبراطورى بأوربا حتى استدار نحو الجنوب فى حملة فاشلة على الجزائر ، فاتجه بأسطوله الكبير الى قرطاجة ونجح فى انزال عشرين ألفا من عسكره فى المكان الذى احتله لويس التاسع قبل ثلاثمائة عام ، ومن قرطاجة اقتحم « حلق الوادى » لاحتلال تونس ، وتلقى معونة متوقعة من طابور خامس يتألف من الاسرى المسيحيين بداخل المدينة .

عاد خيرالدين الى اسطنبول فى الوقت الذى استرجع الحفصي عرشه تحت الحماية الاسبانية ، مع دفع الجزية للأمبراطور ، وقبول جيش يحتل « حلق الوادى » وبنزرت والمهدية .

ولم يرض شعب البربر بسلطانهم المتخاذل الذى باعهم من أجل « الكرسى » وعاد العثمانيون فحرروا المهدية وبجايا وتلمسان ، واستعادوا تونس عام ١٥٥٩م بقيادة قبطان باشا أولج على .

ولا تعنينا فى كثير أو قليل تفاصيل الحكم العثمانى فى بلاد الجزائر والايالة التونسية ، ولا كيف انتهى الى « باى » فى تونس و « داى » فى الجزائر ، وجدير بنا أن ننسى حكم الفرنسيين فى الجزائر ، وحمايتهم لتونس ومراكش ، فتلك صفحات سود من كتاب القرون الماضية ، وبخاصة القرن التاسع عشر ..

تونس ..
بين رحلتي الشباب والشيخوخة

من كل أقطار رحلتى الاخيرة الى الشمال الافريقى. فزت بأكبر نصيب فى القطر التونسى ، أقمت به شهرا قبل أن أبلغ الثلاثين ، وعدت اليه وقد اجتزت السبعين

سعدت بالاقامة فى تونس مرتين ، ومصدر سعادتى واحد : الاحساس بقرب الوطن .. فى المرة الاولى طالت غربتى عن مصر الى خمس سنوات ، فكان فى سفرى من باريس الى تونس استرواح لمصر ، واستشعار بنسيمها .. وفى المرة الثانية كنت أقترب من نهاية عبورى الطويل ، وقد غادرت باريس الى القاهرة ، عن طريق اسبانيا والشمال الافريقى ، ولم يبق بينى وبين الوطن سوى ليبيا . ولاحظ انك كلما اتجهت مشرقا من المغرب الاقصى ، قربتك اللغة التى تسمع من لهجة المصريين ، لهبوط نسبة اختلاط لغة البربر بالعربية .. واذا كنت فى سائر بلاد المغرب تسلك طريقك مع المتعلمين بالعربية الفصحى ، أو بالفرنسية ، فان صعوبة ــ وربما استحالة ــ فهم الكلام الدارج فى المغرب الاقصى ، تخف شيئا فشيئا ، كلما انحدرت من أعالى الجنوب نحو الشاطىء ، أو كلما اتجهت شرقا . فاذا بلغت تونس ، سهل عليك التخاطب بلهجتك المصرية ، وما أسرع ما يتعرفون عليك قائلين : «مصراوى» .. وقد

تستطيع ، الى حد ما ، فهم التونسية الدارجة على الاقل فى الحضر . ثم انك تحس فى تونس بجو وداعة ، اشبه بوداعة المصريين ، بل وباستعداد لطرقعة النكتة عند التونسيين ، وبقدرة على تذوق الفكاهة .. وظهر ذلك عندما ذهبت الى «شفخانة» السيارات ، استرجع العربة التى حملها البوليس بالرافعة (الونش) الى هناك ، لوقوفها فى مكان مسموح به فى وقت الازدحام ، محظور بعد ساعة معينة يجهلها السائح العابر طبعا .. تبادلت القفش مع رئيس محبس السيارات المخالفة ، وكان الابتسام بين الطرفين بديلا عن دفع الغرامة ..

كنت فى اقامتى الاولى عام ١٩٣٠ ، أعيش على مقربة من المعهد « الاقيانوغرافى » فى سلامبو ، مع فرنسيين فى الفندق وفرنسيين فى المعمل الذى اقضى به سحابه اليوم ، فاذا انتهيت من عملى مبكرا ، خرجت الى آثار قرطاجة البونيقية ــ وهى قليلة ، بعد أن خربها سبيون الافريقى ، ومن جاء بعد الرومان من الغزاة والفاتحين ــ والآثار الرومانية ، وهى كثيرة لا فى قرطاجة وحدها بل فى غير قليل من الاصقاع التونسية ، وقد أزور متحف « الآباء البيض » ، وهم أعضاء رهبنة أسسها الكردينال لافيجرى ، المبشر المشهور ، وألبس رهبانها مسوحا أبيض ، مستوحيا جلابة المغاربة ، وأنعالهم البلغة ، كنت أبادل بعضهم الحديث فى لقائى معهم بالمتحف أو وسط الآثار .

ويوم الاحد كنت أقضى النهار بطوله ، وبعض الليل ، فى تونس المدينة العتيقة ، أتناول طعامى فى مطاعمها البلدية ، وأستمع الى الفونوغراف « أبو نفير نحاس أصفر » ، وسهرت ذات ليلة فى مسرح البلدية بالمدينة الاوربية (خارج السور) فأعادتنى السهرة الى مطالع

مراهقتى ، كانت الرواية « ثارات العرب » ، وهى ترجمة وتعريب لرواية فكتور هوجو « البورجراف » بقلم نجيب حداد ، وكان التمثيل تهويشا وتلويحا بالايدى والأذرع ، وجئيرا خطابيا ، والجمهور تفوح منه روائح العنبر ، والطرابيش الحمراء المطربقة (وهى الشاشية) تتدلى منها أزرار زرقاء وسوداء تبلغ الاكتاف . وعندما رأيت فى تجوالى عددا من حمامات السوق ، تاقت نفسي الى دخول واحد منها ، ولم أك دخلت حمام السوق سوى مرة واحدة فى الطفولة ، اتماما لتقاليد الختان .

والتقيت فى الحمام بالشباب التونسى من طلاب جامع الزيتونة ، فتحدثوا الى بما يتوقعون من اضطرابات بمناسبة افتتاح « المؤتمر الافخارستى » ، فنزلت أشاهد موكب القاصد الرسولى يستقبله المقيم العام الفرنسى عند حلق الوادى ، ويركب الى يساره ، نافشا منفوخا كالديك الرومى .

ولاحظت ان الامن وكلت به فرقة من السنغاليين السود ، سيطرت على المدينة تماما ، وبلغنى انمظاهرات سارت تهتف داخل المدينة العتيقة ، وانتهت بسلام .

واخبرنى الكتبى الذى كنت أجلس بمكتبته أمام جامع الزيتونة ، فى دعابة تونسية ، ان قطة حاولت عبورطريق الموكب، فمنعها الحارس السنغالى.. بكنافة بندقيته (ونسيت الاصطلاح التونسى تعبيرا عن كعب البندقية) .

اقتنيت من مكتبة صاحبى دواوين أشعار تونسية ، والطبعة الاولى للجزء الاول من « الايام » لطه حسين ، وطبعة حديثة لقصة محمد حسين هيكل « زينب » ، وكتابا أعتز به ــ على الرغم من اصابته الشديدة

بقارضة الورق ـ هو « نخبة الزائر فى مآثر الامير عبد القادر ، وأخبار الجزائر » تأليف ابنه محمد عبد القادر الحسنى (مطبعة غرزوزى وجاوبش ، الاسكندرية ١٩٠٣) .

ولاحظت فى مكتبة صاحبى التونسى ان مجلاتنا المصورة (١٩٣٠) كانت رائجة ، ربما لمادتها ، وقطعا لما بها من صور لمتاع الحس والبصر ، وكان الكتبى يثير رغبة الزبائن بالاشارة الى ما بها من «صور نساء» : قال هذا لجزائرى قحف مستغلق اللغة ، حاولت أن أتفهم منه شيئا عن بلاده فتلعثم « عيضة » ، ولم يشجعنى الكتبى على المضى فى الحديث ، ورثى لحال أولئك الفلابة الذين أضاعهم الاستعمار .

سافرت بعد انتهاء عملى الى القيروان فقضيت فيها يومين بليلة ، زرت أهم مساجدها على مهل ، وطالعت بعض ما تيسر عن الفن المغربى ، ودعانى تاجر سجاد على العشاء بمنزله مع بعض أصحابه ، وسهرنا فى مقهى به تخت وغناء .. ورجل يرقص فى لبسة الغوانى ، ذكرنى بفؤاد الـ . . . رأيته فى صفرى يقدم فاصلا من رقص البطن بالسيرك الوطنى فى مولد « أم العواجز » .

وطبيعى ان أسعد بزيارتى الثانية لا لمجرد استقلال البلد الشقيق فحسب ، بل لروعة ما شاهدت من تجديد ، وما أحسست به من روح طموح : حارب الاستعمار ولم يتنكر لحضارة الغرب ، مثلما كنا بمصر أيام ثورة عام ١٩١٩ وما بعدها ، حينما كنا نقاوم المستعمر البريطانى ، دون أن نتخذ من ذلك ذريعة لكره الحضارة الاوربية ، كنا نشعر بحاجة مزدوجة اليها : مؤازرة الدول الغربية لنا فى قضيتنا العادلة ، وضرورة استئلافنا لحضارتها ، فهى سلاحنا الامضى فى محاربة

المستعمر ، وهى درعنا لنواكب الحضارة المعاصرة فى سلام .

تونس ، والمغرب كله ، اقرب منا الى الحضارة الاوربية ، ولا أعنى القرب الجغرافى وحده ، وانما الاتصال المعنوى كذلك ، نعم ان الطائرات طوعت السفر الى أوربا وغيرها ، ولكن ما لايدرك لاول وهلة هو ان سفر خمس ساعات فى الطائرة من ناحية التكاليف يعادل سفر ثلاثة او اربعة أيام بالبحر والقطار ، وما بين تونس وباريس ساعتان بالطائرة ، وقريب من هذا ما بين الجزائر والمغرب الاقصى والبر الاوربى ، والطريق ذو اتجاهين ، فما أيسر على طلبة العلم فى المغرب من بلوغ هدفهم فى دراسة أصول الحضارة ، وعلى السائح الاوربى ، وحتى الامريكى الذى يقضى اجازته فى أوربا ، من ان يخطف الى بلاد المغرب .

ولكى نفهم ما حدث من تطور بعيد المدى فى الاستعداد السياحى ببلاد المغرب ، نذكر ما حدث عقب الحرب الماضية . اجتمع المهتمون بتيسير السياحة واستغلال مواردها ، واتجهوا الى الشمال الافريقى كمرفق سياحى هام ، ووضعوا خططهم الاستثمارية وشيكا ، وقد لاقوا من حكومات المغرب استعدادا وقبولا ، وشاركت هذه الحكومات مشاركة فعالة فى انشاء واعداد كل ما من شانه خلق صناعة سياحية نافقة . ويجب أن نشهد لمن حملوا لواء هذا التطور من رجال المغرب بالكفاءة الممتازة ، وسرعة فى الانجاز ، وشجاعة فى مواجهة الحضارة بصدر رحب وعقل متفتح

وتونس ، بالنظر لموقعها المتوسط فوق ذلك الراس الممتد فى اتجاه أوربا ، كانت طوال تاريخها مركزا هاما

للتجارة والمبادلات الاخرى بين الشرق والغرب والشمال والجنوب .

الجديد على بتونس ، وقد التقيت فيها بأشقاء اعزاء للمرة الثانية ، هو انني رأيتهم ينعمون بالحرية والسلام ، ويخطون خطى المطمئن الواثق نحو التطور الحضارى الى أقصاه ، مسلحين بمضاء العزيمة ، وتخفف من أثقال الماضى ، دون أن يضعف ذلك من حفاظهم على تراثهم الاسلامى ، وهو عظيم فى ثرائه واصالته ، وآثارهم البونيقية والرومانية . انظر مايقوله تقرير قدم الى المؤتمر الثالث للمدن العربية عام ١٩٧١ ، بعنوان « تونس ، المدينة العتيقة » :

« ان عملية التجديد العمرانى التى يجب القيام بها ، ينبغى أن تكون أولا عملية احياء التراث ، وثانيا عملية تكسب المنطقة وظيفة جديدة ، والمهم هو اعادة بناء حى ، يكون مثاليا بمساحته وموقعه ونوع نشاطه الاقتصادى والثقافى للمدينة العتيقة فى المستقبل ، وهو مثالى بمعنى أن يؤسس بكيفية تساعدنا على ايجاد الحلول المعاصرة التى تتصل بموارد ماضية ، وبتداخل محكم للمساكن والتجهيزات العمومية والخصوصية فى الميدان الاقتصادى والمجال الثقافى » .

وفى موضع آخر من التقرير : « ونحن نعتبر ان التغيير أو الاتلاف بجهالة ، جريمة ضد التراث الثقافى القومى ، ونطالب السلطات النظر فى اتخاذ الاجراءات اللازمة ، كما نعتبر ان الدفاع عن التراث الثقافى أمر بالغ الاهمية » .

وبعده : « ويعمل الآن مختلف الاختصاصيين بارتباط وثيق مع أعضاء صيانة المدينة ، وتعاون خاص بين هذه الجمعية والمعهد القومى للآثار والفنون .

« هذا ، ومعالجة مشروع تونس — قرطاج بالتعاون مع اليونسكو ، دليل على العناية العالمية التى يختص بها تراث المعالم التاريخية بتونس ، وتلك العناية تزداد اهمية بوجود حضارة من أقدم الحضارات بالبحر الابيض المتوسط فى قرطاج على بعد بضع كيلومترات من مدينة تونس البلد الاسلامى التقليدى المحافظ على سلامته الى يومنا هذا » .

والتونسيون لم يتمكن الاستعمار الاوربى من العبث بامتلاكهم للغتهم الشريفة ، كما لم يعبث عابث بعد استقلالهم بتمكنهم من اللغة الفرنسية تمكنا جديرا بالاعجاب .

لم ألبث طويلا فى القطر التونسى بعد زيارة العاصمة ، بدأت منها طريق العودة الى الوطن مجتازا من الشمال الى الجنوب ثم الى الشرق حتى الحدود الليبية : يومين فى القيروان ويوما فى سوسة ويوما فى صفاقس، ويومين فى قابس .

كم شعرت بانشراح وأنا أشاهد أعمال الاصلاح والترميم واعادة الرونق الى جامعين من أهم الجوامع فى العالم الاسلامى : الزيتونة بتونس ، وسيدى عقبة بالقيروان .

وكلام معاد أن أزجى الثناء العاطر على الطرق السياحية بكافة بلاد المغرب ، هذه شرايين الحياة فى البلد الناهض . ذكرنى ما شهدت من تقدم سياحى بتلك البلاد الشقيقة ما سمعت بمدينة اكس — ليه — بان عام ١٩٤٦ (أى بعد نحو عامين من تحرير فرنسا) ، وقد أبديت اعجابى بالتجديد الفخم فى أجمل مدن المياه الفرنسية .

اجتمع الخبراء ووضعوا خطة اعادة البلاد الى رونقها

ونشاطها الصناعي والتجاري (لم تكن فرنسا بحاجة الى تخطيط ثقافي ، فالثقافة للشعب الفرنسي هي الماء والهواء في تخطيط الدكتور طه حسين للتعليم في مصر) .
وجاءت السياحة على رأس « الصناعات » في كشف الاولويات .

ابديت دهشتي من كلمة « الصناعة » (اندوستري) وصفا للسياحة ، نعم أن الكلمة الفرنسية تتسع لمعنى المهارة ، والمهنة ، والنشاط ، وتحويل المواد الاولية الى انتاج الثروة ، واذا قلنا الصناعات الزراعية ، واليدوية ، فلماذا لا نقول الصناعة الفندقية ، و « الصناعة السياحية ؟ »

وأضاف محدثي الفرنسي ، وهو مدير أكبر فنادق اكس : عندما تقف البلاد على أقدامها سياحيا تنفق تجارتها ، وتزدهر صناعاتها وكافة مرافقها ، من المتحف الى الملهى ، ومن المواصلات البحرية والهوائية الى المواصلات البرية ، ومن الفنادق والبنسيونات الى مدن المياه المعدنية ، والاماكن الاثرية ، ومن دور الكتب الى المكتبات وأكشاك الصحف . . . الخ .

ويروق لي أن أردد على مسمع أهل بلادي أن تطوير بلاد المغرب ، وبخاصة : تونس والمغرب الاقصى، وضعها في مقدمة البلاد السياحية في العالم .

وان تأخر بلادي في المرفق السياحي يساعد عليه المظهر الزرى للكثير من طرقاتها وشوارعها ، ولغير قليل من معالمها السياحية ، وخاصة الآثار الاسلامية والقبطية ، التي يشتملها اطار من القبح والقذارة والاهمال ، الى درجة تجعل الوصول الى بعضها حماما من التراب ، وسط كيمان القمامة تنشر عبق العفونة ، ولقد سمعت بأن بين ظهرانينا من يصد السائح عن زيارة

مقابر المماليك بالعباسية (مقابر الخلفاء فى الاصـطلاح السياحى) ، فمن ذا الذى يعبر الى تحفة قايتبـاى الرائعة ، أو مقبرة اينال ، ومدرسة برقوق ، دون أن يدفع الثمن تقززا وقرفا من الطريق اليها .

هذا كلام قاس لا تستحقه والله بلاد الخير والعطـاء والسماحة ، أم الحضارات ، منشئة اغلى وأثمن الآثار القديمة : فرعونية وقبطية واسلامية .

والعجيب أن تفكيرنا السياحى السقيم عندما حاول التطور عقب الحرب العالمية الثانية بدأ من تخيل مريض ، الا وهو : ان السائح بحاجة الى اللهو والحظ والدعارة بعد يوم مرهق من ارتياد الاماكن الاثرية (كمن يخرج بعد الاستماع الى أوبرا « دون جوفانى » لموزار ، لينهى سهرته فى ماخور) ، وان الواجب اعداد الملاهى الليلية ، بنجومها راقصات البطن والارداف .

وكان من أثر هذا التفكير المفلوك ، مفلوت العيار ، أن طريق الحجيج الفنى الى الاهرام وابو الهول ومعـابد ومقـابر سـقارة ، فى طريقـه حتمـا الى أن يعرف « ببرودوى » قاهرة المعز والدولة المملوكية العظمى .

القيروان ..
أم المغرب الرءوم

فى منتصف مارس عام ١٩٣٢ ، أقام القطر التونسي احتفالا بمرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس مدينة القيروان .

وفى احتفالات مولد النبى صلى الله عليه وسلم عام (١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م) ارتقى الرئيس الحبيب بورقيبة المنبر الخشبي العتيق ، القائم الى يمين المحراب بجامع سيدى عقبة منذ أسرة بنى الاغلب ، وألقى خطابا ضافيا ، جمع فيه بين القيروان والمغرب والعروبة ورسالة الاسلام وتحرير الاوطان .

وجاءت فى الخطاب هذه الفقرة : « القيروان مدينة ولدت فيها روح المغرب العربى الكبير ، فحلمت بالجزائر وتلمسان وفاس ، ثم حملت بها ، ثم تمخضت عنها . . . القيروان أم رءوم للمغرب العربى كله » .

اتجه عمرو بن العاص ، بعد الفراغ من فتح مصر ، الى برقة ففتحها فى العام الثانى والعشرين من الهجرة ، وكان عقبة بن نافع الفهرى واحدا من قواد جيش عمرو ، فوجهه لفتح زويلة ، واقامه حاكما عليها .

وبعد استقرار الحكم الاموى ، وجه عمرو ـ فى ولايته الاخيرة لمصر ـ معاوية بن حديج لفتح افريقية (أى القطر التونسى مع بعض ارض طرابلس شرقا ،

وقسنطينة غربا) ، فقام ابن حديج بثلاث غزوات ، قاد الثالثة منها عقبة بن نافع (٥٠ هـ ـ ٦٧١ م) وكان العزم هذه المرة تثبيت حكم الخلافة الاسلامية فى افريقية ، وانشاء حاضرة للمسلمين بالمغرب .

كان جيش عقبة يتألف من نحو عشرة آلاف مقاتل، بينهم عدد كبير من البربر الذين أسلموا ، وعدد من مشاهير التابعين (روى ان كان فيهم ثمانية عشر رجلا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم) ، اخترق الجيش فزان ، وفتح غدامس ، واتجه شمالا ، حتى بلغ موضعا وسطا بين الشاطىء وعلى مبعدة منه ليأمن غارات الروم من البحر ، وبين مرتفعات وصحارى الجنوب وقاية لجيشه من تجريدات البربر(غيرالمسلمين) اقام عقبة فيه أولى المدن الاسلامية بالمغرب ، بعد ما ركز رمحه فى ذلك الموضع وقال : هذا قيروانكم .

والقيروان فى معناها أيام الفتوح : بيت السلاح ، فيقول ابن عبد الحكم عن غزوة عبد الله بن سعد بن أبى سرح لافريقية : ورجع عبد الله الى مصر « ولم يول عليهم أحدا ، ولم يتخذ بها قيروانا » ..

أمر عقبة ببناء المسجد الجامع ، فدار للامارة ، وبنى الناس دورهم حول الجامع واستمرت حركة البناء والعمران فى نشاط كبير . . . « وشرع فى تنظيم الدواوين بالعاصمة الجديدة ، فرغم حب عقبة للفتوحات ولساحة الوغى ، فانه بقى ثلاث سنوات فى القيروان ، كرس فيها جهوده لبناء المدينة ، ليخرج متجها نحو شواطىء المحيط الاطلسى » .

الدكتور الحبيب الجنحانى : «القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية فى المغرب العربى» . تونس ١٩٦٨ .

كانت حياتها الاولى صعبة من جراء عداء البربر بزعامة كسيلة البرنسى شيخ قبيلة الاوربة من جبال اوراس ، وكسيلة هو الذى نصب كمينا لعقبة فهزم جيش القائد العربى فى عودته من شواطىء البحر المحيط فى موضع قريب من واحة بسكره واستشهد عقبة ودفن حيث قتل (٦٢ هـ - ٦٨٢ م) .

استولى كسيلة على القيروان ، وارتد الجيش الاسلامى الى برقة ، ورابط فيها .

وتقوم حملة عربية جديدة فى حكم عبد الملك بن مروان ، يقودها زهير بن قيس البلوى ، تنتصر على البربر ، ويسقط زعيم البربر قتيلا ، ثم يستشهد زهير ببرقه فى طريق عودة الجيش المنتصر ، وكان لمقتله فى دمشق وقع شديد ، مثلما كان لاستشهاد عقبة بن نافع .

ويولى عبد الملك بن مروان قيادة جيش عرمرم لحسان ابن النعمان الغسانى ، ربما كان أكبر جحفل وجهه المشرق لفتوح المغرب ، وهو الجيش الذى قضى على داهية البربر المعروفة « بالكاهنة » ، وكان نفوذها يمتد من طرابلس حتى طنجة .

واستتب الحكم الاموى لاول مرة فى افريقية ، حين اقتحم حسان مدينة « قرطاج » البيزنطية فهدمها ، ثم أسس بمحلة على مقربة منها تعرف « بترشيش » مدينة تونس .

أما القيروان ، فقد اتسع عمرانها ، وغدت حاضرة عظيمة لدول الاغالبة والفواطم والصنهاجة (بنى زيرى) وقد بلغ من سؤددها أن امتد نفوذها وحكمها الى جنوبى فرنسا ، وبعض جزر البحر المتوسط ، وحتى بعض مناطق افريقيا السوداء .

بلغت القيروان أوجها فى أسرة بنى الاغلب (القرن

التاسع الميلادى) ، وكان قيام هذه الاسرة نقطة تحول فى تاريخ المغرب ، إذ حقق استقلاله عن الخلافة فى المشرق ، والواقع ان هذه الخلافة ، بعد ولاية موسى ابن نصير ، وبعد فتح الاندلس ، لم يتعد دورها ايفاد الولاة ، وتقبل الهدايا والغنائم (ربما كان أهمها الجوارى الحسان) ، واستمرار رجال المغرب الرسميين لبس السواد ، صورة ولاء للعباسيين .

ثم لم يعد للمغرب حاجة الى الولاة ، بعد أن انتشر الاسلام وعم قبائل البربر ، وهم قوم اعزة ، لا يقبلون ضيم الولاة ، ولا عسف جيش عربى محتل .

ولد مؤسس دولة الاغالبة ابراهيم بن الاغلب بن سالم ابن عقال التميمى بالمشرق ، وقدم على المغرب صغيرا مع أسرته ، وتولى فيما بعد امارة الزاب ووصلت الى هارون الرشيد أخبار طيبة عن ولايته ، فما أن طلب ابراهيم ولاية افريقية ، حتى أجابه الرشيد وارسل اليه عهد الولاية عام (١٨٤ هـ ــ ٨٠٠ م) وابراهيم هو منشىء العباسية دارا للحكم على مبعدة غلوة من القيروان .

وابراهيم ، فيما وصفه ابن عذارى (البيان المغرب) كان فقيها أديبا شاعرا وخطيبا ، الى سلامة فى الرأى وبأس فى الحرب .

توالى حكم الاغالبة نيفا ومائة عام ، وكان ابراهيم أحسنهم سيرة وأرأفهم بالرعية ، نشبت الثورات فى عهده ، فكان يخمدها بالسياسة ، لا بالحسام .

كما كان زيادة الله الاول الملهم شخصية ، مع ميل الى العسف والعنف مما أثار عليه قواد الجيش وعماله فى بعض المناطق ، ولكنه صمد فى الحكم سبعة وعشرين عاما ، ودافع عن استقلال افريقية ، ورفض تدخل

المأمون عندما أمره بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابره .

وزيادة الله هو الآمر بفتح صقلية ، وقد أسند قيادة الجيش الفاتح الى قاضي القيروان العلامة أسد بن الفرات ـ وقد بلغ السبعين من عمره ـ فكان القائد العالم بفن القيادة العسكرية ، كما كان العمدة فى علوم الدين .

ومن مآثر زيادة الله الاول ، تولية القضاء للامام سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخى ، المولود بالقيروان، ومؤلف المدونة التى كانت أول عهد المذهب المالكى بطريقة الاستقراء والاستيضاح ، أملاها دروسا بجامع عقبة ، ويرجع الى سحنون الفضل فى نشر مذهب الامام مالك بالمغرب ، وهو المذهب السائد الى اليوم هناك .

تمنع سحنون فى قبول منصب القضاء تحرجا من تدخل الامير ، ولكن زيادة الله تعهد له باطلاق يده على أهل بيته وأسرته وحاشيته ، بله الرعية .

وكان الامير أبوابراهيم احمد الاغلبي مولعا بالعمارة ، فزاد فى بناء جامع سيدى عقبة ، وأقام الحصون والرباطات فى الثغور وحصنها بالاسوار .

وقصارى القول ، كان عصر بنى الاغلب ، أزهى عصور افريقية وحاضرتها الكبرى ، وقد انشئت فيها جامعة تحمل اسم « بيت الحكمة » ، كما قامت العمارة البحرية التى يحسب حسابها وسط البحر الابيض ، واقيمت المراجل (الصهاريج) والخزانات وأسوار العيون لنقل الماء (وهى « الحنايا » فى لغة المغرب) .

وانتهى حكم بنى الاغلب عند ظهور الشيعة وعجز زيادة الله الثالث ، آخر امرائهم ، عن صد هجوم جيشهم المؤلف من قبائل كتامة (البربرية) .

وصـل أبو عبـد الله الشيعى من المشرق ، زاعمـا الانتساب الي الامام على وفاطمة الزهراء ، وأقام بين ظهراني كتامة معلما للصبية ، وناشرا لمذهبه ، ثم أوفد جماعة من كتامة لدعوة المهدى أبي عبيد الى المغرب ، وقد وصل المهدى واستقبل بحفاوة ، واجتمع بفقهـاء القيروان وأمرهم بالدعوة له فى الجمع والاعياد .

وحينما استتب الامر للمهدى ، نكث أبو عبـد الله بعهده ، فلاقى جزاءه مقتولا .. ووجه المهدى أكثر من حملة على مصر دون أن يفلح فى فتحهـا ، انما قيض لحفيـده أبى تميم معـد ، الملقب بالمعز لدين الله أن يحشد جيشاكبيرا عقد لواءه لجوهر الصقلى سنة ٣٥١هـ فيفتح مصر ، ويؤسس القاهرة استعدادا لاستقبـال المعز وأهله ، وقد دخل أبو تميم معد وأمامه موكب من رفات أجداده .

وكان خـروج المعز الى مصر نذيرا بانتهـاء حـكم الفاطميين فى المغرب ، فقد تولى الحكم الصنهاجيون من بنى زيرى بقيادة رأسهم أبى الفتوح بلـكين (بولوجين) يوسف ، وأعظم رجال هـذه الاسرة البربرية هو أبو الفتوح المنصور بن بولوجين ، وقد أثر عنه قوله : كان أبى وجدى يأخذان الناس بالسيف ، وآخذهم بالحسنى والاحسان .

ولم تدم دولة بنى زيرى طويلا ، بسبب آخر أمرائها المعز بن باديس ، وقد نبذ الدعاء للخليفة الفاطمى ، وبايع بنى العباسى ، ونادى بمذهب مالك .

فدعا المستنصر بالله الفاطمى القبـائل العربية رباح وزعبة المقيمين بصعيد مصر للمسير الى افريقية قائلا لهم : « سرحتكم لجواز النيل ، وأعطيتـكم ما يملـكه ابن باديس العبد الآبق » ، وكانت لوزيره أبى الحسن

اليازورى كلمة فى ابن باديس الصنهاجى : « الا تعجبون من صبى بربرى مغربى يريد أن يخدع شيخا عربيا .. والله لارمينه بجيش لا أتحمل فيه مشقة » .

ولما رأت قبائل رباح وزغبة ان المراعى كثيرة فى برقة دون رعاة او أغنام ، ارسلت الى القبائل الاخرى بصعيد مصر تدعوها ، فزحف العرب الهلاليه وبنو سليم فى أعداد كالجراد ، على طرابلس ، فالجنوب التونسى ، يحرقون ويهدمون ويقتلون كل من يعترضهم ، واستولوا على أغلب مدن افريقية ، وقضوا على حضارة القيروان ، وأبادوا من لم يهرب من اهلها الى الثغور ، وحطموا صناعاتها التقليدية ونهبوا متاجرها وفنادقها (وكالاتها) واعلاقها .

وبذلك انتهى سؤدد القيروان ، وخاصة بعد انتقال الحكم الى تونس .

***

كان احساسى عندما زرت القيروان عام ١٩٣٠ ، انها بلد اخنى عليه الدهر وانها لولا صناعة الزرابى (ويطلقونها على افخر أنواع سجادهم) ، ولولا جامع عقبة بن نافع ، سيد جوامع المغرب وما يحيطه من مزارات وزوايا ومساجد أثرية دينا وفنا ، لغابت المدينة المجيدة وانطوت فى دوائر الحدثان .

والقيروان الحديثة كما رأيتها فى رحلة عام ١٩٧١ ، اتسعت خارج السور المحيط بالمدينة العتيقة ، يدلف الزائر الى هذه من باب الشهداء الى نهج على بلهوان ، يجوب دروبها ومعابرها الضيقة واسواقها المغطاة (سوق العطارين ، وسوق السكاجين .. الخ) ، وينتقل بين مزاراتها حتى يبلغ مرتقى الفن المغربى فى مطالعه بالجامع الكبير .

أكثر المدن التونسية التى عرفتها جوداً وسماحة ، كانت ايام الاحتلال الفرنسى اشـدها حرصا على دينها ولغتها ، حكى لى أصحابى عام ١٩٣٠ قصـة قيروانى واحد رضى بان يتحول مواطنا فرنسيا ، فكان منبوذا من الجميع ، وتوفى قبل زيارتى بزمن قصير. فلم يشيع جنازته متشيع ، ولا رضى حانوتى بحمل نعشه ، ولا فقيه بالقراءة عليه ، واضطر المراقب أو المقيم الفرنسى الى تكليف بعض رجـال الجيش المحتـل من المسلمين (من غير المغـاربة) أن يقوموا باجراءات جنـازتهـ ومواراته التراب .

خمسمائة أسرة تعمـل نسـاؤها فى نسيج السجاد بأنواعه على نحو ألفى نول ، مدينة هادئة تشعرك بطيب منبتها ، استقبلتنى شابا ، برحابة صـدر وكرم حين نزلت بفندقها الوحيد ، وكان بدائيا ، أشـبه بفنادق الـكوكب الزينبى ، والمشـهد الحسينى ، أما فى المرة الاخيرة فقد استقبلنى فندقها الجديد ذو الستين حجرة بحماماتها ، ومعرضـها الدائم لتجارة « الزرابى » ، وحديقة لم تبلغ بعد درجة « الفناء » ، ولدارة تمثل اللطف والادب والحضارة .

هذه هى المدينة الاسلامية العريقة التى وصفها رئيس الجمهورية التونسية فى خطابه عام ١٩٥٨ ، بأن « روح المغرب العربى ولدت فيها » ، أشهر مقدساتها جامع سيدى عقبـة ، أقدم وأوسـع وأول جامع انشىء فى المغرب ، صومعته (مئذنته) النموذج الاول للصومعات المغربية والاندلسية ، ان بذتها « الـكتبية » و « برج حسان » و « الخيرالدا » رشاقة ورقة وفنا ، فقد امتـازت منـارة القيروان عليها بالعتـاقة والرسـوخ والضخامة العابسة ، ترتفع طوابقها الثلاثة المربعة الى

نيف وثلاثين مترا ، بارتفاع ١٩ للطابق الاول ، وخمسة للطابق الثانى ، وثمانية أمتار للطابق الثالث ، يتضايق كل طابق عن سابقه ، أفاريز كل منها تشبه أسنان الاسوار (فى المساجد والرباطات والقصبات) والنسبة بين ارتفاع القاعدة الفسيحة ، واستدقاق الطابق الاعلى تضفى على هذه الصومعة مظهر القوة والجلال ، بينما القبة المضلعة الصغيرة التى تغطى الطابق الاعلى ذات أثر سحرى فى تخفيف صرامة هذه المئذنة المشهورة

ابعاد الجامع نحو السبعين مترا فى العرض والمائة والعشرين فى الطول ، صحنه الواسع مكشوف ، وتعلو بيت الصلاة المسقوف خمس قباب مضلعة ، أهمها وأجملها القبة فوق المحراب ، موقعها وصنعتها من خصائص الفن المغربى بتونس ، تتحول من الشكل المربع فى قاعدتها ، الى الاستدارة بواسطة تجويفات على شكل أصداف المحار ، وتحمل رقبة القبة ذات النوافذ والقبة مضلعة من الداخل والخارج ، مظهرها الخارجى اشبه بأضلاع القاوون (السنطاوى) .

يقوم بيت الصلاة على أساطين منقولة من المعابد القديمة ، ينيف عددها على المائة ، تعلوها باكيات ، ويتعامد على ممراتها رواق القبلة ، أى ايوان المحراب الذى تزين جانبيه ألواح الزليج ذى البريق المعدنى (بلاطات القاشانى) ، استجلبت من بغداد ، أو هى من صنع مغربى درس فى بغداد ، أما قاع المحراب فتحليه الواح من المرمر ، كل منها يختلف نقشه عن اخوانه .

والمنبر تحفة رائعة من خشب الساج الهندى ، موضعه الى يمين المحراب ، أنشأه ابراهيم بن الاغلب ، شاهدته فى زيارتى الاخيرة منقولا من مكانه ، وموضوعا فى ركن أمين بسبب ما يجرى فى سقف المسجد من

ترميم واصلاحات هامة .

والمسجد الجدير بالزيارة بعد الجامع الكبير ، هو المعروف بجامع ثلاثة البيبان ، انشأه الفقيه محمد بن حيزون المعافرى المهاجر من قرطبة (٢٥٢ هـ ــ ٨٦٦ م) ثم زاوية سيدى الصاحب ،وهو أبو زمعة البلوى ، من الصحابة المتوفى سنة ٣٤ من الهجرة ، دفن بالقيروان، ومعه شعرات من شعر الرسول ، لا يعرف تاريخ انشاء مقامه القديم (القرن الثالث الهجرى) ، انما اقام الزاوية عام ١٠٨٥ هـ حمودة باشا المرادى .

عند أقدام الوطن الجريح

بم اصف شعورى ، وقد اجتزت الحدود التونسية وانطلقت فى الفضاء والفراغ الليبى الرائع ؟

ليلتان في طرابلس وليلة فى كل من سيرتا وطبرق ..

لم تكن محلة سيرتا غير محط تقسمة الطريق الطويل بين طرابلس وبنغازى (٤٧٥ + ٥٧٠ ك . م) ، وليلتين ببنغازى ، لنتمكن من زيارة طولوميتا وقيرينة (شحات) أهم أثرين قديمين فى برقة ، تحدثت عنهما فى فصل سابق ، وليلة فى طبرق ، تأهبا لاجتياز الحدود بين برج مساعد والسلوم .. ومن هذه رأسا الى مرسى مطروح

كنت أنهب الطريق نهب الجواد العائد الى طوالته ، بلغت سرعات ما أظننى عرفتها على الارض من قبل ، شجعتنى عليها طرق ليبيا العجيبة : شريط اسفلتى وسط رمال تمتد الى مدى البصر ، لم يفترشها البساط السندسى الا فى « الجبل الاخضر » .

معرفتى بتاريخ ليبيا الإسلامى ضئيلة، بعض معلومات عن الفتح العربى ورد ذكرها فى بعض فصول هذه الرحلة . امتد ملك الموحدين اليها ، واتسعت رقعة سؤددهم فى حكم عبد المؤمن ، حتى بلغوا حدود مصر ، وكان من الجائز ان يحتلوها ، لولا دولة البطل الاسلامى صلاح الدين ، الذى قضى ربع القرن لا يكاد ينزل عن فرسه ،

بيد اني فى طرابلس ، وأمام درنة ، وفى بنغازى ، كنت أستعيد ذكرياتى من سنوات الوعى الاولى وأنا طالب بالمرحلة الابتدائية (١٩١٢) ، عندما نزل الطليان بشواطىء ليبيا ، كنا نسمع فى ذلك الوقت بحرب الاتراك ، دفاعا عن ملكهم فى طرابلس الغرب وبرقة ، وببطولة عزيز المصرى ، وكان ضابطا فى الجيش العثمانى حينذاك ، لم تكن آخر مرة فى حياتى أسمع فيها الطبل الصحفى والزمر الاعلامى عن انتصار العثمانيين على الطليان ، فأفرح مع الفارحين .

ثم يتضح لنا جميعا بأن العدو استولى على « بلاد الغرب » ، وأخرج عنها جيوش البادشاه ، ظل الله على الارض ، وحتى الحدث الذى كنت لم يفقه حكاية ظل الله هذه ، لان تربيته الدينية قومت فى نفسه الايمان بأن الله جل وعلا عن التمثيل ، بل التجسيد .

وسمعت فى وعى الشباب بطولة عمر المختار ، وجهاده الباسل ضد الفاشستية الفاشمة ، وكيف استشهد أسيرا : القى به حيا من حالق طائرة حربية .

واستعدت بقراءاتى الشذرية ان ليبيا كانت أول بلاد تحررت ، وقامت فيها حكومة مستقلة ، بفضل الامم المتحدة ، حينما قررت جمعيتها العمومية فى نوفمبر عام ١٩٤٩ ، أن تسترد ليبيا حريتها كاملة فى يناير عام ١٩٥٢ ، وانها حتى ذلك التاريخ تدار بواسطة مندوب الامم المتحدة .. كان الهولندى ادريان بيلت ، السكرتير العام المساعد ، الى جانب مجلس استشارى يتألف من مندوبين عن مصر وفرنسا وايطاليا والباكستان وبريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ، وممثلين عن اقسام ليبيا الثلاثة : برقة ، وطرابلس ، وفزان ، وعن الاقليات أجنبية (٤٦٠٠٠ ايطالى و ٢٢٠٠٠ يهودى) .

وذكرت تاريخ اكتشاف البترول فى ليبيا ، سنة ١٩٥٩ .

خرجت من ليبيا برأي بدهى ، وهو ان الشقيقة العزيزة فى مسيس الحاجة الى مضاعفة عدد سكانها دون توان ، حتى تتمكن من استغلال أرضها وسمائها وبحرها ، بما يتفق مع الثروة التى هبطت عليها من السماء نعمة ، وتفجرت من بطن أرضها ذهبا أسود ، على شريطة أن تبادر بارسال الآلاف من بعوث تعليمية الي الجامعات العربية ، فالجامعات والمعاهد الاوربية والامريكية ، فقد يغنى المال عن الجمال ، ولكنه لا يستغنى عن العقل الباحث المبدع ، ومن الخطل أن تقتصر البعثات على العلوم والتكنولوجيا والاقتصاديات ، فالروح لا تربى بالعلم وحده ، وانما بتنمية الفكر ، والاحساس بالفلسفة والتاريخ والادب والفن . فالحضارة روح وعقل وشعور، قبل أن تكون آلات وأجهزة ومصانع ومنشآت .. خطر الناحية المادية فى الحضارة انها تشترى بالمال، فاذا لم تدعم بالفكر (علما بحثا وفلسفة) . وبالفن والادب ، كانت وبالا على أهلها ، وأى وبال ..

يجب أن نذكر بلاد النفط فى منطقتنا بأن النفط كنز يفنى ، وأروع مثال حضارى لنتاج العقل والاحساس ، هو سويسرا التى لا تملك سوى الجبال ، ومنحدرات المياه والبحيرات، والمراعي الجبلية ، ومع ذلك استطاعت أن تنشىء ثروتها الطائلة على ما يحققه العقل المدبر ، والادراك العملى ، والاحساس الفنى .

هذا رأى عابر طريق ، لايزعم له قيمة ، ولا يدعى له اصالة ، ربما كان من الخير أن لا أصرح به ، لولا طيب النية ، والاحساس بآصرة الجوار والقربى ، وما استجد بين مصر وليبيا من علائق وثيقة .

عبرت ليبيا ، لا أكاد الوى على شىء ، سوى الاحساس بقرب الوطن . بلغت برج مساعد فالسلوم ، بعد مئات الفراسخ فوقطرق ليبيا الفسيحة المستوية ، لا يعوق المسرع فيها عابر طريق ، انسانا أو حيوانا .

وما أن غادرت السلوم ، حتى بدأ عذاب المسالك الوعرة ، والطرق المبهدلة التى تنتظر التمهيد والانشاء من جديد ، وقيل لى فى جمرك السلوم بأن فرج الله قريب .

ويبدو ان الطريق تحسن كثيرا كلما اقتربنا من مطروح ، كان الليل قد أرخى سدوله ، فلو لم يكن الطريق طيبا نسبيا لما استطعت مواصلة السير فى الظلام بسرعة لا بأس بها .

تذكرت اننى لم اخترق طريق السلوم ـ مطروح من قبل، فقد دخلت السلوم من البحر فى رحلات الثلاثينات على السفينة العلمية « مباحث » لدراسة منابت الاسفنج المصرى ، والكشف عن مناطق صيد الاسماك ، أما طريق مطروح ـ الاسكندرية ، فقد خبرته أكثر من مرة ، وعرفت حلوه ومره على مدى أربعين عاما .. اجتزته أول مرة لدى عودتى من واحة سيوة بسيارة فورد مكشوفة ذات اطارات بالون ، حتى فوكة أو الضبعة ، ومنها بالقطار الى الاسكندرية عام ١٩٣٢ .

اننى أعرف شواطئنا الغربية ، والشرقية (البحر الاحمر) من البحر ، أكثر مما عرفتها فوق اليابسة ، وكنت أحس بأن مستقبلا سياحيا باهرا ينتظرنا ، بل ذهب بى الامل فى ذلك الزمان الهادىء بأن ميناء هاما بمطروح يقرب السفر بيننا وبين أوربا بطريقة سحرية ، وان بالامكان التوسع الكبير فى غرس أشجار الزيتون بمثل ما جرى فى تونس . هذا ومشروع منخفض

القطارة ليس خيالا ، وتحقيقه دان قريب اذا ما انقشعت الغمة وعاد السلام الى أرض الخير والعطاء .

ثم كان لقائي بحواضر الوطن ، وقد سئمت الصحاري ، ففضلت العودة الى القاهرة بالطريق الزراعي ، لان بهجة البساط السندسي الذي يفترش الدلتا تبث في النفس راحة وهناء ، فيهما صفة الدوام ، لا يضعفهما الاعتياد ، وخاصة لدى ابن المدينة الذي لم يولد وفي فمه ملعقة من ذهب ، حتى ولا من صفيح .

كم هو وطن جدير بأبنائه ، وارجو أن تكون الاجيال الجديدة جديرة بعظمته عبر القرون الخالية .

واذا كانت رحلتي قد بدأت من باريس وبلادي تعاني أزمة حادة ، فقد انتهت الازمة على خير وانا أخترق اسبانيا ، وكانت تصلني تباعا أخبار الوطن يستقبل عهدا مستبشرا متفائلا .

والتفاؤل لا يكفي لما اصاب شرف البلاد من اذى ، مما يخيم على قلوب المصريين كابوسا مزعجا آناء الليل وأطراف النهار .. فما دام شطر الوطن محتلا ـ رباه لا أتصور المحتل يواجهنا على الضفة الآخرى من القناة ، عليه اللعنة ، وعليها اللعنة تلك القناة التي جلبت على مصر الرزايا من يوم حفرها ـ اقول : مادام شطر من الوطن محتلا ، حتى لو كان شبرا مربعا تفرك رماله اقدام الغاصب ، وبعد أن شاهدت الشمال الافريقي ينعم بالرخاء والسلام ، وهدوء سريرة شعوبه ، فان فرحة اللقاء تعكرها الحسرة الوخازة ، والحزن الدفين .

حزن على وفاة أمي سنة الهزيمة ، وبعدها بشهر ونصف . ياما رددت في نفسي : ماتت أمي ومات وطني في ظرف شهرين .. كان عام ١٩٦٧ في أرجاء نفسي سنة الكرب والبلاء ، عام كربلاء الحسين الشهيد .

عدت وما فتىء الوطن يحثو التراب فوق رأسه حزنا على ما ضاع من ارضه ، ومن استشهد من شبابه ، ومن شتت من كرام أهله .

متى يارب ترفع عن كاهل وطنى الملمات ، أنت العلى القدير ..

هبنا من لدنك السلام « دونا نوبس باسم » .

القاهرة ١٩٧٢

فهرس

٥ سبتمبر

ترقبوا..

العدد القادم

من :

كتاب الهلال

سحر الغناء العربي

حديث كالنغم.. وهمس كالموسيقى

للكاتب الفنان

كمال النجمي

احجز نسختك مقدما • الثمن ١٠ قروش

انتظروا
العدد
القادم
من :



روايات الهلال

أجمل ما كتب القصص العالمي

بريخت

الأم الشجاعة

ترجمة
شفيق مقار

روايات الهلال .. أجمل ما يزين مكتبتك

احجز نسختك مقدما • الثمن ١٠ قروش

العدد القادم

من

الهلال

قمة المجلات الثقافية في العالم العربي

أول سبتمبر

فلاسفة الإسلام

الفلسفة طريق إلى الله - فلاسفة الإسلام المعاصرون
الزهاوي الشاعر الفيلسوف - إخوان الصفا
الغزالي ورأيه في الفلاسفة - شهداء الفلسفة في الإسلام
ابن سينا - أبو العلاء - العقاد

مع أجمل الشعر والقصص ... والنقد
دراسات عن أعلام القصة ..

البواسق الأربعة: السباعي - الشاروني - جوهر - إدريس

العدد ينفد يوم صدوره - فاحجز نسختك مقدما - ١٠ قروش

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٢
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :
Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL

هذا الكتاب

عرف المؤلف رحالة في المكان والزمان ، بكتبه : سندباد عصري » و « سندباد الى الغرب » ، و « حديث السندباد القديم » ، و « سندباد في رحلة الحياة » ، و « سندباد مصري » .. رحلات المكان حول بحر الهند ، وفي الخليج العربي ، وفي بلاد الحضارة الغربية .. ورحلات الزمان تصعيد في تاريخ مصر كله ، وعودة الى ... الملاحة العربية في البحار الشرقية ، ومصادر رحلات السندباد السبع ، في كتب الجغرافيا العربية والعجائب .

وهذا الكتاب رحلة سندبادية جديدة ، قام بها كاتبها من باريس بالسيارة يوم ١٧ مايو ١٩٧١ وبلغ القاهرة يوم اول يولية .. اخترق فرنسا ، واسبانيا ، وبلاد المغرب الاقصى ، والجزائر ، وتونس ، وليبيا ، في ستة اسابيع ، قطعت فيها السيارة عشرة الاف كيلو متر . يحدثنا الرحالة عن انطباعاته من الاندلس الاسلامية ، وبلاد المغرب الكبير ، واثر حضارة المشارقة في حضارة الأندلس ، والعلاقات الحضارية بين الأندلسية والمغاربية ، والدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب ، من عرب وبربر .

صور ... رائعة ، لرحالة عرف بحرصه على رؤية الغابة قبل ... ارها .. لا يصور حاضر بلاد الا امام خلفية مضيئة او مظلمة من تاريخها ..

١٠ قروش